شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL
32101 015658030

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

JUN 15 2014

Ibn Abī al-Ḥadīd

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثالث عشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

2264
.1067
.741
1985
Juz^c 8

2274
.8758
.741
1985
Juz 8

2264
.1067
.741
1985
Juz' 13-14

الطبعة الثانية
(١٩٦٧ م ـ ١٣٨٧ هـ)
جميع الحقوق محفوظة

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 015658030

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(٢٢٤)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى وصف بيعته بالخلافة ، وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة :

وَبَسَطْتُمْ يَدِى فَكَفَفْتُهَا ، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَىَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا ؛ حَتَّى انْقَطَعَتْ النَّعْلُ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ ، وَوُطِئَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّاىَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ .

***

الشّرحُ :

التّداكّ : الازدحام الشديد . والإبل الهِيم : العِطاش .

وهَدَج إليها الكبير : مشى مشياً ضعيفا مرتعشاً ، والمضارع يهدِج ، بالكسر .

وتحامل نحوها العليل : تكلّف المشى على مشقّة .

وحَسَرَتْ إليها الكَعاب : كشفتْ عن وجهها حِرْصاً على حضور البيعة، والكَعاب: الجارية التى قد نهَد ثديُها ، كعَبت تكعُب ، بالضمّ .

قوله : « حتى انقطع النّعل وسقط الرّداء » ، شبيه بقوله فى الخطبة الشِّقْشقيّة : « حتى لقد وُطِىء الحسَنَان وشُقّ عِطْفاىَ (١) » .

وقد تقدّم ذكر بيعتِه عليه السلام بعد قَتْلِ عثمان وإطباق الناس عليها، وكيفيّة الحال فيها ، وشُرِح شرحا يستغنَى عن إعادته .

---

(١) الجزء الأول ص ٢٠٠.

(٢٢٥)

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّ تَقْوَى ٱللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ ؛ بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ ، وَيَنْجُو ٱلْهَارِبُ ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ .

فَاعْمَلُوا وَٱلْعَمَلُ يُرْفَعُ ، وَٱلتَّوْبَةُ تَنْفَعُ ، وَٱلدُّعَاءُ يُسْمَعُ ، وَٱلْحَالُ هَادِئَةٌ ، وَٱلْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ .

وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْراً نَاكِساً ، أَوْ مَرَضاً حَابِساً ، أَوْ مَوْتاً خَالِساً ؛ فَإِنَّ ٱلْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ . زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ ، قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ ، وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ ، فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ ، وَٱحْتِدَامُ عِلَلِهِ ، وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ ، وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ ، وَدُجُوُّ إِطْبَاقِهِ ، وَخُشُونَةُ مَذَاقِهِ . فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ ، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ ، وَعَفَّى آثَارَكُمْ ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ ، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ .

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ ، وَٱلتَّأَهُّبِ وَالْاسْتِعْدَادِ ، وَٱلتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْمَاضِيَةِ ، وَٱلْقُرُونِ ٱلْخَالِيَةِ ، ٱلَّذِينَ ٱحْتَلَبُوا دِرَّتَهَا ، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا ، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا ، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا ،

وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً ، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً ، لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ ، وَلَا يَحْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ .

فاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ ، لَايَدُومُ رَخَاؤُهَا ، وَلَا يَنْقَضِي عَنَاؤُهَا ، وَلَا يَرْكُدُ بَلَاؤُهَا .

***

الشَّرح :

عِتقٌ من كلّ ملَكة ، هو مثل قوله عليه السلام : « التوبة تجبُّ ماقبلها » ، أىْ كلّ ذنب موبِق يملك الشيطان فاعله ويستحوذ عليه ، فإنّ تقوى الله تعتِق منه ، وتكفّر عقابه ، ومثله قوله : « ونَجاةٌ من كلّ هَلَكة » .

قوله عليه السلام : « والعمل ينفع » ، أى اعملوا فى دارِ التَّكْليف ،فإنّ العمل يوم القيامة غير نافع .

قوله عليه السلام : « والحال هادئة » ، أى ساكنة ليس فيها مافى أحوال الموقف من تلك الحركات الفظيعة ، نحو تطاير الصحف ، ونطق الجوارح ، وعنف السياق إلى النار .

قوله عليه السلام : « والأقلام جارية » ، يعنى أنّ التكليف باقٍ ،وأنّ الملائكة الحَفَظة تكتب أعمال العباد ، بخلاف يوم القيامة ، فإنه يبطل ذلك ، ويستغنى عن الحفظة لسقوط التكليف .

قوله : « عمراً ناكسا » ، يعنى الهرَم ، من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ (١) ، لرجوع الشيخ الهرِم إلى مثل حال الصبىّ الصغير فى ضعف العقل والبنية.

---

(١) سورة يس ٦٨ .

والموت الخالس : المختطِف . والطِّيّات : جمع طِيَّة بالكسر ، وهى منزل السفر .

والواتر : القاتل ، والوِتْر ، بالكسر : الذَّحْل .

وأعلقتكم حبائله : جعلتكم معتلِقين فيها ، ويروى : « قد عَلِقَتْكم » بغير همز .

وتكنّفتكم غوائله : أحاطت بكم دواهيه ومصائبه . وأقصدتكم : أصابتكم .

والمعابل : نصال عِراض ، الواحدة مِعْبَلة ، بالكسر .

وعَدْوته ، بالفتح : ظُلمه . ونَبْوَته : مصدر نَبَا السَّيف ، إذا لم يؤثِّر فى الضريبة .

ويوشِك ، بالكسر : يقرب . وتَغْشاكم : تحيط بكم .

والدَّواجى : الظُّلَم ، الواحدة داجية . والظُّلل : جمع ظُلّة ، وهى السحاب . والاحتدام : الاضطرام . والحنادس : الظلمات .

وإرهاقه : مصدر أرهقته ، أى أعجلته ، ويروى : « إزهاقه » بالزاى .

والأطباق : جمع طَبَق ، وهذا من باب الاستعارة ، أى تكاثف ظلماتها طبق فوق طبق .

ويروى : « وجُشوبة مذاقه » بالجيم والباء ، وهى غلظ الطعام .

والنَّجِىّ : القوم يتناجَوْن . والندىّ : القوم يجتمعون فى النادى .

واحتلبوا دِرّتها : فازوا بمنافعها ، كما يحتلب الإنسان اللَّبَن .

وهذه الخطبة من محاسن خطبه عليه السلام ، وفيها من صناعة البديع ما هو ظاهر للمتأمِّل .

* * *

الأصل :

منها فى صفة الزهاد :

كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا ، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا ،

عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ ، تُقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْآخِرَةِ ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ ، وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ .

***

الشرح :

بين ظهرانَيْ أهل الآخرة ، بفتح النون ، ولا يجوز كسرها ، ويجوز « بين ظهرَيْ أهل الآخرة » ، لو روى ، والمعنى فى وسطهم .

قوله عليه السلام : « كانوا قوما من أهل الدنيا وليسوا من أهلها » ، أى همْ من أهلها فى ظاهر الأمر وفى مرأى العيْن وليسوا من أهلها ، لأنه لا رغبة عندهم فى ملاذّها ونعيمها ، فكأنّهم خارجون عنها .

قوله : « عملوا فيها بما يبصرون » ، أى بما يروْنه أصلح لهم ، ويجوز أن يريد أنّهم لشدّة اجتهادهم قد أبصروا المآل ، فعملوا فيها على حسب ما يشاهدونه من دار الجزاء ، وهذا كقوله عليه السلام : « لو كُشِف الغطاء ما ازددت يقينا » .

قوله عليه السلام : « وبادروا فيها ما يحذرون » ، أى سابقوه ، يعنى الموت .

قوله عليه السلام : « تُقلّب أبدانهم » ، هذا محمول تارة على الحقيقة ، وتارة على المجاز ، أما الأول فلأنّهم لا يخالطون إلّا أهلَ الدين ولا يجالسون أهل الدنيا ، وأمّا الثانى فلأنّهم لما استحقُّوا الثواب كان الاستحقاق بمنزلة وصولهم إليه ، فأبدانُهم تتقلّب بين ظهرانَيْ أهل الآخرة ، أى بين ظهرانَيْ قوم هم بمنزلة أهل الآخرة ، لأنّ المستحقَ للشىء نظيرٌ لمن فعل به ذلك الشىء .

ثم قال : هؤلاء الزّهّاد يرون أهل الدنيا إنما يستعظمون موت الأبدان ، وهم أشدُّ استعظاما لموت القلوب ، وقد تقدّم من كلامنا فى صفات الزهاد والعارفين مافيه كفاية .

(٢٢٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بذى قار ، وهو متوجّه إلى البصرة ، ذكرها الواقدىّ فى كتاب « الجمل » :

فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ ، وَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ ، فَلَمَّ ٱللهُ بِهِ الصَّدْعَ ، وَرَتَقَ بِهِ ٱلْفَتْقَ ، وَأَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِى ٱلْأَرْحَامِ ، بَعْدَ ٱلْعَدَاوَةِ ٱلْوَاغِرَةِ فِى الصُّدُورِ ، وَالضَّغَائِنِ ٱلْقَادِحَةِ فِى ٱلْقُلُوبِ .

* * *

الشرح :

ذو قارٍ : اسم موضع قريب من البصرة ، وفيه كانت وقْعة للعرب مع الفرس قبل الإسلام .

وصدَع بما أمر به ، أى جهر ، وأصل الصَّدْع الشقّ .

ولمّ به : جمع . ورتق : خاط وألحم .

والعداوة الواغرة : ذات الوغْرة ، وهى شدة الحرّ .

والضغائن : الأحقاد .

والقادحة فى القلوب ؛ كأنها تقدح النار فيها كما تقدح النّار بالمِقْدَحة .

(٢٢٧)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمعة ، وهو من شيعته ، وذلك أنه قدم عليه فى خلافته يطلب منه مالا ، فقال عليه السلام :

إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ ، وَإِلَّا فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ .

***

الشرح :

[عبد الله بن زمَعة ونسبه]

هو عبد الله بن زمَعة ، بفتح الميم ، لا كما ذكره الراوندىّ ، وهو عبد الله بن زمَعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَىّ .

كان الأسود من المستهزئين الّذين كفى الله رسوله أمرهم بالموت والقتل ، وابنه زمَعة ابن الأسود ، قُتِل يوم بدر كافراً ، وكان يدعى زاد الركب ، وقتل أخوه عُقَيل بن الأسود أيضاً كافرا يوم بدْر ، وقتل الحارث بن زمَعة أيضاً يوم بدر كافرا ، والأسود هو الذى سمع امرأة تبكى على بعير تضلّه بمكة بعد يوم بدر ، فقال :

أتبْكى أنْ يَضِلَّ لها بعيرٌ ويمنعُها من النّوم المجودُ (١)

---

(١) الأبيات فى ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ٢ : ٨٧٣ .

ولا تبكى عَلَى بَدْرٍ ولكنْ عَلَى بَدْرٍ تقاصَرَتِ الجدودُ
أَلَا قَدْ سادَ بعدهمُ أناسٌ ولولا يومُ بدرٍ لم يسودُوا

وكان عبدالله بن زَمَعة شيعةً لعلىّ عليه السلام . ومن أصحابه ؛ ومن ولد عبد الله هذا أبو البخترىّ القاضى ؛ وهو وهْب بن وهب بن كبير بن عبد الله بن زَمَعة ، قاضى الرشيد هارون بن محمد المهدىّ ،وكان منحرفاً عن علىٍّ عليه السلام ، وهو الذى أفتى الرشيد ببطلان الأمان الذى كتبه ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وأخذه بيده فمزّقه .

وقال أميّة بن أبى الصلت يرثى قتلى بدر ، ويذكر زَمَعة بن الأسود :

عَيْن بكّى لنوفلٍ ولعمرٍو ثم لا تبخَلِى على زَمَعَهْ (١)

نوفل بن خويلد من بنى أسد بن عبد العُزّى ، ويعرف بابن العدويّة ، قتله على عليه السلام ، وعمرو أبو جهل بن هشام ، قتله عوف بن عَفْراء ، وأجهز عليه عبد الله ابن مسعود .

قوله عليه السلام : «وجَلْب أسيافهم» أى ماجلبتْه أسيافهم وساقته إليهم ، والجَلَب : المال المجلوب . وجَناة الثمر مايُجْتَنَى منه ، وهذه استعارة فصيحة .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠٧ ـ بشرح الشيخ محمد محي الدين ؛ ورواية البيت فيه :

عَيْنُ بَكّى بالمسبلاتِ أبا الحا رثِ لَا تَذْخَرِى عَلَى زَمَعَهْ

(٢٢٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ ٱللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ ، فَلَا يُسْعِدُهُ ٱلْقَوْلُ إِذَا ٱمْتَنَعَ ، وَلَا يُمْهِلُهُ ٱلنُّطْقُ إِذَا ٱتَّسَعَ ، وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ ٱلْكَلَامِ ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ .

وَٱعْلَمُوا رَحِمَكُمُ ٱللهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ ٱلْقَائِلُ فِيهِ بِٱلْحَقِّ قَلِيلٌ ، وَٱللِّسَانُ عَنِ ٱلصِّدْقِ كَلِيلٌ ، وَٱللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ ، أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى ٱلْعِصْيَانِ ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى ٱلْإِدْهَانِ ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ ، وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ ، لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ ، وَلَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ .

* * *

الشرح :

بَضْعة من الإنسان : قطعة منه ، والهاء فى « يسعده » ترجع إلى اللسان .

والضمير فى « امتنع » يرجع إلى الإنسان ، وكذلك الهاء فى « لا يمهله » يرجع إلى اللّسان .

والضمير فى « اتسع » يرجع إلى الإنسان ، وتقديره : فلا يُسعِد اللسان القول إذا امتنع الإنسان عن أن يقول ، ولا يمهل اللسان النطق إذا اتّسع للإنسان القول ، والمعنى : إن اللسان آلةٌ للإنسان ، فإذا صرفه صارفٌ عن الكلام ، لم يكن اللسان

ناطقاً ، وإذا دعاه داعٍ إلى الكلام نطق اللّسان بما فى ضمير صاحبه .

وتنشّبت عروقه ، أى علِقت ، وروى : « انتشبت » ، والرواية الأولى أدخل فى صناعة الكلام ، لأنّها بإزاء تهدّلت ، والتهدّل : التدلّى ، وقد أخذ هذه الألفاظ بعينها أبو مسلم الخراسانى ، فخطب بها فى خطبةٍ مشهورة من خطبه .

***

[ذكر من أرتج عليهم أو حَصِروا عند الكلام]

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام فى واقعة اقتضت أن يقوله ، وذلك أنه أمر ابن أخته جَعْدة بن هُبيرة المخزومىّ أن يخطب الناس يوما ، فصعد المنبر ، فحِصر ولم يستطع الكلام ، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فتسنّم ذرْوة المنبر ، وخطب خطبة طويلة ، ذكر الرضىّ رحمه الله منها هذه الكلمات ، وروى شيخنا أبو عثمان فى كتاب " البيان والتبيين " ، أنّ عثمان صعِد المنبر فأرتج عليه فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل ، أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتيكم الخطبة على وجهها »[١] . ثم نزل .

قال أبو عثمان : وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : صعد ابن لعدىّ[٢] بن أرطاة المنبر ، فلمّا رأى الناس حَصِر فقال : « الحمد لله الذى يُطعم هؤلاء ويسقيهم »[٣] .

وصعد رَوْح بن حاتم المنبر ، فلمّا رأى الناس قد رشقوه[٤] بأبصارهم ، وصرفوا أسماعهم

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ .
(٢) كذا فى الأصول ؛ وفى البيان والتبيين : « صعد عدىّ بن أرطاة » .
(٣) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٩ .
(٤) البيان : « شفنوا أبصارهم » ، والشفن : أن يرفع المرء طرفه ناظرا إلى الشىء كالمتعجب له .

نحوه ، قال : « نكّسوا رءوسكم ، وغضّوا أبصاركم ، فإنّ أوّل مركب صَعب ، فإذا يسّر الله عزّ وجلّ فَتْحَ قُفْلٍ تيسّر »[١] . ثم نزل .

وخطب مُصْعب بن حيّان أخو مقاتل بن حيّان خطبة نكاح فحصر ، فقال : « لقّنوا موتاكم لا إله إلا الله » ، فقالت أمّ الجارية : عجّل الله موتك ، ألهذا دعوناك[٢] !

وخطب مرْوان بن الحكَم فحصِر ، فقال : « اللهمّ إنّا نحمَدك ونستعينك ، ولا نشرك بك » .

ولما حَصِر عبد الله بن عامر بن كُريز على المنبر بالبصرة — وكان خطيبا — شَقّ عليه ذلك ، فقال له زياد بن أبيه ، وكان خليفته : أيها الأمير لا تجزْع ، فلو أقمت على المنبر عامّة مَنْ ترى أصابهم أكثر ممّا أصابك . فلمّا كانت الجمعة تأخّر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس : إنّ الأمير اليوم موْعوك ، فقيل لرجل من وجوه أمراء القبائل : قم فاصعَد المنبر ، فلما صعد حَصِر ، فقال : الحمد لله الذى يرزق هؤلاء . ، وبقىَ ساكتا ، فأنزلوه ، وأصعدوا آخر من الوجوه ، فلما استوى قائما قابل بوجهه النّاس ، فوقعت عينه على صَلْعة[٣] رجل ، فقال : أيها الناس ، إنّ هذا الأصلع قد منعنى الكلام ، اللهمّ فالْعَن هذه الصلعة . فأنزلوه . وقالوا لوازع اليشكرى : قم إلى المنبر فتكلّم ، فلمّا صعد ورأى الناس قال : أيها الناس إنى كنت اليوم كارها لحضور الجمعة ، ولكن امرأتى حملتنى على إتيانها ، وأنا أشهدكم أنها طالق ثلاثا ، فأنزلوه ، فقال زياد لعبد الله بن عامر : كيف رأيت ؟ قم الآن فاخطب النّاس[٤] .

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٤٩ . (٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ .
(٣) الصلعة : موضع الصلع وهو انحسار شعر مقدم الرأس .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٥١ .

وقال سهل بن هارون : دخل قُطْرب النحويّ على المخلوع[١] ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، كانت عِدتُك أرفع من جائزتك ـ وهو يتبسّم ـ فاغتاظ الفضل [بن الربيع][٢] فقلت له : إنّ هذا من الحَصَر والضَّعف ، وليس من الجَلَد والقوّة ، أما تراه يفتلُ أصابعه ويَرشح جبينُه[٣] !

ودخل معبد بن طوْق العنبريّ على بعض الأمراء ، فتكلّم وهو قائم فأحسن ، فلمّا جلس تَلَهْيَعَ[٤] في كلامه ، فقال له : ما أظرفك قائماً ، وأمْوَقَك[٥] قاعدا ! قال : إنى إذا قُمت جَدَدْت ، وإذا قعدت هَزَلت ، فقال : ما أحسن ما خرجت منها[٦] !

* * *

وكان عمرو بن الأهتم المِنْقريّ والزِّبرقان بنُ بدْر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فسأل عليه السلام عَمْراً عن الزبرقان فقال : يا رسولَ الله ؛ إنّه لمانعٌ لحوْزتِه ، مطاعٌ فى أدانِيه[٧] ، فقال الزِّبرقان : حسدنى يا رسول الله ! فقال عمرو : يا رسول الله ، إنه لزمِر[٨] المروءة ، ضيّق العطن ، لئيم الخال . فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى وَجْه عمرو ، فقال : يا رسول الله ؛ رضيتُ فقلت أحسن ما علمتُ ، وغضبتُ فقلت أقبحَ ما علمت ، وما كذبتُ فى الأولى ، ولقد صدقتُ فى الأخرى . فقال عليه السلام : إنّ من البيان لسحراً[٩] .

وقال خالد بن صَفْوان : ما الإنسان لولا اللّسان إلّا صورة ممثّلة أو بهيمة مهملة .

---

(١) الخليفة المخلوع هو الأمين .
(٢) من البيان والتبيين .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٤٦ .
(٤) تلهيع : أفرط ، وفى البيان « تتعتع » .
(٥) اللسان : « أموتك » .
(٦) البيان والتبيين ١ : ٣٤٨ ، واللسان ١٠ : ٢٠٣ .
(٧) الميدانى : « أدنيه » .
(٨) زمر المروءة : قليلها .
(٩) الميدانى ١ : ٧ .

وقال ابن أبى الزّناد : كنت كاتباً لعمر بن عبد العزيز ، فكان يكتب إلى عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فى المظالم فيراجعه ، فكتب إليه : إنه يخيّل إلىّ أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلاً شاة لكتبت إلىّ : أضأنا أم معزا ؟ فإذا كتبتُ إليك بأحدهما ، كتبت إلىّ : أذكرا أم أنثى ! وإذا كتبت إليك بأحدهما ، كتبت إلىّ : صغيراً أم كبيراً ! فإذا كتبتُ إليك فى مظلمة ، فلا تراجعنى والسلام [١] .

وأخذ المنصور هذا فكتب إلى سلْم بن قتيبة عامله بالبصرة يأمره بهدْم دور مَنْ خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وعَقْر نخلهم ، فكتب إليه : بأيّهما أبدأ [بالدّور أم بالنّخل] [٢] يا أمير المؤمنين ؟ فكتب إليه : لو قلت لك بالنّخل لكتبت إلىّ بماذا أبدأ ؟ بالشُّهريز أم بالبَرْنىّ [٣] ! وعزله ، وولى محمد بن سليمان [٤] .

* * *

وخطب عبد الله بن عامر مرّة فأرتج عليه ، وكان ذلك اليوم يوم الأضحى ، فقال : لا أجمع عليكم عيًّا ولؤما : مَنْ أخذ شاة من السُّوق فهى له وثمنها علىّ .

وخطب السّفّاح أوّل يوم صعد فيه المنبر فأرتج عليه ، فقام عمّه داود بن علىّ ، فقال : أيّها النّاس إنّ أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قولُه فيكم فعله ، ولأثر الأفعال أجْدَى عليكم من تشقيق المقال ، وحسبكم كتاب الله علما فيكم ، وابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله خليفةً عليكم .

قال الشاعر :

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٨٠ . (٢) من البيان والتبيين .
(٣) الشهريز : ضرب من التمر ، والبرنىّ : ضرب من التمر أيضا أصفر مدور ؛ وهو أجود التمر .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٨٣ .

وما خيرُ مَنْ لا ينفع الدّهر عيشُه وإن مات لم يحزُن عليه أقاربُهْ
كَهامٌ على الأقصى كليلٌ لسانُه وفى بَشَرِ الأدنى حديدٌ مخالبُهْ

وقال أُحَيْحة بن الجُلَاح:

والصمت أجملُ بالفتى مالم يكن عِيٌّ يشينُهْ[(1)]
والقولُ ذو خَطَلٍ إذا مالم يكن لبٌّ يزينُهْ

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٧٥ .

(٢٢٩)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام :

روى ذُعْلب اليمامىّ عن أحمد بن قتيبة ، عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دِحْية ، قال : كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال وقد ذكر عنده اختلاف الناس :

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مبادِئُ طِينِهِمْ ، وذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا ، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا ، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ ؛ وعَلَى قَدْرِ اخْتِلافِها يتفاوَتُون ، فتَامُّ الرُّوَاءِ ناقصُ الْعَقْلِ ، ومادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ . وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بعيدُ السَّبْرِ ، ومعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيبَةِ ، وتائهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ .وَطَلِيقُ اللِّسانِ حَدِيدُ الْجَنانِ .

* * *

الشَّرْحُ :

ذعلب وأحمد وعبد الله ومالك ، رجال من رجال الشِّيعة ومحدّثيهم. وهذا الفصل عندى لايجوز أن يحمَل على ظاهره، ومايتسارع إلى أفهام العامّة منه ، وذلك لأن قوله: «أنّهم كانوا فِلْقة من سَبَخ أرض وعَذْبها » ؛ إمّا أن يريد به أنّ كلّ واحد من النّاس رُكّب من طين، وجعِل صورة بشرية طينيّة برأس وبطن ويدين ورجلين، ثم نفخت فيه الرُّوح كما فعل بآدم، أو يريد به أنّ الطّين الذى ركّبت منه صورة آدم فقط كان مختلطا من سَبَخ وعَذْب ، فإن أريد الأول فالواقع خلافه ، لأنّ البشر الذين نشاهدهم ، والذين بلغتنا أخبارهم لم يخلقوا من الطين كما خلق آدم ، وإنّما خلقوا من نُطَفِ آبائهم. وليس لقائل أن يقول: لعلّ تلك النُّطَف

افترقت لأنّها تولّدت من أغذية مختلفة المنبت من العذوبة والملوحة ، وذلك لأنّ النطفة لاتتولّد من غذاء بعينه ، بل من مجموع الأغذية ، وتلك الأغذية لايمكن أن تكون كلّها من أرض سَبِخة محضة فى السبخيّة ، لأنّ هذا من الاتّفاقات التى يعلم عدم وقوعها ، كما يعلم أنّه لايجوز أن يتّفق أن يكون أهل بغداد فى وقت بعينه على كثرتهم لا يأكلون ذلك اليوم إلّا السّكباج خاصة ، وأيضاً فإنّ الأرض السَّبِخة ، أو التى الغالب عليها السبخيّة ، لاتنبت الأقوات أصلا . وإن أريد الثانى ، وهو أن يكون طين آدم عليه السلام مختلطاً فى جوهره ، مختلفاً فى طبائعه ، فلم كان زيدٌ الأحمق يتولّد من الجزء السبخيّ وعمرو العاقل يتولّد من الجزء العذبى ؟ وكيف يؤثّر اختلاف طين آدم من ستّة آلاف سنة فى أقوام يتوالدون الآن .

والذى أراه أنّ لكلامه عليه السلام تأويلًا باطنا ، وهو أن يريد به اختلاف النّفوس المدبّرة للأبدان ، وكَنَى عنها بقوله : « مبادئ طينهم » ، وذلك أنّها لمّا كانت الماسكة للبدن من الانحلال ، العاصمة له من تفرّق العناصر ، صارت كالمبدأ وكالعلة له من حيث إنّها كانت علّة فى بقاء امتزاجه واختلاط عناصره بعضها ببعض ، ولذلك إذا فارقت عند الموت افترقت العناصر ، وانحلت الأجزاء ، فرجع اللطيف منها إلى الهواء ، والكثيف إلى الأرض .

وقوله : « كانوا فِلْقة من سبخ أرض وعذبها ، وحَزْن تربة وسهلها » تفسيره أنّ البارئ جلّ جلاله لمّا خلق النّفوس ، خَلَقها مختلفة فى ماهيّتها ، فمنها الزكيّة ومنها الخبيثة ، ومنها العفيفة ومنها الفاجرة ، ومنها القويّة ومنها الضعيفة ، ومنها الجريئة المقدِمة ، ومنها الفَشْلة الذليلة [(١)] ، إلى غير ذلك من أخلاق [(٢)] النفوس المختلفة المتضادّة .

ثم فسّر عليه السلام وعلّل تساوى قوم فى الأخلاق وتفاوت آخرين فيها ، فقال :

---

(١) ساقطة من ا .

(٢) ا : « اختلاف » .

إنّ نفس زيد قد تكون مشابهةً أو قريبة من المشابهة لنفس عمرو ، فإذا هما فى الأخلاق متساويتان ، أو متقاربتان ، ونفس خالد قد تكون مضادّة لنفس بكْر أو قريبة من المضادّة ، فإذا هما فى الأخلاق متباينتان أو قريبتان من المباينة .

والقول باختلاف النفوس فى ماهيّاتها هو مذهب أفلاطون ، وقد اتَّبعه عليه جماعة من أعيان الحكماء ، وقال به كثير من مثبِتى النفوس من متكلّمى الإسلام .

وأمّا أرسطو وأتباعه ، فإنّهم لايذهبون إلى اختلاف النفوس فى ماهيّتها. والقول الأوّل عندى أمثل .

ثم بيّن عليه السلام اختلاف آحاد الناس ، فقال : منهم من هو تام الرّواء ، لكنه ناقص العقل . والرّواء بالهمز والمد : المنظر الجميل ، ومن أمثال العرب : « ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل » .

وقال الشاعر :

عقله عقل طائرٍ　　　وهو فى خِلْقة الجملِ

وقال أبو الطيب :

وما الحسنُ فى وجهِ الْفَتَى شرفٌ له　　　إذا لم يكن فى فِعْلِه والخلائقِ [1]

وقال الآخر :

وما ينفع الفتيانَ حُسْنُ وجوهِهِمْ　　　إذا كانت الأخلاق غيرَ حِسانِ
فلا يغررَنْك المرء راق رُواؤه　　　فما كلّ مصقول الغِرَارِ يمانى

(١) ديوانه ٢ : ٣٢٠ .

ومن شعر الحماسة :

لَقَوْمِيَ أرْعَى للعُلاَ مِنْ عِصَابَةٍ   من النّاس يا حار بن عمرو تسودُها[1]
وأنتم سماءٌ يُعجِب النـاس رِزُّها   بآبدةٍ تُنْحِي شديدٍ وئيدُها[2]
تقطّع أطنـاب البيوت بحاصبٍ   وأكذب شيء برقُها ورعـودُها
فويل امّها خيـلاً بهاءً وشارة   إذا لاقتِ الأعداء لولا صدُودُهَا !

ومنه أيضاً :

وكاثِرْ بسعدٍ إنّ سعدا كثيرةٌ   ولا ترجُ من سَعْدٍ وفاء ولا نَصْرَا[3]
يروعُكَ من سَعْدِ بن زيد جسومُها   وتَزْهَدُ فيها حين تَقْتُلُها خُبْرا

***

قوله عليه السلام : « ومادّ القامة قصير الهِمّة » ؛ قريب من المعنى الأول ، إلاّ أنه خالف بين الألفاظ ، فجعل الناقص بإزاء التامّ ، والقَصِير بإزاء المادّ . ويمكن أن يجعل المعنيان مختلفين ، وذلك لأنه قد يكون الإنسان تامّ العقل ، إلا أنّ همته قصيرة ، وقد رأينا كثيرا من النّاس كذلك ، فإذَنْ هذا قسم آخر من الاختلاف غير الأوّل .

قوله عليه السلام : « وزاكى العمل قبيح المنظر » يريد بزكاء أعماله حسنَها وطهارتَها ، فيكون قد أوقع الحَسَن بإزاء القبيح ، وهذا القسم موجود فاش بين الناس .

قوله : « وقريب القعر بعيد السَّبْر » ، أى قد يكون الإنسان قصير القامة ، وهو مع ذلك داهية باقعة ، والمراد بقربِ قعره تقارب ما بين طرفيْه ، فليست بطنه بمديدة

---

(١) لقراد بن حنش الصاردى ـ ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٣٠ .
(٢) السماء هنا : الشحاب . والرز والوئيد جيعا : الصوت . ومعنى : « تنحى » تقبل .
(٣) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ٣ : ١٥٢٢ .

ولا مستطيلة ، وإذا سبرته واختبرت ما عنده وجدته لبيبا فَطِنا ، لا يوقَف على أسراره ، ولا يدرك باطنه ، ومن هذا المعنى قول الشاعر[١] :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فتزدَرِيه ... وفى أثوابه أَسَدٌ مَزِيرُ[٢]
ويعجبُك الطَّرِيرُ فتبتليهِ ... فيخلف ظنَّك الرجلُ الطَّرِيرُ[٣]

وقيل لبعض الحكماء : مابال القصارِ من الناس أدهى وأحذق ؟ قال : لقرْب قلوبهم من أدمغتهم .

ومن شعر الحماسة :

إلّا يَكُنْ عظمِى طويلاً فإنَّنى ... له بالخصال الصالحات وَصولُ[٤]
ولا خيرَ فى حُسْنِ الْجُسُومِ وطُولها[٥] ... إذا لم تَزِنْ حسنَ الْجسوم عقولُ

ومن شعر الحماسة أيضا وهو تمام البيتين المقدّم ذكرهما :

فما عِظَمُ الرجال لهم بفخْرٍ ... ولكن فخرُهُمْ كرم وخيرُ
ضِعاف الطير أطولُها جسوما ... ولم تَطُلِ البزاة ولا الصُّقُور
بُغاث الطير أكثرها فِراخا ... وأمّ الصقر مِقْلاتٌ نَزُور[٦]
لقد عَظُم البعير بغير لُبٍّ ... فلم يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البعيرُ

* * *

قوله عليه السلام : « ومعروف الضريبة ، منكر الجليبة » ، الجليبة هى الخلقُ الَّذِى

---

(١) للعباس بن مرداس ، ديوان الحماسة — بشرح المرزوق ٣ : ١١٥٣ .
(٢) المزير : الجلد الخفيف النافذ فى الأمور .
(٣) الطرير : الشاب الناعم . (٤) ديوان الحماسة ٣ : ١١٨١ — بشرح المرزوق ونسبه إلى بعض الفزاريين .
(٥) الحماسة : « ونبلها » .
(٦) المقلات ، من القلت وهو الهلاك . والنزور : القليلة الأولاد من النزر ، وهو القليل .

يتكلّفه الإنسان ويستجلبه ، مثل أن يكون جباناً بالطبع فيتكلّف الشجاعة ، أو شحيحا بالطبع فيتكلف الجود ، وهذا القسم أيضا عام فى النّاس .

ثم لما فرغ من الأخلاق المتضادة ذكر بعدها ذوِى الأخلاق والطباع المتناسبة المتلائمة، فقال : « وتائه القلب متفرق اللّب » ، وهذان الوصفان متناسبان لا متضادّان .

ثم قال : « وطليق اللّسان حديد الجَنان » ، وهذان الوصفان أيضا متناسبان ، وهما متضادان للوصفين قبلهما ، فالأوّلان ذمٌّ ، والآخران مدح .

(٢٣٠)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام : قاله وهو يلى غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يارَسُولَ اللهِ ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مالَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِنْباءِ وَأَخْبارِ السَّماءِ . خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِواكَ ، وَعَمَّمْتَ حَتَّى صارَ النَّاسُ فِيكَ سَواءً ، وَلَوْلا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ ، لَأَنْفَدْنا عَلَيْكَ ماءَ الشُّؤُونِ ، وَلَكانَ الدَّاءُ مُماطِلاً ، وَالْكَمَدُ مُحالِفاً ، وَقَلَّا لَكَ ! وَلكِنَّهُ مالا يُمْلَكُ رَدُّهُ ، وَلا يُسْتَطاعُ دَفْعُهُ !

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! اذْكُرْنا عِنْدَ رَبِّكَ ، وَاجْعَلْنا مِنْ بالِكَ !

* * *

الشرح :

بأبى أنت وأمّى ! أى بأبى أنت مفدّى وأمّى .

والإنباء : الإخبار ، مصدر أنبأ ينبئ ، وروى : « والأنباء » بفتح الهمزة جمع نَبأ ، وهو الخبر . وأخبار السماء : الوحى .

قوله عليه السلام : « خصّصت وعمّمت » ، أى خصّت مصيبتك أهل بيتك حتى إنهم لا يكترثون بما يصيبهم بعدك من المصائب ، ولا بما أصابهم من قَبْل ، وعمّت هذه

المصيبة أيضا النّاس ، حتى استوى الخلائق كلُّهم فيها ، فهى مصيبة خاصّة بالنسبة ، وعامّة بالنسبة .

* * *

ومثل قوله : « حتى صرت مسلّيا عمّن سواك » قول الشاعر :

رُزِئنا أبا عمرٍ ولا حىَّ مثلُه ... فلله درُّ الحادثات بمن تقعْ !
فإن تكُ قد فارقتنا وتركتَنا ... ذوِى خَلّة مافى انسدادٍ لها طمعْ
لقد جرَّ نفعا فقدُنا لك أنّنا ... أمنّا على كلّ الرزايا من الجزَعْ

وقال آخر :

أقول للموتِ حين نازله ... والموت مِقْدامة على البهَمِ
اُظفَرْ بمن شئتَ إذ ظفرتَ به ... ما بعد يحيى للموت من ألمِ

ولى فى هذا المعنى كتبته إلى صديق غاب عنى من جملة أبيات :

وقد كنت أخشى من خطوبٍ غوائلٍ ... فلمّا نأى عنّى أمنتُ من الحذَرْ
فاعجب لجسمٍ عاش بعد حياتِهِ ... واعجب لنفعٍ حاصل جرّه ضررْ

* * *

وقال إسحاق بن خَلَف يرثى بنتا له (١) :

أمست أميمة معمورا بها الرَّجمُ ... لقًا صعيدٍ عليها التّرب مرتكمُ (٢)
ياشِقّة النّفسِ إنّ النفس والهةٌ ... حرّى عليك ، وإنّ الدّمع منسجمُ (٣)
قد كنتُ أخشى عليها أن تُقدِّمَنِي ... إلى الحِمام فيبدى وجهَها العدمُ
فالآن نمتُ ، فلا همٌّ يؤرّقُنِي ... تهدا العيون إذاما أودت الحُرَمُ (٤)

---

(١) الكامل ٤ : ٢٠ .
(٢) الرجم : القبر ، والملق : الشيء الملق .
(٣) الشقة : نصف الشيء .
(٤) أودت : هلكت .

للموت عنـدى أيادٍ لست أكفرُها أحيـا سروراً وبى مما أتى ألمُ

***

وقال آخر :

فلو أنها إحـدى يدىَّ رزيتُها ولـكن يدى بانت على إثرها يدِى
فآليتُ لا آسى على إثر هالكٍ قدِى الآن من حُزْنٍ على هالكٍ قدِى

***

وقال آخر :

أجارىَ ما أزداد إلّا صَـبابة عليكَ ؛ وما تزداد إلّا تنائيـا
أجارىَ لو نفس فـدت نفسَ مَيِّتٍ فديتُـك مسرورا بنفسِى وماليـاَ
وقد كنت أرجو أن أملّاك حقبـة فحالَ قضاءُ الله دونَ رجائيـا
ألا فليمُتْ مَنْ شاء بعـدك إنّما عليك من الأقدار كان حـذاريا

***

وقال آخر :

لتغـدُ المنايا حيث شاءت فإنّها محلّـلة بعـد الفتى ابن عَقِيلِ
فتًى كان مولاه يحـلّ بنجوةٍ فحلّ الموالى بعـده بمسيلِ

***

قوله عليه السلام : « ولـكان الداء مماطلا » ؛ أى مماطلا بالبرء ، أى لا يجيب إلى الإقلاع .

والإبلال : الإفاقة .

***

[ذكر طرف من سيرة النبي عليه السلام عند موته]

فأما وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وما ذكره أرباب السيرة فيها فقد ذكرنا طرفا منه فيما تقدّم ؛ ونذكر هاهنا طرفا آخر مما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى تاريخه .

قال أبو جعفر : روى أبو مويهبة[1] مولَى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال: أرسل[2] إلىّ رسول الله صلى الله عليه وآله فى جوف الليل ، فقال : « ياأبا مُوَيهبة ، إنّى قد أمِرْتُ أن أستغفرَ لأهل البقيع ،فانطلق معى » ، فانطلقت معه ، فلمّا وقف بين أظهرهم، قال : « السّلام عليكم ياأهلَ المقابر ، ليهنِ لكم ماأصبحتُمْ فيه مما أصبح النّاس فيه ! أقبلتِ الفِتَن كَقِطع اللّيل المظلم ، يتبع آخرُها أوّلَها ، الآخرة شرٌّ من الأولى » . ثم أقبل علىّ ، فقال :« ياأبا مُوَيهبة إنى قد أُوهِبْتُ[3] مفاتيح خزائن الدُّنيا والخلْد فيها والجنّة[4] ، فخُيِّرتُ بينها وبين الجنّة ، فاخترت الجنّة » ، فقلت : بأبى أنتَ وأمّى ! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلْد فيها والجنّة جميعا ، فقال : « لا ياأبا مويهبَة ، اخترت لقاء ربّى » ، ثم استغفَر لأهل البقيع وانصرف ، فبدأ بوجعه الذى قبضه الله فيه[5] .

وروى محمدُ بن مسلم بن شهاب الزهرىّ ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة ، عن عائشة ، قالت : رجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله تلك اللّيلة من البقيع ، فوجدنى وأنا أجدُ صُداعاً فى رأسى ، وأقول : وارأساه ! فقال : بل أنا وارأساه ! ثم قال : « ماضرّكِ لومتِّ قبلِي ، فقمت عليكِ فكفّنتكِ ،وصلّيت عليك ودفنتكِ » ! فقلت : والله لكأنى

---

(١) ذكره الطبرى ١ : ١٧٨٠ (طبع أوربا) . فى موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : « قيل إنه كان من مولدى مزينة ، فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه » .

(٢) الطبرى : « بعثنى » .

(٣) الطبرى : « أتيت » .

(٤) الطبرى : « ثم الجنة » .

(٥) تاريخ الطبرى ١ : ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ .

بك لو كانَ ذلك رجعتَ إلى منزلى ، فأعرستَ ببعض نسائك! فتبسّم عليه السلام ، وتتامّ به وجعُه ، وهو مع ذلك يدور على نسائه ، حتى استُعِزّ[1] به ؛ وهو فى بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرّض فى بيتى ، فأذنّ له ، فخرج بين رجلين من أهله ، أحدهما الفَضل ابن العبّاس ورجل آخر ، تخطّ قدماه فى الأرض ، عاصباً رأسه حتى دخل بيته .

قال عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة : فحدّثت عبد الله بن العباس بهذا الحديث ، فقال: أتدرِى مَن الرجل الآخر ؟ قلت : لا ، قال: علىّ بن أبى طالب ، لكنّها كانتْ لاتقدرُ أن تذكره بخيروهى تستطيع. قالت : ثم غُمِرَ[2] رسول الله صلى الله عليه وآله واشتدّ به الوجع، فقال: « أهرِيقوا علىّ سبعَ قِرَبٍ من آبارشتّى حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم»، قالت: فأقعدته فى مِخْضَب لحفصة بنت عمر ، وصببنا عليه الماء حتى طفق يقول بيده : « حسبُكم حسبكم[3] » :

قلت : المخضب : المِرْكن[4] .

وروى عطاء ، عن الفضل بن عباس رحمه الله : قال : جاءنى رسُول الله صلى الله عليه وآله حين بدأ به مرضُه ، فقال : اخرج ، فخرجت إليه ، فوجدته موعوكاً قد عُصِب رأسه ، فقال : خذ بيدى ، فأخذت بيده حتى جلس على المنْبر ، ثم قال : ناد فى النّاس ، فصِحْت فيهم فاجتمعوا إليه ، فقال : « أيها الناس ، إنى أحمَد إليكم الله ، إنه قدْ دَنا منّى حقوق من بين أظهركم ؛ فمنْ كنتُ جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقدْ منه ، ومَنْ كنت شتمت له عِرْضاً فهذا عِرْضى فليستقدْ منه ، ومن كنت أخذْت له مالا فهذا مالى فليأخذْ منه ، ولا يقلْ رجلٌ : إنى أخاف الشّحناء مِنْ قِبَل رسول الله . ألا وإنّ الشّحْناء ليست من طبيعتى ولا من شأنى ، ألا وإنّ أحبّكم إلىّ مَنْ أخذ منّى حقا

---

(١) استعز به : اشتد عليه وجعه وغلبه على نفسه . (٢) غمر : اشتد به الوجع .

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٠ ، ١٨٠١ . (٤) المركن : الإجانة التى تغسل فيها الثياب .

إن كان له ، أو حلّلَنِي فلقيتُ الله وأنا طيّب النفس ، وقد أرانى أنّ هذا غيرُ مغنٍ عنّى حتى أقوم فيكم به مرارا » . ثم نزل فصلّى الظهر . ثم رجعَ فجلس على المنبر ، فعاد لمقالته الأولى فى الشّحناء وغيرها ، فقام رجلٌ ، فقال : يارسولَ الله ، إنّ لى عندك ثلاثة دراهم ، فقال : إنّا لا نكذّب قائلا ولا نستحلفه على يمين ، فيم كانتْ لك عندى ؟ قال : أتذكر يارسولَ الله يوم مرّ بك المسكين ، فأمرتنِي فأعطيته ثلاثة دراهم ؟ قال : أعطِه يافضل ، فأمرتُه فجلس ، ثم قال : « أيّها الناس مَنْ كان عنده شىء فليؤدّه ولا يقلْ : فضُوح الدّنيا ؛ فإن فضوح الدنيا أهونُ من فضُوح الآخرة » . فقام رجل فقال : يارسولَ الله ، عندى ثلاثة دراهم غللتُها فى سبيل الله ، قال : ولم غللتَها ؟ قال : كنت محتاجا إليها ، قال : خذْها منه يافضل . ثم قال : « أيّها النّاس ، مَنْ خشىَ من نفسه شيئاً فليقم أدعو له » ، فقام رجلٌ فقال : يارسولَ الله ، إنّى لكذّاب ، وإنّى لفاحش ، وإنى لنئوم . فقال : « اللّهم ارزقه صِدْقاً وصلاحاً[1] ، وأذهب عنه النوم إذا أراد » . ثم قام رجل ، فقال : يارسولَ الله ، إنّى لكذّاب ، وإنى لمنافق ، وما شىء — أو قال : وإن من شىء — إلا وقد جئته[2] . فقام عمر بن الخطاب فقال : فضحتَ نفسك أيّها الرجل ! فقال النبى صلى الله عليه وآله : « يابن الخطّاب : فضُوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقا وإيمانا وصيّر أمرَه إلى خير »[3] .

وروى عبد الله بن مسعود ، قال : نَعَى إلينا نبيّنا وحبيبُنا نفسَه قبل موته بشهر ، جمعنا فى بيت أمنا عائشة فنظر إلينا [وشدّد][4] ودمعت عينه ، وقال : مرحبا بكم ! حيّاكم الله ، رحمكم الله ، آواكم الله ، حفظكم الله ، رفعكم الله ، نفعكم الله ،

---

(١) الطبرى : « وإيمانا » . (٢) الطبرى : « جنيته » .

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠١ — ١٨٠٣ ، وبقية الخبر : « فقال عمر : كلمة ، فضحك رسول الله ، ثم قال : عمر معى وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان » .

(٤) من تاريخ الطبرى .

وفقكم الله ، رزقكم الله ، هداكم الله ، نصركم الله ، سلّمكم الله ، تقبلكم الله ! أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، إنّى لكم منه نذير وبشير ، ألّا تعلُوا على الله فى عباده وبلاده ، فإنه قال لى ولكم : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) . فقلنا : يارسولَ الله ، فمتى أجلك ؟ قال : « قد دنا الفراق ، والمنقلَب إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، والرفيقِ الأعلى وجنّة المأوى والعيش المهنّا » ، قلنا : فمن يغسّلُك يارسول الله ؟ قال : « أهلِي الأدنى فالأدنى » ، قلنا : ففيم نكفّنك ؟ قال : « فى ثيابى هذه إن شئتم ، أو فى بياض مصر ، أو حلّة يمنيّة » ، قلنا : فمَنْ يصلّى عليك ؟ فقال : « إذا غسّلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا ، على شفير قبرى ، ثم اخرجوا عنّى ساعة ، فإنّ أوّلَ مَنْ يصلّى علىّ جليسى وحبيبى وخليلى جبرائيل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم مَلَكُ الموت مع جنوده من الملائكة ، ثم ادخلوا علىّ فوجا فوجا ، فصلّوا علىّ وسلّموا ولا تؤذونى بتزكية ولا ضجّة ولا رنّة ، وليبدأ بالصّلاة علىّ رجالُ أهل بيتى ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، وأقرئوا أنفسكم منّى السلام ، ومَنْ غاب من أهلى فأقرئوه منّى السّلام ، ومَنْ تابعكم بعدى على دينى فأقرئوه منّى السلام ، فإنّى أشهدكم أنّى قد سلّمت على من بايعنى على دينى من اليوم إلى يوم القيامة » . قلنا : فمَنْ يدخلُك قبرَك يارسول الله ؟ قال : « أهلى مع ملائكة كثيرة يرونكم ولا ترونهم » (٢) .

قلت : العجب لهم كيف لم يقولوا له فى تلك السّاعة : فمَنْ يلى أمورنا بعدك ! لأنّ ولاية الأمر أهمّ من السؤال عن الدّفن ، وعن كيفية الصلاة عليه ، وما أعلم ما أقول فى هذا المقام !

قال أبو جعفر الطبرى : وَرَوى سَعِيد بن جُبَير ، قال : كان ابنُ عبّاس رحمه الله يقول :

---

(١) سورة القصص ٨٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٤ — ١٨٠٦ .

يومُ الخميس وما يومُ الخميس! ثم يبكى حتى تبلّ دموعُه الحصْباء، فقلنا له: وما يوم الخميس؟ قال: يوم اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وآله وجعُه، فقال: «ائتونى باللّوْح والدّواة - أو قال: بالكتِف والدواة - أكتب لكم مالا تضلّون بعدِى، فتنازعوا، فقال: اخرجُوا ولا ينبغى عند نبيّ أن يتنازع، قالوا: ماشأنه، أهَجَر[1]؟ استفهموه، فذهبوا يُعيدون عليه، فقال: «دعونى فما أنا فيه خير ممّا تدعونى إليه»، ثم أوصى بثلاث؛ قال: «أخرجوا المشركينَ من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفْدَ بنحوٍ ممّا كنت أجيزهم»، وسكت عن الثالثة عَمْدا، أو قالها ونسيتها[2].

وروى أبو جعفر، عن ابن عبّاس. قال: خرج علىّ بن أبى طالب عليه السلام من عندِ رسول الله صلى الله عليه وآله فى وَجَعِه الّذِى تُوُفِّىَ فيه، فقال له الناس: ياأبا الحسن، كيف أصبَح رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئا. فأخذ العبّاس بيده، وقال: ألا ترَى أنك بعد ثلاث عبدُ العصا! إنّى لأعرِف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليهِ وآله فسَله فيمنْ يكون هذا الأمر، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان فى غيرنا وصّى بنا، فقال علىّ: أخشى أن أسأله فيمنعناَها فلا يعطيناها الناسُ أبدا[3].

وروت عائشة قالت: أغمِىَ على رسول صلى الله عليه وآله والدّار مملوءةٌ من النّساء: أمّ سلمة، وميمونة، وأسماء بنت عُميس، وعندنا عمّه العبّاس بن عبدالمطلب، فأجمعوا على أن يلدُّوه، فقال العباس: لا ألدُّه فلدُّوه، فلمّا أفاق قال: مَنْ صنع بى هذا؟ قالوا: عمّك قال لنا: هذا دواء جاءنا من نحو هذه الأرض - وأشار إلى أرض الحبشة - قال: فلِمَ فعلتمْ ذلك؟ فقال العبّاس: خشينا يارسولَ الله، أن يكون بك ذات الجَنبِ، فقال: «إنّ ذلك

---

(١) هجر، أى اختلف كلامه.
(٢) تاريخ الطبرى ١: ١٨٠٦.
(٣) تاريخ الطبرى ١: ١٨٠٧.

لدالا ما كان الله ليقذفنى به ، لايبقى أحـدٌ فى البيت إلا لُدَّ إلا عمّى » . قال : فلقد لُدّت ميمونة وإنّها لصائمة لقسَم رسول الله صلى الله عليه وآله عقوبة لهم بما صنعُوا .

قال أبو جعفر : وقد وردت رواية أخرى عن عائشة ، قالت : لددْنا رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فى مرضه ، فقال : لاتلدّونى ، فقلنا : كراهية المريض للدواء ؛ فلمّا أفاق قال : لايبقى أحدٌ إلا لُدّ غير العبّاس عمّى فإنه لم يشهدكم .

قال أبو جعفر : والذِى تولىّ اللّدود (١) بيده أسماء بنت عميس .

قلت : العَجَب من تناقُض هذه الروايات ! فى إحداها أن العبّاس لم يشهد اللّدود ، فلذلك أعفاه رسول الله صلى الله عليـه وآله من أن يُلَدّ ولُدّ مَنْ كان حاضراً ، وفى إحداها أنّ العبّاس حضر لدّه عليه السلام ، وفى هذه الرواية التى تتضمّن حضور العباس فى لَدّه كلام مختلف ، فيها أنّ العباس قال : لا ألدّه ، ثم قال : فلدّ فأفاق ، فقال : مَنْ صنع بى هذا ؟ قالوا : عمّك ، إنه قال : هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لذات الجَنْب ؛ فكيف يقول : لا ألدّه ، ثم يـكون هو الذى أشار بأن يلدّ ، وقال : هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لـكذا !

وسألت النّقيب أبا جعفر يحيى بن أبى زيد البصرىّ عن حـديث اللّدود ، فقلت : أَلُدَّ علىّ بن أبى طالب ذلك اليوم ؟ فقال : معاذ الله ! لو كان لُدّ لذكرتْ عائشة ذلك فيما تذكره وتنعاه عليـه . قال : وقد كانت فاطمة حاضرةً فى الدار ، وابناها معها ، أفتراها لُدّت أيضا ، ولدّ الحسنُ والحسين ! كلّا ، وهذا أمر لم يكن ، وإنما هو حديث ولّده مَنْ ولّده تقربا إلى بعض النـاس ، والذى كان أنّ أسمـاء بنت عُميس أشارت بأنْ يُلدّ ، وقالت : هـذا دواء جاءنا من أرض الحبشة جاء به جعفر بن أبى طالب ، وكان بعلهـا ،

---

(١) اللدود ، بالفتح من الأدوية : ما يسقاه المريض فى أحد شق الفم .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ .

وساعدتها على تصويب ذلك والإشارة به ميمونة بنت الحارث ، فلدّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا أفاق أنكره ، وسأل عنه فذُكر له كلام أسماء ، وموافقة ميمونة لها ، فأمر أن تُلَدّ الامرأتان لاغير ، فلُدّتا ولم يجرِ غير ذلك . والباطل لايكاد يخفى على مستبصر .

وروت عائشة ، قالت : كثيراً ما كنتُ أسمع رسول الله يقول : إنّ الله لم يقبِض نبياً حتى يخيّره ، فلما احتضِر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان آخر كلمة سمعتُها منه : « بل الرفيق الأعلَى » ، فقلت : إذاً والله لايختارنا ، وعلمتُ أنّ ذلك ما كان يقوله من قبل [(١)] .

وروى الأرقم بن شُرَحْبِيل ، قال : سألتُ ابنَ عباس رحمه الله : هل أوصَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا ، قلت : فكيف كان ؟ فقال : إنّ رسولَ صلّى الله عليه وسلم قال فى مرضه : « ابعثوا إلى عليٍّ فادعوه » ، فقالت عائشة : لو بعثتَ إلى أبى بكر! وقالت حفصة : لو بعثتَ إلى عمر ! فاجتمعوا عنده جميعاً ـ هكذا لفظ الخبر على ما أورده الطبرىّ فى التاريخ ، ولم يقل : « فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إليهما » ـ قال ابن عباس : فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « انصرفوا ، فإن تكن لى حاجة أبعثْ إليكم » فانصرفوا . وقيل لرسول الله : الصلاة! فقال : «مروا أبا بكرٍ أن يصلّىَ بالناس» ، فقالت عائشة : إنّ أبا بكر رجل رقيق فمُرْ عمر ، فقال : مُرُوا عمر ، فقال عمر : ما كنت لأتقدّم وأبو بكر شاهد ، فتقدّم أبو بكر ، فوجد رسولُ اللهُ صلّى الله عليه وآله خفّة ، فخرج ، فلمّا سمع أبو بكر حركَتَهُ تأخّر ، فجذب رسول الله صلى الله عليه وآله ثوبه فأقامه مكانه ، وقعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر [(٢)] .

قلت : عندى فى هذه الواقعة كلام ، ويعترضنى فيها شكوك واشتباه ؛ إذا كان قد

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨١٠ .

(٢) تاريخ الطبرى : ١٨١١ ـ ١٨١٢ .

أراد أن يبعث إلى علىّ ليوصِىَ إليه ، فنفَسَتْ عائشة عليـه ، فسألت أن يحضُر أبوها ، ونَفَسَت حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها ، ثم حضرا ولم يُطْلبا ، فلا شبهة أنّ ابنتيهما طلبتاهما . هذا هو الظاهر ، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وقد اجتمعوا كلّهم عنده « انصرفوا فإنْ تـكن لى حاجة بعثت إليـكم » ، قول مَنْ عنده ضَجَر وغضب باطن لحضورهما ، وتُهمة للنّساء فى استدعائهما ، فـكيف يطابق هذا الفعل وهذا القول ماروِىَ من أنّ عائشة قالت لـما عيّن على أبيها فى الصـلاة : إنّ أبى رجلٌ رقيـق ، فمر عمر ! وأين ذلك الحرص من هـذا الاستعفاء والاستقالة ! وهذا يُوهم صحّة ماتقوله الشّيعة من أنّ صلاة أبى بكر كانت عن أمرِ عائشة ، وإن كنت لا أقول بذلك ، ولا أذهب إليه إلاأنّ تأمّل هذا الخبر ولَمْحَ مضمونه يُوهِم ذلك ، فلعلّ هذا الخبر غيرصحيح. وأيضافى الخبرمالا يجيزه أهلُ العدل ، وهو أن يقول : « مروا أبا بكر » ، ثم يقول عَقِيبه : «مروا عمر» ، لأنّ هذا نسخُ الشىء قبل تقضّى وقت فعله .

فإن قلتَ : قد مضى من الزّمان مقدارُ مايمكّن الحاضرين فيه أن يأمروا أبا بـكر ، وليس فى الخبر إلّا أنه أمرهم أن يأمروه ، ويكفى فى صحّة ذلك مضىّ زمان يسير جـدا يمكن فيه أن يقال : ياأبا بكر صلّ بالناس .

قلتُ : الإشكال مانشأ من هذا الأمر ، بل من كون أبى بكر مأموراًبالصلاة ،وإن كان بواسطة ، ثم نُسِخ عنه الأمر بالصلاة قبل مضىّ وقت يمكن فيه أن يفعل الصلاة .

فإن قلتَ : لم قلتَ فى صدر كلامك هذا : إنه أراد أن يبعث إلى علىّ ليوصىَ إليه ؟ ولم لا يجوز أن يكون بعث إليه لحاجة له ؟

قلت : لأنّ مخرج كلام ابن عباس هـذا المخرج ، ألا ترى أنّ الأرقم بن شُرحبيل الراوى لهذا الخبر قال : سألتُ ابن عباس : هلْ أوصَى رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله ؟ فقال : لا ، فقلت : فـكيف كان ؟ فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال فى مرضه:

« ابعثوا إلى علىّ فادعُوه » ، فسألتْه المرأة أن يبعث إلى أبيها ، وسألتْه الأخرى أن يبعث إلى أبيها ، فلولا أنّ ابنَ عباس فَهِم من قوله صلى الله عليه وآله : « ابعثوا إلى علىٍّ فادعوه » أنه يريد الوصيـة إليه ، لما كان لإخبار الأرقم بذلك متّصلا بسؤاله عن الوصية معنى .

وروى القاسم بن محمد بن أبى بكر ، عن عائشة ، قالت : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يموت وعنده قَدَحٌ فيه ماء يُدْخل يده فى القَدَح ثم يمسح وجهه بالماء ، ويقول : « اللهم أعنِّى على سَكْرة الموت [1] ! » .

وروى عُروة عن عائشة ، قالت : اضطجع رسول الله صلى عليه وآله يوم موتِه فى حِجْرى ، فدخل علىّ رجلٌ من آل أبى بكر ، فى يدِه مسواكٌ أخضر ، فنظر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إليه نظراً عرفت أنه يريده ، فقلت له : أتحبّ أن أعطيَك هـذا المسواك ؟ قال : نعم ، فأخذته فمضغتهُ حتى ألنته ثم أعطيته إياه ، فاستنّ به كأشدّ ما رأيته يستنّ بسواكٍ قبله ، ثم وضعه ، ووجدتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يثقُل فى حِجْرى ، فذهبت أنظر فى وجهِه ، فإذا بصرُه قد شخص ، وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » ! فقلت : لقد خُيِّرتَ فاخترت والذى بعثك بالحق ! وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] .

قال الطبرىّ : وقد وقع الاتفاق على أنه كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، واختلف فى أىّ الأثانين كان ؟ فقيل : لليلتين خلَتا من الشهر ، وقيل : لاثنتىْ عشرة [3] خَلتْ من الشهر . واختلف فى تجهيزه أىّ يوم كان ! فقيل : يوم الثلاثاء الغد من وفاته ، وقيل : إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام ، اشتغل القوم عنه بأمر البيعة .

وقد روى الطبرىّ ما يدلُّ عَلَى ذلك عن زياد بن كُلَيب ، عن إبراهيم النَّخعِىّ أن

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ١٨١٢ .
(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨١٤ .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨١٥ .

أبا بكرٍ جاء بعد ثلاث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد اربدّ بطنُه ، فكشف عن وجهه ، وقبّل عينيه ، وقال : بأبي أنت وأمّي ! طبت حيًّا وطبت ميّتا [1] !

قلت : وأنا أعجبُ من هذا ! هبْ أنّ أبا بكر ومَنْ معه اشتغلوا بأمر البيعة ، فعليّ ابن أبي طالب والعبّاس وأهل البيت بماذا اشتغلُوا حتى يبقَى النبي صلى الله عليه وآله مسجًّى بينهم ثلاثة أيامٍ بلياليهنّ لا يغسلونه ولا يمسّونه !

فإن قلت : الرواية التي رواها الطبريّ في حديث الأيام الثلاثة ، إنما كانت قبل البيعة ؛ لأن لفظ الخبر عن إبراهيم ، وأنّه لما قبِض النبيّ صلى الله عليه وآله كان أبو بكر غائباً فجاء بعد ثلاث ، ولم يجترئ أحدٌ أن يكشِفَ عن وجهه عليه السلام حتى اربْدّ بطنه ، فكشف عن وجهه وقبّل عينيه ، وقال : بأبي أنت وأمي ! طبْت حيًّا وطبت ميّتا ، ثم خرج إلى الناس ، فقال : مَنْ كان يعبدُ محمّداً فإنّ محمدا قد مات . . . الحديث بطوله .

قلت : لَعمري ، إنّ الرواية هكذا أوردها ، ولكنها مستحيلة ، لأن أبا بكرٍ فارق رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حيّ ، ومضى إلى منزله بالسُّنْح في يوم الاثنين ، وهو اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه رآه بارئا صالح الحال . هكذا روى الطبريّ في كتابه ، وبين السُّنْح وبين المدينة نصف فرسخ ، بل هو طائفة من المدينة ، فكيف يبقى رسول الله صلى الله عليه وآله ميتاً يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء لا يعلم به أبو بكر ، وبينهما غَلْوة ثلاثة أسهم ! وكيف يبقى طريحاً بين أهله ثلاثة أيام لا يجترئ أحدٌ منهم أنْ يكشِف عن وجهه ، وفيهم عليّ بن أبي طالب وهو روحه بين جنبيه ، والعبّاس عمّه القائم مقام أبيه ، وابنا فاطمة ، وهما كولديه ، وفيهم فاطمة بَضْعة منه ، أفما كان في هؤلاء مَنْ يكشف عن وجهه ، ولا مَنْ يفكّر في جهازه ، ولا مَنْ يأنف له من

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٨١٧ .

انتفاخ بطنه واخضرارها وينتظر بذلك حضورَ أبى بكر ليكشِفَ عن وجهه !

أنا لاأصدّق ذلك ، ولا يسكنُ قلبى إليه . والصحيح أنّ دخول أبى بكر إليه وكشفه عن وجهه ، وقوله ماقال ، إنما كان بعد الفراغ من البيْعة ، وأنهم كانوا مشتغلين بها كما ذكر فى الرواية الأخرى .

وبقى الإشكال فى قعود علىّ عليه السلام عن تجهيزه . إذا كان أولئك مشتغلين بالبَيْعة ، فما الذى شغله هو ؟

فأقول : يغلب على ظنّى — إنْ صحّ ذلك — أن يكون قد فعله شناعة على أبى بكر وأصحابه، حيث فاته الأمر ، واستُؤثِر عليه به ، فأراد أن يتركه صلى الله عليه وآله بحاله لايحدث فى جهازه أمراً ليثبت عند الناس أنّ الدنيا شغلتهم عن نبيّهم ثلاثة أيام ، حتى آل أمره إلى ماترون ؛ وقد كان عليه السلام يتطلّب الحيلة فى تهجين أمرِ أبى بكر حيث وقع فى السقيفة ماوقع بكلّ طريق ، ويتعلق بأدنى سبب من أمورٍ كان يعتمدها ، وأقوالٍ كان يقولها ، فلعلّ هذا من جُمْلة ذلك ، أو لعلّه إن صحّ ذلك ، [1] فإنما تركه صلى الله عليه وآله بوصيّة منه إليه وسرٍّ كانا يعلمانه فى ذلك .

فإن قلت : فلم لايجوز أن يقال — إنْ صَحّ ذلك : إنه [1] أُخِّرَ جهازه ليجتمع رأيه ورأى المهاجرين على كيفيّة غسله وتكفينه ، ونحو ذلك من أموره ؟

قلت : لأنّ الرواية الأولى تبطل هذا الاحتمال ، وهى قوله صلى الله عليه وآله لهم قبل موته : « يغسلنى أهلى الأدنى منهم فالأدنى ، وأ كفّن فى ثيابى أو فى بياض مصر أو فى حلّة يمنيّة » .

قال أبو جعفر : فأمّا الذين تولَّوْا غَسْله فعلىّ بن أبى طالب ، والعبّاس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس ، وقُثَم بن العبّاس ، وأسامة بن زيد ، وشُقْران مولى رسول الله صلى الله

(١ـ١) ساقط من ب ، وأثبته من ا .

عليـه وآله ، وحضر أوْس بن خولىّ أحد الخزرج ، فقال لعلىّ بن أبى طالب :أنشدك الله ياعلىّ وحظّنا من رسول الله ! وكان أوْس من أصحاب بدر ، فقال له :ادخل ،فدخل فحضر غسله عليه الصلاة والسلام ، وصبّ الماء عليه أسامة وشُقران ، وكان علىّ عليه السلام يغسله وقد أسنده إلى صدره ، وَعليه قميصُه يدلّـكه من ورائه ، لايفضِى بيده إلى بدن رسول الله صلى الله عليـه وآله ، وكان العباس وابناه الفضل وقُثَم يساعدونه على قَلْبه من جانب إلى جانب [1] .

قال أبو جعفر : وروت عائشة أنّهم اختلفوا فى غَسله : هل يجرّد[2] أم لا ؟ فألقى الله عليهم السِّنة حتى مامنهم رجل إلّا وذقنه على صدره ، ثم كلّمهم متكلّم من ناحية البيت لايدرَى مَنْ هو : غسّلوا النبىّ وعليه ثيابه . فقاموا إليه فغسلوه ، وعليـه قميصه فـكانت عائشة تقول : لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ ماغسّله إلا نساؤه [3] .

قلت : حضرتُ عند محمدّ بن معد العلوىّ فى داره ببغداد ، وعنـده حسن بن معالى الِحلّى المعروف بابن الباقلاوىّ وهما يقرآن هذا الخبر ، وهذه الأحاديث من تاريخ الطبرى فقال محمد بن معدّ لحسن بن معالى : ماتراها قصدَتْ بهـذا القول ؟ قال : حسدت أباك على ما كان يفتخر به من غَسْل رسول الله صلّى الله عليه وآله ! فضحك محمد ،فقال : هبْها استطاعت أن تزاحمه فى الغسل ، هل تستطيع أن تزاحمه فى غيره من خصائصه !

قال أبو جعفر الطبرىّ : ثم كُفّن عليه الصلاة والسلام فى ثلاثة أثواب : ثوبين صُحاريّين[4] وبُرْد حِبَرة[5] . أدْرِج [6] فيها إدراجاً ، ولِحُد له على عادة أهل المدينة ، فلمّا فرغوا منه وضعوه على سريره [7] .

* * *

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٠ ، ١٨٣٣ .
(٢) الطبرى : « أنجرد » .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣١ .
(٤) صحاريان : منسوبان إلى صحار ، قرية باليمن .
(٥) حبرة بوزن عنبة ، أى مخطط ، وهو برد يماز أ_نا لى الوصف أو الإضافة .
(٦) أى لفّ فيه .
(٧) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣١ .

واختلفوا فى دَفْنه ، فقال قائل : ندفنه فى مسجدِه ، وقال قائل : ندفنه فى البَقيع مع أصحابه ، وقال أبو بكر : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « ماقُبِض نبىٌّ إلا ودُفن حيث قُبِض » ، فرفِع فراش رسول الله الذى تُوفِّىَ فيه ، فحفِر له تحته .

قلت : كيف اختلفوا فى موضع دفنه ، وقد قال لهم : « فضعونى على سريرى فى بيتى هذا ، على شفير قبرى » ، وهذا تصريح بأنّه يُدفن فى البيت الذى جمعهم فيه ، وهو بيت عائشة ؛ فإمّا أن يكونَ ذلك الخبر غيرَ صحيح ، أو يكون الحديث الذى تضمّن أنّهم اختلفوا فى موضع دفنه ، وأنّ أبا بكر رَوَى لهم أنه قال : « الأنبياء يدفنون حيث يموتون » غيرَ صحيح ، لأنّ الجمع بين هذين الخبرين لايمكن .

وأيضاً ، فهذا الخبر ينافِى ماورَد فى موت جماعةٍ من الأنبياء نُقلوا من موضع موتهم إلى مواضع أُخَر ، وقد ذكر الطّبرىّ بعضهم فى أخبار أنبياء بنى إسرائيل .

وأيضاً فلو صحّ هذا الخبر لم يكن مقتضياً إيجاب دفنِ النبىّ صلّى الله عليه وآله حيث قُبِض ، لأنّه ليس بأمرٍ بل هو إخبار محض ، اللهمّ إلا أن يكونوا فهِمُوا من مخرج لفظه عليه السلام ومن مقصده أنّه أراد الوصيّة لهم بذلك ، والأمر بدفنه حيث يقبض .

قال أبو جعفر : ثم دخل [1] النّاس فصلّوا عليه أرسالًا ، حتى إذا فرغ الرّجال أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النّساء أدخل الصبيان ، ثم أدخِل العبيد ، ولم يؤمّهم [2] إمام ، ثم دفن عليه السلام وَسَطَ اللّيل من ليلة الأربعاء [3] .

قال أبو جعفر : وقد روت عَمْرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زُرارة ، عن عائشة قالت : ماعلِمْنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى سمعنا صوت المساحى فى جَوْف الليل ، ليلةَ الأربعاء [4] .

---

(١) الطبرى : « ودخل » .

(٢) الطبرى : « ولم يؤم الناس » .

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٢ .

(٤) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٣ .

قلت : وهـذا أيضا من العجائب ، لأنه إذا مات يوم الاثنين وقتَ ارتفاع الضُّحَى — كما ذكر فى الرواية — ودفن ليلة الأربعاء وسَط الليل ، فلم يمض عليه ثلاثة أيام كما ورد فى تلك الرواية .

وأيضا فمن العجَب كون عائشة ، وهو فى بيتها لاتعلم بدفنه حتى سمعتْ صوتَ المساحى، أتراها أين كانت ! وقد سألتُ عن هـذا جماعة ، فقالوا : لعلّها كانت فى بيت يجاور بيتها عندها نساء كما جرت عادة أهل الميّت ؛ وتـكون قد اعتزلت بيتَها وسكنت ذلك البيت، لأنّ بيتَها مملوء بالرجال من أهل رسول الله صلى الله عليه وآله وغيرهم من الصحابة ، وهذا قريب ، ويحتمل أن يكون .

قال الطبرىّ : ونزل فى قبرِ رسولِ الله صلى الله عليـه وآله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، والفضل بن عباس ، وقُثَم أخوه ، وشُقْران مولاهم .وقال أوس بن خولىّ لعلىّ عليه السلام : أنشدُك الله ياعلىّ وحَظّنا من رسول الله صلى الله عليه وآله !فقال له :انزل، فنزل مع القوم ، وأخذ شُقران قطيفة كان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبسها ، فقذفها معه فى القبر ، وقال : لايلبَسُها أحد بعده (١) .

قلت : مَنْ تأمّل هذه الأخبار ، علم أنّ عليًّا عليه السلام كان الأصل والجملة والتفصيل فى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وجهازه ، ألا ترى أنّ أوسَ بن خولىّ لا يخاطب أحداً من الجماعة غيرَه ، ولا يسأل غيره فى حضور الغسل والنّزول فى القبر !ثم انظر إلى كرم علىّ عليه السـلام وسَجاَحة أخلاقه وطهارة شيمته ، كيف لم يضنّ بمثـل هذه المقامات الشريفة عن أوس ؛ وهو رجل غريب من الأنصار ، فعرف له حقَّه وأطلبه (٢) بماطلبه! فـكم بين هذه السجيّة الشريفة ، وبين قول مَنْ قال : لو استقبلتُ من أمرى مااستدبرت

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣ .

(٢) أطلبه : أجابه إلى ما طلب .

ما غسل رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلّا نساؤه ! ولو كان فى ذلك المقام غيره من أولى الطباع الخشنة ، وأرباب الفظاظة والغلظة ، وقد سأل أوس ذلك — لزجر وانتهر ورجع خائباً !

قال الطبرىّ : وكان المغيرة بن شُعبة يدّعى أنّه أحدثُ النّاس عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله ، ويقول للناس : إننى أخذت خاتمى فألقيته فى القبر ، وقلت : إنّ خاتمى قد سقط منّى ، وإنّما طرحته عمدًا ؛ لأمسّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأكون آخر الناس به عهدا[1] .

قال الطبرىّ : فروَى عبد الله بن الحارث بن نوفل ، قال : اعتمرتُ مع علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى زمان عمر — أو عثمان — فنزل على أخته أمّ هانئ بنت أبى طالب ، فلمّا فرغ من عُمرته رجع وقد سكب له غسل ، فلما فرغ من غسله دخل عليه نَفَرٌ من أهل العراق ، فقالوا : ياأبا الحسن ، جئناك نسألك عن أمر نحبّ أن تخبرنا به ! فقال : أظنّ المغيرة يحدّثكم أنه أحدَثُ الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله ! قالوا : أجل ، عن ذا جئنا نسألك ! قال : كذب ! أحدثُ النّاس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله قُثَم بن العباس ، كان آخرنا خروجاً من قبره[2] .

قلت : بحقّ ماعاب أصحابُنا رحمهم الله المغيرة وذمّوه وانتقصوه ! فإنه كان على طريقة غير محمودة ، وأبى الله إلّا أن يكونَ كاذباً على كلّ حال ، لأنّه إن لم يكن أحدثهم بالنبىّ عهدا ، فقد كذب فى دعواه أنّه أحدثهم به عهدا ، وإن كان أحدثهم به عهدا كما يزعم فقد اعترف بأنّه كذب فى قوله لهم : « سقط خاتمى منّى » ؛ وإنما ألقاه عمداً ، وأين المغيرةُ ورسول الله صلى الله عليه وآله ليدّعى القرب منه ، وأنّه أحدث الناس عهدا به !

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣ ، ١٨٣٤ .

وقد علم الله تعالى والمسلمون أنه لولا الحدَثُ الذى أحدث ، والقوم الذين صحبهم فقتلهم غدْراً ، واتخذ أموالهم ؛ ثم التجأ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليعصِمَه لم يُسلم ، ولا وطىء حصا المدينة .

* * *

قال الطبرىّ : وقد اختلف فى سنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالأكثرون أنه كان ابنَ ثلاث وستين سنة ، وقال قوم : ابن خمس وستين سنة ، وقال قوم : ابن ستين .

فهذا ماذكره الطبرى فى تاريخه(١) .

وروى محمّد بن حبيب فى "أماليه" قال : تولّى غسل النبىّ صلى الله عليه وآله علىٌّ عليه السلام والعبّاس رضى الله عنه .

وكان علىّ عليه السلام يقول بعد ذلك : ماشممت أطيبَ من ريحه ، ولارأيت أضوأ من وجهه حينئذ ، ولم أره يعتاد فاه ما يعتاد أفواه الموتى .

قال محمد بن حبيب : فلمّا كشف الإزار عن وجهه بعد غَسْله انحنى عليه فقبّله مرارا ؛ وبكى طويلا وقال : بأَبِى أنت وأمّى ! طبتَ حيًّا وطبت ميتا ! انقطع بموتك مالم ينقطِعْ بموت أحد سواك من النبوّة والأنباء وأخبار السماء ! خصّصت حتى صرت مسلّيا عمن سواك ؛ وعمّمت حتى صارت المصيبة فيك سواء ! ولولا أنك أمرت بالصبر ، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون ؛ ولكن أتى مالا يُدْفع ! أشكو إليك كمداً وإدبارا مخالفين وداء الفتنة ، فإنها قد استعرت نارها وداؤها الداء الأعظم ! بأبى أنت وأمى اذكرنا عند ربّك ، واجعلنا من بالك وهمّك !

ثم نظر إلى قَذَاة فى عينه فلفظها بلسانه ، ثم ردّ الإزار على وجهه .

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ .

وقد روى كثير من الناس ندبة فاطمة عليها السلام أباها يومَ موته وبعد ذلك اليوم ، وهي ألفاظ معدودة مشهورة ، منها : « يا أبتاه ! جنّة الخلد مثواه ، يا أبتاه ! عند ذى العرش مأواه ! يا أبتاه ! كان جبرائيل يغشاه ! يا أبتاه لست بعد اليوم أراه ! » .

ومن الناس مَنْ يذكر أنها كانت تشوبُ هذه الندبة بنوع من التظلّم والتألّم لأمر يغلبها . والله أعلم بصحّة ذلك .

والشِّيعة تروى أن قوماً من الصحابة أنكروا بكاءها الطويل ، ونهوْها عنه ، وأمروها بالتنحِّى عن مجاورة المسجد إلى طرف من أطراف المدينة .

وأنا أستبعد ذلك ، والحديث يدخله الزيادة والنقصان ، ويتطرقَ إليه التحريف والافتعال ، ولا أقول أنا فى أعلام المهاجرين إلا خيراً !

(٢٣١)

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِى لَا تُدْرِكُهُ اَلشَّوَاهِدُ ، وَلَا تَحْوِيهِ اَلْمَشَاهِدُ ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ ، وَلَا تَحْجُبُهُ اَلسَّوَاتِرُ ؛ اَلدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ ، وَباشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شِبْهَ لَهُ .

اَلَّذِى صَدَقَ فِى مِيعَادِهِ ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِى خَلْقِهِ ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِى حُكْمِهِ ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ اَلْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ اَلْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ ، وَبِمَا اَضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ اَلْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ .

وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ ، وَدَائِمٌ لَا بِأَمَدٍ ، وَقَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ .

تَتَلَقَّاهُ اَلْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ ، وَتَشْهَدُ لَهُ اَلْمَرَائِى لَا بِمُحَاضَرَةٍ . لَمْ تُحِطْ بِهِ بِهَا اَلْأَوْهَامُ ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا . وَبِهَا اَمْتَنَعَ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا .

لَيْسَ بِذِى كِبَرٍ اَمْتَدَّتْ بِهِ اَلنِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً ، وَلَا بِذِى عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ اَلْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً ، بَلْ كَبُرَ شَأْناً ، وَعَظُمَ سُلْطَاناً .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ اَلصَّفِىُّ ، وَأَمِينُهُ اَلرَّضِىُّ ، صَلَّى اَللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ اَلْحُجَجِ ، وَظُهُورِ اَلْفَلَجِ ، وَإِيضَاحِ اَلْمَنْهَجِ ؛ فَبَلَّغَ اَلرِّسَالَةَ صَادِعاً بِهَا ، وَحَمَلَ عَلَى اَلْمَحَجَّةِ دَالّاً عَلَيْهَا ، وَأَقَامَ أَعْلَامَ اَلِاهْتِدَاءِ ، وَمَنَارَ اَلضِّيَاءِ ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ اَلْإِسْلَامِ مَتِينَةً ، وَعُرَا اَلْإِيمَانِ وَثِيقَةً .

* * *

الشَّرح :

الشواهد هاهنا ، يريد بها الحواسّ ، وسمّاها « شواهد » إما لحضورها ؛ شهد فلان كذا أى حضره ، أو لأنها تشهد على ماتدركه وتثبته عند العقل ، كما يشهدالشاهد بالشىء ويثبته عند الحاكم .

والمشاهد هاهنا : المجالس والنوادى ، يقال : حضرت مشهد بنى فلان ، أى ناديهم ومجتمعهم.

ثم فسّر اللفظة الأولى وأبان عن مراده بها بقوله : « ولا تراه النواظر » ، وفسّر اللفظة الثانية وأبان عن مرادها ، فقال : « ولا تحجبه السواتر » .

ثم قال : « الدّال على قِدَمه بحدُوث خلقه ، وبحدوث خلقه على وجوده »؛ هذا مشكل، لأن لقائلٍ أن يقول : إذا دلّ على قِدَمه بحدوث خلقه ، فقد دخل فى جملة المدلول كونهُ موجوداً ، لأنّ القديم هو الموجود ولم يزل ، فأىّ حاجة إلى أن يعود فيقول : وبحدوث خَلْقه على وجوده !

وللمجيب أن يجيب على طريقة شيوخنا أصحاب أبى هاشم ، فيقول : لا يلزم من الاستدلال بحدوث الأجسام على أنّه لابدّ من محدِث قديم كونه موجودا ؛ لأنّ عندهم أنّ الذات المعدومة قد تتّصف بصفات ذاتيّة ، وهى معدومة ، فلا يلزم من كون صانع العالم عندهم عالماً قادرا حيّاً أن يكون موجوداً ، بل لابدّ من دلالة زائدة ، على أنّ له صفة الوجود وهى والدلالة التى يذكرونها ، من أنّ كونه قادرا عالماً تقتضى تعلّقه بالمقدور والمعلوم، وكل ذاتٍ متعلّقة ، فإنّ عدمها يخرجها عن التعلّق كالإرادة ، فلو كان تعالى معدوماً لم يجز أن يكون متعلّقا ، فحدوث الأجسام إذاً قد دلّ على أمرين من وجهين مختلفين :

أحدهما أنّه لا بدّ من صانع له ، وهذا هو المعنىُّ بقدمه .

والثانى أنّ هذا الصانع له صفة ، لأجلها يصحّ على ذاته أن تكون قادرة عالمة ، وهذا هو المعنىّ بوجوده .

فإن قلت : أيقول أصحابُ شيخكم أبى هاشم إنّ الذات المعدومة التى لا أوّل لها تسمّى قديمة ؟

قلت : لا ، والبحث فى هذا بحث فى اللفظ لا فى المعنى .

والمراد بقوله عليه السلام : « الدالّ بحدوث الأشياء على قدمه » ، أى على كونه ذاتاً لم يجعلها جاعل ، وليس المراد بالقدم هاهنا الوجود لم يزل ، بل مجرد الذاتيّة لم يزل .

ثم يستدّل بعد ذلك بحدوث الأشياء على أنّ له صفة أخرى لم تزل زائدة على مجرّد الذاتيّة ، وتلك الصفة هى وجوده . فقد اتّضح المراد الآن .

فإن قلت : فهل لهذا الكلام مساغٌ على مذهب البغداديين ؟ قلت : نعم ، إذا حمل على منهج التأويل بأن يريد بقوله : « وبحدوث خلقه على وجوده » ، أى على صحّة إيجاده له فيما بعد ، أى إعادته بعد العدَم يوم القيامة ، لأنه إذا صحّ منه تعالى إحداثه ابتداء صحّ منه إيجاده ثانيا على وجه الإعادة ، لأنّ الماهيّة قابلة للوجود والعدم ، والقادر قادرٌ لذاته ، فأمّا من روى بحدوث خلقه على وجوده ، فإنه قد سقطت عنه هذه الكلف كلّها.

والمعنى على هذا ظاهر ؛ لأنه تعالى دلّ المكلفين بحدوث خلقه على أنه جواد منعم ، ومذهب أكثر المتكلّمين أنه خلق العالم جوداً وإنعاما وإحسانا إليهم .

قوله عليه السلام : « وباشتباههم على أن لاشبَه له » هذا دليل صحيح ، وذلك لأنه إذا ثبت أن جسما ما محدَث ، ثبت أنّ سائر الأجسام محدَثة ؛ لأن الأجسام متماثلة ، وكلّ ماصحّ على الشيء صحّ على مثله ، وكذلك إذا ثبت أنّ سواداً ما أو بياضاً ما محدَث ، ثبت أن سائر السوادات والبياضات محدَثة ، لأن حكم الشيء حكم مثله ، والسّواد فى معنى

كونه سوادا غير مختلف ، وكذلك البياض ، فصارت الدلالة هكذا الذوات التى عندنا يشبه بعضها بعضاً ، وهى محدَثة ؛ فلو كان البارى سبحانه يشبه شيئاً منها لكان مثلها ، ولكان محدَثا لأنّ حكم الشىء حكم مثله ، لكنه تعالى ليس بمحدَث ، فليس بمشابه لشىء منها ، فقد صحّ إذاً قوله عليه السلام : « وباشتباههم على أن لاشبه له » .

قوله عليه السلام : « الذى صدق فى ميعاده » ، لايجوز ألّا يصدق ، لأنّ الكذب قبيحٌ عقلا ، والبارى تعالى يستحيل منه من جهة الدّاعى والصارف أن يفعل القبيح .

قوله عليه السلام : « وارتفع عن ظلم عباده » ، هذا هو مذهب أصحابنا المعتزلة ، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أخذوه ؛ وهو أستاذهم وشيخهم فى العدل والتوحيد، فأمّا الأشعريّة ، فإنها وإن كانت تمتنع عن إطلاق القول بأنّ الله تعالى يظلم العباد إلّا أنّها تعطى المعنى فى الحقيقة ، لأن الله عندهم يكلّف العباد مالا يطيقونه ، بل هو سبحانه عندهم لايكلفهم إلا مالا يطيقونه ، بل هو سبحانه عندهم لايقدر على أن يكلّفهم مايطيقونه ، وذلك لأنّ القدرة عندهم مع الفعل ، فالقاعد غير قادر على القيام ، وإنما يكون قادراً على القيام عند حصول القيام ، ويستحيل عندهم أن يوصَف البارى تعالى بإقدار العبد القاعد على القيام ، وهو مع ذلك مكلِّف له أن يقوم ، وهذا غاية مايكون من الظُّلم سواء أطلقوا هذه اللفظة عليه أو لم يطلقوها .

ثم أعاد الكلام الأول فى التوحيد تأكيدا ، فقال : حدوث الأشياء دليل على قدمه ، وكونها عاجزة عن كثير من الأفعال دليل على قدرته ، وكونها فانية دليل على بقائه .

فإن قلت : أمّا الاستدلال بحدُوث الأشياء على قدمه فمعلوم ، فكيف يكون الاستدلال على الأمرين الأخيرين !

قلت : إذا شاركه سبحانه بعض الموجودات فى كونه موجودا ، وافترقا فى أنّ أحدهما لايصح منه فعل الجسم ، ولا الكون ، ولا الحياة ، ولا الوجود المحدَث ـ ويصحّ ذلك من الموجودات القديمة ـ دلّ على افتراقهما فى أمرٍ لأجله صَحّ من القديم ذلك ، وتعذّر ذلك على المحدَث ، وذلك الأمر هو الذى يسمَّى من كان عليه قادرا ، وينبغى أن تحمل لفظة « العجز » هاهنا على المفهوم اللغوىّ ، وهو تعذّر الإيجاد ، لاعلى المفهوم الكلامىّ .

وأما الاستدلال الثانى ، فينبغى أن يحمل الفناء هاهنا على المفهوم اللّغوىّ ، وهو تغير الصفات وزوالها ، لاعلى المفهوم الكلامىّ ، فيصير تقدير الكلام : لما كانت الأشياء التى بيننا تتغيّر وتتحوّل وتنتقل من حالٍ إلى حال ، وعلمنا أنّ العلّة المصحّحة لذلك كونها محدثة ، علمنا أنّه سبحانه لا يصحّ عليه التنقّل والتغيّر ، لأنه ليس بمحدَث .

ثم قال : « واحد لا بعدد » لأنّ وحدته ذاتيّة ، وليست صفة زائدة عليه ، وهذا من الأبحاث الدقيقة فى علم الحكمة ، وليس هذا الكتاب موضوعا لبسط القول فى أمثاله .

ثم قال : « دائم لا بأمَد » ، لأنه تعالى ليس بزمانىّ ولا داخل تحت الحركة والزمان ، وهذا أيضاً من دقائق العلم الإلهىّ ، والعرب دون أن تفهم هذا أو تنطق به ، ولكن هذا الرجل كان ممنوحاً من الله تعالى بالفيْض المقدّس والأنوار الربانيّة .

ثم قال : « قائم لا بعَمد » ، لأنه لما كان فى الشاهد كلّ قائم فله عماد يعتمِد عليه ، أبان عليه السلام تنزيهه تعالى عن المكان ، وعمّا يتوهمه الجهلاء من أنه مستقرٌّ على عرشه بهذه اللفظة . ومعنى القائم هاهنا ليس مايسبق إلى الذهن من أنه المنتصب ؟ بل ماتفهمه من قولك : فلان قائم بتدبير البلد ، وقائم بالقسط .

ثم قال : « تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة » ، أى تتلقاه تلقيّاً عقليا ، ليس كما يتلقى الجسمُ الجسمَ بمشاعره وحواسّه وجوارحه ، وذلك لأن تعقّل الأشياء وهو حصول صورها

فى العقل بريئة من المادة ، والمراد بتلقّيه سبحانه هاهنا تلقى صفاته ، لا تلقى ذاته تعالى،لأنّ ذاته تعالى لا تتصوّرها العقول ، وسيأتى إيضاح أنّ هذا مذهبه عليه السلام .

ثم قال : « وتشهد له المرائى لا بمُحاضرة » ، المرائى : جمع مرئىّ، وهو الشىء المدرَك بالبَصر ، يقول : المرئيّات تشهدُ بوجود البارئ،لأنه لولا وجوده لما وُجدت،ولو لم توجد لم تكن مرئيّات،وهى شاهدة بوجوده لا كشهادتها بوجود الأبصار،لأنّها شهدت بوجود الأبصار لحضورها فيها.وأمّا شهادتها بوجود البارى فليستْ بهذه الطريق،بل بما ذكرناه. والأولى أن يكون «المرائى» هاهنا جمع « مَرْآة » بفتح الميم،من قولهم:هو حسن فى مَرآة عينى ، يقول : إنّ جنس الرؤية يشهد بوجود البارىّ من غير محاضرة منه للحواس .

قوله عليه السلام : « لم تُحط به الأوهام » إلى قوله عليه السلام «وإليها حاكَمها»، هذا الكلام دقيق ولطيف ، والأوهام هاهنا هى العقول ، يقول : إنّه سبحانه لم تحط به العقول ، أى لم تتصوّر كنهَ ذاته ، ولكنه تجلّى للعقول بالعقول ، وتجلّيه هاهنا هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافية والسلبيّة لا غير ، وكشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من أسرار مخلوقاته ؛ فأمّا غير ذلك فلا ؛ وذلك لأنّ البحث النظرىّ قد دلّ على أنّا لم نعلم منه سبحانه إلا الإضافة والسلب ، أما الإضافة فكقولنا : عالم قادر ، وأمّا السّلب فكقولنا : ليس بجسم ولا عرَض ولا يُرى ، فأمّا حقيقة الذات المقدسة المخصوصة من حيث هى هى ، فإنّ العقل لا يتصوّرها ، وهذا مذهب الحكماء وبعض المتكلّمين من أصحابنا ومن غيرهم .

ثم قال : « وبالعقول امتنع من العقول » ، أى وبالعقول وبالنظر ؛ علمنا أنه تعالى يمتنع أن تدركه العقول .

ثم قال : « وإلى العقول حاكَم العقول » ، أى جعل العقول المدعية أنها أحاطت

به وأدركته كالخصم له سبحانه ، ثم حاكمها إلى العقول السليمة الصحيحة النظر ، فحكمت له سبحانه على العقول المدّعية لما ليست أهلاً له .

واعلم أنّ القول بالحيرة فى جلال ذات البارى والوقوف عند حدٍّ محدود لا يتجاوزه العقل قولٌ مازال فضلاء العقلاء قائلين به .

***

[من أشعار الشارح فى المناجاة]

ومن شعرى الذى أسلك فيه مسلك المناجاة عند خلواتى وانقطاعى بالقلب إليه سبحانه قولى :

والله لا موسى ولا عيـ ـسى المسيحُ ولا محمّدْ
علمُوا ولا جبريل وهْـو إلى محلّ القدس يصعَدْ
كلاّ ولا النفس البسيـ ـطة ، لا ولا العقْل المجرّدْ
من كنه ذاتك غير أنّـ ـك واحدىّ الذاتِ سرْمَدْ
وَجَدُوا إضافاتٍ وسَلْـ ـباً والحقيقة ليس توُجَدْ
ورأوا وجوداً واجباً يَفْنَى الزّمان وليس يَنْفَدْ
فلتخسأ الحُكَماء عَنْ جِرْمٍ له الأفلاك تَسْجُدْ
مَنْ أنت يارِسْطو ومَنْ أفلاطُ قبلك يامبلّدْ !
ومَن ابنُ سينا حين قرّر ما بنيتَ له وشيّدْ
هل أنتمُ إلا الفرا ش رأى الشّهابَ وقدتوقّدْ
فدنا فأحْرَق نفْسَهُ ولو اهتدى رُشْداً لأبْعَدْ !

***

ومما قلته أيضا فى قصور العقل عن معرفته سبحانه وتعالى :

فيك ياأعجوبة الكوْن غـدَا الفكر كَلِيلَا
أنت حيّرت ذوى اللُّب وبلبَلْتَ العقُولَا
كلّما أقدم فِكْرِى فيك شبراً فرّ ميلا
ناكصا يخبط فى عمْـ ياء لا يُهدَى السَّبيلا

***

ولى فى هذا المعنى :

فيك ياأغلوطة الفكرِ تاه عقلِى وانقضى عُمْرى
سافرتْ فيك العقولُ فما ربحتْ إلا أذى السَّفرِ
رجعتْ حَسْرَى وماوقفتْ لا على عينٍ ولا أثرِ
فلحَى الله الأُلَى زعمُوا أنّك المعلومُ بالنَّظرِ
كذبوا إنّ الذِى طلبُوا خارجٌ عن قوّة البَشَرِ

***

وقلت أيضا فى المعنى :

أفنيتُ خمسين عاما معملًا نظرِى فيه ؛ فلم أدرِ ما آتى وما أذرُ
مَنْ كانَ فوق عقول القايسين فمَا ذا يدركُ الفكر أو مايبلغ النظرُ

***

ولى أيضاً :

حبيبى أنت لا زيدٌ وعمْرٌو وإن حَيَّرْتَنِى وفتنْتَ دِينِى
طلبتك جاهداً خمسين عاما فلم أحصُلْ على بردِ اليقينِ

فهل بعد الممات بك اتّصالٌ فأعلمُ غامض السّرّ المصونِ !
نوًى قُذُفٌ وكم قد مات قبلي بحسرته عليك من القرون !

***

ومن شعرى أيضا فى المعنى ، وكنت أنادى به ليلاً فى مواضع مقفرة خالية من النّاس ، بصوت رفيع ، وأجدح قلبى أيام كنت مالكا أمرِى ، مطلقاً من قيود الأهل والولَد وعلائق الدنيا :

يامُدهِشَ الألباب والفطَنِ ومحيِّرَ التقْوالةِ اللَّسِنِ
أفنيتُ فيك العمرَ أنفقهُ والمال مجّانا بلا ثمنِ
أتتبّع العلماء أسألهمْ وأجولُ فى الآفاق والمُدُنِ
وأخالط المِللَ التّى اختلفتْ فى الدّين حتى عابدَ الوَثَنِ
وظننتُ أنى بالغٌ غرَضِى لما اجتهدت ومبرِئٌ شجَنِى
ومطهّرٌ من كلّ رجس هوى قلبى بذاك وغاسِلٌ درَنِى
فإذا الذى استكثرت منه هو الـ جانى علىّ عظائمَ المحنِ
فضللتُ فى تيهٍ بلا علَمٍ وغرقت فى يمٍّ بلا سُفُنِ
ورجعت صِفرَ الكفّ مكتئباً حيرانَ ذا همٍّ وذا حزَنِ
أبكى وأنكت فى الثرى بيدِى طوراً وأدعم تارةً ذقَنِى
وأصيح يامَنْ ليس يعرفُه أحدٌ مدى الأحقاب والزّمَنِ !
يامَنْ له عنَت الوجوهُ ومَنْ قرنت له الأعناق فى قرَنِ
آمنت ياجذر الأصمّ من الـ أعداد بل يافتنة الفتنِ
أن ليس تدرِكُك العيون وأنّ الرّأى ذو أفنٍ وذو غبَنِ

والكلّ أنت فكيف يدركه بعضٌ وأنت السرّ فى العلَنِ !

***

ومما قلته فى المعنى :

ناجيته ودعوتُه اكشف عن عشا قلبي وعن بصرى وأنت النّورُ
وارفعْ حجابا قد سَدَلْتَ ستُورَه دونِى ، وهل دون المحبّ ستور !
فأجابنى : صهْ ياضعيف فبعض ذَا قد رامه مُوسى فدُكّ الطّور

أعجبنى هذا المعنى ، فنقلته إلى لفظ آخر فقلت :

حَبِيبِى أنْتَ مِنْ دُونِ البرايَا وإنْ لم أحظَ منك بما أريدُ
قنعتُ من الوصال بكشف حالٍ فقيل ارجعْ فمطلبها بعيدُ
ألم تسمعْ جوابَ سؤال موسى وليس على مكانته مزيدُ
تعرّض للذى حاوَلْتُ يوماً فدُكّ الصخر واضطرم الصّعِيدُ

ولى فى هذا المعنى أيضاً :

قد حار فى النّفس جميعُ الورى والفكر فيها قد غدا ضائعا
وبَرْهَنَ الْكُلّ على ما ادّعَوْا وَلَيْسَ بُرْهانُهُمُ قَاطِعَا
مَنْ جَهِلَ الصَّنْعَةَ مُجزافَما أجدرُهُ أن يجهل الصّانِعا !

***

ولى أيضاً فى الردّ على الفلاسفة الذين علّلوا حركة الفَلَك بأنه أراد استخراج الوضع أولا ؛ ليتشبه بالعقل المجرّد فى كماله ، وأنّ كلّ ماله بالقوة فهو خارج إلى الفعل :

تحيّر أربابُ النُّهَى وتعجَّبُوا من الفَلَكِ الأقصى لماذا تحرّكا
فقيل بطبعٍ كالثقيل إذا هوَى وقيل اختياراً والمحقق شكّكا
فردّ حديث الطبع إذ كان دائراً وليس على سَمْتٍ قويمٍ فيسلكا

وقيل لمن قال اختيارا فما الّذِى دعاه إلى أن دار ركضاً فأوْشَكَا
فقالوا لوضع حادثٍ يستجدّه يعاقب منه مطلباً ثم متركا
فقيل لهم: هذا الجنون بعينه ولو رامه منّا امرؤ كان أعْفَكَا(١)
ولو أن إنسانا غدا ليس قصده سوى الوضع واستخراجه عُدَّ مضحكَا

***

ولى أيضاً فى الردّ على مَنْ زعم أنّ النبي صلى الله عليه وآله رأى الله سبحانه بالعين، وهو الذى أنكرته عائشة، والعجَب لقوم من أرباب النظر جهلوا ما أدركته امرأة من نساء العرب:

عجبتُ لقومٍ يزعمون نبيَّهُمْ رَأى رَبَّهُ بالعين، تبًّا لهمْ تبًّا!
وهل تُدرِكُ الأبصارُ غيرَ مكيَّفٍ وكيف تبيحُ العينُ مايمنعُ القلبا!
إذا كان طرف القلب عن كنهه نبا حَسيراً، فطرف العين عن كنهه أنْبَى!

والمقطَّعات التى نظمتها فى إجلال البارئ سبحانه عن أن تحيط به العقول كثيرة، موجودة فى كتبي ومصنَّفاتى، فلتُلمح من مظانّها، وغرضنا بإيراد بعضها أن لها هنا تشييداً لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام علىّ فى هذا الباب.

***

قوله عليه السلام: «ليس بذى كِبَرٍ» إلى قوله «وعظُم سلطانا»، معناه أنه تعالى يطلق عليه من أسمائه الكبير والعظيم، وقد ورد بهما القرآن العزيز، وليس المراد بهما ما يستعمله الجمهور من قولهم: هذا الجسم أعظم وأكبر مقداراً من هذا الجسم، بل المراد عِظمُ شأنه وجلالة سلطانه.

والفلَج: النُصرة، وأصله سكون العين، وإنّما حرّكه ليوازن بين الألفاظ، وذلك

(١) الأعفك: الذى لا يحسن العمل.

لأن الماضى ،منه فَلَج الرجلُ على خَصمه بالفتح،ومصدره الفَلْج بالسكون ، فأمامن روى: « وظهور الفُلُج » بضمتين فقد سقط عنه التأويل ، لأن الاسم من هذا اللفظ : «الفُلج» بضم أول الكلمة ، فإذا استعملها الكاتب أو الخطيب جاز له ضمّ الحرف الثانى .

وصادعاً بهما : مظهراً مجاهداً ، وأصله الشق .

والأمراس : الحِبال ، والواحد مَرَس ؛ بفتح الميم والراء .

***

الأصْلُ :

منها فى صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان :

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ ٱلْقُدْرَةِ ، وَجَسِيمِ ٱلنِّعْمَةِ ، لَرَجَعُوا إِلَى ٱلطَّرِيقِ ، وَخَافُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ، وَلٰكِنِ ٱلْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ ، وَٱلْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ . أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَاخَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ ، وَفَلَقَ لَهُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ ، وَسَوَّى لَهُ ٱلْعَظْمَ وَٱلْبَشَرَ !

أُنْظُرُوا إِلَى ٱلنَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا ، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا،لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ ٱلْبَصَرِ ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ ٱلْفِكَرِ ؛ كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا،وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا ، تَنْقُلُ ٱلْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا ، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا ، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا ، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا ؛ مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا ، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا ؛ لَا يُغْفِلُهَا ٱلْمَنَّانُ ، وَلَا يَحْرِمُهَا ٱلدَّيَّانُ ، وَلَوْ فِي ٱلصَّفَا ٱلْيَابِسِ ، وَٱلْحَجَرِ ٱلْجَامِسِ !

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا ، وَفِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا ، وَمَا فِي ٱلْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا ، وَمَافِي ٱلرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا ، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً ، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً !

فتعالَى ٱلَّذِى أقامَهَا عَلَى قوَائِمِهَا ؛ وَبناهَا عَلَى دعائِمِهَا ! لَمْ يَشْرَكْهُ فِى فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ .

وَلَوْ ضَرَبْتَ فِى مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ ، مَادَلَّتْكَ ٱلدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ ٱلنَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ ٱلنَّخْلَةِ ؛ لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَىْءٍ ، وَغَامِضِ ٱخْتِلَافِ كُلِّ حَىٍّ .

وَمَا ٱلْجَلِيلُ وَٱللَّطِيفُ ، وَٱلثَّقِيلُ وَٱلْخَفِيفُ ، وَٱلْقَوِىُّ وَٱلضَّعِيفُ فِى خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ .

وَكَذَلِكَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْهَوَاءُ ، وَٱلرِّيَاحُ وَٱلْمَاءُ . فَٱنْظُرْ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ ، وَٱلنَّبَاتِ وَٱلشَّجَرِ ، وَٱلْمَاءِ وَٱلْحَجَرِ ، وَٱخْتِلَافِ هٰذَا ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَتَفَجُّرِ هٰذِهِ ٱلْبِحَارِ ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ ٱلْجِبَالِ ، وَطُولِ هَذِهِ ٱلْقِلَالِ ، وَتَفَرُّقِ هٰذِهِ ٱللُّغَاتِ ، وَٱلْأَلْسُنِ ٱلْمُخْتَلِفَاتِ .

فَٱلْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ ٱلْمُقَدِّرَ ، وَجَحَدَ ٱلْمُدَبِّرَ !

زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ ، وَلَا لِٱخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ ؛ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ٱدَّعَوْا ، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا دَعَوْا ، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ !

***

الشرح :

مدخولة : معيبة . وفَلَق : شقّ وخلق . والبَشَر : ظاهر الجلد .

قوله عليه السلام : « وصُبّت على رزقها » ، قيل : هو على العكس ، أى وصبّ رزقُها عليها ، والكلام صحيح ولا حاجة فيه إلى هذا ، والمراد : كيف همّت حتى انصبّت على رزقها انصباباً ؛ أى انحطت عليه . ويروى : « وضنّت على رزقها » بالضاد المعجمة والنون ، أى بخلت . وجُحْرها : بيتها .

قوله عليه السلام : « وفى وِرْدِها لصَدَرها » ، أى تجمع فى أيام التمكّن من الحركة لأيام العجز عنها ، وذلك لأنّ النمل يظهر صيفا ويخفى فى شدّة الشتاء لعجزه عن ملاقاة البرد .

قوله عليه السلام : « رزقُها وفقها[1] » أى بقدر كفايتها ، ويروى « مكفول برزقها مرزوقة بوفقها » .

والمنّان ؛ من أسماء الله تعالى العائد إلى صفاته الفعلية ، أى هو كثير المنّ والإنعام على عباده .

والديّان : المجازى للعباد على أفعالهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾[2] أى مجزيّون .

والحجَر الجامس : الجامد . والشراسيف : أطراف الأضلاع المشرفة على البطن .

***

[فصل فى ذكر أحوال الذرّة وعجائب النملة]

واعلم أن شيخنا أبا عثمان قد أورد فى كتاب " الحيوان " فى باب النملة والذرّة – وهى الصغيرة جدًّا من النمل – كلاماً يصلح أن يكون كلام أمير المؤمنين عليه السلام أصله ، ولكنّ أبا عثمان قد فرّع عليه .

قال : الذرّة تدّخر فى الصيف للشتاء ، وتتقدّم فى حال المهلة ، ولا تُضِيع أوقات إمكان الحزم ، ثم يبلغ من تفقّدها وصحّة تمييزها[3] ، والنظر فى عواقب أمورها[4] ؛ أنها تخاف على الحبوب التى ادّخرتها للشتاء [فى الصيف][5] ، أن تعفن وتسوّس فى

(١) كذا فى ا ، ب ؛ وما ورد فى أصل النهج يوافق ما فى الرواية التالية .
(٢) سورة الصافات ٥٣ .
(٣) الحيوان : « وحسن خبرها » .
(٤) الحيوان : « أمرها » .
(٥) من الحيوان .

بطن الأرض فتخرجها إلى ظهرها لتنثرها[(١)] وتعيد إليها جفوفها ، ويمرّ بها النسيم فينفى عنها اللَّخَن والفساد .

ثم ربما – بل فى الأكثر – تختار ذلك العمل ليلاً ، لأن ذلك أخْفَى ، وفى القمر لأنها فيه أبصر ، فإن كان مكَانها نديًا وخافت أن تنبت الحبّة نقرت موضع القِطْمِير[(٢)] من وسطها ؛ لعلمها أنها من ذلك الموضع تنبت ، وربما فلقت الحبّة نصفين . فأمّا إن كان الحب من حب الكُزْبَرة فإنها تفلقه أرباعاً ، لأنّ أنصاف حبّ الكُزبرة تنبت من بين جميع الحبوب ، فهى من هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوانات ، حتى ربما كانت فى ذلك أحزم من كثير من الناس ، ولها مع لطافة شخصها وخفّة وزنها فى الشمّ والاسترواح ما ليس لشىء ، فربما أكل الإنسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد ، فيسقط من يده الواحدة أو صدر واحدة ، وليس بقربه ذَرّة ولا له عهد بالذرّ فى ذلك المنْزل ، فلا يلبث أن تقبل ذَرّة قاصدة إلى تلك الجرادة ، فترومها وتحاول نقلها وجرّها إلى جُحْرها ، فإذا أعجزتها بعد أن تُبلِيَ عُذْراً مضت إلى جُحْرها راجعة ، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يجدها قد أقبلت وخلفها كالخيطِ الأسود الممدود ، حتى يتعاونَّ عليها فيحملْنَهَا . فاعجب من صدق الشمّ لما لا يشمّه الإنسان الجائع ! ثم انظر إلى بُعد الهمة والجرأة على محاولة نقل شىء فى وزن جسمها مائة مرة ، وأكثر من مائة مرّة ، بل أضعاف أضعاف المائة ، وليس شىء من الحيوان يحمل ما يكون أضعاف وزنه مرارا كثيرة غيرها .

فإن قال قائل[(٣)] : فمن أين علمتم أنّ التى حاولت نقل الجرادة فعجزت هى التى أخبرت صواحباتها من الذرّ ، وأنها التى كانت على مقدّمتهن ؟

قيل له : لطول التجربة ، ولأنّا لم نر قط ذرّةً حاولت جرّ جرادة فعجزة عنها ، ثم

(١) الحيوان : « لتيبسها » .

(٢) القطمير : شق النواة .

(٣) الحيوان : « فإن قلت » .

رأيناها راجعة إلا رأينا معها مثل ذلك ، وإن كنّا لا نفصل فى مرأى العين بينها وبين أخواتها ، فإنّه ليس يقع فى القلب غير الذى قلنا ، فدلّنا ذلك على أنها فى رُجوعها عن الجرادة أنّها إنما كانت لأشباهها كالرائد الذى لا يكذب أهله .

قال أبو عثمان : ولا يُنكر قولُنا : إنّ الذرّة توحى إلى أخواتها بما أشرنا إليه إلا من يكذّب القرآن ، فإنه تعالى قال فى قصّة سليمان : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ﴾ [١] ، فهل بعد هذا ريب أو شكٌّ فى أن لها قولا وبيانا وتمييزا !

فإن قلت : فلعلّها مكلّفة ، ومأمورة ومنهيّة ، ومطيعة وعاصية !

قيل : هذا سؤال جاهل ، وذلك أنّه لا يلزم أن يكون كلّ ذى حسٍّ ، وتمييز مكلّفا مأمورا منهيًّا ، مطيعا عاصيا ، لأنّ الإنسان غير البالغ الحلم قد يحفظ القرآن وكثيرا من الآثار ، وضروبا من الأخبار ، ويشترى ويبيع ، ويخدع الرجالَ ويسخَر بالمعلّمين ، وهو غير مكلَّف ولا مأمور ، لا منهىٌّ ولا عاص ولا مطيع ، فلا يلزم مما قلناه فى الذرّة أن تكون مكلّفة [٢] .

قال أبو عثمان : ومن عجيب ماسمعتُه من أمر النّملة ، ماحدّثنى به بعضُ المهندسين عن رجل معروفٍ بصنعة الإسطرلابات [٣] ، أنه أخرج طَوْقًا من صُفْر ـ أو قال من حديد ـ من الكير ، وقد أحماه ، فرمَى به على الأرض ليبرد ، فاشتمل الطَّوْق على نملة ، فأرادت أن تنفر يمنةً فلقيها وهجُ النار ، فأخذت يَسْرةً فلقيها وهجُ النّار ، فمضت قدُما فكذلك ، فرجعت إلى خلفها فكذلك ، فرجعت إلى وسط الدائرة ، فوجدها قد ماتت فى موضع رجل البِرْكار [٤] من الدائرة ، وهذا من العجائب .

قال أبو عثمان : وحدّثنى أبو عبيدالله الأفوَه، وما كنت أقدّم عليه فى زمانه من مشايخ

---

(١) سورة النمل ١٨ ، ١٩ . (٢) الحيوان ٤ : ٥ وما بعدها .

(٣) الإسطرلابات : جمع اسطرلاب ، وهى آلة يعرف بها الوقت، انظر شفاء الغليل للخفاجى : ٥١ .

(٤) البركار : اسم لآلة معروفة. قال صاحب شفاء الغليل: هومعرب «فرجار» . وقال: إنه لم يرد فى شعرقديم .

المعتزلة إلا القليل ، قال : قد كنت ألقى من الذرّ والنمل فى الرُّطب يكون عندى وفى الطعام عنتا كثيرا ، وذلك لأنى كنت لا أستقذر النملة ولا الذرة ، ثم وجدت الواحدة منهما إذا وقعت فى قارورة بانٍ أو زئبق أو خِيرِىّ ، فسد ذلك الدّهن وزنخ ، فقذرتها ونفرت منها ، وقلت : أخلِقْ بطبيعتها أن تكون فاسدةً خبيثة ، وكنت أرى لها عضًا منكرا ، فأقول : إنها من ذوات السّموم ، ولو أنّ بدَن النملة زيد فى أجزائه حتى يلحَق ببدن العقرب ، ثم عضّت إنسانًا لكانت عضّتُها أضرّ عليه من لَسْعَةِ العقرب .

قال : فاتخذت عند ذلك لطعامى منملة وقيّرتُها ، وصببت فى خندقها الماء ، ووضعت سلّة الطعام على رأسها ، فغبرت أياما أكشف رأس السلّة بعد ذلك ، وفيها ذرٌّ كثير ، ووجدت الماء فى الخندق على حاله ، فقلت : عسى أن يكون بعض الصبيان أنزلها ، وأكل مما فيها ! وطال مكثها فى الأرض ، وقد دخلها الذرّ ثم أعيدت على تلك الحال ، وتكلمتُ فى ذلك وتعرّفت الحال فيه ، فعرفت البراءة فى عذرهم ، والصّدق فى خبرهم ، فاشتد تعجّبى ، وذهبتْ بى الظّنُون والخواطر كلّ مذهب ، فعزمت على أن أرصدها وأحرسها ، وأتثبت فى أمرى ، وأتعرّف شأنى ، فإذا هى بعد أن رامت الخندق فامتنع عليها تركته جانبا ، وصعدت فى الحائط ، ثم مرّت عَلَى جِذْع السقف ، فلما صارت محاذيةً للسّلّة أرسلت نفسها فقلت فى نفسى : انظر كيف اهتدتْ إلى هذه الحيلة ولم تعلم أنها تبقى محصورة !

ثم قلت : وما عليها أنْ تبقى محصورة ؟ بل أىّ حصار على ذَرّةٍ وقد وجدت ماتشتهى .

قال أبو عثمان : ومن أعاجيب الذرّة أنها لا تعرض لجُعَلٍ ولا لجرادة ولا لخُنفساء ولا لبنت وَرْدان ، مالم يكن بها حبل أو عقر أو قطع رجل أو يد ، فإن وجدت بها من ذلك أدنى علة ، وثبتْ عليها ، حتى لو أن حيّة بها ضربة أو خَرْق أو خدش ، ثم كانت من

ثعابين مِصْر ، لوثب عليها الذرّ حتى يأكلها ، ولا تكاد الحيّة تسلَمُ من الذرّ إذا كان بها أدنى عقر .

قال أبو عثمان : وقد عذب الله بالذرّ والنمل أمما وأمما ، وأخرج أهل قرًى من قراهم ، وأهل دُروبٍ من دروبهم .

وحدّثنى بعضُ مَنْ أصدّق خبره ، قال : سألتُ رجلاً كان ينزل ببغداد فى بعض الدروب التى فى ناحية باب الكوفة التى جلا أهلها عنها ، لغلَبة النمل والذرّ عليها ، فسألته عن ذلك ، فقال : وما تصنع بالحديث ! امضِ معى إلى دارِى التى أخرجنى منها النمل .

قال ، فدخلتُها معه فبعث غلامه ، فاشترى رءوسا من الرأسين ليتغذى بها ، فانتقلنا هربا من النمل فى أكثر من عشرين مكانا ، ثم دعا بطستٍ ضخمة ، وصبّ فيها ماء صالحا ، ثم فرّق عظام الرءوس فى الدّار ، ومعه غلمانه ، فكان كلّما اسودّ منها عظم لكثرة النمل واجتماعه عليه ـ وذلك فى أسرع الأوقات ـ أخذه الغلام ففرّغه فى الطست بعود ينثُر به ماعليه فى جوف الطّسْت ، فما لبثنا مقدار ساعة من النّهار حتى فاضت الطست نملاً ، فقال: كم تظنّ أنى فعلت مثل هذا قبل الجلاء طمعا فى أن أقطع أصلها ! فلما رأيت عددها إمّا زائدا ، وإما ثابتا ، وجاءنا مالا يصبِر عليه أحد ، ولا يمكن معه مقام ، خرجت عنها .

قال أبو عثمان : وعذّب عمرُ بن هُبيرة سعيدَ بن عمرو الحَرِشىّ بأنواع العذاب ، فقيل له : إن أردت ألّا يفلح أبدا فمُرْهم فلينفخوا فى دُبره النمل ، ففعلوا فلم يفلح بعدها(١) .

---

(١) الحيوان ٤ : ٣٣ .

قال أبو عثمان : ومن الحيوان أجناسٌ يشبه الإنسان فى العقل والروية والنّظر فى العواقب والفكر فى الأمور ، مثل النمل ، والذرّ ، والفأر ، والجِرْذان ، والعنكبوت ، والنحل ، إلّا أنّ النحل لا يدّخر من الطّعم إلا جنسا واحدا وهو العسل (١) .

قال : وزعم البقطرىّ أنك لو أدخلت نَمْلَةً فى جُحْر ذرٍّ لأكلتها حتى تأتىَ على عامّتها ، وذكر أنه قد جرّب ذلك .

قال : وزعم صاحب المنطق أنّ الضّبُع تأكل النّمل أكلا ذريعا ، لأنّها تأتى قرية النمل وقت اجتماع النمل على باب القرية ، فتلحس ذلك النّمل كلّه بِلسانها ، بشهوة شديدة وإرادة قوية .

قال : وربّما أفسدت الأرضة على أهل القرى منازلهم ، وأكلت كلّ شىء لهم ، فلا تزال كذلك حتى ينشأ فى تلك القرى النمل ، فيسلّط الله عزّوجلّ ذلك النمل على تلك الأرَضة ، حتى تأتى على آخرها ، على أنّ النمل بعد ذلك سيكون له أذًى ، إلا أنه دون أذى الأرضة بعيدا ، وما أكثر مايذهب النمل أيضا من تلك القُرى ، حتى يتمّ لأهلها السلامة من النوعين جميعا .

قال : وقد زعم بعضهم أنّ تلك الأرَضة بأعيانها تستحيل نملا ، وليس فناؤها لأكل النّمل لها ، ولكنّ الأرَضة نفسها تستحيل نملا ، فعلى قدر مايستحيل منها يرى الناس النقصان فى عددها ومضرّتها على الأيام (٢) .

قال أبو عثمان : وكان ثُمامة يرى أنّ الذرّ صغار النمل ، ونحن نراه نوعا آخر كالبقر والجواميس .

قال : ومن أسباب هلاك النمل نبات أجنحته ، وقال الشاعر :

وإذا استوتْ للنمل أجنحةٌ ‌ ‌ ‌ حتى يطيرَ فقد دنا عَطَبُهْ

---

(١) الحيوان ٤ : ٣٤ .

(٢) الحيوان ٤ : ٣٤ ، ٣٥ .

وكان فى كتاب عبدالحميد إلى أبى مسلم : لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جناحا، فيقال : إن أبا مسلم لمّا قرأ هـذا الـكلام فى أول الـكتاب لم يتمّ قراءته وألقاه فى النار ، وقال : أخاف إن قرأته أن ينخب قلبى .

قال أبو عثمان : ويُقتل النمل بأن يصبّ فى أفواه بيوتها القَطِران والـكِبْريت الأصفر ، وأن يدسّ فى أفواهها الشّعر ، على أنّا قد جرّبْنا ذلك فوجدناه باطلاً .

فأما الحـكماء ، فإنهم لايثبتون للنّمل شَراسيف ولا أضلاعاً ، ويجب إن صحّ قولهم أن يحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام عَلَى اعتقادالجمهور ومخاطبةالعرب بماتتخيّله وتتوهّمه حقّاً ، وكذلك لايثبت الحـكماء للنّمل آذانا بارزة عن سطوح رءوسها ، ويجب إنْ صحّ ذلك أن نحمـل كلام أمير المؤمنين عليـه السلام عَلَى قوّة الإحساس بالأصوات ، فإنه لا يمـكن الحـكماء إنـكار وجود هذه القوّة للنمل ، ولهـذا إذاصيح عليهنّ هربن .

ويذكر الحـكماء من عجائب النمل أشياء ، منها أنّه لا جلد له ، وكذلك كلّ الحيوان المخرّز .

ومنها أنه لايوجد فى صِقِلّيَة نمل كبار أصلا .

ومنها أنّ النمل بعضه ماشٍ وبعضه طائر .

ومنها أن حراقة النمل إذا أضيف إليها شىء من قشور البيض وريش هدهد وعلقت عَلَى العضُد منعت من النوم .

* * *

قوله عليه السلام : « ولو ضربت فى مذاهب فـكرك لتبلغ غاياته » ، أى غايات فـكرك ، وضربت بمعنى سرت ، والمذاهب : الطرق . قال تعـالى : « وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي

ٱلْأَرْضِ » [١] وهذا الكلام استعارة .

قال : لو أمعنتَ النّظرَ لعلمتَ أنّ خالق النملة الحقيرَة هو خالق النّخلة الطويلة لأن كلّ شيء من الأشياء تفصيل جسمه وهيئته تفصيل دقيق ، واختلاف تلك الأجسام فى أشكالها وألوانها ومقاديرها اختلافٌ غامض السبب ، فلا بدّ للكلّ من مدبّر يحكم بذلك الاختلاف ويفعله ، على حسب مايعلمه من المصلحة .

ثم قال : وما الجليل والدقيق فى خلْقه إلا سواء ! لأنه تعالى قادر لذاته ، لايعجزه شىء من الممكنات .

ثم قال : « فانظر إلى الشمس والقمر » إلى قوله : « والألسن المختلفات »، هذا هو الاستدلال بإمكان الأعراض على ثبوت الصانع . والطرق إليه أربعة :

أحدها الاستدلال بحدوث الأجسام.

والثانى الاستدلال بإمكان الأعراض والأجسام .

والثالث الاستدلال بحدوث الأعراض .

والرابع الاستدلال بإمكان الأعراض .

وصورة الاستدلال هوأنّ كلّ جسم يقبل للجسميّةالمشتركة بينه وبين سائر الأجسام مايقبله غيره من الأجسام ، فإذا اختلفت الأجسام فى الأعراض فلا بدّمن مخصّص خصّص هذا الجسم بهذا العرَض دون أن يكون هذا العرَض لجسم آخر ، ويكون لهذا الجسم عرَض غير هذا العرَض ، لأن الممكنات لابدّ لها من مرجّح يرجِّح أحد طرفيهاعلى الآخر ، فهذا هو معنى قوله : « فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجّر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال ، وتفرّق هذه اللغات ، والألسن المختلفات » ، أى أنه يمكن أن تكون هيئة

---

(١) سورة النساء ١٠١ .

الشمس وضوءها ومقدارها حاصلاً لجِرْم القمر ، ويمكن أن يكون النبات الّذى لاساقَ له شجرا ، والشجر ذو الساق نباتا ، ويمكن أن يكون الماء صُلْبا والحجر مائعا ، ويمكن أن يكون زمان الليل مضيئا وزمان النهار مظلما ، ويمكن ألّا تكون هذه البحار متفجّرة بل تكون جبالا ، ويمكن ألّا تكون هذه الجبال الكبيرة كبيرةً ، ويمكن ألّا تكون هذه القلال طويلة . وكذلك القول فى اللغات واختلافها . وإذا كان كل هذا ممكنا فاختصاصُ الجسم المخصوص بالصّفات والأعراض والصّوَر المخصوصة لا يمكن أن يكون لمجرد الجسميّة لتماثل الأجسام فيها ، فلابدّ من أمرٍ زائد ، وذلك الأمر الزائد هو المعنىّ بقولنا : صانع العالم .

ثم سفّه آراء المعطِّلة ، وقال : « إنهم لم يعتصموا بحجّة ، ولم يحقِّقوا ما وعوْه » أى لم يرتّبوا العلوم الضروريّة ترتيباً صحيحا يفضى بهم إلى النتيجة الّتى هى حقّ .

ثم أخذ فى الردّ عليهم من طِريق أخرى ، وهى دعوى الضَّرُورة ، وقد اعتمد عليها كثيرٌ من المتكلّمين ، فقال : نعلم ضرورة أنّ البناء لابدّ له من بانٍ .

ثم قال : « والجناية لابدّ لها من جانٍ » ، وهذه كلمة ساقتْه إليها القرينة ، والمراد عموم الفعليّة لا خصوص الجناية ، أى مستحيل أن يكون الفعلُ من غير فاعل ، والذين ادّعَوْا الضرورة فى هذه المسألة من المتكلِّمين استغنوْا عن الطرق الأربع التى ذكرناها ، وأمير المؤمنين عليه السلام اعتمد أوّلاً على طريق واحدة ، ثم جنح ثانيا إلى دعوى الضرورة ، وكلا الطريقين صحيح .

***

الأصْلُ :

وَإنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ إذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ ؛ وَأَسْرَجَ لَهَا

حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ ؛ وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ ؛ وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ ، يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا ، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا ؛ وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لَا يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً .

فَتَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَوَجْهاً ؛ وَيُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سِلْماً وَضَعْفاً ، وَيُعْطِي الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً !

فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ ، أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفَسِ ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَالْيَبَسِ ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا ، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا ؛ فَهَذَا غُرَابٌ ، وَهَذَا عُقَابٌ ؛ وَهَذَا حَمَامٌ ، وَهَذَا نَعَامٌ ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ .

وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا ، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا ، فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا ، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا .

***

الشرح :

قوله : « وأسْرَج لها حَدقتين » أى جعلهما مضيئتين كما يضيء السراج ، ويقال : حدقة قمراء أى منيرة ، كما يقال : ليلة قمراء أى نيّرة بضوء القمر .

و « بهما تَقْرِض » أى تقطع ، والراء مكسورة .

والمِنْجلان : رجلاها ؛ شبّهها بالمناجل لعوجها وخشونتها .

ويَرْهبها : يخافها . ونزواتها : وثباتها . والجذب : المحل .

***

[ذكر غرائب الجراد وما احتوت عليه من صنوف الصنعة]

قال شيخنا أبو عثمان فى كتاب " الحيوان " : من عجائب الجرادة التماسُها لبيضها الموضعَ الصلْد ، والصخور المُلْس ، ثقةً منها أنها إذا ضرَبتْ بأذنابها فيها ، انفرجت لها ، ومعلوم أنّ ذنَب الجرادة ليس فى خلقة المنشار(١) ولا طرف ذنبه كحدّ السنان ، ولا لها من قوّة الأسْر ، ولا لذنَبها من الصَّلابة ما إذا اعتمدتْ به على الكُدْية(٢) خرج(٣) فيها ، كيف وهى تتعدّى إلى ما هو أصلبُ من ذلك ، وليس فى طَرَفها كإبرة العقرب .

وعلى أنّ العقربَ ليس تخرِقُ القُمْقُم(٤) ، من جهد الأيْد وقوّة البدن ، بل إنما ينفرج لها بطبع مجعول هناك ، وكذاك انفراج الصُّخور لأذناب الجراد .

ولو أنّ عُقاباً أرادت أن تخرِق جلد الجاموس لما انخرق لها إلّا بالتكلّف الشديد ، والعُقاب هى التى تنكدر(٥) على الذئب [الأطلس](٦) ؛ فتقدّ بدابرتها ما بين صَلاهُ إلى موضع الكاهل(٧) .

فإذا غرّزت(٨) الجرادة ، وألقت بيضَها ، وانضمّت عليها تلك الأخاديد التى هى أحدثها ، وصارت كالأفاحيص لها صارت حاضنةً لها ومربّية ، وحافظة وصائنة وواقية ، حتى إذا جاء وقت دَبِيب الرُّوح فيها حدث عَجَب آخر ، وذلك لأنه يخرج من بيضه

---

(١) فى الحيوان : « المسمار » .

(٢) الكدية : الصفاة العظيمة . وفى الحيوان : « الكدية والكذانة » ، واحدة الكذان ؛ وهى حجارة كأنها المدر فيها رخاوة .

(٣) فى الحيوان : «جرح» .

(٤) القمقم : ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره ، ويكون ضيق الرأس .

(٥) تنكدر : تنقضّ .

(٦) من الحيوان .

(٧) تقدّ : تقطع . والدابرة : الإصبع التى من وراء رجلها . والصلا بالفتح : وسط الظهر . والكاهل : مقدم أعلى الظهر .

(٨) غرزت الجرادة : أثبتت ذنبها فى الأرض لتبيض .

أصْهبَ إلى البياض ، ثم يصفرّ وتتلون فيه خطوط إلى السواد ، ثم يصير فيه خطوط سودٌ وبيض ، ثم يبدو حَجْم جناحه ، ثم يستقلّ فيموجُ بعضه فى بعض (١) .

قال أبو عثمان ، ويزعمُ قومأنّ الجرَاد(٢) قد يريد الخضرة ودونه النهر الجارى ، فيصير بعضه جسرا لبعض حتى يعبر إلى الخضرة ، وأن ذلك حيلة منها .

وليس كما زعموا ، ولكن الزحف الأوّل من الدّبا يريد الخُضرة فلا يستطيعُها إلّا بالعبور إليها ، فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافيةً صارت لعمرى أرضاً للزحف الثانى الذى يريد الخضرة ، فإن سمّوا ذلك جسرا استقام ، فأما أن يكون الزّحف الأول مهّد للثانى ومكّن له وآثره [بالكفاية] (٣) فهذا ما لا يعرف ، ولو أنّ الزحفين جميعا أشرفا على النهر ، وأمسك أحدهما عن تكلّف العبور حتى يمهد له الآخر لكان لما قالوه وجه (٤) .

قال أبو عثمان : ولعاب الجراد سمٌّ على الأشجار لا يقع على شىء إلا أحرقه .

فأمّا الحكماء فيذكرون فى كتبهم أنّ أرجل الجراد تقلع الثآليل ، وأنه [إذا] أخذت منه اثنتا عشرة جرادة ونزعت رءوسها وأطرافها ، وجعل معها قليل آس يابس ، وشربت للاستسقاء كما هى ، نفعت نفعا بيّنا ؛ وأن التبخّر بالجراد ينفع من عسر البول ، وخاصّة فى النساء ، وأن أكله ينفع من تقطيره ، وقد يبخّر به للبواسير ، وينفع أكله من لَسْعة العقرب .

ويقال : إن الجراد الطوال إذا عُلِّق على مَنْ به حُمّى الرِّبْع نفعه .

---

(١) الحيوان ٥ : ٥٤٩ ، ٥٥٥

(٢) فى الحيوان : « الدبا » .

(٣) من الحيوان .

(٤) الحيوان ٥ : ٥٦٢ .

(٢٣٢)

الأصْل :

ومن خطبة له عليه السلام : فى التوحيد ، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم مالا تجمعه خطبة غيرها :

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ . كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ .

فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ ، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ ؛ غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ ؛ لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ ؛ وَلَا تَرْفِدُهُ الأَدَوَاتُ ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالابْتِدَاءَ أَزَلُهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الفصل يشتمل على مباحث متعدِّدة :

أولها قوله : « ماوحَّدَهُ مَنْ كيّفه » ، وهذا حقّ لأنه إذا جعله مكيَّفاً جعله ذا هيئة وشكل ، أو ذا لونٍ وضوء ، إلى غيرهما من أقسام الكَيْف ، ومتى كان كذلك كان جسما ولم يكن واحدا ، لأنّ كلّ جسم قابل للانقسام ، والواحد حقا لايقبل الانقسام ، فقد ثبت أنه ما وحّده مَنْ كيّفه .

وثانيها قوله : « ولا حقيقته أصاب مَنْ مثّله » وهذا حقّ ، لأنه تعالى لا مثل له ، وقد دلّت الأدلّة الكلاميّة والحُكْميّة على ذلك ، فمَنْ أثبت له مثلا ، فإنه لم يصب

حقيقته تعالى ، والسَّجعة الأخرى تعطى هـذا المعنى أيضاً من غير زيادة عليه ، وهى قوله عليه السلام : « ولا إيّاه عَنَى مَنْ شبّهه » ولهذا قال شيوخنا : إنّ المشبِّه لا يعرف الله ، ولا تتوجّه عباداتُه وصلواته إلى الله تعالى ؛ لأنّه يعبد شيئاً يعتقده جسما ، أو يعتقده مشابها لبعض هذه الذوات المحدَثة ، والعبادة تنصرف إلى المعبود بالقصد ، فإذا قُصِد بها غيرُ الله تعالى لم يـكن قد عبدَ الله سبحانه ولا عرفه ، وإنّما يتخيّل ويتوهّم أنه قد عرفه وعبده ، وليس الأمر كما تخيّل وتوهّم .

وثالثها قوله عليه السلام : « ولا صَمَده مَنْ أشار إليه » أى أثبته فى جهة ، كما تقول الـكرّامية . الصَّمَد فى اللغة العربيّة : السّيّد . والصمَد أيضاً الذى لا جوف له ، وصار التّصميد فى الاصطلاح العرفىّ عبارة عن التنزيه ، والذى قال عليـه السلام حقّ ، لأنّ مَنْ أشار إليه ـ أى أثبته فى جهة كما تقوله الـكرّامية ـ فإنه ماصَمَده ، لأنّه مانزّهه عن الجهات ، بل حكم عليـه بمـا هو من خواصّ الأجسام ، وكذلك مَنْ توهّمه سبحانه ، أى مَنْ تخَيّل له فى نفسه صورة أو هيئـة أو شكلاً ، فإنّه لم ينزهـه عمّا يجب تنزيهه عنه .

ورابعها قوله : « كلّ معروف بنفسه مصنوع » ، هذا الـكلام يجب أن يتأوّل ، ويحمل على أنّ كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع ، وذلك لأنّ البارى سبحانه معروف من طريقين : إحداهما من أفعاله ، والأخرى بنفسه ؛ وهى طريقة الحكماء الّذين بحثُوا فى الوجود من حيث هو وجود ، فعلموا أنّه لابدّ من موجودٍ واجبِ الوجود ، فلم يستدلّوا عليـه بأفعاله ، بل أخرج لهم البحث فى الوجود أنه لابدّ من ذات يستحيل عدمها من حيث هى هى .

فإن قات : كيف يحمل كلامُه على أنّ كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع وهذا يدخل فيه كثير من الأعراض كالألوان ؟ وإذا دخل ذلك فسدت عليه الفقرة الثانية ،

وهى قوله عليه السلام : « وكلّ قائم فيما سواه معلول » لأنها للأعراض خاصّة ، فيدخل أحد مدلول الفقرتين فى الأخرى ، فيختلّ النظم !

قلت : يريد عليه السلام بالفقرة الأولى كلّ معروف بنفسه من طريق المشاهدة مستقلا بذاته ، غير مفتقر فى تقوّمه إلى غيره فهو مصنوع ، وهذا يختصّ بالأجسام خاصّة ، ولا يدخل الألوان وغيرها من الأعراض فيه ، لأنّها متقوّمة بمحالها .

وخامسها قوله : « وكلّ قائم فى سواه معلول » ، أى وكلّ شىء يتقوّم بغيره فهو معلول ، وهذا حقّ لامحالة ، كالأعراض؛ لأنها لوكانت واجبة لا ستغنت فى تقومها عن سواها ، لـكنّها مفتقرة إلى المحلّ الذى يتقوّم به ذواتها ؛ فإذا هى معلولة ، لأنّ كل مفتقر إلى الغير فهو ممكن فلا بدّ له من مؤثر .

وسادسها قوله : « فاعل لا باضطراب آلة » هذا لبيان الفرق بينه وبيننا ، فإنّنا نفعل بالآلات وهو سبحانه قادر لذاته فاستغنى عن الآلة .

وسابعها قوله : « مقدّر لا بجوْل فكرة » ، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه ، لأنّا إذا قدّرنا أجَلْنا أفكارنا ، وتردّدت بنا الدواعى ، وهو سبحانه يقدّر الأشياء على خلاف ذلك .

وثامنها قوله : « غنىّ لا باستفادة » ، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه ، لأن الغنىّ منّا مَنْ يستفيد الغنى بسبب خارجى ، وهو سبحانه غنى بذاته من غير استفادة أمر يصير به غنيا ، والمراد بكونه غنياً أن كل شىء من الأشياء يحتاج إليه ، وأنّه سبحانه لايحتاج إلى شىء من الأشياء أصلا .

وتاسعها قوله : « لاتصحبه الأوقات » ، هذا بحث شريف جداً ، وذلك لأنه سبحانه ليس بزمان ولا قابل للحركة ، فذاته فوق الزمان والدهر ؛ أمّا المتكلمون فإنهم يقولون :

إنّه تعالى كان ولا زمان ولا وقت ، وأما الحكماء فيقولون : إن الزمان عرَض قائم بعرَض آخر ، وذلك العرَض الآخر قائم بجسم معلول لبعض المعلولات الصادرة عنه سبحانه ، فالزمان عندهم ـ وإن كان لم يزل ـ إلّا أنّ العلّة الأولى ليست واقعة تحته ، وذلك هو المراد بقوله : « لا تصحبه الأوقات » إن فسّرناه على قولهم ، وتفسيره على قول المتكلّمين أوْلَى .

وعاشرها قوله : « ولا تَرْفِدُه الأدوات » ، رفدت فلانا إذا أعنتَه ؛ والمراد الفرق بيننا وبينه ؛ لأنّنا مرفودون بالأدوات ، ولولاها لم يصح منا الفعل ، وهو سبحانه بخلاف ذلك .

وحادى عشرها قوله : « سبق الأوقات كونُه . . . » إلى آخر الفصل ، هذا تصريح بحدوث العالم .

فإن قلت : ما معنى قوله : « والعدم وجوده » ، وهل يسبق وجوده العدم مع كون عدم العالم فى الأزَل لا أوّلَ له ؟

قلت : ليس يعنى بالعدم ها هنا عدم العالم بل عدم ذاته سبحانه ، أى غلب وجود ذاته عدمها وسبقها ، فوجب له وجود يستحيل تطرّق العدم إليه أزلا وأبدا بخلاف الممكنات ، فإنّ عَدمها سابق بالذّات على وجودها ، وهذا دقيق !

* * *

الأصْلُ

بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ .

ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ ؛ وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ ، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرْدِ .

مُؤلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا ، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا ، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا ، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا .

لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ ، وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا ؛ وَتُشِيرُ الآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا .

***

الشَّرْحُ

المشاعر الحواسّ ، قال بَلْعاء بن قَيْس :

والرَّأسُ مُرْتَفِعٌ فيهِ مشاعِرُهُ ... يَهْدِى السَّبيلَ له سَمعٌ وعَيْنانِ

قال : بجعله تعالى المشاعر عُرِف أن لا مشعرَ له ؛ وذلك لأنّ الجسم لا يصحّ منه فعل الأجسام ، وهذا هو الدليل الذى يعوّل عليه المتكلّمون فى أنّه تعالى ليس بجسم .

ثم قال : « وبمضادّته بين الأمور عرف أن لا ضدّ له » ، وذلك لأنّه تعالى لما دلّنا بالعقل على أن الأمور المتضادة إنّما تتضادّ على موضوع تقوم به وتحلّه كان قد دلّنا على أنه تعالى لا ضد له ، لأنه يستحيل أن يكون قائمًا بموضوع يحلّه كما تقوم المتضادّات بموضوعاتها .

ثم قال : « وبمقارنته بين الأشياء عُرِف أن لا قرين له » ، وذلك لأنّه تعالى قَرَن بين العَرَض والجوْهر ، بمعنى استحالة انفكاك أحدهما عن الآخر ، وقَرَن بين كثير من الأعراض ، نحو ما يقوله أصحابنا فى حياتَىِ القلب والكبِد ، ونحو الإضافات التى يذكرها الحكماء كالبنوّة والأبوّة والفوقيّة والتحتيّة ، ونحو كثير من العلل والمعلولات ، والأسباب والمسبَّبات ، فيما ركبه فى العقول من وجوب هذه المقارنة واستحالة انفكاك أحد الأمرين

---

(١) صحاح الجوهرى ٦٩٩ .

عن الآخر ، علمنا أنه لا قرينَ له سبحانه ، لأنه لو قارن شيئا على حسب هذه المقارنة لاستحال انفكاكه عنه ، فكان محتاجاً فى تحقق ذاته تعالى إليه ، وكلّ محتاج ممكن ، فواجب الوجود ممكن ! هذا محال .

ثم شرع فى تفصيل المتضادات ، فقال : « ضاد النورَ بالظُّلْمة » ، وهما عرَضان عند كثير من النّاس ، وفيهم مَنْ يجعل الظلمة عدميّة .

قال : « والوضوحَ بالبُهْمة » يعنى البياض والسواد .

قال : « والجمودَ بالبَلَل » ، يعنى اليبوسة والرطوبة .

قال : « والحَرورَ بالصَّرْد » يعنى الحرارة والبرودة ، والحرور ها هنا مفتوح الحاء ، يقال : إنى لأجد لهذا الطعام حَرورا وحَرورة فى فمى ، أى حرارة ، ويجوز أن يكون فى الكلام مضاف محذوف ، أى وحَرارة الحَرور بالصَّرْد ؛ والحرور هاهنا يكون الريح الحارّة ، وهى بالليل كالسَّموم بالنهار ، والصَّرْد : البرْد .

ثم قال : وإنّه تعالى مؤلِّف بين هذه المتباعدات ، المتعاديات : المتباينات ، وليس المراد من تأليفه بينها جمعه إيّاها فى مكان واحد ، كيف وذلك مستحيل فى نفسِه ، بل هو سبحانه مؤلف لها فى الأجسام المركّبة حتى خلع منها صورة مفردة ، هى المزاج ، ألا ترى أنّه جمع الحارّ والبارد والرطب واليابس ، فمزجه مَزْجاً مخصوصا حتى انتزع منه طبيعة مفردة ، ليست حارّة مطلقة ، ولا باردة مطلقة ، ولا رطبة مطلقة ، ولا يابسة مطلقة ، وهى المِزاج ، وهو محدود عند الحكماء بأنّه كيفيّة حاصلة من كيفيّات متضادة ، وهذا هو محصول كلامه عليه السلام بعينه .

والعَجب من فصاحته فى ضمْن حكمته ، كيف أعطى كلّ لفظةٍ من هذه اللفظات ما يناسبُها ويليق بها ، فأعطى المتباعدات لفظة « مقرّب » ؛ لأنّ البعد بإزاء القرب ،

وأعطى المتباينات لفظة « مقارن » ، لأنّ البينونة بإزاء المقارنة ، وأعطى المتعاديات لفظة « مؤلّف » لأنّ الائتلاف بإزاء التعادى .

ثم عاد عليه السلام فعكس المعنى ، فقال : « مفرّق بين متدانياتِها » ، فجعل الفساد بإزاء الكوْن ، وهذا من دقيق حكمته عليه السلام ، وذلك لأنّ كلّ كائن فاسد ، فلما أوضح ما أوضح فى الكوْن والتركيب والإيجاد ، أعقبه بذِكر الفساد والعدم ، فقال : « مفرّق بين متدانياتها » ، وذلك لأنّ كلّ جسم مركّبٌ من العناصر المختلفة الكيفيّات المتضادّة الطبائع ، فإنه سيؤول إلى الانحلال والتفرّق .

ثم قال: « لا يُشمَل بحدّ » ، وذلك لأنّ الحدّ الشامل ما كان مركّبا من جنس وفصل ، والبارى تعالى منزّه عن ذلك ، لأنه لو شمِله الحدّ على هذا الوجه يكون مركّباً ، فلم يكن واجب الوجود ، وقد ثبت أنّه واجب الوجود ، ويجوز أن يعنى به أنّه ليس بذى نهاية ، فتحويه الأقطار وتحدّه .

ثم قال : « ولا يحسب بعدّ » ، يحتمل أن يريد : لا تحسب أزليّته بعدّ ، أى لا يقال له : منذ وُجد كذا وكذا ، كما يقال للأشياء المتقاربة العهد ، ويحتمل أن يريد به أنّه ليس مماثلا للأشياء فيدخل تحت العدد ، كما تعدّ الجواهر ، وكما تعدّ الأمور المحسوسة .

ثم قال : « وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها » ، هذا يؤكّد معنى التفسير الثانى ، وذلك لأنّ الأدواتِ كالجوارح ، إنّما تحدّ وتقدر ما كان مثلها من ذوات المقادير، وكذلك إنّما تشير الآلات — وهى الحواسّ — إلى ما كان نظيرا لها فى الجسمية ولوازمها ، والبارى تعالى ليس بذى مقدار ولا جسم ، ولا حالّ فى جسم ، فاستحال أن تحدّه الأدوات وتشير إليه الآلات .

***

الأصل :

مَنَعَتْهَا مُنْذُ الْقِدْمة ، وَحَمَتْهَا قَدْ الْأَزَلِيَّةَ ، وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةَ ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ، وَلَا تَجْرِى عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ، وَكَيْفَ يَجْرِى عَلَيْهِ مَاهُوَ أَجْرَاهُ ، وَيَعُودُ فِيهِ مَاهُوَ أَبْدَاهُ ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَاهُوَ أَحْدَثَهُ !

إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ ؛ وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ ، وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ؛ وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الِامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَايُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ .

***

الشرح :

قد اختلف الرواة فى هذا الموضع من وجهين :

أحدهما قول مَنْ نصب « القِدمة » و « الأزليّة » و « التكْملة » فيكون نصبها عنده على أنّها مفعول ثانٍ ، والمفعول الأوّل الضمائر المتصلة بالأفعال ، وتكون « منذ » و « قد » و «لولا» فى موضع رفع بأنّها فاعلة، وتقدير الكلام : إنّ إطلاق لفظة«منذ» على الآلات والأدوات يمنعها عن كونها قديمة ، لأنّ لفظة «منذ» وضعت لابتداء الزمان كلفظة « من » لابتداء المكان ، والقديم لا ابتداء له ، وكذلك إطلاق لفظة « قد »على الآلات ، والأدوات تحميها وتمنعها من كونها أزليّة ، لأن « قد » لتقريب الماضى من الحال ، تقول : قد قام زيد ، فقد دلّ على أن قيامه قريب من الحال التى أخبرت فيها

بقيامه ، والأزلىّ لا يصحّ ذلك فيه ، وكذلك إطلاق لفظة «لولا» على الأدوات والآلات يجنّبها التكملة ، ويمنعها من التمام المطلق ، لأنّ لفظة «لولا» وضعت لامتناع الشيء لوجود غيره ، كقولك : لولا زيد لقام عمرو ، فامتناع قيام عمرو إنّما هو لوجود زيد ، وأنت تقول فى الأدوات والآلات وكلّ جسم : ما أحسنه لولا أنه فانٍ ! وما أتمّه لولا كذا ! فيكون المقصد والمنحَى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان أنّ الأدوات والآلات محدَثة ناقصة ، والمراد بالآلات والأدوات أربابُها .

الوجه الثانى : قول مَنْ رفع « القِدمة » و « الأزلية » و « التكملة » فيكون كلّ واحد منها عنده فاعلا ، وتكون الضمائر المتّصلة بالأفعال مفعولا أوّلا ، و« منذ » و« قد » و « لولا » مفعولا ثانيا ، ويكون المعنى أنّ قِدَم البارى وأزليّته وكماله منعت الأدوات والآلات من إطلاق لفظة « منذ » و « قد » و « لولا » عليه سبحانه ، لأنه تعالى قديم كامل ، ولفظتا « منذ » و « قد » لا يطلقان إلّا على محدَث ، لأنّ إحداهما لابتداء الزمان والأخرى لتقريب الماضى من الحَال ، ولفظة « لولا » لا تطلق إلّا على ناقص ، فيكون المقصد والمنحَى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان قِدَم البارى تعالى وكماله ، وأنه لا يصحّ أن يطلق عليه ألفاظ تدلّ على الحدوث والنَّقص .

* * *

قوله عليه السلام : « بها تجلّى صانعُها للعقول ، وبها امتنع عن نظر العيون » ، أى بهذه الآلات والأدوات التى هى حواسّنا ومشاعرنا ، وبخَلْقِه إياها ، وتصويرِه لها ، تجلّى للعقول وعُرِف ، لأنه لو لم يخلقها لم يعرف ، وبها امتنع عن نظر العيون ، أى بها استنبطنا استحالة كونه مرئيًّا بالعيون ، لأنّا بالمشاعر والحواسّ كملت عقولنا ، وبعقولنا استخرجنا الدلالة على أنه لا تصحّ رؤيته ، فإذن بخلقه الآلات والأدوات لنا عرفناه عقلا ، وبذلك

أيضا عرفنا أنّه يستحيل أن يعرَف بغير العقل ، وأنّ قول من قال : إنا سنعرفه رؤيةً ومشافهة بالحاسّة باطل .

قوله عليه السلام : « لاتجرى عليه الحركة والسكون » ، هذا دليلٌ أخذَه المتكلّمون عنه عليه السلام فنظموه فى كتبهم وقرروه ، وهو أنّ الحركة والسكون معانٍ محدَثة ، فلو حلّت فيه لم يخلُ منها ، وما لم يخل من المحدَث فهو محدث .

فإن قلت : إنه عليه السلام لم يخرج كلامه هذا المخرج ، وإنما قال كيف يجرى عليه ماهو أجراه ، وهذا نَمَطٌ آخر غير مايقرّره المتكلّمون !

قلت : بل هو هو بعينه ، لأنّه إذا ثبت أنّه هو الذى أجرَى الحركة والسكون ، أى أحدثهما لم يجز أن يجريا عليه ، لأنهما لو جرَيا عليه لم يخلُ إمّا أن يجرِيا عليه على التعاقب ، وليسا ولا واحد منهما بقديم ، أو يجريا عليه على أنّ أحدَهما قديم ثم تلاه الآخر ، والأوّل باطل بما يبطل به حوادث لا أوّل لها ، والثانى باطل بكلامه عليه السلام ، وذلك لأنّه لو كان أحدهما قديماً معه سبحانه لما كان أجراه ، لكن قد قلنا : إنّه أجراه ، أى أحدثه ، وهذا خُلْف محال . وأيضا فإذا كان أحدُهما قديماً معه لم يَجُزْ أن يتلوَه الآخر ، لأنّ القديم لايزول بالمحدَث .

ثم قال عليه السلام : « إذًا لتفاوتت ذاتُه ، ولتجزّأ كُنهه ، ولا متنع من الأزَل معناه » ، هذا تأكيد لبيان استحالة جرَيان الحركة والسّكون عليه ، تقول : لو صحّ عليه ذلك لكان محدَثاً ، وهو معنى قوله : « لامتنع من الأزَل معناه » ، وأيضا كان ينبغى أن تكون ذاته منقسمة ، لأنّ المتحرّك الساكن لابدّ أن يكون متحيزّا ، وكلّ متحيزّ جسم ، وكلّ جسم منقسم أبدا ، وفى هذا إشارة إلى نفى الجوْهر الفرد .

ثم قال عليه السلام : « ولكان له وراء إذا وُجِد له أمام » هذا يؤكد ماقلناه إنه إشارة إلى نفى الجوهر الفرد ، يقول : لو حلّته الحركة لكان جرماً وحجماً ؛ ولكان أحدُ وجهيه غيرَ الوجه الآخر لامحالة ، فكان منقسماً ، وهذا الكلام لايستقيم إلا مع نفى الجوهر الفرد ، لأنّ مَنْ أثبته يقول : يصحّ أن تحلّه الحركة ، ولا يكون أحد وجهيه غير الآخر ، فلا يلزم أن يكون له وراء وأمام .

ثم قال عليه السلام : « ولا التمس التمامَ إذ لزمه النقصان » ، هذا إشارة إلى مايقوله الحكماء ، منْ أنّ السكوْن عدم ونقْص ، والحركة وجود وكمال ، فلو كان سبحانه يتحرّك ويسكن لكان حال السكون ناقصاً قد عدم عنه كماله ، فكان ملتمساً كماله بالحركة الطارئة على السّكون ، وواجب الوجود ، يستحيل أن يكون له حالة نقصان ، وأن يكون له حالة بالقوّة وأخرى بالفعل .

قوله عليه السلام : « إذا لقامت آية المصنوع فيه » ، وذلك لأنّ آية المصنوع كونه متغيّراً منتقلا من حال إلى حال ، لأنا بذلك استدللنا على حدوث الأجسام ، فلو كان تعالى متغيراً متحركا منتقلا من حال إلى حال لتحقّق فيه دليل الحدوث ، فكان مصنوعاً ، وقد ثبت أنه الصّانع المطلق سبحانه .

قوله عليه السلام : « ولتحوّل دليلا بعد أن كان مدلولاً عليه » ، يقول : إنا وجدنا دليلنا على البارى سبحانه ، إنما هو الأجسام المتحرّكة ، فلو كان البارى متحرّكاً لكان دليلا على غيره ، وكان فوقه صانع آخر صنعه وأحدثه ، لكنه سبحانه لاصانعَ له ولا ذات فوق ذاته ، فهو المدلول عليه والمنتهى إليه .

قوله عليه السلام : « وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ماأثر فى غيره » ، فى هذا الكلام يتوهّم سامعه أنه عطف على قوله : « لتفاوتت » و « لتجزأ » و « لامتنع »

و « لكان له » « ولالتمس » و « لقامت » و « لتحوّل » وليس كذلك ، لأنه لو كان معطوفا عليها لاختلّ الكلام وفسد ، لأنها كلها مستحيلات عليه تعالى ،والمراد لو تحرّك لزم هذه المحالات كلّها.

وقوله :« وخرج بسلطان الامتناع »ليس من المستحيلات عليه ،بل هو واجب له،ومن الأمور الصادقة عليه ،فإذا فسد أن يكون معطوفا عليها وجب أن يكون معطوفا على ما كان مدلولا عليه ، وتقدير الكلام : كان يلزم أن يتحوّل البارى دليلا على غيره ، بعد أن كان مدلولا عليه ،وبعد أن خرج بسلطان الامتناع من أن يؤثّر فيه ما أثّر فى غيره ،وخروجه بسلطان الامتناع المراد به وجوب الوجود والتجريد وكونه ليس بمتحيّز ولا حالّ فى المتحيّز،فهذا هو سلطان الامتناع الذى به خرج عن أن يؤثّر فيه ما أثّر فى غيره من الأجسام والممكنات.

***

الأصْلُ :

ٱلَّذِى لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ ٱلْأُفُولُ . لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فيصيرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ ٱتِّخَاذِ ٱلْأَبْنَاءِ ، وَطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ ٱلنِّسَاءِ ، لَا تَنَالُهُ ٱلْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ ٱلْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ ، وَلَا تُدْرِكُهُ ٱلْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ ، وَلَا تَلْمِسُهُ ٱلْأَيْدِى فَتَمَسَّهُ ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِى ٱلْأَحْوَالِ ، وَلَا تُبْلِيهِ ٱللَّيَالِى وَٱلْأَيَّامُ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ ٱلضِّيَاءُ وَٱلظَّلَامُ .

***

الشّرح :

هذا الفصل كلّه واضح مستغنٍ عن الشرح ، إلا قوله عليه السلام : « لم يلد

فيكون « مولودا » ، لأنّ لقائل أن يقول : كيف يلزم من فرض كونه والدا أن يكون مولودا ؟ فى جوابه : إنه ليس معنى الكلام أنه يلزم من فرض وقوع أحدهما وقوع الآخر، وكيف وآدم والد وليس بمولود ! وإنّما المراد أنه يلزم من فرض صحّة كونه والداً صحّةُ كونه مولودا ، والتالى محال والمقدّم محال ، وإنما قلنا : إنه يلزم من فرض صحة كونه والدا صحّة كونه مولودا ، لأنه لو صحّ أن يكون والدا على التفسير المفهوم من الوالديّة، وهو أن يتصوّر من بعض أجزائه حىّ آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما نعقله فى النُّطفة المنفصلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أخرى ؛ حتى يكون منها بشر آخر من نوع الأوّل لصحّ عليـه أن يكون هو مولودا من والد آخر قبله ، وذلك لأنّ الأجسام متماثلة فى الجسميّة ، وقد ثبت ذلك بدليل عقلىٍّ واضح فى مواضعه التى هى أملَك به ، وكلّ مِثلَيْن فإنّ أحدهما يصحّ عليه ما يصحّ على الآخر ، فلو صحّ كونُه والدا يصحّ كونه مولودا .

وأمّا بيان أنه لا يصح كونه مولودا، فلأنّ كلّ مولود متأخّر عن والده بالزّمان ، وكلّ متأخر عن غيره بالزّمان محدَث ، فالمولود محدَث والبارى تعالى قد ثبت أنه قديم ، وأنّ الحدوث عليه محال ، فاستحال أن يكون مولودا ، وتمّ الدليل .

* * *

الأصْلُ

وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، ولا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ والأبْعاضِ ، وَلا يُقالُ : لَهُ حَدٌّ ولا نِهَايَةٌ ، ولا انْقِطاعٌ وَلا غَايَةٌ ؛ ولا أنَّ الأشياء تَحْوِيهِ ؛ فَتُقِلَّهُ أوْ تُهْوِيهُ ، أوْ أنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ فَيُمِيلُهُ

أَوْ يَعْدِلَهُ . لَيْسَ فِي الأَشياءِ بِوَالِجٍ ، ولا عَنْهَا بِخَارِجٍ .

يُخْبِرُ لا بِلِسانٍ وَلَهَوَاتٍ ، وَيَسْمَعُ لا بِخُرُوقٍ وأَدَوَاتٍ . يَقُولُ ولا يَلْفِظُ ، وَيَحْفَظُ ولا يَتَحَفَّظُ ، وَيُرِيدُ ولا يُضْمِرُ .

يُحِبُّ وَيَرْضَى مِن غَيْرِ رِقَّةٍ ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِن غَيْرِ مَشَقَّةٍ ، يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ : كُنْ فَيَكُونُ .

لا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ ، ولا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ ، وَإِنَّمَا كَلامُهُ سُبْحانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِناً ، وَلَوْ كانَ قَدِيماً لَكانَ إِلٰهاً ثانِياً .

***

الشرح :

فى هذا الفصل مباحث :

أولها : أنّ البارى سُبحانه لا يوصَف بشىء من الأجزاء ، أى ليس بمركّب ؛ لأنه لو كان مركّبا لافتقر إلى أجزائه ، وأجزاؤه ليست نفس هويّته ، وكلّ ذاتٍ تفتقر هويتها إلى أمر من الأمور فهى ممكنة ؛ لكنّه واجب الوجود ، فاستحال أن يوصَف بشىء من الأجزاء .

وثانيها : أنّه لا يوصَف بالجوارح والأعضاء كما يقول مثبتو الصورة ، وذلك لأنه لو كان كذلك لكان جسماً ، وكلّ جسم ممكن ، وواجب الوجود غير ممكن .

وثالثها : أنّه لا يوصَفُ بعرَض من الأعراض كما يقوله الكرّامية ؛ لأنه لو حلّه العرَض لكان ذلك العرَض ليس بأنْ يَحُلّ فيه أولى من أن يَحُلّ هو فى العرَض ، لأنّ معنى

الحلول حصول العَرَض فى حيّز المحلّ تبعا لحصول المحلّ فيه ، فما ليس بمتحيّز لا يتحقّق فيه معنى الحُلول ، وليس بأن يُجعَل محلا أوْلَى من أن يُجعَل حالًا !

ورابعها : أنّه لا يوصف بالغيريّة والأبعاض ، أى ليس له بَعْض ، ولا هو ذو أقسام بعضها غيراً للبعض الآخر ، وهذا يرجع إلى البحث الأوّل .

وخامسها : أنّه لاحدّ له ولا نهاية ، أى ليس ذا مقدار ، ولذلك المقدار طرَف ونهاية ، لأنه لو كان ذا مقدار لكان جسما ، لأن المقدار من لوازم الجسميّة ، وقد ثبت أنّه تعالى ليس بجسم .

وسادسها : أنّه لا انقطاع لوجوده ، ولا غاية ، لأنه لو جاز عليه العدم فى المستقبَل لكان وجوده الآن متوقفا على عدم سبب عدمه ، وكلّ متوقف على الغير فهو ممكن فى ذاته ، والبارى تعالى واجب الوجوب ، فاستحال عليه العدَم ؛ وأن يكون لوجوده انقطاع ، أو ينتهى إلى غاية يعدم عندها .

وسابعها : أنّ الأشياء لا تحويه فتقلّه ؛ أى ترفعه ، أو تهويه ؛ أى تجعله هاوياً إلى جهة تحت ، لأنه لو كان كذلك لكان ذا مقدار أصغر من مقدار الشىء الحاوى له ، لكنْ قد بيّنا أنه يستحيل عليه المقادير ، فاستحال كونه محويًّا .

وثامنها : أنّه ليس يحمله شىء فيميله إلى جانب، أويعد له بالنسبة إلى جميع الجوانب ، لأنّ كلّ محمول مقدّر ، وكل مُقدّر جسم ، وقد ثبت أنّه ليس بجسم .

وتاسعها : أنه ليس فى الأشياء بوالج ، أى داخل . ولا عنها بخارج ، هذا مذهب الموحّدين ؛ والخلاف فيه مع الكرّامية والمجسّمة ، وينبغى أن يفهم قوله عليه السلام : « ولا عنها بخارج » أنّه لا يريد سلبَ الوُلوج ، فيكون قد خلا من النّقيضين ، لأنّ ذلك محال ، بل المراد بكونه ليس خارجا عنها أنه ليس كما يعتقده كثيرٌ من الناس ؛ أنّ الفلك الأعلى المحيط لا يحتوِى عليه ؛ ولكنّه ذاتٌ موجودة متميّزة بنفسها ، قائمة

بذاتها ، خارجة عن الفلك فى الجهة العليا ، بينها وبين الفلك بعدٌ ، إمّا غير متناهٍ ـ على ما يحكى عن ابن الهيصم ـ أو متناهٍ على ما يذهب إليه أصحابه ؛ وذلك أنّ هذه القضيّة ، وهى قولنا : البارى خارج عن الموجودات كلّها على هذا التفسير ليست مناقضة للقضية الأولى، وهى قولنا : البارى داخل العالم ، ليكون القول بخلوّه عنهما قولا بخلوه عن النقيضيْن، ألا ترى أنه يجوز أن تكون القضيّتان كاذبتين معا ، بألاّ يكون الفلك المحيط محتويا عليه، ولا يكون حاصلا فى جهة خارج الفلك ، ولو كانت القضيتان متناقضتيْن لما استقام ذلك ، وهذا كما تقول : زيد فى الدار زيد فى المسجد ، فإنّ هاتين القضيتيْن ليستا متناقضتيْن ، لجواز ألا يكون زيد فى الدار ، ولا فى المسجد ، فإنّ هاتين لو تناقضتا لاستحال الخروج عن النقيضيْن ، لكن المتناقض : « زيد فى الدار ، زيد ليس فى الدار » ، والذى يستشنعه العوامّ من قولنا : « البارى لا داخل العالم ولا خارج العالم » غلط مبنىّ على اعتقادهم وتصوّرهم أنّ القضيتيْن تتناقضان ، وإذا فهِم ما ذكرناه بانَ أنه ليس هذا القول بشنيع ؛ بل هو سهل وحقّ أيضا ، فإنه تعالى لا متحيّز ولا حالّ فى المتحيّز ، وما كان كذلك استحال أن يحصُل فى جهة ؛ لا داخل العالم ولا خارج العالم ، وقد ثبت كونُه غير متحيّز ولا حالّ فى المتحيّز ، من حيث كان واجب الوجود ، فإذن القولُ بأنه ليس فى الأشياء بوالج ولا عنها بخارج صواب وحقّ .

وعاشرها : أنه تعالى يخبر بلا لسان ولَهوات ؛ وذلك لأنّ كونه تعالى مخبراً هو كونه فاعلا للخبر ، كما أنّ كونه ضاربا هو كونه فاعلا للضرب ، فكما لا يحتاج فى كونه ضاربا إلى أداة وجارحة يَضرب بها كذلك لا يحتاج فى كونه مخبرا إلى لسان ولَهوات يخبر بها .

وحادى عشرها : أنه تعالى يسمع بلا حروف وأدوات ، وذلك لأنّ البارى سبحانه حىٌّ لا آفة به ؛ وكلّ حىّ لا آفة به ؛ فواجب أن يَسمع المسموعات ، ويبصر المبصرات ،

ولا حاجـة به سبحانه إلى حروف وأدوات ، كما نحتاج نحن إلى ذلك ، لأنّا أحياء بحياة تحلّنا، والبارى تعالى حىّ لذاته ، فلمّا افترقنا فيما به كان سامعا ومبصرا ، افترقنا فى الحاجة إلى الأدوات والجوارح .

وثانى عشرها : أنّه يقول ولا يتلفّظ ، هذا بحث لفظىّ ، وذلك لأنه قد ورد السمع بتسميته قائلا ، وقد تـكرر فى الـكتاب العزيز ذكر هذه اللفظة ، نحو قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ﴾[1] ﴿ وقال اللهُ إنّى معـكم ﴾[2] ، ولم يرد فى السمع إطلاق كونه متلفّظا عليه ، وفى إطلاقه إيهام كونِهِ ذا جارحة ، فوجب الاقتصار على ماورد ، وتركُ مالم يرِد .

وثالث عشرها : أنّه تعالى يحفظُ ولا يتحفّظ ؛ أمّا كونه يحفظ فيطلَق على وجهين : أحدهما أنه يحفظ بمعنى أنه يحصِى أعمال عباده ويعلمها ، والثانى كونه يحفظُهم ويحرسهم من الآفات والدّواهى . وأمّا كونه لايتحفّظ فيحتمل معنيين . أحدهما أنّه لا يجوز أن يطلق عليه أنه يتحفّظ الـكلام ، أى يتـكلّف كونه حافظا له ، ومحيطا وعالما به ، كالواحد منـا يتحفّظ الدرس ليحفَظه ، فهو سبحانه حافظٌ غير متحفّظ . والثانى أنه ليس بمتحرّز ولا مشفق على نفسه خوفا أن تبدر إليه بادرة من غيره .

ورابع عشرها : أنه يريد ولا يضمر ، أمّا كونه مريداً فقـد ثبت بالسّمع نحو قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِـكُمُ الْيُسْرَ ﴾[3] ، وبالعقل لاختصاص أفعاله بأوقات مخصوصة ، وكيفيّات مخصوصة ، جاز أن تقع على خلافها ، فلا بدّ من مخصّص لهـا بما اختصّت به ؛ وذلك كونه مريدا ، وأمّا كونه لا يضمر فهو إطلاق لفظىّ لم يأذن فيه الشّرع ، وفيه إيهام كونه ذاقلب ، لأنّ الضمير فى العرْف اللغوىّ ماستـكنّ فى القلب ، والبارى ليس بجسم .

---

(١) سورة المائدة ١١٠ .
(٢) سورة المائدة ١٢ .
(٣) سورة البقرة ١٨٥ .

وخامس عشرها : أنه يحبّ ويرضى من غير رقّة ، ويبغض ويغضب من غير مشقّة، وذلك لأنّ محبته للعبد إرادته أن يثيبه ، ورضاه عنه أن يحمَد فعله ، وهذا يصحّ ويطلق على البارى ، لا كإطلاقه علينا ، لأنّ هذه الأوصاف يقتضى إطلاقها علينا رِقّة القلب ، والبـارى ليس بجسم ، وأما بغضه للعبد فإرادة عقابه وغضبِه كراهية فعله ووعيده بإنزال العقاب به ، وفى الأغلب إنما يطلَق ذلك علينا ويصحّ منا مع مشقّة تنالنا من إزعاج القلب وغَلَيان دمه ، والبارى ليس بجسم .

وسادس عشرها : أنه يقول لما أراد كونه : كن، فيكون من غير صوت يقرع ، ولا نداء يسمع ، هـذا مذهب شيخنا أبى الهذيل ، وإليه يذهب الكرّامية وأتباعها من الحنابلة وغيرهم ، والظّاهر أنّ أمير المؤمنين عليـه السلام أطلَقه حملاً على ظاهر لفظ القرآن فى مخاطبة الناس بما قد سمعوه وأنسوا به ، وتـكرّر على أسماعهم وأذهانهم ، فأمّا باطن الآية وتأويلها الحقيقىّ فغير ما يسبق إلى أذهان العوامّ ، فلْيطلب من موضعه .

وسابع عشرها : أنّ كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائنا، ولو كان قديما لـكان إلٰها ثانيا ، هذا هو دليل المعتزلة على نفى المعانى القديمة التى منها القرآن، وذلك لأنّ القِدَم عندهم أخصّ صفات البارى تعالى ، أو موجب عن الأخصّ ، فلو أنّ فى الوجود معنى قديما قائما بذات البارى ؛ لـكان ذلك المعنى مشاركا للبارى فى أخصّ صفاته ، وكان يجب لذلك المعنى جميع ما وجب للبارى من الصّفات ، نحو العالميّة والقادريّة وغيرهما ، فـكان إلٰهاً ثانياً .

***

فإن قلت : مامعنى قوله عليه السلام « ومثّله » ؟

قلت : يقال : مثّلت له كذا تمثيلا ، إذا صوّرتَ له مثاله بالـكتابة أو بغيرها، فالبارى مثّل القرآنَ لجبريل عليه السلام بالـكتابة فى اللّوح المحفوظ فأنزله على محمد صلى الله عليه وآله.

وأيضاً يقال : مثل زيد بحضرتى إذا حضر قائما ، ومثّلته بين يدى زيد أى أحضرته منتصبا ، فلمّا كان الله تعالى فعل القرآن واضحا بينا كان قد مثّله للمكلّفين .

***

الأصل

لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، فَتَجْرِىَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ وَلَا يَكُون بَيْنَهَا وبينه فَصْلٌ ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ ، فَيَسْتَوِىَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ .

خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوَدِ وَالاعْوِجَاجِ ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالانْفِرَاجِ .

أَرْسَى أَوْتَادَهَا ، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا ، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا ، وَخَدَّ أَوْدِيَتَهَا ؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ .

الشرح :

عاد عليه السلام إلى تنزيه البارئ تعالى عن الحدُوث ، فقال : لا يجوز أن يوصَف به فتجرى عليه الصّفات المحدَثات كما تجرى على كلّ محدَث، وروى : «فتجرى عليه صفات المحدَثات» وهو أليَق ، ليعود إلى المحدَثات ذوات الصفات مابعده؛ وهو قوله عليه السلام: « ولا يكون بينه وبينها فصل » ، لأنّه لا يحسن أن يعود الضمير فى قوله: «وبينها » إلى « الصفات » بل إلى « ذوات الصفات » .

قال : لو كان محدَثا لجرت عليه صفات الأجسام المحدَثة ، فلم يكن بينه وبين الأجسام المحدَثة فرْق ، فكان يستوى الصانع والمصنوع ، وهذا محال .

ثم ذكر أنّه خلق الخلْق غير محتذٍ لمثال ، ولامستفيد من غيره كيفيّة الصنعة، بخلاف الواحد منّا ، فإنّ الواحد منّا لا بدّ أن يحتذِىَ فى الصّنعة ، كالبنّاء والنّجّار والصّانع وغيرها .

قال عليه السلام : « ولم يستعنْ على خلْقها بأحدٍ من خلقه » ، لأنه تعالى قادر لذاته لا يُعجِزه شىء .

ثم ذكر إنشاءه تعالى الأرض ، وأنه أمسكها من غير اشتغال منه بإمساكها ، وغير ذلك من أفعاله ومخلوقاته ، ليس كالواحد منّا يمسك الثقيل فيشتغل بإمساكه عن كثير من أموره .

قال : « وأرساها » ، جعلها راسية على غير قرار تتمكّن عليه ، بل واقفة بإرادته التى اقتضت وقوفها ، ولأنّ الفلَك يجذبها من جميع جهاتها — كما قيل — أو لأنّه يدفعها من جميع جهاتها ، أو لأنّ أحد نصفيها صاعد بالطّبْع ، والآخر هابط بالطبع ، فاقتضى التعادل وقوفها ، أو لأنّها طالبة للمركز فوقفتْ .

والأوَد : الاعوجاج ، وكرّر لاختلاف اللفظ .

والتّهافت : التساقط . والأسداد : جمع سَدّ ، وهو الجبل ، ويجوز ضمّ السين .

واستفاض عيونَها ، بمعنى أفاض ، أى جعلها فائضة .

وخدّ أوديتها ، أى شقّها . فلم يَهُنْ مابناه ، أى لم يضعف .

***

الأصل :

هُوَ ٱلظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهُوَ ٱلْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وَٱلْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ ، وَلَا يَفُوتُهُ ٱلسَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ .

خَضَعَتِ ٱلْأَشْيَاءُ لَهُ ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ ، لَا تَسْتَطِيعُ ٱلْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضُرِّهِ ، وَلَا كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ .

هُوَ ٱلْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا ، وَلَيْسَ فَنَاءُ ٱلدُّنْيَا بَعْدَ ٱبْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَٱخْتِرَاعِهَا . وَكَيْفَ وَلَوِ ٱجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا ـ مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا ، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا ، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا ، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا ـ عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا ، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ ٱلسَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا ، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً ، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا ، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا !

***

الشرح :

الظاهر : الغالب القاهر ؛ والباطن : العالم الخبير .

والمُراح بضم الميم : النَّعم تُرَدُّ إلى المُراح، بالضم أيضا ؛ وهو الموضع الذى تأوى إليه النَّعم، وليس المُراح ضدّ السائم على ما يظنّه بعضهم ، ويقول : إنّ عطف أحدهما على الآخر عطف

على المختلف والمتضادّ ، بل أحدهما هو الآخر وضدهما المعلوفة ، وإنما عطف أحدهما على الآخر على طريقة العرب فى الخطابة، ومثله فى القرآن كثير،نحو قوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (١) .

وأسناخها : جمع سِنْخ بالكسر ، وهو الأصل .

وقوله : « لو اجتمع جميع الحيوان على إحداث بعوضة » ، هو معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ (٢) .

فإن قلت : مامعنى قوله : « لا تستطيع الهربَ من سُلْطانه إلى غيره فتمتنع مِنْ نَفْعِهِ وضرّه » ؟ وهلاّ قال : « من ضرّه » ؟ ولم يذكر النفع ، فإنه لا معنى لذكره هاهنا !

قلت : هذا كما يقول المعتصم بمعقِل حصين عن غيره : مايقدر اليوم فلان لى على نفع ولا ضرّ ، وليس غرضه إلّا ذكر الضرر ، وإنما يأتى بذكر النّفع على سبيل سلْب القدرة عن فلان على كلّ مايتعلق بذلك المعتصم ، وأيضا فإنّ العفو عن المجرم نفعٌ له ، فهو عليه السلام يقول : إنه ليس شىء من الأشياء يستطيع أن يخرج إذا أجرم من سلطان الله تعالى إلى غيره فيمتنع من بأس الله تعالى ، ويستغنى عن أن يعفو عنه لعدم اقتداره عليه .

***

الأصْلُ

وَإنه سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لَاشَىْءَ مَعَهُ، كَمَا كَانَ قبلَ ابْتِدَائِهَا ، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا ؛ بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ ، وَلَاحِينٍ وَلَازَمَانٍ .

عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْآجَالُ وَالْأَوْقَاتُ ، وَزَالَتِ السِّنُونُ وَالسَّاعَاتُ ، فَلَاشَىْءَ

---

(١) سورة فاطر ٣٥ . (٢) سورة الحج ٧٣ .

إلا اللهُ الواحدُ القهَّارُ ؛ الَّذِى إليه مصيرُ جميعِ الأمُورِ .

بِلاقُدْرَةٍ مِنها كانَ ابْتِداءُ خَلقِها ، وَبغَيرِ امْتِناعٍ مِنها كانَ فَناؤُها ، وَلَوْ قَدرَتْ عَلَى الامْتِناعِ لَدامَ بَقاؤُها .

لَمْ يَتَكاءَدْهُ صُنْعُ شَىْءٍ مِنها إذْ صَنَعَهُ ، وَلَمْ يَؤُدْهُ مِنْها خَلْقُ مابَرَأَهُ وَخَلَقَهُ ، وَلَمْ يُكَوِّنْها لِتَشْدِيدِ سُلْطانٍ ، وَلا لِخَوْفٍ مِنْ زَوالٍ وَنُقْصانٍ ، وَلا لِلاسْتِعانَةِ بِها عَلَى نِدٍّ مُكاثِرٍ ، وَلا لِلاحْتِرازِ بِها مِنْ ضِدٍّ مُثاوِرٍ ، وَلا لِلازْدِيادِ بِها فِى مُلْكِهِ ، وَلا لِمُكاثَرَةِ شَرِيكٍ فِى شِرْكِهِ ، وَلا لِوَحْشَةٍ كانَتْ مِنْهُ ، فَأَرادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إلَيْها . ثُمَّ هُوَ يُفْنِيها بَعْدَ تَكْوِينِها ؛ لا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِى تَصْرِيفِها وَتَدْبِيرِها ، وَلا لِراحَةٍ واصِلَةٍ إلَيْهِ ، وَلا لِثِقَلِ شَىْءٍ مِنها عَلَيْهِ ، لا يُمِلُّهُ طُولُ بَقائِها فَيَدْعُوَهُ إلَى سُرْعَةِ إفْنائِها ، وَلكِنَّهُ سُبْحانَهُ دَبَّرَها بِلُطْفِهِ ، وَأَمْسَكَها بِأَمْرِهِ ، وَأَتْقَنَها بِقُدْرَتِهِ ، ثُمَّ يُعِيدُها بَعْدَ الفَناءِ مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلَيْها ، وَلا اسْتِعانَةٍ بِشَىْءٍ مِنْها عَلَيْها ، وَلا لانْصِرافٍ مِنْ حالِ وَحْشَةٍ إلَى حالِ اسْتِئْناسٍ ، وَلا مِنْ حالِ جَهْلٍ وَعَمًى إلَى عِلْمٍ وَالْتِماسٍ ، وَلا مِنْ فَقْرٍ وَحاجَةٍ ؛ إلَى غِنًى وَكَثْرَةٍ ، وَلا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ ؛ إلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ .

***

الشرح :

شرع أوّلا فى ذكر إعدام الله سبحانه الجواهر ومايتبعها ويقوم بها من الأعراض قبل القيامة ، وذلك لأنّ الكتاب العزيز قد ورد به ، نحو قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ (١) ؛ ومعلوم أنه بدأه عن عدم ، فوجب أن تكون الإعادة عن عدم أيضا. وقال تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾ (٢) ؛ وإنما كان أوّلاً لأنه كان موجودا ، ولاشىء من

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٤ .
(٢) سوره الحديد ٣ .

الأشياء بموجود ، فوجب أن يكون آخرا كذلك ، هـذا هو مذهب جمهور أصحابنا وجمهور المسلمين .

ثم ذكر أنّه يكون وحده سبحانه بلا وقت ولا مكان ، ولا حينٍ ولا زمان ، وذلك لأنّ المكان إمّا الجسم الذى يتمكّن عليه جسم آخر ، أو الجهة ، وكلاهما لا وجودَ له بتقدير عدم الأفلاك وما فى حشوها من الأجسام ، أما الأوّل فظاهر ، وأما الثانى فلأنّ الجهة لا تتحقّق إلا بتقدير وجود الفلَك ، لأنها أمرٌ إضافىٌّ بالنسبة إليه ، فبتقدير عدمه لا يبقى للجهة تحقّق أصلا ، وهـذا هو القوْل فى عـدم المكان حينئذ ، وأما الزّمان والوقت والحين فكلّ هذه الألفاظ تعطى معنًى واحدا ، ولا وجود لذلك المعنى بتقدير عدم الفلك ، لأنّ الزمان هو مقدار حركة الفلك ، فإذا قدّرنا عدم الفلك فلا حرَكة ولا زمان .

ثم أوضح عليه السلام ذلك وأكّده ، فقال: « عدمت عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات » ، لأنّ الأجل هو الوقت الذى يحلّ فيه الدَّيْن أو تبطل فيه الحياة ، وإذا ثبتَ أنّه لا وقت ، ثبت أنه لا أجل ، وكذلك لا سنَة ولا ساعة ، لأنها أوقات مخصوصة .

ثم عاد عليه السلام إلى ذكر الدنيا ، فقال : « بلا قدرة منها كان ابتداء خلْقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها » ؛ يعنى أنّها مسخّرة تحت الأمر الإلهى .

قال : « ولو قَدَرت على الامتناع لدام بقاؤها » ، لأنها كانت تكون ممانعة للقديم سبحانه فى مراده ، وإنّما تمانعه فى مراده لو كانت قادرة لذاتها ، ولو كانت قادرة لذاتها وأرادت البقاء لبقيت .

قوله عليه السلام : « لم يتكاءده » بالمدّ ، أى لم يشقّ عليه ؛ ويجوز « لم يتكأده » بالتشديد والهمزة ، وأصله من العقبة الكئود ، وهى الشاقة .

قال : « ولم يؤده » أى لم يثقله .

ثم ذكر أنّه تعالى لم يخلق الدنيا ليشدّ بها سلطانه ، ولا لخوفه من زوال أو نقص يلحقه ، ولا ليستعين بها على ندٍ مماثل له ، أو يحترز بها عن ضدٍّ محارب له ، أو ليزداد بها ملكه ملكا ، أو ليُكاثر بها شريكاً فى شركته له ، أو لأنّه كان قبل خلقها مستوحشاً فأراد أن يستأنس بِمَنْ خلَق .

ثم ذكر أنه تعالى : « سيُفنيها بعد إيجادها » لا لضجرٍ لحقه فى تدبيرها ، ولا لراحة تصلُه فى إعدامها ، ولا لثقل شىء منها عليه حال وجودها ، ولا لملل أصابه فبعثه على إعدامها .

ثم عاد عليه السلام ، فقال : إنّه سبحانه سيعيدها إلى الوجود بعد الفناء ، لا لحاجة إليها ولا ليستعين ببعضها على بعض ، ولا لأنّه استوحش حال عدمها فأحبّ أن يستأنس بإعادتها ، ولا لأنه فقد علما عند إعدامها فأراد بإعادتها استجداد ذلك العلم ، ولا لأنه صار فقيراً عند إعدامها فأحبّ أن يتكثّر ويُثرِى بإعادتها ، ولا لذلٍّ أصابه بإفنائها فأراد العزّ بإعادتها .

فإن قلت : إذا كان يفنيها لا لكذا ولا لكذا ، وكان من قبلُ أوجدها لا لكذا ولا لكذا ، ثم قلتم : إنه يعيدها لا لكذا ولا لكذا ، فلأىّ حال أوجدها أولّا ، ولأىّ حال أفناها ثانيا ، ولأىّ حال أعادها ثالثاً ؟ خَبِّرُونا عن ذلك ، فإنكم قد حكيتم عنه عليه السلام الحكم ولم تحكُوا عنه العلّة !

قلت : إنما أوجدها أولا للإحسان إلى البشر ليعرفوه ، فإنّه لو لم يوجدهم لبقىَ مجهولا لا يعرف ، ثم كلّف البشر ليعرّضهم للمنزلة الجليلة التى لا يمكن وصولهم إليها إلا بالتكليف وهى الثواب ، ثم يفنيهم لأنّه لابدّ من انقطاع التكليف ليخلص الثواب من مشاقّ التكاليف ؛ وإذا كان لابدّ من انقطاعه فلا فرقَ بين انقطاعه بالعدم المطلق ،

أو بتفريق الأجزاء ، وانقطاعه بالعدم المطلق قد ورد به الشرع ، وفيه لطف زائد للمكلّفين ، لأنّه أردع وأهيَب في صدورهم من بقاء أجزائهم ، واستمرار وجودها غير معدومة .

ثم إنه سبحانه يبعثهم ويعيدُهم ليوصّل إلى كلّ إنسان مايستحقّهمن ثواب أوعقاب، ولا يمكن إيصال هذا المستحقّ إلا بالإعادة ، وإنّما لم يذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه التعليلات ، لأنهقد أشار إليها فيما تقدّم من كلامه ،وهي موجودة في فرش خُطَبه ، ولأنّ مقام الموعظة غير مقام التعليل ، وأمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة يسلُك مسلك الموعظة في ضمْن تمجيد البارى سبحانه وتعظيمه ، وليس ذلك بمظنّة التعليل والحِجاج .

(٢٣٣)

الأصلُ

ومن خطبة له عليه السلام تختص بذكر الملاحم :

أَلا بِأَبِي وَأُمّي هُمْ مِنْ عِدَّةٍ ! أَسْماؤُهُمْ فِي السَّماءِ مَعْرُوفَةٌ ، وَفِي الأَرْضِ مَجْهُولَةٌ أَلا فَتَوَقَّعُوا مايَكُونُ مِنْ إِدْبارِ أُمُورِكُمْ ، وَانْقِطاعِ وُصَلِكُمْ ، وَاسْتِعْمالِ صِغارِكُمْ .

ذاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ ! ذاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً من الْمُعْطِي ؛ ذاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرابٍ ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرارٍ ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْراجٍ ، ذاكَ إِذا عَضَّكُمُ الْبَلاءُ ، كَما يَعَضُّ الْقَتَبُ غارِبَ الْبَعِيرِ . ماأَطْوَلَ هذَا الْعَناءَ ! وَأَبْعَدَ هذَا الرَّجاءَ !

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلْقُوا هذِهِ الأَزِمَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُها الأَثْقالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ ، وَلا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعالِكُمْ ، وَلا تَقْتَحِمُوا مااسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نارِ الْفِتْنَةِ ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِها ، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَها ؛ فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ ، وَيَسْلَمُ فِيها غَيْرُ الْمُسْلِمِ . إِنَّما مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّراجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَها .

فاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا وَأَحْضِرُوا آذانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا .

* * *

الشَّرْحُ :

الإمامية تقول : هذه العدّة هم الأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام . وغيرهم يقول : إنه عَنَى الأبدال الذين هم أولياء الله فى الأرض ، وقد تقدّم منّا ذكر القطب والأبدال ، وأوضحنا ذلك إيضاحا جليًّا .

قوله عليه السلام : « أسماؤهم فى السماء معروفة » ، أى تعرفها الملائكة المعصومون ، أعلمهم الله تعالى بأسمائهم .

وفى الأرض مجهولة ، أى عند الأكثرين لاستيلاء الضلال على أكثر البشَر .

ثم خرج إلى مخاطبة أصحابه على عادته فى ذكر الملاحم والفتن الكائنة فى آخر زمان الدنيا ، فقال لهم : توقّعوا ما يكون من إدبار أموركم ، وانقطاع وُصَلكم — جمع وُصْلة — واستعمال صغاركم ، أى يتقدّم الصغار على الكبار ، وهو من علامات الساعة .

قال : ذاك حيث يكون احتمال ضربة السيف على المؤمن أقلَّ مشقة من احتمال المشقة فى اكتساب درهم حلال ، وذلك لأنّ المكاسب تكون قد فسدت واختلطت ، وغلَب الحرام الحلال فيها .

قوله : « ذاك حيث يكون المعطَى أعظم أجرا من المعطِى » ، معناه أن أكثر من يعطى ويتصدّق فى ذلك الزمان يكون ماله حراما فلا أجرَ له فى التصدّق به ، ثم أكثرهم يقصِد الرّياء والسُّمعة بالصدقة أو لهوَى نفسه ، أو لخطرة من خطراتِه ، ولا يفعل الحسن لأنّه حَسَن ، ولا الواجب لوجوبه ، فتكون اليدُ السفْلى خيراً من اليد العليا ، عكس ما ورد فى الأثر ، وأما المعطَى فإنه يكون فقيرا ذا عيال ، لا يلزمه أن يبحث عن المال أحرام هو أم حلال! فإذا أخذه ليسدّ به خلّته ، ويصرفه فى قوت عياله ، كان أعظم أجراً ممن أعطاه .

وقد خطر لى فيه معنى آخر ، وهو أنّ صاحب المال الحرام إنّما يصرفه فى أكثر الأحوال وأغلبها فى الفساد وارتكاب المحظور كما قال : « مَنِ اكتسب مالاً من نَهَاوِشٍ ، أذهبه اللّه فى نَهَابِرٍ »[1] . فإذا أخذه الفقير منه على وجْه الصدقة فقد فوّت عليه صرفه فى تلك القبائح والمحظورات التى كان بعرضته صرف ذلك القدر فيها لو لم يأخذه الفقير ، فإذاً قد أحسن الفقير إليه بكفّه عن ارتكاب القبيح ، ومن العصمة ألّا يقدر فكان المعطَى أعظمُ أجرا من المعطِى .

قوله عليه السلام : « ذاك حيث تَسْكَرُونَ من غير شراب ، بل من النَّعمة » ، بفتح النون ، وهى غَضارة العيش ، وقد قيل فى المثل : سُكْرُ الهوى أشدّ من سُكْرِ الخمر .

قال :«تحلفون من غير اضطرار» ؛ أى تتهاونون باليمين وبذكر الله عزّ وجلّ .

قال : « وتكذبون من غير إحراج » ، أى يصير الكذب لكم عادة ودُرْبة ، لا تفعلونه لأنّ آخر منكم قد أحرجكم واضطركم بالغيظ إلى الحلِف. وروى من غير «إحواج» بالواو ، أى من غير أن يُحوجكم إليه أحد .

قال : ذلك إذا عضّكم البلاء كما يعضّ القَتَبُ غاربَ البعير . هذا الكلام غير متصل بما قبله ، وهذه عادة الرضيّ رحمه الله يلتقط الكلام التقاطا ، ولا يتلو بعضه بعضاً ، وقد ذكرنا هذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدّم من الأجزاء الأُول ، وقبل هذا الكلام ذكر ماينالُه شيعتُه من البؤس والقنُوط ومشقّة انتظار الفرج .

قوله عليه السلام : «ماأطوَلَ هذا العناء ، وأبعد هذا الرجاء » ! هذا حكاية كلام شيعته وأصحابه .

---

(١) النهاوش : المظالم : والنهابر : المهالك ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ١٧ .

ثم قال مخاطبا أصحابه الموجودين حوله : أيّها الناس ، ألقُوا هذه الأزمّة التى تحمل ظهورُها الأثقَال عن أيديكم . هذه كناية عن النّهْى عن ارتكاب القبيح ومايوجب الإثم والعقاب . والظُّهورهاهنا : هى الإبل أنفسها . والأثقال : المآثم . وإلقاءالأزمّة : ترك اعتماد القبيح ، فهذا عمومه ، وأمّا خصوصه فتعريضٌ بما كان عليه أصحابه من الغدْر ومخامرة العدوّ عليه ، وإضمار الغِلّ والغشّ له ، وعصيانه والتلوّى عليه ، وقد فسّره بما بعده فقال: « ولا تصدّعوا عن سلطانكم » أى لا تفرّقوا ، « فتذمّوا غِبّ فعالكم » ، أى عاقبته .

ثم نهاهم عن اقتحام ما استقبلوه من فَوْر نارِ الفتنة وفَوْر النار : غليانها واحتدامُها ، ويروى : « ما استقبلكم » .

ثم قال : « وأمِيطوا عن سَنَنها » أى تنحَّوْا عن طريقها ، وخلّوا قصْد السبيل لها ، أى دعوها تسلك طريقها ولا تقفوا لها فيه فتكونوا حطباً لنارها .

ثم ذكر أنّه قد يهلك المؤمن فى لهبها ، ويسلَم فيه الكافر ، كما قيل : المؤمن ملقًّى والكافر موقًّى .

ثم ذكر أن مثله فيهم كالسُّرُج يستضىء بها من وَلَجها ؛ أى دخل فى ضوئها .

وآذانُ قلوبكم ؛ كلمة مستعارة ، جعل للقلب آذانا كما جعل الشاعر للقلوب أبصارا ، فقال :

يَدِقّ على النواظر ما أتاهُ فتُبصِره بأبصار القلوبِ

(٢٣٤)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أُوصِيكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ بِتَقْوَى ٱللهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلَائِهِ إِلَيْكُمْ ، وَنَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ ، وَبَلَائِهِ لَدَيْكُمْ ، فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ ! أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ !

وَأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ وَإِقْلَالِ ٱلْغَفْلَةِ عَنْهُ ، وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ ؛ فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ ؛ حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً ، وَكَأَنَّ ٱلْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً . أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا ، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ ٱنْتَقَلُوا ، لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ ٱنْتِقَالًا ، وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ٱزْدِيَاداً ، أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ .

فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ ٱللهُ إِلَى مَنَازِلِكُمُ ٱلَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا ، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا ، وَٱسْتَتِمُّوا نِعَمَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ ، فَإِنَّ غَداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ .

مَا أَسْرَعَ ٱلسَّاعَاتِ فِي ٱلْيَوْمِ ، وَأَسْرَعَ ٱلْأَيَّامَ فِي ٱلشَّهْرِ ، وَأَسْرَعَ ٱلشُّهُورَ فِي ٱلسَّنَةِ ، وَأَسْرَعَ ٱلسِّنِينَ فِي ٱلْعُمْرِ !

***

الشرح :

أعورتم ، أى انكشفتم وبدتْ عوراتكم ، وهى المَقاتِل ، تقول : أعور الفارس ، إذا بدت مَقاتلُه ، وأعورك الصَّيْدُ إذا أمكنك منه .

قوله عليه السلام : أوْحَشوا ما كانوا يوطنون أى أوطنوا قبورهم التى كانوا يوحشونها .

قوله عليه السلام : « واشتغلوا بما فارقوا » ، أى اشتغلوا وهم فى القبور بما فارقوه من الأموال والقيْنات ، لأنها أذًى وعقاب عليهم فى قبورهم ، ولولاها لكانوا فى راحة . ويجوز أن يكون حكاية حالهم وهم بعد فى الدنيا ، أى اشتغلوا أيام حياتهم من الأموال والمنازل بما فارقوه ، وأضاعوا من أمر آخرتهم ما انتقلوا إليه .

ثم ذكر أنّهم لا يستطيعون فعل حسنة ، ولا توبةً من قبيح ، لأنّ التكليف سقط ، والمنازل التى أمروا بعمارتها ، والمقابر ، وعمارتها الأعمال الصالحة .

وقوله عليه السلام : « إن غدا من اليوم قريب » كلام يجرى مجرى المثل ، قال :

* غدٌ ماغدٌ ماأقرب اليوم من غدِ *

والأصل فيه قول الله تعالى : ﴿ إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ[1] ﴾ .

وقوله عليه السلام : « ما أسرع الساعات فى اليوم . . . » إلى آخر الفصل ، كلام شريف وجيز بالغ فى معناه ، والفصل كلّه نادر لا نظير له .

---

(١) سورة هود ٨١ .

(٢٣٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَمِنَ الْإِيمَانِ ما يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ ، وَمِنْهُ مايَكُونُ عَوارِيَ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ .

وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الأَوَّلِ ، ما كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الْأُمَّةِ وَمُعْلِنِهَا . لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ ، وَلَا يَقَعُ اسْمُ الاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ ، وَوَعَاهَا قَلْبُهُ .

إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ ، وَلَا يَعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ ، وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ .

أَيُّهَا النَّاسُ . سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ ؛ قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا ، وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا .

***

الشرح :

هذا الفصل يحمل على عدة مباحث :

أولها قوله عليه السلام : فمن الإيمان ما يكون كذا . فنقول : إنه قسم الإيمان إلى ثلاثة أقسام :

أحدها : الإيمان الحقيقىّ ، وهو الثابت المستقرّ فى القلوب بالبرهان اليقينىّ .

الثانى : ماليس ثابتاً بالبرهان اليقينىّ بل بالدليل الجدَلىّ ، كإيمان كثير ممن لم يحقق العلوم العقلية ، ويعتقد مايعتقده عن أقِيسة جدليّة لاتبلغ إلى درجه البرهان ، وقد سمّى عليه السلام هذا القسم باسم مفرد ، فقال : إنه عوارى فى القلوب ، والعوارى : جمع عاريّة أى هو وإن كان فى القلب وفى محل الإيمان الحقيقىّ إلا أن حكمه حكم العاريّة فى البيت ، فإنّها بعرضة الخروج منه ، لأنها ليست أصلية كائنة فى بيت صاحبها .

والثالث : ماليس مستندا إلى برهان ولا إلى قياس جدلىّ ، بل على سبيل التقليد وحسن الظنّ بالأسلاف ، وبمن يحسن ظنّ الإنسان فيه من عابدٍ أو زاهد أو ذى وَرَع ، وقد جعله عليه السلام عوارىَ بين القلوب والصدور لأنه دون الثـانى ، فلم يجعله حالًا فى القلب ، وجعله مع كونه عاريّة حالًا بين القلب والصدر . فيـكون أضعفَ مما قبله .

فإن قلت : فما معنى قوله : « إلى أجل معلوم » ؟

قلت : إنه يرجع إلى القسمين الأخيرين ؛ لأنّ من لايـكون إيمـانُه ثابتا بالبرهان القطعىّ قد ينتقل إيمانه إلى أن يصير قطعيا ، بأن ينعم النّظر ويرتّب البرهان ترتيبا مخصوصا ، فينتج له النتيجة اليقينيّة ، وقد يصير إيمان المقلّد إيمانًا جدلياً فيرتقى إلى مافوقه مرتبته ، وقد يصير إيمان الجدلىّ إيمانا تقليديا بأن يضعف فى نظره ذلك القياس الجدلىّ ، ولا يكون عالما بالبرهان ، فيؤول حالُ إيمانه إلى أن يصير تقليدياً ، فهذا هو فائدة قوله : « إلى أجل معلوم » فى هذين القسمين .

فأمّا صاحب القسم الأوّل فلا يمكن أن يكون إيمانه إلى أجل معلوم ، لأنّ مَنْ ظفر بالبرهان استحال أن ينتقل عن اعتقاده ، لا صاعدا ولا هابطا ؛ أمّا لاصاعدا ، فلأنّه ليس فوق البرهان مقـام آخر ، وأما لا هابطا ، فلأن مادّة البرهان هى المقدّمات البديهيّـة

والمقدّمات البديهيّة يستحيل أن تضعف عند الإنسان حتى يصير إيمانه جدليًا أو تقليديا .

***

وثانيها قوله عليه السلام : «فإذا كانت لكم براءة» ، فنقول : إنّه عليه السلام نهى عن البراءة من أحدٍ مادام حيًا ، لأنه وإن كان مخطئا فى اعتقاده، لكن يجوز أن يعتقد الحقّ فيما بعد ، وإن كان مخطئا فى أفعاله ، لكن يجوز أن يتوبَ. فلا تحلّ البراءة من أحد حتى يموت على أمرٍ ؛ فإذا مات على اعتقادٍ قبيح أو فعل قبيح جازت البراءة منه ، لأنه لم يبق له بعد الموت حالة تُنتظَر ؛ وينبغى أن تحمل هذه البراءة التى أشار إليها عليه السلام على البراءة المطلقة ، لا على كلّ براءة ، لأنا يجوز لنا أن نبرأ من الفاسق وهو حىٌّ ، ومن الكافر وهو حىٌّ ، لكن بشرط كونه فاسقًا ، وبشرط كونه كافرا ، فأما مَنْ مات ونعلم ما مات عليه فإنا نبرأ منه براءة مطلقة غير مشروطة .

***

وثالثها قوله : « والهجرة قائمة على حدّها الأوّل » ، فنقول : هذا كلام يختصّ به أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو من أسرار الوصيّة ، لأنّ الناس يروُون عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « لاهجرة بعد الفتح » ، فشفع عمّه العباس فى نعيم بن مسعود الأشجعىّ أن يستثنيَه ، فاستثناه ، وهذه الهجرة التى يشيرُ إليها أمير المؤمنين عليه السلام ليست تلك الهجرة ، بل هى الهجرة إلى الإمام ، قال : إنها قائمة على حدها الأوّل مادام التكليف باقيا ، وهو معنى قوله : « ما كان لله تعالى فى أهل الأرض حاجة » .

وقال الراوندىّ : ما هاهنا نافية، أى لم يكن لله فى أهل الأرض من حاجة ، وهذا ليس بصحيح ، لأنّه إدخال كلام منقطع بين كلامين متّصل أحدهما بالآخر .

ثم ذكر أنّه لايصحّ أن يعدّ الإنسان من المهاجرين إلا بمعرفة إمام زمانه ، وهو

معنى قوله : « إلّا بمعرفة الحجّـة فى الأرض » . قال : « فمن عرف الإمام وأقرّ به فهو مهاجر » .

قال : ولا يجوز أن يسمّى مَنْ عرف الإمام مستضعفا ، يمكن أن يشير به إلى آيتين فى القرآن :

إحداهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾[1] ، فالمراد على هذا أنّه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعَف كما كان هؤلاء مستضعَفين ، وإن كان فى بلده وأهله لم يخرج ولم يتجشّم مشقّة السفر .

ثانيهما قوله تعالى فى الآية التى تلى الآية المذكورة : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾[2] فالمراد عَلَى هذا أنّه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعَفٍ كهؤلاء الذين استثناهم الله تعالى من الظالمين ، لأنّ أولئك كانت الهجرة بالبدن مفروضةً عليهم ، وعُفِىَ عن ذوى العجز عن الحركة منهم ، وشيعة الإمام عليـه السلام ليست الهجرة بالبـدن مفروضةً عليهم ، بل تـكفى معرفتهم به وإقرارهم بإمامتـه ، فلا يقع اسم الاستضعاف عليهم .

فإن قلت : فما معنى قوله : « من مستسرّ الأمّة ومعلنها » ، وبماذا يتعلّق حرف الجر ؟

قلت : معناه : مادام لله فى أهل الأرض المستسرّ منهم باعتقاده وللعلن حاجة ، ف « من » على هـذا زائدة ، فلو حذفت لجر المستسرّ بدلا من أهل الأرض ، ومن إذا كانت زائدة لاتتعلّق ، نحو قولك : ماجاءنى من أحد .

***

(١) سورة النساء ٩٧

(٢) سورة النساء ٩٨ ، ٩٩ .

ورابعها : قوله عليه السلام : « إن أمرَنا هذا صعب مستصعَب » ويروى : « مستصعِب ـ بكسر العين ـ لا يحتمله إلا عبد امتحن الله تعالى قلبَه للإيمان » ، هذه من ألفاظ القرآن العزيز ، قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (١) ، وهو من قولك : امتُحِن فلان لأمر كذا وجُرِّب ودُرِّب للنهوض به ، فهو مضطلع به غير وانٍ عنه ، والمعنى أنهم صُبُرٌ على التقوى أقوياء على احتمال مشاقّها ، ويجوز أن يكون وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأنّ تحققك الشيء إنما يكون باختباره كما يوضع الخبر موضع المعرفة ، فكأنه قيل : عرف الله قلوبَهم للتقوى ، فتتعلق اللام بمحذوف ، أي كائنة له ، وهي اللام التي في قولك : أنت لهذا الأمر ، أي مختصٌّ به كقوله :

* أعداء مَنْ لليعمَلات على الوَجا *

وتكون مع معمولها منصوبة على الحال ، ويجوز أن يكون المعنى : ضرب الله قلوبَهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى ، أي لتثبت فيظهر تقواها ، ويعلم أنهم متّقون ، لأن حقيقة التقوى لا تعلَم إلّا عنْد المحن والشدائد والاصطبار عليها . ويجوز أن يكون المعنى أنه أخلصَ قلوبهم للتقوى ، من قولهم : امتحن الذّهب ، إذا أذابه نخلّص إبريزه من خبَثه ونقّاه .

وهذه الكلمة قد قالها عليه السلام مراراً ، ووقفت في بعض الكتب على خُطبة من جملتها : إن قريشا طلبت السعادة فشقِيتْ ، وطلبت النجاة فهلكَت ، وطلبت الهدى فضلّت ، ألم يسمعوا ويحهم قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (٢) ؟ فأين المعدَل والمنزع عن ذرّية الرسول ، الذين شيّد الله بنيانهم فوق بنيانهم ، وأعلى رءوسهم فوق رءوسهم ، واختارهم عليهم ! ألا إنّ الذرّية أفنانٌ أنا شجرتها ، ودوحةٌ أنا ساقها ، وإنّى مِن أحمَدَ بمنزلة الضَّوء من الضّوء ، كنّا

(١) سورة الحجرات ٣

(٢) سورة الطور ٢١ .

ظلالا تحت العرش قبل خلق البشر ، وقبل خلق الطِّينة التى كان منها البشر ، أشباحاً عالية ، لا أجساما نامية ، إنّ أمرنا صعب مستصعَب ، لا يعرِف كنهه إلا ثلاثة : ملكَ مقرّب ، أو نبيٌّ مرسَل ، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان ، فإذا انكشف لكم سرٌّ أو وضح لكم أمرفاقبلوه ، وإلا فاسكُتوا تسلموا ، وردُّوا علمنا إلى الله فإنّكم فى أوسع مما بين السماء والأرض .

***

وخامسها : قوله : « سلُونى قبل أن تفقِدونى » ، أجمع النّاس كلُّهم على أنه لم يقلْ أحد من الصحابة ، ولا أحد من العلماء : « سلونى » غير علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ذكر ذلك ابن عبد البر المحدّث فى كتاب ” الاستيعاب “ .

والمراد بقوله : « فلأنا أعلم بطرُق السماء منّى بطرق الأرض » ، ما اختصّ به من العلم بمستقبل الأمور ، ولا سيّما فى الملاحم والدّول ، وقد صدّق هذا القولَ عنه ما تواتر عنه من الإخبار بالغيوب المتكرّرة ، لا مرة ولا مائة مرة ، حتى زال الشكّ والرّيب فى أنه إخبار عن علم ، وأنه ليس على طريق الاتفاق ، وقد ذكرنا كثيرا من ذلك فيما تقدّم من هذا الكتاب .

وقد تأوّله قوم على وجه آخر قالوا : أراد أنا بالأحكام الشرعيّة والفتاوى الفقهية أعلمُ منّى بالأمور الدنيويّة ؛ فعبّر عن تلك بطرق السماء ، لأنها أحكام إلهيّة ، وعبّر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضيّة . والأوّل أظهر ، لأنّ فحوى الكلام وأوّله يدلّ على أنه المراد .

***

[قصة وقعت لأحد الوعّاظ ببغداد]

وعلى ذكر قوله عليه السلام : « سلونى » ، حدّثنى مَنْ أثق به من أهل العلم حديثا، وإنْ كان فيه بعض الكلمات العاميّة ، إلّا أنّه يتضمّن ظَرفاً ولطفا ، ويتضمّن أيضا أدبا .

قال : كان ببغداد فى صدْرَ أيام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضىء بالله، واعظ مشهور بالحِذْق ومعرفة الحديث والرجال ، وكان يجتمع إليه تحت منبره خَلْق عظيم من عوامّ بغداد ومن فضلائها أيضا ، وكان مشتَهرا بذمّ أهل الكلام وخصوصا المعتزلة وأهل النظر ، على قاعدة الحشوِيّة ، ومبغضى أرباب العلوم العقلية ، وكان أيضا منحرفاً عن الشِّيعة برضا العامّة بالميل عليهم ، فاتفق قوم من رؤساء الشّيعة عَلَى أن يضعوا عليه مَنْ يبكّته ويسأله تحت منبره ، ويُخجِله ويفضحه بين الناس فى المجلس، وهذه عادة الوعّاظ؛ يقوم إليهم قوم فيسألونهم مسائل يتكلّفون الجواب عنها ، وسألوا عمّن ينتدب لهذا ، فأشير عليهم بشخص كان ببغداد يعرف بأحمد بن عبد العزيز الكزّىّ ، كان له لَسَن ، ويشتغل بشىء يسير من كلام المعتزلة ، ويتشيّع ، وعنده قحِة ،وقد شدا أطرافا من الأدب، وقد رأيت أنا هذا الشَّخْص فى آخر عمره ، وهو يومئذ شيخ،والنّاسُ يختلفون إليه فى تعبير الرؤيا ، فأحضروه وطلبوا إليه أن يعتمد ذلك ، فأجابهم ،وجلس ذلك الواعظ فى يومه الذى جرت عادته بالجلوس فيه ، واجتمع الناس عنده على طبقاتهم ، حتى امتلأت الدنيا بهم ، وتكلّم على عادته فأطال ، فلما مرّ فى ذكر صفات البارئ سبحانه فى أثناء الوعظ ، قام إليه الكزّىّ ، فسأله أسئلة عقليّة ، على منهاج كلام المتكلّمين من المعتزلة ، فلم يكن للواعظ عنها جواب نظرىّ ، وإنما دفعه بالخطابة والجدل ، وسجع الألفاظ ؛ وتردّد الكلام بينهما طويلا ، وقال الواعظ فى آخر الكلام أعيُن المعتزلة حُول ، وصوتى

فى مسامعهم طُبول ، وكلامى فى أفئدتهم نُصول ، يامن بالاعتزال يصول ، ويحك كم تحوم وتجول ، حولَ من لا تدركه العقول ! كم أقول ، كم أقول ! خلّوا هذا الفضول !

فارتجّ المجلس ، وصرخ الناس ، وعلت الأصوات ، وطاب الواعظ وطرب ، وخرج من هذا الفصل إلى غيره فشطَح شَطْح الصوفيّة ، وقال : سلونى قبل أن تفقدونى ، وكرّرها ؛ فقام إليه الكزىّ ، فقال : ياسيّدى ماسمعنا أنه قال هذه الكلمة إلّا علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وتمام الخبر معلوم . وأراد الكزىّ بتمام الخبر قوله عليه السلام : « لايقولها بعدِى إلّا مدّع ».

فقال الواعظ وهو فى نشوة طربه ، وأراد إظهار فضله ومعرفته برجال الحديث والرواة : مَنْ علىّ بن أبى طالب ؟ أهو علىّ بن أبى طالب بن المبارك النيسابورىّ ؟ أم علىّ بن أبى طالب ابن إسحاق المروزىّ ؟ أم علىّ بن أبى طالب بن عثمان القيروانىّ ؟ أم علىّ بن أبى طالب ابن سليمان الرازىّ ؟ وعدّ سبعةً أو ثمانية من أصحاب الحديث ، كلّهم علىّ بن أبى طالب.

فقام الكزىّ ، وقام مِنْ يمين المجلس آخر ، ومن يسار المجلس ثالث ، انتدبوا له ، وبذلوا أنفسهم للحميّة ووطّنوها عَلَى القتل .

فقال الكزىّ : أشا ياسيدى فلان الدين ، أشا ! صاحب هذا القول هو علىّ بن أبى طالب زوج فاطمة سيدة نساء العالمين عليها السلام ، وإن كنتَ ماعرفته بعد بعينه ، فهو الشخص الذى لما آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين الأتباع والأذناب آخى بينه وبين نفسه ، وأسجل عَلَى أنّه نظيره ومماثله ، فهل نقل فى جهازكم أنتم من هذا شىء ؟ أو نبت تحت خبّكم من هذا شىء ؟

فأراد الواعظ أن يكلّمه ، فصاح عليه القائم من الجانب الأيمن ، وقال : ياسيدى فلان الدين ، محمد بن عبد الله كثير فى الأسماء ، ولكن ليس فيهم من قال له رب العزّة :

﴿ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[1].
وكذلك علىّ بن أبى طالب كثير فى الأسماء ، ولكن ليس فيهم من قال له صاحب الشريعة : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلّا أنه لا نبىّ بعدى » .

وقد تلتقِى الأسماء فى الناس والكُنَى كثيراً ولكن مُيِّزوا فى الخلائقِ

فالتفت إليه الواعظ ليكلّمه ، فصاح عليه القائم من الجانب الأيسر ،وقال:ياسيّدى فلان الدين ، حقّك تجهله ، أنت معذور فى كونك لا تعرفه :

وإذا خفيتُ على الغبىّ فعاذرٌ ألّا ترانى مقلة عمياء !

فاضطرب المجلس وماج كما يموج البحر ، وافتتن الناس ، وتواثبت العامّة بعضها إلى بعض ، وتكشفت الرءوس ، ومزّقت الثياب ، ونزل الواعظ ، واحتُمل حتى أُدخل دارا أغلق عليه بابها ، وحضر أعوان السلطان فسكّنوا الفتنة ، وصرفوا النّاس إلى منازلهم وأشغالهم ، وأنفذ الناصر لدين الله فى آخر نهار ذلك اليوم ، فأخذ أحمد بن عبد العزيز الكرَىّ والرجلين اللّذين قاما معه ، فحبسهم أياما لتطفأ نائرة الفتنة . ثم أطلقهم .

---

(١) سورة النجم ٢ـ٤

(٢٣٦)

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَحْمَدُهُ شُكْراً لإِنْعَامِهِ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ ، عَزِيزَ الْجُنْدِ ، عَظِيمَ الْمَجْدِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ ، جِهَاداً عَنْ دِينِهِ ، لاَ يَثْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ ، وَالْتِمَاسٌ لإِطْفَاءِ نُورِهِ .

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللهِ ؛ فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ . وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ ، وَامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ ؛ فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ ، وَمُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ . وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الأَرْمَاسِ ، وَشِدَّةِ الإِبْلاَسِ ، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ ، وَرَوْعَاتِ الْفَزَعِ ، وَاخْتِلاَفِ الأَضْلاَعِ ، وَاسْتِكَاكِ الأَسْمَاعِ ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ ، وَغَمِّ الضَّرِيحِ ، وَرَدْمِ الصَّفِيحِ .

فَاللهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنٍ ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةَ فِي قَرَنٍ ، وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا ، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا ، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا . وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلاَزِلِهَا ، وَأَنَاخَتْ بِكَلاَكِلِهَا ، وَانْصَرَفَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا ، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا ، فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَى ، وَشَهْرٍ انْقَضَى ، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً ، وَسَمِينُهَا غَثّاً .

فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقَامِ ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا ، عَالٍ لَجَبُهَا ، سَاطِعٍ لَهَبُهَا ، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا ، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا ، بَعِيدٍ خُمُودُهَا ، ذَاكٍ وُقُودُهَا ، مَخُوف

وَعِيدُهَا ، عَمٍ قَرَارُهَا ، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا ، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا ، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا . ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ﴾ . قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ ، وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ ؛ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً ، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً ، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً ، تَخَشُّعاً وَاسْتِغْفَاراً ؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلاً ؛ تَوَحُّشاً وَانْقِطَاعاً ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً ، وَالْجَزَاءَ ثَوَاباً ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، فِي مُلْكٍ دَائِمٍ ؛ وَنَعِيمٍ قَائِمٍ .

فَارْعَوْا عِبَادَ اللهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ ، وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ ، فَلَا رَجْعَةً تَنَالُونَ ، وَلَا عَثْرَةً تُقَالُونَ .

اسْتَعْمَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ .

الْزَمُوا الْأَرْضَ ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً ، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ ، وَقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاتِهِ لِسَيْفِهِ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً .

***

الشرح :

وظائف حقوقه : الواجبات المؤقّتة ، كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان ، والوظيفة ما يُجعل للإنسان فى كلّ يوم ، أو فى كل شهر ، أو فى كلّ سنة ، من طعام ، أو رزق .

وعزيز منصوب ، لأنه حال من الضمير فى « أستعينه » ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير المجرور فى « حقوقه » وإضافة « عزيز » إلى « الجند » إضافة فى تقدير الانفصال، لا توجب تعريفه ليمتنع من كونه حالا .

وقاهَر أعداءه : حاربهم ، وروى « وقَهر أعداءه » .

والمعقل: مايعتصَم به . وذروته : أعلاه.

وأمهدوا له : اتخذوا مهاداً ، وهو الفراش ، وهذه استعارة .

قوله عليه السلام : «فإنّ الغاية القيامة» ،أى فإنّ منتهى كلّ البشر إليها،ولا بدّ منها .

والأرماس : جمع رَمْس وهو القبر . والإبلاس مصدر « أبلس » أى خاب ويئس ، والإبلاس أيضا : الانكسار والحزْن .

واستكاك الأسماع : صممها .

وغمّ الضريح : ضيق القبر وكَرْبه . والصفيح : الحجَر ، وردمُه : سدّه .

والسَّنَن: الطريق . والقرَن : الحبلُ .

وأشراط الساعة: علاماتها . وأزفت : قربت . وأفراطها : جمع فَرط ،وهم المتقدّمون السابقون من الموتى ، ومن روى « بإفراطها » فهو مصدر أفرط فى الشىء ،أى قربت الساعة بشدّة غُلوائها وبلوغها غاية الهول والفظاعة ، ويجوز أن تفسّر الرواية الأولى بمقدماتها وما يظهر قبلها من خوارق العادات المزعجة ، كالدّجال ودابّة الأرض ونحوهما ، ويرجع ذلك إلى اللفظة الأولى ، وهى أشراطها ، وإنما يختلف اللفظ .

والكلاكل : جمع كلكل ، وهو الصدر ، ويقال للأمر الثقيل : « قد أناخ عليهم بكلكله » ، أى هدّهم ورضّهم كما يهدّ البعير البارك من تحته إذا أنحى عليه بصدره .

قوله عليه السلام : « وانصرفت الدنيا بأهلها » أى ولّت، ويروى: « وانصرمت » أى انقضت .

والحِضْن ، بكسر الحاء : مادون الإبط إلى الكَشْح .

والرَّثّ : الخلَق ، والغثّ : المزيل .

ومقام ضَنْك ، أى ضيِّق .

وشديد كلَبها ،أى شرّهاوأذاها. واللجَب :الصوت .ووُقودهاهاهنا ،بضم الواو؛وهو الحدَث ، ولا يجوز الفتح ، لأنه مايوقد به كالحطب ونحوه ، وذاكِ لايوصف بأنه ذاكٍ .

قوله عليه السلام : « عَمٍ قرارُها » ، أى لايهتدَى فيه لظلمته ، ولأنه عميق جدا ، ويروى : « وكأنّ ليلهم نهار » وكذلك أختها على التشبيه .

والمآب : المرجع ، ومدينون : مجزيّون .

قوله عليه السلام : « فلارجعة تُنالون »الرّواية بضم التاء، أى تعطوْن ،يقال :أنلت فلانا مالا ، أى منحته ، وقد روى : « تَنَالون » بفتح التاء .

ثم أمر أصحابه أن يثبتُوا ولا يعجلوا فى محاربةِ مَنْ كان مخالطا لهم من ذوِى العقائد الفاسدة كالخوارج، ومَن كان يُبطِنُ هَوى معاوية ، وليس خطابه هذا تثبيطاً لهم عن حرب أهل الشام ، كيف وهو لايزال يقرِّعهم ويوبِّخُهم عن التقاعد والإبطاء فى ذلك ! ولكنّ قومًا من خاصّته كانوا يطّلعون على ماعند قوم من أهل الكوفة ، ويعرفون نفاقهم وفسادهم ، ويرومون قتلهم وقتالهم ، فنهاهم عن ذلك ، وكان يخاف فرقة جُنْده وانتشار حَبْل عسكره ، فأمرهم بلزوم الأرض ، والصبر على البلاء .

وروى بإسقاط الباء من قوله : « بأيديكم » ومَنْ رَوى الكلمة بالباء جعلها زائدة، ويجوز ألّا تكون زائدة ، ويكون المعنى : ولا تحرّكوا الفتنة بأيديكم وسيوفكم فى هوى ألسنتكم ،فحذف المفعول .

والإصلات بالسيف : مصدر أصلت ، أى سلّ .

***

واعلم أنّ هذه الخطبة من أعيان خُطَبه عليه السلام ، ومن ناصع كلامه ونادره ، وفيها من صناعة البديع الرائقة المستحسَنة البريئة من التكلّف مالا يخفى ، وقد أخذ ابنُ نُباتة الخطيب كثيرا من ألفاظها فأودعها خطبه ، مثل قوله : « شديد كلَبُها ، عال لجبها ، ساطع لهبها ، متغيّظ زفيرها ، متأجّج سعيرها ، بعيد خمودها ، ذاكٍ وقودها ، مخوف وعيدها ، عمٍ قرارها ، مظلمة أقطارُها ، حامية قدورها ، فظيعة أمورها » ؛ فإنّ هذه الألفاظ كلّها اختطَفها ، وأغار عليها واغتصبها ، وسمَّطَ بها خطبه ، وشذّر بها كلامه .

ومثل قوله : « هول المطّلع ، وروعات الفزع ، واختلاف الأضلاع ، واستكاك الأسماع ، وظلمة اللّحد ، وخيفة الوعد ، وغمّ الضريح ، وردم الصفيح » . فإن هذه الألفاظ أيضا تمضى فى أثناء خطبه ، وفى غضون مواعظه .

(٢٣٧)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ ، وَالْمُتَعَالِي جَدُّهُ ؛ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التُّؤَامِ ، وَآلَائِهِ الْعِظَامِ ، الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا ، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَاقَضَى ، وَعَلِمَ بِمَا يَمْضِي وَمَا مَضَى ، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ ، بِلَا اقْتِدَاءٍ وَلَا تَعْلِيمٍ ؛ وَلَا احْتِذَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ ، وَلَا إِصَابَةِ خَطَإٍ ، وَلَا حَضْرَةِ مَلَإٍ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ ، وَاسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ .

عِبَادَ اللّٰهِ ! أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللّٰهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ ؛ وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللّٰهِ حَقَّكُمْ ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللّٰهِ ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللّٰهِ ؛ فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ . لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ ، وَالْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً ، إِذَا أَعَادَ اللّٰهُ مَا أَبْدَى ، وَأَخَذَ مَا أَعْطَى ، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى . فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا ، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا ! أُولَئِكَ الْأَقَلُّونَ عَدَداً ، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [1] .

فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا ، وَأَلِظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا ، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفاً ، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقاً .

---

(١) سورة سبأ ١٣ .

أَيقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ ، وَاقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ ، وَارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ ؛ وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا ، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا .

أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا ، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهًا ؛ وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلَّاهًا ، وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى ، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا ، وَلَا تَشِيمُوا بَارِقَهَا ، وَلَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا ، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا ، وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا ، وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا ، فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ ، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ ، وَأَعْلَاقَهَا مَسْلُوبَةٌ .

أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ ، وَالْجَامِحَةُ الْحَرُونُ ، وَالْمَائِنَةُ الْخَؤُونُ ، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ ! حَالُهَا انْتِقَالٌ ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ ، وَعُلْوُهَا سُفْلٌ .

دَارُ حَرْبٍ وَسَلَبٍ ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ ، أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَاقٍ ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ ، قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا ، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا ، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا ، فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ ، وَلَفَظَتْهُمُ الْمَنَازِلُ ، وَأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ ؛ فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ ، وَشِلْوٍ مَذْبُوحٍ ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ ، وَعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ ، وَصَافِقٍ بِكَفَّيْهِ ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ ، وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ .

وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا ، ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ [1] .

***

---

(١) سورة الدخان ٢٩ .

الشرح :

الفاشى : الذائع ، فشا الخبرُ يفشو فشوًّا ، أى ذاعَ ، وأفشاه غيرُه . وتفشّى الشىء ، أى اتّسع ، والفواشى : كلُّ منتشر من المال مثل الغنم السائمة والإبل وغيرهما ، ومنه الحديث : « ضمُّوا فواشيَكم حتى تذهب فحمة العشاء » ،فيجوز أن يكونعَنَى بفشوّ حمده إطباق الأمم قاطبةً على الاعتراف بنعمته ، ويجوز أن يريد بالفاشى سبب حمده ، وهو النِّعم التى لا يقدر قدرها ، فحذف المضاف .

قوله : « والغالب جنده » ، فيه معنى قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴾ [(١)] .

قوله : « والمتعالى جَدّه » فيه معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ [(٢)] ، والجدّ فى هذا الموضع وفى الآية : العظمة .

والتؤام : جمع توءم على فوْعل ، وهو الولد المقارن أخاه فى بطن واحد ، وقد أتأمت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك ، فهى متئم ، فإن كان ذلك عادتها فهى مِتْآم ، وكلّ واحد من الولدين توءم ، وهما توءمان ، وهذا توءم هذا ، وهذه توءمته ، والجمع توائم ، مثل قشعم وقشاعم ، وجاء فى جمعه « تُؤَام » على فُعال ، وهى اللفظة التى وردت فى هذه الخطبة ، وهو جمع غريب لم يأت نظيره إلا فى مواضع معدودة ، وهى عَرْق العظْم يؤخذ عنه اللحم وعُراق ، وشاة رُبَّى للحديثة العهد بالولادة وغنم رُباب ، وظئر المرضعة غير ولدها وظُؤار ، ورَخْـل للأنثى من أولاد الضأن ورُخال ، وفَرِير لولد البقرة الوحشية ، وفُرار [(٣)] .

والآلاء : النِّعم .

---

(١) سورة المائدة ٥٦ (٢) سورة الجن ٣ .

(٣) انظر صحاح الجوهرى ٤ : ١٥٢٣ واللسان — فرر .

قوله عليه السلام : « مبدِع الخلائق بعلْمه » ، ليس يريد أنّ العلم علة فى الإبداع ، كما تقول : هوى الحجَر بثقله ، بل المراد : أبدع الخلق وهو عالم ، كما تقول : خرج زيد بسلاحه ، أى خرج متسلِّحاً ، فموضع الجار والمجرور على هذا نصب بالحاليّة ، وكذلك القول فى : « ومنشئهم بحُكْمِه » والحُكْم ها هنا : الحِكْمة .

ومنه قوله عليه السلام : « إنّ من الشعر لحكمة » .

قوله : « بلا اقتداء ، ولا تعليم ولا احتذاء » قد تكرّر منه عليه السلام أمثاله مراراً .

قوله : « ولا إصابة خطأ » تحته معنى لطيف ، وذلك لأنّ المتكلّمين يورِدون على أنفسهم سؤالًا فى باب كونه عالما بكل معلوم إذا استدلّوا على ذلك فإنه علم بعض الأشياء لا من طريق أصلا ، لا من إحساس ولا من نظر واستدلال ، فوجب أن يعلم سائرها ، لأنه لا مخصّص ، فقالوا لأنفسهم : لم زعمتم ذلك ؟ ولم لا يجوز أن يكون فعَل أفعاله مضطربة ، فلمّا أدركها علم كيفيّة صنعها بطريق كونه مدركا لها فأحكمها بعد اختلالها واضطرابها ! وأجابوا عن ذلك بأنه لا بدّ أن يكون قبل أن فعلها عالماً بمفرداتها من غير إحساس ، ويكفى ذلك فى كونه عالماً بما لم يتطرّق إليه ، ثم يعود الاستدلال المذكور أوّلا .

قوله عليه السلام : « ولا حضره ملأ » ، الملأ : الجماعة من النّاس وفيه معنى قوله تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [1] .

قوله : « يضربون فى غَمْرة » ، أى يسيرون فى جَهْل وضلالة ، والضرب : السير السريع .

والحَيْن : الهلاك . والرَّين : الذنب عَلَى الذنب حتى يسودّ القلب ، وقيل : الرَّيْن :

---

(١) سورة الكهف ٥١ .

الطَّبَع والدنس ، يقال . رانَ عَلَى قلبه ذنبُه ، يرِين رَيْناً ، أى دنّسه ووسّخه ، واستغلقت أقفالُ الرَّيْن عَلَى قلوبهم : تعسّر فتحها .

قوله : « فإنّها حقُّ الله عليكم ، والموجِبة عَلَى الله حقّكم » يريدُ أنّها واجبة عليكم ، فإن فعلتموها وجبَ عَلَى الله أن يجازيَكم عنها بالثّواب ، وهذا تصريح بمذهب المعتزلة فى العدْل ، وأنّ من الأشياء مايجب عَلَى الله تعالى من باب الحكمة .

قوله : « وأنْ تستعينوا عليها بالله ، وتستعينوا بها عَلَى الله » ، يريد : أوصيكم بأنْ تستعينوا بالله عَلَى التقوى بأن تدْعوه وتبتهلوا إليه أن يعينكم عليها ، ويوفّقكم لها ويسّرها ويقوّى دواعيَكم إلى القيام بها ، وأوصيكم أن تستعينوا بالتقوى عَلَى لقاء الله ومحاكمته وحسابه ، فإنّه تعالى يوم البعث والحساب كالحاكم بين المتخاصمين : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾[1] ، فالسعيدُ مَن استعان عَلَى ذلك الحساب وتلك الحكومة والخصومة بالتقوى فى دار التكليف ، فإنّها نعم المعونة ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ .

والجُنّة : مايستتر به .

قوله : « ومستودَعها حافظ » ، يعنى الله سبحانه ، لأنّه مستودع الأعمال ، ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[2] ، وليس ماقاله الراونديّ من أنه أراد بالمستودَع قلب الإنسان بشىء .

قوله : «لم تبرح عارضةً نفسها» ، كلام فصيح لطيف ، يقول : إنّ التقوى لم تزل عارضةً نفسها عَلَى مَنْ سلف من القرون ، فقبِلها القليل منهم ، شبّهها بالمرأة العارضة نفسها نكاحا على قومٍ ، فرغب فيها مَنْ رغب ، وزَهِد مَنْ زهد ، وعلى الحقيقة ليست

---

(١) سورة الجاثية ٢٨ .
(٢) سورة الكهف ٣٠ .

هى العارضه نفسَها ، ولكنّ المكلّفين ممكَّنون من فعلها ومرغَّبون فيها ، فصارت كالعارضة .

والغابر هاهنا : الباقى ، وهو من الأضداد يستعمل بمعنى الباقى ، وبمعنى الماضى .

قوله عليه السلام : « إذا أعاد الله ما أبدى » ، يعنى أنشر الموتى وأخذ ما أعطى وورث الأرض مالك الملوك فلم يبقَ فى الوجود مَنْ له تصرُّف فى شىء غيره ، كما قال : ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1] . وقيل فى الأخبار والحديث : إنّ الله تعالى يجمع الذهب والفضة كلّ ما كان منه فى الدنيا ، فيجعله أمثالَ الجبال ، ثم يقول : هذا فتنة بنى آدم ، ثم يسوقه إلى جهنّم فيجعله مكاوىَ لجباه المجرمين .

« وسأل عمّا أسدى » ؛ أى سأل أرباب الثروة عمّا أسدى إليهم من النعم فيم صرفوها ؟ وفيم أنفقوها ؟

قوله عليه السلام : « فما أقلّ مَنْ قبلها ! » ، يعنى ما أقلّ مَنْ قبِل التقوى العارضة نفسها على الناس .

وإذا فى قوله : « إذا أعاد الله » ؛ ظرف لحاجتهم إليها ، لأنّ المعنى يقتضيه ، أى لأنهم يحتاجون إليها وقت إعادة الله الخلق ؛ وليس كما ظنّه الراوندىّ أنه ظرف لقوله : « فما أقل مَنْ قَبِلها » ، لأنّ المعنى على ماقلناه ، ولأنّ مابعد الفاء لا يجوز أن يكون عاملا فيما قبلها .

قوله : « فأهطِعوا بأسماعكم » ، أى أسرعوا ، أهطع فى عَدْوه أى أسرع . ويروى : « فانقطعوا بأسماعكم إليها » ، أى فانقطعوا إليها مصغِين بأسماعكم .

قوله : « وألِظُّوا بجدّكم » ، أى ألحّوا ، والإلظاظ : الإلحاح فى الأمر ، ومنه قول ابن

---

(١) سورة غافر ١٦ .

ابن مسعود : ألِظُّوا فى الدعاء بياذا الجلال والإكرام ، ومنه الملاظّة فى الحرب ، ويقال : رجل مِلَظّ ومِلْظاظ ، أى ملحاح ، وألظّ المطر ، أى دام .

وقوله : « بجِدّكم » أى باجتهادكم ، جددتُ فى الأمر جدًّا بالغت واجتهدت ، ويروى : « وأكظّوا بجدّكم » والمواكظة : المداومة على الأمر . وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ (١) قال : أى مواكظا .

قوله : « وأشعروا بها قلوبكم » ، يجوز أن يريد : اجعلوها شعاراً لقلوبكم ، وهو ما دون الدّثار وألصق بالجسد منه ، ويجوز أن يريد : اجعلوها علامةً يعرّف بها القلب التقىّ من القلب المذنب كالشّعار فى الحرب يعرّف به قوم من قوم ، ويجوز أن يريد أخرِجوا قلوبكم بها من أشعار البدن ، أى طهروا القلوب بها ، وصفّوها من دَنَس الذنوب ، كما يصفّى البدن بالفصاد من غَلبة الدم الفاسد ؛ ويجوز أن يريد الإشعار بمعنى الإعلام ، من أشعرت زيداً بكذا ، أى عرّفته إياه ؛ أى اجعلوها عالمة بجلالة موقعها وشرف محلها .

قوله : « وارحَضُوا بها » أى اغسلوا ، وثوب رَحِيض ومَرْحوض ، أى مغسول .

قال : « وداووا بها الأسقام » ، يعنى أسقام الذّنوب .

وبادروا بها الحِمام : عجّلوا واسبقوا الموت أن يدرككم وأنتم غير متّقين .

واعتَبروا بمن أضاع التقوى فهلك شقيًّا ، ولا يعتبرنّ بكم أهلُ التقوى ، أى لا تكونوا أنتم لهم معتبرا بشقاوتكم وسعادتهم .

ثم قال : وصونوا التّقوى عن أن تمازجها المعاصى ، وتصوّنوا أنتم بها عن الدناءة وما ينافى العدالة .

والنُّزّه : جمع نَزيه ، وهو المتباعد عمّا يوجب الذمّ . والوُلّاه : جمع وَالِهٍ ، وهو المشتاق ذو الوجْد حتى يكاد يذهب عقله .

ثم شرع فى ذكر الدّنيا ، فقال : « لاتشيموا بارقَها » ، الشَّيْم : النظر إلى البرق انتظاراً للمطر .

ولا تسمعوا ناطقها : لاتصغوا إليها سامعين ، ولا تجيبوا مناديَها .

والأعلاق : جمع عِلْق وهو الشىء النفيس . وبرقٌ خالب وخُلّب : لا مطرَ فيه . وأموالها محروبة ، أى مسلوبة .

قوله عليه السلام : « ألَا وهى المتصدّية العَنُون » ؛ شبّهها بالمرأة المومِس تتصدّى للرجال تريد الفجور . وتتصدّى لهم : تتعرّض . والعَنُون : المتعرّضة أيضا ، عنّ لى كذا أى عرض.

ثم قال : « والجامحة الحَرُون » شبهها بالدّابة ذات الجِماح ، وهى التى لا يُستطاع ركوبها لأنها تعثرُ بفارسها وتغلبُه ، وجعلها مع ذلك حَرُونا وهى التى لاتنقاد .

ثم قال : « والمائنة الخئُون » ، مان ، أى كذب ، شبّهها بامرأة كاذبة خائنة .

والجحود الكَنُود ، جحد الشىء أنكره ، وكَنَد النّعمة : كفرها ، جعلها كامرأة تجحد الصنيعة ولا تعترف بها وتكفر النعمة . ويجوز أن يكون الجَحُود من قولك:رجل جَحِد وجَحْد ، أى قليل الخير ، وعام جَحْد ، أى قليل المطر ، وقد جحد النَّبْت ، إذا لم يطُل .

قال : « والعَنُود : الصَّدُود» ، العَنُود : الناقة تعدلعن مرعى الإبل وترعى ناحية ، والصَّدُود : المعرضة ، صدّ عنه ، أى أعرض ؛ شبَّهها فى انحرافها وميلها عن القصد بتلك .

قال : « والحَيُود المَيُود» ؛ حادت الناقة عن كذا تحِيد فهى حَيُود ، إذا مالت عنه . ومادت تميد فهى مَيُود ، أى مالت ، فإن كانت عادتها ذلك سُمّيت الحَيُود المَيُود فى كلّ حال .

قال: « حالها انتقال » ؛يجوز أن يعنى به أنّ شيمتها وسجيّتها الانتقال والتغيّر ،ويجوز أن يريد به معنًى أدقّ وهو أنّ الزمان على ثلاثة أقسام : ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، فالماضى والمستقبل لاوجود لهما الآن ، وإنّما الموجود أبدا هو الحاضر ؛ فلمّا أراد المبالغة فى وصف الدنيا بالتغيّر والزّوال قال : « حالها انتقال » ، أى أنّ الآن الذى يحكم العقلاء عليه بالحضور منها ليس بحاضر على الحقيقة ، بل هو سيّال متغيّر ، فلا ثبوت إذاً لشىء منها مطلقا . ويروى : « وحالُها افتعال » ، أى كذب وزور ، وهى رواية شاذّة .

قال : « ووطأتها زلزال » ، الوطأة كالضّغْطة ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله : « اللهمّ اشدُدْ وطأتَك على مُضَر » ، وأصلها موضع القدم .والزلزال :الشدّة العظيمة ،والجمع زَلَازِل

وقال الراوندىّ فى شرحه: يريد أنّ سكونها حرَكة ، من قولك : وَطُؤ الشىء،أى صار وطيئاً ذا حال ليّنة ، وموضعٌ وطِىء ، أى وثير ، وهذا خطأ ، لأن المصدر من ذلك وطاءة بالمد ، وهاهنا وطْأة ساكن الطاء ، فأين أحدهما من الآخر !

قال : « وعُلوّها سُفْل » ، يجوز ضمّ أوّلها وكسره .

قال : « دار حَرْب » الأحسن فى صناعة البديع أن تكون الرّاء هاهنا ساكنة ليوازى السكون هاء « نهْب » ومن فتح الراء ، أراد السلب ، حربْتُه أى سابت ماله .

قال : « أهلها على ساق وسياق » يقال : قامت الحرب على ساق ، أى على شدّة ومنه قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾[1] والسِّياق : نَزْع الروح ، يقال: رأيت فلانا يسوق ، أى ينزع عند الموت ، أو يكون مصدر ساق الماشية سوقا وسياقا . وقال الراوندىّ فى شرحه : يريد أنّ بعض أهلها فى أثر بعض كقولهم : ولَدت فلانة

---

(١) سورة القلم ٤٢ .

ثلاثة بنين على ساقٍ ، وليس ما قاله بشىء ، لأنهم يقولون ذلك المرأة إذا لم يكن بين البنين أنثى ، ولا يقال ذلك فى مطلع التَّتابع : أين كان .

قال عليه السلام : « ولَحَاق وفراق » ، اللام مفتوحة ، مصدر لَحَق به ، وهذا كقولهم : « الدّنيا مولود يولَد ، ومفقود يفقَد » .

قال عليه السلام : « قد تحيّرَت مذاهبها » ، أى تحيّر أهلها فى مذاهبهم ، وليس يعنى بالمذاهب هاهنا الاعتقادات ، بل المسالك .

وأعجزت مهاربها : أى أعجزتهم جعلتهم عاجزين ، فحذف المفعول .

وأسلمتهم المعاقل : لم تحصّنهم .

ولفَظَتهم ، بفتح الفاء : رَمَتْ بهم وقذفتهم .

وأعيتهم المحاول ، أى المطالب .

ثم وصف أحوال الدنيا فقال : « هم فمِن ناجٍ معقور » ، أى مجروح كالهارب من الحرب بحشاشة نفسه ، وقد جرح بدنه .

ولحم مجزور ، أى قتيل قد صار جَزَراً للسباع .

وشِلوٍ مذبوح : الشِّلْو ، العضو من أعضاء الحيوان ؛ المذبوح أو الميّت . وفى الحديث : « ائتونى بشِلْوها الأيْمن » .

ودم مفسوح ، أى مسفوك . وعاضٍ عَلَى يديه ، أى ندما .

وصافقٍ بكفّيْه ، أى تعسفا أو تعجبا .

ومرتفق بخدّيه : جاعل لهما عَلَى مرفقيه فكراً وهمّاً .

وزارٍ على رأيه ، أى عائب ، أى يرى الواحد منهم رأيا ويرجع عنه ويعيبه ، وهو البَداء الذى يذكره المتكلّمون . ثم فسّره بقوله : « وراجع عن عزمه » .

فإن قلت : فهل يمكن أن يفرق بينهما ، ليكون الكلام أكثر فائدة ؟

قلت : نعم ، بأنْ يريدَ بالأوّل مَنْ رأى رأيا وكشفه لغيره ، وجامعه عليه ثم بدا له وعابه ، ويريد بالثانى مَنْ عزم نفسه عزما ولم يظهر لغيره ثم رجع عنه ، ويمكن أيضا بأن يفرّق بينهما بأن يعنى بالرّأى الاعتقاد ، كما يقال : هذا رأى أبى حنيفة ، والعزم أمر مفرد خارج عن ذلك ، وهو مايعزم عليه الإنسان من أمور نفسه ، ولا يقال : عزم فى الاعتقادات .

ثم قال عليه السلام : « وقد أدبرت الحيلة » أى ولّت ، وأقبلت الغِيلة ، أى الشرّ ، ومنه قولهم : فلان قليل الغائلة . أو يكون بمعنى الاغتيال ، يقال : قتله غيلة ، أى خديعة . يذهب به إلى مكان يوهمه أنه لحاجة ثم يقتله .

قال عليه السلام : « ولاتَ حين مناص » ، هذه من ألفاظ الكتاب العزيز[1] ، قال الأخفش : شبّهوا «لات» بليس ، وأضمروا فيها اسم الفاعل ؛ قال : ولا تكون «لات» إلا مع «حين» ، وقد جاء حذف «حين» فى الشعر ، ومنه المثل : «حنّت ولاتَ هنّت» ، أى ولات حين حنّت ، والهاء بدل من الحاء ، فحذف الحين وهو يريده . قال : وقرأ بعضهم ﴿ وَلَاتَ حِينُ مَنَاصٍ ﴾ بالرفع ، وأضمر الخبر . وقال أبو عبيد : هى لا ؛ والتاء إنّما زيدت فى « حين » ، لا فى « لا » ، وإن كتبت مفردة ، والأصل « تحين » كما قال فى « ألان » « تلان » . فزادوا التاء ، وأنشد لأبى وجزة :

العاطفون تَحِينَ ما من عاطفٍ ... والمطعِمون زمانَ أين المطعم[2]

وقال المؤرّج : زيدت التاء فى « لات » كما زيدت فى « ربّت » و « ثمّت » .

والمناص : المهرب ، ناص عن قِرْنه ينُوص نَوْصا ومناصا ، أى ليس هذا وقت الهرب والفرار .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة ص ٣ : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ .

(٢) الصحاح ١ : ٢٢٦ .

ويكون المناص أيضا بمعنى الملجأ والمفزع ،أى ليس هذا حين تجد مفزعا ومعقلا تعتصم به.

هيهات : اسم للفعل ومعناه بَعُدَ، يقال : هيهات زيد فهو مبتدأ وخبر ، والمعنى يعطى الفعلية ،والتاء فى «هيهات» مفتوحة مثل كيف ، وأصلها هاء ، وناس يكسرونها على كل حال بمنزلة نون التثنية ، وقال الراجز :

هَيْهاتِ من مُصْبَحِها هيهـاتِ هيهاتِ حَجْرٌ من صُنَيْعاتِ[1]

وقد تبدل الهاء همزة ، فيقال « أيهات » مثل هراق وأراق ، قال :

* أيْهاتَ منك الحياة أيْهَاتا[2] *

قال الكسائىّ :فمن كسر التاء وقف عليها بالهاء ،فقال : « هَيْهَاه »، ومَنْ فتحها وقف إن شاء بالتاء وإن شاء بالهاء .

قوله عليه السلام : « ومضت الدنيا لحال بالِهَا » ، كلمة تقال فيما انقضى وفرط أمره، ومعناها مضى بما فيه إن كان خيرا ، وإن كان شرًّا .

قوله عليه السلام : « فما بكت عليهم السماء » ؛ هو من كلام الله تعالى ؛ والمراد أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض وهم البشر، والمعنى أنّهم لا يستحقون أن يتأسّف عليهم، وقيل : أراد المبالغة فى تحقير شأنهم؛ لأنّ العرب كانت تقول فى العظيم القدر يموت :بكته السماء ، وبكته النجوم ،قال الشاعر :

فالشّمسُ طالعـةٌ لَيْسَتْ بكاسِفَةٍ تَبْكِى عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ والْقمرَا[3]

فنفى عنهم ذلك ، وقال : ليسوا من يقال فيه مثل هذا القول ،وتأوّلها ابن عبّاس رضى الله عنه لما قيل له : أتبكى السّماء والأرض على أحد ؟ فقال : نعم يبكيه مصلّاه فى الأرض ومصعد عمله فى السماء ؛ فيكون نفى البكاء عنهما كناية عن أنه لم يكن لهم فى الأرض عمل صالح يرفع منهما إلى السماء .

---

(١) اللسان ١٧ : ٤٥١ من رجز نسبه إلى حميد الأرقط .
(٢) انظر اللسان ١٧ : ٤٥٢ (٣) لجرير ، ديوانه ٣٠٤ .

(٢٣٨)

الأصْـلُ

ومن خطبة له عليه السلام :

(ومن الناس مَنْ يسمّى هذه الخطبة بالقاصِعة ، وهى تتضمن ذمّ إبليس لعنه الله ، على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأنه أول من أظهر العصبية وتبع الحمية. وتحذيرَ الناس من سلوك طريقته) :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ ؛ وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمَا حِمًى وَحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ ، وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ .

ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ؛ لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ،وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾[1]؛اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ ،فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ ،وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ ، فَعَدُوُّ اللهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ ؛ الَّذِى وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ ، وَنَازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ .

أَلَا يَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ ، فَجَعَلَهُ فِى الدُّنْيَا مَدْحُورًا ، وَأَعَدَّ لَهُ فِى الْآخِرَةِ سَعِيراً .

***

---

(١) سورة ص ٧١ ـ ٧٤ .

الشرح :

يجوز أن تسمّى هذه الخطبة « القاصعة » من قولهم : قَصَعت الناقة بجِرّتها ، وهو أن تردّها إلى جوفها ، أو تخرجها من جوفها فتملأ فاها ، فلمّا كانت الزواجر والمواعظ في هذه الخطبة مردّدة من أولها إلى آخرها ، شبّهها بالناقة التي تقصع الجِرّة. ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبيّـة ، من قولهم : قَصَعت القملة ، إذا هشمتَها وقتلتها . ويجوز أن تسمَّى القاصعة ، لأنّ المستمع لها المعتبر بها يذهب كِبْره ونخوته ، فيكون من قولهم : قصع الماء عطشه ، أى أذهبه وسكنه ، قال ذو الرُّمّة بيتا فى هذا المعنى :

فَانْصَاعَتِ الْحُقْبُ لم تَقْصَعْ صرائِرَها وقد تشـحّ فَلَا رِيٌّ ولا هِيمُ [1]

الصّرائر : جمع صَرِيرة ، وهى العطش ؛ ويجوز أن تسمّى القاصعة ، لأنّها تتضمّن تحقير إبليس وأتباعَه وتصغيرَهم ، من قولهم : قصعت الرجل إذا امتهنتَه وحقّرتَه ، وغلام مقصوع ، أى قمِىء لا يشِبّ ولا يزداد .

والعصبيّة على قسمين : عصبيّة فى الله وهى محمودة ، وعصبيّة فى الباطل وهى مذمومة ؛ وهى التى نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنها ، وكذلك الحَمِيّة . وجاء فى الخبر : « العصبيّة فى الله تورث الجنة ، والعصبية فى الشيطان تورث النار » .

وجاء فى الخبر : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما قصمته » ؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : « اختارهما لنفسه دون خلْقه ... » إلى آخر قوله : « من عباده » .

قال عليه السلام : « ثم اختبر بذلك ملائكته المقرّبين » مع علمه بمضمراتهم ؛ وذلك لأنّ اختباره سبحانه ليس ليعلمَ ، بل ليعلم غيره من خلقه طاعة مَنْ يطيع وعصيان من يعصى ، وكذلك ، قوله سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ

---

(١) ديوانه ٥٨٨ . انصاعت : ذهبت هاربة . والحقب : الحمر الوحشية . وروايته : « وقد نشحن » .

﴿ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[١]، النون فى «لنعلم» نون الجمع لا نون العظمة، أى لتصير أنت وغيرك من المكلّفين عالمين لمن يطيع ومن يعصى، كما أنا عالم بذلك، فتكونوا كلُّكم مشاركين لى فى العلم بذلك.

فإن قلت: وما فائدة وقوفهم على ذلك وعلمهم به؟

قلت: ليس بممتنع أن يكون ظهورُ حال العاصى والمطيع وعلم المكلّفين أو أكثرهم أو بعضهم به يتضمّن لُطْفا فى التكليف!

فإن قلت: إنّ الملائكة لم تكن تعلم ما البشر، ولا تتصور ماهيّته، فكيف قال لهم ﴿إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾؟

قلت: قد كان قال لهم: إنى خالق جسما من صفته كيت وكيت، فلمّا حكاه اقتصر على الاسم. ويجوز أن يكون عرّفهم من قَبْل أنّ لفظة «بشر» على ماذا تقع، ثم قال لهم: إنّى خالقٌ هذا الجسم المخصوص الذى أعلمتكم أن لفظة «بَشَر» واقعةٌ عليه من طين.

قوله تعالى: ﴿فإذَا سَوَّيْتُه﴾؛ أى إذا أكملت خلقه.

فقعوا له ساجدين: أمرهم بالسجود له. وقد اختلف فى ذلك فقال قوم: كان قبلة، كما الكعبة اليوم قبلة، ولا يجوز السّجود إلا لله. وقال آخرون: بل كان السُّجود له تكرمةً ومحنة، والسجود لغير الله غير قبيح فى العقل إذا لم يكن عبادة ولم يكن فيه مفسدة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى﴾، أى أحللتُ فيه الحياة، وأجريت الرُّوح إليه فى عروقه، وأضاف الروح إليه تبجيلا لها، وسمّى ذلك نفخا على وجه الاستعارة، لأنّ العرب تتصوّر من الروح معنى الريح، والنّفخ يصدق على الريح، فاستعار لفظة «النفخ» توسُّعا.

---

(١) سورة البقرة ١٤٣.

وقالت الحكماء : هذا عبارة عن النفس الناطقة .

فإن قلت : هل كان إبليس من الملائكة أم لا ؟

قلت : قد اختُلف فى ذلك ، فمن جعله منهم احتجّ بالاستثناء ، ومَنْ جعله من غيرهم احتجّ بقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ ، وجعل الاستثناء منقطعا ، وبأنّ له نسلا وذرّية ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ (١) ، والملائكة لا نسل لهم ولا ذرّية ، وبأنّ أصلَه نار والملائكة أصلها نور ، وقد مرّ لنا كلام فى هذا فى أول الكتاب .

قوله : « فافتخر على آدم بخَلْقه ، وتعصّب عليه لأصله » ، كانت خلقتُه أهونَ من خلقة آدم عليه السلام ، وكان أصلُه من نار وأصل آدم عليه السلام من طين .

فإن قلت : كيف حكم على إبليس بالكفر ، ولم يكن منه إلا مخالفة الأمر ، ومعلوم أنّ تارك الأمر فاسق لا كافر !

قلت : إنّه اعتقد أنّ الله أمره بالقبيح ولم ير أمْرَه بالسجود لآدم عليه السلام حكمة وامتنع من السجود تكبُّرا ، وردّ على الله أمره ، واستخفّ بمن أوجب الله إجلاله ، وظهر أنّ هذه المخالفة عن فساد عقيدة ، فكان كافراً .

فإن قلت : هل كان كافرا فى الأصل أم كان مؤمنا ثمّ كفر ؟

قلت : أمّا المرجئة فأكثرهم يقول : كان فى الأصل كافرا ، لأنّ المؤمن عندهم لا يجوز أن يكفر ، وأمّا أصحابنا فلمّا كان هذا الأصل عندهم باطلاً توقّفوا فى حال إبليس ، وجوّزوا كلا الأمرين .

---

(١) سورة الكهف ٥٠ .

قوله عليه السلام : « رداء الجبَرِيّة » الباء مفتوحة ، يقال : فيه جبَرِيّة ، وجبروّة ، وجَبَروت ، وجَبُّورة ، كفرُّوجة ، أى كِبْر ، وأنشدوا :

فإنّك إن عاديتَنى غَضِبَ الحصا عليك وذو الجُبُّورة المتغطْرِفُ[1]

وجعله مدحورا ، أى مطرودا مبعداً ، دحره الله دُحورا ، أى أقصاه وطرده .

***

الأصْلُ :

وَلَوْ أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ ٱلْأَبْصارَ ضِياؤُهُ ، وَيَبْهَرُ العُقُولَ رُوَاؤُهُ ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ ٱلأَنفَاسَ عَرْفُه ، لفَعَلَ ؛ وَلَوْ فعلَ لَظَلَّتْ لهُ ٱلأَعْناقُ خاضِعَةً ، وَلَخَفَّتِ ٱلْبَلْوَى فِيهِ عَلَى المَلائِكَةِ ، وَلَـكِنَّ ٱللهَ سُبْحانَهُ يبتلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مايَجْهَلُونَ أَصْلَهُ تَمْيِيزاً بِالأُخْتِبارِ لَهُمْ ، وَنَفْياً لِلاُسْتِكْبارِ عَنْهُمْ ، وَإِبْعاداً لِلْخُيَلاءِ مِنْهُمْ ، فاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ ٱللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ ، وَجَهْدَهُ ٱلْجَهِيدَ ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ ٱللهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ ، لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيا أَمْ مِنْ سِنِي ٱلْآخِرَةِ ، عَنْ كِبْرِ ساعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَمَنْ ذَا بعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى ٱللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ !

كَلَّا ما كَانَ ٱللهُ سُبْحانَهُ لِيُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً ، إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّماءِ وَٱلْأَرْضِ لَوَاحِدٌ ، ومَا بَيْنَ ٱللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِباحَةِ حِمًى حَرَّمَهُ عَلَى ٱلعالَمِينَ .

***

الشّرْح :

خَطِفت الشىء بكسر الطاء ، أخطَفه ، إذا أخذته بسرعة استلاباً ، وفيه لغة أخرى:

---

(١) لمغلس بن لقيط الأسدى ، وانظر الصحاح وحواشيه (جبر) .

خَطَف بالفتح ، ويَخطَف بالفتح ويَخطِف بالكسر ، وهى لغة رديئة قليلة لا تكاد تعرف ، وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ (١) .

والرُّواء ، بالهمزة والمد : المنظر الحسن . والعَرْف : الريح الطيبة .

والخُيلاء ، بضم الخاء وكسرها : الكِبْر ، وكذلك الخالُ والمخيلة ، تقول : اختال الرجل وخال أيضا ، أى تكبّر .

وأحبِط عمله : أبطل ثوابه ، وقد حبط العمل حَبْطا بالتسكين وحُبوطا. والمتكلّمون يسمُّون إبطال الثواب إحباطا وإبطال العقاب تكفيراً .

وجَهْده بفتح الجيم : اجتهاده وَجِدّه ، ووصفه بقوله : « الجَهِيد » أى المستقصى ، من قولهم : مرعى جَهِيد ، أى قد جَهَده المال الراعى واستقصى رَعْيه .

وكلامه عليه السلام يدلّ على أنّه كان يذهب إلى أنّ إبليس من الملائكة لقوله : « أخرج منها ملَكا » .

والهوادة : الموادعة والمصالحة ، يقول : إن الله تعالى خلق آدم من طين ، ولو شاء أن يخلقه من النور الذى يَخطف أو من الطيب الذى يعبق لَفَعل ، ولو فعل لهال الملائكة أمرُه وخضعوا له ، فصار الابتلاء والامتحان والتكليف بالسّجود له خفيفا عليهم، لعظمته فى نفوسهم ، فلم يستحقُّوا ثواب العمل الشاقّ ، وهذا يدلُّ على أنّ الملائكة تشمّ الرائحة كما نشمّها نحن ، ولكنّ الله تعالى يبتلى عباده بأمور يجهلون أصلها اختباراً لهم .

فإن قلت : مامعنى قوله عليه السلام : « تمييزا بالاختبار لهم » .

قلت : لأنه ميّزهم عن غيرهم من مخلوقاته ، كالحيوانات العُجْم ، وأبانهم عنهم ، وفضّلهم عليهم بالتّكليف والأمتحان .

---

(١) سورة البقرة ٢٠ .

قال : « ونفيا للاستكبار عنهم » ؛ لأن العبادات خضوع وخشوع وذلّة، ففيها نفى الخُيلاء والتكبّر عن فاعليها ، فأمرهم بالاعتبار بحال إبليس الذى عَبَد الله ستة آلاف سنة ؛ لا يُدْرَى أمِنْ سِنِي الدنيا أم من سنى الآخرة ! وهذا يدلّ على أنه قد سمع فيه نصًّا من رسول الله صلى الله عليه وآله مجملًا لم يفسّره له ، أو فسّره له خاصة ،ولم يفسّره أميرُ المؤمنين عليه السلام للناس لما يعلمه فى كتمانه عنهم من المصلحة .

فإن قلت : قوله : « لا يُدْرَى » على مالم يسمّ فاعله يقتضى أنه هو لا يدرِى !

قلت : إنه لا يقتضى ذلك ، ويكفى فى صدق الخبر إذا ورد بهذه الصيغة أن يجهله الأكثرون .

فأمّا القولُ فى سِنِي الآخرة كم هى ؟ فاعلم أنه قد وَرَدَ فى الكتاب العزيز آيات مختلفات :

إحداهن قوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[1] .

والأخرى قوله : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثم يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾[2] .

والثالثة قوله : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾[3] .

وأولى ماقيل فيها أنّ المراد بالآية الأولى مدّة عمر الدنيا ، وسمّى ذلك يوما ، وقال : إنّ الملائكة لا تزال تعرُج إليه بأعمال البشر طول هذه المدّة حتى ينقضىَ التكليف ، وينتقل الأمر إلى دار أخرى . وأمّا الآيتانِ الأخيرتان فمضمونهما بيان كمّية أيام الآخرة، وهو أنّ كل يوم منها مثل ألف سنة من سِنِي الدنيا .

---

(١) سورة المعارج ٤
(٢) سوره السجده ٥ .
(٣) سوره الحج ٤٧ .

فإن قلت : فعلى هذا كم تكون مدّة عبادة إبليس إذا كانت ستة آلاف سنة من سني الآخرة ؟

قلت : يكون مايرتفع من ضرب أحد المضروبين فى الآخرة ، وهو ألفا ألف ألف ، ثلاث لفظات ، الأولى منهنّ مثناة ، ومائة ألف ألف لفظتان ، وستون ألف ألف سنة لفظتان أيضا من سِني الدنيا . ولما رأى أمير المؤمنين عليه السلام هذا المبلغ عظيما جدا عِلم أنّ أذهان السامعين لا تحتمله ، فلذلك أبْهَم القول عليهم ، وقال : « لا يُدْرَى أمِنْ سِنِي الدّنيا أم مِنْ سِنِي الآخرة » .

فإن قلت : فإذا كنتم قد رجّحتم قولَ مَنْ يقول : إنّ عمر الدنيا خمسون ألف سنة، فكم يكون عمرُها إن كان الله تعالى أراد خمسين ألف سنة من سني الآخرة؟ لأنّه لا يؤمَن أن يكونَ أراد ذلك إذا كانت السّنة عنده عبارة عن مدّة غير هذه المدة التى قد اصطلح عليها الناس ؟

قلت : يكون مايرتفع من ضرب خمسين ألفا فى ثلثمائة وستين ألف سنة من سِنِي الدنيا ومبلغ ذلك ثمانية عشر ألف ألف ألف سنة من سِنِى الدنيا ثلاث لفظات ، وهذا القول قريب من القول المحكىّ عن الهند .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى تاريخه رواياتٍ كثيرة بأسانيد أوردها عن جماعة من الصّحابة أنّ إبليس كان إليه ملك السماء وملك الأرض ، وكان من قبيلةٍ من الملائكة يقال لهم الجنّ ، وإنما سُمّوا الجن لأنّهم كانوا خُزّان الجنان ، وكان إبليس رئيسهم ومقدَّمهم . وكان أصل خَلْقهم من نار السّموم ، وكان اسمه الحارث ، قال : وقد روى أنّ الجنّ كانت فى الأرض ، وأنهم أفسدوا فيها ، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وطردهم إلى جزائر البحار ، ثم تكبّر فى نفسه ، ورأى أنه قد صنع شيئا عظيما لم يصنعه غيره . قال : وكان شديد الاجتهاد فى العبادة .

وقيل : كان اسمه عزازيل ، وأنّ الله تعالى جعله حَكما وقاضياً بين سكان الأرض قبل خلق آدم ، فدخله الكِبْر والعجْب لعبادته واجتهاده وحكمه فى سكان الأرض وقضائه بينهم ، فانطوَى على المعصية حتّى كان من أمرِه مع آدم عليه السلام ما كان .

قلت : ولا ينبغى أن نصدّق من هذه الأخبار وأمثالها إلا ماورد فى القرآن العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفه ، أو فى السّنّة ، أو نقل عمّن يجب الرجوع إلى قوله ، وكلّ ماعدا ذلك فالكذب فيه أكثر من الصدق ، والباب مفتوح ، فليقل كلُّ أحدٍ فى أمثال هذه القصص ماشاء .

واعلم أنّ كلامَ أمير المؤمنين فى هذا الفصل يطابقُ مذهبَ أصحابنا فى أنّ الجنّة لا يدخلها ذو معصية ، ألا تسمع قوله : «فمن بَعْد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته ! كَلّا ، ما كان الله ليُدخِل الجنة بشرا بأمرٍ أخرج به منها ملَكا ، إنّ حكمه فى أهل السماء والأرض لواحد» .

فإن قلت : أليس من قولكم: إن صاحب الكبيرة إذا تاب دخل الجنة! فهذا صاحب معصية وقد حكمتم له بالجَنّة !

قلت : إن التوبة أحبطت معصيته فصار كأنه لم يعص .

فإن قلت: إن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال: « فمن ذا بعد إبليس يَسْلَم على الله بمثل معصيته ! » ، ولم يقل : بالمعصية المطلقة ؛ والمرجئة لا تخالف فى أنّ مَنْ وافى القيامة بمثل معصية إبليس لم يكن من أهل الجنّة .

قلت : كلّ معصية كبيرة فهى مثل معصيته ، ولم يكن إخراجه من الجنّة لأنه كافر ، بل لأنه عاصٍ مخالف للأمر ، ألا ترَى أنه قال سبحانه : ﴿قالَ فاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[1] ، فعلّل إخراجَه من الجنة بتكبّره لا بكفرِه .

فإن قلت : هذا مناقض لما قدّمت فى شرح الفصل الأول .

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٠ .

قلت : كلّا، لأنى فى الفصل الأوّل علّلت استحقاقه اسم الكفر بأمرٍ زائدعلى المعصية المطلقة ، وهو فساد اعتقاده ، ولم أجعل ذلك علّة فى خروجه من الجنة ، وهاهنا عللت خروجه من الجنّة بنفس المعصية ، فلا تناقض .

فإن قلت : مامعنى قول أمير المؤمنين عليه السلام : « ما كان الله ليدخل الجنّة بشرا بأمرٍ أخرج به منها ملَكا » ؟ وهل يظنّ أحد أو يقول : إنّ الله تعالى يُدخل الجنةأحداً من البشر بالأمر الذى أخرج به هاهنا إبليس! كلّا ، هذا مالا يقوله أحد ، وإنماالذى يقوله المرجئة : إنّه يدخل الجنة مَنْ قد عصى وخالف الأمر — كما خالف الأمر إبليس — برحمته وعفوه، وكما يشاء ، لا أنّه يدخِله الجنّة بالمعصية ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى نفىَ دخول أحد الجنّة بالمعصية لأنّ الباء للسببية ؟

قلت : الباء ها هنا ليست للسببية كما يتوهّمه هذا المعترض ؛ بل هى كالباء فى قولهم : خرج زيد بثيابه ، ودخل زيد بسلاحه ، أى خرج لابساً ، ودخل متسلّحاً ، أى يصحبه الثياب ويصحبه السلاح ، فكذلك قوله عليه السلام : « بأمر أخرج به منها ملَكاً » ، معناه أنّ الله تعالى لا يدخِل الجنة بشراً يصحبه أمر أخرج الله به مَلَكا منها .

***

الأصلُ :

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ عَدُوَّ اللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ ، فَلَعَمْرِى لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ ، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) ، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ ، وَرَجْماً بِظَنٍّ

---

(١) سورة الحجر : ٣٩ .

غَيْرِ مُصِيبٍ؛ صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتْ فِيهِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ، وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَئُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ، إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ، فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجاً، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ.

فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ وَلَهُ جِدَّكُمْ. فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ؛ وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ. يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ، لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلْقَةِ ضِيقٍ، وَعَرْصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةِ بَلَاءٍ.

فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ، وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ. وَاعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُءُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجْلاً وَفُرْسَاناً؛ وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ، سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَبِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ؛ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

***

الشرح :

موضع « أن يُعديَكم » نصب على البدَل من « عدوّ الله » . وقال الراونديّ : يجوز أن يكون مفعولا ثانيا، وهذا ليس بصحيح لأن « حذر » لايتعدى إلى المفعولين، والعَدْوَى : مايُعدِي من جَرَبٍ أوغيره ، أعدى فلانٌ فلانا من خُلُقه أو من علّته ،وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره ، وفى الحديث : « لاعَدْوَى فى الإسلام » .

فإن قلت : فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وآله قد أبطل أمر العَدْوَى ، فكيف قال أمير المؤمنين : « فاحذروه أن يُعدِيَكم » ؟

قلت : إنّ النبيّ صلّى الله عليهوآله أبطلَ ما كانت العرب تزعُمهمن عَدْوَى الجرَب فى الإبل وغيرها ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام حذّر المكلّفين من أن يتعلّموا من إبليس الكِبْرَ والحميّة ، وشبّه تعلّمهم ذلك منه بالعَدْوَى لاشتراك الأمريْن فى الانتقال من أحدِ الشّخْصين إلى الآخر .

قوله عليه السلام : « يستفزّكم » أى يستخفّكم ، وهو من ألفاظ القرآن : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾[1] ،أى أزعجه واستخفّه وأطِرْ قلبَه. والخيل: الخيّالة ، ومنه الحديث : « يَاخَيْلَ ٱللهِ ٱرْكَبِي » .

والرّجْل : اسم جمْع لراجل كرَكْب اسم جمعلراكِبٍ ، وصَحْب اسمِ جمع لصاحبٍ ، وهذه أيضا من ألفاظ القرآن العزيز : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾[2] وقرِئ ﴿ ورَجِلِك ﴾[3] بكسر الجيم على أن « فعِلاً » بالكسر بمعنى فَاعل نحو تَعِب وتَاعِب،

---

(١) سورة الإسراء ٦٤ (٢) سورة الإسراء ٦٤ .

(٣) هى قراءة حفص ؛ وانظر تفسير القرطبي ١٠ : ٢٨٨ .

ومعناه ، وقد تضمّ الجيم أيضا ، فيكون مثل قولك : رجل حَدِث وحَدُث ونَدِس ونَدُس .

فإن قلت : فهل لإبليس خيل تركبها جنده ؟

قلت : يجوز أن يكون ذلك ، وقد فسّره قوم بهذا . والصحيح أنه كلام خرج مخرج المَثَل ، شبّهت حاله فى تسلّطه على بنى آدم بمن يُغير على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم . وقيل : بصوتك ، أى بدعائك إلى القبيح . وخيله ورجله : كلّ ماش وراكب من أهل الفساد من بنى آدم .

قوله : « وفوّقت السهم » جعلت له فُوقاً ، وهو موضع الوَتر ، وهذا كناية عن الاستعداد ، ولا يجوز أن يفسّر قوله : « فقد فوّق لكم سهم الوعيد » بأنّه وضع الفُوق فى الوتر ليرمَى به ، لأنّ ذاك لا يقال فيه : قد فوّق ، بل يقال : أفقت السَّهْم وأوفقته أيضا ولا يقال : أفوقته ، وهو من النوادر .

وقوله : « وأغرق إليكُمْ بالنَّزْع » ، أى استوفى مدّ القوس وبالغ فى نَزْعِها ليكون مرماه أبعدَ ، ووقعُ سهامِه أشدّ .

قوله : « ورماكم من مكان قريب » ، لأنه كما جاء فى الحديث : « يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، ويخالط القلب » ، ولا شىء أقرب من ذلك .

والباء فى قوله : « بما أغويتَنِي » متعلّق بفعل محذوف تقديره : أجازيك بما أغويتَنِي تزيينى لهم القبيح ، فـ « ما » على هذا مصدريّة ، أى أجازيك بإغوائك لى تزيينى لهم القبيح ، فحذف المفعول . ويجوز أن تكون الباء قسماً ، كأنّه أقسم بإغوائه إياه ليزيِّنَنّ لهم .

فإن قلت : وأىّ معنى فى أن يقسم بإغوائه ؟ وهل هذا مما يقسم به !

قلت : نعم ، لأنه ليس إغواء الله تعالى إيّاه خلْقَ الغَىّ والضلال فى قلبه ، بل تكليفه

إياه السّجود الذى وقع الغىّ عنده من الشيطان ، لا من الله ، فصار حيث وقع عنده ، كأنه موجب عنه ، فنسب إلى البارئ ، والتّكليف تعريض للثّواب ولذّة الأبد، فكان جديرا أن يقسم به ، وقد أقسم فى موضع آخر ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١)، فأقسم بالعزّة ، وهاهنا أقسم بالأمر والتّكليف . ويجوز فيه وجهٌ ثالث ، وهو ألّا تكون الباء قسماً ، ويقدّر قَسَمٌ محذوف ، ويكون المعنى : بسبب ما كلّفتنى فأفضَى إلى غَوايتى ، أقسِمُ لَأفعلنَّ بهم نحو ما فعلتَ بى ، وهو أن أزيّنَ لهم المعاصىَ التى تكون سبب هلاكهم .

فإن قلت: ليس هذا نحو مافعله البارئ به ، لأنّ البارئ أمره بالحسن فأباه ، وعَدَل عنه إلى القبيح ، والشّيطان لا يأمرنا بالحسن فنكرهه ونعدل عنه إلى القبيح ، فكيف يكون ذلك نحو واقعته مع البارئ !

قلت : المشابهة بين الواقعتين فى أنّ كلّ واحدةٍ منهما تقع عندها المعصية ، لا على وجه الإجبار والقَسْر ، بل على قَصْد الاختيار ، لأنّ معصية إبليس كانت من نفسه، ووقعت عند الأمر بالسجود اختياراً منه لا فعلا من البارئ ، ومعصيتنا نحن عند التّزيين والوسوسة تقع اختيارا مِنّا لا اضطرارا يضطرنا إبليس إليه ، فلمّا تشابهت الصورتان فى هذا المعنى حَسُن قوله : « بِمَا فَعَلْتَ بى كذا لأفعلنّ بهم نحوه » .

فإن قلت : مامعنى قوله : « فى الأرض » ؟ ومن أين كان يعلم إبليس أنّ آدم سيصير له ذرّيّة فى الأرض !

قلت : أمّا علمه بذلك فمن قول الله تعالى له وللملائكة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢) وأما لفظة « الأرض » ، فالمراد بها هاهنا الدنيا التى هى دار التّكليف ، كقوله تعالى:

---

(١) سورة ص ٨٢ (٢) سورة البقرة ٣٠ .

﴿ وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (١) ، ليس يريد به الأرض بعينها بل الدنيا وما فيها من الملاذّ وهوى الأنفس .

قوله عليه السلام : « قَذْفًا بغيبٍ بعيد » ، أى قال إبليس هذا القول قَذْفًا بغيب بعيد ، والعرب تقول للشىء المتوهّم على بعد : هَذَا قَذْفٌ بغيب بعيد ، والقذفُ فى الأصل: رَمْى الحجر وأشباهه ، والغيْب الأمر الغائب ، وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية ، قال الله تعالى فى كفّار قريش : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٢) ، أى يقولون : هذا سحر ، أو هذا من تعليم أهل الكتاب ، أو هذه كهانة ، وغير ذلك مما كانوا يرمُونه عليه الصلاة والسلام به . وانتصب « قَذْفًا » على المصدر الواقع موقع الحال ، وكذلك « رَجْمًا » . وقال الراونديّ : انتصبا لأنهما مفعول له ، وليس بصحيح ، لأنّ المفعول له ما يكون عذراً وعلّة لوقوع الفعل ، وإبليس ما قال ذلك الكلام لأجل القَذْف والرَّجْم ، فلا يكون مفعولا له .

فإن قلت : كيف قال عليه السلام : « قَذْفًا من مكان بعيد ، ورَجْمًا بظنٍّ غير مصيب » ، وقد صحّ ما توهّمه وأصاب فى ظنّه ، فإن إغواءه وتزيينه تمّ على النّاس كلّهم إلا على المخلصين !

قلت : أمّا أولا فقد رُوى : « ورجما بظنٍّ مصيب » بحذف « غير » ، ويؤكد هذه الرواية قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا ﴾ (٣) وأما ثانيا على الرواية التى هى أشهر فنقول : أما قَذْفًا من مكان بعيد ، فإنه قال ما قال على سبيل التوهُّم والحسبان لأمرٍ مستبعَد لا يعلم صحته ولا يظنها ، وليس وقوع ما وقع من المعاصى وصحة ما توهّمه بمخرج لكوْن قوله الأول : « قذفا بغيب بعيد » ، وأمّا « رَجْمًا بظنّ غير مصيب » ،

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦ (٢) سورة سبأ ٥٣ .
(٣) سورة سبأ ٢٠ .

فيجب أن يحمل قوله : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) على الغواية بمعنى الشِّرْك أو الكفر؛ ويكون الاستثناء وهو قوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (١) ﴾ معنا: إلا المعصومين من كلّ معصية ، وهذا ظنٌّ غير مصيب لأنه ماأغوى كلّ البشر الغواية التى هى الكفر والشّرك إلا المعصومين العصمة المطلقة ، بل أغوى بعضهم كذلك ، وبعضهم بأنْ زيَّن له الفسق دون الكفر ، فيكون ظنّه أنّه قادر على إغواء البشر كافّة بمعنى الضّلال بالكفر ظنًّا غير مصيب .

قوله : «صدّقه به أبناء الحميّة» ، موضع « صدّقه » جرّ، لأنه صفة«ظنّ»،وقدروى: « صدّقه أبناء الحميّة» من غير ذكر الجارّ والمجرور ، ومَنْ رواه بالجارّ والمجرور كان معناه: صدقة فى ذلك الظن أبناء الحميّة ، فأقام الباء مقام « فى » .

قوله : « حتى إذا انقادت له الجامِحة منكم » ، أى الأنفس الجامحة أو الأخلاق الجامحة .

قوله « فَنَجمت فيه الحال » أى ظهرت ، وقد روى : « فنجمت الحال من السرّ الخفىّ » من غير ذكر الجار والمجرور ، ومن رواه بالجارّ والمجرور فالمعنى :فنجمت الحال فى هذا الشأن المذكور بينه وبينكم من الخفاء إلى الجلاء .

واستفحل سلطانه : قوىَ واشتدّ وصار فَحْلًا ، واستفحل جواب قوله :«حتى إذا».

دلف بجنوده : تقدّم بهم .

والوَلجات : جمع ولَجَة بالتحريك ، وهى موضع ، أو كهف يستتِر فيه المارّة من مطر أو غيره .

وأقحموكم : أدخلوكم . والورْطة : الهلَكة .

قوله : « وأوطئوكم إثخان الجراحة » ، أى جعلوكم واطئين لذلك ، والإثخان:مصدر أثخَن فى القتل ، أى أكثر منه وبالغ حتى كثف شأنه ، وصار كالشىء الثَّخِين ، ومعنى

---

(١) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ .

إيطاء الشيطان بنى آدم ذلك إلقاؤه إيّاهم فيه ، وتوريطهم وحمله لهم عليه . فالإثخان على هذا منصوب لأنه مفعول ثانٍ ؛ لا كما زعم الراوندىّ أنه انتصب بحذف حرف الخفض .

قوله عليه السلام : «طَعْناً فى عيونكم» ، انتصب «طعنا» على المصدر ، وفعله محذوف ، أى فعلوا بكم هذه الأفعال فطعنوكم فى عيونكم طعنا ، فأمّا من روى : « وأوطئوكم لإثخان الجراحة » باللّام فإنه يجعل «طعنا» منصوبا على أنّه مفعول به ، أى أوطئوكم طعنا وحزًّا ، كقولك : أوطأته ناراً ، وأوطأته عَشْوةً ، ويكون « لإثخان الجراحة » مفعولا له ، أى أوطئوكم الطعن ليثخنوا جراحكم . وينبغى أن يكون « قصدا » و « سوقا » خالصيْن للمصدرية ، لأنه يبعد أن يكون مفعولا به .

واعلم أنّه لما ذكر الطعنَ نسبه إلى العيون ، ولمّا ذكر الحزّ ، وهو الذبح نسبه إلى الحلوق ، ولما ذكر الدّقّ ، وهو الصدم الشديد أضافه إلى المناخر ، وهذا من صناعة الخطابة التى علّمه الله إيّاها بلا تعليم ، وتعلّمها الناس كلّهم بعده منه .

والخزائم : جمع خزامة ، وهى حلقة من شعر تجعل فى وَتَرة أنف البعير فيشدّ فيها الزّمام .

وتقول : قد وَرَى الزّند ، أى خرجت ناره ، وهذا الزند أوْرَى من هذا ، أى أكثر إخراجا للنار . يقول : فأصبح الشيطان أضرّ عليكم وأفسد لحالكم من أعدائكم الّذين أصبحتم مناصبين لهم ، أى معادين ، وعليهم متألبين ، أى مجتمعين .

فإن قلت : أمّا أعظم فى الدين حرجاً فمعلوم ، فأى معنى لقوله : « وأورى فى دنياكم قدْحا » ، وهل يُفسِد إبليسُ أمرَ الدّنيا كما يفسد أمر الدين !

قلت : نعم ، لأنّ أكثر القبائح الدينيّة مرتبطة بالمصالح والمفاسد الدنيوية ، ألا ترى أنه إذا أغرى السارق بالسرقة أفسدَ حال السارق من جهة الدّين وحال المسروق منه من جهة الدّنيا ،

وكذلك القول فى الغصْب والقَتْل وما يحدُث من مضارّ الشرور الدنيويّة من اختلاط الأنساب واشتباه النَّسْل، وما يتولّد من شرب الخمر والسكر الحاصل عنهما من أمور يحدثها السكران خبطاً بيده، وقذفاً بلسانه، إلى غير ذلك من أمثال هذه الأمور وأشباهها.

قوله عليه السلام: « فاجعلوا عليه حدّكُمْ »، أى شبَاتكم وبأسكم.

وله جِدّكم: من جددت فى الأمر جدًّا، أى اجتهدت فيه وبالغت.

ثم ذكر أنه فَخَر على أصلِ بنى آدم، يعنى أباهم آدم عليه السلام حيث امتنع من السجود له، وقال: « أنا خير منه ».

ووقع فى حَسَبِكم، أى عاب حَسَبَكم وهو الطين، فقال: إنّ النّار أفضلُ منه. ودفع فى نسبكم مثله.

وأجلب بخيله عليكم، أى جمع خيَّالته وفُرْسانه وألّبها.

ويقتنصونكم: يتصيّدونكم. والبَنان: أطراف الأصابع، وهو جمع، واحدته بَنَانة، ويجمع فى القلة على بنَانَات، ويقال: بنان مخضَّب، لأنّ كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه يذكّر ويوحّد.

والحَوْمة: معظم الماء والحرب وغيرهما، وموضع هذا الجارّ والمجرور نصب على الحال، أى يقتنصونكم فى حومة ذلّ.

والجولة: الموضع الّذى تجول فيه.

وكَمَن فى قلوبكم: استتر، ومنه الكمين فى الحرْب.

ونزغات الشيطان: وساوسه الّتى يفسد بها. ونفثاته مثله.

قوله: « واعتمدوا وضع التذلّل على رءوسكم، وإلقاء التعزّز تحت أقدامكم » كلامٌ شريف جليل المحلّ، وكذلك قوله عليه السلام: « واتّخذوا التّواضع مسلحةً بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده »، والمسلحة: خيلٌ معدّة للحماية والدفاع.

ثم نهاهم أن يكونوا كقابيل الذى حسد أخاه هابيل فقتله ، وهما أخوانِ لأب وأمّ ، وإنما قال : « ابن أمه » ، فذكر الأمّ دون الأب ، لأنّ الأخوين من الأمّ أشدّ حُنُوًّا ومحبة والتصاقا من الأخوين من الأب ، لأنّ الأمّ هى ذات الحضانة والتّربية .

وقوله : «من غير مافضل» ؛ ما هاهنا زائدة، وتعطى معنى التأكيد؛ نهاهم عليه السلام أن يحسدوا النّعم ، وأن يبغوا ويفسدوا فى الأرض ، فإنّ آدم لما أمَر ولده بالقربان قرّب قابيلُ شرَّ ماله ـ وكان كافراً ـ وقرّب هابيلُ خَيْرَ مالِه ـ وكان مؤمنا ـ فتقبَّل الله تعالى من هابيل، وأهبط من السماء ناراً فأكلته ، قالوا : لأنه لم يكن فى الأرض حينئذ فقير يصل القربان إليه ، فحسده قابيل ـ وكان أكبر منه سنّاً ـ فقال : لأقتلنّك ، قال : هابيل إنّما يتقبل الله من المتقين ، أى بذنبك وجرمك كان عدم قبول قُربانك لانسلاخك من التقوى ، فقتَله فأصبح نادماً ، لا ندم التّوبة بل ندم الحَيْر ورقّة الطبع البشرىّ ، ولأنه تعب فى حمله كما ورد فى التنزيل أنه لم يفهم ماذا يصنع به حتى بعث الله الغراب .

قوله عليه السلام : « وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة » ، لأنه كان ابتدأ بالقتل، ومَنْ سنّ سنّة شرٍّ كان عليه وزرها ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، كما أنّ مَنْ سَنّ سنّة خير كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، أنّ الروايات اختلفت فى هذه الواقعة ، فروى قوم أنّ الرّجلين كانا من بنى إسرائيل وليسا من ولد آدم لصُلبه ، والأكثرون خالفوا فى ذلك .

ثم اختلف الأكثرون ، فروى قوم أنّ القربان من قابيل وهابيل كان ابتداء ، والأكثرون قالوا : بل أراد آدم عليه السلام أن يزوّج هابيل أخت قابيل توءمته ، ويزوّج

قابيل أخت هابيل توءمتـه ، فأبى قابيل ، لأنّ توءمته كانت أحسنَ ، فأمرهما أبوهما بالقربان ، فمن تُقبِّل قربانه نكح الحسناء . فتقبّل قربان هابيل ، فقتله أخوه كما ورد فى الكتاب العزيز .

وروى الطبرى مرفوعا أنه صلى الله عليه وآله قال : « مامن نفس تُقتل ظلما إلا كان على ابن آدم عليه السلام الأوّل كِفل منهـا ، وذلك بأنه أول من سنّ القتل » ، وهذا يشيّد قول أمير المؤمنين عليه السلام .

***

الأَصْلُ

أَلَا وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي ٱلْبَغْيِ ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ، مُصَارَحَةً لِلّٰهِ بِالْمُنَاصَبَةِ ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ . فَاللّٰهَ ٱللّٰهَ فِي كِبْرِ ٱلْحَمِيَّـةِ ، وَفَخْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ! فَإِنَّهُ مَلَاقِحُ ٱلشَّنَآنِ ، وَمَنَافِخُ ٱلشَّيْطَانِ ؛ ٱلَّتِي خَدَعَ بِهَا ٱلْأُمَمَ ٱلْمَاضِيَـةَ ، وَٱلْقُرُونَ ٱلْخَالِيَةَ ، حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ ، وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ ، ذُلُلاً عَنْ سِيَاقِهِ ، سُلُساً فِي قِيَادِهِ ؛ أَمْراً تَشَابَهَتِ ٱلْقُلُوبُ فِيهِ ؛ وَتَتَابَعَتِ ٱلْقُرُونُ عَلَيْـهِ ؛ وَكِبْراً تَضَايَقَتِ ٱلصُّدُورُ بِهِ .

أَلَا فَٱلْحَذَرَ ٱلْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ ! ٱلَّذِينَ تَـكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ ، وَأَلْقَوُا ٱلْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَجَاحَدُوا ٱللّٰهَ عَلَى مَاصَنَعَ بِهِمْ ؛ مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ ، وَمُغَالَبَةً لِآلَائِهِ ، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ آسَاسِ ٱلْعَصَبِيَّةِ ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ ٱلْفِتْنَةِ ، وَسُيُوفُ ٱعْتِزَاءِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ .

فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَلَا تَـكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْـكُمْ أَضْدَاداً ، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً ،

وَلَا تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ ، وَهُمْ آسَاسُ الْفُسُوقِ ، وَأَحْلَاسُ الْعُقُوقِ ؛ اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ ، وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ .

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلَاتِهِ ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلَاتِهِ ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ ، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ .

***

الشرح :

أمعنتم فى البغى: بالغتم فيه، من أمعن فى الأرض؛ أى ذهب فيها بعيدا. ومصارحة الله ، أى مكاشفة .

والمناصبة المعاداة .

وملاقح الشنآن ، قال الراوندىّ : الملاقح هى الفُحول التى تلقح ؛ وليس بصحيح، نصّ الجوهرىّ على أنّ الوجه لواقح كما جاء فى القرآن : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾(١) .

وقال : هو من النّوادر ، لأن الماضى رباعىّ . والصحيح أن ملاقح هاهنا جمع مَلْقح وهو المصدر ، من لَقِحت كضربت مضربا وشربت مشربا .

ويجوز فتح النون من الشنآن وتسكينها ؛ وهو البغض .

ومنافخ الشيطان : جمع مَنْفَخ ، وهو مصدر أيضا ، من نفخ ، ونَفْخ الشيطان ونَفْثه

(١) سوره الحجر ٢٢ .

واحد ، وهو وسوسته وتسويله ، ويقال للمتطاول إلى ماليس له : قد نفخ الشيطان فى أنفه .
وفى كلامه عليه السلام ، يقوله لطلحة وهو صريع ، وقد وقف عليه ، وأخذ سيفه: «سيفٌ طالما جلّى به الكُرَب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الشيطان نفخ فى أنفه!» .

قوله : وأعنقوا : أصرعوا ، وفرس مِعْناق ، والسَّيْر العَنَق ، قال الراجز :

يا نَاقُ سيرى عَنَقاً فسيحاَ ... إلى سُلَيمانَ فنستريحا [1]

والحنادس : الظُلَم .

والمهاوى : جمع مَهْواة بالفتح ؛ وهى الهُوَّة يتردّى الصيد فيها ، وقد تهاوَى الصَّيد فى المهواة ، إذا سقط بعضه فى أثر بعض .

قوله عليه السلام : « ذللا عن سياقه » ، انتصب على الحال ، جمع ذَلُول ، وهو السهل المقادة ، وهو حال من الضمير فى « أعنقوا » ، أى أسرعوا منقادين لسوْقه إياهم .

وسُلُسا : جمع سَلِس ، وهو السَّهْل أيضا ، وإنما قسم «ذللا» و « سلسا» بين «سياقه» و « قياده » لأنّ المستعمل فى كلامهم : قدتُ الفرس فوجدته سَلِساً أو صعبا ، ولا يستحسنون :سقته فوجدته سلسا أو صعبا ، وإنّما المستحسَن عندهم: سقته فوجدته ذَلُولا أو شَمُوسا .

قوله عليه السلام : «أمراً » منصوب بتقدير فعل ، أى اعتمدوا أمراً ، «وكبرا» ، معطوف عليه ، أو ينصب « كبرا » على المصدر بأن يكون اسما واقعا موقعه ، كالعطاء موضع الإعطاء .

وقال الرّاونديّ:«أمرا»منصوب هاهنا لأنّه مفعول به . وناصبه المصدر الذى هو سياقه وقياده ، تقول : سقت سياقا وقدت قيادا ، وهذا غير صحيح لأنّ مفعول هذين المصدرين محذوف تقديره : عن سياقه إيّاهم وقياده إيّاهم ؛ وهذا هو معنى الكلام ، ولو فرضنا مفعول

---

(١) الرجز لأبى النجم العجلى ، وهو من شواهد ابن عقيل ٢ : ٢٧٤ .

أحد هذين المصدرين « أمرا » لفسد معنى الكلام . وقال الراوندىّ أيضا : ويجوز أن يكون «أمرا» حالا . وهذا أيضا ليس بشىء ، لأنّ الحال وصف هيئة الفاعل أو المفعول ، و « أمرا » ليس كذلك .

قوله عليه السلام : « تشابهت القلوب فيه » ، أى أنّ الحمية والفخر والكبر والعصبيّة مازالت القلوب متشابهة متماثلة فيها .

وتتابعت القُرون عليه : جمع قَرْن بالفَتْح ؛ وهى الأمّة من الناس .

وكِبْرا تضايقت الصدور به، أى كبر فى الصدور حتى امتلأت به وضاقت عنه لكثرته .

ثم أمر بالحذر من طاعة الرؤساء أرباب الحمية ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ (1) .

وقد كان أمَرَ فى الفصل الأوّل بالتّواضع لله ، ونهى هاهنا عن التواضع للرؤساء ، وقد جاء فى الخبر المرفوع : « ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء ! وأحسنُ منه تكبّر الفقراء على الأغنياء » .

الذين تكبّروا عن حسبهم ، أى جهلوا أنفسهم ، ولم يفكّروا فى أصلهم من النُّطَف المستقذَرة من الطين المنتن ، قال الشاعر :

مابال من أوّله نُطْفَةٌ ... وجيفةٌ آخرهُ يَفْخَرُ
يُصبح لا يملك تقديمَ ما ... يرجُو ولا تأخير ما يحذَرُ

قوله عليه السلام : « وألقوا الهَجِينةَ على ربهم » رَوى « الهَجِينة » على « فَعِيلة » ، كالطبيعة والخليقة ، وروى «الهُجْنَة» على «فُعْلة» ، كالمضغة واللُّقمة ، والمراد بهما الاستهجان ، من قولك : هو يهجّن كذا ، أى يقبّحه ، ويستهجنه أى يستقبحه . أى نسبوا مافى الأنساب

---

(1) سوره الأحزاب ٦٧ .

من القبح بزعمهم إلى ربّهم ، مثل أن يقولوا للرجل : أنت عجميّ ونحن عرب ، فإنّ هذا ليس إلى الإنسان ، بل هو إلى الله تعالى ، فأيّ ذنب له فيه !

قوله : « وجاحدوا الله » ، أى كابروه وأنكروا صنعَه إليهم .

وآساس بالمد : جمع أساس .

واعتزاء الجاهلية : قولهم : يالفَلان ! وسمع أبيّ بن كعب رجلاً يقول: يالفلان! فقال: عَضَضْتَ بهَنِ أبيك ! فقيل له : ياأبا المنذر ما كنت فحّاشا ، قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : « مَنْ تعزّى بعزاء الجاهليّة فأعِضّوه بهَنِ أبيه ولا تكْنُوا».

قوله : « فلا تكونوا لنعمة الله أضدادا » ؛ لأنّ البغيَ والكبر يقتضيان زوالَ النعمة وتبدّلها بالنقمة .

قوله : « ولا تطيعوا الأدعياء » ، مراده هاهنا بالأدعياء الذين ينتحلون الإسلام ويبطنون النفاق .

ثم وصفهم فقال : « الذين شربتم بصفوِكم كدَرَهم » ، أى شربتم كدَرَهم مستبدلين ذلك بصفوكم . ويروى : « الذين ضربتم » ، أى مزجتم . ويروى ؛ « شَرَيْتُم » أى بعتم واستبدلتم .

والأحلاس : جمع حِلْس ، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له ، فقيل لكل ملازم أمر : هو حِلْس ذلك الأمر .

والتَّرجمان ، بفتح التاء : هو الّذى يفسّر لسانا بلسان غيره ، وقد تُضَمّ التاء. ويروى: « ونثّا فى أسماعكم » من نَثّ الحديث ، أى أفشاه .

***

الأصْلُ :

فَلَوْ رَخَّصَ ٱللهُ فِي ٱلْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ ؛ وَلٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ ٱلتَّكَابُرَ ، وَرَضِيَ لَهُمُ ٱلتَّوَاضُعَ ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ ، وَعَفَّرُوا فِي ٱلتُّرَابِ وُجُوهَهُمْ ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ ؛ قَدِ ٱخْتَبَرَهُمُ ٱللهُ بِالْمَخْمَصَةِ ، وَٱبْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ ، وَٱمْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ ، وَمَحَّصَهُمْ بِالْمَكَارِهِ .

فَلَا تَعْتَبِرُوا ٱلرِّضَا وَٱلسُّخْطَ بِالْمَالِ وَٱلْوَلَدِ ، جَهْلاً بِمَوَاقِعِ ٱلْفِتْنَةِ ، وَٱلِاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ ٱلْغِنَى وَٱلْإِقْتَارِ ؛ فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١) .

***

الشَّرْحُ :

التكابر : التعاظُم ، والغرض مقابلة لفظة « التواضع » لتكون الألفاظ مزدوجةً .

وعفّر وجهَه : ألصقه بالعَفَر .

وخَفَضُوا أجنحتهم : ألانوا جانبَهم .

والمخمصَة : الجوع . والمجهدة : المشقّة ، وأمير المؤمنين عليه السلام كثير الاستعمال لمفعل ومَفْعلة بمعنى المصدر ، إذا تصفّحت كلامه عرفت ذلك .

ومحّصهم ، أى طهّرهم ، وروى « مخضهم » بالخاء والضاد المعجمة ، أى حرّكهم وزلزلهم .

---

(١) سورة « المؤمنون » ٥٥ ، ٥٦ .

ثم نهى أن يعتبر رضا الله وسخطه بما نراه من إعطائه الإنسان مالا وولدا ؛ فإن ذلك جهل بمواقع الفتنة والاختبار .

وقوله تعالى: ﴿ أيحسبون ... ﴾ ، الآية دليل على ماقاله عليه السلام ، والأدلة العقلية أيضا دلّت على أنّ كثيرا من الآلام والغموم والبلوى إنما يفعله الله تعالى للألطاف والمصالح . وما الموصولة فى الآية يعود إليها محذوف ومقدّر لابدّ منه ؛ وإلّا كان الكلام غير منتظم ، وغير مرتبط بعضه ببعض ، وتقديره : نسارع لهم به فى الخيرات .

***

الأَصْلُ :

فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِى أَنْفُسِهِمْ ؛ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِى أَعْيُنِهِمْ؛ وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا ـ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِىُّ ، فَشَرَطَا لَهُ ـ إِنْ أَسْلَمَ ـ بَقَاءَ مُلْكِهِ ، وَدَوَامَ عِزِّهِ ؛ فَقَالَ : أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِى دَوَامَ الْعِزِّ ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ ! فَهَلَّا أُلْقِىَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ؛ إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ ، وَاحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ !

وَلَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ ، وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ ؛ وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ ، وَوُحُوشَ الْأَرَضِينَ ؛ لَفَعَلَ ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ ، وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ ؛ وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا ؛ وَلٰكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِى قُوَّةٍ فِى عَزَائِمِهِمْ ؛ وَضَعَفَةً فِيمَا

تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنًى ، وَخَصَاصَةٍ تَمْلَأُ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَذًى .

***

الشَّرحُ :

مدارع الصوف: جمع مِدْرَعة ، بكسر الميم، وهى كالكساء ، وتدرّع الرجل وتمدْرع إذا لبسها . والعصىّ : جمع عصا .

وتقول : هذا سِوار المرأة، والجمع أسورة ، وجمع الجمع أساورة ، وقرئ : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾(١) . وقد يكون جمع أساور ،قال سبحانه : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾(٢) ، قال أبو عمرو بن العلاء : أساور هاهنا : جمع إسوار وهو السِّوار .

والذِّهْبان، بكسر الذال : جمع ذهب ، كَخَرب لذكر الحُبارى وخِرْبان . والعِقْيان: الذهب أيضا .

قوله عليه السلام : «واضمحلّت الأنباء»، أى تلاشت وفنيت . والأنْباء : جمع نَبأ، وهو الخبر ، أى لسقط الوعد والوعيد وبطلا .

قوله عليه السلام : « ولا لزمت الأسماء معانيها » ، أى مَنْ يسمّى مؤمنا أو مسلما حينئذ ، فإنّ تسميتَه مجاز لا حقيقة ؛ لأنه ليس بمؤمن إيمانا مِنْ فِعله وكَسْبه ، بل يكون ملجأ إلى الإيمان بما يشاهده من الآيات العظيمة .

والمبتلَيْن ، بفتح اللاّم : جمع مبتلًى ، كالمعطَيْن والمرتَضَيْن ، جمع معطًى ومرتضى . والخصاصة : الفقر .

---

(١) سوره الزخرف ٥٣ (٢) سوره الحج ٢٣ .

وهذا الكلام هو مايقوله أصحابنا بعينه فى تعليل أفعال البارئ سبحانه بالحكمة والمصلحة ، وأنّ الغرض بالتكليف هو التعريض للثواب ، وأنه يجب أن يكون خالصاً من الإلجاء ، ومِنْ أن يفعل الواجب بوجه غير وجه وجوبه ، يرتدع عن القبيح لوجه غير وجه قبحه .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى التاريخ ؛ أنّ موسى قدم هو وأخوه هارون مصر على فرْعون ، لما بعثهما الله تعالى إليه حتى وقفَا على بابه يلتمسان الإذْن عليه ، فمكثا سنين يغدُوَان على بابه ويروحان ، لايعلم بهما ؛ ولا يجترئ أحد على أن يخبره بشأنهما ــ وقد كانا قالا لمن بالباب : إنّا رسولَا ربّ العالمين إلى فرعون ــ حتى دخل عليه بطّال له يلاعبه ويضحكه ، فقال له : أيها الملك إنّ على الباب رجلا يقول قولا عجيبا عظيما ، ويزعم أن له إلهاً غيرك ، قال : ببابى ! قال · نعم ، قال : أدخِلوه ، فدخل وبيده عصاه ، ومعه هارون أخوه ، فقال : أنا رسول رب العالمين إليك . . . وذكر تمام الخبر .

فإن قلت : أىّ خاصيّة فى الصوف ولُبسه ؟ ولم اختاره الصالحون على غيره ؟

قلت : ورد فى الخبر أنّ أول لباس لبسه آدم لما هبط إلى الأرض صوف كبش قيّضه الله له ، وأمره أن يذبحه فيأكل لحمه ويلبس صوفه ؛ لأنّه أهبط عريانَ من الجنة فذبحه ، وغزلت حواء صوفَه ، فلبس آدم منه ثوباً ، وألبس حواء ثوبا آخر ، فلذلك صار شعار الأولياء وانتسبت إليه الصوفيّة .

***

الأصْـلُ

وَلَوْ كانَتِ الأَنْبياءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ ، وَعِزَّةٍ لا تُضامُ ، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْناقُ الرِّجالِ ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحالِ ؛ لَـكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ على الخَلْقِ فِي الاعْتِبارِ ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ مِنَ الاسْتِـكْبارِ ، وَلَآمَنُوا عَنْ رَهْبَـةٍ قاهِرَةٍ لَهُمْ ، أَوْ رَغْبَةٍ مائِلَةٍ بِهِمْ ، فَـكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً ، وَالحَسَناتُ مُقْتَسَمَةً ؛ وَلَـكِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ أَرادَ أَنْ يَـكُونَ الاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ ، وَالخُشُوعُ لِوَجْهِهِ ، والاسْتِـكانَةُ لِأَمْرِهِ ، وَالاسْتِسْلَامُ لِطاعَتِهِ ؛ أُمُوراً لَهُ خاصَّةً ، لَا يَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِها شائِبَةٌ .

* * *

الشَّـرْحُ :

تمدّ نحوه أعناق الرجال ، أى لعظمته ؛ أى يؤمّله المؤمّلون ويرجوه الراجون ، وكلّ مَنْ أمّل شيئاً فقد طمَح ببصره إليه معنًى لاصورة ، فـكنَى عن ذلك بمدّ العنق .

وتُشدّ إليه عُقَد الرحال : يسافر أربابُ الرغبات إليه ، يقول : لو كانَ الأنبياء ملوكا ذوى بأس وقَهْر لم يمكن إيمان الخلق وانقيادهم إليهم ،لأنّ الإيمان فى نفسه واجب عقلًا ، بل كان لرهبة لهم أو رغبة فيهم ، فـكانت النيّات مشتركة . هذا فرض سؤال وجواب عنه ، كأنه قال لنفسه : لم لا يجوز أن يكون إيمانهم على هـذا التقدير لوجوبه ، ولخوف ذلك النّبى ، أو لرجاء نفع ذلك النبى صلى الله عليـه وآله ؟ فقال : لأنّ النيات تـكون حينئذ مشتركة ، أى يكون المـكلّف قد فعل الإيمان لـكلا الأمرين. وكذلك تفسيرقوله: «والحسنات مقتسمة» : قال : ولا يجوز أن تـكون طاعة الله تعالى تعلو إلّا لـكونها طاعة له لاغير ، ولايجوز أن يشوبها ويخالطها من غيرها شائبة .

فإن قلت : ما معنى قوله : « لـكان ذلك أهون على الخلق فى الاعتبار ، وأبعد لهم من الاستـكبار » ؟

قلت : أى لو كان الأنبياء كالملوك فى السَّطوة والبطش ؛ لـكان المـكلّف لايشقّ عليه الاعتبار والانزجار عن القبائح مشقّته عليه إذا تركه لقبحه لالخوف السيف ، وكان بعدُ المـكلفين عن الاستـكبار والبغى لخوف السّيف والتأديب أعظمَ من بعدهم عنهما إذا تركوهما لوجه قبحهما ، فـكان يكون ثواب المـكلّف ؛ إمّا ساقطا ، وإمّا ناقصا .

***

الأصْل :

وَ كُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَى وَالاخْتِبَارُ أَعْظَمَ ، كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ ؛ أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْـهِ إِلَى الآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ؛ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِى جَعَلَهُ اللهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً ، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ حَجَراً ، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً ، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْراً . بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ ، وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ ، وَقُرًى مُنْقَطِعَةٍ ؛ لَا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ ، ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ ؛ فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ ، تَهْوِى إِلَيْهِ ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ ؛ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ ، وَمَهَاوِى فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً ، يُهَلِّلُونَ لِلهِ حَوْلَهُ ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ ، شُعْثاً غُبْراً لَهُ ، قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ ، ابْتِلَاءً عَظِيماً ، وَامْتِحَاناً شَدِيداً ، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً ، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً ، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ .

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمِّ الْأَشْجَارِ، دَانِي الثِّمَارِ، مُلْتَفِّ الْبُنَى، مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَزُرُوعٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ، عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ.

وَلَوْ كَانَ الْأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا؛ مِنْ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ.

وَلَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ.

***

الشرح :

كانت المثوبة، أى الثواب.

وأجزل: أكثر، والجزيل: العظيم، وعطاء جَزْل وجَزِيل والجمع جزال، وقد أجزلت له من العطاء، أى أكثرت.

وجعله للناس قياما، أى عمادا، وفلان قيام أهله، أى يقيم شئونهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾[1].

وأوعرُ بقاع الأرض حجراً، أى أصعبها، ومكانٌ وعْر، بالتسكين: صعب المسلك أو المقام.

---

(١) سورة النساء ٥ .

وأقلُّ نتائق الدُّنيا مدراً ؛ أصل هذه اللفظة من قولهم : «امرأة مِنْتاق» ، أى كثيرة الحبل والوِلادة ، ويقال: ضَيْعة مِنْتاق أى كثيرة الرّيع ، فجعل عليه السلام الضّياع دوات المدَر التى تثار للحرْث نتائق ، وقال : إنّ مكّة أقلها صلاحًا للزرع ، لأنّ أرضها حجرية .

والقُطْر : الجانب ، ورمالٌ دمِثة : سهلة ، وكلّما كان الرّمْل أسهل ؛ كان أبعد عن أن ينبت .

وعيون وشِلة ، أى قليلة الماء ، والوَشَل ، بفتح الشين : الماء القليل ، ويقال : وشَل الماء وَشَلانًا ، أى قطر .

قوله : « لايزكُو بها خُفّ » ، أى لاتزيد الإبل فيها أى لاتسمن ، والخُفّها هنا هو الإبل ، والحافر : الخيل والحمير ، والظِّلْف : الشاة ، أى ليس حولها مرعًى يرعاه الغنم فتسمَن .

وأن يَثنُوا أعطافهم نحوه ، أى يقصِدُوه ويحجّوه ، وعِطْفا الرّجل : جانباه .

وصار مثابة ، أى يُثاب إليه ويُرْجَع نحوه مرّة بعد أخرى ، وهذه من ألفاظ الكتاب العزيز (١) .

قوله عليه السلام : « لمنتجَع أسفارِهم » ، أى لنُجْعتها ، والنُّجعَة : طلب الكلأ فى الأصل ، ثم سمى كلّ مَنْ قصد أمرا يروم النفع منه منتجِعا .

قوله : « وغاية لمُلقى رحالهم » أى صار البيت هو الغاية التى هى الغرض والمقصد ، وعنده تلقى الرّحال ؛ أى تحطّ رحال الإبل عن ظهورها ، ويبطل السفر ، لأنهم قد انتهوْا إلى الغاية المقصودة .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ .

قوله : « تَهْوِى إليه ثمار الأفئدة » ، ثمرة الفؤاد : هو سويداء القلب ، ومنه قولهم للولد : هو ثمرة الفؤاد ، ومعنى « تهوِى إليه » أى تتشوّقه وتحنّ نحوه .

والمفاوز : هى جمع مَفَازة ، الفلاة سُمِّيتْ مَفَازة ، إمّا لأنها مهلَكة ، من قولهم : فوّز الرَّجُل ، أى هلك ، وإمّا تفاؤلًا بالسلامة والفوز ، والرّواية المشهورة . « منَ مفاوزِ قفار » بالإضافة . وقد روى قوم : « من مفاوزَ » بفتح الزاء ، لأنه لا ينصرف ، ولم يضيفوا ، جعلوا « قفار » صفة .

والسحيقة : البعيدة .

والمهاوِى : المساقط .

والفِجاج : جمع فَجّ ، وهو الطريق بين الْجَبلين .

قوله عليه السلام : « حتّى يهزّوا مناكبهم » ، أى يحرّكهم الشوق نحوه إلى أن يسافروا إليه ، فكنَى عن السّفو بهزّ المناكب .

وذُللا ، حال ، إمّا منهم وإمّا من المناكب ، وواحد المناكب ، منكِب بكسر الكاف ، وهو مجمع عظم العَضُد والكتف .

قوله : « ويهلّلون » ، يقولون : لا إله إلا الله ، وروى : « يُهِلُّون لله » أى يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها .

ويرمُلون ، الرَّمَل : السعى فوق المشى قليلا .

شُعْثا غُبْراً ؛ لا يتعهدون شعورهم ولا ثيابهم ولا أبدانهم ، قد نبذوا السرابيل، ورموا ثيابهم وقمصانهم المخيطة.

وشوّهوا بإعفاء الشعور ، أى غيّروا وقبحوا محاسن صورهم ، بأنْ أعفَوْا شعورهم فلم يَحلِقوا مافضل منها وسقط على الوجه ونبت فى غيره من الأعضاء التى جرت العادة بإزالتها عنها .

والتمحيص : التَّطْهير ، من محّصت الذهب بالنار إذا صفّيتَه مما يشوبه ، والتمحيص أيضا : الامتحان والاختبار . والمشاعر : معالم النُّسُك .

قوله : «وسهل وقرار» ، أى فى مكان سهل يستقرّ فيه الناس ولا ينالهم من المقام به مشقّة.

وجمّ الأشجار : كثيرها . ودانى الثمار : قريبها .

وملتفّ البِنَى : مشتبك العمارة .

والبُرَّة : الواحدة من البُرّ ، وهو الحنطة .

والأرياف . جمع ريف وهو الخِصْب والمرعى فى الأصل ، وهو هاهنا السّواد والمزارع ، ومحدِقة : محيطة . ومغدِقة : غزيرة ، والغدَق : الماء الكثير .

وناضرة : ذات نضارة وَرونق وحُسْن .

قوله : « ولو كانت الإساس[1] » ، يقول : لو كانت إساس البيت التى حمل البيت عليها وأحجاره التى رفع بها من زمردة وياقوتة فالمحمول والمرفوع كلاهما مرفوعان ، لأنهما صفة اسم كان والخبر « من زمردة » ، وروى : « بين زمردة » ، ويجوز أن تحمل لفظتا المفعول وهما المحمول والمرفوع ضمير البيت ، فيكون قائما مقام اسم الفاعل ، ويكون موضع الجار والمجرور نصباً ، ويجوز ألّا تحملهما ذلك الضمير ، ويجعل الجار والمجرور هو السادّ مسدّ الفاعل ، فيكون موضعه رفعا .

وروى : «مضارعة الشّكّ» بالضاد المعجمة ، ومعناه مقارنة الشك ودنوّه من النفس ، وأصله من مضارعة القِدْر إذا حان إدراكها ، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب .

وقال الراونديّ فى تفسير هذه الكلمة : من مضارعة الشك ، أى مماثلته ومشابهته ، وهذا بعيد ، لأنه لا معنًى للمماثلة والمشابهة هاهنا ، والرواية الصحيحة بالصاد المهملة .

قوله عليه السلام: « ولَنَفى متعلَج الرّيب » ، أى اعتلاجه ، أى ولنفى اضطراب الشك فى القلوب . وروى « يستعبدهم » و « يتعبّدهم » ، والثانية أحسن .

---

(١) الإساس ، بالكسر : جمع أس .

والمَجَاهد : جمع مَجْهدة ، وهى المشقة .

وأبوابا فُتُحا ، أى مفتوحة . وأسبابا ذُلُلًا ، أى سهلة .

***

واعلم أنّ محصول هذا الفصل أنه كلّما كانت العبادة أشقّ كان الثواب عليها أعظم، ولو أنّ الله تعالى جعل العبادات سهلة على المكلّفين لما استحقّوا عليها من الثواب إلّا قدراً يسيرا ، بحسب مايكون فيها من المشقّة اليسيرة .

فإن قلت : فهل كان البيت الحرام موجوداً أيام آدم عليه السلام ، ثم أُمِر آدم وولده أن يَثنوا أعطافهم نحوه؟

قلت : نعم هكذا روى أرباب السِّيَر وأصحاب التواريخ ؛ روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى '' تاريخه '' عن ابن عباس ، أنّ الله تعالى أوحى إلى آدم لّما أهبطه إلى الأرض : أنّ لى حَرَماً حِيال عَرْشى ، فانطلِق فابنِ لى بيتاً فيه ، ثم طُفْ به كما رأيت ملائكتى تحفّ بعرشى ، فهنالك أستجيبُ دعاءك ودعاء مَنْ يحفّ به من ذُرّيتك . فقال آدم : إنّى لستُ أقوى على بنائه ، ولا أهتدى إليه ، فقيّض الله تعالى له مَلَكا، فانطلق به نحو مكّة ـ وكان آدم فى طريقه كلّما رأى روضة أو مكانا يعجبه سأل الملك أن ينزِل به هناك ليبنى فيه ، فيقول الملَك : إنه ليس هاهنا حتى أقدمه مكة ـ فبنى البيت من خمسة جبال : طور سيناء ، وطور زيتون ، ولُبنان ، والجودّى ، وبنى قواعدَه من حِراء. فلمّا فرغ خرج به الملك إلى عرفات ، فأراه المناسكَ كلّها التى يفعلها الناس اليوم، ثم قدِم به مكة وطاف بالبيت أسبوعا ، ثم رجع إلى أرض الهند فمات .

وروى الطبرى فى التاريخ أن آدم حجّ من أرض الهند إلى الكعبة أربعين حجّة على رجليه .

وقد روى أنّ الكعبة أنزلت من السماء وهى ياقوتة أو لؤلؤة؛ على اختلاف الروايات وأنها بقيَتْ على تلك الصورة إلى أن فسدت الأرض بالمعاصى أيّام نوح، وجاء الطوفان فرفع البيت، وبنى إبراهيم هذه البنيّة على قواعده القديمة.

وروى أبو جعفر، عن وهب بن منبّه أنّ آدم دعا ربّه فقال: يارب أما لأرضك هذه عامرٌ يسبّحك ويقدّسك فيها غيرى! فقال الله: إنّى سأجعل فيها من ولدك من يسبّح بحمدى ويقدّسنى، وسأجعل فيها بيُوتاً تُرفَع لذكرى، يسبّحنى فيها خلق، ويُذكر فيها اسمى، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أختصّه بكرامتى، وأوثره باسمى، فأسمّيه بيتى، وعليه وضعت جلالتى وخصصتهُ بعظمتى، وأنا مع ذلك فى كلّ شىء، أجعل ذلك البيت حَرَماً آمنا يحرّم بحرمته من حوله، ومن تحته، ومَنْ فوقه فمَنْ حرّمه بحُرْمتى استوجب كرامتى، ومن أخاف أهلَه فقد أباح حُرْمتى، واستحقّ سَخَطِى؛ وأجعله بيتا مُباركاً يأتيه بنُوك شُعْثاً غُبراً على كلّ ضامر من كلّ فجٍّ عميق، يرجّون بالتلبية رَجِيجا؛ ويعجّون بالتكبير عجيجا، من اعتمده لايريد غيره، ووفد إلىّ وزارنى واستضاف بى، أسعفته بحاجته؛ وحقٌّ على الكريم أن يكرِم وفدَه وأضيافه؛ تعمره يا آدم مادمت حيّاً، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن.

قال: ثم أمر آدم أن يأتِىَ إلى البيت الحرام الذى أهبط له إلى الأرض فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول العرش، وكان البيت حينئذ من دُرَّةٍ أو من ياقوتة، فلمّا أغرق الله تعالى قوم نوح رفعه، وبقى أساسه فبوّأه الله لإبراهيم فبناه.

***

الأصل :

فاللهَ اللهَ فِي عاجِلِ الْبَغْي ؛ وَآجِلِ وَخامَةِ الظُّلْمِ ؛ وَسُوءِ عاقِبَةِ الْكِبْرِ ، فَإِنَّها مَصْيَدَةُ إِبْلِيس الْعُظْمَى ، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى ؛ الَّتِي تُساوِرُ قُلُوبَ الرِّجالِ مُساوَرَةَ السُّمُومِ الْقاتِلَةِ ، فَما تُكْدِي أَبَداً ، وَلا تُشْوِي أَحَداً ؛ لا عالِماً لِعِلْمِهِ ، وَلا مُقِلّاً فِي طِمْرِهِ .

وَعَنْ ذَلِكَ ماحَرَسَ اللهُ عِبادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَواتِ وَالزَّكَواتِ ، وَمُجاهَدَةِ الصِّيامِ فِي الأَيّامِ الْمَفْرُوضاتِ ، تَسْكِيناً لأَطْرافِهِمْ ، وَتَخْشِيعاً لأَبْصارِهِمْ ، وَتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ ، وَتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ ، وَإِذْهاباً لِلْخُيَلاءِ عَنْهُمْ ، وَلِما فِي ذَلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرابِ تَواضُعاً ، وَالْتِصاقِ كَرائِمِ الْجَوارِحِ بِالأَرْضِ تَصاغُراً ، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيامِ تَذَلُّلاً ؛ مَعَ مافِي الزَّكاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَراتِ الأَرْضِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ .

انْظُرُوا إِلَى مافِي هَذِهِ الأَفْعالِ مِنْ قَمْعِ نَواجِمِ الْفَخْرِ ، وَقَدْعِ طَوالِعِ الْكِبْرِ!

***

الشرح :

بلدة وخِمة ووخيمة : بيّنة الوخامة ، أى وبيئة .

مصْيَدَة إبليس ، بسكون الصاد وفتح الياء : آلته التى يصطاد بها .

وتُساوِر قلوب الرجال : تواثبُها ، وسار إليه يَسُور ، أى وثب ، والمصدَر السَّوْر ، ومصدر « تَساور » المساورة ،ويقال : إنّ لغضبه سَوْرة ، وهو سَوّار ، أىْ وثّابٌ معربد ،

وسَوْرة الشراب : وثوبه فى الرأس ، وكذلك مساورة السموم التى ذكرها أميرالمؤمنين عليه السلام .

وما تكدِى : ماتردّ عن تأثيرها ، من قولك : أكدى حافر الفرس ، إذا بلغ الكُدْية وهى الأرض الصُّلبة ، فلا يمكنه أنْ يحفر .

ولا تُشوِى أحدا : لا تخطئ المقْتَل وتصيب غيره ؛ وهو الشَّوَى ، والشوى : الأطراف ، كاليد والرجل .

قال : لاتردّ مكيدته عن أحد لا عن عالم لأجل علمه ، ولا عن فقير لطِمْره ، والطِّمْر : الثوب الخلَق .

و « ما » فى قوله : « وعن ذلك ماحرس الله » زائدة مؤكدة، أى عن هذه المكايد التى هى البغى والظلم والكِبر حَرَس الله عباده، فـ«عن» متعلقة بـ«حرس» . وقال الرّاوندى: يجوز أن تكون مصدرية ، فيكون موضعها رفعاً بالابتداء ، وخبر المبتدأ قوله : «لما فى ذلك». وقال أيضاً : يجوز أن تكون نافية ، أى لم يحرس الله عباده عن ذلك إلجاء وقهْراً ، بل فعلوه اختياراً من أنفسهم ، والوجه الأول باطل ، لأن « عن » على هذا التقدير تكون من صلة المصدر ، فلا يجوز تقديمها عليه، وأيضاً فإنّ « لما فى ذلك »لو كان هو الخبر ،لتعلّق لام الجر بمحذوف ، فيكون التقدير : حراسة الله لعباده عن ذلك كائنة لما فى ذلك من تعفير الوجوه بالتراب ؛ وهذا كلام غير مُفيد ولا منتظم إلّا على تأويل بعيد لاحاجة إلى تعسّفه ، والوجه الثانى باطل ، لأنّ سياقة الكلام تدلّ على فساده ، ألا ترى قوله : « تسكينا وتخشيعا » ، وقوله : « لما فى ذلك من كذا » ، وهذا كلُّه تعليل الحاصل الثابت لا تعليل المنفىّ المعدوم .

ثم بيّن عليه السلام الحكمة فى العبادات ، فقال : إنه تعالى حَرَس عباده بالصلوات

التى افترضها عليهم من تلك المكايد ، وكذلك بالزكاة والصوّم ليسكّن أطرافهم، ويخشّع أبصارهم ، فجعل التسكين والتخشيع عذراً وعلّة للحراسة ، ونصب اللفظات على أنّها مفعول له .

ثم علل السكُون والخشوع الذى هو علّة الحراسة لما فى الصلاة من تعفير الوجه على التراب ، فصار ذلك علّة العلة . قال : وذلك لأن تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعا يوجب هَضْم النفس وكسرها وتذليلها .

وعتاق الوجوه : كرائمها .

وإلصاق كرائم الجوارح بالأرض كاليدين والساقين تصاغرا يوجب الخشوع والاستسلام ، والجوع فى الصوم الذى يلحق البطن فى المتن يقتضى زوال الأَشَر والبطَر، ويوجب مذلّة النفس وقمْعها عن الانهماك فى الشهوات ، وما فى الزكاة من صَرْف فواضل المكاسب إلى أهل الفقر والمسكنة يوجبُ تطهيرَ النفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات بما تسمحُ به النفوس من الأموال، وعاصم لهم من السرقات وارتكاب المنكرات ، ففى ذلك كلّه دفع مكايد الشيطان .

وتخفيض القلوب : حطها عن الاعتلاء والتيّه .

والخُيَلاء : التكبّر . والمسكنة : أشدّ الفقر فى أظهر الرّأيين .

والقَمْع : القهر .

والنَّوَاجم : جمع ناجمة ، وهى ما يظهر ويطلع من الكبر وغيره .

والقَدْع ، بالدال المهملة : الكفّ ، قدعت الفرس وكبحته باللجام ، أى كففته .

والطوالع ، كالنواجم .

***

الأصْلُ :

وَلقَدْ نَظَرْتُ فمَا وَجدْتُ أَحداً مِنَ العالَمينَ يتَعصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْياءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ تحتَمِلُ تمْوِيهَ الْجُهلَاءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهاءِ غيْرَكُمْ، فَإِنَّكُمْ تتعصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَايُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ . أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدمَ لِأَصْلِهِ ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ ، فَقالَ : أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ . وَأَمَّا الْأَغْنِياءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ ، فقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعالِ ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ العربِ، وَيَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ ؛ بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيبَةِ ، وَالْأَحْلَامِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ ، وَالْآثَارِ الْمَحْمُودَةِ .

فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ؛ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، وَالْإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَالْإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ ، وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .

***

الشَّرْحُ :

قد روى : « تحتمل » بالتاء ، وروى « تحمل » ، والمعنى واحد .

والتمويه : التلبيس من موَّهت النّحاس ، إذا طليته بالذهب ليخفى .

ولاط الشيء بقلبي يلوط ويليط ، أى التصق .

والمترَف : الذى أطغته النعمة .

وتفاضلت فيها ، أى تزايدت .

والمُجداء : جمع ماجد ، والمجْد الشرف فى الآباء ، والحسب والكرم يكونان فى الرّجل وإن لم يكونا فى آبائه . هكذا قال ابنُ السِّكِّيت، وقد اعترِض عليه بأن المجيد من صفات الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾(١) على قراءة مَنْ رفع ، والله سبحانه يتعالى عن الآباء ، وقد جاء فى وصف القرآن المجيد ، قال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾(٢) .

والنُّجداء : الشجعان ، واحدهم نَجِيد ، وأمّا نَجِد ونَجُد ، بالكسر والضم ، فجمعه أنجاد ، مثل يَقِظ وأيقاظ .

وبيوتات العرب : قبائلها . ويعاسيب القبائل : رؤساؤها ، واليعسوب فى الأصل : ذكَر النحل وأميرها .

والرغيبة : الخصْلة يُرغَب فيها .

والأحلام : العقول . والأخطار : الأقدار .

ثم أمرهم بأن يتعصّبُوا لخلال الحمد وعددها ، وينبغى أن يحمل قوله عليه السلام : « فإنكم تتعصّبون لأمر مايعرف له سبب ولا علّة » ، على أنّه لا يعرف له سبب مُناسب، فكيف يمكن أن يتعصّبوا لغير سبب أصلا !

وقيل : إنّ أصل هذه العصبية ؛ وهذه الخطبة ؛ أنّ أهلَ الكوفة كانوا قدفسدُوا فى آخر خلافة أمير المؤمنين ،وكانوا قبائلَ فى الكوفة ، فكان الرّجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أخرى ، فينادِى باسم قبيلته : ياللنَّخَع ! مثلا ، أو يالَكِندة ! نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشرّ ، فيتألّب عليه فتْيان القبيلة التى مر بها فينادون : يالَتميم !

---

(١) سورة البروج ١٥ (٢) سورة البروج ٢١ .

ويالَربيعة ! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضى إلى قبياته فيستصرخها ، فتُسلّ السيوف وتثور الفِتَن ، ولا يكون لها أصل فى الحقيقة إلّا تعرُّض الفتْيان بعضهم ببعض.

***

الأصْلُ :

وَاحْذَرُوا مَانَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ ، فَتَذَكَّرُوا فِى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ ؛ فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِى تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ حَالَهُمْ ، وَزَاحَتِ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ ؛ مِنَ الاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ ، وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِى بِهَا.

وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ ، مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِى .

***

الشّرْحُ :

المثُلات : العُقوبات .

وذميم الأفعال : مايذمّ منها .

وتفاوت حاليْهم : اختلافهما . وزاحت الأعداء : بعدت . وله ، أى لأجله .

والتحاضّ عليها : تفاعل يستدعى وقوعَ الحضّ ، وهو الحثّ من الجهتين ،أى يحث بعضهم بعضاً .

والفِقْرة :واحدة فِقَر الظّهر ، ويقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة : قد كُسِرت فِقرته.

والمُنّة : القوّة .

وتضاغُن القلوب وتشاحنها واحد. وتخاذل الأيدى : ألّا ينصُر النّاس بعضهم بعضا.

***

الأصْـلُ

وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ المَاضِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ ؛ كَيْفَ كَانُوا فى حَالِ التَّمْحِيصِ وَالبَلَاءِ ! أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الخَلَائِقِ أَعْبَاءً ، وَأَجْهَدَ العِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً ! اتَّخَذَتْهُمُ الفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ العَذَابِ ، وَجَرَّعُوهُمْ جُرَعَ المُرَارِ ، فَلَمْ تَبْرَحِ الحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الهَلَكَةِ وَقَهْرِ الغَلَبَةِ ؛ لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ ، وَلَا سَبِيلاً إِلَى دِفَاعٍ ، حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ ، وَالاِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ البَلَاءِ فَرَجًا ، فَأَبْدَلَهُمُ العِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ ، وَالأَمْنَ مَكَانَ الخَوْفِ ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّامًا ، وَأَئِمَّةً أَعْلَامًا ، وَقَدْ بَلَغَتِ الكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ ، مَا لَمْ تَذْهَبِ الآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ .

***

الشّرْحُ :

تدبّروا ، أى تأمّلوا . والتّمحيص : التطهير والتصفية .

والأعباء : الأثقال : واحدها عبْء .

وأجهد العباد : أتعبهم .

والفراعنة : العُتاة ، وكلّ عاتٍ فرعون .

وساموهم سوء العذاب: ألزموهم إيّاه ، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

والمُرار : بضمّ الميم : شجر مُرٌّ فى الأصل ، واستعير شرب المُرار لكلّ مَنْ يلقى شديد المشقّة .

ورأى الله منهم جدّ الصبر ، أى أشدّه .

وأئمة أعلاما ، أى يهتدى بهم ، كالعلَم فى الفَلَاة .

***

الأصل :

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً ، وَالأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً ، وَالقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً ، وَالأَيْدِي مُتَرَادِفَةً ، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً ، وَالبَصَائِرُ نَافِذَةً ، وَالعَزَائِمُ وَاحِدَةً .

أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الأَرَضِينَ ، وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ العَالَمِينَ !

فَانظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ ، حِينَ وَقَعَتِ الفُرْقَةُ ، وَتَشَتَّتَتِ الأُلْفَةُ ، وَاخْتَلَفَتِ الكَلِمَةُ وَالأَفْئِدَةُ ؛ تَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ ، قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ .

***

الشرح :

الأملاء : الجماعات ، الواحد ملأ .

---

(١) سورة البقرة ٤٩ .

ومترادفة : متعاونة . البصائر نافذة ، يقال : نفذت بصيرتى فى هذا الخبر ، أى اجتمع همّى عليه ، ولم يبق عندى تردّد فيه ، لعلمى به وتحقيق إياه .

وأقطار الأرَضين : نواحيها ، وتشتّتت : تفرّقت .

وتشعّبوا : صاروا شُعوبا وقبائل مختلفين .

وتفرّقوا متحزّبين : اختلفوا أحزابا ، وروى : « متحازبين » .

وغضارة النّعمة : الطيّب اللّيّن منها .

والقَصَصُ : الحديث .

يقول : انظروا فى أخبار مَنْ قبلكم من الأمم ، كيف كانت حالهم فى العزّ والمُلْك لمّا كانت كلمتُهم واحدة ، وإلى ماذا آلتْ حالهم حين اختلفت كلمتهم ! فاحذروا أن تكونوا مثلهم ، وأن يحلّ بكم إن اختلفتم مثل ماحلّ بهم .

***

الأصلُ :

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الْأَمْثَالِ !

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ ، لَيَالِيَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الْآفَاقِ ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا ، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ ، وَمَهَافِي الرِّيحِ ، وَنَكَدِ الْمَعَاشِ ؛ فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ ، إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ . أَذَلَّ الْأُمَمِ دَاراً ، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً ، لَا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا ، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا ، فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ ، فِي بَلَاءِ أَزْلٍ ، وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ ، مِنْ بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ ، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ .

***

الشرح :

لقائل أن يقول : مانعرف أحداً من بنى إسحاق وبنى إسرائيل احتازتْهم الأكاسرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية ومنابت الشيح ، إلا أن يقال : يهود خيْبر والنّضير وبنى قُرَيظة وبنى قَيْنُقَاع ، وهؤلاء نفرٌ قليل لا يعتدّ بهم . ويُعلَم من فَحْوَى الخطبة أنّهم غيرُ مرادين بالكلام ، ولأنّه عليه السلام قال : تركوهم إخوان دَبَر وَوَبَر ، وهؤلاء لم يكونوا من أهل الوبَر والدَّبَر ، بل من أهل المَدَر ؛ لأنهم كانو ذوِى حصون وآطام . والحاصل أنّ الذين احتازتْهم الأكاسرة والقياصِرة من الرّيف إلى البادية ، وصاروا أهل وَبَر ولدُ إسماعيل ؛ لا بنو إسحاق وبنو إسرائيل !

والجواب أنه عليه السلام ذكر فى هذه الكلمات ، وهى قوله : « فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبنى إسحاق وبنى إسرائيل المقهورين والقاهرين جميعا » ؛ أما المقهورون فبنو إسماعيل ، وأما القاهرون فبنو إسحاق وبنو إسرائيل ، لأن الأكاسرة من بنى إسحاق ؛ ذكر كثير من أهل العلم أنّ فارس من ولد إسحاق ، والقياصرة من ولد إسحاق أيضاً ، لأنّ الرّوم بنو العِيص بن إسحاق ، وعلى هذا يكون الضمير فى « أمرهم » ، و « تشتّتهم » و « تفرقهم » يرجع إلى بنى إسماعيل خاصة .

فإن قلت : فبنو إسرائيل ، أىّ مدْخلٍ لهم ها هنا ؟

قلت : لأنّ بنى إسرائيل لمّا كانوا ملوكاً بالشّام فى أيام أجاب الملك وغيره ، حاربوا العرب من بنى إسماعيل غير مرّة ، وطردوهم عن الشام ، وألجئوهم على المقام ببادية الحجاز . ويصير تقدير الكلام : فاعتبروا بحال ولد إسماعيل مع بنى إسحاق وبنى إسرائيل ؛ فجاء بهم فى صدر الكلام على العموم ، ثم خصّص فقال : الأكاسرة والقياصرة ؛ وهم داخلون فى عموم ولد إسحاق ، وإنما لم يخصّص عموم بنى إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك

ولد يعقوب ، فيذكر لهم أسماءهم فى الخُطْبة ، بخلاف ولد إسحاق فإنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بنى ساسان ومن بنى الأصفر .

***

قوله عليه السلام : « فما أشدّ اعتدال الأحوال ! » ، أى ما أشبه الأشياء بعضها ببعض ! وإنّ حالكم لشبيهة بحال أولئك فاعتبروا بهم .

قوله : « يحتازونهم عن الريف » يبعدونهم عنه ، والريف : الأرض ذات الخِصْب والزّرع ، والجمع أرياف ؛ وراقت الماشية أى رعت الرِّيف ، وقد أرفنا أىْ صرنا إلى الريف ، وأرافت الأرض أى أخصبت ، وهى أرض ريِّفة ، بتشديد الياء .

وبحر العِراق : دجلة والفرات ، أمّا الأكاسرة فطردُوهم عن بَحْر العراق ، وأما القياصرة فطردُوهم عن ريف الآفاق ، أى عن الشام وما فيه من المرعى والمنتجَع .

قوله عليه السلام : « أرباباً لهم » ، أى ملوكاً ، وكانت العرب تسمّى الأكاسرة أرباباً ، ولمّا عظم أمر حُذَيفة بن بدر عندهم سمّوْه ربَّ مَعَدّ .

ومنابت الشِّيح : أرض العرب ، والشِّيحُ : نَبْت معروف .

ومَهافِى الريح : المواضع التى تهفو فيها ، أى تهبّ وهى الفيافى والصحارى .

ونكد المعاش : ضيقه وقلّته .

وتركوهم عالةً ، أى فقراء ، جمع عائل ، والعائل ذو العَيْلة والعَيْلة : الفقر ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [١] ، قال الشاعر :

تُعَيِّرنا أنّنا عالةٌ صَعَاليكُ نحن وأنتمْ ملوكُ

---

(١) سورة التوبة ٢٨ .

نظيره قائد وقادة ، وسائس وساسة .

وقوله : « إخوانَ دَبَرٍ ووَبَر » ، الدّبر مصدر دَبِرَ البعيرُ ، أى عقره القتَب . والوبَر للبعير بمنزلة الصوف للضأن والشعر للمعز .

قوله : أذلّ الأمم دارا » ؛ لعدَم المعاقل والحصون المنيعة فيها .

وأجذبهم قرارا ، لعدم الزّرع والشجر والنخل بها . والجدْب : المحْل .

ولا يأوون : لا يلتجئون ولا ينضمّون .

والأزْل : الضِّيق . وأطباق جهل : جمع طبَق ، أى جَهْل متراكم بعضُه فوق بعض .

وغارات مشنونة : متفرّقة ، وهى أصعب الغارات .

***

[فصل فى ذكر الأسباب التى دعت العرب إلى وأد البنات]

مِنْ بنات موءودة ؛ كان قومٌ من العرب يئِدُون البنات ، قيل : إنهم بنو تميم خاصّة ، وإنه استفاض منهم فى جيرانهم . وقيل : بل كان ذلك فى تميم ، وقيس ، وأسد ، وهُذَيل ، وبكر بن وائل ، قالوا : وذلك أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله دعا عليهم ، فقال : « اللهمّ اشدد وطأتك على مُضَر ، واجعل عليهم سنين كسِنِي يوسفَ » ، فأجدَبُوا سبع سنين حتى أكلوا الوَبَر بالدم ، وكانوا يسمّونه العِلْهز ، فوأدوا البناتِ لإملاقهم وفقرهم ، وقد دلّ على ذلك بقوله : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾[1] ، قال : ﴿ وَلا يقتُلْنَ أَوْلادهُنّ ﴾[2] .

وقال قوم : بل وأدوا البنات أنفةً ، وزعموا أنّ تميماً منعت النعمان الإتاوة سنة من

---

(١) سورة الإسراء ٣١ . (٢) سورة الممتحنة ١٢ .

السنين ، فوجّه إليهم أخاه الريّان بن المنذر ، وجُلّ مَنْ معه من بَكْر بن وائل ، فاستاق النَّعَمَ وسَبَى الذرارِيّ ، وفى ذلك يقول بعض بنى يَشْكُر :

لمّا رأوْا رايةَ النُّعمان مقبِلةً ... قالوا : ألا لَيْتَ أَدْنَى دارِنا عدَنُ !
ياليتَ أمَّ تميمٍ لم تكُنْ عرَفَتْ ... مُرًّا ، وكانتْ كمن أودَى به الزَّمَنُ
إنْ تقتُلونا فأعيارٌ مُجدَّعةٌ ... أو تُنْعِموا فقديماً منكم المِنَنُ
منكم زُهَيْرٌ وعتّاب ومحتضِنٌ ... وابنا لَقِيطٍ وأوْدى فى الوغَى قَطَنُ

فوفدت بنو تميم إلى النعمان ، واستعطفوه ، فرقّ عليهم ، وأعاد عليهم السَّبْى ، وقال : كلّ امرأة اختارت أباها ردّت إليه ، وإن اختارت صاحبها تركت عليه ، فكلّهن اخترن آباءهنّ ، إلا ابنةَ قيس بن عاصم ، فإنها اختارت مَنْ سباها ، وهو عمرو بن المشمرخ اليشكرىّ ، فنذر قيس بن عاصم المِنقَرِىّ التميمىّ ألا يولد له بنت إلا وأدها ، والوأد أن يخنقَها فى التراب ويُثقِل وجهها به حتى تموت . ثم اقتدى به كثير من بنى تميم ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (١) ، أى على طريق التبكيت والتوبيخ لمن فعل ذلك أو أجازه ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ (٢) ﴾ .

ومن جيّد شعر الفرزدق قوله فى هجاء جرير :

أَلَمْ ترَ أَنّا بَنِى دارمٍ ... زُرارة مِنّا أبو مَعْبَدِ (٣)
ومنّا الّذى منع الوائداتِ ... وأحيَا الوليدَ فلم يُوأدِ (٤)
ألسنَا بأصحاب يوم النِّسارِ ... وأصحاب ألويَة المِرْبَدِ

---

(١) سورة التكوير ٨ ، ٩

(٢) سورة المائدة ١١٦ .

(٣) ديوانه ٢٠٢ ، ٢٠٣

(٤) يعنى جده صعصعة بن ناجية .

ألسْنا الّذين تمــيمٌ بهمْ تَسامَى وتفخر فى المشهــدِ !
وناجيـــة الخـــير والأقْرَعا نِ وقــبرٌ بكاظمة المَوْردِ (١)
إذا ما أتى قــبرَه عائذٌ أناخ على القَبْرِ بالأسْعَــدِ (٢)
أيطلب مجــد بنى دارمٍ عطيّــة كالجُعَــل الأسْودِ !
قَرَنْبَى يَحُــكُّ قفَا مُقْرِفٍ لئيمٍ مآثره قُعْــدُدِ (٣)
ومجــد بنى دارم فوقَهُ مــكان السِّماكَيْن والفرْقَدِ

وفى الحديث : أنّ صَعصعة بن ناجية بن عِقال لمّا وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : يارسولَ الله ، إنّى كنتُ أعملُ فى الجاهليّة عملا صالحا ، فهل ينفعنى ذلكَ اليوم ؟ قال عليه السلام : وما عملت ؟ قال : ضَلّتْ ناقتين عُشَرَاوين ، (٤) فركبت جملًا ومضيت فى بُغائهما (٥) ، فرفع لى بيت حَرِيد (٦) ، فقصدته ، فإذا شيخ جالس بفنائه فسألته عن الناقتين ، فقال : ما نارُهما (٧) ؟ قلت : مِيسم بنى دَارِم ، قال : هما عندى ، وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مُضَر ، فجلست معه ليخرجهما إلىّ ، فإذا عجوز قد خرجت من كِسْر البيت ، فقال لها : ماوضعتْ ، فإن كان سَقْباً (٨) شاركنا فى أموالنا ، وإن كان حائلا (٩) وأدْناها ، فقالت العجوز : وضعت أنثى ، فقلت له : أتبيعها؟ قال: وهل تبيع العرب أولادَها ! قلت : إنّما أشترى حياتَها ، ولا أشترى رقّها ، قال ؛ فبكم؟ قلت : احتَكِم ، قال: بالناقتين والجمل ، قلت : أذاكَ لك على أن يبلغنى الجمل وإياها ! قال : بعتُك ، فاستنقذتُها

---

(١) ناجية؛ هو ابن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع . والأقرعان: الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال.
(٢) الأسعد : نجم طالعه سعد .
(٣) القرنبى : ضرب من الخنافس أرقط طويل القوائم ، والقعدد : اللئيم الآباء .
(٤) العشراء من النياق : التى مضى لحملها عشرة أشهر ، كالنفساء .
(٥) فى بغائهما : فى طلبهما . (٦) الحريد : المعتزل المتنحى .
(٧) فى النهاية واللسان : ما ناراهما ؟ والنار هنا : السمة بالمكوى ؛ سميت باسم النار .
(٨) السقب : ولد الناقة ساعة يولد ؛ وهو خاص بالذكر .
(٩) الحائل : الأنثى من ولد الناقة ساعة تولد ؛ ولا يقال : « سقبة » .

منه بالجمل والناقتين ، وآمنت بك يارسول الله ، وقد صارتْ لى سنّة فى العرب أن أشتَرِيَ كلّ موءودَة بناقتين عُشَراوين وجمل ، فعندى إلى هــذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة قد أنقذتهنّ ، فقال عليه السلام : « لا ينفعك ذاك لأنك لم تبتغ به وجهَ الله ، وإنْ تعمل فى إسلامك عملاً صالحا تثب عليه » (١) .

وروى الزُّبير فى "الموفّقيّات" أنّ أبا بكر قال فى الجاهليّة لقيس بن عاصم المِنْقرىّ : ماحملك على أن وأدت ؟ قال : مخافة أن يخلُف عليهن مثلك .

***

الأصْلُ :

فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً ، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ ، كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا ، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا ، وَالْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا ، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَاكِهِينَ ؛ قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ ، وَآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ ، وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ ؛ فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرَضِينَ ، يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ ، وَيُمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ ، لَا تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ ، وَلَا تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ .

***

الشّرح :

لمّا ذكر ما كانت العرب عليه من الذلّ والضَّيْم والجهل ، عاد فذكر ما أبدل الله

---

(١) انظر الفائق ٣ : ١٣٣

به حالهم ، حين بعث إليهم محمدا صلى الله عليه وآله ، فعقد عليهم طاعتهم كالشيء المنتشر المحلول ، فعقدها بملة محمد صلى الله عليه وآله .

والجداول : الأنهرُ .

والتفّت الملة بهم ، أى كانوا متفرّقين فالتفّت ملّة محمّد بهم ، أى جمعتهم ، ويقال : التفّ الحبل بالحطَب ، أى جمعه ، والتفّ الحطب بالحبل ، أى اجتمع به .

و«فى» فى قوله : «فى عوائد بركتها» متعلّقة بمحذوف ؛ وموضع الجار والمجرور نصب على الحال ، أى جمعتهم الملة كائنةً فى عوائد بركتها ، والعوائد : جمع عائدة ، وهى المنفعة . تقول : هذا أعْوَدُ عليك ، أى أنفع لك . وروى : « والتقت الملة » بالقاف أى اجتمعت بهم ، من اللقاء . والرواية الأولى أصحّ .

وأصبحوا فى نعمتها غرِقين ، مبالغة فى وصف ماهم فيه من النعمة .

وفاكهين : ناعمين . وروى « فكهين » أى أشِرين وقد قرئ بهما فى قوله تعالى : ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ (١) ، وقال الأصمعىّ : فاكهين : مازحين ، والمفاكهة المازحة ، ومن أمثالهم : « لاتفاكِهْ أمة ، ولا تَبُلْ عَلَى أكمة » ؛ فأما قوله تعالى : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُون ﴾ (٢) ، فقيل : تندمون ، وقيل : تعجبون .

و « عن » فى قوله : « وعن خضرة عيشها » ، متعلّقة بمحذوف ، تقديره : فأصبَحوا فاكهين فكاهة صادرة عن خضرة عيشها ، أى خضرة عيش النعمة سبب لصدور الفكاهة والمُزاح عنه .

وتربّعت الأمور بهم ، أى أقامت ، من قولك . رَبَع بالمكان ، أى أقام به .

---

(١) سورة الدخان ٢٧ (٢) سورة الواقعة ٦٥

وآوتهم الحال؛بالمدّ أى ضمتهم وأنزلتهم،قال تعالى:﴿ آوَى إليه أخَاهُ ﴾[١]،أى ضمه إليه وأنزله ، ويجوز « أوتهم » بغير مدّ.أفعلت فى هذا المعنى وفعلت واحد؛عن أبى زيد.

والكَنَف : الجانب ، وتعطّفت الأمور عليهم : كناية عن السيادة والإقبال، يقال: قد تعطّف الدّهر على فلان ، أى أقبل حظُّه وسعادته ، بعد أنْ لم يكن كذلك .

وفى ذُرَا مُلْكٍ : بضم الذال أى فى أعاليه ، جمع ذروة ، ويكنى عن العزيز الذى لا يُضام ، فيقال : لا يغمز له قناة ، أى هو صلب . والقناة إذا لم تلِن فى يد الغامز كانتْ أبعدَ عن الحطم والكَسْر .

ولا تُقْرع لهم صفاة ؛ مثَل يضرب لمن لا يطمع فى جانبه لعزّته وقوّته .

***

الأصْلُ :

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ،وَثَلَمْتُمْ حِصْنَ اللهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا ، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَا ، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً ، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ .

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً ، وَبَعْدَ الْمُوَالَاةِ أَحْزَاباً ، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ ، تَقُولُونَ : النَّارَ وَلَا الْعَارَ ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ ، وَنَقْضاً لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ ، وَأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ .

وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ ، ثُمَّ لَا جَبْرَائِيلَ

---

(١) سورة يوسف ٦٩ .

وَلَا مِيكَائِيلَ ، وَلَا مُهَاجِرِينَ وَلَا أَنْصَارَ يَنْصُرُونَكُمْ ، إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ .

وَإِنَّ عِنْدَكُمُ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَقَوَارِعِهِ ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ ، فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ ، وَتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ ، وَيَأْساً مِنْ بَأْسِهِ ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقُرُونَ الْمَاضِيَةَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِى ، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِى .

* * *

الشرح :

نفضتم أيديكم : كلمة تقال فى اطّراح الشىء وتركه ، وهى أبلغ من أن تقول : تركتم حبلَ الطاعة ، لأنّ مَنْ يخلى الشىء من يده ثم ينفض يده منه يكون أشدّ تخلية له ممن لا ينفضها بل يقتصر على تخليته فقط ، لأن نفضها إشعار وإيذان بشدّة الاطّراح والإعراض .

والباء فى قوله . « بأحكام الجاهليّة » متعلقة بـ« ثلمتم » ، أى ثلمتم حصن الله بأحكام الجاهلية التى حكمتم بها فى ملّة الإسلام.

والباء فى قوله : « بنعمة لا يعرف » ، متعلقة بـ« امتنّ ».و« فى» من قوله« فيما عقد» متعلّقة بمحذوف ، وموضعها نصب على الحال،وهذا إشارة إلى قوله تعالى:﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[1].وقوله :﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾[2] .

وروى : « تتقلّبون فى ظلها ».

---

(١) سورة الأنفال ٦٣ (٢) سورة آل عمران ٧٩

قوله : «صرتم بعد الهجرة أعرابًا» : الأعراب على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مَنْ آمن به من أهل البادية ، ولم يهاجر إليه ، وهم ناقصو المرتبة عن المهاجرين لجفائهم وقسوتهم وتوحّشهم ، ونشئهم فى بُعْدٍ من مخالطة العلماء ، وسماع كلام الرسول صلى الله عليه وآله، وفيهم أنزل : ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقًا وَأَجْدرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾[1]؛ وليست هذه الآية عامة فى كلّ الأعراب بل خاصّة ببعضهم ،وهم الّذين كانوا حول المدينة ، وهم جُهَينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغِفَار ، وإليهم أشار سبحانه بقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾[2]. وكيف يكون كلُّ الأعراب مذموما، وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ ٱللهِ ﴾[3] ، وصارت هذه الكلمة جارية مجرى المثل .

وأنشد الحجاج على منبر الكوفة :

قَدْ لَفَّهَا ٱللَّيْلُ بِعَصْلَبِيّ[4] ... أَرْوَعَ خَرّاجٍ من الدَّوِّيّ[5]

* مهاجر ليس بأعرابىّ[6] *

وقال عثمان لأبى ذرّ : أخشى أن تصير بعد الهجرة أعرابيًّا .

وروى : « ولا يعقلون من الإيمان » .

وقولهم : «النارَ ولا العارَ» ، منصوبتان بإضمار فعل ، أى ادخلوا النار ولا تلتزموا العار ، وهى كلمة جارية مجرى المثل أيضا ، يقولها أرباب الحميّة والإباء ، فإذا قيلت فى حقٍّ كانت صوابا ، وإذا قيلت فى باطل كانت خطأً .

وأكفأت الإناء وكفأته : لغتان ، أى كببتُه .

---

(١) سورة التوبة ٩٧

(٢) سورة التوبة ١٠١

(٣) سورة التوبة ٩٩

(٤) العصلبى : الشديد الخلق .

(٥) أروع : أى ذكى . يقول : خراج من كل غماء شديدة . ويقال للصحراء : دوية ، وهى التى لاتكاد تنقضى ، منسوبة إلى الدو ، والدو : صحراء ملساء لاعلم بها .

(٦) الكامل للمبرد ١ : ٣٨١ (طبعة نهضة مصر) .

قوله: «ثم لاجبرائيلَ ولاميكائيلَ ولامهاجرين» ، الرواية المشهورة هكذا بالنصب، وهو جائز على التشبيه بالنكرة ، كقولهم : معضلة ولا أبا حسن لها . قال الراجز :

* لا هيثَمَ الليلة للمطىّ *

وقد روى بالرفع فى الجميع .

والمقارعة منصوبة على المصدر . وقال الراوندىّ : هى استثناء منقطع ، والصواب ماذكرناه ، وقد روى : «إلّا المقارعةُ» بالرفع، تقديره : ولانصير لكم بوجه من الوجوه إلا المقارعة .

والأمثال التى أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام هى ما تضمّنه القرآن من أيام الله ونقماته على أعدائه ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١) .

والتناهى : مصدر تناهى القوم عن كذا ، أى نهى بعضهم بعضا ، يقول : لعن الله الماضين من قبلكم، لأنّ سُفَهاءهم ارتكبوا المعصية، وحلماءهم لم ينهوهم عنها ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

* * *

الأصْلُ :

أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ ، وَعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ ، وَأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ .

أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِى اللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ ، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ ، وَرَجَّةُ صَدْرِهِ ،

---

(١) سورة إبراهيم ٤٥ (٢) سورة المائدة ٧٩

وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ ؛ وَلَئِنْ أَذِنَ اللهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ ، لَأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّراً .

***

الشرح :

قد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال له عليه السلام : « ستقاتلُ بعدِي النّاكثين والقاسطين والمارقين » ، فكان النّاكثون أصحابَ الجمل ، لأنّهم نكثوا بيعته عليه السلام ، وكان القاسطون أهلَ الشام بصفّين ، وكان المارقون الخوارج في النّهروان ، وفي الفرق الثلاث قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾[2] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله : « يخرج من ضِئْضِيء هذا قوم يمرُقون من الدين كما يمرق السّهْم من الرميّة ، ينظر أحدكم في النّصل فلا يجد شيئا ، فينظر في الفُوق[3] ، فلا يجد شيئا ، سبق الفرث والدم » . وهذا الخبر من أعلام نبوّته صلى الله عليه وآله ومن أخباره المفصلة بالغيوب .

وأما شيطانُ الرَّدْهة ، فقد قال قوم : إنّه ذُو الثُّدَيَّة صاحب النّهروان ، ورَوَوْا في ذلك خبرا عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، وممّن ذكر ذلك واختاره الجوْهريّ صاحب " الصحاح "[4] وهؤلاء يقولون : إن ذا الثُّدَيَّة لم يقتَلْ بسيف ، ولكنّ الله رماه يوم النّهروان بصاعقة ، وإليها أشار عليه السلام بقوله : « فقد كُفِيته بصَعْقة سمِعت لها وَجْبة

---

(١) سورة الفتح ١٠ (٢) سورة الجن ١٥

(٣) الفوق : مشق رأس السهم حيث يقع الوتر .

(٤) الصحاح ٨ : ٢٢٣٢ ، وفيه : قال الخليل : الردهة : شبه أكمة كثيرة الحجارة . وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم ذكر المقتول بالنهروان ، فقال : « شيطان الردهة » .

قلبه » ، وقال قوم : شيطان الرَّدْهة أحد الأبالسة المَرَدَة من أعوان عدوّ الله إبليس ، ورَوَوْا فى ذلك خبرا عن النبى صلى الله عليه وآله ، وأنّه كان يتعوّذ منه . والرَّدْهة : شبه نُقْرة فى الجَبَل يجتمع فيها الماء ، وهذا مثل قوله عليه السلام : « هذا أزبّ العقبة » ، أىْ شيطانُها ، ولعلّ أزبّ العَقَبة هو شيطان الردْهة بعينه ، فتارة يردُ بهذا اللفظ ، وتارة يردُ بذلك اللفظ . وقال قوم : شيطان الرَّدْهة ماردٌ يتصوّر فى صورة حيّة ، ويكون عَلَى الرَّدْهة . وإنما أخذوا هذا من لَفْظة « الشيطان » لأنّ الشيطان الحيّة ، ومنه قولهم : شيطان الحماطة ، والحماطة شجرة مخصوصة ، ويقال : إنها كثيرة الحيّات .

قوله : « ويتشذّر فى أطراف الأرض » ، يتمزّق ويتبدّد ، ومنه قولهم : ذهبوا شَذَرَ مَذَر .

والبقيّة التى بقيَتْ من أهل البغى : مُعاوية وأصحابه ، لأنه عليه السلام لم يكن أتى عليهم بأجمعهم ، وإنما وقفت الحربُ بينه وبينهم بمكيدة التحكيم .

قوله عليه السلام : « ولئن أذنَ الله فى الكَرَّة عليهم » ، أى إن مُدّ لى فى العمر لأديلنّ منهم ، أى لتكونن الدَّوْلة لى عليهم ، أدلت من فلان أى غلبته وقهرته ، وصرت ذَا دولةٍ عليه .

***

[استدلال قاضى القضاة على إمامة أبى بكر وردّ المرتضى عليه]

واعلم أن أصحابنا قد استدلّوا على صحّة إمامة أبى بكر بقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ (١) ﴾ ، ثم قال قاضي القضاة في المغنى : وهذا خبر من الله تعالى ، ولا بدّ أن يكون كائنا على ما أخبر به ، والذين قاتلوا المرتدّين هم أبو بكر وأصحابُه ، فوجب أن يكونوا همُ الّذين عنَاهم الله سبحانه بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه ﴾ ، وذلك يوجب أن يكونوا على صواب .

واعترض المرتضى رحمه الله على هذا الاحتجاج فى '' الشافى '' ، فقال : من أينَ قلت : إنّ الآية نزلتْ فى أبى بكر وأصحابه ؟ فإن قال : لأنّهم الّذين قاتلوا المرتدّين بعدرسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا أحدَ قاتلهم سواهم ، قيل له : ومَنِ الّذى سلّم لك ذلك؟ أوَ ليس أميرُ المؤمنين عليه السلام قد قاتل النّاكثين والقاسطين والمارقين بعد الرسول صلى الله عليه وآله وهؤلاء عندنا مرتدّون عن الدين ؟ ويشهد بصحّة التأيل زائدا على احتمال القول له ، مارُوى عن أميرالمؤمنين عليه السلام من قوله يوم البصرة : والله ماقوتل أهلُ الآية حتى اليوم ، وتلاها ، وقد رُوى عن عمّار وحُذيفة وغيرهما مثل ذلك .

فإن قال : دليلى على أنّها فى أبى بكر وأصحابه قولُ أهل التفسير ؛ قيل له : أو كلّ أهل التفسير قال ذلك ؟ فإن قال : نعم ، كابرَ لأنّه قد رُوى عن جماعةٍ التأويل الذى ذكرناه ، ولو لم يكن إلّا مارُوِى عن أمير المؤمنين عليه السلام ووجوه أصحابه الذين ذكرناهم لكفى ، وإن قال : حجّتى قولُ بعض المفسرين ، قلنا : وأىّ حجّة فى قول البعض ! ولم صار البعضُ الّذى قال ماذكرت أوْلَى بالحقّ من البعض الذى قال ماذكرنا !

ثم يقال له : قدْ وجدْنا الله تعالى قد نعتَ المذكورين فى الآية بنعوت يجب أن

---

(١) سورة المائدة ٥٤

نزاعيها ، لنعلم أفى صاحبنا هى أم فى صاحبك ! وقد جعله الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله فى خَيْبر حينَ فرَّ مَنْ فرَّ من القوم عن العدوّ صاحب هذه الأوصاف ، فقال : لأعطيَنَّ الراية غداً رجلًا يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسولُه ، كرّارا غير فرّار ؛ فدفعها إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

ثم قوله تعالى : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1] ، يقتضى ماذكرنا ، لأنه من المعلوم بلا خلاف حالُ أمير المؤمنين عليه السلام فى التّخاشع والتواضع ، وذمّ نفسه ، وقمع غضبه ، وأنه مارُئى قطّ طائشاً ولا متطيّرا فى حالٍ من الأحوال ، ومعلومٌ حال صاحبَيْكم فى هذا الباب ، أمّا أحدُهما فإنه اعترف طوعاً بأنّ له شيطانا يعتريه عند غضبه ، وأمّا الآخر فكان معروفاً بالجدّ والعجلة ، مشهورا بالفظاظة والغِلظة ، وأما العزّة على الكافرين ، فإنّما تكون بقتالهم وجهادهم والانتقام منهم ، وهذه حالٌ لم يسبق أميرَ المؤمنين عليه السلام إليها سابق ، ولا لحقه فيها لاحق .

ثم قال تعالى : ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[1] ، وهذا وصفُ أمير المؤمنين المستحقّ له بالإجماع ، وهو منتفٍ عن أبى بكر وصاحبه إجماعا ، لأنّه لا قتيل لهما فى الإسلام ، ولا جهاد بين يدى الرّسُول صلّى الله عليه وآله ، وإذا كانت الأوصاف المراعاة فى الآية حاصلة لأمير المؤمنين عليه السلام ، وغير حاصلة لمن ادّعيتم ، لأنها فيهم على ضربيْن : ضرب معلوم انتفاؤه كالجهاد ، وضَرْب مختلَف فيه كالأوصاف التى هى غير الجهاد ، وعلى مَنْ أثبتها لهم الدّلالة على حصولها ، ولا بدّ أن يرجع فى ذلك إلى غير ظاهر الآية ، لم يبق فى يده من الآية دليل .

هذه جُملة ماذكره المرتضى رحمه الله ، ولقد كان يمكنه التخلّص من الاحتجاج بالآية

---

(١) سورة المائدة : ٥٤

على وجه ألطفَ وأحسن وأصحّ مما ذكره، فيقول: المراد بها مَن ارتدّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فى واقعة الأسود العَنْسِىّ باليمن، فإنّ كثيرا من المسلمين ضلّوا به وارتدّوا عن الإسلام، وادّعوا له النبوّة، واعتقدوا صدقَه، والقوم الّذين يحبّهم الله ويحبونه القوم الّذين كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأغراهم بقتله، والفتك به، وهم فيروز الديلمىّ وأصحابُه. والقصّة مشهورة.

وقد كان له أيضاً أن يقول: لم قلت: إنّ الذين قاتلهم أبو بكر وأصحابُه كانوا مرتدّين! فإنّ المرتدّ من ينكِر دينَ الإسلام بعد أن كان قد تديّن به، والذين منعوا الزكاة لم ينكروا أصلَ دين الإسلام، وإنّما تأوّلوا فأخطئوا؛ لأنهم تأوّلوا قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾(١)؛ فقالوا: إنّما ندفع زكاة أموالنا إلى مَنْ صلاته سَكَنٌ لنا، ولم يبق بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله مَنْ هُوَ بهذه الصفة، فسقط عنّا وجوب الزكاة، ليس هذا من الردّة فى شىء، وإنما سمّاهم الصحابة أهلَ الردّة على سبيل المجاز، إعظاماً لما قالوه وتأوّلوه.

فإن قيل: إنّما الاعتمادُ على قتال أبى بكر وأصحابه لمسيلمة وطُلَيحة اللّذينِ ادّعيا النبوّة، وارتدّ بطريقهما كثيرٌ من العرب، لا على قتال مانِعِى الزكاة!

قيل: إنّ مُسَيْلِمة وطُلَيْحة جاهَدهما رسولُ الله صلى الله عليه وآله قبل موتِه بالكُتُب والرّسل، وأنفذ لقتلهما جماعةً من المسلمين، وأمرهم أن يفتكوا بهما غِيلة إن أمكنهم ذلك؛ واستنفر عليهما قبائلَ من العرب، وكلُّ ذلك مفصّل مذكور فى كتب السّيرة والتواريخ، فلم لا يجوز أن يكون أولئك النفر الّذين بعثهمْ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله للفتك بهما، هم المعنيّون بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ إلى آخر الآية! ولم يقلْ فى الآية: «يجاهدون

---

(١) سورة التوبة ١٠٣.

فيقتلون » ، وإنّما ذكر الجهاد فقط ، وقد كان الجهاد من أولئك النفر حاصلا وإن لم يبلغوا الغرض ، كما كان الجهاد حاصلا عند حِصار الطائف وإنْ لم يبلغ فيه الغرض .

وقد كان له أيضا أن يقول : سياقُ الآية لايدلّ على ماظنّه المستدِلّ بها ؛ من أنه مَنْ يرتدد عن الدين ، فإن الله يأتى بقوم يحبّهم ويحبّونه يحاربونه لأجل رِدّته ، وإنما الذى يدلّ عليه سياق الآية أنّه مَنْ يرتدّ منكم عن دينه بترك الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وسمّاه ارتداداً على سبيل المجاز ـ فسوف يأتى الله بقوم يحبّهم ويحبّونه ، يجاهدون فى سبيل الله معه عِوَضاً عنكم ، وكذلك كان كلّ مَنْ خَذَل النبىّ صلّى الله عليه وآله وقعَد عن النهوض معه فى حروبه ، أغناه الله تعالى عنه بطائفة أخرى من المسلمين جاهدوا بين يديه !

وأما قول المرتَضى رحمه الله : إنها أنزلت فى النا كثين والقاسطين والمارقين الذين حاربهم أميرُ المؤمنين عليه السلام فبعيد ، لأنّهم لايطلق عليهم لفظ «الردّة» عندنا، ولا عند المرتضى وأصحابه ، أما اللفظ فبالاتفاق ، وإن سمّوهم كفارا . وأمّا المعنى فلأنّ فى مذهبهم أنّ من ارتدّ ـ وكان قد ولد على فطرة الإسلام ـ بانت امرأتُه منه ، وقسم ماله بين ورثته ، وكان على زوجته عدّة المتوفّى عنها زوجها ؛ ومعلوم أنّ أكثر محاربى أمير المؤمنين عليه السلام كانو قد وُلِدُوا فى الإسلام ، ولم يحكم فيهم بهذه الأحكام .

وقوله : « إنّ الصفات غير متحقّقة فى صاحبكم » ، فلَعمرى إنّ حظ أمير المؤمنين عليه السلام منها هو الحظُّ الأوفى ، ولكن الآية ما خصّت الرئيس بالصّفات المذكورة ، وإنما أطلقها على المجاهدين ، وهم الذين يباشرون الحرب ؛ فهب أنّ أبا بكر وعمر ما كانا بهذه الصفات ، لم لا يجوز أن يكون مدحاً لمن جاهد بين أيديهما من المسلمين ، وباشر الحرب ، وهم شجعان المهاجرين والأنصار الّذين فتحُوا الفتوح ، ونشروا الدّعوة ، وملكوا الأقاليم !

وقد استدلّ قاضى القضاة أيضا عن صحّة إمامة أبى بكر ؛ ـ وأسند هذا الاستدلال إلى شيخنا أبى علىّ ـ بقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٣) ، يعنى قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ . ثم قال سبحانه : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ * فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٤) ، فبيّن أنّ الذى يدعو هؤلاء المخلفين من الأعراب إلى قتال قوم أولى بأس شديدٍ غير النبىّ صلى الله عليه وآله ، لأنه تعالى قد بيّن أنهم لا يخرجون معه ، ولا يقاتلون معه عدوًّا ، بآية متقدّمة ، ولم يدعُهم بعد النبى صلى الله عليه وآله إلى قتال الكفار إلا أبو بكر وعمر وعثمان ، لأنّ أهل التأويل لم يقولوا فى هذه الآية غير وجهين من التأويل ، فقال بعضهم : عَنَى بقوله : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ بنى حنيفة ، وقال بعضهم : عَنَى فارس والرّوم ؛ وأبو بكر هو الذى دعا إلى قتال بنى حنيفة وقتال آل فارس والروم ، ودعاهم بعده إلى قتال فارس والرّوم عُمر ، فإذا كان الله تعالى قد بيَّن أنهم بطاعتهم لهما يؤتهم أجرا حسنا ، وإن تولّوا عن طاعتهما يعذبهم عذابا أليما ، صحّ أنهما على حقّ ، وأن طاعتهما طاعة لله تعالى . وهذا يوجب صحّة إمامتهما .

---

(١) سورة الفتح ١١
(٢) سورة التوبة ٨٣
(٣) سورة الفتح ١٥
(٤) سورة الفتح ١٦

فإن قيل : إنما أراد الله بذلك أهل الجمل وصِفِّين !

قيل : هذا فاسد من وجهين : أحدُهما قوله تعالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ، والذين حاربوا أمير المؤمنين كانوا على الإسلام ، ولم يقاتلوا على الكفر . والوجه الثانى أنّا لا نعرف مِن الذين عناهم الله تعالى بهذا مَنْ بقى إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام ، كما علمنا أنهم كانوا باقين فى أيام أبى بكر .

اعترض المرتضى رحمه الله على هذا الكلام من وجهين : أحدهما أنه نازع فى اقتضاء الآية داعياً يدعو هؤلاء المخلّفين غير النبى صلى الله عليه وآله ، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ (١) إنّما أراد به سبحانه الذين تخلّفوا عن الحديبية بشهادة جميع أهل النقل وإطباق المفسّرين.

ثم قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) ، وإنّما التمس هؤلاء المخلّفون أن يخرجُوا إلى غنيمة خيبر ، فمنعهم الله تعالى من ذلك ، وأمر نبيّه أن يقول لهم : لن تتّبعونا إلى هذه الغزاة ، لأنّ الله تعالى كان حكَم من قبل بأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ، وأنه لاحظّ لمن لم يشهدها ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ

---

(١) سورة الفتح ١١ ، ١٢

مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ، وإنما أراد أنّ الرسولَ سيدعوكم فيما بعد إلى قتال قوم أولى بأسٍ شديد ، وقد دعاهم النبى صلى الله عليه وآله بعد ذلك إلى غزوات كثيرة ، إلى قوم أولى بأسٍ شديد ، كمؤتة وحُنَين وتبوك وغيرها ، فمن أين يجب أن يكونَ الداعى لهؤلاء غير النبي صلى الله عليه وآله ، مع ماذكرناه من الحروب التى كانت بعد خيبر !

وقوله : إنمعنى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، إنّماأراد بهمابيّنه فى قوله : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ ؛ بتبوك سنة تسع ، وآية الفتح نزلت فى سنة ستّ ، فكيف يكون قبلها !

وليس يجب أن يقال فى القرآن بالإرادة ، وبما يحتمل من الوجوه فى كلّ موضع دون الرجوع إلى تاريخ نزول الآى ، والأسباب التى وردت عليها ، وتعلقت بها .

ومما يبيّن لك أنّ هؤلاء المخلّفين غيرُ أولئك لو لم نرجع فى ذلك إلى نقل وتاريخ ، قوله تعالى فى هؤلاء : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[1] ، فلم يقطع منهم على طاعة ولا معصية ، بل ذكر الوعد والوعيدَ عَلَى مايفعلونه من طاعة أو معصية ، وحكم المذكورين فى آية سورة التوبة بخلاف هذه لأنه تعالى بعد قوله : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[2] ، واختلاف أحكامهم وصفاتهم يدلّ

---

(١) سورة الفتح : ١٦

(٢) سورة التوبة : ٨٣ ـ ٨٥ .

على اختلافهم ، وأنّ المذكورين فى آية سورة الفتح غيرُ المذكورين فى آية سورة التوبة .

وأما قوله : لأنّ أهل التأويل لم يقولوا فى هذه الآية غير وجهين من التأويل فذكرهما باطل ؛ لأنّ أهل التأويل قد ذكروا شيئا آخر لم يذكره ، لأنّ المسيَّب روى عن أبى روق عن الضحّاك فى قوله تعالى : ﴿ستُدْعَوْن إلَى قَوْمٍ أُولى بَأْسٍ شَدِيدٍ..﴾[1] الآية، قال : هم ثَقيف . وروى هُشَيم عن أبى يَسَر ، سعيد بن جُبَير ، قال : هم هَوَازن يوم حُنين .

وروى الواقدىّ ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : هم هوازن وثَقيف ، فكيف ذكر من أقوال المفسرين مايوافقه مع اختلاف الرواية عنهم ! على أنّا لانرجع فى كلّ مايحتمله تأويل القرآن إلى أقوال المفسِّرين ، فإنهم ربما تركوا مما يحتمله القول وجهاً صحيحا ، وكم استخرج جماعةٌ من أهلِ العدل فى متَشابه القرآن من الوجوه الصحيحة التى ظاهر التنزيل بها أشبه ، ولها أشدّ احتمالا ، ممّا لم يسبق إليه المفسرون ، ولا دخل فى جملة تفسيرهم وتأويلهم .

والوجه الثانى سلّم فيه أنّ الداعى هؤلاء المخلفين غير النبىّ صلى الله عليه وآله، وقال : لا يمتنعُ أن يعنى بهذا الدّاعى أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّه قاتل بعدَه النّاكثين والقاسطين والمارقين . وبشّره النبى صلى الله عليه وآله بأنّه يقاتلهم ، وقد كانوا أولى بأس شديد بلا شبهة .

قال : فأمّا تعلق صاحب الكتاب بقوله : ﴿ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ، وأنّ الذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا مسلمين ، فأوّل مافيه أنهم غير مسلمين عنده وعند أصحابه؛ لأنّ الكبائر تُخرج من الإسلام عندهم كما تخرج عن الإيمان إذ كان الإيمان هو الإسلام

(١) سورة الفتح ١٦

على مذهبهم . ثمّ إنّ مذهبنا فى محاربى أمير المؤمنين عليه السلام معروفٌ ، لأنهم عندنا كانوا كفّارا بمحاربته لوجوه :

الأول منها : أن مَنْ حاربه كان مستحلاً لقتاله ، مظهرا أنّه فى ارتكابه على حقّ ؛ ونحن نعلم أنّ مَنْ أظهر استحلال شرب جُرْعة خمر هو كافر بالإجماع ؛ واستحلال دماء المؤمنين فضلا عن أفاضلهم وأكابرهم أعظم من شرب الخمر واستحلاله ،فيجب أن يكونوا من هذا الوجه كفّارا .

الثانى : أنّه عليه السلام قال له بلا خلاف بين أهل النقل : « حَرْبك ياعلىّ حَرْبى، وسِلْمك سلمى » ، ونحن نعلم أنّه لم يرد إلّا التشبيه بينهما فى الأحكام،ومن أحكام محاربى النبىّ صلى الله عليه وآله الكفر بلا خلاف .

الثالث : أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله قال له بلاخلاف أيضاً: « اللهمّ والِ مَنْ وَالَاه، وعادِ مَنْ عاداه وانصر مَنْ نصره ، واخذل من خذله » ، وقد ثبت عندنا أنّ العداوة من الله لاتكون إلّا للكفّار الذين يعادونه دون فُسّاق أهل الملّة .

الرابع : قوله : إنّا لانعلمُ ببقاء هؤلاء المخلّفين إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام فليس بشىء ، لأنّه إذا لم يكن ذلك معلوما ومقطوعا عليه ، فهو مجوّز وغير معلوم خلافه، والجواز كافٍ لنا فى هذا الموضع .

ولو قيل له : منْ أين علمتَ بقاء المخلّفين المذكورين فى الآية على سبيل القطع إلى أيام أبى بكر ؟ لكان يفزع إلى أن يقول : حكم الآية يقتضى بقاءهم حتى يتمّ كونُهم مدعوّين إلى قتال أولى البأس الشديد على وجه يلزمهم فيه الطاعة ، وهذا بعينه يمكن أن يقال له ، ويعتمد فى بقائهم إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام على مايوجبه حكم الآية .

فإن قيل : كيف يكونُ أهل الجمل وصِفّين كفّاراً ولم يسرْ أميرُ المؤمنين عليه السلام

فيهم بسيرة الكفّار ، لأنّه ماسباهم ، ولا غنِم أموالهم ، ولا تبِع مولّيهم !

قلنا : أحكام الكفر تختلفُ ، وإن شمِلهم اسمُ «الكفر» ، لأنّ فى الكفار مَنْ يُقْتل ولا يستبقَى ، وفيهم مَنْ يُؤخذ منه الجزية ولا يحلّ قتله إلا بسبب طارئ غير الكفر ، ومنهم من لايجوز نكاحه على مذهب أكثر المسلمين ، فعلَى هذا يجوز أن يكون أكثر هؤلاء القوم كُفّاراً ، وإن لم يسرْ فيهم بجميع سيرة أهل الكفر ، لأنّا قد بيّنا اختلاف أحكام الكفّار ، ويرجع فى أنّ حكمهم مخالف لأحكام الكفار إلى فعله عليه السلام وسيرته فيهم . على أنّا لانجدُ فى الفُسّاق مَنْ حكْمه أن يقتل مقبِلاً ، ولا يقتل مولّيا ، ولا يجهز على جريحه ، إلى غير ذلك من الأحكام التى سيّرها فى أهل البَصْرة وصِفّين .

فإذا قيل فى جواب ذلك : أحكامُ الفسق مختلفة ، وفعلُ أمير المؤمنين هو الحجّة فى أنّ حكم أهل البصرة وصفّين مافعله .

قلنا مثل ذلك حرفا بحرف ، ويمكن مع تسليم أنّ الداعى لهؤلاء المخلّفين أبو بكر ، أن يقال : ليس فى الآية دلالة على مدح الداعى ولا على إمامته ، لأنّه قد يجوز أن يدعوَ إلى الحقّ والصواب مَنْ ليس عليهما ، فيلزم ذلك الفعل مِنْ حيث كان واجبا فى نفسه ، لالدعاء الدّاعى إليه ، وأبو بكر إنّما دعا إلى دفع أهل الرّدّة عن الإسلام ، وهذا يُجب على المسلمين بلا دعاء داع ، والطاعة فيه طاعة لله تعالى ، فمِنْ أين له أنّ الداعى كان على حقٍ وصواب ! وليس فى كونِ مادعا إليه طاعةً مايدلُّ على ذلك .

ويمكن أيضا أن يكون قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ ﴾ ، إنما أراد به دعاء الله تعالى لهم بإيجاب القتال عليهم ، لأنه إذا دلّهم على وجُوب قتال المرتدّين ، ورفعهم عن بيضة الإسلام ، فقد دعاهم إلى القتال ، ووجَبت عليهم الطاعة ، ووجب لهم الثواب إن أطاعوا ، وهذا أيضا تحتمله الآية .

فهذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله فى هذا الموضع ؛ وأكثره جيّد لا اعتراض عليه ، وقد كان يمكنه أن يقول : لو سلّمنا بكلّ هذا لكان ليس فى قوله : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً... ﴾ الآية ما يدلّ على أن النبىّ صلى الله عليه وآله لا يكون هو الداعى لهم إلى القوم أولِى البأس الشديد ، لأنه ليس فيها إلا محض الإخبار عنهم بأنّهم لا يخرجون معه ، ولا يقاتلون العدوّ معه ، وليس فى هذا ما ينفى كونه داعيا لهم ، كما أنه عليه السلام قال : « أبو لهب لا يؤمن بى » ، لم يكن هذا القول نافيا لكونه يدعوه إلى الإسلام .

وقوله : ﴿ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ ليس بأمر على الحقيقة ، وإنما هو تهديد كقوله : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ (١) ولا بدّ للمرتضى ولقاضى القضاة جميعا من أن يحملا صيغة « افعلْ » على هذا المحمل ، لأنه ليس لأحدهما بمسوّغ أن يحمل الأمر على حقيقته ، لأنّ الشارع لا يأمر بالقعود وترك الجهاد مع القدرة عليه ، وكونه قد تعيّن وجوبه .

فإن قلت : لو قدّرنا أن هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ، أنزلت بعد غزوة تبوك ، وبعد نزول سورة « براءة » ، التى تتضمّن قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً ﴾ ، وقدرنا أنّ قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً ﴾ ليس إخبارا محضا كما تأوّلته أنت وحملت الآية عليه ، بل معناه لا أخرجكم معى ولا أشهدكم حرب العدوّ ، هل كان يتم الاستدلال ؟

قلت : لا ؛ لأنّ للإماميّة أن تقولَ : يجوز أن يكون الداعى إلى حرب القوم أولِى البأس الشديد مع تسليم هذه المقدمات كلّها هو رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه دعاهم إلى حرب الرّوم فى سَرِيّة أسامة بن زيد فى صفر من سنة إحدى عشرة ، لمّا سيّره إلى البلقاء ، وقال له : سر إلى الروم مقتل أبيك فأوطئهم الخيول وحشد معه أكثر المسلمين ، فهذا الجيش قد دُعِى فيه المخلّفون من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد

(١) سورة الشورى : ٤٠

فى غزاة تبوك إلى قوم أولى بأس شديد ، ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا حاربوا معه عدوًّا .

فإن قلت : إذا خرجوا مع أسامة ، فكأنما خرجوا مع رسول الله ، وإذا حاربوا مع أسامة العدوّ ، فكأنما حاربو مع رسول الله صلى عليه وآله ، وقد كان سبق أنهم لا يخرُجون مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يحاربون معه عَدُوًّا .

قلت : وإذا خرجوا مع خالد بن الوليد وغيره فى أيّام أبى بكر ، ومع أبى عُبيدة وسعد فى أيام عمر ؛ فكأنما خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحاربوا العدوّ معه أيضاً .

فإن اعتذرت بأنه وإن شابه الخروج معه والحرب معه إلّا أنه على الحقيقة ليس معه ، وإنما هو مع امرئ من قبل خلفائه .

قيل لك : وكذلك خروجهم مع أسامة ومحاربة العدوّ معه ، وإن شابَهُ الخروج مع النبى ومحاربة العدوّ معه ، إلا أنه على الحقيقة ليس معه ، وإنما هو مع بعض أمرائه .

ويمكن أن يعترض الاستدلال بالآية ، فيقال : لا يجوز حملُها على بنى حنيفة ، لأنّهم كانوا مسلمين ، وإنما منعوا الزكاة مع قولهم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » صلى الله عليه وآله ، ومنع الزكاة لايخرج به الإنسان عن الإسلام عند المرجئة ، والإماميّة مرجئة ؛ ولا يجوز حملها على فارسَ والرّوم ، لأنه تعالى أخبر أنه لا واسطة بين قتالهم وإسلامهم ، كما تقول : إمّا كذا وإمّا كذا ، فيقتضى ذلك نفى الواسطة ، وقتال فارس والروم بينه وبين إسلامهم واسطة ، وهو دفع الجزية ، وإنما تنتفى هذه الواسطة فى قتال العرب ، لأنّ مشركى العرب لا تؤخذ منهم الجزية ، فالآية إذنْ دالّة على أنّ المخلّفين سيُدْعَوْن إلى قوم أولى بأس شديد الحكم فيهم ، إمّا قتالهم وإمّا إسلامهم ، وهؤلاء هم مشركو العرب ، ولم يحارب مشركى العرب إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالدّاعى لهم إذاً هو رسولُ الله ، وبطل الاستدلال بالآية .

* * *

الأصل :

أنا وَضَعْتُ بِكَلاَكِلِ الْعَرَبِ ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ . وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ ، وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ ، وَأَنَا وَلِيدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ ؛ وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ .

وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ .

وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً ، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي ، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا ، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ .

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ ؟ فَقَالَ : هَذَا الشَّيْطَانُ ، قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ ، وَتَرَى مَا أَرَى ، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ، وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ .

***

الشرح :

الباء فى قوله : « بكلاكل العرب » زائدة . والكلاكل : الصُّدُور ، الواحد كَلْكل ، والمعنى أنى أذللتهم وصرعتهم إلى الأرض .

ونواجم قرون ربيعة ومضر : مَنْ نجم منهم وظهر ، وعلا قدرُه ، وطار صيته .

فإن قلت : أمّا قهره لِمُضرَ فمعلوم ، فما حال ربيعة ، ولم نعرف أنه قتل منهم أحدا؟ قلت: بلَى قد قتل بيده وبجيشه كثيرا من رؤسائهم فى صِفِّين والجمل ، فقد تقدم ذكر أسمائهم من قبل ، وهذه الخطبة خطب بها بعد انقضاء أمر النهروان .

والعَرْف بالفتح : الرّيح الطّيبة ، ومضَغ الشىء يمضَغه بفتح الضاد .

والخطْلة فى الفعل : الخطأ فيه ، وإيقاعه على غير وجهه .

وحِراء : اسم جبل بمكّة معروف .

والرّنّة : الصوت .

***

[ذكر ما كان من صلة علىّ برسول الله فى صغره]

والقرابة القريبة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله دون غيره من الأعمام ، كونه ربّاه فى حِجْره ، ثم حامَى عنه ونصَره عند إظهار الدّعوة دونَ غيره من بنى هاشم، ثمّ ما كان بينهما من المُصاهرة التى أفضتْ إلى النّسل الأطهر دون غيره من الأصهار. ونحن نذكر ماذكره أرباب السِّيَر من معانى هذا الفصل .

روى الطبرىّ فى تاريخه ، قال : حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال: حدّثنى محمد ابن إسحاق قال : حدثنى عبدُ الله بن نَجيح ، عن مجاهد ، قال: كان من نعمة الله عزّ وجلّ عَلَى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وما صنع الله له ، وأراده به من الخير، أنّ قريشا أصابتْهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيالٍ كثير ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله للعبّاس – وكان من أيسر بنى هاشم : ياعبّاس ، إنّ أخاك أبا طالب كثيرُ العيال، وقد ترَى ما أصاب النّاسَ من هذه الأزمة ، فانطلق بنا ، فلنخفّف عنه من عِياله ، آخذُ من بيته واحدا، وتأخذُ واحداً،

فنكفيهما عنه . فقال العبّاس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتى ينكشفَ عن النّاس ماهم فيه ، فقال لهما: إنْ تركتمالى عَقِيلاً فاصنعا ماشئتما . فأخذ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عليّاً فضمّه إليه ، وأخذالعباس جعفراً رضى الله عنه ، فضمّه إليه ، فلم يزل علىّ بن أبى طالب عليه السلام مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله حتّى بعثه الله نبيّاً ، فاتّبعه علىٌّ عليه السلام ، فأقرّ به وصدّقه ، ولم يزل جعفرٌ عند العبّاس حتى أسلم واستغنى عنه [(١)] .

قال الطبرىّ : وحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلمة ، قال : حدّثنا محمد بن إسحاق ، قال : كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إذا حضرت الصّلاة خرَج إلى شعاب مكّة ، وخرج معه علىّ بن أبى طالب عليه السلام مستخفياً من عمّه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصلّيان الصّلوات فيها ، فإذا أمسيا رجَعا ، فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكُثا .

ثم إنّ أبا طالب عثر عليهما وهُما يصلّيان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله : يابنَ أخى ، ماهذا الذى أراك تدين به ؟ قال : ياعمّ هذا دينُ الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ـ أو كما قال ـ بعثنى الله به رسولًا إلى العباد ، وأنت ياعمّ أحقّ مَنْ بذلتُ له النصيحة ، ودعوتُه إلى الهدى ، وأحقّ مَنْ أجابنى إليه ، وأعاننى عليه ـ أو كما قال ـ فقال أبُو طالب : يابنَ أخى ، إنّى لاأستطيع أن أفارقَ دينى ودين آبائى ، وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلُص إليك شىء تكرهُه مابقيتُ .

قال الطبرىّ : وقد روى هؤلاء المذكورون أنّ أبا طالب قال لعلىّ عليه السلام : يابنىّ ، ماهذا الذى أنت عليه ؟ فقال : ياأبتِ ، إنّى آمنتُ بالله وبرسوله ، وصدّقته بما

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٣١٣ (طبعة المعارف)

جاء به ، وصلّيت لله معه ، قال : فزعموا أنه قال له : أمَا إنّه لا يدعُو إلّا إلى خير ، فالزمه [1] .

وروى الطّبرِىّ فى تاريخه أيضا ، قال : حدّثنا أحمدُ بن الحسين التّرمِذِىّ ، قال : حدّثنا عبد الله بن موسى ، قال : أخبرنا العَلاء ، عن المِنهال بن عمر ، وعن عبد الله بن عبدالله، قال : سمعتُ علياً عليه السلام ، يقول : أناعبدُ الله ،وأخو رسوله ،وأنا الصِّديق الأكبر ، لايقولُها بعدى إلا كاذب مُفترٍ ؛ صَلَّيتُ قَبْلَ النّاس بِسَبْع سنين [2] .

وفى غير رواية الطبرىّ : أنا الصِّدّيق الأكبر وأنا الفاروق الأوّل،أسلمت قبل إسلام أبى بكر ، وصلّيت قبل صلاته بسبع سنين . كأنّه عليه السلام لم يرتَضِ أنْ يذكر عمر ولا رآه أهلًا لمقايسة بينه وبينه ؛ وذلك لأنّ إسلام عمر كان متأخراً .

وروى الفضلُ بن عبّاس رحمه الله ، قال : سألتُ أبى عن ولد رسول الله صلى الله عليه وآله الذُّكور ، أيّهم كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله له أشدّ حبًّا ؟فقال:علىُّ بن أبى طالب عليه السلام ، فقلت له : سألتُك عن بَنِيه ، فقال : إنه كان أحبَّ إليه من بنيه جميعا وأرأفَ ، مارأيناه زايلَه يوما من الدّهر منذ كان طِفْلًا ، إلّا أنْ يكون فى سفر لخديجة ، وما رأينا أبًا أبرّ بابنٍ منه لعلىّ ، ولا ابناً أطوع لأبٍ من علىٍّ له .

وروى الُحسين بن زيد بن علىّ بن الحسين عليه السلام ، قال :سمعتُ زيداً أبى عليه السلام يقول : كان رسول الله يمضغ اللَّحْمة والتّمره حتى تلِين ، ويجعلهما فى فم علىّ عليه السلام وهو صغير فى حِجْره ؛ وكذلك كان أبى علىّ بنُ الحسين عليه السلام يفعل بى ؛ ولقد كان يأخذ الشىء من الورك وهو شديد الحرارة ، فيبرّده فى الهواء ،أوينفخ عليه حتى يبرد ، ثم يُلْقِمُنِيه ؛ أفيشفقُ علىّ من حرارة لقمة ولا يشفق علىّ من النار ! لو كان أخى إماماً بالوصيّة كما يزعم هؤلاء ، لكان أبى أفضَى بذلك إلىّ وَوَقانى من حرّ جهنم .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٣١٤ (المعارف)   (٢) تاريخ الطبرى ٢ : ٣١٠ (المعارف)

وروى جبير بن مُطْعِم ، قال : قال أبى مُطْعِم بن عدىّ لنا ونحن صبيان بمكة : ألا ترون حبّ هذا الغلام ـ يعنى عليًا ـ لمحمد واتّباعه له دون أبيه ! واللّات والعُزّى ، لوددتُ أنّ ابنى بفتيان بنى نوفل جميعا !

وروى سَعِيد بن جُبير ، قال : سألت أنسَ بن مالك ، فقلت : أرأيتَ قولَ عمر عن الستّة : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راضٍ ؟ ألم يكن راضيًا عن غيرهم من أصحابه ؟ فقال : بلَى ، مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله وهو راضٍ عن كثير من المسلمين ؛ ولكن كان عن هؤلاء أكثر رضًا ، فقلت له : فأىّ الصَّحابة كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله له أحْمَد ؟ أو كما قال ـ قال : ما فيهم أحدٌ إلّا وقد سخط منه فعلًا ، وأنكر عليه أمرًا ، إلا اثنان : علىّ بن أبى طالب وأبو بكر بن أبى قُحافة ، فإنهما لم يقترفا منذ أتى الله بالإسلام أمرًا أسخطا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله .

* * *

[ذكر حال رسول الله فى نشوئه]

وينبغى أنْ نذكُر الآن ما ورد فى شأن رسول الله صلّى الله عليه وآله وعِصْمته بالملائكة ، ليكونَ ذلك تقريرا وإيضاحا لقوله عليه السلام : « ولقد قرن الله به من لدن كان فطيما أعظم ملكٍ من ملائكته » ، وأن نذكر حديث مُجاورته عليه السلام بحراء ، وكون علىّ عليه السلام معه هناك ؛ وأن نذكر ما وردَ فى أنه لم يجمع بيت واحد يومئذ فى الإسلام غيرَ رسول الله صلى الله عليه وآله وعليًا وخديجة ، وأن نذكُرَ ما ورد فى سماعه رنّة الشيطان ، وأن نذكر ما ورد فى كونه عليه السلام وزيرًا للمصطفى صلوات الله عليه .

أما المقام الأول فروى محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب '' السيرة النبوية '' ، ورواه أيضًا محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، قال : كانتْ حليمة بنت أبى ذُؤيب السَّعْدية

أمّ رسول الله صلى الله عليه وآله التي أرضعته تحدّث أنها خرجت من بلدها ومعها زوجُها وابنٌ لها ترضِعه في نسوة من بني سعدبن بكر يلتمسْنَ الرُّضَاع(١) بمكّة ،في سنة شَهْباء(٢) لم تُبْقِ شيئاً، قالت: فخرجتُ على أتانٍ لنا قَمْرَاء(٣) عجفاء ،ومعناشارفٌ(٤) لنا؛ماتُبِضّ(٥) بقطرة ، ولا ننام ليلنا أجمع من بكاء صبيّنا الذي معنا من الجوع ، ما في ثدييّ ما يغنيه ، ولا في شارفنا مايغدّيه(٦)، ولـكنّا نرجُو الغيث والفرَج . فخرجت على أتاني تلك ،ولقد أراثت بالركب ضعفا وعجَفا(٧)، حتى شقّ ذلك عليهم، حتى قدمْنا مكة نلتمس الرُّضَاع(٨) فما منّا امرأة إلّا وقد عُرِض عليها محمـد صلى الله عليه وآله فتأباه إذا قيل لها إنّه يتيم ؛ وذلك أنّا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبيّ، فكنا نقول : يتيم ، ماعسى أن تصنع أمّه وجدّه ! فكنّا نكرهه لذلك، فما بقيَت امرأة ذهبتْ معي إلا أخذتْ رضيعاً غيري؛ فلمّا اجتمعنا للانطلاق قلت لصاحبي : والله إني لأكره أن أرجعَ من بين صواحبي لم آخذرضيعاً ؛ والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه ، قال : لا عليك أن تفعلي ! وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت إليـه فأخذته ؛ وما يحملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره . قالت : فلمّا أخذته رجعت إلى رَحْلِي ، فلمّا وضعته في حِجْري أقبل عليـه ثدياىَ بما شاء من لبن، فرضع حتى رَوِيَ وشرب معه أخوه حتى رَوِيَ ، وما كنا ننام قبل ذلك من بكاء صبيّنا جوعا ، فنام ؛ وقام زوجي إلى شارفنا تلك فنظر إليها فإذا أنّها حافِل(٩)؛ فحلب منهـا ما شرب وشربت حتى انتهينا ريًّا وشبَعا ؛ فبتنا بخير ليـلة ، قالت : يقول

---

(١) ابن هشام : « تلتمس الرضعاء » .
(٢) سنة شهباء ، تريد بها سنة الجدب ، وذلك أن الأرض حينئذ تكون بيضاء لانبات فيها .
(٣) القمرة بالضم : لون إلى الخضرة ، أو بياض فيه كدرة ، وحمار أقمر ، وأتان قمراء . القاموس .
(٤) الشارف : الناقة المسنة .
(٥) قال أبو ذر الخشني : ماتبض ، بالضاد المعجمة ، معناه : ماتنشغ ولا ترشح ، ومن رواه بالصاد المهملة، فمعناه : « لايبرق عليهاأثر لبن، من البصيص ،وهو اللمعان » . (٦) قال ابن هشام : «مايغذيه» .
(٧) ابن هشام : « فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً » .
(٨) ابن هشام : « الرضعاء » . (٩) حافل : أي ممتلئة الضرع .

صاحبي حين أصبحْنا : أتعلمين[١] والله ياحليمة لقد أخذت نَسَمةً مباركة ، فقلت : والله إنى لأرجُو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتانى تلك ، وحملْتُه معى عليها ، فوالله لقطعتُ بالركب مايقدر عليها شيء من حميرهم[٢] حتى إنّ صواحبي لَيَقُلْن لى : ويحكِ يابنت أبى ذؤيب ! اربَعِى[٣] علينا ، أليس هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ! فأقول لهن : بلَى والله ، إنها لهى، فيقلن: والله إن لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ـ وما أعلم أرضاً من أرض العرب أجدب منها ـ فكانت غنمى تَرُوح عَلَيّ حين قدمنا به معنا شباعاً ملأى[٤] لبنا ، فكنا نحتلب ونشرب ؛ ومايحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضَرْع ، حتى إنّ الحاضر من قومنا ليقولون لرعاتهم: ويلكم ؟ اسرحوا حيث يسرح راعى ابنة أبى ذؤيب! فيفعلون،فتروح أغنامُهم جياعا ما تُبِضّ بقطرة ، وتروح غنمى شباعاً لبنا ، فلم نزلْ نعرف من الله الزيادة والخير به حتى مضت سنتاه وفصَلْتُه ، فكان يشِبّ شَبابا لا يشِبّه الغلمان [فلم يبلغ سنتيه][٥] ، حتى كان غلاما جَفْراً[٦] ، فقدمنا به على أمّه آمنة بنت وهب،ونحن أحرصُ شيء على مكثه فينا ، لما كنّا نرى من بركته ، فكلّمنا أمّه ، وقلنالها:لوتركتِه عندنا حتى يغلظ ! فإنا نخشى عليه[٧] وباء مكّة ، فلم نزل بها حتى ردّته معنا .

فرجعنا به إلى بلاد بنى سعد ، فوالله إنّه لبَعْد ماقدمنا بأشهر مع أخيه فى بَهْمٍ[٨] لنا خلْف بيوتنا ؛ إذ أتانا أخوه يشتدّ ، فقال لى ولأبيه : هاهو ذاك أخى القرشيّ ؛ قد جاءه

---

(١) ابن هشام : « تعلمى » . (٢) ابن هشام : « حرهم » .
(٣) اربعى علينا ، أى أقيمى وانتظرى ، يقال : ربع فلان على فلان ، إذا أقام عليه وانتظره .
(٤) ابن هشام : « لبناً » بالتشديد ، أى غزيرات اللبن .
(٥) من ابن هشام . (٦) جفراً ، أى قويا شديداً .
(٧) الوباء ، مهموز ومقصور : كثرة الأمراض والموت .
(٨) البهم : الصغار من الغنم ، واحدها بهمة .

رجلان عليهما ثياب بياض ، فأضجعاه وشقّا بطنه ، فهما يَسُوطانه[1] . قالت : فخرجت أنا وأبُوه نشتدّ نحوه ، فوجدناه قائما[2] ممتقعا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، وقلنا : مالك يابنىّ ! قال : جاءنى رجُلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى ثم شقّا بطنى ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدرى ماهو !

قالت : فرجعنا به إلى خِبائنا ، وقال لى أبوه : ياحليمة ، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله .

قالت : فاحتملته حتى قدمتُ به على أمّه ، فقالت : ماأقدمك به ياظئر وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مكثه عندك ؟ فقلت لها : قد بلغ الله بابنىّ ، وقضيت الّذى علىّ ، وتخوّفت عليه الأحداث وأدّيته إليك كما تحبّين . قالت : أتخوّفتِ عليه الشيطان ؟ قلت : نعم ، قالت : كلاّ والله ما للشيطان عليه من سبيل ؛ وإن لابنى شأنا ، أفلا أخبرك خبرَه ؟ قلت : بلى ، قالت : رأيت حين حملتُ به أنّه خرج منّى نورٌ أضاءت له قصورُ بُصْرَى من[3] الشّام ، ثم حملت به ، فوالله مارأيت حَمْلًا قطّ كان أخفّ ولا أيسرَ منه ، ثم وقع حين ولدته وإنه لواضعٌ يديه بالأرض ، ورافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلقى راشدة[4] .

قال : ورَوَى الطّبرى فى " تاريخه " عن شدّاد بن أوْس ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّث عن نفسِه ؛ ويذكر ماجرى له وهو طِفْلٌ فى أرض بنى سعد بن بكر ، قال : لمّا وُلدت استرضِعْتُ فى بنى سعد ، فبينا أنا ذات يوم منتبذ من

---

(١) يسوطانه ، قال أبو ذر الخشنى : يقال : « سطت اللبن والدم وغيرهما أسوطه ، إذا ضربت بعضه ببعض وحركته ، واسم العود الذى يضرب به المسوط » .

(٢) ممتقعاً : متغيراً ، وفى ابن هشام : « منتقعاً » ، وهما سواء .

(٣) قال السهيلى : « ذلك مافتح الله عليه من تلك البلاد ، حتى كانت الخلافة فيها مدة بنى أمية ، واستضاءت تلك البلاد وغيرها بنوره صلى الله عليه وسلم » .

(٤) سيرة ابن هشام ١ : ١٧٣ — ١٧٧ (نشرة المكتبة التجارية) .

أهلى فى بطن وادٍ مع أترابٍ لى من الصبيان ، نتقاذف بالجلّة؛ إذا أتانى رهط ثلاثة؛ معهم طشْت من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هُرّابًا حتى انتهوْا إلى شفير الوادى ، ثم عادوا إلى الرّهْط ، فقالوا : ما أرَبُكُم إلى هذا الغلام ، فإنه ليس منّا ! هذا ابن سيّد قريش ، وهو مسترضَع فينا : غلام يتيم ليس له أب ، فماذا يردُّ عليكم قتلُه ، وماذا تصيبون من ذلك ! ولكن إن كنتم لابدّ قاتليه ، فاختاروا منّا أيّنا شئتم فاقتلوه مكانه ، ودَعُوا هذا الغلام ، فإنه يتيم .

فلمّا رأى الصّبيان أنّ القوم لا يُحِيرون لهم جوابا ، انطلقوا هُرّابا مسرعين إلى الحىّ يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوْم ، فعمَد أحدهم ، فأضجعنى إضجاعا لطيفا ، ثم شقّ مابين مفرِق صدرى إلى منتهى عانتى ، وأنا أنظر إليـه فلم أجد لذلك حِسًّا ، ثم أخرج بطنِى فغسلها بذلك الثّلْج ، فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قام الثـانى منهم ، فقال لصاحبه : تنحّ ، فنحّاه عنِّى ، ثم أدخل يده فى جوفِى ،وأخرج قلبى ،وأنا أنظر إليه ،فصدَعه ثم أخرج منه مُضْغة سوداء فرَماها ، ثم قال بيده : يمنةً (١) منه وكأنه (٢) يتناول شيئًا ، فإذا فى يده خاتم من نور ، تحارُ أبصار الناظرين دونه ، فختم به قلبى ، ثم أعاده مكانه فوجدتُ برْدَ ذلك الخاتم فى قلبى دهراً ، ثم قال الثالث لصاحبه : تنحّ عنه ، فأمرّ يده مابين مفرق صـدرى إلى منتهى عانتى ، فالتأم ذلك الشقّ ، ثم أخذ بيدى فأنهضنى من مكانى إنهاضاً لطيفاً ، وقال للأوّل الّذى شقّ بطنى : زنْه بعشَرة من أمّته ، فوزننى بهم فرجحتهم ، فقال : دعوه ، فلو وزنتموه بأمّته كلّها لرجحهم ، ثم ضمُّونى إلى صدرهم ،وقبلوا رأسى وما بين عينىّ ، وقالوا : ياحبيبَ الله ، لاترُعْ ، إنك لو تدرِى مايُراد بك من الخير لقرّت عيناك ! فبينا أنا كذلك إذا أنا بالحىّ قد جاءوا بحذافيرهم ، وإذا أمّى – وهى

---

(١) فى الأصول : « نميه » تصحيف .   (٢) الطبرى : « وكأنه » .

ظئرى ـ أمام الحىّ تهتف بأعلى صوتها ، وتقول : ياضعيفاه ! فانكبّ علىّ أولئك الرّهط فقبّلوا رأسى وما بيْن عينىّ ، وقالوا : حبّذا أنت من ضعيف ! ثم قالت ظئرى: ياوحيداه ! فانكبُّوا علىّ ، وضمّونى إلى صدورهم ، وقبّلوا رأسى وما بين عينىّ ، ثم قالوا: حبّذا أنتَ من وحيد ! وما أنت بوحيد ! إنّ الله وملائكتَه معك والمؤمنين من أهل الأرض ، ثم قالت ظئرى : يايتيماه ! استضعِفْتَ من بين أصحابك ، فقتِلْتَ لضعفك ، فانكبوا علىّ وضمّونى إلى صُدورهم ، وقبّلوا رأسى وما بين عينىّ ، وقالوا : حبّذا أنت من يتيم ! ماأكرمك على الله لو تعلَمُ مايراد بك من الخير ! قال : فوصَل الحىّ إلى شفير الوادى ، فلمّا بَصُرَتْ بى أمّى ـ وهى ظئرى ـ نادتْ : يابنىّ ، ألا أراك حيًّا بعد ! فجاءت حتى انكبّت علىّ ، وضمّتنى إلى صدرها ، فوالّذى نفسِى بيده ، إنّى لفى حجرها قد ضمّتنى إليها ، وإنّ يدى لفى يد بعضهم ، فجعلت ألتفت إليهم ، وظننت أنّ القوم يبصرونهم ، فإذاهم لا يبصرونهم ، فيقول بعض القوم : إنّ هذا الغلام قد أصابه لَمَم ، أو طائف من الجنّ ، فانطلقوا به إلى كاهن بنى فلان ، حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت : مابى شىء ممّا يذكرون ، نفسى سليمة ، وإن فؤادى صحيحٌ ؛ ليست بى قَلَبَة (١) . فقال أبى ـ وهو زوج ظئرى : ألا ترون كلامَه صحيحًا ! إنى لأرجو ألّا يكونَ على ابنى بأس .

فاتفق القوم على أن يذهَبُوا إلى الكاهن بى ، فاحتملونى حتى ذهبوا بى إليه ، فقصّوا عليه قصّتى ، فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فهو أعلمُ بأمره منكم ، فسألنى فقصصتُ عليه أمرى ، وأنا يومئذ ابن خمس سنين ، فلمّا سمع قولى وَثَب وقال : ياللعرب ! اقتُلوا هذا الغلام فهو واللاّت والعُزّى لئن عاش ليبدِّلَنّ دينَكم ، وليخالِفَنّ أمرَكم ، وليأتينّكم بما لم تسمعوا به قطّ ، فانتزعتنى ظئرى من حجره ، وقالت : لو علمت أنّ هذا يكون من قولك ما أتيتك به ،

(١) ليس بى قلبة ، أى ليس به شىء ، وأصله من القلاب ، وهو داء يأخذ الإبل فى رءوسها ، فيقلبها إلى فوق ، قال فى اللسان : « ولا يستعمل إلا فى النفى » .

ثم احتملونى فأصبحتُ وقد صار فى جَسَدِى أثر الشقّ ، ما بين صدرى إلى منتهى عانتى كأنه الشِّراك[1] .

ورُوِى أنّ بعض أصحاب أبى جعفر محمد بن علىّ الباقر عليه السلام سأله عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾[2] . فقال عليه السلام : يوكّل الله تعالى بأنبيائه ملائكةً يُحصُون أعمالهم ، ويؤدُّون إليه تبليغهم الرّسالة ، ووكّل بمحمّد صلى الله عليه وآله مَلَكاً عظيما منذ فُصِل عن الرّضاع يُرشِده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق ، ويصدّه عن الشرّ ومساوئ الأخلاق ، وهو الذى كان يناديه : السّلام عليك يا محمد يا رسول الله وهو شابٌّ لم يبلغ دَرَجة الرّسالة بعد ، فيظنّ أنّ ذلك من الحجر والأرض ، فيتأمّل فلا يرى شيئا .

وروى الطبرىّ " التاريخ " عن محمّد بن الحنفيّة ، عن أبيه علىّ عليه السلام ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ما هممت بشىء ممّا كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرّتين ، كل ذلك يحولُ الله تعالى بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله برسالته ، قلت ليلةً لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرتَ لى غنمى حتى أدخل مكة ، فأسمرَ بها كما يسمرُ الشباب ، فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أوّل دارٍ من دُور مكة ، سمعت عزْفا بالدُّفّ[3] والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا فلان تزوّج ابنة فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله على أذنى فنِمْت ، فما أيقظنى إلا مَسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبى ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما صنعتُ شيئاً ، ثم أخبرته الخبرَ ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : أفعل ، فخرجت فسمعت حين دخلت مكة مثلَ ما سمعت حين دخلتها تلك الليلة ، فجلست

---

(١) الخبر بتفصيل أوفى فى الطبرى : ٢ : ١٦١ — ١٦٥ (طبع المعارف) .

(٢) سورة الجن ٢٧ . (٣) الطبرى : « بالدفوف » .

أنظر ، فضرَب الله على أذنى ، فما أيقظنى إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبى ، فأخبرته الخبر ، ثم ما هممتُ بعدها بسوء ، حتى أكرمنى الله برسالته[1] .

وروى محمد بن حبيب فى " أماليه " قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : أذكُر وأنا غلام ابن سبع سنين ، وقد بنى ابن جُدْعان داراً له بمكّة ، فجئت مع الغلمان نأخذ التراب والمدرَ فى حُجورنا فننقله ، فملأت حِجْرى تُرابا فانكشفت عورتِى ، فسمعت نداءً من فوق رأسى : يا محمد ، أرْخِ إزارك ، فجعلت أرفع رأسى فلا أرى شيئاً ، إلّا أنى أسمع الصوت ، فتماسكت ولم أرْخِه ، فكأنّ إنسانا ضربنى عَلَى ظَهْرى ، فخررت لوجهى ، وانحلّ إزارى فسترنى ، وسقط التراب إلى الأرض ، فقمت إلى دار أبى طالب عمّى ولم أعد .

***

وأما حديثُ مجاورته عليه الصلاة والسلام بحِراء فمشهور ، وقد ورد فى الكتب الصحاح أنه كان يجاور فى حِراء من كلّ سنة شهرا ، وكان يُطعِم فى ذلك الشهر مَنْ جاءه من المساكين ، فإذا قضى جواره من حِراء ، كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتى باب الكعبة قَبل أن يدخُلَ بيته ، فيطوفَ بها سبعاً ، أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى جاءت السّنَة التى أكرمه الله فيها بالرسالة ، فجاور فى حِراء شهر رمضان ، ومعه أهلُه : خديجة وعلىّ بن أبى طالب وخادم لهم ، فجاءه جبريل بالرسالة ، وقال عليه والصلاة والسلام : جاءنى وأنا نائم بنمَط فيه كتاب ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أقرأ ، فغتّنى[2] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٢٧٩ (المعارف) .

(٢) غتنى ، قال ابن الأثير : « الغت والغط سواء ، كأنه أراد : عصرنى عصرا شديدا حتى وجدت منه المشقة كما يجد من يغمس فى الماء قهرا . النهاية ٣ : ١٤٩ .

مالَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) . فقرأته ، ثم انصرف عنّى فانتبهت من نومى ، وكأنما كتِب فى قلبى كتاب ، وذكر تمام الحديث .

***

وأما حديث أنّ الإسلام لم يجتمع عليه بيت واحدٌ يومئذ إلا النبيّ وهو ـ عليهما السلام ـ وخديجة ، فخبر عفيف الكنديّ مشهور ، وقد ذكرناه من قبل ، وأنّ أبا طالب قال له: أتدرِى من هذا ؟ قال : لا قال : هذا ابنُ أخى محمد بن عبدالله بن عبد المطّلب ؛ وهذا ابنى علىّ بن أبى طالب ، وهذه المرأة خَلْفهما خديجة بنت خويلد ؛ زوجة محمد ابن أخى ، وايمُ الله ما أعلم على الأرض كلّها أحداً على هذا الدّين غير هؤلاء الثلاثة .

وأمّا رنّة الشيطان ، فروى أبو عبد الله أحمد بن حنبل فى مُسنَده ، عن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، قال : كنتُ مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله صبيحَة اللّيلة التى أُسرِىَ به فيها ، وهو بالحجْر يصلّى ، فلما قَضى صلاتَه ، وقضيتُ صلاتى ، سمعت رَنّةً شديدةً ، فقلت : يارسول الله ، ماهذه الرّنة ؟ قال : ألاتعلم ! هذه رنّة الشيطان ، علم أنّى أسرِى بى الليلة إلى السماء ، فأيس من أن يُعْبَد فى هذه الأرض .

وقد رُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وآله مايشابه هذا ، لمّا بايعه الأنصار السّبعون ليلة العَقبة سُمع من العقبة صوتٌ عالٍ فى جوف الليل : يا أهلَ مكّة ، هذا مذمّم والصباة معه قد أجمعوا على حربكم ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله للأنصار : ألا تسمعون ما يقول ! هذا أزَبُّ العقبة ـ يعنى شيطانها ، وقد روى : « أزبب العقبة » . ثم التفت إليه ، فقال (٢) : استمع يا عدوّ الله ، أما والله لأفرغنّ لك .

(١) سورة اقرأ : ٥ .

(٢) فى اللسان : « كانت العرب تسمى النبى صلى الله عليه وسلم الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام ، ويسمون من دخل فى دين الإسلام مصبوا ، لأنهم كانوا لايهمزون ، فأبدلوا من الهمزة واوا ، ويسمون المسلمين الصباة بغير همز ، كأنه جمع الصابى » .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، قال : كان علىٌّ عليه السلام يرَى مع رسول الله صلّى الله عليه وآله قبلَ الرسالة الضَّوْء ويسمع الصوت ، وقال له صلى الله عليه وآله : « لولا أنى خاتم الأنبياء لكنتَ شريكا فى النبوّة ، فإن لا تكن نبيًّا فإنك وصىّ نبىّ ووارثه ، بل أنت سيّد الأوصياء وإمامُ الأتقياء » .

وأما خبر الوزارة ، فقد ذكره الطبرىّ فى تاريخه ، عن عبدالله بن عباس عن علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ، قال لما أنزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[1] ؛ عَلَى رسول الله صلّى الله عليه وآله دعانى ، فقال : يا علىّ ، إنّ الله أمرنى أن أنذر عشيرتك الأقربين ، فضقت بذلك ذرعا ، وعلمت أنى متى أنادهم بهذا الأمر أرَ منهم ما أكره ، فصمتُّ حتى جاءنى جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمّد ، إنك إن لم تفعل ما أُمِرْتَ به يعذّبك ربُّك ؛ فاصنع لنا صاعاً من طعام ، واجعل عليه رِجْلَ شاة ، واملأ لنا عُسًّا من لَبَن ، ثم اجمع بنى عبد المطلب حتى أكلّمهم ، وأبلّغهم ماأمرت به . ففعلت ما أمرنى به ، ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلا ، يزيدون رجلاً أو ينقصونه ، وفيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب ؛ فلمّا اجتمعوا إليه دعا بالطّعام الّذى صنعت لهم ، فجئت به ، فلمّا وضعتهُ تناول رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بَضْعةً[2] من اللّحم فشقّها بأسنانه ، ثم ألقاها فى نَواحى الصَّحْفة ، ثم قال : كلُوا باسم الله ، فأكلوا حتّى مالهم إلى شىء من حاجة ، وايمُ الله الّذى نفس علىّ بيده ، إن كان الرّجُل الواحد منهم ليأكل ماقدّمته لجميعهم ، ثم قال : اسقِ القومَ يا علىّ ، فجئتهم بذلك العُسّ فشربوا منه ، حتى رووا جميعا ، وايمُ الله إنْ كان الرجل منهم ليَشرب مثله ، فلمّا أراد رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أن يكلّمهم بدَره أبو لهب إلى الكلام ، فقال : لَشَدَّ ماسحرَكم صاحبُكم ! فتفرّق القومُ ، ولم يكلّمهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال من الغد : ياعلىّ ، إنّ هذا الرّجل قدسبقنِي

---

(١) سورة الشعراء ٢١٤ .

(٢) البضعة بالفتح ، وقد تكسر : القطعة من اللحم .

إلى ما سمعت من القول ، فتفرّق القوم قبل أن أكلّمهم ، فعدنا اليوم إلى مثل ما صنعت بالأمس ، ثم اجمعهم لى . ففعلت ثم جمعتهم ، ثم دعانى بالطّعام ، فقرّبته لهم ، ففعل كما فعل بالأمس ، فأكلوا حتّى مالهم بشىء حاجة ، ثم قال : اسقِهم ، فجئتهم بذلك العُسّ ، فشربوا منه جميعا ، حتى رووا ، ثم تكلّم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، فقال : يابنى عبدِ المطلب ، إنّى والله ما أعلمُ أنّ شابًّا فى العرَب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به ، إنّى قد جئتكم بخير الدُّنيا والآخرة ، وقد أمرنى الله أن أدعوَكم إليه ، فأيّكم يوازرنى على هذا الأمر ، عَلَى أن يكون أخى ووصيّى وخليفتى فيكم ؟ فأحجم القوم عنها جميعا ، وقلت أنا [1] — وإنّى لأحدثُهم سِنًّا وأرمصُهم [2] عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحمشُهم [3] ساقا : أنا يارسول الله أكونُ وزيرَك عليه ، فأعاد القول ، فأمسكوا وأعدت ماقلت ، فأخذ برقبتِى ، ثم قال لهم : هذا أخى ووصيّى وخليفتى فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا . فقام القوم يضحكون ، ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع [4] .

ويدلّ على أنه وزيرُ رسول الله صلّى الله عليه وآله من نصّ الكتاب والسنة قول الله تعالى: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [5] . وقال النبى صلى الله عليه وآله فى الخبر المجمع عَلَى روايته بين سائرِ فرَق الإسلام : « أنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبىّ بعدى » ، فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى ، فإذن هو وزير رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشادّ أزره ، ولولا أنه خاتم النبيين لكان شريكا فى أمره .

---

(١) ساقطة من التاريخ .

(٢) الرمص فى العين : كالغمص ، وهو قذى تلفظ به ؛ كناية عن صغر سنه .

(٣) حمش الساقين : رفيعهما .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ : ٣١٩ — ٣٢١ (المعارف) ، وتفسير الطبرى ١٩ : ٧٤ ، ٧٥ (بولاق) ، بتفصيل أوفى .

(٥) سورة طه ٢٩ — ٣١

وروى أبو جعفر الطبرى أيضا فى " التاريخ " ؛ أنّ رجلا قال لعلىّ عليه السلام : ياأميرَ المؤمنين ، بِمَ ورثْت ابن عمّك دون عمّك ؟ فقال علىّ عليه السلام : هاؤم ثلاث مرات ، حتى اشرأبّ الناس ، ونَشَرُوا آذانهم ، ثم قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وآله بنى عبد المطّلب بمكّة ، وهم رهطه[1] كلهم ، يأ كل الجَذَعة ، ويشرب الفَرْق[2] ، فصنع مُدًّا من طعام ، حتى أكلوا وشبِعوا وبقِىَ الطعام كما هو ، كأنه لم يمسّ ، ثم دعا بغُمَر[3] ، فشربوا ورَووا ؛ وبقى الشراب كأنه لم يشرب ، ثم قال : يابنى عبد المطّلب ، إنّى بُعثت إليكم خاصّة ، وإلى النّاس عامّة ، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ، ووارثى ؟ فلم يَقمْ إليه أحدٌ ، فقمت إليه ، وكنت مِنْ أصغر القوم ، فقال : اجلس ، ثم قال ذلك ثلاث مرّات ، كلّ ذلك أقوم إليه ، فيقول : اجلس ؛ حتى كان فى الثالثة، فضرب بيده على يدى ، فعند ذلك ورثتُ ابنَ عمّى دون عمّى[4] .

***

الأصْلُ :

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ لَمَّا أَتَاهُ ٱلْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالُوا لَهُ : يَامُحَمَّدُ ، إِنَّكَ قَدِ ٱدَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ .

فَقَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : وَمَا تَسْأَلُونَ ؟ قَالُوا : تَدْعُو لَنَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ؛ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا ، وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ . فَقَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ

---

(١) فى الأصول : « رهط » ، وأثبت ماقى الطبرى .

(٢) الفرق ، بكسر الفاء ، وبعضهم يقول بالفتح : مكيال كبير لأهل المدينة يكال به اللبن .

(٣) الغمر : القدح الصغير .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٢

شيْءٍ قديرٌ ؛ فإنْ فعلَ اللهُ لكُمْ ذلكَ ، أتؤمنونَ وتشهدونَ بالحقِّ ! قالوا : نعمْ ، قالَ : فإنّي سأريكمْ ماتطلبونَ ، وإنّي لأعلمُ أنكمْ لا تفيئونَ إلى خيرٍ ، وأنَّ فيكمْ منْ يُطرحُ في القليبِ ، ومنْ يحزّبُ الأحزابَ. ثمَّ قالَ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ : يا أيّتها الشّجرةُ ، إنْ كنتِ تؤمنينَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وتعلمينَ أنّي رسولُ اللهِ ، فانقلعي بعروقكِ حتّى تقفي بينَ يديَّ بإذنِ اللهِ ؛ والّذي بعثهُ بالحقِّ لانقلعتْ بعروقها ، وجاءتْ ولها دويٌّ شديدٌ ، وقصفٌ كقصفِ أجنحةِ الطّيرِ ؛ حتّى وقفتْ بينَ يديْ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ مرفرفةً ؛ وألقتْ بغصنها الأعلى على رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وببعضِ أغصانها على منكبي ؛ وكنتُ عنْ يمينهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ ، فلمّا نظرَ القومُ إلى ذلكَ ، قالوا علوًّا واستكباراً : فمُرْها فليأتكَ نصفُها ؛ ويبقى نصفُها ، فأمرها فأقبلَ إليهِ نصفُها كأعجبِ إقبالٍ وأشدّهِ دويًّا ، فكادتْ تلتفُّ برسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ ، فقالوا كفراً وعتوًّا : فمُرْ هذا النّصفَ فليرجعْ إلى نصفهِ كما كانَ ، فأمرهُ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ فرجعَ ، فقلتُ أنا : لا إلهَ إلّا اللهُ ؛ إنّي أوّلُ مؤمنٍ بكَ يارسولَ اللهِ ، وأوّلُ منْ أقرَّ بأنَّ الشّجرةَ فعلتْ مافعلتْ بأمرِ اللهِ تعالى تصديقاً بنبوّتكَ ؛ وإجلالاً لكلمتكَ. فقالَ القومُ كلّهمْ : بلْ ساحرٌ كذّابٌ ، عجيبُ السّحرِ خفيفٌ فيهِ ؛ وهلْ يصدّقكَ في أمركَ إلّا مثلُ هذا ! يعنونني — وإنّي لمنْ قومٍ لا تأخذهمْ في اللهِ لومةُ لائمٍ ؛ سيماهمْ سيما الصّدّيقينَ ، وكلامهمْ كلامُ الأبرارِ ؛ عمّارُ اللّيلِ ، ومنارُ النّهارِ ، متمسّكونَ بحبلِ القرآنِ ، يحيونَ سننَ اللهِ وسننَ رسولهِ ، لا يستكبرونَ ولا يعلونَ ؛ ولا يغلّونَ ولا يفسدونَ ، قلوبهمْ في الجنانِ ، وأجسادهمْ في العملِ .

***

الشَّرْحُ :

الملأ الجماعة . ولا تفيئون : لا ترجعون . ومن يُطْرح فى القَليب ، كعُتْبة وشَيْبةابنى ربيعة بن عبد شمس وعمرو بن هشام بن المغيرة،المكنّى أبا جهل وغيرهم، طُرحوا فى قَليب بدْر بعد انقضاء الحرْب ، ومن يحزّب الأحزاب ، أبو سفيان صخر بن حرب بن أميّة .

والقَصْف والقصيف : الصوت . وسيماهم : علامتهم ، ومثله « سيمياء » .

ومعنى قوله عليه السلام : « قلوبهم فى الجنان ، وأجسادهم فى العمل » ، أنّ قلوبهم ملتذّة بمعرفة الله تعالى وأجسادهم نصِبة بالعبادةِ .

وأمّا أمرُ الشجرة التى دعاها رسول الله صلى الله عليه وآله؛فالحديث الوارد فيها كثيرٌ مستفيض، قد ذكره المحدّثون فى كتبهم،وذكره المتكلّمون فى معجزات الرسول صلى الله عليه وآله ، والأكثرون رووا الخبر فيها على الوَضْع الّذى جاء فى خطبة أمير المؤمنين ، ومنهم من يروى ذلك مختصرا أنّه دعا شجرة فأقبلت تخُدّ إليه الأرض خدًّا .

وقد ذكر البيهقى فى كتاب " دلائل النبوة " حديث الشجرة ، ورواه أيضا محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة والمغازى على وجْه آخر ، قال محمد بن إسحاق : كان رُكانة[1] بن عبديزيدبن هاشم بن عبدالمطلب بن عبدمناف أشدّقريش كلّها،فخلا يوما برسول الله صلى الله عليه وآله فى بعض شِعاب مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : يارُكانة، ألا تتقى الله ، وتقبل ماأدعوك إليه ؟ قال:لو أعلم أنّ الذى تقول حقٌّ لاتبّعتك، قال:أفرأيت إن صرعتُك؛أتعلم أنّ ماأقول لك حقّ؟قال : نعم،قال:فقم حتى أصارعَك،فقام رُكانة،فلمّا بطش به رسولُ الله صلى الله عليه وآله أضْجَعه لايملك مِنْ نفسه شيئاً،فقال : عُدْ يامحمد،فعادَ فصرعه،فقال : يامحمّد ، إن هذا لعجبٌ حينَ[2] تصرعُنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وأعجب من ذلك إن شئت أريتُكَه،إن اتقيتَ الله ، واتبعت أمرى،

(١) كذا ضبطه صاحب الاشتقاق ٧٨ ، بضم الراء .

(٢) ب : « حتى » ، تصحيف ، وفى ابن هشام : « أتصرعنى » .

قال : ماهو ؟ قال : أدعو لك هـذه الشجرة التى تراها ، فتأتى ، قال فادْعُها ؛ فدعاها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدىْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : ارجعى إلى مكانك ، فرجعتْ إلى مكانها ، فرجع رُكانة إلى قومه ، وقال : يابنى عبد مناف ، ساحِروا[1] بصاحبكم أهلَ الأرض ! فما رأيت أسحَرَ منـه قطّ ، ثم أخبرهم بالذى رأى ، والذى صنع[2] .

***

[القول فى إسلام أبى بكر وعلىّ وخصائص كل منهما]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع ملخّص ماذكره الشيخ أبو عثمان الجاحظ فى كتابه المعروف بكتاب " العثمانيّة " فى تفضيل إسلام أبى بكر على إسلام علىّ عليه السلام ، لأنّ هذا الموضع يقتضيه ، لقوله عليه السلام حكاية عن قريش لما صدق رسول الله صلى الله عليه وآله : وهل يصدقك فى أمرك إلّا مثل هذا لأنّهم استصغروا سنّه ، فاستحقروا أمر محمّد رسول الله صلّى الله عليه وآله حيث لم يصدّقه فى دعواه إلا غلام صغير السنّ ، وشُبْهة العُثْمانيّة التى قررها الجاحظ من هذه الشُّبْهه نشأت ، ومن هذه الكلمة تفرّعت ، لأن خلاصتها أن أبا بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة ، وعلىّ أسلم ولم يبلغ الحُلم ، فكان إسلام أبى بكر أفضل .

ثم نذكر ما اعترض به شيخنا أبو جعفر الإسكافىّ على الجاحظ فى كتابه المعروف بـ " نقض العثمانية " ؛ ويتشعّب الكلام بينهما حتى يخرج عن البحث فى الإسلامين إلى البحث فى أفضليّة الرّجُلين وخصائصهما ؛ فإنّ ذلك لا يخلو عن فائدة جليلة ، ونكتة

---

(١) ساحروا : أى غالبوهم بالسحر .

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٤١٨ (نشرة المكتبة التجارية) .

لطيفة ، لا يليق أن يخلوَ كتابُنا هذا عنها ، ولأنَّ كلامهما بالرسائل والخطابة أشبه ، وفى الكتابة أقصد وأدخل ، وكتابنا هذا موضوع لذكر ذلك وأمثاله .

قال أبو عثمان : قالت العثمانية : أفضل الأمّة وأولاها بالإمامة أبو بكر بن أبى قُحافة لإسلامه على الوجه الذى لم يسلمْ عليه أحد فى عصره ؛ وذلك أنَّ النّاس اختلفوا فى أوّل النّاس إسلاما ، فقال قوم : أبو بكر ، وقال قوم : زيد بن حارثة ، وقال قوم : خبّاب بن الأرتّ .

وإذا تفقدّنا أخبارَهم ، وأحصينا أحاديثَهم ، وعددنا رجالهم ، ونظرنا فى صحّة أسانيدهم ، كان الخبر فى تقدّم إسلام أبى بكر أعمّ ورجاله أكثر ، وأسانيده أصحّ ، وهو بذاك أشهر ، واللفظ فيه أظهر ، مع الأشعار الصحيحة ، والأخبار المستفيضة فى حياة رسول الله صلّى الله عليه وآله وبعد وفاته ، وليس بين الأشعار والأخبار فرْق إذا امتنع فى مجيئها ، وأصل مخرجها التّباعد والاتّفاق والتّواطؤ ، ولكن نَدَع هذا المذهب جانباً ، ونضرب عنه صفْحا ، اقتدارا على الحجّة ، ووثوقا بالفَلَج والقوّة ، ونقتصر على أدنى نازل فى أبى بكر ، وننزل على حكم الخَصْم ؛ فنقول : إنا وجدْنا مَنْ يزعم أنه أسلم قبل زيد وخبّاب ، ووجدنا من يزعُم أنهما أسلما قبله ، وأوسط الأمور أعدلُها ، وأقربها من محبّة الجميع ، ورضا المخالف ؛ أن نجعل إسلامهم كان معا ، إذ الأخبار متكافئة ، والآثار متساوية على ماتزعمون ، وليستْ إحدى القضيّتين أولَى فى صحّة العقل من الأخرى ؛ ثم نستدلّ على إمامة أبى بكر بما ورد فيه من الحديث ؛ وبما أبانه به الرّسول صلّى الله عليه وآله من غيره .

قالوا : فممّا روِىَ من تقدّم إسلامه ماحدّث به أبو داود وابن مهدىّ عن شعبة ، وابن عيينة : عن الجريرىّ ، عن أبى هريرة ، قال : قال أبو بكر : أنا أحقّكم بهذا الأمر — يعنى الخلافة — ألستُ أولَ مَنْ صلّى !

روى عباد بن صُهَيْب ، عن يحيي بن عمير ، عن محمد بن المنكدِر ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إن الله بعثنى بالهدى ودين الحقّ إلى الناس كافة ، فقالوا : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت » .

وروى يعلَى بنُ عُبيد ، قال : جاء رجل إلى ابن عبّاس ، فسأله : مَنْ كان أوّل الناس إسلاما ؟ فقال : أما سمعت قول حسان بن ثابت: !

إذا تذكّرتَ شجواً من أخى ثقةٍ ... فاذْكُر أخاك أبا بكرٍ بما فعَلَا[1]

الثانىَ التالىَ المحمودَ مشهدُه ... وأوّلَ النَّاس منهمْ صدّق الرسلا[2]

وقال أبو مِحْجَن :

سبقتَ إلى الإسلام والله شاهدٌ ... وكنتَ حبيبا بالعريش المشهرِ[3]

وقال كعب بن مالك :

سبقتَ أخا تيمٍ إلى دين أحمدٍ ... وكنتَ لدى الغيرانِ فى الكهف صاحبا[4]

وروى ابنُ أبى شَيْبَة ، عن عبد الله بن إدريس ووكيع ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرّة ، قال : قال النَخَعىّ : أبو بكر أوّلُ مَنْ أسلم .

وروى هيثم عن يعلَى بن عطاء ، عن عمرو بن عنبسة ، قال : أتيتُ النبيّ صلى الله عليه وآله وهو بعُكَاظ ، فقلت : مَنْ بايعك على هذا الأمر ؟ فقال :بايعنى حرٌّ وعبدٌ ، فلقد رأيتُنى يومئذ وأنا رابعُ الإسلام .

---

(١) ديوانه ٢٩٩ ، والعثمانية ١١١ (٢) بعده فى الديوان والعثمانية :

وثانىَ اثنينِ فى الغار المنيف وقَدْ ... طافَ العداةُ به إذْ صعّد الجبلا

خيرَ البريّةِ أتقاها وأطهرها ... إلا النبيّ وأوفاها بما حملا

(٣) فى الأصول: « المشهرا » ، وأثبت ماق العثمانية ، من أبيات ثلاثةأوردها على قافية الراءالمكسورة

(٤) العثمانية ١١١

قال بعضُ أصحاب الحديث : يعنى بالحرّ أبا بكر وبالعبد بلالا .

وروى اللّيث بن سعد ، عن معاوية بن صالح ، عن سليم بن عامر ، عن أبى أمامة ، قال : حدّثنى عمرو بن عَنْبسة ، أنه سأل النبى صلى الله عليه وآله وهو بُعكاظ ، فقال له : مَنْ تبِعك ؟ قال : تبِعنى حرٌّ وعبد : أبو بكر وبلال .

وروى عمرو بن إبراهيم الهاشمىّ ، عن عبد الملك بن عُمَير ، عن أسيد بن صَفْوان ؛ صاحب النبى صلى الله عليه وآله قال : لما قُبِضَ أبو بكر جاء علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فقال : رحمك الله أبا بكر ! كنتَ أوّلَ النّاس إسلاما .

وروى عبّادٌ ، عن الحسن بن دينار ، عن بشر بن أبى زينب ، عن عِكْرِمة مولى ابن عبّاس ، قال : إذا لقيت الهاشميّين قالوا : علىّ بن أبى طالب أوّل مَنْ أسلَمَ ؛ وإذا لقيت الّذين يعلمون ، قالوا : أبو بكر أوّل مَنْ أسلم .

* * *

قال أبو عثمان الجاحظ : قالت العثمانية : فإن قال قائِل : فما بالُكم لم تذكُروا علىّ ابن أبى طالب فى هذه الطبَقة ، وقد تعلمون كثرة مقدِّميه والرواية فيه !

قلنا : قد علمْنا الرواية الصحيحة ، والشهادة القائمة ؛ أنه أسلَمَ وهو حَدَثٌ غرير ، وطفل صغير ، فلم نكذِّب الناقلين ، ولم نستطع أن نلحق إسلامه بإسلام البالغين ، لأنّ المقلّل زَعم أنّه أسلم ، وهو ابن خمس سنين ، والمكثر زعم أنّه أسلم وهو ابن تسع سنين ، فالقياسُ أنْ يؤخذ بالأوسط بين الروايتين ، وبالأمر بين الأمرين ، وإنما يُعْرَفُ حقُّ ذلك من باطله ، بأنْ نحصى سنيه التى ولِىَ فيها الخلافة ، وسِنى عمر ، وسنى عثمان ، وسنى أبى بكر ، ومقام النبى صلى الله عليه وآله بالمدينة ، ومقامه بمكة عند إظهار الدعوة ، فإذا فعلنا ذلك صحّ أنه أسلم وهو ابن سبع سنين ، فالتاريخ المجمَع عليه أنّه قُتِل عليه السلام فى شهر رمضان سنة أربعين .

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ [١] : لولا ماغلبَ على النّاس من الجهل وحبّ التقليد، لم نحتجْ إلى نقض ما احتجّت به العثمانية ، فقد علم النّاس كافّةً ؛ أنّ الدوْلة والسلطان لأرباب مقالتهم ، وعرف كلّ أحدٍ علوّ أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم ، وظهور كلمتهم، وقهر سلطانهم وارتفاع التقيّة عنهم والكرامة ، والجائزة لمنْ روَى الأخبار و الأحاديث في فضل أبي بكر ، وما كان من تأكيد بني أمية لذلك ، وما ولّده المحدّثون من الأحاديث طلبا لما في أيديهم ، فكانوا لا يألونَ جهداً في طول ماملكوا أن يُخْمِلوا ذكرَ عليّ عليه السلام وولده ، ويطفئوا نورهم ، ويكتموا فضائلهم ومناقبَهم وسوابقهم، ويحملوا على شتمهم وسبّهم ولعنهم على المنابر ؛ فلم يزل السيف يقطرُ من دمائهم، مع قلّة عددهم وكثرة عدوّهم، فكانوا بين قتيلٍ وأسير ، وشريد وهارب ، ومستخفٍ ذليل، وخائف مترقّب، حتى إنّ الفقيه والمحدّث والقاضي والمتكلّم ، ليتقدّم إليه ويتوعد بغاية الإيعاد وأشدّ العقوبة ، ألّا يذكروا شيئاً من فضائلهم ، ولا يرخّصوا لأحدٍ أن يُطيف بهم ، وحتى بلغ من تقيّة المحدّث أنّه إذا ذكر حديثا عن عليٍّ عليه السلام كَنَى عن ذكره ، فقال : قال رجلٌ من قريش ، وفعل رجل من قريش ، ولا يذكر عليا عليه السلام ، ولا يتفوّه باسمه.

ثم رأينا جميعَ المختلفين قد حاولوا نقضَ فضائله ، ووجّهوا الحِيَل والتأويلات نحوها، من خارجيّ مارق ، وناصب حَنِق ، وثابت مستبهم ، وناشىء معاند ، ومنافق مكذّب، وعثمانيّ حسود ، يعترض فيها ويطعن ، ومعتزلي قد نقض في الكلام، وأبصر علم الاختلاف،

---

(١) هو محمد بن عبد الله أبو جعفر المعروف بالإسكافي ، ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ٥ : ٤١٦ ، وقال عنه : « أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين ، وله تصانيف معروفة . . . وبلغني أنه مات في سنة أربعين ومائتين » .

وعرف الشُّبَه ومواضع الطّعن وضروب التأويل ، قد التمس الحِيلَ فى إبطال مناقبه وتأوّل مشهور فضائله ، فمرّة يتأوّلها بما لايحتمل ، ومرّة يقصد أن يضع مِنْ قدرها بقياس منتقضٍ ، ولا يزداد مع ذلك إلّا قوّة ورفعة ، ووضوحا واستنارة ؛ وقد علمت أنّ معاوية ويزيد ومَنْ كان بعدهما من بنى مرْوان أيام ملكهم ـ وذلك نحو ثمانين سنة ـ لم يدَعُوا جهدا فى حَمْل الناس على شتمه ولعنه وإخفاء فضائله ، وستْر مناقبه وسوابقه .

روى خالد بن عبد الله الواسطىّ ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن هلال بن يساف ، عن عبد الله بن ظالم ، قال : لما بويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون عليا عليه السلام ، فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : ألا ترْون إلى هـذا الرجل الظّالم يأمر بلعْن رجلٍ من أهل الجنّة !

روى سليمان بن داود ، عن شُعْبة ، عن الحرّ بن الصبّاح ، قال: سمعتُ عبدالرحمن بن الأخنس ، يقول : شهدتُ المغيرة بن شُعبة خطب فذكر عليًا عليه السلام ، فنال منه .

روى أبو كُريب ، قال : حدّثنا أبو أسامة ، قال : حدّثنا صدقة بن المثنّى النّخَعىّ عن رياح بن الحارث ، قال : بينما المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر ، وعنده ناس إذ جاءه رجلٌ يقال له : قيس بن علقمة ، فاستقبل المغيرة ، فسبّ عليا عليه السلام .

روى محمد بن سعيد الأصفهانىّ ، عن شريك ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن على ابن الحسين ، عن أبيه علىّ بن الحسين عليه السلام ، قال : قال لى مَرْوان : ما كان فى القوم أدفع عن صاحبنا مِن صاحبكم . قلت : فما بالكم تسبّونه على المنابر ؟ قال : إنه لايستقيم لنا الأمر إلّا بذلك .

روى مالك بن إسماعيل أبو غسّان النّهدىّ ، عن ابن أبى سيف ، قال: خطب مَرْوان والحسن عليه السلام جالسٌ فنال من علىٍّ عليه السلام ، فقال الحسن : ويلك يامروان ! أهذا الذى تشتم شرّ الناس ! قال : لا ، ولكنّه خيرُ الناس.

وروى أبو غسّان أيضاً ، قال : قال عمرُ بن عبد العزيز : كان أبى يخطُب فلا يزال مستمرًّا فى خطبته ؛ حتى إذا صار إلى ذكر علىّ وسبّه تقطّع لسانه ، واصفرّ وجهه ، وتغيّرت حاله ، فقلت له فى ذلك ، فقال : أوقد فطنتَ لذلك ؟ إنّ هؤلاء لو يعلمون من علىّ ما يعلمه أبوك ما تبِعنا منهم رجل .

وروى أبو عثمان ، قال : حدّثنا أبو اليقظان ، قال : قام رجلٌ من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عرَفة ، فقال : إنّ هذا يوم كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبى تراب .

وروى عمرو بن القَنَاد ، عن محمد بن فُضَيل ، عن أشعث بن سوّار ، قال : سبّ عدى بن أوطاة عليًّا عليه السلام على المنبر ، فبكى الحسن البصرىّ وقال : لقد سبّ هذا اليوم رجلٌ إنه لأخو رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فى الدّنيا والآخرة .

وروى عدىّ بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم ، قال : كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسيْن فى الجمعة ممّا يلى أبواب كندة فخرج المغيرة فخطب ، فحمِد الله ، ثم ذكر ما شاء أن يذكُر ، ثم وقع فى علىّ عليه السلام ، فضرب إبراهيم على فخذى أو ركبتى ، ثم قال : أقبلْ علىّ ؛ فحدّثنى فإنا لسنا فى جمعة ، ألا تسمع ما يقول هذا !

وروى عبد الله بن عثمان الثّقفىّ ، قال : حدّثنا ابنُ أبى سيف ، قال : قال ابن لعامر ابن عبد الله بن الزبير لولده : لا تذكر يا بُنَىَّ عليا إلا بخير ؛ فإن بنى أميّة لعنوه على منابرهم ثمانين سنة ، فلم يزِدْه الله بذلك إلا رفعة ، إن الدنيا لم تبنِ شيئاً قطّ إلا رجعت على ما بَنَتْ فهدمته ، وإن الدّين لم يبْنِ شيئاً قطّ وهدَمه .

وروى عثمان بن سعيد ، قال : حدّثنا مطّلب بن زياد ، عن أبى بكر بن عبد الله الأصبهانىّ ، قال : كان دعىّ لبنى أمية يقال له خالد بن عبد الله ؛ لا يزال يشتُم عليا عليه

السلام ، فلمّا كان يوم جمعة ، وهو يخطب الناس، قال : والله إن كان رسول الله ليستعمله، وإنه لَيعلم ماهو ! ولـكنّه كان ختَنه ، وقد نعس سعيد بن المسيّب ففتح عينيه ، ثم قال : ويحكم ! ماقال هذا الخبيث ! رأيت القبر انصدَع ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : كذبت ياعدوّ الله !

وروى القَنَّاد(١) ، قال : حدّثنا أسباط بن نصر الهمدانىّ ، عن السّدىّ ، قال : بينما أنا بالمدينة عندأحجار الزّيت ، إذ أقبل راكب على بعير ،فوقف فسبّ عليا عليه السلام، نخفّ به الناس ينظرُون إليه ، فبينما هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبى وقّاص ، فقال : اللهمّ إن كان سبَّ عبداً لك صالحا ، فأرِ المسلمين خزيه ، فما لبث أن نفَرَ به بعيرُه فسقط، فاندقّت عنقه .

وروى عثمان بن أبى شيبة ، عن عبد الله بن موسى ، عن فُطْر بن خليفة ، عن أبى عبد الله الجدَلىّ ، قال : دخلتُ على أمّ سلمة رحمها الله فقالت لى : أيسَبّ رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم وأنتم أحياء ! قلت : وأنّى يكون هذا ؟ قالت : أليس يسبّ على عليه السلام ومَنْ يحبّه !

وروى العبّاس بن بـكّار الضبّىّ ، قال : حدّثنى أبو بكر الهُـذَلِىّ ، عن الزُّهرىّ، قال : قال ابنُ عبّاس لمعاوية ، ألا تـكفّ عن شتم هذا الرجل ؟ قال : ما كنت لأفعل حتى يربوَ عليه الصغير ويهرَم فيه الـكبير. فلمّا وُلِّىَ عمر بن عبد العزيز كفّ عن شتمه، فقال الناس : ترك السّنّة .

قال : وقد روى عن ابن مسعود إمّا موقوفا عليه أو مرفوعا : كيف أنتم إذا شملتكم فتنة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الـكبير، يجرى عليها النّاس فيتخذونها سنّة ، فإذا غيّر منها شىء قيل : غيّرت السّنّة !

---

(١) القناد ، بنون مشددة ، وانظر تهذيب التهذيب ١٢ : ٣٣٠

قال أبو جعفر : وقد تعلمون أنّ بعض الملوك ربّما أحدثوا قولًا ، أو ديناً لهوى فيحملون النّاس على ذلك ؛ حتى لا يعرفو غيره ، كنحو ما أخذ النّاس الحجّاجُ بن يوسف بقراءة عثمان ، وترك قراءة ابن مسعود وأبىّ بن كعب ، وتوعدّ على ذلك بدون ماصنع هو وجبابرة بنى أميّة وطغاة مَرْوان بولد علىٍّ عليه السلام وشيعته ، وإنما كان سلطانه نحو عشرين سنة ، فما مات الحجاج حتى اجتمع أهلُ العراق على قراءة عثمان ، ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها ؛ لإمساك الآباء عنها ، وكفّ المعلمين عن تعليمها ؛ حتى لو قرأت عليهم قراءة عبد الله وأبىّ ماعرفوها ، ولظنوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان ، لإلف العادة وطول الجهالة ؛ لأنه إذا استولَت على الرعيّة الغلَبة ، وطالت عليهم أيام التسلّط ، وشاعت فيهم المخافة ، وشملتهم التقيّة ؛ اتفقوا على التخاذل والتساكُت ، فلا تزال الأيّام تأخذ من بصائرهم ؛ وتنقص من ضمائرهم ، وتنقض من مرائرهم ، حتى تصير البدْعة التى أحدثوها غامرة للسنّة التى كانوا يعرفونها ؛ ولقد كان الحجّاج ومَنْ ولّاه ، كعبد الملك والوليد ومَنْ كان قبلهما وبعدهما من فراعنة بنى أميّة على إخفاء محاسن علىّ عليه السلام وفضائله وفضائل ولده وشيعته ، وإسقاط أقدارهم ، أحرصَ منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأُبَىّ ؛ لأنّ تلك القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم ، وفساد أمرهم ، وانكشاف حالهم ؛ وفى اشتهار فضل علىّ عليه السلام وولده وإظهار محاسنهم بوارُهم ، وتسليط حكم الكتاب المنبوذ عليهم ؛ فحرصوا واجتهدوا فى إخفاء فضائله ، وحملوا النّاس على كتمانها وسترها ، وأبى الله أن يزيد أمرُه وأمر ولده إلّا استنارة وإشراقا ، وحبّهم إلّا شغَفا وشدة ، وذكرهُم إلا انتشارا وكثرة ، وحجّتهم إلّا وضوحا وقوّة ، وفضلهم إلّا ظهوراً ، وشأنُهم إلا علوّاً ، وأقدارهم إلا إعظاما ، حتى أصبحوا بإهانتهم إيّاهم أعزّاء ؛ وبإماتتهم ذكرهم أحياء ، وماأرادوا به وبهم من الشرّ تحول خيرا ، فانتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه مالم يتقدّمه السابقون ، ولا ساواه فيه القاصدون ، ولا يلحقه الطالبون ، ولولا أنها كانت

كالقِبْلة المنصوبة فى الشُّهرة ، وكالسُّنن المحفوظة فى الكثرة ، لم يصلْ إلينا منها فى دهرنا حرف واحد ، إذا كان الأمر كما وصفناه .

قال : فأمّا ما احتجّ به الجاحظ بإمامة أبى بكر ، بكونه أوّل النّاس إسلاما ، فلو كان هذا احتجاجاً صحيحا ، لاحتجّ به أبو بكر يوم السقيفة ، وما رأيناه صنع ذلك لأنه أخذ بيد عمر ويد أبى عبيدة بن الجراح ، وقال للناس : قد رضيتُ لكم أحد هذيْن الرّجُلين ، فبايعوا منهما مَنْ شئتم ، ولو كان هذا احتجاجا صحيحاً لما قال عمر : كانت بيعة أبى بكر فلتة وقى الله شرها ، ولو كان احتجاجا صحيحاً لادّعى واحدٌ من النّاس لأبى بكر الإمامة فى عصره أو بعد عصره ، بكونه سبق إلى الإسلام ، وما عرفنا أحداً ادّعى له ذلك ، على أن جمهورَ المحدّثين لم يذكروا أنّ أبا بكر أسلم إلّا بعد عدّة من الرّجال ، منهم علىّ ابن أبى طالب ، وجعفر أخوه ، وزيد بن حارثة ، وأبو ذرّ الغفارى ، وعمرو بن عَنْبسة السلمىّ ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وخبّاب بن الأرتّ ، وإذا تأمّلنا الرّوايات الصحيحة ، والأسانيد القويّة والوثيقة ، وجدناها كلّها ناطقةً بأنّ علياً عليه السلام أوّلُ من أسلم .

فأمّا الرواية عن ابن عباس أنّ أبا بكر أولُهم إسلاما فقد روى عن ابن عَبّاس خلاف ذلك ، بأكثر مما رووا وأشهر ، فمن ذلك مارواه يحيى بن حمّاد ، عن أبى عوانة وسعيد ابن عيسى ، عن أبى داود الطيالسىّ ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عبّاس ، أنه قال : أوّلُ مَنْ صلّى من الرّجال علىٌّ عليه السلام .

وروى الحسن البصرىّ ، قال : حدّثنا عيسى بن راشد ، عن أبى بصير ، عن عِكْرمة ، عن ابن عبّاس ، قال : فرض الله تعالى الاستغفار لعلىّ عليه السلام فى القرآن

على كلّ مسلم ، بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾(١) ؛ فكلّ مَنْ أسلم بعد علىّ فهو يستغفر لعلىّ عليه السلام .

وروى سفيان بن عُيينة ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد ؛ عن ابن عبّاس ، قال : السُّبَّاق ثلاثة : سَبق يوشع بن نون إلى موسى ، وسبق صاحب « يس » إلى عيسى ، وسبق علىُّ بن أبى طالب إلى محمد عليه وعليهم السّلام .

فهذا قول ابن عبّاس فى سبْق علىّ عليه السلام إلى الإسلام ، وهو أثبت مِنْ حديث الشَّعْبىّ وأشهر ، على أنّه قد رُوِىَ عن الشعبىّ خلاف ذلك من حديث أبى بكر الهذلىّ وداود بن أبى هند عن الشعبىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلىٍّ عليه السلام: « هذا أوّل مَنْ آمن بى وصدّقنى وصلّى معى » .

قال : فأمّا الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام المذكورة فى الكتب الصحاح والأسانيد الموثوق بها ، فمنها ماروى شَرِيك بن عبدالله ، عن سليمان بن المغيرة ، عن زيد ابن وهب ، عن عبد الله بن مسعود ، أنّه قال : أوّلُ شىء علِمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أنّى قدمت مكّة مع عمومة لى وناس من قومى، وكان من أنفسنا شراء عِطْر، فأرشِدْنا(٢) إلى العبّاس بن عبدالمطلب ، فانتهينا إليه ، وهو جالس إلى زمزم ، فبينا نحن عنده جلوسا ، إذ أقبل رجلٌ من باب الصّفا ، وعليه ثوبان أبيضان ، وله وفْرة إلى أنصاف أذنيه جَعدة ، أشمّ أقنى ، أدعَجُ العينين ، كثّ اللحية ، برّاق الثنايا ، أبيض تعلوه حمرة ، كأنّه القمر ليلة البدر ، وعلى يمينه غلام مُراهِق أو محتلم ، حسن الوجه ، تقفوهم امرأة ، قد سترت محاسنَها ، حتى قصدوا نحو الحِجْر ، فاستلمه واستلمه الغلام ، ثم استلمته المرأة ، ثم طاف بالبيت سبعا ، والغلام والمرأة يطوفان معه ، ثم استقبل الحِجْر ،

---

(١) سورة الحشر ١٠ (٢) د: « فأرشدونا » .

فقام ورفع يديه وكبّر ، وقام الغلام إلى جانبه ، وقامت المرأة خلْفهما ، فرفعت يديها ، وكبّرت،فأطال القنوت،ثم ركع وركع الغلام والمرأة ، ثم رفع رأسه فأطال، ورفع الغلام والمرأة معه يصنعان مثل مايصنع،فلمّا رأينا شيئاً ننكره،لا نعرفه بمكة،أقبلنا على العباس، فقلنا : ياأبا الفضل ، إنّ هـذا الدّين ما كنّا نعرفه فيكم ، قال : أجلْ والله ، قلنا : فمن هذا ؟ قال : هذا ابنُ أخى،هذا محمّد بن عبد الله ، وهذا الغلام ابن أخى أيضا؛هذا علىّ بن أبى طالب،وهذه المرأة زوْجة محمّد،هذه خديجة بنت خويلد، والله ماعَلَى وجهِ الأرض أحدٌ يَدِين بهذا الدين ؛ إلا هؤلاء الثلاثة .

ومنْ حديث موسى بن داود ، عن خالد بن نافع ، عن عُفَيف بن قيس الكِندىّ ، وقد رواه عن عُفَيف أيضا،مالك بن إسماعيل النهدىّ والحسن بن عَنْبسة الورّاق وإبراهيم ابن محمّد بن ميمونة ، قالوا جميعا : حدّثناسعيد بن جُشَم ، عن أَسَد بن عبدالله البَجَلىّ،عن يحيى بن عُفَيف بن قيس ، عن أبيه ، قال : كنتُ فى الجاهلية عطّارا ، فقدمت مكّة ، فنزلت على العبّاس بن عبدالمطلب ، فبينا أنا جالس عنده، أنظر إلى الكعبة،وقد تحلّقت الشمس فى السماء ، أقبل شابٌّ كأنّ فى وجهه القمر ، حتى رَمَى ببصره إلى السماء ، فنظر إلى الشمس ساعة ، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة ، فصفّ قدميْه يصلّى ، فخرج على أثره فتًى كأنّ وَجْهه صفيحة يمانيّة ، فقام عن يمينه ، فجاءت امرأة متلفّفة فى ثيابها ، فقامت خلفهما ، فأهوى الشاب راكعا ، فركعا معه ، ثم أهوى إلى الأرض ساجداً،فسجدا معه ، فقلت للعباس : ياأبا الفضْل،أمر عظيم ! فقال : أمر والله عظيم ! أتدرى مَنْ هذا الشّاب ؟ قلت : لا ، قال هذا ابنُ أخى ، هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب ؛ أتدرى مَنْ هذا الفتى ؟ قلت : لا ، قال : هذا ابن أخى علىّ بن أبى طالب بن عبد المطلب ؛ أتدرى من المرأة ؟ قلت : لا ، قال : هذه ابنة خُويلِدبن أسَد بن عبد العُزّى ، هذه خديجة زوْج محمّد هذا[1]،وإنّ محمداً هذايذكر أنّ إلهه إله السماء والأرض،وأمره بهذا الدّين،فهو عليه كماترى،

(١) ا : « زوج هذا » .

ويزعم أنه نبيّ ، وقد صدّقه على قوله عليٌّ ابن عمه هـذا الفتى ، وزوجتـه خديجة ، هذه المرأة ؛ والله ما أعلمُ على وجه الأرضِ كلّها أحـداً على هـذا الدين غـير هؤلاء الثلاثة : قال عفُيف : فقلت له : فما تقولون أنتم ؟ قال : ننتظر الشيخ مايصنع ! يعنى أبا طالب أخاه .

وروى عبُيد الله بن موسى،والفضل بن دُكَين ، والحسن بن عطيّة ، قالوا : حدّثنا خالد بن طَهْمان ، عن نافع بن أبى نافع ، عن معقل بن يسار ، قال : كنت أوصى النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقال لى : هل لك أن نَعود فاطمة ؟ قلت : نعم يارسول الله ، فقام يمشى متوكّئا علىّ ، وقال : أما إنّه سيحمل ثقلها غيرُك ، ويـكون أجرُها لك ، قال : فوالله كأنّه لم يـكن علىّ من ثقل النبي صلى الله عليه وآله شىء ؛ فدخلنا عَلَى فاطمة عليها السلام ، فقال لهـا صلّى الله عليـه وسلم : كيف تجدينك ؟ قالت : لقـد طال أسفى ، واشتدّ حُزْنى ، وقال لى النساء : زوّجك أبوكِ فقيرا لا مال له ! فقال لها : أما ترضَيْنَ أنى زوّجتك أقدَم أمتى سلمـاً ، وأكثرهم علماً ، وأفضلهم حلما ! قالت : بلى رضيت يارسول الله .

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحميد وعبد السّلام بن صالح ، عن قيس بن الربيع ، عن أبى أيوب الأنصارىّ ، بألفاظه أو نحوها .

وروى عبد السلام بن صالح ، عن إسحاق الأزرق ، عن جعفر بن محمد ، عن آبائه ، أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله لمّا زوّج فاطمة ، دخل النساء عليها ، فقلن : يابنتَ رسول الله ، خَطَبَك فلانٌ وفلان ، فردّهم عنك ، وزوّجك فقيراً لا مال له ، فلمّا دخل عليها أبُوها صلّى الله عليه وآله رأى ذلك فى وجهها ، فسألها فذَكَرتْ له ذلك ، فقال : يافاطمة ، إنّ الله أمرنى فأنـكحتُك أقدمَهم سلما ؛ وأكثرهم عِلْماً ؛ وأعظمهم حِلْما ؛ وما زوّجتك إلّا بأمرٍ من السماء ؛ أما علمت أنه أخى فى الدنيا والآخرة !

وروى عثمان بن سعيد عن الحكم بن ظُهَيْر ، عن السّدىّ ؛ أنّ أبا بكر وعمر خطبا فاطمةَ عليها السلام ، فردّهما رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : لم أومَرْ بذلك، فخطبها علىّ عليه السلام ، فزوّجه إياها ، وقال لها : زوّجتك أقدمَ الأمّـةِ إسلاما . وذكر تمام الحديث . قال : وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة ، منهم أسماء بنت عُميس ، وأمّ أيْمن ، وابنُ عبّاس وجابر بن عبد الله .

قال : وقد روى محمد بن عبد الله بن أبى رافع ، عن أبيه ، عن جدّه أبى رافع، قال : أتيتُ أبا ذرّ بالرّبَذة أودّعه ، فلما أردت الانصراف ، قال لى ولأناسٍ معى : ستكون فتنة ، فاتّقوا الله ، وعليكم بالشيخ علىّ بن أبى طالب ، فاتّبعوه ، فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول له : « أنت أوّل مَنْ آمن بى ، وأول مَنْ يصافحنى يوم القيامة ، وأنت الصدّيق الأكبر ، وأنت الفاروق الذى يفرق بين الحقّ والباطل، وأنت يعسوب المؤمنين ؛ والمال يعسوب الكافرين ؛ وأنت أخى ووزيرى ، وخير مَنْ أتركُ بعدى ، تقضى دَيْنى وتنجز موعدى » .

قال : وقد روى ابن أبى شيبة ، عن عبد الله بن نُمَيْر ، عن العَلاء بن صالح ، عن المِنْهال بن عمرو ، عن عبّاد بن عبدالله الأسدىّ ، قال : سمعتُ علىّ بن أبى طالب، يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله ، وأنا الصّدّيق الأكبر ، لا يقولها غيرى إلّا كذّاب ، ولقد صلّيت قبل النّاس سبع سنين .

وروت معاذة بنت عبد الله العدَويّة ، قالت : سمعتُ عليا عليه السلام ، يخطب على مِنبر البصرة ، ويقول : أنا الصديق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم .

وروى حبّة بن جُوين العُرَنىّ أنه سمع عليا عليه السلام ، يقول : أنا أوّلُ رجل أسلم

مع رسول الله صلّى الله عليه وآله . رواه أبو داود الطيالسىّ ، عن شعبة ، عن سفيان الثورىّ ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن حبّة بن جُوَين .

وروَى عثمان بن سعيد الخرّاز [1]، عن علىّ بن حرّار ، عن علىّ بن عامر ؛ عن أبى الحجّاف ، عن حكيم مولى زاذان ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : صلّيتُ قبل الناس سبعَ سنين ، وكنّا نسجُد ولا نركع ، وأوّل صلاة ركعنا فيها صلاةُ العصر ، فقلت : يارسولَ الله ، ماهذا ؟ قال : أمِرْت به .

وروى إسماعيل بن عمرو ، عن قيس بن الربيع ، عن عبدالله بن محمد بن عَقِيل ، عن جابر بن عبد الله ، قال : صلّى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يوم الاثنين ؛ وصلّى علىّ يوم الثلاثاء بعده . وفى الرواية الأخرى ، عن أنس بن مالك : استُنبِئ النبىّ صلّى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وأسلَم علىّ يوم الثلاثاء بعده .

وروى أبو رافع أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله صلّى أوّل صلاة صلّاها غداة الاثنين ، وصلّتْ خديجة آخر نهار يومها ذلك ، وصلّى علىٌّ عليه السلام يوم الثلاثاء غدا ذلك اليوم .

قال : وقد رُوِى بروايات مختلفة كثيرة متعددة ، عن زيد بن أرقم ؛ وسلمان الفارسىّ ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ؛ أنّ عليا عليه السلام : أوّل مَنْ أسلم ؛ وذكر الروايات والرجال بأسمائهم .

وروى سلمة بن كُهَيل ، عن رجاله الذين ذكرهم أبو جعفر فى الكتاب أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « أوّلكم ورودا علىّ الحوض أوّلكم إسلاما ، علىّ بن أبى طالب » .

وروى ياسين بن محمد بن أيمن ، عن أبى حازم ؛ مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ،

---

(١) ب : « الحرار » .

قال : سمعتُ عمرَ بن الخطاب وهو يقول : كفُّوا عن علىّ بن أبى طالب؛ فإنّى سمعتُ من رسولِ الله صلّى الله عليه وآله يقول [1] فيه خِصالا ، لو أنّ خصلة منها فى جميع آل الخطاب، كان أحبّ لى مما طلعت عليه الشمس ؛ كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن ابن عوف وأبو عبيدة مع نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله نطلبه، فانتهينا إلى باب أمّ سلمة ، فوجدنا علياً متّكئا على نجاف [2] الباب ؛ فقلنا : أردنا رسول الله صلّى الله عليه وآله ؛ فقال : هو فى البيت ، رويدكم ! فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله فسِرْنا حوله ، فاتّكأ على علىٍّ عليه السلام ، وضرب بيده على منكبه ،فقال: أبشِرْ يا علىّ ابن أبى طالب ، إنك مخاصم ، وأنك تخصم [3] الناس بسبع لا يجاريك أحدٌ فى واحدة منهنّ ، أنت أوّلُ النّاس إسلاماً ، وأعلمهم بأيام الله . . » وذكر الحديث .

قال : وقد روى أبو سعيد الُخدرىّ ، عن النبى صلى الله عليه وآله مثل هذا الحديث .

قال : روى أبو أيوب الأنصارىّ ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال : « لقد صلّت الملائكة علىّ وعلى علىّ عليه السلام ، سبعَ سنين » ؛ وذلك أنّه لم يصلّ معى رجل فيها غيره .

قال أبو جعفر : فأما مارواه الجاحظ من قوله صلى الله عليه وآله : « إنّما تبعنى حرّ وعبد » ، فإنه لم يسمّ فى هذا الحديث أبا بكر وبلالاً ، وكيف وأبو بكر لم يشترِ بلالاً إلا بعد ظهور الإسلام بمكّة ؛ فلما أظهر بلال إسلامه عذّبه أميّة بن خلَف ! ولم يكن ذلك حال إخفاء رسول الله صلى الله عليه وآله الدّعوة ، ولا فى ابتداء أمر الإسلام ؛

---

(١) ساقطة من ا

(٢) النجاف : هو مابنى ناتئاً فوق الباب .

(٣) تخصم الناس : تغلبهم فى الخصومة .

وقد قيل : إنه عليه السلام إنما عَنَى بالحرّ علىّ بن أبى طالب ، وبالعبد زيد بن حارثة .

وروى ذلك محمد بن إسحاق ، قال : وقد روى إسماعيل بن نصر الصفّار ، عن محمد ابن ذَكْوان ، عن الشعبىّ ؛ قال : قال الحجّاج للحسن ، وعنده جماعة من التابعين وذكر علىّ بن أبى طالب : ما تقول أنت يا حسن ؟ فقال : ما أقول ! هو أوّل مَنْ صلّى إلى القِبْلة ، وأجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ لعلىٍّ منزلةً من ربّه ، وقرابة من رسوله ، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردّها أحدٌ . فغضب الحجاج غضبا شديدا ، وقام عن سريره ، فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا .

قال الشعبىّ : وكنا جماعةً ما منّا إلّا مَنْ نال منْ علىٍّ عليه السلام مقاربةً للحجّاج ، غير الحسن بن أبى الحسن رحمه الله .

وروى مُحْرِز بن هشام ، عن إبراهيم بن سلمة ، عن محمد بن عبيد الله ، قال : قال رجل للحسن : مالنا لا نراك تُثنى على علىّ وتقرّظه ! قال : كيف وسيفُ الحجاج يقطر دماً ! إنّه لأوّلُ مَنْ أسلم ، وحسبُكم بذلك !

قال : فهذه الأخبار .

وأما الأشعار المرويّة فمعروفة كثيرة منتشرة ، فمنها قول عبد الله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيبا للوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيْط :

وإنّ ولىّ الأمر بعد محمدٍ ... علىٌّ وفى كلّ المواطن صاحبُهْ
وصىُّ رسول الله حقًّا وصنْوُه ... وأوّل مَنْ صلّى ومَنْ لان جانبُهْ

وقال خزيمة بن ثابت فى هذا :

وصِىُّ رسولِ الله مِنْ دونِ أهلِه ... وفارسُه مُذْ كان فى سالف الزّمَنْ
وأوّلُ مَنْ صلّى من الناس كلّهِمْ ... سوى خيرة النّسوان واللهُ ذو مَنَنْ

وقال أبو سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد شمس ، حين بويع أبو بكر :

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرفٌ عن هاشمٍ ثم منها عن أبى حَسَنِ
أليس أوّلَ مَنْ صلّى لقبلتهمْ وأعلمَ النّاس بالأحكام والسُّنَنِ !

وقال أبو الأسود الدؤلىّ يهدّد طلحة والزبير :

وإن عليًّا لكم مُصْحِرٌ يماثله الأسد الأسوَدُ
أما إنه أوّلُ العابدين بمكّة والله لا يعبد !

وقال سعيد بن قيس الهمْدانىّ يرتجز بصفين :

هذا علىٌّ وابنُ عمّ المصطفى أوّل مَنْ أجابه فيما روَى
* هو الإمام لا يبالِى مَنْ غوَى *

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسدىّ :

فحُوطُوا عليًّا وانصروه فإنّه وصىٌّ وفى الإسلام أوّل أولُ
وإن تخذلوه والحوادث جمّةٌ فليس لكم عن أرضكم متحوّلُ

قال : والأشعار كالأخبار ، إذا امتنع فى مجىء القبيلين التواطؤ والاتفاق ، كان ورودها حجة .

* * *

فأمّا قولُ الجاحظ : فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهما معا ، فقد أبطل بهذا ما احتج به لأمامة أبى بكر ، لأنه احتجّ بالسَّبْق ، وقد عدل الآن عنه .

قال أبو جعفر : ويقال لهم : لسْنَا نحتاج من ذكر سبق علىّ عليه السلام إلا مجامعتكم إيّانا على أنّه أسلم قبل النّاس ؛ ودعْوَاكم أنه أسلم وهو طفل دعوَى غير مقبولة لا بحجة .

فإن قلتم : ودعوتكم أنّه أسلم وهو بالغ دعوَى غير مقبولة إلا بحجّة !

قلنا : قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم ؛ ولو كان طفلا لـكان فى الحقيقة غير مسلم ، لأنّ اسم الإيمان والإسلام والـكفر والطاعة والمعصية إنما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين ؛ وإذا أطلقتم وأطلقنا اسم الاسلام ، فالأصل فى الإطلاق الحقيقة ، كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « أنت أوّل مَن آمن بى ، وأنت أوّل من صدقنى » .

وقال لفاطمة : « زوّجتك أقدمهم سِلْما ـ أو قال : إسلاما ـ » فإن قالوا : إنما دعاه النبيّ صلى الله عليه وآله إلى الإسلام على جهة العَرْض لا التكليف .

قلنا : قد وافقتمونا على الدّعاء ، وحكم الدّعاء حكم الأمر والتـكليف . ثم أدّعيتم أن ذلك كان على وجْه العرْض ، وليس لـكم أن تقبلوا معنى الدّعاء [عن وجهه][1] إلا لحجة .

فإن قالوا : لعلّه كان على وجه التّأديب والتعليم ، كما يُعتمد مثل ذلك مع الأطفال !

قلنا : إنّ ذلك إنما يكون إذا تمـكّن الإسلام بأهله ، أو عند النشوء عليه والولادة فيه ، فأمّا فى دار الشِّرْك فلا يقع مثل ذلك ؛ لا سيما إذا كان الإسلام غير معروف ولا معتاد بينهم ، على أنه ليس من سنّة النبي صلى الله عليه وآله دعاء أطفال المشركين إلى الإسلام والتفريق بينهم وبين آبائهم ، قبل أن يبلغوا الحلم .

وأيضاً فمِن شأن الطفل اتّباع أهله وتقليدُ أبيه ، والمضىُّ على منشئه ومولده ، وقد كانتْ منزلة النبيّ صلى الله عليـه وآله حينئذ منزلة ضيق وشدّة ووحدة ، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلاّ مَن ثبت الإسلام عنده بحجّة ، ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة .

فإن قالوا : إن عليًّا عليه السلام كان يألفُ النبى صلى الله عليه وآله ، فوافقه على طريق المساعدة له .

قلنا : إنه وإن كان يألفه أكثرَ من أبويه وإخوته وعمومته وأهل بيته ، ولم يكن الإلف ليخرجَه عما نشأ عليه ، ولم يـكن الإسلام مما غُذِّىَ[2] به وكرر على سمعه ،

---

(١) تكملة من ا

(٢) ب : « عدى » ، تصحيف ، وأثبت ماق ا .

لأنّ الإسلام هو خلع الأنداد والبراءة ممّن أشرك بالله ، وهـذا لا يجتمع فى اعتقاد طفل .

ومن العجب قولُ العبّاس لعُفيف بن قيس : ننتظر الشّيْخ وما يصنع ! فإذا كان العبّاس وحمزة ينتظران أبا طالب ، ويصدُران عن رأيه ، فـكيف يخالفه ابنُه ، ويؤثر القلّة على الـكثرة ، ويفارق المحبوبَ إلى المكروه ، والعزّ إلى الذلّ ، والأمْن إلى الخوف ، عن غير معرفة ولا علم بما فيه !

***

فأمّا قوله : إنّ المقلّل يزعُم أنه أسلَم وهو ابن خمس سنين ، والمـكثِر يزعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين ؛ فأول ما يقال فى ذلك : إنّ الأخبار جاءت فى سِنّه عليه السلام يوم أسلم على خمسة أقسام فجعلناه فى قسمين :

القسم الأوّل : الّذين قالوا : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ؛ حدّثنا بذلك أحمد بن سعيد الأسَدىّ ، عن إسحاق بن بشر القرشىّ ، عن الأوزاعىّ ، عن حمزة بن حبيب ، عن شدّاد بن أوس ، قال : سألتُ خبّاب بن الأرتّ عن إسلام علىّ ، فقال : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولقد رأيتُه يصلّى قبل النّاس مع النبى صلى الله عليه وآله وهو يومئذ بالغٌ مستحكم البلوغ . وروى عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، أنّ أوّل مَنْ أسلم علىّ بن أبى طالب ، وهو ابن خمس عشرة سنة .

القسم الثانى : الّذين قالوا إنه أسلم وهو ابن أربعَ عشرة سنة ، رواه أبو قتادة الحرّانىّ ، عن أبى حازم الأعرج ، عن حُذَيفة بن اليمان ، قال : كنّا نعبد الحجارة ، ونشربُ الخمر وعلىٌّ من أبناء أربع عشرة سنة قائم يصـلّى مع النبىّ صلى الله عليـه وآله ليلاً ونهارا ، وقريش يومئذ تسافِه رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، ما يذُبّ عنه إلا علىّ

عليه السلام - وروى ابن أبى شَيْبة عن جرير بن عبد الحميد ، قال : أسلم علىّ وهو ابن أربع عشرة سنة .

القسم الثالث : الّذين قالوا : أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة ؛ رواه إسماعيل بن عبد الله الرَّقّى ، عن محمد بن عمر ، عن عبد الله بن سمعان ، عن جعفر بن محمّد عليه السلام ، عن أبيه عن محمد بن علىّ عليه السلام ، أنّ عليا حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة. وروى عبدُ الله بن زياد المدنىّ ، عن محمد بن علىّ الباقر عليه السلام ، قال : أوّلُ مَنْ آمن بالله علىّ ابن أبى طالب ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربعة وعشرين سنة.

القسم الرابع : الذين قالوا : إنه أسلم وهو ابن عشر سنين . رواه نوح بن درّاج ، عن محمد بن إسحاق ، قال : أوّل ذكرٍ آمَنَ وصدّق بالنبوّة علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وهو ابن عشرِ سنين ، ثمّ أسلم زيد بن حارثة ، ثم أسلم أبو بكر وهو ابن ستّ وثلاثين سنة فيما بلغنا .

القسم الخامس : الّذين قالوا إنّه أسلَم وهو ابن تسع سنين ، رواه الحَسَن بن عنْبسة الورّاق ، عن سليم مولى الشّعبىّ ، عن الشعبىّ ، قال : أوّلُ مَنْ أسلم من الرّجال علىّ ابن أبى طالب وهو ابن تسع سنين ، وكان له يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله تسعٌ وعشرون سنة .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر : فهذه الأخبار كما تراها ، فإمّا أن يكونَ الجاحظ جهلها ، أو قصد العناد .

فأمّا قوله : « فالقياس أن نأخذ بأوسط الأمرين من الرّوايتين » ، فنقول: إنه أسلم وهو ابن سبع سنين . فإنّ هـذا تحكّم منـه ، ويلزمه مثله فى رجلٍ ادّعى قِبَل رجل عشرة

دراهم ، فأنكر ذلك وقال : إنما يستحق قبلى أربعة دراهم ، فينبغى أن نأخذ الأمر المتوسط ويلزمه سبعة دراهم ، ويلزمه فى أبى بكر حيث قال قوم : كان كافرا ، وقال قوم : كان إماما عادلا أنْ نقول : أعدلُ الأقاويل أوسطُها وهو منزلة[1] بين المنزلتين ، فنقول : كان فاسقاً ظالماً ، وكذلك فى جميع الأمور المختلَف فيها .

فأما قولُه : وإنّما يُعرف حقّ ذلك من باطله ، بأن نحصى سِنِى ولاية عثمان وعمر وأبى بكر وسِنِى الهجرة ، ومُقَام النبىّ صلى الله عليه وآله بمكّة بعد الرّسالة إلى أن هاجر ؛ فيقال له : لو كانت الروايات متّفقة على هذه التأريخات ، لكان لهذا القول مساغٌ ، ولكن الناس قد اختلفوا فى ذلك ، فقيل : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أقام بمكّة بعد الرّسالة خمس عشرة سنة ، رواه ابنُ عباس ، وقيل ثلاث عشرة سنة ، وروى عن ابن عبّاس أيضا ، وأكثر الناس يرونه . وقيل عشر سنين ، رواه عُروة بن الزبير ، وهو قول الحَسَن البَصْرىّ وسعيد بن المسيّب . واختلفوا فى سنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقال ، قوم : كان ابنَ خمس وستين ، وقيل كان ابنَ ثلاث وستين ، وقيل: كان ابن ستّين . واختلفوا فى سنّ علىّ عليه السلام ، فقيل : كان ابن سبع وستين ، وقيل : كان ابن خمس وستين . وقيل ابن ثلاث وستين ، وقيل : ابن ستين ، وقيل ابن تسع وخمسين .

فكيف يمكنُ مع هذه الاختلافات تحقيقُ هذه الحال ! وإنّما الواجبُ أن يرجع إلى إطلاق قولهم : أسلم علىّ ، فإن هذا الاسم لا يكون مطلقا إلّا على البالغ ، كما لا يطلَق اسم الكافر إلّا على البالغ ، على أنّ ابن إحدى عشرة سنة يكون بالغاً ، ويولدُ له الأولاد ، فقد رَوَت الرّواة أن عمرو بن العاص لم يكن أسنّ من ابنه عبد الله

---

(١) ا : « أن ننزله » .

إلّا باثنتى عشرة سنة ، وهذا يوجب أنّه احتلم وبلَغ فى أقلّ من إحدى عشرة سنة .

وروى أيضا أنّ محمد بن عبد الله بن العباس ، كان أصغرَ من أبيه علىّ بن عبد الله ابن العباس بإحدى عشرة سنة ، فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العبّاس حين مات رسول الله صلى الله عليه وآله غير مسلم على الحقيقة ، ولا مثاب ولا مطيع بالإسلام، لأنه كان يومئذ ابن عشر سنين . رواه هشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال: توفّى رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا ابن عشر سنين .

***

قال الجاحظ : فإن قالوا : فلعلّه وهو ابن سبع سنين (١ أو ثمانى سنين١) ، قد بلغ من فطْنَتِه وذكائه وصحة لُبّه وصدق حَدْسه (٢) وانكشاف العواقب له وإن لم يكن جرّب الأمور ، ولا فاتح الرّجال ، ولا نازع الخصُوم، مايعرف به جميع مايجب على البالغ معرفتُه والإقرار به !

قيل (٣) لهم : إنما نتكلّم على ظواهر الأحوال ، وما شاهدنا عليه طبائع الأطفال، فإنا وجدنا حكْمَ ابن سبع سنين أو ثمان ـ مالم يعلم باطن أمره وخاصّة طبعه ـ حكْمَ الأطفال، وليس لَنا أن نُزيل ظاهرَ حكمه والذى نعرف من حال أبناء جنسه بلعلّ وعسى ، لأنا وإن كنّا لا ندرى ، لعلّه قد كان ذا فضيلة فى الفِطْنة فلعلّه قد كان ذا نقص فيها !

هذا على تجويز أن يكون علىٌّ عليه السلام فى الغيب (٤) قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلامَ البالغ ، غير أنّ الحكم على مجرى أمثاله وأشكاله الّذين أسلموا وهم فى مثل سنه إذ كان إسلام هؤلاء عن تربية الحاضن ، وتلقين القيّم ، ورياضة السائس .

فأمّا عند التحقيق ، فإنّه لا تجويز لمثل ذلك ، لأنّه لو كان أسلم ، وهو ابن سبع

(١ ـ ١) ساقط من ا

(٢) العثمانية : « حسه » .

(٣) العثمانية : « قيل » .

(٤) العثمانية « المغيب » .

أو ثمان وعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة، وفرق ما بين الرّسل والسّحرة، وفرق ما بين خبر النبيّ والمنجّم، وحتى عرف كيد الأريب [١]، وموضع الحجّة، و [٢] وبعد غور المتنبي [٢]، كيف يلبّس على العقلاء، وتستمال عقول الدّهماء، وعرف الممكن فى الطّبع من الممتنع، وما يحدث بالاتفاق مما يحدث بالأسباب، وعرف قدر القُوى وغاية الحيلة ومنتهى التّمويه والخديعة، وما لا يحتمل أن يحدثه إلاّ الخالق سبحانه، وما يجوز على الله فى حِكْمته مما لا يجوز، وكيف التحفّظ من الهوى والاحتراس من الخِداع؛ لكان كونُه على هذه الحال وهذه مع فرط الصِّبا والحداثة وقلّة التجارب والممارسة خروجاً من العادة. ومن المعروف مما عليه تركيب هذه الخِلْقة، وليس يصلُ أحد إلى معرفة نبيّ وكذب متنبئ [٤]، حتى يجتمع فيه هذه المعارف التى ذكرناها، والأسباب التى وصفناها وفصّلناها، ولو كان علىّ عليه السلام على هذه الصّفة ومعه هذه الخاصيّة لكان حجّةً على العامّة، وآية تدلّ على النبوّة، ولم يكن الله عزّ وجلّ ليخصّه بمثل هذه الأعجوبة إلّا وهو يريد أن يحتجّ بها، ويجعلها قاطعةً لعذر الشّاهد وحجة على الغائب. ولولا أنّ الله أخبر عن يحيى بن زكريا أنه أتاه الحكْم صبيا، وأنه أنطق عيسى فى المَهد ما كانا فى الُحكْم [وَلَا فى المغيّب] [٣]، إلا كسائر الرّسل، وما عليه جميع البشر. فإذا لم ينطق لعلى عليه السلام بذلك قرآن، ولا جاء الخبرُ بمجئ الحجّة القاطعة والمشاهدة القائمة، فالمعلوم عندنا فى الُحكْم أن طباعه كطباع عَمّيْه حمزة والعباس، وهما أمسّ بمعدن جمّاع الخير منه، أو كطباع جعفر وعَقِيل من رجال قومه، وسادة رهطه. ولو أنّ إنساناً ادّعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعمّيه حمزة والعباس، ما كان عندنا فى أمره إلاّ مثل ما عندنا فيه [٣].

***

أجاب شيخُنا أبو جعفر رحمه الله، فقال: هذا كلُّه مبنيّ على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان، ونحن قد بينّا أنه أسلم بالغا ابن خمس عشرة سنَة أو ابن أربع عشرة سنة؛ على

---

(١) العثمانية: «المريب». (٢–٢) فى الأصول: «وفقد التميز»، وأثبت ما فى العثمانية.
(٣) من العثمانية (٤) العثمانية ٦ – ٨.

أنا لو نزلنا على حُكْم الخصوم ، وقلنا ماهو الأشهر والأكثر من الرواية ؛ وهو أنه أسلَمَ وهو ابن عشرٍ لم يلزم ماقاله الجاحظ ، لأنّ ابن عشرٍ قد يستجمع عقله ، ويعلم من مبادئ المعارف مايستخرج به كثيرا من الأمور المعقولة ؛ ومتى كان الصبيّ عاقلًا مميّزا كان مكلفًا بالعقليّات ؛ وإن كان تكليفُه بالشرعيّات موقوفاً على حدّ آخر وغاية أخرى ، فليس بمنكَرٍ أن يكون علىٌّ عليه السلام وهو ابن عشر قد عقل المعجزة ، فلزمه الإقرار بالنبوّة ، وأسلم إسلام عالم عارف ، لا إسلام مقلّد تابع ؛ وإن كان مانسّقه الجاحظ وعدّده من معرفة السّحر والنّجوم والفصل بينهما وبين النبوّة ، ومعرفة مايجوز فى الحكمة ممّا لايجوز ، ومالا يحدِثه إلّا الخالق ، والفرق بينه وبين مايقدر عليه القادرون بالقُدْرة ، ومعرفة التمويه والخديعة ، والتّلبيس والمماكرة ، شرطاً فى صحّة الإسلام لما صحّ إسلام أبى بكر ولا عمر ولا غيرهما من العرب ؛ وإنّما التّكليف لهؤلاء بالجمل ومبادئ المعارف لا بدقائقها والغامض منها ، وليس يفتقر الإسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتح الرّجال وجرّب الأمور ونازع الخصوم ؛ وإنما يفتقر إلى صحّة الغريزة وكمال العقل وسلامة الفطْرة ؛ ألا ترى أنّ طفلًا لو نشأ فى دارٍ لم يعاشر النّاس بها ، ولا فاتح الرجال ، ولا نازع الخصوم ؛ ثم كَمَل عقلُه ، وحصلت العلوم البديهيّة عنده ، لكان مكلّفا بالعقليات !

فأمّا توهّمه أن عليًّا عليه السلام أسلَمَ عن تربية الحاضن ، وتلقين القيّم ، ورياضة السّائس ؛ فلَعمرِى إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله كان حاضنَه وقيّمه وسائسَه ، ولكن لم يكن منقطعاً عن أبيه أبى طالب ، ولا عن إخوته طالب وعَقيل وجعفر ، ولا عن عُمومته وأهلِ بيته ، وما زال مخالطاً لهم ، ممتزجاً بهم ، مع خدمته لمحمّد صلى الله عليه وآله ، فمابالُه لَم يمِلْ إلى الشِّرك وعبادة الأصنام لمخالطته إخوته وأباه وعمومته وأهله ، وهم كثير ومحمد صلى الله عليه وآله واحد ! وأنت تعلم أن الصبيّ إذا كان له أهلٌ ذوو كثْرة ، وفيهم واحد

يذهب إلى رأى مفرد ، لايوافِقُه عليه غيره منهم ، فإنّه إلى ذَوِى الكثرة أميَلُ ، وعن ذى الرأى الشّاذ المنفرد أبْعَد ، وعَلَى أنّ علياً عليه السلام لم يولَد فى دارِ الإسلام ، وإنّما ولد فى دار الشّركِ ورُبِّىَ بين المشركين ، وشاهد الأصنامَ ، وعاين بعينيه أهلَه ورهطه يعبدونها ؛ فلو كان فى دار الإسلام لكان فى القول مجالٌ ، ولقيل إنه ولد بين المسلمين ، فإسلامه عن تلقين الظِّئْر وعن سماع كلمة الإسلام ومشاهدة شعاره لأنه لم يسمع غيرَه ، ولا خطر بباله سواه ، فلمّا لم يكن ولد كذلك ، ثبت أنّ إسلامه إسلام المميِّز العارف بما دخل عليه. ولولا أنّه كذلك لما مدحه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك ، ولا أرضى ابنته فاطمة لما وجِدت من تزيجه بقوله لها : زوّجتُك أقدمَهم سِلْماً ، ولا قرن إلى قوله : « وأكثرهم علما ، وأعظمهم حلما » ، والحلم العقل ، وهذان الأمرانِ غاية الفضل ، فلولا أنه أسلم إسلامَ عارف عالم مميِّز لما ضمّ إسلامه إلى العلم والحِلْم اللَّذيْن وصفه بهما ! وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مُثاباً عليه ، ولا معاقبا به لو تركه ، ولو كان إسلامُه عن تلقين وتربية لما افتخر هو عليه السلام [به][1] على رءوس الأشهاد ، ولا خطب عَلَى المنبر ؛ وهوَ بين عدوٍّ ومحارب ، وخاذل منافق ، فقال : أنا عبدالله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ؛ صلّيتُ قبلَ الناس سبع سنين ، وأسلمت قبل إسلام أبى بكر ، وآمنت قبل إيمانه ! فهلْ بلَغَكم أن أحداً من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابَهُ أو ادعاه لغيره ، أو قال له : إنما كنتَ طفلا أسلمت على[2] تربية محمد صلى الله عليه وآله ذلك ، وتلقينه إياك ، كما يُعَلَّم الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعا ! فلا فخر له فى تعلم ذلك ، وخصوصاً فى عصرٍ قد حارب فيه أهلَ البصرة والشام والنهروان ، وقد اعتورته الأعداء وهَجَتْه الشعراء ، فقال فيه النّعمان بن بشير :

---

(١) تكملة من ا   (٢) « عن » .

لَقدْ طَلَبَ الخلافة من بعيـــدٍ وسارعَ فى الضَّلالِ أبو تُرَابِ
معاوية الإمامُ وأنت مِنْهـــا على وتح بمنقطَع السرابِ [١]

وقال فيه أيضا بعض الخوارج :

دَسَسْنا له تحتَ الظلام ابنَ مُلْجَمٍ جزاء إذا ماجاء نفساً كتابُها
أبا حسن خذها على الرأس ضَرْبَةً بكفّ كريمٍ ؛ بعد موتٍ ثوابُها

وقال عِمران بن حِطّان يمدح قاتله :

ياضربةً مِنْ تقيّ ما أراد بهــــا إلّا ليبلُغَ من ذِى العرش رضوانا [٢]
إنى لأذْكُره حيناً فأحسِبُـــه أوْفَى البريّة عنـــد الله ميزانا

فلو وجد هؤلاء سبيلا إلى دَحْض حجّة فيما كان يفخر به من تقدم إسلامه ، لبدءوا بذلك ، وتركوا مالا معنى له .

وقد أوردنا مامدحه الشعراء به مِنْ سبقه إلى الإسلام ، فكيف لم يَرُدّ على هؤلاء الذين مدحُوه بالسّبق شاعرٌ واحد من أهل حزْبه! ولقد قال فى أمّهات الأولاد قولاخالف فيه عمر ، فذكروه بذلك وعابوه ، فكيف تركوا أن يعيبوه بما كان يفتخر به ممّا لا فخر فيه عندهم ، وعابوه بقوله فى أمّهات الأولاد .

ثم يقال له: خَبِّرنا عن عبدالله بن عمر ،وقد أجازه النبىُّ صلى الله عليه وآله يوم الخَنْدق، ولم يجزه يوم أُحُد ، هل كان يُميِّز ماذكرته ؟ وهل كان يعلم فَرْق مابين النبىّ والمتنبى ، ويفصل بين السِّحر والمعجزة ، إلى غيره مما عدّدت وفصّلت !

فإن قال : نعم ، وتجاسر على ذلك ، قيل له : فعلىٌّ عليه السلام بذلك أوْلى من ابن عمر ، لأنّه أذكَى وأفطن بلا خلاف بين العقلاء ، وأنّى يُشكّ فى ذلك ، وقد رويتم أنه

---

(١) الوتح : القليل .
(٢) الكامل ٣ : ١٦٩

لم يميّز بين الميزان والعُود بعد طُول السنّ ، وكثرة التجارب، ولم يميّز أيضا بين إمام الرّشد وإمام الغيّ ، فإنه امتنع من بَيْعة عليٍّ عليه السلام . وطرَق على الحجّاج بابه ليلا ليبايع لعبدالملك ؛ كيلا يبيت تلك الليلة بلا إمام ، زعم. لأنه روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية »، وحتى بلغ من احتقار الحجّاج له واسترذاله حاله ، أن أخرج رجله من الفراش ، فقال : أصفق بيدك عليها ، فذلك تمييزه بين الميزان والعود ، وهذا اختياره فى الأئمة، وحال عليٍّ عليه السلام فى ذكائه وفطنته ، وتوقّد حسّه، وصدق حدْسه ، معلومة مشهورة ، فإذا جاز أن يصحّ إسلام ابن عمر ، ويقال عنه إنه عرف تلك الأمور التى سردها الجاحظ ونسّقها، وأظهر فصاحته وتشدُّقه فيها ، فعليٌّ بمعرفة ذلك أحقّ ، وبصحة إسلامه أوْلَى .

وإن قال : لم يكن ابن عمر يعلمُ ويعرف ذلك ، فقد أبطل إسلامه، وطعن فى رسول الله صلى الله عليه وآله حيث حكم بصحة إسلامه وأجازه يوم الخندق؛ لأنه عليه السلام كان قال : لا أجيز إلّا البالغ العاقل ، ولذلك لم يجزه يوم أحُد .

ثم يقال له : إنّ ما نقوله فى بلوغ عليٍّ عليه السلام الحدّ الذى يحسن فيه التّكليف العقليّ بل يجب ـ وهو ابن عشر سنين ـ ليس بأعجب من مجىء الولد لستّة أشهر، وقد صحّح ذلك أهلُ العلم ، واستنبطوه من الكتاب ، وإن كان خارجاً من التعارف والتجارب والعادة . وكذلك مجىء الولد لسنتيْن خارج أيضا عن التعارف والعادة ، وقد صحّحه الفقهاء والناس .

ويُرْوَى أنّ معاذاً لمّا نهى عمر عن رَجْم الحامل تركها حتى ولدتْ غلاما قد نبتت ثنيّتاه ، فقال أبوه : ابنى وربّ الكعبة ! فثبت ذلك سنّةً يعمل بها الفقهاء ، وقد وجدنا العادة تقضى بأنّ الجارية تحيض لاثنتىْ عشرة سنة ، وأنه أقلّ سنٍّ تحيض فيه المرأة، وقد

يكون فى الأقلّ نساء يحِضْن لعشر ولتسع ، وقد ذكر ذلك الفقهاء ، وقد قال الشافعىّ فى اللّعان : لو جاءت المرأة بحمْلٍ وزوجها صبىّ له دون عشر سنين ، لم يكن ولدا له ، لأنّ من لم يبلغ عشر سنين من الصِّبْيان لا يولد له ، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له ، وكان بينهما لِعان إذا لم يقرّ به .

وقال الفقهاء أيضا : إن نساء تهامة يحضْنَ لتسع سنين ؛ لشدّة الحرّ ببلادهنّ .

* * *

قال الجاحظ : ولو لم يعرف باطل هذه الدّعوى مَنْ آثر التقوى ، وتحفّظ من الهوى ، إلا بترك علىّ عليه السلام ذِكرَ ذلك لنفسه والاحتجاجَ به على خصمه ، وقد نازع الرجالَ وناوَى الأكفاء ، وجامعَ أهلَ الشّورى ؛ لكان كافيا ، ومَتى لم تصحّ لعلىٍّ عليه السلام هذه الدعوى فى أيّامه ، ولم يذكرْها أهلُ عصره ، فهى عن ولده أعجز ، ومنهم أضعف !

ولم يُنقل أنّ عليًّا عليه السلام احتجّ بذلك فى موقف ، ولا ذكره فى مجلس ، ولا قام به خطيبا ، ولا أدْلَى به واثقًا ، لا سيّما وقد رضيَه الرّسولُ صلى الله عليه وآله عندكم مفزعا ومعلّما ، وجعله للناس إماما . ولا ادّعى له أحدٌ ذلك فى عصره ، كما لم يدّعه لنفسه ؛ حتى يقول إنسان واحد : الدليل عَلَى إمامته أنّ النبى صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام أو كلّفه التصديق قبل بلوغه ، ليكون ذلك آيةً للنّاس فى عصره ، وحجّة له ولولده من بعده ؛ فهذا كان أشدّ على طلحة والزبير وعائشة من كلّ ماادّعاه من فضائله وسوابقه وذكر قرابته [1] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إنّ مثلَ الجاحظ مع فضله وعلمه ؛ لايخفى عليه كذب

---

(١) العثمانية ٩ ــ ١٢ ، مع تصرف واختصار .

هذه الدّعوى وفسادها، ولكنّه يقول مايقوله تعصّباً وعنادا، وقد روى الناس كافّة، افتخارَ عليٍّ عليه السلام بالسَّبْق إلى الإسلام ، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله استُنبِئ يوم الاثنين، وأسلم عليٌّ يومَ الثلاثاء، وأنه كان يقول: صلّيت قبل الناس سبع سنين ، وأنه مازال يقول: أنا أوّلُ مَنْ أسلمَ ، ويفتخر بذلك، ويفتخر له به أولياؤه ومادحوه وشيعته فى عصره وبعد وفاته . والأمر فى ذلك أشهرُ من كلّ شهير ، وقد قدّمنا منه طَرَفاً ، وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخفّ بإسلام عليّ عليه السلام ، ولا تهاوَن به ، ولا زعم أنه أسلم إسلام حَدَثٍ غرير، وطفل صغير . ومن العَجَب أن يكون مثل العبّاس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ، ليُصدِرا عن رأيه، ثم يخالفه عليّ ابنه لغير رغبة ولا رهبة؛ يؤثر القلّة على الكثرة، والذّلّ على العزّة ، من غير علم ولا معرفة بالعاقبة .

وكيف ينكر الجاحظُ والعثمانيّة أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام وكلّفه التّصديق !

وقد روى فى الخبر الصّحيح أنه كلفه فى مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنعَ له طعاماً ، وأن يدعوَ له بنى عبد المطّلب ، فصنع له الطعام ، ودعاهم له ، فخرجوا ذلك اليوم، ولم ينذرهم صلّى الله عليه وآله لكلمة قالها عمّه أبو لهب، فكلّفه فى اليوم الثانى أن يصنعَ مثل ذلك الطعام ، وأنْ يدعوَهم ثانية ، فصنعه ، ودعاهم فأكلوا ، ثم كلّمهم صلى الله عليه وآله فدعاهم إلى الدّين، ودعاه معهم لأنّه من بنى عبد المطلب، ثم ضمِن لمن يوازره منهم وينصره على قوله ، أن يجعَله أخاه فى الدين، ووصيّه بعد موته ، وخليفتَه من بعده ، فأمسكوا كلُّهم وأجابه هو وحده، وقال : أنا أنصرُك على ماجئت به، وأوازرك وأبايعك، فقال لهم لمّا رأى منهم الخِذْلان ، ومنه النصر ، وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة ، وعاين منهم الإباء، ومنه الإجابة : هـذا أخى ووصيّي وخليفتى من بعدى ، فقاموا يسخرون ويضحكون ، ويقولون لأبى طالب : أطِعْ ابنَك ، فقد أمّره عليك ، فهل يكلّف عملَ

الطعام ودعاء القوم صغير مميّز وغِرٌّ غير عاقل ! وهل يؤتمن على سرّ النبوّة طفلٌ ابن خمس سنين أو ابن سبع ! وهل يُدْعى فى جملة الشيوخ والكهول إلّا عاقل لبيب ! وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده فى يده ، ويعطيه صَفْقَة يمينه ؛ بالأُخُوّة والوصيّة والخلافة إلّا وهو أهلٌ لذلك ، بالغٌ حدّ التكليف ، محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه ! وما بالُ هذا الطفل لم يأنس بأقرانه ، ولم يلصَقْ بأشكاله ، ولم يُرَ مع الصبيان فى ملاعبهم بعد إسلامه ، وهو كأحدهم فى طبقته ، كبعضهم فى معرفته !

وكيف لم ينزِع إليهم فى ساعة من ساعاته ، فيقال : دعاهُ داعى الصِّبَا وخاطر من خواطر الدنيا ، وحملته الغِرّة والحداثة على حضور لهوهم والدخول فى حالهم ، بل ما رأيناه إلّا ماضيا على إسلامه ، مصمّما فى أمره ، محققًا لقوله بفعله ؛ قد صدّق إسلامه بعفافه وزُهْده ؛ ولصق برسول الله صلى الله عليه وآله من بين جميع مَنْ بحضرته ؛ فهو أمينه وأليفه فى دنياه وآخرته ؛ وقد قهر شهوته ، وجاذب خواطره ، صابرًا على ذلك نفسه ؛ لما يرجو من فوز العاقبة وثواب الآخرة ، وقد ذكر هو عليه السلام فى كلامه وخُطَبه بدء حاله ، وافتتاحَ أمره ، حيث أسلم لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله الشّجرة ، فأقبلت تخدّ الأرض ؛ فقالت قريش : ساحر خفيف السّحر ! فقال علىٌّ عليه السلام : يارسولَ الله ، أنا أوّل مَنْ يؤمن بك ، آمنت بالله ورسوله وصدّقتك فيما جئتَ به ، وأنا أشهد أنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمرِ الله تصديقًا لنبوّتك ، وبرهانا على صحّة دعوتك ؛ فهل يكون إيمان قطّ أصحّ من هذا الإيمان وأوثقَ عُقْدةً ، وأحكم مِرّة ! ولكن حَنَقُ العثمانيّة وغيظُهم ، وعصبيّة الجاحظ وانحرافه ممّا لا حيلة فيه . ثم لينظر المنصف وليدَع الهوَى جانبا ، ليعلم نعمة الله على علىٍّ عليه السلام بالإسلام حيث أسلَم على الوضْع الّذى أسلم عليه ، فإنه لولا الألطاف التى خُصّ بها ، والهداية التى مُنِحَها ، لما كان إلّا كبعض أقارب محمد صلى الله عليه وأهله ، فقد كان ممازجًا له كممازجته ، ومخالطًا له كمخالطة كثير من أهله ورهطه ، ولم يستجبْ منهم

أحدٌ له إلّا بعد حين . ومنهم من لم يستجِبْ له أصلا ؛ فإنّ جعفراً عليه السلام كان ملتصقاً به ، ولم يُسلم حينئذ ، وكان عُتْبة بن أبى لهب ابن عمّه وصهره زوج ابنته ولم يصدّقه، بل كان شديدا عليه ، وكان لخديجة بنون من غيره ، ولم يسلموا حينئذ ، وهم ربائبة[1] ومعه فى دار واحدة . وكان أبو طالب أباه فى الحقيقة وكافله وناصرَه ، والحامِىَ عنه ، ومَنْ لولاه لم تقم له قائمة ، ومع ذلك لم يُسلم فى أغلب الروايات ، وكان العبّاس عمّهُ وصنوأبيه، وكالقرين له فى الولادة والمنشأ والتربية ، ولم يستجبْ له إلّا بعد حين طويل، وكان أبو لهب عمّه ، وكدمِه ولحمه ، ولم يسلم ، وكان شديدا عليه ، فكيف ينَسب إسلام علىّ عليه السلام إلى الإلف والتربية والقرابة واللّحمة والتلقين والحضَانة ، والدار الجامعة ، وطول العشرة والأنس والخلوة ! وقد كان كلّ ذلك حاصلًا لهؤلاء أو لكثير منهم، ولم يهتدِ أحدٌ منهم إذ ذاك ، بل كانوا بين [من] [2] جَحَد وكَفَر ومات على كفره ، ومَنْ أبطأ وتأخّر ، وسُبق بالإسلام وجاء سُكَيْتا [3] ؛ وقد فاز بالمنزلة غيرُه .

وهل يدلّ تأمّل حال علىّ عليه السلام مع الإنصاف إلّا على أنّه أسلم ، لأنه شاهد الأعلام ، ورأى المعجزات ، وشمّ ريح النبوة ، ورأى نور الرسالة ، وثبت اليقينُ فى قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح ؛ لا بتقليد ولا حَمِيَّةٍ ، ولا رغبة ولا رهبة ، إلا فيما يتعلّق بأمور الآخرة .

***

قال الجاحظ : فلو أنّ عليا عليه السلام كان بالغا حيث أسلم ؛ لكان إسلام أبى بكر وزيد بن حارثة وخبّاب بن الأرتّ أفضلَ من إسلامه ، لأن إسلام المقتضب [4] الّذى لم يعتدّ به ولم يعوّده ، ولم يمرّن عليه ، أفضلُ من إسلام الناشىء الذى رُبِّىَ فيه ، ونشأ وحبّب

---

(١) الربائب : أولاد الزوج .
(٢) من ا
(٣) السكيت : الفرس يجىء آخر الحلبة .
(٤) المقتضب : غير المستعد للشىء .

إليه ، وذلك لأنّ صاحب التربية يبلُغ حيث يبلغ وقد أسقط إلفه عنه مؤنة الرّوية والخاطر ، وكفاه علاج القلب واضطراب النفس ، وزيد وخبّاب وأبو بكر يعانون من كُلْفة النظر ومؤنة التأمّل ومشقة الانتقال من الدّين الذى قد طال الفهم له ماهو غيرخافٍ. ولو كان علىٌّ حيث أسلم بالغا مقتضبا كغيرِه ممّنْ عددنا ، كان إسلامُهم أفضلَ من إسلامه ، لأنّ من أسلم وهو يعلم أنّ له ظهراً كأبى طالب ، وردءا كبنى هاشم ، وموضعا فى بنى عبد المطلب ، ليس كالحلِيف والمولَى ، والتّابع والعَسِيف[1] ، وكالرجل من عُرُض قريش[2] . أو لستَ تعلم أنّ قريشا خاصّةً وأهل مكة عامّة لم يقدروا على أذى النبىّ صلى الله عليه وآله ، ما كان أبو طالب حيًّا ! وأيضا فإنّ أولئك اجتمع عليهم مع فراق الإلف مشقّة الخواطر ، وعلىٌّ عليه السلام كان بحضْرة الرّسولُ الله صلى الله عليه وآله ، يشاهد الأعلام فى كلّ وقت ، ويحضر منزل الوحى ، فالبراهين له أشدُّ انكشافا ، والخواطر على قلبه أقلُّ اعتلاجا ، وعلى قَدْر الكُلْفة والمشقّة يعظُم الفضل ويكثر الأجر[3] .

***

قال أبو جعفر رحمه الله : ينبغى أن ينظر أهل الإنصاف هذا الفصْل ، ويقفوا على قول الجاحظ والأصمّ فى نصرة العثمانية واجتهادهما فى القصد إلى فضائل هذا الرجل، وتهجينها، فمرّة يبطِلان معناها ، ومرّة يتوصّلان إلى حطّ قدرها ، فلينظر فى كلّ باب اعترضا فيه ، أين بلغت حيلتهما ، وما صنعا فى احتيالهما فى قصصهما وسجعهما! أليس إذا تأملتها علمتَ أنّها ألفاظٌ ملفقّة بلا معنى ، وأنها عليها شجًى وبلاء ! وإلا فما عسى أن تبلغَ حيلةُ الحاسد ويغنى كيد الكائد الشانئ[4] لمن قد جلّ قدره عن النقص ، وأضاءت فضائله إضاءة الشمس ! وأين قول الجاحظ ، من دلائل السماء ، وبراهين الأنبياء ، وقد علم

---

(١) العسيف : الأجير . (٢) من عرض قريش ؛ أى من دهمائهم
(٣) العثمانية ٢٢ ـ ٢٤ ، مع تصرف واختصار كبير . (٤) ب « الثانى » ، تحريف وصوابه من ا.

الصغيرُ والكبير ، والعالم والجاهل ، ممّن بلغه ذكرُ عليٍّ عليه السلام ، وعلم مبعث النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ عليا عليه السلام لم يولد فى دارِ الإسلام ، ولاغُذّى فى حِجْر الإيمان ، وإنما استضافه رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى نفسه سَنَةَ القَحْط والمجاعة ، وعمْره يومئذ ثمانى سنين ، فمكث معه سبع سنين حتى أتاه جبرئيل بالرسالة ، فدعاه وهو بالغ كاملُ العقل إلى الإسلام ، فأسلَمَ بعد مشاهدة المعجزة ، وبعد إعمال النّظر والفكرة ، وإن كان قد ورد فى كلامه أنه صلّى سبعَ سنين قَبْل الناس كلّهم ، فإنما يعنى ما بين الثمان والخمس عشرة ، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة ، ولا ادّعاء نبوّة ؛ وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعبّد على ملّة إبراهيم ودين الحنيفيّة ، ويتحنث ويجانب الناس ، ويعتزل ويطلب الخلْوة ، وينقطع فى جبل حراء ، وكان علىٌّ عليه السلام معه كالتّابع والتلميذ ، فلمّا بلغ الحُلُم ، وجاءت النبيَّ صلى الله عليه وآله الملائكةُ ، وبشّرته بالرسالة ، دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة بالأعلام المعجزة ؛ فكيف يقول الجاحظ إن إسلامَه لم يكن مقتضبا !

وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره فى الفضيلة لِمَا كان يمرّن عليه من التعبّد مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الدعوة ، لتكونَنَّ طاعة كثير من المكلّفين أفضلَ من طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأمثاله من المعصومين ، لأنّ العصمة عند أهلِ العدْل لطف يمنع من اختصّ به من ارتكاب القبيح ، فمن اختصّ بذلك اللّطف كانت الطاعة عليه أسهل ، فوجب أن يكون ثوابُه أنقصَ من ثواب مَن أطاع مع تلك الألطاف !

وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقصٌ عن إسلام غيره ، وقد جاء فى الخبر أنّه أسلم يومَ الثلاثاء ، واستنبئ النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، فمَن هذه حاله لم تكثر حجج الرسالة على سمعه ، ولا تواترت أعلام النبوّة على مشاهدته ، ولا تطاول الوقت عليه لتخفّ محنته ، ويسقط ثقل تكليفه ، بل بان فضلُه ، وظهر حسنُ اختياره لنفسه ، إذ أسلم فى حال بلوغه ، وعانى نوازعَ طبعه ، ولم يؤخّر ذلك بعد سماعه .

وقد غمر الجاحظ فى كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكورا ، ورئيسا معروفا ، يجتمع إليه كثير من أهل مكّة فينشدون الأشعار ، ويتذاكرون الأخبار ، ويشربون الخمر ، وقد كان سمع دلائل النبوّة وحُجج الرّسل ، وسافر إلى البلدان ، ووصلت إليه الأخبار ، وعرف دعوَى الكَهَنة وحِيَل السحرة ؛ ومن كان كذلك كان انكشافُ الأمور له أظهر والإسلامُ عليه أسهل ، والخواطر على قلبه أقلّ اعتلاجا ، وكلُّ ذلك عَوْنٌ لأبى بكر على الإسلام ، ومسهّل إليه سَبيله ، ولذلك لمّا قال النبىّ صلّى الله عليه وآله : «أتيتُ بيتَ المقدس» سأله أبو بكر عن المسجد ومواضعه ، فصدّقه وبان له أمرُه ، وخفّت مؤنته لما تقدم من معرفته بالبيت ، فخرج إذاً إسلام أبى بكر على قول الجاحظ من معنى المقتضب . وفى ذلك رويتم عَنْهُ صلّى الله عليه وآله أنه قال : ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا وكان له تردّد ونَبْوَة ، إلّا ما كان من أبى بكر ، فإنّه لم يتعاتم حتى هجَم به اليقينُ إلى المعرفة والإسلام ، فأين هذا وإسلام من خُلِّىَ وعقله ، وأُلجئ إلى نظره ، مع صغَر سنّة ، واعتلاج الخواطر على قلبه ونشأته ، فى ضدّ ما دخل فيه ، والغالب على أمثاله وأقرانه حبُّ اللعب واللهو ، فلجأ إلى ما ظهر له من دلائل الدّعوة ، ولم يتأخّر إسلامه فيلزمه التقصير بالمعصيَة ، فقهر شهوته ، وغالب خواطِرَه ، وخرج من عادته وما كان غُذّىَ به لصحّة نظره ، ولطافة فكِره وغامض فهمه ، فعظُم استنباطُه ، ورجح فضلُه ، وشرُف قدر إسلامه ، ولم يأخذ من الدنيا بنصيب ؛ ولا تنعّم فيها بنعيم حدَثا ولا كبيرا ، وحمى نفسَه عن الهوَى ، وكسر شِرّة حداثته بالتّقْوى ، واشتغل بهمّ الدين عن نعيم الدنيا ، وأشغل همّ الآخرة قلبَه ، ووجّه إليه رغبته ؛ فإسلامه هو السّبيلُ الذى لم يُسلم عليه أحدٌ غيره ، وما سبيله فى ذلك إلا كسبيلِ الأنبياء ، ليعلم أن منزلتَه من النبىّ صلى الله عليه وآله كمنزلةِ هارون من موسى ، وأنّه وإن لم يكن نبيًّا ؛ فقد كان فى سبيل الأنبياء سالكا ، ولمناهجهم متبعا ، وكانت حاله كحال إبراهيم عليه السلام ؛ فإنّ

أهل العلم ذكروا أنه لما كان صغيراً جعلته أمه فى سَرَب لم يطّلع عليه أحد ، فلما نشأ ودرج وعقل قال لأمه : مَنْ ربى ؟ قالت : أبوك ، قال : فمن ربّ أبى ؟ فزبرته ونهرته ؛ إلى أن طلع من شقّ السَّرَب ، فرأى كوكبا ، فقال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لا أحبّ الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربى، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكوننّ من القوم الضالين ؛ فلما رأى الشمس بازغةً قال: هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلتْ قال: يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ، وفى ذلك يقول الله جل ثناؤه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١) ، وعلى هذا كان إسلام الصديق الأكبر عليه السلام ، لسنا نقول إنه كان مساويا له فى الفضيلة ، ولكن كان مقتدياً بطريقه على ما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) . وأما اعتلال الجاحظ بأن له ظهراً كأبى طالب وردءا كبنى هاشم ، فإنه يوجب عليه أنْ تكون مِحْنة أبى بكر وبلال وثوابهما وفضل إسلامهما أعظم مما لرسول الله صلى الله عليه وآله، لأن أبا طالب ظهره ، وبنى هاشم رِدْؤه ؛ وحسبك جهلاً من معاند لم يستطع حطّ قدر علىّ عليه السلام إلا بحطّه من قَدْر رسول الله صلى الله عليه وآله! ولم يكن أحدٌ أشد على رسول الله صلى الله عليه وآله من قراباته ، الأدنى منهم فالأدنى ، كأبى لهب عمه وامرأة أبى لهب ؛ وهى أم جميل بنت حَرْب بن أمية وإحدى أولاد عبد مناف، ثم ما كان من عُقْبة بن أبى مُعَيط ، وهو ابن عمه، وما كان من النّضْر بن الحارث ، وهو من بنى عبد الدار بن قُصَىّ، وهو ابن عمه أيضاً، وغير هؤلاء ممن يطول تعداده ، وكلهم كان يطرحُ الأذى فى طريقه ، وينقل أخباره ، ويرميه بالحجارة ، ويرمى الكَرِش

(١) سورة الأنعام ٧٥ (٢) سورة آل عمران ٦٨

والفَرْث عليه ، وكانوا يؤذُون عليًا عليه السلام كأذاه ، ويجتهدون فى غمّه ويستهزئون به ، وما كان لأبى بكر قرابة تؤذيه كقرابة علىّ ، ولما كان بين علىّ وبين النبىّ صلى الله عليه وآله من الاتّحاد والإلف والاتفاق ، أحجم المنافقون بالمدينة عن أذى رسول الله صلى الله عليه وآله خوفاً من سيفه ، ولأنّه صاحب الدار والجيش ، وأمره مطاع ، وقوله نافذ ، نخافوا على دمائهم منه ، فاتّقوْه ، وأمسكوا عن إظهار بغضه ، وأظهروا بغضَ علِيٍ عليه السلام وشنآنه ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى حقه فى الخبر الّذى روى فى جميع الصّحاح : «لا يحبُّك إلا مؤمن، ولا يُبغِضك إلى منافق». وقال كثير من أعلام الصحابة ـ كما رُوِيَ فى الخبر المشهور بين المحدّثين : « ما كنا نعرِف المنافقين إلّا ببغضِ علىّ ابن أبى طالب» . وأين كان ظهر أبى طالب عن جعفر ؛ وقد أزعجه الأذى عن وطنه؛ حتى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر ، أيَتوهمّ الجاحظ أن أبا طالب نصر عليا ، وخذل جعفرا !

***

قال الجاحظ : ولأبى بكر فضيلة فى إسلامه أنّه كان قبل إسلامه كثير الصّديق، عريضَ الجاه ، ذا يسارٍ وغِنًى ، يعظَّم لماله ، ويُستفاد من رأيه ، نخرج من عزّ الغِنَى وكثرة الصديق إلى ذُلّ الفاقة وعجز الوحدة ، وهذا غير إسلام مَنْ لا حَرَاك به ، ولا عزّ له ، تابع غير متبوع ، لأنّ مِنْ أشدّ مايبتلَى الكريم به ، السبّ بعد التحيّة ، والضَّرب بعد الهيبة ، والعُسْر بعد اليسر . ثم كان أبو بكر دعيةً من دعاة الرّسول ، وكان يتلوه فى جميع أحواله؛ فكان الخوف إليه أشدّ ، والمكروه نحوه أسرع ، وكان مِمّن تحُسن مطالبته، ولا يستحيي من إدراك الثأر عنده ، لنباهته ، وبعد ذكره ، والحدَث الصغير يزدرى ويحتقر لصِغرسنه وخمول ذكره[1] .

***

(١) العثمانية ٢٥ ، ٢٦ ، مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا ماذُكِر من كثرة المال والصديق ، واستفاضة الذّكْر وبعد الصِّيت وكِبَر السنّ ، فكلُّه عليه لا له ، وذلك لأنه قد علِم أن من سيرة العرب وأخلاقها حفظَ الصديق والوفاء بالذّمام والتّهيّب لذى الثّرْوة واحترام ذى السنّ العالية ، وفى كلّ هذا ظَهْر شديد ، وسنَد وثقة يعتمد عليها عند المحن ، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكّن من صديقه أبقى عليه ، واستحيا منه ، وكان ذلك سببا لنجاتِه والعفو عنه ، عَلَى أنّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام إنْ لم يكن شهره سنُّه ، فقد شهره نسبه وموضعه من بنى هاشم ، وإن لم يستفِضْ ذكره بلقاء الرّجال ، وكثرة الأسفار استفاض بأبى طالب ، فأنتم تعلمون أنه ليس تَيْم فى بعد الصِّيت كهاشم ، ولا أبو قحافة كأبى طالب ، وعلى حَسَب ذلك يعلو ذكر الفتى على ذى السنّ ويبعد صيت الحدَث على الشيخ ، ومعلومٌ أيضا أنّ عليا على أعناق المشركين أثقلُ ، إذ كان هاشميًا ، وإن كان أبوه حامىَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمانعَ لحوزته ، وعلىٌّ هو الّذِى فتح عَلَى العرب باب الخلاف ، واستهان بهم ، بما أظهر من الإسلام والصلاة ، وخالف رهطه وعشيرته ، وأطاع ابن عمّه فيما لم يعرَف من قبلُ ، ولا عهد له نظير ، كما قال تعالى : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [1] . ثم كان بعدُ صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومشتكَى حزَنه ، وأنيسه فى خَلْوته ، وجليسَه وأليفه فى أيامه كلّها ، وكلّ هذا يوجب التحريضَ عليه ، ومعاداة العرب له ، ثم أنتمْ معاشرَ العثمانيّة ، تُثْبِتُون لأبى بكر فضيلةً بصحبة الرّسول صلى الله عليه وآله من مكّة إلى يثرب ، ودخوله معه فى الغار ، فقلتم : مرتبة شريفة وحالة جليلة ، إذ كان شريكَه فى الهجرة ، وأنيسَه فى الوحشة ، فأين هذه من صُحْبة علىّ عليه السلام لهُ فى خَلْوته ، وحيث لا يجد أنيساً غيره ؛ ليلَه ونهاره ، أيام مُقامِه بمكّة يعبد الله

---

(١) سورة يس ٦

معه سرًا ، ويتكلّف له الحاجة جَهراً ، ويخدمه كالعبْد يخدم مولاه ، ويشفِقُ عليه ويحوطه ، وكالولد يبرّ والده ، ويعطف عليه . ولمّا سئلت عائشة مَنْ كان أحبّ النّاس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت : أمّا مِن الرجال فعلىّ ، وأمّا من النّساء ففاطمة .

***

قال الجاحظ : وكان أبو بكر من المفتونين المعذّبين بمكة قبل الهجرة ، فضربه نوفل ابن خويلد المعروف بابن العَدَوِيّة مرتين ، حتى أدماه وشدّه مع طلحة بن عبيد الله فى قَرَن ، وجعلهما فى الهاجرة عمير بن عثمان بن مرة بن كعب بن سعد بن تيْم بن مرّة ، ولذلك كانا يُدعيان القرينين ، ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقه عسيراً ، وبلوغ منزلته شديدا ، ولو كان يوماً واحدا لكانَ عظيماً ، وعلىّ بن أبى طالب رافِهٌ وادع ، ليس بمطلوب ولا طالب ، وليس أنه لم يكن فى طبعه الشّهامة والنَّجْدة ، وفى غريزته البَسالة فى الشّجاعة ، لكنّه لم يكن قد تمّت أداته ، ولا استكملت آلته ، ورجال الطلب وأصحاب الثأر يُغمصون ذا الحَدَاثة ويزدرون بذى الصِّبَا والغرارة ، إلى أن يلحق بالرجال ، ويخرج من طَبْع الأطفال(١) .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا القولُ فممكن والدعوى سهلة ؛ سيّما على مثل الجاحظ ، فإنّه ليس على لسانه من دينه وعَقْله رقيب ؛ وهو من دَعْوَى الباطل غير بعيد ، فمعناه نزر ، وقوله لغو ، ومطلبه سجع ، وكلامه لعبٌ ولهو ؛ يقول الشىء وخلافه ، ويُحْسِنُ القول وضدّه ؛ ليس له من نفسه واعظ ولا لدعواه حدٌّ قائم ، وإلّا فكيف تجاسر على القول بأنّ عليا حينئذ لم يكن مطلوباً ولا طالبا ؛ وقد بيّنا بالأخبار الصحيحة ، والحديث المرفوع المسنَد أنه كان يوم أسلم بالغاً كاملاً منابذا بلسانه وقلبه لمشركى قريش ،

---

(١) العثمانية ٢٧ ، ٢٨ .

ثقيلاً على قلوبهم ؛ وهو المخصوص دون أبى بكر بالحِصَار فى الشِّعْب ؛ وصاحب الخلوات برسول الله صلى الله عليه وآله فى تلك الظلمات ؛ المتجرِّع لغصص المرار من أبى لهب وأبى جهل وغيرهما ، والمصطلِي لكلِّ مكروه والشَّرِيك لنبيّه فى كلِّ أذى ؛ قد نهض بالحِمْل الثَّقِيل ، وبان بالأمر الجليل ؛ ومَنِ الذى كان يخرج ليلا من الشِّعْب على هيئة السارق ، ويخفِي نفسه ، ويضائل شخصه ؛ حتى يأتىَ إلى مَنْ يبعثه إليه أبو طالب من كُبَراء قريش ، كمطعِم بن عدىّ وغيره ؛ فيحمل لبنى هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح ؛ وهو على أشدّ خوف من أعدائهم ، كأبى جهل وغيره ، لو ظفروا به لأراقوا دَمه . أعلىٌّ كان يفعل ذلك أيّام الحصار فى الشِّعب ، أم أبو بكر ؟ وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذ ، فقال فى خطبة له مشهورة : فتعاقدوا ألّا يعاملونا ولا ينا كحونا ، وأوقدت الحرب علينا نيرانَها ، واضطرونا إلى جبل وَعْر ؛ مؤمننا يرجُو الثواب ، وكافرُنا يحامى عن الأصل ؛ ولقد كانَتِ القبائلُ كلُّها اجتمعت عليهم ، وقطعوا عنهم المارّة والميرة ، فكانوا يتوقّعُون الموت جوعاً ، صباحا ومساء ؛ لا يرَوْن وجهاً ولا فرَجا ، قد اضمحلّ عزمهم ، وانقطع رجاؤهم ، فَمَنِ الذى خلص إليه مكروه تلك المحَن بَعد محمد صلى الله عليه وآله إلّا علىٌّ عليه السلام وحدَه ! وما عسى أن يقول الواصف والمطنِب فى هذه الفضيلة ، مِنْ تقصّى معانيها ، وبلوغ غاية كُنْهها ؛ وفضيلة الصابر عندها ! ودامت هذه المحنة عليهم ثلاث سنين ، حتى انفرجت عنهم بقصّة الصحيفة ، والقصة مشهورة .

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقولَ فى علىّ عليه السلام : إنه قبل الهجرة كان وادعاً رافها لم يكن مطلوباً ولا طالبا ، وهو صاحب الفِراش الّذِى فدَى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه ، ووقاه بمهجته ، واحتمل السّيوف ورضْح الحجارة دونه . وهل ينتهى الواصف وإن أطنب ، والمادح وإن أسهب ، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة ، والإيضاح بمزيّة هذه الخصيصة !

فأمّا قوله : إنّ أبا بكرٍ عُذِّبَ بمكّة ، فإنا لا نعلم أنّ العذاب كان واقعاً إلا بعبدٍ أو عسيفٍ[1] ، أو لمن لا عشيرة له تمنعه ، فأنتم فى أبى بكر بين أمرين : تارة تجعلونه دخيلاً ساقطاً، وهجينا رذِلاً مستضعَفا ذليلا ، وتارة تجعلونه رئيساً متّبَعا ، وكبيرا مطاعاً ، فاعتمِدوا على أحد القولين لنكلمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم . ولو كان الفضلُ فى الفتنة والعذاب ، لكان عمّار وخبّاب وبلال وكلّ معذّب بمكة أفضلَ من أبى بكر ، لأنهم كانوا من العذاب فى أكثر مما كان فيه ، ونزل فيهم من القرآن ما لم ينزل فيه ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾[2] ؛ قالوا : نزلت فى خبّاب وبلال ، ونزل فى عمّار قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾[3] ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ على عمّار وأبيه وأمّه ، وهم يعذّبون ، يعذّبهم بنو مخزوم لأنهم كانوا حلفاءهم ، فيقول : « صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة » ؛ وكان بلال يقلَّب على الرَّمْضاء ، وهو يقول : أحد أحد ! وما سمعنا لأبى بكر فى شىء من ذلك ذكرا ، ولقد كان لعلىٍّ عليه السلام عنده يد غرّاء ، إن صحّ ما رويتموه فى تعذيبه ، لأنه قتل نوفلَ بن خويلد وعمير بن عثمان يوم بَدْر ، ضرب نوفلا فقطع ساقة ، فقال : أذكّرك الله والرحم ! فقال : قد قطع الله كلّ رَحِمٍ وصِهرٍ إلّا مَنْ كان تابعاً لمحمّد ، ثم ضربه أخرى ففاضت نفسُه ، وصمد لعمير بن عثمان التيمىّ ، فوجده يروم الهرب ، وقد ارتجّ عليه المسلك ، فضربه على شراسيفِ صدره ، فصار نصفُه الأعلى بين رجليه ، وليس أنّ أبا بكر لم يطلب بثأره منهما ، ويجتهد ؛ لكنّه لم يقدر عَلَى أن يفعل فعلَ علىٍّ عليه السلام ، فبان علىٌّ عليه السلام بفعله دونه .

* * *

قال الجاحظ : ولأبى بكر مراتبُ لايشركه فيها علىٌّ ولا غيره ، وذلك قبلَ الهجرة

---

(١) العسيف : الأجير .
(٢) سورة النحل ٤١
(٣) سورة النحل ١٠٦

فقد علم النّاس أنّ عليا عليه السلام إنما ظهر فضلُه ، وانتشر صيتهُ ، وامتحِن ولقِىَ المشاقّ منذ يوم بدر ، وأنه إنما قاتل فى الزّمان الذى استوفى فيه أهل الإسلام ، وأهل الشرك ، وطمِعوا فى أن يكون الحرب بينهم سِجالا ، وأعلمهم الله تعالى أن العاقبة للمتقين ، وأبو بكر كان قبل الهجرة معذّباً ومطرودا مشرّدا ، فى الزمان الذى ليس بالإسلام وأهله نهوض ولا حركة ، ولذلك قال أبو بكر فى خلافته : طوبَى لمن مات فى فأفأة الإسلام ! يقول : فى ضعفه[1] .

***

قال أبو جعفر رحمه الله : لا أشُكّ أنّ الباطل خان أبا عثمان ، والخطأ أقعده ، والخذلان أصاره إلى الحَيْرَة ، فما علم وعرف حتى قال ماقال ، فزعم أن عليا عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاقّ ؛ وأنه إنما قاسى مشاق التّكليف ومحَن الابتلاء منذ يوم بدر ، ونسىَ الحصار فى الشِّعب ، وما مُنِى به منه ، وأبو بكر وادع رافهٌ ، يأكل مايريد ، ويجلس مع من يحبّ ؛ مخلًّى سِربُه ، طيّبة نفسه ، ساكنا قلبه ، وعلىّ يقاسى الغَمَرات ، ويكابد الأهوال ، ويجوع ويظمأ ، ويتوقّع القتل صباحا ومساء ، لأنه كان هو المتوصّل المحتال فى إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرًّا ، ليقيم به رمَق رسول الله صلى الله عليه وآله وبنى هاشم ، وهم فى الحِصار ، ولا يأمن فى كلّ وقت مفاجأة أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله له بالقَتْل ، كأبى جهل بن هشام وعُقْبة بن أبى مُعَيط ، والوليد بن المغيرة ، وعُتْبة ابن ربيعة وغيرهم من فراعنة قريش وجبابرتها ، ولقد كان يجيع نفسَه ويطعِم رسولَ الله صلى الله عليه وآله زاده ، ويُظَمِّئ نفسَه ويسقيه ماءه ، وهو كان المعلّل له إذا مرض ، والمؤنس له إذا استوحش ؛ وأبو بكر بنجْوة عن ذلك لا يمسّه مما يمسّهم ألم ؛ ولم يلحقه ممّا يلحقهم مشقّة ، ولا يعلم بشىء من أخبارهم وأحوالهم ، إلّا على سبيل الإجمال دون التفصيل ؛ ثلاث سنين ، محرّمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم ، محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج

(١) العثمانية ٣٩ ، ٤٠ مع تصرف واختصار .

والتصرّف فى أنفسهم ، فكيف أهمل الجاحظ هذه الفضيلة ، ونسىَ هذه الخَصِيصة ، ولا نظير لها ! ولكن لايبالى الجاحظ بعد أن يُسوّغ له لفظُه ، وتنسق له خطابته ، ما ضيّع من المعنى ، ورجع عليه من الخطأ !

فأمّا قولُه : واعلموا أنّ العاقبة للمتقين ، ففيه إشارة إلى معنى غامضٍ قصده الجاحظ ـ يعنى أن لا فضيلة لعلىٍّ عليه السلام فى الجهاد ؛ لأنّ الرسول كان أعلمه أنه منصور ، وأنّ العاقبة له ـ وهذا من دسائس الجاحظ وهَمَزاته ولمزاته ، وليس بحقٍّ ما قاله ، لأنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أعلم أصحابه جملةً أنَ العاقبة لهم ؛ ولم يعلم واحداً منهم بعينه أنه لا يُقتل ، لا عليا ولا غيره ، وإن صحّ أنه كان أعلمه أنه لا يُقتل ، فلم يعلمه أنّه لا يقطع عضو من أعضائه ؛ ولم يعلمه أنه لا يَمسّه ألم الجراح فى جسده ، ولم يُعلمه أنه لاينالُه الضرب الشديد. وعلى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر ـ وهو يومئذ بمكّة ـ أنّ العاقبة لهم ، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك ، فإن لم يكن لعلىٍّ والمجاهدين فضيلة فى الجهاد بعد الهجرة لإعلامه إياهم ذلك ؛ فلا فضيلة لأبى بكر وغيره فى احتمال المشاقّ قبل الهجرة لإعلامه إيّاهم بذلك، فقد جاء فى الخبر أنّه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنَّصْر ، وأنّه قال له : أرسِلت إلى هؤلاء بالذّبح ، وإن الله تعالى سيغنّمنا أموالَهم ، ويملّكنا ديارهم ، فالقول فى الموضعين متساوٍ ومتفق .

***

قال الجاحظ : وإنّ بين المحنة فى الدهر الذى صار فيه أصحاب النبى صلى الله عليه وآله مقرّنين لأهل مكة ومشركى قريش ، ومعهم أهلُ يثرب أصحاب النخيل والآطام والشجاعة والصبر والمواساة ، والإيثار والمحاماة والعدد الدَّثْر ، والفعل الجزْل ، وبين الدهر الذى كانوا فيه بمكّة يُفتَنون ويُشتمون ، ويضربون ويشرّدون ، ويجوعون ويعطشون ،

مقهورين لاحراك بهم ، وأذلاء لا عز لهم ، وفقراء لا مالَ عندهم ، ومستخفِين لا يمكنهم إظهار دعوتهم ، لفرقًا واضحا ، ولقد كانوا فى حالٍ أحوجت لوطاً وهو نبيّ إلى أن قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[١] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله : «عجبت من أخي لوط ، كيف قال : أو آوى إلى ركن شديد ، وهو يأوى إلى الله تعالى!» ثم لم يكن ذلك يوما ولا يومين ولا شهرا ولا شهرين ، ولا عاماً ولا عامين ، ولكنّ السنين بعد السنين . وكان أغلَظ القوم وأشدّهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ، لأنه أقام بمكّة ما أقام رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث عشرة سنة ، وهو أوسط ما قالوا فى مُقام النبي صلى الله عليه وآله[٢] .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما نرى الجاحظ احتجّ لكون أبى بكر أغلظهم وأشدهم محنة ، إلا بقوله : لانه أقام بمكّة مدة مُقام الرّسول صلى الله عليه وآله بها ؛ وهذه الحجة لا تخصُّ أبا بكر وحده ، لأن عليا عليه السلام أقام معه هذه المدة ، وكذلك طلحة وزيد وعبد الرحمن وبلال وخبّاب وغيرهم ، وقد كان الواجب عليه أن يخصّ أبا بكر وحدَه بحجّةٍ تدلّ على أنه كان أغلظَ الجماعة ، وأشدَّهم مِحْنَةً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالاحتجاج فى نفسه فاسد .

ثم يقال له : ما بالك أهملتَ أمر مَبيت عليّ عليه السلام على الفراش بمكّة ليلة الهجرة ! هل نسيته أم تناسيتَه ! فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة الّتى متى امتحنها الناظر ، وأجال فكره فيها ، رأى تحتها فضائل متفرقة ومناقب متغايرة ، وذلك أنه لما استقرّ الخبر عند المشركين أن رسول الله صلى الله عليه وآله مجمِع على الخروج من بينهم للهجرة

---

(١) سورة هود ٨٠ (٢) العثمانية ٤١

إلى غيرهم قصدوا إلى معاجلته ، وتعاقدوا على أن يبيّتوه فى فِرَاشه ، وأن يضربُوه بأسياف كثيرة ، بيد كلّ صاحب قبيلة من قريش سيف منها ، ليضيع دمُه بين الشعوب ، ويتفرّق بين القبائل ، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلةً واحدة بعينها من بطون قريش ، وتحالفوا على تلك الليلة ، واجتمعوا عليها ، فلمّا علم رسول الله صلّى الله عليه وآله ذلك من أمرهم ، دعا أوثق النّاس عنده ، وأمثاهم فى نفسِه ، وأبذلهم فى ذات الإله لمهجتــه ، وأسرعهم إجابة إلى طاعته ، فقال له : إنّ قريشا قد تحالفَتْ على أن تبيّتنى هذه الليــلة ، فامض إلى فراشى ، ونَمْ فى مضجعى ، والتفّ فى بُرْدِى الحَضْرمىّ ليروا أنى لم أخرج ، وإنّى خارج إن شاء الله. فمنعه أوّلا من التحرّز وإعمال الحيلة ، وصدّه عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكايد والجهات التى يحتاط بها النّاس لنفوسهم ، وألجأه إلى أن يعرّض نفسه لظُبَاتِ السّيوف الشَّحِيذة من أيدى أرباب الحَنَق والغيظة ، فأجاب إلى ذلك سامعاً مطِيعاً طيّبة بها نفسُه ، ونام على فراشه صابراً محتسباً ، واقياً له بمهجته ، ينتظر القتل ، ولا نعلم فوق بذل النفس درجة يلتمسها صابر ، ولا يبلغها طالب ؛ « والجود بالنّفس أقصى غاية الجود » ؛ ولولا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله علم أنّه أهلٌ لذلك ، لَمَا أهّلَه ، ولو كان عنده نقصٌ فى صبره أو فى شجاعته أو فى مناصحته لابن عمّه ، واختير لذلك ، لكان من اختاره صلى الله عليه وآله منقوضاً فى رأيه ، مضِرًّا فى اختياره ، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الإسلام ، وكلُّهم مجمعون على أنّ الرسولُ صلّى الله عليه وآله عمل الصواب ، وأحسن فى الاختيار .

ثم فى ذلك ــ إذا تأمله المتأمّل ــ وجوهٌ من الفَضْل :

منها أنه وإن كان عندَهُ فى موضع الثّقة ، فإنه غيرُ مأمونٍ عليــه ألّا يضبط السرّ فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يلقيه إلى الأعداء .

ومنها أنّه وإن كان ضابطا للسرّ وثقة عند من اختاره ؛ فغيرُ مأْمونٍ عليه الُجُبْن عند

مفاجأة المكروه ، ومباشرة الأهوال ، فيفرّ من الفراش ، فيفطَنُ لموضع الحيلة ؛ ويطلب رسولُ الله صلى الله عليه وآله فيظفر به .

ومنها أنّه وإن كان ثقةً ضابطا للسرّ ، شجاعا نَجْدا ؛ فلعلّه غير محتمل المبيت على الفراش ؛ لأنّ هذا أمرٌ خارجٌ عن الشّجاعة إن كان قد قامه مقام المكتوف الممنوع ؛ بل هو أشدُّ مشقّة من المكتوف الممنوع ؛ لأنّ المكتوفَ الممنوع يعلَم من نفسه أنّه لاسبيل له إلى الهرب ، وهذا يجدُ السّبيل إلى الهرب وإلى الدّفع عن نفسه ، ولا يهرُب ولا يدافع .

ومنها أنّه وإن كان ثقةً عنده ، ضابطا للسرّ ، شجاعا محتملا للمبيت على الفراش ، فإنه غير مأمون أن يذهب صبرُه عند العقوبة الواقعة ، والعذاب النازل بساحتِه، حتى يبوح بما عندَهُ ؛ ويصير إلى الإقرار بما يعلمه ، وهو أنّه أخذ طريق كذا فيطلب فيُؤخذ ،فلهذا قال علماء المسلمين : إنّ فضيلةَ عليٍّ عليه السلام تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها، إلّا ما كان من إسحاق وإبراهيم عند استسلامه للذّبح ، ولولا أنّ الأنبياء لا يفضلُهم غيرهم لقلنا : إنّ محنة عليٍّ أعظمُ ، لأنه قد روى أن إسحاق تلكّأ لما أمرَه أن يضطجع، وبكى عَلَى نفسه ، وقد كان أبوه يعلم أنّ عنده فى ذلك وقفة ، ولذلك قال له : ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ [1] ؛ وحال عليٍّ عليه السلام بخلاف ذلك ، لأنه ماتلكّأ ولا تتعتع ،ولا تغيّر لونُه ولا اضطربت أعضاؤه ، ولقد كان أصحابُ النبيّ صلى الله عليه وآله يُشيرون عليه بالرّأى المخالف لما كان أمر به ، وتقدّم فيه ، فيتركه ويعمل بما أشاروا به ، كما جرى يومَ الخندق فى مصانعتِه الأحزاب بثلث تَمْر المدينة ، فإنّهم أشاروا عليه بترك ذلك فتركه ، وهذه كانت قاعدته معهم ، وعادته بينهم ، وقد كان لعليٍّ عليه السلام أن يعتلّ بعلّة، وأن يقفَ ويقول : يارسول الله ، أكون معك أحميك من العدوّ ، وأذبّ بسيفى عنك ، فلستَ

---

(١) سورة الصافات ١٠٢

مستغنياً فى خروجك عن مثلى ، ونجعلُ عبداً من عبيدنا فى فراشك ، قائماً مقامك ، يتوهم القوم – برؤيته نائماً فى بُرْدِك – أنك لم تخرج ، ولم تفارق مركزك ؛ فلم يقل ذلك ، ولا تحبّس ولا توقّف ، ولا تلعثم ، وذلك لعلم كلٍّ واحدٍ منهما صلّى الله عليه وآله أن أحداً لا يصبر على ثِقَلِ هذه المحنة ، ولا يتورّط هذه الهلكة ؛ إلا مَنْ خصّه الله تعالى بالصّبْر على مشقّتها ، والفوزِ بفضيلتها ، وله من جِنْس ذلك أفعالٌ كثيرة ، كيومِ دعا عمرو بن عبد ودّ المسلمين إلى المبارزة ، فأحجم النّاس كلُّهم عنه ، لما علموا من بأسه وشدّته ، ثم كرّر النداء ، فقام علىٌّ عليه السلام ، فقال : أنا أبرزُ إليه ، فقال له رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : إنّه عمرو ! قال: نعم ، وأنا علىّ ! فأمره بالخروج إليه ، فلمّا خرجَ قال صلى الله عليه وآله : « برز الإيمانُ كلّه إلى الشِّرك كله » ، وكيوم أحُد حيث حَمَى رسولُ الله صلى الله عليه وآله من أبطال قُرَيش وهم يقصدون قتله ، فقتلهم دونَه ، حتى قال جبريل عليه السلام : « يا محمّد إنّ هذه هى المواساة » ، فقال : « إنّه منى وأنا منه » ، فقال جبريل : « وأنا منكما » . ولو عددنا أيامه ومقاماته التى شَرَى فيها نفسه لله تعالى لأطلْنا وأسهبنا .

* * *

قال الجاحظ : فإن احتجّ محتجٌّ لعلىّ عليه السلام بالمبيت على الفراش ، فبيْن الغارِ والفِراش فَرْقٌ واضح ، لأنّ الغارَ وصحبةَ أبى بكر للنبىّ صلى الله عليه وآله قد نَطَق به القرآن ، فصار كالصّلاة والزّكاة وغيرهما ممّا نطق به الكتاب ، وأمْر علىّ عليه السلام ونومُه على الفراش ، وإن كان ثابتاً صحيحا ، إلّا أنه لم يذكَرْ فى القرآن ، وإنّما جاء مجىء الروايات والسِّيَر ، وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله[1] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا فرق غير مؤثّر ، لأنه قد ثبتَ بالتواتُر حديث

---

(١) العثمانية ٤٤ .

الفِراش ، فلا فرق بينه وبين ماذكر فى نصّ الكتاب ، ولا يجحَدُه إلّا مجنون أو غير مخالِطٍ لأهلِ الملّة ، أرأيت كونَ الصلواتِ خمساً ، وكون زكاة الذّهب ربعَ العشر ،وكون خروج الريح ناقضا للطهارة ، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواتُر حكمه ؟ هل هو مخالف لما نصّ فى الكتاب عليه من الأحكام ! هذا مما لا يقوله رشيد ولاعاقل ، على أن الله تعالى لم يذكر اسم أبى بكر فى الكتاب ، وإنما قال : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾[1] ، وإنما علمنا أنه أبو بكر بالخبر وما ورد فى السيرة ، وقد قال أهل التفسير : إن قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[2] كناية عن علىّ عليه السلام ، لأنه مكر بهم ، وأوّل الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[2] ، أنزلت فى ليلة الهجرة ، ومكرُهم كان توزيعَ السّيوف على بطون قريش ، ومكرُ الله تعالى وو منامُ علىّ عليه السلام على الفِراش ، فلا فرق بين الموضعين فى أنهما مذكوران كِنايةً لا تصريحاً . وقد روى المفسّرون كلُّهم أن قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾[3] ، أنزلت فى علىّ عليه السلام ليلةَ المبيت على الفِراش ، فهذه مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾، لا فرق بينهما .

***

قال الجاحظ : وفرقٌ آخر ، وهو أنه لو كان مبيتُ علىّ عليه السلام على الفِراش ، جاء مجىء كون أبى بكر فى الغار ، لم يكن له فى ذلك كبير طاعة ، لأنّ الناقلين نقلوا أنه صلّى الله عليه وآله قال له : « نَمْ فلَنْ يخلص إليك شىء تكرهه » ، ولم ينقُلْ ناقل أنه

(١) سورة التوبة ٤٠ (٢) سورة الأنفال ٣٠
(٣) سورة البقرة ٢٠٧

قال لأبى بكر فى صُحبته إياه وكونه معه فى الغار مثل ذلك ، ولا قال له: أنفِقْ وأعتِق ، فإنك لن تفتقر ، ولن يصلَ إليك مكروه[1] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا هو الكذِب الصُّراح ، والتحريف والإدخال فى الرّواية ماليس منها ، والمعروف المنقول أنه صلى الله عليه وآله قال له : اذْهَبْ فاضطجع فى مضجعى ، وتغَشَّ ببُردِى الحضرمىّ ، فإنّ القوم سيفقدوننى ، ولا يشهدون مضجعى ، فلعلّهم إذا رأوكَ يسكِنهم ذلك حتى يصبحوا ، فإذا أصبحت فاغدُ فى أداء أمانتى؛ ولم ينقل ماذكره الجاحظ ، وإنما ولّده أبو بكر الأصمّ ، وأخذه الجاحظ ، ولا أصلَ له ، ولو كان هـذا صحيحا لم يصلْ إليه منهم مكروه ، وقد وقع الاتّفاق على أنه ضُرِب ورمى بالحجارة قبل أنْ يعلموا مَنْ هو حتى تضوّر ، وأنهم قالوا له : رأينا تضوّرَك ، فإنا كنا نرمى محمدا ولا يتضوّر ، ولأن لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتْل ، فهب أنه أمِن القتل، كيف يأمن من الضّرب والهوان ، ومنْ أن ينقطع بعض أعضائه ، وبأن سلمت نفسه ! أليس الله تعالى قال لنبيّه : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[2] ومع ذلك فقد كسرت رَباعيته وشجّ وجهه ، وأدمِيت ساقه ، وذلك لأنها عصمة من القتل خاصّة ، وكذلك المكروه الذى أومن علىّ عليه السلام منه ــ وإن كان صحّ ذلك فى الحديث ــ إنما هو مكروه القتل .

ثم يقال له : وأبو بكر لا فضيلة له أيضا فى كونه فى الغار ، لأنّ النبى صلى عليه وآله قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، ومَنْ يكن الله معه فهو آمن لا محالة من كلّ سوء ، فكيف قلت : ولم ينقل ناقل أنه قال لأبى بكر فى الغار مثل ذلك ! فكلّ ما يجيب به عن هذا فهو جوابنا عمّا أورده ، فنقول له : هذا ينقلبُ عليك فى النبىّ صلى الله عليه وآله

(١) العثمانية ٤٥ (٢) سورة المائدة ٦٧

لأنَّ الله تعالى وعده بظهور دينه ، وعاقبة أمرِه ، فيجب على قولك ألّا يكونَ مثابا عند الله تعالى على مايحتمله من المكروه ، ولا مايصيبه من الأذى إذْ كان قد أيقَنَ بالسّلامة والفتح فى عِدَته .

***

قال الجاحظ : ومَنْ جحد كون أبى بكرٍ صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كَفَر ؛ لأنه جحَد نصَّ الكتاب ، ثم انظر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[1] من الفضيلة لأبى بكر ، لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وآله فى كون الله تعالى معه وإنزال السكينة ، قال كثير من الناس : إنه فى الآية مخصوص بأبى بكر ، لأنه كان محتاجا إلى السّكينة لما تداخَله من رقّة الطبع البشرى ، والنبى صلى الله عليه وآله كان غيرَ محتاجٍ إليها ، لأنه يعلم أنه محروس من الله تعالى ، فلا معنى لنزول السكينة عليه ، وهذه فضيلة ثالثة لأبى بكر .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إن أبا عثمان يجرّ عَلَى نفسه مالا طاقةَ له به من مطاعِن الشّيعة ، ولقد كان فى غُنْيةٍ عن التعلّق بما تعلّق به ، لأنّ الشيعة تزعُم أنّ هذه الآية ، بأن تكون طعناً وعيبا على أبى بكر ، أوْلى من أن تكون فضيلة ومنقبة له ، لأنه لما قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ دلّ على أنه قد كان حزن وقنِط وأشفق على نفسه ، وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين ، ولا يجوز أن يكون حزنه طاعةً ، لأنّ الله تعالى لا ينهى عن الطاعة ، فلو لم يكن ذنبا لم ينهَ عنه ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى إن الله عالم بحالنا وما نضمره من اليقين أو الشكّ ، كما يقول الرجل لصاحبه : لا تضمرنّ سوءاً ولا تنوينّ قبيحا ، فإنّ الله تعالى يعلم مانسرّه وما نعلنه ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾[2] ، أى هو عالم بهم ، وأمّا السكينة

(١) سورة التوبة ٤٠ (٢) سورة المجادلة ٧

فكيف يقول : إنها ليستْ راجعة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وبعدها قوله : ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ ، أترى المؤيَّد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله عليه وآله !

وقوله : إنّه مستغن عنها ، ليس بصحيح ولا يستغنى أحد عن ألطاف الله وتوفيقه وتأييده وتثبيت قلبه ، وقد قال الله تعالى فى قصّة حُنين : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾(١) صلى الله عليه وآله .

وأما الصّحبة فلا تدلّ إلّا على المرافقة والاصطحاب لا غير ، وقد يكون حيث لا إيمان ، كما قال تعالى : ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ﴾(٢) ، ونحن وإنْ كنّا نعتقد إخلاص أبى بكر وإيمانه الصّحيح السّليم وفضيلته التّامة ، إلّا أنّا لا نحتجّ له بمثل ما احتجّ به الجاحظ من الحجج الواهية ، ولا نتعلّق بما يجرّ علينا دواهىَ الشيعة ومطاعنها .

* * *

قال الجاحظ : وإن كان المبيتُ على الفراش فضيلة ، فأين هى من فضائل أبى بكر أيام مكة ، من عِتق المعذّبين وإنفاق المال وكثرة المستجيبين ، مع فرْق ما بين الطاعتيْن ، لأنّ طاعةَ الشابّ الغرير والحدَث الصغير الذى فى عزّ صاحبه عزّه ، ليست كطاعة الحليم الكبير الذى لا يرجع تسويدُ صاحبه إلى رهطه وعشيرته .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا كثرة المستجيبين ، فالفضل فيها راجع إلى المجيب

---

(١) سورة التوبة ٢٥ ، ٢٦ (٢) سورة الكهف ٣٤

لا إلى المجاب ، على أنّا قد علمنا أنّ من استجاب لموسى عليه السلام أكثر ممّن استجاب لنوح عليه السلام ، وثواب نوح أكثر ، لصبره على الأعداء ، ومقاساة خلافهم وعَنَتهم. وأمّا إنفاق المال ؛ فأين مِحْنَة الغنيّ من محنة الفقير ! وأين يعتدل إسلام من أسلم وهو غنيّ ؛ إن جاع أكل ، وأن أعيا ركب ، وإن عرِيَ لبس ، قد وثق بيساره واستغنى بماله ، واستعان على نوائب الدنيا بثروته ، ممّن لا يجد قوتَ يومه ، وإن وجد لم يستأثر به ، فكان الفقرُ شعاره ، وفى ذلك قيل : الفقر شعار المؤمن . وقال الله تعالى لموسى : « ياموسى إذا رأيت الفقر مقبلًا ، فقل : مرحبا بشعار الصالحين » ، وفى الحديث : « إن الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام » ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يقول : « اللهمّ احشرنى فى زمرة الفقراء » ، ولذلك أرسَل الله محمداً صلى الله عليه وآله فقيراً ، وكان بالفقر سعيداً ، فقاسى مِحْنة الفقر ومكابدة الجوع ، حتى شدّ الحجر على بطنه ، وحسبك بالفقر فضيلة فى دين الله لمن صبَر عليه ، فإنك لا تجدُ صاحبَ الدنيا يتمنّاه ، لأنه منافٍ لحال الدنيا وأهلها ، وإنما هو شعار أهل الآخرة .

وأما طاعةُ عليٍّ عليه السلام ، وكون الجاحظ زَعَم أنها كانت لأنّ فى عزّ محمد عزّه وعزّ رهطه ، بخلاف طاعة أبى بكر ، فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك ، وجهاد عُبيدة بن الحارث ، وهجرة جعفر إلى الحبشة ؛ بل لعلّ محاماة المهاجرين من قُريش على رسول الله صلى الله عليه وآله كانتْ لأنّ فى دولته دولتهم ، وفى نصرته استجدادَ ملكٍ لهم ، وهذا يجرّ إلى الإلحاد ، ويفتح باب الزندقة ، ويُفضى إلى الطعن فى الإسلام والنبوة .

* * *

قال الجاحظ : وعلى أنّا لو نزلنا إلى مايريدونه ، جعلنا الفراش كالغارِ ، وخلصت فضائل أبى بكر فى غير ذلك عن معارض .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : قد بيّنا فضيلَة المبيت على الفراش على فضيلة الصُّحبة

فى الغار ، بما هو واضح لمن أنصف ، ونزيد هاهنا تأكيدا بما لم نذكره فيما تقدّم،فنقول: إنّ فضيلة المبيت على الفراش على الصُّحبة فى الغار لوجهين :

أحدهما : أنّ علياً عليه السلام قد كان أنِس بالنبىّ صلى الله عليه وآله وحصل له بمصاحبته قديماً أنسٌ عظيم ، وإلف شديد ، فلما فارقه عُدِم ذلك الأنس ، وحصل به أبو بكر ، فكان مايجده علىٌّ عليه السلام من الوَحشة وألم الفرقة موجباً زيادة ثوابه،لأنّ الثواب على قدر المشقَّة .

وثانيهما : أنّ أبا بكر كان يؤثر الخروجَ من مكّة ، وقد كان خرج من قبل فرْدا ، فازداد كراهية للمقام ، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وافق ذلك هوى قلبه ، ومحبوبَ نفسه ، فلم يكن له من الفضِيلة مايوازى فضيلة مَن احتمل المشقّة العظيمة ، وعرّض نفسه لوقع السيوف ، ورأسه لرضْخ الحجارة ، لأنَّه على قدر سهولة العبادة يكون نقصان الثواب.

* * *

قال الجاحظ : ثمّ الذى لقى أبو بكر فى مسجده الّذى بناه على بابه فى بنى جُمَح، فقد كان بَنَى مسجدا يصلى فيه ، ويدعو النّاس إلى الإسلام ، وكان له صوْت رقيق ، ووجه عتيقٌ ، وكان إذا قرأ بكى ، فيقف عليه المارّة من الرجال والنساء والصبيان والعَبيد ،فلمّا أوذِىَ فى الله ، ومُنِـع من ذلك المسجد ، استأذَن رسولَ الله صلى الله عليه وآله فى الهجرة فأذن له ، فأقبل يريد المدينة ، فتلقَّاه الـكنانىّ [1] ،فعقد له جواراً ،وقال: والله لا أدعُ مثلك يخرج من مكة ، فرجع إليها وعاد لصنيعه فى المسجد ، فمشت قريش إلى جاره الـكنانىّ ، وأجلبوا عليه ، فقال له : دع المسجد وادخل بيتَك ،واصنع فيه مابدا لك [2] .

* * *

(١) الـكنانى ؛ هو مالك بن الدغنة ، أحد بنى الحارث بن بكر بن عبد مناة .
(٢) العثمانية ٢٨ ، ٢٩ مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : كيف كانت بنو جُمَح تؤذى عثمان بن مَظعون ونضربه ، وهو فيهم ذو سَطْوة وقَدْر ، وتترك أبا بكر يبنى مسجداً يفعل فيه ماذكرتم ، وأنتم الّذين رويتم عن ابن مسعود أنه قال : « ماصلّينا ظاهرِين حتّى أسلم عمر بن الخطاب » ، والذى تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر ، فكيف هذا !

وأما ذكرتم من رقة صوته وعتاق وجهه ، فكيف يكون ذلك وقدروى الواقدىّ وغيره أنّ عائشة رأتْ رجلا من العرب خفيفَ العارضَيْن ، معروقَ الخدّين ،غائرالعينين، أجْنأ (١) لايمسك إزاره ، فقالت : مارأيت أشبه بأبى بكر من هـذا ؟ فلا نراها دلّت على شئ من الجمال فى صفته !

* * *

قال الجاحظ : وحيث ردّ أبو بكر جوارَ الكنانىّ ، وقال : لاأريدجاراً سوى الله، لقىَ من الأذى والذلّ والاستخفاف والضّرْب مابلغكم ، وهذا موجود فى جميع السِّيَر ، وكان آخر مالقىَ هو وأهله فى أمر الغار ، وقد طلبته قريش وجعلتْ فيه مائة بعير، كما جعلت فى النبىّ صلى الله عليه وآله ، فلقى أبو جهل أسماء بنت بكر ، فسألها فكتمته ، فلطَمها حتى رَمَتْ قُرْطاً كان فى أذنها (٢) .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله :هذا الكلام وهُجْر السّكران سواء، فى تقارب المخرَج، واضطراب المعنى ، وذلك أنّ قريشا لم تقدِر على أذى النبىّ صلى الله عليه وآله، وأبو طالب حىٌّ يمنعه ؛ فلما مات طلبته لتقتله ، فخرج تارةً إلى بنى عامر، وتارة إلى ثقِيف، وتارة إلى بنى شيبان ، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكّة إلا مستتراً ، حتى أجاره مطعِم بن عدىّ، ثم خرج إلى المدينة ، فبذلتْ فيه مائة بعير لشدّة حَنَقِها عليه حين فاتها ، فلم تقدر عليه ، فما بالها بذلت فى أبى بكر مائة بعير أخرى ، وقد كان ردّ الجوار ، وبقى بينهم فرْداً لا ناصر له

---

(١) الأجنأ ، من الجنأ وهو ميل الظهر (٢) العثمانية ٢٩ ، مع تصرف واختصار .

ولادافع عنده ، يصنعون به مايريدون! إمّا أن يكونوا أجهلَ البريّة كلّها أو يكون العثمانية أكذبَ جيلٍ فى الأرض وأوقحه وجها ! فهذا مما لم يذكر فى سيرة ولا رُوِى فى أثرٍ ، ولا سمع به بَشَر ، ولا سبق الجاحظَ به أحد !

* * *

قال الجاحظ : ثمّ الذى كان من دعائه إلى الاسلام وحسن احتجاجِه ، حتى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن ، لأنه ساعة أسلَم دعا إلى الله وإلى رسوله[1] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ماأعجب هذا القول ؛ إذ تدّعى العثمانية لأبى بكر الرّفق فى الدّعاء وحسن الاحتجاج، وقد أسلم ومعه فى منزله ابنُه عبد الرحمن ،فما قدرأن يُدخله فى الإسلام طوعاً برفقه ولطف احتجاجه، ولا كُرْها بقطع النفقة عنه وإدخال المكروه عليه ، ولا كان لأبى بكر عند ابنه عبد الرحمن من القَدْر مايطيعه فيما يأمره به ، ويدعوه إليه ؛ كما روى أنّ أبا طالب فقد النبى صلى الله عليه وآله يوماً ، وكان يخاف عليه من قريش أن يغتالوه ، فخرج ومعه ابنه جعفر يطلُبان النبىّ صلى الله عليه وآله ، فوجده قائما فى بعض شِعاب مكّة يُصلّى ، وعلىٌّ عليه السلام مَعَه عن يمينه ، فلما رآهما أبو طالب، قال لجعفر : تقدّم وصِلْ جناح ابن عمّك ، فقام جعفر عن يسار محمد صلى الله عليه وآله ، فلما صاروا ثلاثة تقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله وتأخّر الأَخَوان ، فبكى أبو طالب ، وقال :

إنّ عليًّا وجعفرا ثقتى ... عند مُلِمّ الخطوب والنُّوَب[2]
لاتخذُلا وانصرا ابنَ عمّكما ... أخى لأمّى من بينهم وأبِى
والله لاأخذُلُ النّبىّ ولا ... يخذُله من بَنِىّ ذو حَسَبِ

---

(١) العثمانية ٣١ مع تصرف واختصار . (٢) ديوانه ٤٢

فتذكر الرواة أنّ جعفراً أسلم منذ ذلك اليوم؛ لأن أباه أمره بذلك وأطاع أمره؛ وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرحمن فى الإسلام حتى أقام بمكّة على كفره ثلاث عشرة سنة، وخرج يوم أُحُد فى عسكر المشركين ينادى : أنا عبد الرحمن بن عَتِيق ، هل من مبارز؟ ثم مكث بعد ذلك على كُفْره ، حتى أسلم عام الفتح ، وهو اليوم الذى دخلتْ فيه قريش فى الإسلام طوعا وكرها ، ولم يجد أحدٌ منها إلى ترك ذلك سبيلا ! وأين كان رفْق أبى بكر وحسن احتجاجه عند أبيه أبى قُحافة وهما فى دار واحدة ! هلّا رفَق به ودعاه إلى الإسلام فأسلم ! وقد علمتم أنه بقِيَ على الكُفْر إلى يوم الفتح ، فأحضره ابنهُ عند النبى صلى الله عليه وآله وهو شيخ كبير رأسه كالثُّغامة[1] ، فنفر رسول الله صلى الله عليه وآله منه، وقالَ: غيِّرُوا هذا ؛ فخضبوه ، ثم جاءوا به مرة أخرى ، فأسلم . وكان أبو قحافة فقيراً مدقِعاً سيّئ الحال ، وأبو بكر عندهم كان مثرياً فائض المال ، فلم يمكنه استمالته إلى الإسلام بالنّفقة والإحسان ، وقد كانت امرأة أبى بكر أمّ عبد الله ابنه — واسمها نَمْلة بنت عبد العُزّى بن أسعد بن عبد بن ودّ العامرية — لم تسلِم ، وأقامت على شركها بمكّة ، وهاجر أبو بكر وهى كافرة ، فلمّا نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾[2] ، فطلقها أبو بكر، فمن عجز عن ابنه وأبيه وامرأته فهو عن غيرهم من الغرباء أعجز ، ومن لم يقبل منه أبوه وابنه وامرأته لا برفق واحتجاج، ولا خوفا من قطع النفقة عنهم ، وإدخال المكروه عليهم فغيرهم أقلّ قبولا منه، وأكثر خلافا عليه !

***

قال الجاحظ : وقالت أسماء بنت أبى بكر : ماعرفتُ أبى إلّا وهو يَدِين بالدين، ولقد رجع إلينا يوم أسلَمَ ، فدعانا إلى الإسلام ، فما رِمْنا حتى أسلمْنا ، وأسلم أكثرُ جلسائه ، ولذلك قالوا : مَنْ أسلم بدعاء أبى بكر أكثرُ ممّن أسلم بالسيف ، ولم يذهبوا فى ذلك إلى العدد ؛ بل عَنَوْا الكثرة فى القَدْر ، لأنه أسلم على يديه خمسةٌ من أهل الشُّورى ،

---

(١) الثغام : كسحاب : ضرب من النبات أبيض . (٢) سورة الممتحنة ١٠

كلهم يصلُح للخلافة ، وهم أكفاء عليّ عليه السلام ، ومنازعوه الرّياسة والإمامة، فهؤلاء أكثرُ من جميع الناس[1] :

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أخبرونا مَنْ هذا الّذى أسلم ذلك اليوم من أهل بيت أبى بكر ؟ إذا كانت امرأته لم تسلِمْ وابنُه عبدالرحمن لم يسلِم ،وأبو قحافة لم يسلِم ،وأخته أمّ فَرْوة لم تسلِم ، وعائشة لم تكن قد ولدَتْ فى ذلك الوقت ،لأنها وُلدت بعد مبعث النبىّ صلى الله عليه وآله بخمس سنين، ومحمد بن أبى بكر ولِدَ بعد مَبْعَث رسول الله صلّى الله عليه وآله بثلاث وعشرين سنة ، لأنه ولد فى حَجّة الوداع ، وأسماء بنت أبى بكر الّتى قد رَوى الجاحظ هذا الخبر عنها كانت يوم بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله بنتَ أربع سنين- وفى رواية مَنْ يقول : بنت سنتين - فمن الذى أسلم من أهل بيته يوم أسلَمَ ! نعوذ بالله من الجهل والكذب والمكابرة ! وكيف أسلَمَ سَعْدٌ والزُّبير وعبد الرحمن بدعاء أبى بكر وليسوا من رهطه ولا من أترَابِه ولا من جُلَسائه ،ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدّمة ،ولا أنس وَكِيد ! وكيف ترك أبو بكر عُتْبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، لم يدخلهما فى الإسلام برفقه وحسن دعائه ، وقد زعمتم أنهما كانا يجلسان إليه لعلمه وطريف حديثه ! وما باله لم يدخل جبير بن مطعِم فى الإسلام ، وقد ذكرتم أنه أدّبه وخرّجه ، ومنه أخذ جُبَير العلم بأنساب قريش ومآثرها ! فكيف عَجَز عن هؤلاء الذين عَدَدْناهم ، وهم منه بالحال التى وصفنا ، ودعا من لم يكن بينه وبينه أُنْس ولا معرفة ، إلا معرفة عيان ! وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب ، وقد كان شكلَه ، وأقربَ النّاس شبهاً به فى أغلب أخلاقه ! ولئن رجعتم إلى الإنصاف لتعلمنّ أنّ هؤلاء لم يكن إسلامُهم إلّا بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله لهم، وعلى يديه أسلموا ، ولو فكرتم فى حسن التأتّى فى الدعاء ؛ ليصحّنّ لأبى طالب فى ذلك

---

(١) العثمانية ٣١ ـ ٣٢ ، مع تصرف واختصار .

على شِرْكه أضعاف ماذكرتموه لأبى بكر ، لأنكم رويتم أن أبا طالب قال لعلىٍّ عليه السلام : يابنىَّ الزمْه ، فإنه لن يدعوكَ إلا إلى خير ، وقال لجعفر : صِلْ جناحَ ابن عمِّك، فأسلم بقوله ، ولأجله أصفق بنو عبد مناف على نُصرة رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة من بنى مخزوم ، وبنى سَهْم ، وبنى جُمَح ، ولأجله صَبَرَ بنو هاشم على الحصار فى الشِّعب ، وبدعائه وإقباله عَلَى محمد صلى الله عليه وآله أسلمت امرأتُه فاطمة بنت أسَد ، فهو أحسن رِفقًا ، وأيمن نَقيبَةً من أبى بكر وغيره ، وإنما منعه عن الإسلام أنْ ثبت أنه لم يسلِم إلا تقيَّة ، وأبو بكر لم يكن له إلا ابنٌ واحد ، وهو عبد الرحمن ، فلم يمكنهأن يدخله فى الإسلام ، ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يجعله كبعض مشركى قريش فى قلة الأذى لرسول الله صلى الله عليهوآله ، وفيه أنزل : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَاهَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١) ، وإنما يعرف حسن رِفْق الرجل وتأتّيه بأن يصلح أوّلا أمرَ بيته وأهله ، ثم يدعو الأقرب فالأقرب ، فإنّ رسول اللهصلى اللهعليه وآله لمّا بُعث كان أوّل مَنْ دعا زوجته خديجة ، ثم مكفوله وابن عمّه عليا عليه السلام ، ثم مولاه زيدا ، ثم أمّ أيمن خادمته ؛ فهل رأيتم أحداً ممّن كان يأوى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله لم يسارعْ ! وهل التاثعليه أحدمن هؤلاء !فهكذا يكون حسن التأتِّى والرّفق فى الدّعاء ! هذا ورسول الله مُقِلٌّ ، وهو من جمْلة عيال خديجة حينَ بعثه الله تعالى،وأبو بكر عندكم كان مُوسِراً ، وكان أبوه مقترا ، وكذلك ابنه وامرأته أمّ عبدالله ، والموسر فى فِطْرة العقول أولى أن يتبع من المقتّر، وإنما حُسْن التأتّى والرّفق فى الدّعاء ماصنعه مُصْعب بن عمير لسعد بن مُعاذ لما دعاه ، وما صنع سعد بن مُعاذ ببِنى عبد الأشهل لمادعاهم وما صنع بُريدة بن الحصيب بأسلم لمّا دعاهم ، قالوا : أسلم بدعائه ثمانون بيتاً من قومه ،

(١) سورة الأحقاف ١٧

وأسلم بنو عبدالأشهل بدعاء سَعْدٍ فى يوم واحد،وأمّا من لم يسلم ابنه ولا امرأته،ولا أبوه ولا أختُه بدعائه فهيهات أن يوصفَ ويذكر بالرفق فى الدعاء وحسن التأنّى والأناة !

قال الجاحظ : ثم أعتق أبو بكرٍ بعد ذلك جماعةً من المعذّبين فى الله ، وهم ستّ رقاب، منهم بلال، وعامر بن فُهيرة، وزِنّيرة النَّهْدية ، وابنتها . ومرّ بجارية يعذّبها عمر بن الخطاب فابتاعها منه ، وأعتقها،وأعتق أبا عيسى فأنزل الله فيه:﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ... ﴾ (١) ، إلى آخر السورة .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا بلال وعامر بن فُهيرة ، فإنّما أعتقهما رسول الله صلى الله عليه وآله ، روى ذلك الواقدىّ وابن إسحاق وغيرهما،وأمّا باقى مواليهم الأربعة، فإن سامحناكم فى دعواكم لم يبلغ ثمنهم فى تلك الحال لشدّة بغض مواليهم لهم إلا مائة درهم أو نحوها،فأىّ فخرٍ فى هذا ! وأما الآية فإنّ ابن عباس قال فى تفسيرها:﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ ، أى لأن يعود .

وقال غيرُه : نزلت فى مُصْعَب بن عمير .

***

قال الجاحظ : وقد علمتم ماصنعَ أبو بكر فى مالِه،وكان ماله أربعين ألف درهم؛فأنفقه فى نوائبِ الإسلام وحقوقه ، ولم يكن خفيفَ الظَّهر ، قليل العيال والنَّسْل ، فيكون فاقد جميع اليسارَيْن ، بل كان ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم ، ويعول والديه وماولدا، ولم يكن النبىّ صلى الله عليه وآله قبل ذلك عنده مشهورا،فيخاف العارَ فى ترك مواساته، فكان إنفاقه على الوجْه الذى لا نجد فى غاية الفضل مثلَه ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وآله : « مانفعنى مالٌ كما نفعنى مال أبى بكر » .

---

(١) سورة الليل ٥

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله ، أخبرونا على أيّ نوائب الإسلام أنفق هذا المال ، وفى أى وجه وضعه ؟ فإنه ليس بجائز أن يخفى ذلك ويدرُس حتى يفوتَ حِفظه ، وينسى ذكره ، وأنتم فلم تقفوا على شيء أكثر من عِتقه بزعمكم ستّ رقاب لعلها لا يبلغ ثمنها فى ذلك العصر مائة درهم . وكيف يدّعى له الإنفاق الجليل ، وقد باع من رسول الله صلى الله عليه وآله بعيرين عند خروجه إلى يثرب ، وأخذ منه الثمن فى مثل تلك الحال،وروى ذلك جميع المحدّثين ، وقد رويتم أيضا أنه كان حيث كان بالمدينة غنيًّا موسرا ، ورويتم عن عائشة أنّها قالت : هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم ، وقلتم إن الله تعالى أنزل فيه : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى... ﴾[1] ، قلتم : هى فى أبى بكر ومِسْطح بن أثاثة ، فأين الفقر الذى زعمتم أنه أنفق حتى تخلل بالعباءة! ورويتم أنّ لله تعالى فى سمائه ملائكةً قد تخلّلوا بالعَباءة . وأنّ النبى صلى الله عليه وآله رآهم ليلة الإسراء ، فسأل جبرائيل عنهم فقال : هؤلاء ملائكة تأسّوْا بأبى بكر بن أبى قُحافة صديقك فى الأرض ، فإنه سينفق عليك ماله ، حتى يخلّل عباءه فى عنقه ، وأنتم أيضا رويتم أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى،فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ... ﴾[2] ، الآية لم يعمل بها إلّا علىّ ابن أبى طالب وحدَه ، مع إقراركم بفقره وقلّة ذات يده ، وأبو بكر فى الحال التى ذكرنا من السّعة أمسك عن مناجاته،فعاتب الله المؤمنين فى ذلك ، فقال : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ... ﴾ ، فجعله سبحانه ذنبا يتوب عليهم منه ، وهو إمساكهم عن تقديم الصّدقة،فكيف سخَتْ نفسُه بإنفاق أربعين ألفا ، وأمسك عن مُناجاة الرّسول ، وإنما كان يحتاج فيها إلى إخراج درهمين!

وأما ماذُكر من كثرة عياله ونفقته عليهم ، فليس فى ذلك دليل على تفضيله ، لأنّ

---

(١) سورة النور ٢٢ (٢) سورة المجادلة ١٢

نفقته على عياله واجبة ، مع أن أرباب السِّيرة ذكروا أنّه لم يكن ينفِقُ على أبيه شيئا، وأنه كان أجيراً لابن جُدْعان على مائدته يطرد عنها الذّبان .

***

قال الجاحظ : وقد تعلمون ما كان يلقى أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ببطْن مكّة من المشركين ، وحسن صنيع كثيرٍ منهم ؛ كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسِه ففلقَ هامَته، وأبو جهل يومئذ سيّد البطحاء ورئيس الـكُفْر ، وأمنع أهل مكة ، وقد عرفتم أنّ الزُّبير سلّ سيفَه، واستقبل به المشركين ، لمّا أرجِفَ أنّ محمدا صلى الله عليه وآله قد قتِل، وأن عمر بن الخطاب قال حين أسلم : لا يُعبَد الله سرًّا بعد اليوم، وأنّ سعدا ضرب بعض المشركين بلحْى جمل ، فأراق دمَه ، فـكلُّ هذه الفضائل لم يكن لعليّ بن أبي طالب فيها ناقة ولا جمل ، وقد قال الله تعالى:﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ (١) ؛ فإذا كان الله تعالى قد فضَّل مَنْ أنفق قبل الفتح ، لأنه لا هجرة بعد الفتح ، على مَنْ أنفق بعد الفتح ، فما ظنُّكم بمَنْ أنفق من قبل الهجرة ، ومن لَدُنْ مَبعَث النّبي صلى الله عليه وآله إلى الهجرة وإلى بعد الهجرة (٢) .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إنّنا لا ننـكِرُ فَضْلَ الصَّحابة وسوابقَهم ، ولسنا كالإماميّة الذين يحملهم الهوى على جَحْد الأمور المعلومة ، ولـكنّنا ننكر تفضِيلَ أحدٍ من الصَّحابة على عليّ بن أبى طالب ، ولسنا ننـكِرُ غير ذلك ، وننـكر تعصُّب الجاحظ للعثمانيّة ، وقصدَه إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالردّ والإبطال . وأمّا حَمْزة فهو عندنا ذو فضلٍ عظيم ، ومقامٍ جليلٍ ، وهو سيّد الشهداء الذين استشهدوا على عهدِ رسول الله

---

(١) سورة الحديد ٢٠

(٢) العثمانية ٣٧ ، مع تصرف واختصار

صلى الله عليه وآله ، وأمّا فضل عُمر فغيرُ منكر، وكذلك الزُّبير وسعد ، وليس فيما ذكر مايقتضي كونَ عليٍّ عليه السلام مفضولًا لهم أو لغيرهم، إلا قوله: « وكلّ هذه الفضائل لم يكن لعليّ عليه السلام فيها ناقةٌ ولا جَمل » ، فإنّ هذا من التعصّب البارد ، والحَيْف الفاحش، وقد قدّمنا من آثار عليّ عليه السلام قَبْل الهجرة وماله إذ ذاك من المناقب والخصائص ، ماهو أفضلُ وأعظم وأشرف من جميع ماذكر لهؤلاء ، على أنّ أرباب السِّيرة يقولون: إنّ الشَّجّة التي شُجَّها سعد ، وإنّ السيف الذى سلّه الزبير، هو الذى جلب الحِصَار فى الشِّعب على النبيّ صلى الله عليه وآله وبنى هاشم، وهو الذى سَيَّر جعفراً وأصحابه إلى الحبشة، وسلُّ السيف فى الوقت الذى لم يؤمر المسلمون فيه بسلّ السيف غير جائز ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللهِ ﴾[1]، فتبيّن أنّ التكليف له أوقات، فمنها وقت لا يصلح فيه سلّ السّيف ، ومنها وقت يصلُح فيه ويجب ، فأما قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ ﴾ ، فقد ذكرنا ماعندنا من دعواهم لأبى بكر إنفاقَ المال. وأيضا فإنّ الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفردا ، وإنّما قرن به القتال ، ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحَرْب ، فلا تشمله الآية ، وكان عليٌّ عليه السلام صاحبَ قتال وإنفاق قبل الفَتح، أما قتاله فمعلومٌ بالضرورة، وأمّا إنفاقه فقد كان على حَسَب حاله وفقره ، وهو الذى أطعم الطعام على حبّه مسكينا ويتيما وأسيرا، وأنزلت فيه وفى زوجته وابنيه سورةٌ[2] كاملة من القرآن ، وهو الّذى ملك أربعة دراهم فأخرج منها دِرْهماً سرًّا ودرهما علانية ليلا ، ثم أخرج منها فى النهار درهما سرا ودرهما علانية، فأنزل فيه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾[3] ، وهو الذى قدم بين يدى نجواه صدقة

---

(١) سورة النساء ٧٧

(٢) زعم بعض غلاة الشيعة ، أنه أنزلت فيهم سورة مختلفة، وانظر فصل الخطاب لحسين بن محمد الطبرسى ١٥٦ ، وحواشى ملحق العثمانية ٣١٩ .

(٣) سورة البقرة ٢٤٧

دون المسلمين كافة ، وهو الذى تصدق بخاتمه وهو راكع ، فأنزل الله فيه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (١) .

* * *

قال الجاحظ : والحجّة العظمى للقائلين بتفضيل علىٍّ عليه السلام قتلُه الأقران ، وخوضُه الحربَ ، وليس له فى ذلك كبير فضيلة ؛ لأنّ كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران ، لو كان من أشدّ المحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدّم ، لوجب أن يكون للزّبير وأبى دُجَانة ومحمّد بن مسلمة ، وابن عَفْراء ، والبَرَاء بن مالك من الفَضْل ماليس لرسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحدا ولم يحضر الحرب يوم بدر ، ولا خالط الصفوف . وإنما كان معتزلا عنهم فى العريش ومعه أبو بكر ، وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الأقران ، ويجندِل الأبطال ، وفوقه من العسكر مَنْ لا يقتل ولا يبارز ، وهو الرئيس أو ذو الرأى ، والمستشير فى الحرب ، لأنّ للرّؤساء من الاكتراث والاهتمام وشَغْل البال والعناية والتفقّد ماليس لغيرهم ، ولأنّ الرئيس هو المخصوص بالمطالبة ، وعليه مدارُ الأمور ، وبه يستبصر المقاتل ، ويستنصر ، وباسمه ينهزم العدوّ ، ولو لم يكن له إلا أنّ الجيش لو ثبت وفرّ هُو لم يغن ثبوت الجيش كلّه ، وكانت الدَّبْرة عليه ، ولو ضيّع القوم جميعا وحفظ هو لانتصر وكانت الدولة له ، ولهذا لا يضافُ النّصر والهزيمة إلّا إليه ، ففضل أبى بكر بمقامه فى العريش مع رسول الله يوم بدر أعظمُ من جهاد علىٍّ عليه السلام ذلك اليوم ، وقتله أبطال قريش .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : لقد أُعطِى أبو عثمان مقوَلا ، وحُرِم معقولا ، إن كان

(١) سورة المائدة ٥٥

يقول هذا على اعتقاد وجدّ ، ولم يذهب به مذهب اللّعب والهزل ، أو على طريق التّفاصح والتّشادق وإظهار القوّة ، والسلاطة وذلاقة اللسان وحدّة الخاطر والقوّة على جِدال الخصوم؛ ألم يعلم أبو عثمان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كانَ أشجَع البَشر ، وأنّه خاضَ الحرُوب ، وثبت فى المواقف التى طاشتْ فيها الألباب ، وبلغت القلوب الحناجر ؛ فمنها يوم أُحُد ، ووقوفه بعد أن فرّ المسلمون بأجمعهم ، ولم يبق معه إلا أربعة : علىّ ، والزُّبير ، وطلْحة ، وأبو دُجانة ، فقاتل ورمى بالنّبْل حتى فَنِيَتْ نبلُه ، وانكسرت سِيَةُ قوسِه ، وانقطع وَتَرُه ، فأمر عُكّاشة بن مِحْصن أن يوتِرَها ، فقال : يارسول الله : لايبلغ الوتَر ، فقال : أوتِر مابلغ . قال عكاشة : فوالذى بعثه بالحقّ لقد أوترت حتى بلغ ، وطويت منه شبراً على سِيَة القوس ، ثم أخذها فما زال يرميهم ، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطّمت. وبارز أُبىّ بن خلف ، فقال له أصحابُه : إن شئتَ عطف عليه بعضُنا ! فأبى ، وتناولَ الحربة من الحارث بن الصِّمّة ثم انتقضَ بأصحابه ، كما ينتقِض البعير ، قالوا : فتطايرْنا عنه تطايُرَ الشَّعارير(١) ، فطعنه بالحرْبة ، فجعل يخورُ كما يخور الثور ، ولو لم يدلّ على ثباتِه حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾(٢) ، فكونُه عليه السلام فى أُخراهم وهم يصعدون ولايلوون ، هاربين ؛ دليل على أنّه ثبت ولم يفرّ ، وثبت يوم حُنَين فى تسعة من أهلِه ورهطه الأدنَيْن ، وقد فرّ المسلمون كلُّهم والنّفر التّسعة محدقون به : العباس آخذ بحَكَمة بغلتِه ، وعلىّ بين يديه مصلِت سيفه ، والباقون حول بغلة رسول صلى الله عليه وآله يَمْنَةً ويَسْرة ، وقد انهزم المهاجرون والأنصار ، وكلّما فرّوا أقدم هُو صلى الله عليه وآله وصمّم مستقدماً ، يلْقىَ السيوف والنّبال بنحرِه وصدره ، ثم أخذ كفاً من

---

(١) الشعارير : مايجتمع على دبرة البعير من الذبان ، فإذا هيجت تطايرت عنها .

(٢) سورة آل عمران ١٥١

البَطْحاء ، وحَصبَ المشركين ، وقال : شاهت الوجوه ! والخبر المشهور عن علىّ عليه السلام ، وهو أشجع البَشَر : « كنّا إذا اشتد البأس ، وحَمِى الوطيسُ اتّقينا برسول الله صلى الله عليه وآله ولُذْنا به » ، فكيف يقول الجاحظ : إنه ماخاضَ الحرْب ، ولاخالطَ الصُّفوف ! وأىّ فِرْية أعظمُ من فِرْية مَنْ نسب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإحجام واعتزال الحرب ! ثم أىّ مناسبة بين أبى بكر ورسول الله صلى الله عليه وآله فى هذا المعنى ليقيسه وينسُبَه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب الجيش والدعوة ، ورئيس الإسلام والملّة ، والملحوظ بين أصحابه وأعدائه بالسِّيادة ، وإليه الإيماء والإشارة ، وهو الذى أحنق قريشاً والعرب ، وورى أكبادهم بالبراءة من آلهتهم ، وعيب دينهم وتضليل أسلافهم ، ثم وترهم فيما بعدُ بقتل رؤسائهم وأكابرهم ! وحقّ لمثله إذا تنحّى عن الحرب واعتزلها أن يتنحّى ويعتزل ، لأنّ ذلك شأن الملوك والرؤساء ، إذا كان الجيش منوطاً بهم وببقائهم ، فمتى هلك الملك هلك الجيش ، ومتى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكُه ، وإن عطِب جيشُه فإنه يستجدّ جيشا آخر ؛ ولذلك نهى الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه ، وخطّئوا الإسكندر لما بارز فوسرا ملك الهند ، ونسبوه إلى مجانبة الحِكْمة ومفارقة الصواب والحزْم ، فليقلْ لنا الجاحظ : أىُّ مدخل لأبى بكر فى هذا المعنى ؟ ومَن الذى كان يعرفه من أعداء الإسلام ليقصده بالقتل ؟ وهل هو إلا واحدٌ من عُرْض المهاجرين ، حُكْمه حكم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، وغيرهما ! بل كان عثمانُ أكثر منه صيتاً ، وأشرفَ منه مركباً ، والعيون إليه أطمح ، والعدوّ إليه أحنق وأكلب ؛ ولو قتل أبو بكر فى بعض تلك المعارك ، هَلْ كان يؤثر قتله فى الإسلام ضَعْفاً ، أو يحدث فيه وهْنا ! أو يخاف على الملّة لو قتل أبو بكر فى بعض تلك الحروب أن تندرس وتعفَّى آثارُها ، وينطمس منارها ! ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكمه حكم رسول الله صلى الله عليه وآله فى مجانبة الحروب واعتزالها ، نعوذ بالله من الخذلان ! وقد علم العقلاء كلّهم ممن له

بالسِّيَر معرفة ، وبالآثار والأخبار ممارسة ، حال حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كيف كانت ، وحاله عليه السلام فيها كيف كان ، ووقوفه حيث وقف ، وحربه حيث حارب ، وجلوسه فى العريش يوم جَلَس ، وإنّ وقوفه صلى الله عليه وآله وقوف رياسة وتدبير ، ووقوف ظهر وسَنَد ؛ يتعرّف أمور أصحابه ، ويحرس صغيرَهم وكبيرهم بوقوفه من ورائهم ، وتخلّفه عن التقدّم فى أوائلهم ، لأنهم متى علموا أنه فى أخراهم اطمأنّتْ قلوبهم ، ولم تتعلق بأمره نفوسهم ، فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوّهم ، ولا يكون لهم فئة يلجئون إليها ، وظَهْر يرجعون إليه ، ويعلمون أنه متى كان خلْفهم تفقّد أمورهم ، وعلم مواقفهم ، وآوى كلّ إنسان مكانه فى الحماية والنكاية وعند المنازلة فى الكرّ والحملة ، فكان وقوفُه حيث وقف أصلحَ لأمرهم ، وأحمى وأحرس لبَيْضتهم ؛ ولأنه المطلوب من بينهم ؛ إذ هو مدبّر أمورهم ، ووالى جماعتهم ؛ ألا ترَوْن أنّ موقف صاحب اللّواء موقف شريفٌ ، وأنّ صلاح الحرب فى وقوفه ، وأن فضيلته فى ترك التقدّم فى أكثر حالاته ؛ فللرئيس حالات :

الأولى : حالة يتخلّف ويقف آخرا ليكون سنداً وقوّة ، ورِدْءاً وعدّة ، وَليتولّى تدبير الحرب ، ويعرف مواضع الخلل .

والحالة الثانية : يتقدّم فيها فى وسط الصفّ ليقوى الضعيف ، ويشجّع الناكص[1] .

وحالة ثالثة : وهى إذا اصطدم الفَيْلقان ، وتكافحَ السَّيْفان ، اعتمد ماتقتضيه الحال من الوقوف حيث يستصلح ، أو من مباشرة الحرب بنفسه ، فإنها آخر المنازل ، وفيها تظهر شجاعة الشُّجَاع النَّجْد ، وفَسَالَة الجبان المموّه .

فأين مقام الرّئاسة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وآله ! وأين منزلة أبى بكر ليسوّى بين المنزلتين ، ويناسب بين الحالتَيْن !

ولو كان أبو بكر شريكا لرسول الله صلى الله عليه وآله فى الرّسالة ، وممنوحا من الله

---

(١) ب : « الناكس » .

بفضيلة النبوّة ، وكانت قُريش والعرب تطلبه كما تطلب محمداً صلى الله عليه وآله ، وكان يدبّر من أمرِ الإسلام وتَسْريب العساكر وتجهيز السّرَايا ، وقتل الأعداء ، مايدبّره محمد صلى الله عليه وآله ، لكان للجاحظ أن يقول ذلك ، فأمّا وحالُه حاله ، وهو أضعف المسلمين جنانا ، وأقلّهم عند العرب ترةً ، لم يَرْمِ قطُّ بسهمٍ ، ولا سلّ سيفا ، ولا أراق دما ؛ وهو أحد الأتباع ، غير مشهور ولا معروف ، ولا طالب ولا مطلوب ؛ فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومنزلته مقام رسول الله صلى الله عليه وآله ومنزلته ! ولقد خرج ابنهُ عبدُ الرحمن مع المشركين يوم أحُد فرآه أبو بكرٍ ؛ فقام مغيظاً عليه ، فسلّ من السّيْف مقدار أصبع ؛ يريد البُروز إليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « ياأبا بكر ، شِمْ سيفكَ[1] وأمْتِعْنا بنفسك » ، ولم يقل له : « وأمتعنا بنفسك » إلّا لعلمه بأنّه ليس أهلًا للحرب وملاقاة الرجال، وأنّه لو بارز لقُتل .

وكيف يقول الجاحظ : لافضيلة لمباشرة الحرب ، ولقاء الأقران ، وقتْلِ أبطال الشرك! وهل قامت عُمُد الإسلام إلّا على ذلك ! وهل ثبت الدِّينُ واستقرّ إلا بذلك ! أتراه لم يسمع قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[2] ! والمحبّة من الله تعالى هى إرادة الثواب ؛ فكلُّ مَنْ كان أشدّ ثبوتا فى هذا الصفّ ، وأعظم قتالًا ، كان أحبّ إلى الله ؛ ومعنى الأفضل هو الأكثر ثوابا ، فعليٌّ عليه السلام إذاً هو أحبُّ المسلمين إلى الله ، لأنه أثبتُهم قدماً فى الصفّ المرصوص ، لم يفرّ قطُّ بإجماع الأمّة ، ولا بارزه قرْن إلا قتله .

أتراه لم يسمع قول الله تعالى : ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[3] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ

---

(١) شم سيفك ، أى أغمده ؛ وهو من الأضداد .
(٢) سورة الصف ٤ . (٣) سورة النساء ٩٥ .

فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾[١]، ثم قال سبحانه مؤكِّدا لهذا البيع والشراء : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[١]، وقال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾[٢].

فمواقف النَّاس فى الجهاد على أحوال ؛ وبعضهم فى ذلك أفضلُ من بعض ؛ فمن دَلَفَ إلى الأقران ، واستقبل السُّيُوف والأسنّة ؛ كان أثقلَ على أكتاف الأعداء ،لشدّة نِكايته فيهم ، ممّن وقف فى المعركة ، وأعان ولم يُقْدِم ، وكذلك مَنْ وقف فى المعركة ، وأعان ولم يُقدِم ؛ إلاّ أنه بحيث تناله السهام والنّبل أعظم غناء ، وأفضل ممن وقف حيث لايناله ذلك ، ولو كان الضَّعيف والجبان يستحقَّان الرياسة بقلّة بَسْط الكفّ وترك الحرب ؛ وأنّ ذلك يشاكل فِعْلَ النبىّ صلى الله عليه وآله ، لكان أوفرَ النّاس حظّاً فى الرياسة ، وأشدّهم لها استحقاقا حسّان بن ثابت ، وإن بطَل فضلُ علىّ عليه السلام فى الجهاد ؛ لأنّ النبىّ صلى الله عليه وآله كان أقلّهم قتالا ، كما زعم الجاحظُ ليبطلنّ على هذا القياس فضلُ أبى بكر فى الإنفاق ، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أقلّهم مالا !

وأنت إذا تأمّلتَ أمرَ العرب وقريش ، ونظرت السِّيَر ، وقرأت الأخبار ، عرفت أنها كانت تطلب محمّداً صلى الله عليه وآله وتقصِدُ قَصْده ، وترُوم قتلَه ، فإن أعجزها وفاتها طلبتْ عليًّا عليه السلام ، وأرادت قتله ، لأنّه كان أشبَههم بالرّسول حالاً ، وأقربهم منه قربا ، وأشدّهم عنه دفعا ، وأنهم متى قصدُوا عليًّا فقتلوه أضعفوا أمرَ محمّد صلى الله عليه وآله وكسروا شوكته ، إذْ كان أعلى مَنْ ينصرُه فى البأس والقوّة والشجاعة

---

(١) سورة التوبة ١١١ . (٢) سورة التوبة ١٢٠ .

والنّجـدة والإقدام والبسالة . ألا ترى إلى قول عُتْبة بن ربيعة يوم بدر ، وقد خرج هو وأخوه شَيْبه وابنه الوليد بن عتبة ، فأخرج إليه الرّسولُ نفراً من الأنصار ، فاستنسبوهم فانتسبوا لهم ، فقالوا : ارجعوا إلى قومكم ثم نادوا : يامحمّدأخرِجْ إلينا أكفاءنامن قومِنا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله لأهله الأدنين : قومُوا يابنِي هاشم ، فانصرُواحقّكم الذى آتاكم الله على باطل هؤلاء ، قُمْ ياعليّ ، قم ياحمزة ، قمْ ياعبيدة ، ألَا ترى ماجعلتْ هند بنت عتبة لمن قتله يوم أحد ؛ لأنه اشترك هو وحمزة فى قتل أبيها يوم بدر ؛ ألم تسمع قولَ هند ترثى أهلها :

مَا كَانَ عَنْ عُتْبةَ لِي مِنْ صَبْرِ أَبِي وعمّى وشقِيق صَدْرِى
أخِي الذى كان كضوء البَـدْرِ بهمْ كسرتَ ياعليّ ظهْرِى

وذلك لأنه قتل أخاها الوليد بن عُتبة ، وشركَ فى قتل أبيها عتْبة ، وأمّاعمّها شيبة ، فإن حمزة تفرّد بقتله .

وقال جُبير بن مطعِم لوحشيّ مولاه يوم أحُد : إن قتلْت محمّداً فأنت حرٌّ ، وإن قتلت عليًا فأنت حُرّ وإن قتلت حمزة فأنت حرّ ، فقال : أمّا محمد فسيمنعه أصحـابه ، وأما عليٌّ فرجلٌ حذِر كثير الالتفات فى الحرب ، ولـكنّى سأقتل حمزة ، فقعدله وَزَرقه بالحرْبة فقتله .

ولـما قلنا من مقاربة حال عليّ عليه السلام فى هذا الباب لحالِ رسول الله صـلّى الله عليه وآله ومُناسبتها إيّاها ماوجدناه فى السِّيَر والأخبار ، من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وآله وحذرِه عليه ، ودعائه له بالحفظ والسلامة ، قال صلى الله عليه وآله يوم الخندق ، وقد برز عليّ إلى عمرو ، ورفع يديه إلى السماء بمحضرمن أصحابه : «اللهمّ إنك أخذتَ منّى

حمزة يوم أحُد ، وعُبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليوم عليَّ علياً : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الوارِثِينَ ﴾ [١] ، ولذلك ضنّ به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو الناس إلى نفسه مرارا ، فى كلها يحجمون ويُقدِم عليّ ، فيسأل الإذنَ له فى البِراز حتّى قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّه عمرو ! » ، فقال : « وأنا عليّ » ، فأدناه وقبّله وعمّمه بعمامته ، وخرج معه خطواتٍ كالمودّع له ، القلِق لحاله ، المنتظر لما يكون منه ، ثم لم يزل صلّى الله عليه وآله رافعا يديْه إلى السّماء ، مستقبلًا لها بوجهه ، والمسلمون صُموتٌ حوله ؛ كأنّما على رءوسهم الطّير ، حتى ثارت الغَبَرة ، وسمعوا التّكبير من تحتها ، فعلموا أنّ عليا قتل عمراً ، فكبّر رسولُ الله صلى الله عليه وآله وكبّر المسلمون تكبيرةً سمعها مَنْ وراء الخندق من عساكر المشركين ، ولذلك قال حُذَيفة بن اليمان : لو قُسمت فضيلة عليّ عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بَيْن المسلمين بأجمعهم لوسعتهم . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ ؛ قال : بعليّ بن أبى طالب [٢] .

***

قال الجاحظ : عَلَى أنّ مشيَ الشّجاع بالسيف إلى الأقران ، ليس على ما توهّمه من لا يعلم باطن الأمر ، لأنّ معه فى حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى لا يبصرُها النّاس ، وإنّما يقضون على ظاهر ما يروْن من إقدامه وشجاعته ، فربّما كان سبب ذلك الهوَج ، وربما كان الغرارةَ والحداثة ، وربّما كان الإحراج والحميّة ، وربما كان لمحبّة النفخ والأحدوثة ، وربما كان طباعا كطباع القاسى والرحيم والسخىّ والبخيل [٣] .

***

---

(١) سورة الأنبياء ٨٩ . (٢) سورة الأحزاب ٢٥ .

(٣) العثمانية ٤٧ ، مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : فيقال للجاحظ : فعلى أيِّها كان مشى علىّ بن أبى طالب إلى الأقران بالسيف ؟ فأيّما قات من ذلك بانت عداوتُك لله تعالى ولرسوله ، وإن كان مشيُه ليس على وجهٍ مما ذكرت ، وإنّما كان على وجه النُّصرة والقَصْد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة ، والجهاد فى سبيل الله ، وإعزاز الدّين ، كنتَ بجميع ماقلت معانداً ، وعن سبيل الإنصاف خارجا ، وفى إمام المسلمين طاعناً ، وإن تطرّق مثلُ هذا الوهم على علىّ عليه السلام ليَتطرّقنّ مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال ، الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وآله بأنفسِهم ووقوْه بمُهَجِهِم ، وفدوْه بأبنائهم وآبائهم ، فلعلّ ذلك كان لعلّة من العلل المذكورة ، وفى ذلك الطّعْنُ فى الدين ، وفى جماعة المسلمين .

وَلو جاز أن يتوهّم هذا فى علىّ عليه السلام وفى غيره ، لما قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله حكاية عن الله تعالى لأهل بدر : « اُعْمَلُوا مَاشِئْتم فَقَدْ غفرتُ لَكُمْ » ، ولا قال لعلىٍّ عليه السلام : « برز الإيمان كلّه إلى الشرك كله » ، ولا قال : « أوجَب طلحة »(١) .

وقد علمنا ضرورةً من دين الرسول صل الله عليه وآله تعظيمه لعلىّ عليه السلام تعظماً دينيا ، لأجل جهاده ونُصرته ، فالطاعن فيه طاعن فى رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إذ زعم أنه قد يمكن أن يكونَ جهاده لا لوجه الله تعالى ؛ بل لأمر آخر من الأمور التى عدّدها ، وبعثه على التفوّه بها إغواء الشيطان وكيدُه ، والإفراط فى عَدَاوَة مَن أمر الله بمحبّته ، وَنهى عن بغضه وَعداوَته .

---

(١) أوجب طلحة ، أى عمل عملا يدخله الجنة .

أترى رسول الله صلى الله عليه وآله خفِيَ عليه من أمر عليٍّ عليه السلام مالاح للجاحظ والعثمانيّة ، فمدحه وهو غير مستحقٍّ للمدح !

***

قال الجاحظ : فصاحبُ النفس المختارة المعتدلة يكون قتالُه طاعة ، وفراره معصية ، لأنّ نفسه معتدِلة ، كالميزان فى استقامة لسانه وكِفّتيْه ، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامُه طباعاً ، وفراره طباعا[1] .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : فيقال له : فلعلّ إنفاق أبى بكر على ماتزعم أربعينَ ألف درهم لا ثوابَ له ، لأنّ نفسَه ربّما تكون غير معتدلة ، لأنه يكون مطبوعا على الجود والسَّخاء ، ولعلّ خروجه مع النبى صلى الله عليه وآله يوم الهجْرة إلى الغار لا ثوابَ له فيه ، لأن أسبابه كانتْ له مهيّجة ، ودواعيه غالبة ، محبّة الخروج ، وبغض المقام ؛ ولعلّ رسول الله صلى الله عليه وآله فى دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصّلَوات الخمس فى جوف الليل ، وتدبيره أمرَ الأمّة لا ثواب له فيه ، لأنه قد تكون نفسه غير معتدلة ، بل يكون فى طباعه الرياسة وحبّها ، والعبادة والالتذاذ بها ، ولقد كنّا نعجَب من مذهب أبى عثمان أنّ المعارف ضرورة ، وأنّها تقعُ طباعاً ؛ وفى قوله بالتولّد وحركة الحجْر بالطَّبْع ! حتى رأينا من قوله ماهو أعجب منه ، فزعم أنه ربما يكون جهادُ علىّ عليه السلام وقتلُه المشركين لا ثوابَ له فيه ؛ لأنه فعله طَبْعاً ، وهذا أطرف من قوله فى المعرفة وفى التولّد .

***

قال الجاحظ : وَوجهٌ آخر أنّ عليا لو كان كما يزعمُ شيعتهُ ، ما كان له بقتل الأقران كبير فضيلة ، ولا عظيم طاعة ، لأنّه قد روىَ عن النبىّ صلى الله عليه وآله أنه قال له :

(١) انظر العثمانية ٤٧ ، ٤٨ .

« ستقاتل بعدى النَّاكِثِين والقاسِطين والمارقين » ، فإذا كان قد وعدَه بالبقاء بعده فقد وثِق بالسّلامة من الأقران ، وعلم أنه منصور عليهم وقاتلهم ، فعَلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظمَ طاعةً منه [١] .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا راجع على الجاحِظ فى النبىّ صلى الله عليه وآله ، لأنّ الله تعالى قال له : ﴿ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [٢] ،فلم يكن لهفى جهاده كبيرطاعة، وكثير طاعة،وكثير من الناس يروى عنه صلى الله عليه وآله : « اقتدوا باللّذَين من بعدى أبى بكر وعمر » فوجب أن يبطل جهادهما ، وقد قال للزبير : « ستقاتل عليًّا ، وأنت ظالم له » ، فأشعره بذلك أنّه لا يموت فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال فى الكتاب العزيز لطلحة : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ، قالوا : نزلت فى طلحة،فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده،فوجب ألّا يكون لهما كبير ثواب فى الجهاد ، والذى صحّ عندنا من الخبر وهو قوله : « ستقاتل بعدى الناكثين » ، أنه قال لمّا وضعت الحرب أوزارها ، ودخل النّاس فى دين الله أفواجا ، ووضعت الجزية ، ودانت العرب قاطبة .

***

قال الجاحظ : ثم قصد النّاصرون لعلىّ ، والقائلون بتفضيله إلى الأقران الّذين قتلهم فأطروهم وغلوْا فيهم ، وليسوا هناك ! فمنهم عمرو بن عبد ود تركتموه أشجع من عامر ابن الطفيل وعتبة بن الحارث وبسطام بن قيس ، وقد سمعنا بأحاديث حُروب الفجار وما كان بين قريش ودَوْس وحِلْف الفُضُول ، فما سمعتُ لعمرو بن عبدودّ ذكرا فى ذلك [٣] .

---

(١) انظر العثمانية ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة المائدة ٦٧ .

(٣) انظر العثمانيه ٤٩ ، ٥٠ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمرُ عمرو بن عبدوَدّ أشهر وأكثر من أن يُحتجّ له، فلْتَلمح كتب المغازى والسِّيَر، ولينظر مارثته به شعراء قريش لما قتل ، فمن ذلك ماذكره محمد بن إسحاق فى مغازيه ، قال : وقال مُسافع بن عبد مناف بن زهرة بن حُذَافة بن جُمَح يبكى عمرو بن عبد الله بن عبدود حين قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام مبارزة لما جزع المذاد (١) أى قطع الخندق .

عمرو بن عبدٍ كان أول فارسٍ ... جَزَعَ المذاد وكان فارس مَلْيَلِ (٢)
سمحُ الخلائقِ ماجِدٌ ذو مِرَّةٍ ... يبغى القتالَ بشكّةٍ لم يَنْكُلِ (٣)
ولقد علمتم حينَ ولَّوْا عنكمُ ... أنّ ابن عبدٍ منهمُ لم يَعْجَلِ (٤)
حتّى تكنَّفَهُ الكُماة وكلُّهمْ ... يبغِى القتال له وليس بمؤتَلِ (٥)
ولقد تكنّفت الفوارسُ فارساً ... بجنوبِ سَلْعٍ غيرِ نِكْسٍ أمْيلِ (٦)
سال النّزال هناك فارس غالبٍ ... بجنوب سَلْعٍ ليته لم ينزلِ
فاذهب علىٌّ ماظفرتَ بمثلِها ... فخراً ولو لاقيت مثل المُعْضِلِ (٧)
نفسى الفداء لفارسٍ من غالب ... لاقَى حمام الموت لم يَتَحلْحَلِ (٨)
أعنِى الّذِى جَزَعَ المذاد ولم يكن ... فَشِلاً وليس لَدَى الحروب بزُمَّلِ (٩)

وقال هُبيرة بن أبى وهب المخزومىّ، يعتذر من فراره عن علىّ بن أبى طالب، وتركه عمراً يوم الخندق ويبكيه :

---

(١) المذاد ، بالذال المعجمة : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، وفى ط : « المزار » تصحيف ، وجزع، أى قطع .

(٢) مليل ، واد ببدر .

(٣) المرة : القوة ، والشكة : السلاح .

(٤) ابن هشام : « فيهم » .

(٥) تكنفه الكماة : أحاطوا به والتفوا حوله . وليس بمؤتل ؛ أى ليس بمقصر .

(٦) سلع : جبل بالمدينة . والنكس : الدنىء من الرجال . والأميل : الذى لارمح معه .

(٧) المعضل : الأمر الشديد .

(٨) لم يتحلحل : لم يبرح مكانه .

(٩) الزمل : الضعيف الجبان .

لعمرُكَ ما ولّيت ظهرى محمّدا وأصحابه جُبْناً ولا خيفةَ القتلِ (١)
ولكنّنى قلّبت أمرى فلم أجِدْ لسيفى غَناء إن وقفتُ ولا نَبْلِي
وقفتُ فلمّا لم أجد لى مقدّماً صدرتُ كضرغامٍ هزبزٍ إلى شِبْلِ (٢)
ثَنَى عِطفَه عَنْ قِرْنه حين لم يَجِد مجالا (٣) وكان الحزم والرأى من فِعْلِي
فَلَا تَبْعَدَنْ يا عَمْرُو حيًّا وهالكاً فقد مِتّ محمودَ الثَّنا ماجِدَ الفعْلِ (٤)
ولا تبعدنْ يا عمرو حيًّا وهالكا فقدكنتَ فى حرب العِدَا مُرهَفَ النَّصْلِ
فمن لِطرادِ الخيل تُقْدَعُ بالقنَا وللبذل يوما عند قرقرة البُزْلِ (٥)
هنالك لو كان ابن عمرٍو لزارها وَفَرَّجَهَا عنهم فتًى غير ما وغْلِ
كفتك علىّ لن ترى مثل موقفٍ وقفتَ على شِلْو المقدّم كالفحلِ (٦)
فما ظفرت كفّاك يوماً بمثلها أمنتَ بها ما عشت من زلّةِ النعْلِ

وقال هُبيرة بن أبى وهب أيضا ، يرثى عَمْرا ويبكيه :

لقد علمتْ عُلْيا لؤىّ بنِ غالبٍ لَفارسها عمرٌو ، إذا ناب نائبُ (٧)
وفارسها عمرو إذا ما يسوقه علىٌّ ، وإن الموت لاشك طالب (٨)
عشيّةَ يدعوه علىٌّ وإنه لفارسُها إذ خام عنه الكتائب (٩)

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٠١ ، ٣٠٢ .
(٢) مقدما ، أى لم أجد من يقدمنى . وصدرت : رجعت . الضرغام : الأسد . الهزبر : الشديد : والشبل : ابن الأسد
(٣) ابن هشام : « لم يجد مكرا » .
(٤) الثنا : الذكر الطيب . والماجد : الشريف .
(٥) تقدع : تكف . والقرقرة : أصوات فحول الإبل . والبزل : جمع بازل ؛ وهو فى الأصل البعير الذى فطر نابه ، وذلك زمان اكتمال قوته .
(٦) ابن هشام : « فعنك على » .
(٧) إذا ناب نائب ، أى إذا عرض أمر مكروه .
(٨) ابن هشام : « لفارسها عمرو إذا مايسومه » .
(٩) خام : جبن ورجع هيبة وخوفا .

فيا لهف نفسى ، إنّ عَمْراً لـكائنٌ بيثرب ، لا زالت هناك المصائبُ
لقد أحرَز العَلْيا علىٌّ بقتـله وللخـير يوما لا محالة جالبُ

وقال حسان بن ثابت الأنصارى يذكر عمرا :

أمسى الفتى عمرو بن عبدٍ ناظراً كيف العبُور وليتَه لم ينظرِ (١)
ولقد وجـدت سيوفنا مشهورةً ولقد وجدت جيادنا لم تُقْصَرِ (٢)
ولقد لقيتَ غـداة بدرٍ عُصْبةً ضَربوك ضَرْباً غـير ضرب الحسّرِ
أصبحتَ لا تُدْعَى ليوم عظيمـةٍ يا عمرُو أو لجسيم أمرٍ مُنْكَرِ (٣)

وقال حسان أيضا :

لقد شقيَتْ بنو جُمَح بنِ عمرو ومخزوم وتَيْمٌ ما نُقِيـلُ
وعمرو كالحسام فتى قريش كأن جبينَه سيف صقيـلُ
فتًى من نسـل عامرٍ أريحىٌّ تطاوله الأسنَّةُ والنُّصـولُ
دعاه الفارس المقدام لمّا تـكشَّفَتِ المقانبُ والخيُولُ
أبو حسنٍ فقنّعه حُساما جُرازا لا أفلُّ ولا نـكُولُ
فغـادره مكبًّا مُسْلحِباً على عفْراء ، لا بَعِدَ القتيلُ

فهذه الأشعار فيه بل بعض ما قيل فيه (٤) .

وأمّا الآثار والأخبار ، فموجودة فى كتب السّيَر وأيام الفرسان ووقائعهم ، وليس

---

(١) رواية البيت فى ابن هشام :

أمْسَى الفتَى عمرو بن عبدٍ يبتغِى بجنوبِ يـثْربَ ثأرَهُ لم يَنْظُرِ

(٢) مشهورة أى قد شهرها أصحابها . ولم تقصر : لم تكف وتحبس عن التجوال .

(٣) قال ابن هشام : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان » .

(٤) سيرة ابن هشام ٣ : ٢٩٨ — ٣٠٤ (نشرة المكتبة التجارية) .

أحدٌ من أرباب هذا العلم يذكر عمراً إلا قال : كان فارسَ قريش وشُجاعها ، وإنما قال له حسان :

* ولقد لقيتَ غَدَاة بدرٍ عصبة *

لأنَّهُ شهد مع المشركين بدْراً ، وقتل قوماً من المسلمين . ثم فرَّ مع مَنْ فرَّ ، ولحق بمكّة ، وهو الذى كان قال وعاهدَ الله عند الكعبة ألا يدعوَهُ أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه . وآثاره فى أيام الفِجار مشهورة تنطِق بها كتُبُ الأيّام والوقائع ، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة وهم : عُتْبة وبِسطام وعامر ، لأنهم كانوا أصحابَ غاراتٍ ونَهْب ، وأهلَ بادية ، وقريش أهل مدينة وساكنو مَدَر وحجر ، لا يرَوْن الغارات ، ولا ينهبون غيرَهم من العرب ، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حَرَمهم ؛ فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء .

ويقال له : إذا كان عمرو كما تذكُر ليس هناك ، فما باله لما جَزَع الخندق[1] فى ستّة فرسان هو أحدُهم ، فصار مع أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وآله على أرْض واحدة ، وهم ثلاثة آلاف ، ودعاهم إلى البراز مراراً لم ينتدب أحدٌ منهم للخروج إليه ، ولا سمح منهم أحدٌ بنفسه ، حتى وبّخهم وقرّعهم ، وناداهم : ألستم تزعمون أنّه مَن قُتل منّا فإلى النار ، ومَن قتِل منكم فإلى الجنة ! أفلا يشتاقُ أحدُكم إلى أنْ يذهب إلى الجنة ، أو يقدِّم عدوّه إلى النار ! فجبنوا كلُّهم ونكلوا ، وملكهم الرّعب والوهل ، فإمّا أن يكون هذا أشجع الناس كما قيل عنه ، أو يكون المسلمون كلّهم أجبن العرب وأذلّهم وأفشلهم ! وقد روى النّاس كلهم الشعر الذى أنشده لمّا نكل القوم بجمعهم عنه ، وأنّه جال بفرسه واستدار وذهب يَمْنة ، ثم ذهب يَسْرة ، ثم وقف تُجاه القوم ، فقال :

ولقد بححتُ من النِّدا ... بجَمْعِهِمْ : هل من مبارزْ !

---

(١) جزع الخندق ، أى عبره

ووقفتُ إذْ جَبُن المشيِّـــع وِقفة القِرْن المناجزْ
وكذاكَ أنّى لم أزلْ متسرِّعاً نحو الهزاهِزْ
إن الشجاعة فى الفَتَى والجودَ من خيرِ الغرائزْ

فلما برز إليه علىٌّ أجابه ، فقال له :

لا تعجلنّ فقــدْ أتا كَ مجيب صوتِك غير عاجزْ
ذُو نيَّةٍ وبصــيرةٍ يرجُو الغداةَ نجاةَ فائِزْ
إنى لأرجـــو أن أقِـ يم عليك نائحة الجنائزْ
من ضربةٍ تفــنى ويَبْـ قَى ذكرُها عند الهزاهِزْ

ولعمرى لقد سبق الجاحظ بما قاله بعضُ جُهّال الأنصارى ، لمّا رجع رسول الله من بدْر ، وقال فتى من الأنصار شهد معه بدرا : إن قتلْنا إلّا عجائزَ صُلْعا ! فقال له النبي صلى الله عليه وآله : « لا تقل ذلك يابن أخ ، أولئك الملأ » !.

***

قال الجاحظ : وقد أكثروا فى الوليد بن عُتْبة بن ربيعة قتيله يوم بدر ، وما علمنا الوليد حضر حرْباً قطّ قبْلها ، ولا ذكر فيها (١) .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : كلُّ مَنْ دوّن أخبارَ قريش وآثار رجالِها ، وصف الوليد بالشّجاعة والبَسالة ، وكان مع شجاعته أنّه يصارِع الفتيان فيصرعُهم ، وليس لأنه لم يشهد حَرْبًا قبلها ما يجب أن يكون بطلاً شجاعا ؛ فإنّ عليا عليه السلام لم يشهدْ قبل بدرٍ حربا ، وقد رأى الناس آثاره فيها .

***

(١) العثمانية ٥٩ .

قال الجاحظ : وقد ثبت أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وآله يوم أُحُد ، كما ثبت عليّ ، فلا فخرَ لأحدهما على صاحبه فى ذلك اليوم .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا ثباتُه يومَ أُحُد : فأكثر المؤرّخين وأربابُ السِّيَر ينكِرُونه ، وجمهورهم يروِى أنّه لم يبقَ مع النبيّ صلى الله عليه وآله إلا عليٌّ وطلحة والزبير ، وأبو دُجَانة ، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ولهم خامسٌ وهو عبد الله بن مسعود ، ومنهم مَنْ أثبت سادسًا ، وهو المِقْداد بن عمرو ، وروى يحيى بن سلمة بن كُهَيل قال : قلت لأبى : كم ثبتَ مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد ؟ فقال: اثنان ،قلت: مَنْ هُمَا ؟ قال : عليٌّ وأبو دُجانة .

وهب أنّ أبا بكر ثبت يوم أُحُد كما يدّعيه الجاحظ ،أيجوز له أن يقول: ثبت كما ثبت عليّ ، فلا فخر لأحدِهما على الآخر ، وهو يعلم آثار عليٍّ عليه السلام ذلك اليوم ، وأنّه قتل أصحاب الألوية من بنى عبد الدّار ؛ منهم طلحة بن أبى طلحة ، الّذى رأى رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فى منامِه أنه مردِفٌ كبشا ، فأوّله وقال : كبش الكتيبة نقتلُه . فلما قتله عليّ عليه السلام مبارزةً ـ وهو أول قتيل قتل من المشركين ذلك اليوم ـ كبّر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « هذا كبش الكتيبة ».

وما كان منه من المحاماة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ،وقد فرّ الناس وأسلموه، فتصمد له كتيبة من قريش ، فيقول : « ياعليّ ، اكفنى هذه » فيحمل عليها فيهزمها ، ويقتل عميدَها ، حتى سمع المسلمون والمشركون صوتًا من قبل السّماء .

لا سَيْفَ إلا ذو الفقا ... رِ ولا فتًى إلا علِي

وحتّى قال النبي صلى الله عليه وآله عن جبرائيل ماقال .

أتكون هذه آثاره وأفعاله ، ثم يقول الجاحظ : لافخر لأحدهما على صاحبه !

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (١) .

* * *

قال الجاحظ : ولأبى بكر فى ذلك اليوم مقام مشهور ، خرج ابنه عبد الرحمن فارساً مكفَّراً (٢) فى الحديد ، يسأل المبارزة ، ويقول : أنا عبدُ الرحمن بن عتيق ! فنهض إليه أبو بكر يَسْعَى بسيفه ، فقال له النبىّ صلّى الله عليه وآله : «شِمْ سيفَكَ وارجع إلى مكانك، ومتّعنا بنفسك (٣) » .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبى بكر ، فإنّه لو تسمعُه الإمامية لأضافته إلى ماعندها من المثالب ، لأنّ قول النبى صلى الله عليه وآله : « ارجع » دليل على أنّه لا يحتمِل مبارزة أحدٍ ، لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه ، وأنت تعلم حنوّ الابن على الأب وتبجيله له ، وإشفاقه عليه وكفّه عنه ، لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبىّ .

وقوله له : « ومتّعنا بنفسك» ؛ إيذان له بأنّه كان يقتَلُ لو خرج ، ورسول الله كان أعرفَ به من الجاحظ ، فأين حالُ هـذا الرّجل من حال الرجل الذى صَلِىَ بالحرب ، ومشى إلى السيف بالسيف ، فقتَل السادَة والقادَة والفُرسان والرّجّالة !

* * *

قال الجاحظ : على أن أبا بكر ـ وإن لم تكن آثاره فى الحرب كآثار غيره ـ فقد بذل الجهد ، وفعل ما يستطيعه وتبلغه قوّته ، وإذا بذل المجهودَ فلا حال أشرف من حاله (٤) .

---

(١) سورة الأعراف ٨٩ — (٢) أى مستترا .

(٣) العثمانية ٦٢ . — (٤) العثمانية ٦٢ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أما قوله إنّه بذل الجهد ، فقد صدق ، وأما قوله : « لاحال أشرف من حاله » ؛ فخطأ ، لأنّ حال من بلغت قوته فأعملها فى قتل المشركين أشرفُ من حال من نَقَصَتْ قوّته عن بلوغ الغاية ؛ ألا تَرَى أن حال الرجل أشرفُ فى الجهاد من حال المرأة ، وحال البالغ الأيِّد أشرف من حال الصبىّ الضعيف !

***

فهذه جملة ماذكره الشيخ أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى رحمه الله فى نقض العثمانية ، اقتصرنا عليها هاهنا ؛ وسنعود فيما بعد إلى ذكر جملة أخرى من كلامه ، إذا اقتضت الحال ذكره[1].

---

(١) قام الأستاذ عبد السلام هارون بطبع كتاب العثمانية ، طبعة علمية محققة ، وألحق بها ماعثر عليه من نقضها للاسكافى ؛ وطبعت فى دار الكتاب العربى سنة ١٩٥٥ .

(٢٣٩)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام قالهُ لعبد اللهِ بن عباسٍ ، وقد جاءهُ برسالةٍ من عثمانَ ، وهو محصورٌ يسألهُ فيها الخروجَ إلى مالهِ بينبُع ، ليقلَّ هتفُ الناسِ باسمهِ للخلافةِ ، بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل .

فقال عليه السلام :

يَابْنَ عَبَّاسٍ، مَايُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّاأَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاًنَاضِحاً بِالْغَرْبِ ، أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدَمَ ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ! وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً .

***

الشَّرْحُ :

ينبُع على « يفعلُ » مثل يحلُم ويحكم : اسم موضع ، كان فيه نخلٌ لعليّ بن أبى طالب عليه السلام ، وينبُع الآن بلد صغير من أعمال المدينة .

وهتف الناس باسمه : نداؤهم ودعاؤهم ، وأصله الصوت ، يقال : هَتَف الحمامُ يهتفِ هَتْفاً ، وهَتَف زيد بعمرو هُتافا ، أى صاح به ، وقوس هتّافة وهَتَفَى ، أى ذات صوت .

والناضح : البعير يستقى عليه ، وقال معاوية لقيس بن سعد ـ وقد دخل عليه

فى رَهْطٍ من الأنصار ـ :مافعلت نواضحكم ! يهزأ به ، فقال : أنصبناها فى طلب أبيك يوم بدر .

والغرْب : الدلو العظيمة .

قوله : «أقبلْ وأدبر» ، أى يقول لى ذلك ، كما يقال: للناضح ، وقد صرّح العبّاس بن مِرْداس بهذه الألفاظ فقال :

أرَاكَ إذا أصبحت للقوم ناضحاً   يقال له بالغرب أدبر وأقبـــلِ

قوله : « لقـد دفعتُ عنه حتّى خشيتُ أن أكونَ آثماً » ، يحتمل أن يريدَ بالغتُ واجتهدت فى الدّفاع عنه ، حتى خشيت أن أكون آثما فى كثرة مبالغتى واجتهادى فى ذلك ، وإنّه لايستحقّ الدفاع عنه لجرائمه وأحداثه ، وهذا تأويل مَنْ ينحرِف عن عثمان، ويحتمل أن يريد : لقد دفعتُ عنه حتى كدت أن ألقِيَ نفسى فى الهلكة ؛وأن يقتلنى النّاس الذين ثاروا به، فخِفْتُ الإثم فى تغريرى بنفسى وتوريطها فى تلك الورْطة العظيمة،ويحتمل أن يريد : لقد جاهدت الناس دونَه ودفعتهم عنه ، حتى خشيت أن أكونَ آثما بما نلتُ منهم من الضّرب بالسَّوْط ، والدفع باليـد ، والإعانة بالقول ، أى فعلت من ذلك أكثرَ ممايجب .

***

[وصيّة العباس قبل موته لعلىّ]

قرأتُ فى كتاب صنّفه أبو حيّان التوحيدىّ فى تقريظ الجاحظ ، قال : نقلت من خَطّ الصُولىّ : قال الجاحظ : إنّ العبّاس بن عبد المطلب أوصَى علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى عِلّته التى مات فيها ، فقال : أى بنىّ إنى مُشْفِقٌ على الظّعن عن الدُّنيا إلى الله، الذى فاقتى إلى عفوه وتجوُّزه أكثر من حاجتى إلى ماأنصحك فيه ، وأشير عليك به ،

ولكنّ العِرْق نَبُوض[١] ، والرّحم عَرُوض ، وإذا قضيتُ حقّ العمومة ، فلا أبالى بعدُ إنّ هذا الرجل ـ يعنى عثمان ـ قد جاءنى مراراً بحديثك ، وناظرنى ملايناً ومخاشناً فى أمرك؛ ولم أجِدْ عليك إلا مثل ماأجد منك عليه ، ولا رأيتُ منه لك إلا مثل ماأجدُ منك له ، ولستَ تؤتَى من قلّة علم ، ولكن من قلّة قَبُول ، ومع هذا كلّه فالرأى الذى أودعك به أن تمسِك عنه لسانَك ويدك ، وهمْزَك وغمْزَك ، فإنّه لايبدؤك مالم تبدأه ، ولا يجيبُك عمّا لم يبلغه ، وأنت المتجنّى وهو المتأنّى ، وأنت العائب وهو الصامت . فإن قلت : كيف هذا وقد جلَس مجلساً أنا به أحقّ ، فقد قاربتَ ! ولكنّ ذاك بما كسبتْ يداك ، ونكَصَ عنه عَقِباك ، لأنك بالأمْس الأدنى ، هرولْت إليهم تظنّ أنّهم يُحَلّون جيدَك ، ويختّمون أصبعَك ، ويطئون عَقِبك ، ويروْن الرُّشْد بك ، ويقولون : لابدّ لنا منك ، ولا معدَل لنا عنك ، وكان هذا من هفواتِك الكُبَر ، وهناتِك التى ليس لك منها عذر ، والآن بعد ماثللت عرشَك بيدك ، ونبذْتَ رأى عَمّك فى البيداء يتدَهْدَه[٢] فى السّافياء[٣] ؛ خذ بأحزم ممّا يتوضّح به وجهُ الأمر ، لاتشارِ[٤] هذا الرجل ولا تماره[٥] ، ولا يبلغنّه عنك مايُحنِقه عليك ، فإنه إنْ كاشفَك أصاب أنصارا ، وإن كاشفتَه لم ترَ إلا ضرارا ، ولم تستلج[٦] إلا عثارا ، واعرفْ مَنْ هو بالشام له ، ومن هاهنا حوله من يطيع أمرَه ، ويمتثل قوله ، لاتغترِرْ بناسٍ يُطِيفون بك ، ويدّعون الحنوّ عليكَ والحبّ لك ، فإنهم بين مولًى جاهلٍ ، وصاحبٍ متمنٍّ ، وجليس يرعى العين ويبتدر المحضر ، ولو ظنّ النّاس بك ماتظنّ بنفسك لكان الأمر لك ، والزّمام فى يدك ، ولكنْ هذا حديثٌ يوم مَرَض رسول الله صلى الله عليه وآله فاتَ ، ثم حَرُم الكلام فيه حين مات ، فعليك الآن بالعُزوف عن شىء عرّضك

(١) كذا فى ا ، ونبوض : من نبض العرق ينبض نبوضاً ، وهو ضرباته وفى ب : « يبوض » .
(٢) يتدهده : يتدحرج (٣) السافياء : الريح التى تحمل التراب .
(٤) يقال : شاراه مشاراة ، إذا لاجه . (٥) تماره : تجادله . (٦) تستلج : تدخل

له رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلمْ يتم ، وتصدّيْتَ له مرّة بعد مرّة فلم يستقمْ ، ومن ساوَر الدّهر غَلب ، ومَنْ حرَص على ممنوع تَعِب ، فعلى ذلك فقد أوصيتُ عبدَ الله بطاعتك ، وبعثتُه على متابعتك ، وأوجرْته محبّتَك ، ووجدت عنده من ذلك ظنّى به لك ، لا توتِرْ قوسَك إلا بعد الثِّقة بها ، وإذا أعجبتك فانظر إلى سيّتِها ، ثم لا تفوّق إلا بعد العلم ولا تغرق فى النّزْع إلا لتصيب الرميّة ، وانظر لا تطرف يمينُك عينَك ، ولا تجنِ شمالُك شينكَ ، ودَّعنى بآياتٍ من آخر سورة الكهف ، وقم إذا بدا لك .

قلت : النّاس يستحسِنُون رأىَ العباس لعليٍّ عليه السلام فى ألّا يدخل فى أصحاب الشورى وأمّا أنا فإنّى استحسنه إن قصد به معنًى ، ولا أستحسنه إن قصد به معنًى آخر ، وذلك لأنّه إن أجرى بهذا الرأى إلى ترفّعه عليهم ، وعلّو قدره عن أن يكون مماثلا لهم ، أو أجْرى به إلى زُهده فى الإمارة ، ورغبته عن الولاية ؛ فكلّ هذا رأى حسنٌ وصواب ، وإن كان منزَعه فى ذلك إلى أنّك إن تركت الدخول معهم ، وانفردت بنفسك فى دارك ، أو خرجت عن المدينة إلى بعض أموالك ، فإنّهم يطلبونك ، ويضربون إليك آباط الإبل ، حتى يولُّوك الخلافة ؛ وهذا هو الظاهر من كلامه ، فليس هذا الرأى عندى بمستحْسن ، لأنّه لو فعل ذلك لولّوا عثمان أو واحداً منهم غيره ، ولم يكن عندهم من الرغبة فيه عليه السلام مايبعثهم على طلبه ، بل كان تأخّره عنهم قرّة أعينهم ، وواقعاً بإيثارهم ، فإنّ قريشا كلّها كانت تُبغضه أشدّ البغض ، ولو عمّر عمر نوح ، وتوصّل إلى الخلافة بجميع أنواع التوصّل ، كالزهد فيها تارة ، والمناشدة بفضائله تارة ، وبما فعله فى ابتداء الأمر من إخراج زوجته وأطفاله ليلا إلى بيوت الأنصار ، وبما اعتمده إذ ذاك من تخلّفه فى بيته ، وإظهار أنّه قد انعكف على جمع القرآن ، وبسائر أنواع الحيَل فيها ، لم تحصل له إلّا بتجريد السيف ، كما فعل فى آخر الأمر ، ولست ألوم العربَ ، لا سيّما قريشا فى بغضها له ، وانحرافها عنه ، فإنه وترها ، وسفك دماءها ، وكشفَ القناع فى منابذتها ، ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم ،

وليس الإسلام بمانع من بقاء الأحقاد فى النفُوس ، كما نشاهده اليوم عيانا ، والنّاس كالناس الأول ، والطبائع واحدة ، فأحسب أنك كنت من سنتيْن أو ثلاث جاهلياً أو من بعض الروم ، وقد قتَل واحدٌ من المسلمين ابنك أو أخاك ، ثم أسلمت ، أكان إسلامُك يُذهب عنك ما تجدُه من بغض ذلك القاتل وشنآنه ؟ كلّا . إنّ ذلك لغيرُ ذاهب ، هذا إذا كان الإسلام صحيحا ، والعقيدة محققة ، لا كإسلام كثير من العرب ، فبعضهم تقليدا ، وبعضهم للطمع والكسْب ، وبعضهم خوفا من السّيف ، وبعضهم على طريق الحَمِيّة والانتصار ، أو لعداوة قوم آخرين من أضْداد الإسلام وأعدائه .

* * *

واعلم أنّ كلّ دم أراقه رسول الله صلّى الله عليه وآله بسيفِ علىّ عليه السلام وبسيف غيره ، فإن العرب بعد وفاته عليه السلام عصبت تلك الدماء بعلىّ بن أبى طالب عليه السلام وحده ، لأنه لم يكن فى رهطه مَنْ يستحقّ فى شرعهم وسنّتهم وعادتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا بعلىٍّ وحده ، وهذه عادة العرب إذا قُتل منها قتلى طالبتْ بتلك الدماء القاتل ، فإن مات ، أو تعذّرت عليها مطالبتُه ، طالبت بها أمثَل النّاس من أهله .

لما قتل قوم من بنى تميم أخا لعمرو بن هند ، قال بعض أعدائه يحرّض عمرا عليهم[1] :

مَنْ مبلغٌ عمراً بأنّ المرْء لَمْ يُخْلَقْ صُبارَهْ[2]
وحوادثُ الأيّام لا يَبْقَى لها إلّا الحجارهْ
ها إنّ عجْزَةَ أمّه بالسفحِ أسفَلَ من أُوارَهْ[3]
تسفى الرياح خلال كَشْحَيْه وقد سَلَبُوا إزارَهْ
فاقتل زُرارة لا أرَى فى القوم أمثلَ من زُرَارَهْ

(١) هو عمرو بن ملقط الطائى ، والأبيات فى تاريخ ابن الأثير ١ : ٣٣٥ ، ضمن خبره عن يوم أوارة الثانى ، وهى أيضا فى اللسان ٦ : ١١١ .

(٢) الصبارة : الحجارة الملس ، كأنه يقول : ليس الإنسان بحجر فيصبر على مثل هذا .

(٣) أول ولد المرأة يقال له زكمة ، والآخر عجزة .

فأمره أن يقتل زُرارة بن عُدَس رئيس بنى تميم ، ولم يكن قاتلا أخا الملك ولا حاضرا قَتْله .

ومَنْ نظر فى أيّام العرب ووقائعها ومَقاتِلها عرف ماذكرناه .

***

سألت النقيبَ أبا جعفر يحيى بن أبى زيد رحمه الله ، فقلت له : إنّى لأعجبُ من علىّ عليه السلام كيف بَقِىَ تلك المدّة الطويلة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وكيف ما اغتيل[1] وفُتِك به فى جَوْف منزله ، مع تلظّى الأكباد عليه !

فقال : لولا أنّه أرغم أنفه بالتُّراب، ووضع خدّه فى حضيض الأرض لقتل ، ولكنه أخمل نفسه ، واشتغل بالعبادة والصّلاة والنّظر فى القرآن ، وخرج عن ذلك الزىّ الأوّل؛ وذلك الشّعار ونسىَ السيف،وصار كالفاتك يتُوب ويصير سائحا فى الأرض ، أو راهبا فى الجبال ، ولما أطاع القوم الّذين ولّوا الأمر ، وصار أذلّ لهم من الحذاء ، تركوه وسكتوا عنه ، ولم تكن العرب لتقدُم عليه إلّا بمواطأةٍ من متولّى الأمر ، وباطنٍ فى السرّ منه ، فلمّا لم يكن لولاة الأمر باعثٌ وداعٍ إلى قتله وَقَع الإمساكُ عنه ، ولولا ذلك لقُتل[2] ، ثم أجّل بعد معقل حصين .

فقلت له : أحق ما يقال فى حديث خالد ؟ فقال : إنّ قوما من العلَويّة يذكرون ذلك .

ثم قال : وقد روى أنّ رجلاً جاء إلى زفر بن الهُذَيل ، صاحب أبى حنيفة ، فسأله عمّا يقول أبو حنيفة فى جواز الخروج من الصّلاة بأمرٍ غير التّسليم ، نحو الكلام والفعل الكثير أو الحدَث ! فقال : إنّه جائز ، قد قال أبو بكر فى تشهّده ما قال ، فقال الرجل :

---

(١) ب : « ماقتل » ، وأثبت ما فى ا .
(٢) ب : « لقتله » .

وما الّذى قاله أبو بكر ؟ قال : لاعليك ، فأعادعليه السؤال ثانيةً وثالثةً ، فقال:أخرجوه أخرجوه ، قد كنت أحدّث أنّه من أصحاب أبى الخطاب .

قلت له : فما الذى تقوله أنت ! قال : أنا أستبعدُ ذلك وإن روتْه الإماميّة .

ثم قال : أمّا خالدٌ فلا أستبعد منه الإقدام عليه بشجاعته فى نفسِه ، ولبغضه إيّاه ، ولكنّى أستبعده من أبى بكر ، فإنّه كان ذا ورعٍ ،ولم يكن ليجمع بين أخذ الخلافة ومنع فدَك ، وإغضاب فاطمة وقَتْل علىٍّ عليه السلام ؛ حاش لله من ذلك ! فقلت له : أكان خالدٌ يقدِرُ على قتله ؟ قال : نعم ؛ ولِمَ لا يقدر على ذلك ، والسيف فى عنقه ، وعلىٌّ أعزَلُ غافل عمّا يراد به ، قد قتله ابن ملجم غيلةً ، وخالد أشجعُ من ابن ملجم !

فسألتُه عمّا ترويه الإمامية فى ذلك ، كيف ألفاظه ؟ فضحك وقال :

* كم عالمٍ بالشىء وهو يسائلُ *

ثم قال : دعنا من هذا ، ما الذى تحفظُ فى هذا المعنى ؟ قلت : قول أبى الطيّب :

نَحْنُ أدْرَى وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْـدٍ أطويلٌ طريقُنَا أم يَطُولُ [1]
وكثيرٌ مِن السُّؤالِ اشتيـاقٌ وكثيرٌ من ردّهِ تعليـلُ

فاستحسن ذلك ، وقال:لمن عَجُزُ البيت الذى استشهدتَ به ؟ قلت : لمحمدبن هانىء المغربى ، وأوله :

فى كلّ يوم أستزيدُ تجارِبًا كم عالم بالشّىء وهو يسائلُ [2] !

فبارك علىّ مرارا ، ثم قال : نترك الآن هذا ونتم ما كنّا فيه ، وكنت أقرأ عليهفى ذلك الوقت " جمهرة النسب " لابن الكلبىّ ، فعدنا إلى القراءة ، وعدَلْنا عن الخوض عمّا كان اعترض الحديث فيه .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٥١ ، ١٥٢ (٢) ديوانه ١١٤

(٢٤٠)

الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله ثم لحاقه به :

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَأْخَذَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرْجِ .

فى كلام طويل

***

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَأَطَأُ ذِكْرَهُ » ، مِنَ الْكَلَامِ الَّذِى رُمِيَ بِهِ إِلَى غَايَتَي الْإِيجَازِ وَالْفَصَاحَةِ ، أَرَادَ أَنِّى كُنْتُ أُعْطَى خَبَرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ بَدْءِ خُرُوجِي إِلَى أَنِ انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَكَنَى عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْكِنَايَةِ الْعَجِيبَةِ .

***

الشَّرْحُ :

العَرْج : منزل بين مكّة والمدينة، إليه ينسب العَرْجيّ الشاعر ، وهو عبدالله بن عمرو ابن عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أميّة بن عبد شمس .

قال محمد بن إسحاق فى كتاب " المغازى " : لم يُعلِمْ رسولُ الله صلى الله عليه وآله أحداً من المسلمين ما كان عزم عليه من الهِجْرة إلّا عليّ بن أبى طالب وأبا بكرِ بن أبى قحافة ، أمّا عليّ ، فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أخبرَه بخروجه،وأمره أن يبيتَ على

فراشه ، يُخادِع المشركين عنه ليرَوْا أنه لم يبرحْ فلا يطلبوه ، حتى تبعُد المسافة بينهم وبينه ، وأنْ يتخلّف بعده بمكّة حتّى يؤدِّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع الّتِي عنده للناس ، وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله استودَعه رجالٌ من مكّة ودائعَ لهم ، لما يعرفونه من أمانته ، وأما أبو بكر فخرج معه .

***

وسألتُ النّقِيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد الحسنيّ ، رحمه الله فقلت : إذا كانتْ قُريش قد محّصت رأيها ، وألقى إليها إبليس ـ كما رُوِي ـ ذلك الرأى ، وهو أن يضربوه بأسيافٍ من أيدى جماعة من بطون مختلفة ، ليضيع دمُه فى بُطُون قريش فلا تطالبه بنو عبد مناف ، فلماذا انتظروا به تلك الليلة الصّبح ! فإنّ الرواية جاءت بأنّهم كانوا تسوّروا الدّار ، فعاينوا فيها شخصاً مسجًّى بالبُرْد الحضرميّ الأخضر ، فلم يشكُّوا أنّه هو ، فرصدوه إلى أن أصبحوا ، فوجدوه عليًّا . وهذا طريفٌ ، لأنّهم كانوا قد أجمعوا على قتله تلك الليلة ، فما بالهم لم يقتلوا ذلك الشخص المسجّى ، وانتظارهم به النهار دليل على أنهم لم يكونوا أرادوا قتله تلك الليلة !

فقال فى الجواب : لقد كانوا همُّوا من النّهار بقتله تلك الليلة ، وكان إجماعهم على ذلك ، وعزمُهم فى حَقْنه من بنى عبد مناف ، لأنّ الذين محّصوا هذا الرأى واتفقوا عليه : النضْر بن الحارث من بنى عبد الدّار ، وأبو البخْترىّ بن هشام ، وحكيم بن حزام ، وزَمْعة بن الأسود ابن المطلب ؛ هؤلاء الثلاثة من بنى أسد بن عبد العُزّى ، وأبو جهل بن هشام ، وأخوه الحارث ، وخالد بن الوليد بن المغيرة ، هؤلاء الثلاثة من بنى مخزوم ، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج ، وعمرو بن العاص ؛ هؤلاء الثلاثة من بنى سَهْم ، وأميّة بن خلَف وأخوه أبىّ بن خلَف ، هذان من بنى جُمَح ، فنَمَا هذا الخبرُ من اللّيل إلى عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس ، فلقىَ منهم قوماً ، فنهاهم عنه ، وقال : إنّ بنى عبد مناف لا تمسك عَنْ دمِه ، ولكن صفّدُوه

فى الحديد ، واحبسوه فى دارٍ من دوركم ، وتربَّصُوا به أن يصيبَه من الموت ماأصاب أمثالَه من الشعراء . وكان عتْبة بن ربيعة سيّد بنى عبد شمس ورئيسهم ، وهم من بنى عبد مناف ، وبنو عمّ الرجل ورهطُه ، فأحجم أبو جهل وأصحابُه تلك الليلة عن قَتْله إحجاماً ، ثم تسوّروا عليه ، وهم يظنّونه فى الدّار ، فلما رأوا إنساناً مسجًّى بالبُرْد الأخضر الحضرمىّ لم يشكّوا أنه هوَ ؛ وائتمروا فى قتله ، فكان أبو جهل يذمُرهم[1] عليه فيهمُّون ثم يحجمون . ثم قال بعضهم لبعض : ارمُوه بالحجارة ، فرموْه ، فجعل علىٌّ يتضوّر منها ، ويتقلّب ويتأوّه تأوّهاً خفيفاً ، فلم يزالوا كذلك فى إقدام عليه وإحجامٍ عنه ، لما يريده الله تعالى من سلامته ونجاته ، حتّى أصبح وهو وقيذٌ[2] من رَمْى الحجارة ، ولو لم يخرج رسولُ صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وأقام بينهم بمكّة ، ولم يقتلوه تلك الليلة ، لقَتلوه فى الليلة التى تلِيها ، وإنْ شبّت الحرب بينهم وبين عبد مناف ، فإنّ أبا جهل لم يكنْ بالّذى ليمسك عن قتله ، وكان فاقدَ البصيرة ، شديدَ العزْم على الولوغ فى دمه !

قلت للنقيب : أفعلِم رسول صلى الله عليه وآله وعلىٌّ عليه السلام بما كان من نهى عُتْبة لهم ؟ قال : لا ، إنّهما لم يعلَما ذلك تلك الليلة ، وإنّما عرفاه من بعد ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، لمّا رأى عتبةَ وما كان منه : « إن يكُنْ فى القوم خيرٌ ففى صاحب الجمل الأحمر » . ولو قدّرنا أن عليا عليه السلام علم ما قال لهم عُتْبة لم يُسقط ذلك فضيلته فى المبيت ، لأنه لم يكن على ثقةٍ من أنهم يقبلون قول عُتْبة ، بل كان ظنّ الهلاك والقتل أغلَب .

وأما حالُ علىٍّ عليه السلام ، فلمّا أدّى الودائع ، خرج بعد ثلاثٍ من هجرة النبى

---

(١) يذمرهم : يحضهم .

(٢) الوقيذ : المشرف على الهلاك .

صلى الله عليه وآله ، فجاء إلى المدينة راجلا قد تورّمت قدماه ، فصادف رسولَ الله صلى الله عليه وآله نازلا بقُباء على كُلْثوم بن الهدْم ، فنزل معه فى منزله . وكان أبو بكر نازلا بقُباء أيضا فى منزل حبيب بن يساف ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهُما معه من قُباء ، حتى نزل بالمدينة على أبى أيّوب خالد بن يزيد الأنصاريّ ، وابتنى المسجد .

(٢٤١)

الأَصْلُ

ومن خطبة له عليه السلام :

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفَسِ الْبَقَاءِ ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى ، وَالْمُسِيءُ يُرْجَى ، قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ الْعَمَلُ ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهَلُ ، وَتَنْقَضِيَ الْمُدَّةُ ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ ، وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ ، فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ ، امْرُؤٌ خَافَ اللهَ . وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ ، امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا ، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا ، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللهِ ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللهِ .

***

الشَّرْحُ :

فى نفَس البقاء ، بفتح الفاء ، أى فى سعته ، تقول : أنت فى نفَسٍ من أمرك ، أى فى سَعَة .

والصحف منشورة ، أى وأنتم بعد أحياء ؛ لأنّه لا تطوى صحيفة الإنسان إلّا إذا مات . والتوبة مبسوطة لـكم غير مقبوضة عنـكم ، ولا مردودة عليـكم إن فعلتم ، كما تردّ على الإنسان توبته إذا احتُضر .

والمدبِر يدعَى ، أى مَنْ يدبِر منكم ، ويولّى عن الخير يُدعَى إليه ، وينادى : يافلان أقبل على مايُصلِحك !

والمسىء يُرجَى ، أى يرجَى عوده وإقلاعه.

قبل أن يجمد العمل ، استعارة مليحة ، لأنّ الميت يجمد عمله ويقف ، ويروى : «يخمد» بالخاء ، من خمدت النار ، والأول أحسن .

وينقطع المهَل ، أى العمر الذى أمهلتم فيه .

وتصعد الملائكة ، لأنّ الإنسان عند موته تصعد حفَظته إلى السماء ، لأنه لم يبق لهم شغل فى الأرض .

قوله : « فأخذ امرؤ » ماض يقوم مقام الأمر ، وقد تقدّم شرحُ ذلك ، والمعنى أنّ مَنْ يصوم ويصلّى فإنّما يأخذ بعض قوّة نفسه مما يلقَى من المشقة . لنفسه أى عُدّة وذخيرة لنفسه يوم القيامة ، وكذلك مَنْ يتصدّق ، فإنه يأخذ من ماله ، وهو جار مجرى نفسه لنفسه .

وأخذ من حىّ لميت ، أى من حال الحياة لحال الموت ، ولو قال : من ميت لحىّ ، كان جيّدا أيضا ، لأنّ الحىّ فى الدّنيا ليس بحىّ على الحقيقة ، وإنّما الحياة حياة الآخرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾[1] .

وروى : « أمسكها بلجامها » بغير فاء .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٤ .

(٢٤٢)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام فى شأن الحكمين و ذم أهل الشام :

جُفَاةٌ طَغَامٌ ، عَبِيدٌ أَقْزَامٌ ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ ، مِمَّنْ يَنْبَغِى أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ ، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ .

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا يُحِبُّونَ ، وَإِنَّكُمُ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ . وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللّٰهِ بْنِ قَيْسٍ ، بِالْأَمْسِ يَقُولُ : إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ ، وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ .

فَادْفَعُوا فِى صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللّٰهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَخُذُوا مَهَلَ الْأَيَّامِ ، وَحُوطُوا قَوَاصِىَ الْإِسْلَامِ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى ، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى !

* * *

الشَّرْحُ :

جفاة : جمع جافٍ ، أى هم أعراب أجلاف . والطَّغام : أوغاد الناس ، الواحد والجمع فيه سواء .

ويقال للأشرار واللئام : عبيد ، وإن كانوا أحراراً .

والأقزام ، بالزاى : رُذال الناس وسِفلتهم ، والمسموع قزَم ، الذكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء ، لأنه فى معنى المصدر ؛ قال الشاعر :

وهمْ إذا الخيل جالُوا فى كتائبها فوارسُ الخيل لا مِيلٌ ولا قزَمُ[1]

ولكنه عليه السلام قال : « أقزام » ليوازن بها قوله : « طغام » ، وقد روى : « قِزام » ، وهى رواية جيدة ، وقد نطقت العرب بهذه اللفظة وقال الشاعر :

أحصَنُوا أمّهمُ من عَبْدِهِمْ تلك أفعال القِزام الوكَعه[2]

وجُمعوا من كلّ أوب ، أىْ من كلّ ناحية .

وتُلقِّطُوا من كلٍّ شوب ، أى من فِرَقٍ مختلطة .

ثم وصف جهلهم وبعدهم عن العِلْم والدّين ، فقال : ممّن ينبغى أن يفقّه ويؤدّب ، أى يعلّم الفقه والأدب . ويدرّب ، أى يعوّد اعتماد الأفعال الحَسنة والأخلاق الجميلة .

ويولَّى عليه ، أى لا يستحقُّون أن يولَّوْا أمراً ، بل ينبغى أن يحجَر عليهم كما يحجر على الصبىّ والسّفيه لعدم رُشْده . وروى : « ويولَى عليه » ، بالتّخفيف . ويؤخذ على يديه ، أى يمنع من التصرّف .

قوله عليه السلام : «ولا الذين تبوءوا الدّار والإيمانِ» ، ظاهر اللفظ يشعر بأن الأقسام ثلاثة وليست إلا اثنين ، لأنّ الّذين تبوءوا الدّار والإيمان الأنصار ، ولكنه عليه السلام كرر ذكرهم تأكيدا ، وأيضا فإن لفظة « الأنصار » واقعة على كلِّ مَنْ كان من الأوس والخزرج ، الذين أسلَمُوا على عهدِ رسول الله صلّى الله عليه وآله والذين تبوءوا الدار

---

(١) الصحاح ٥ : ٢٠١٠ ، ونسبه إلى زياد بن منقذ .

(٢) الصحاح ٥ : ٢٠١٠ ، من غير نسبة ، وأحصنوا ، أى زوجوا .

والأيمان فى (١) الآية ، قوم مخصوصون منهم ، وهم أهل الإخلاص والإيمان التّام فصار ذكرُ الخاصّ بعد العام ، كذكره تعالى جبريل وميكائيل ؛ ثم قال : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (٢) ، وهما من الملائكة . ومعنى قوله : « تبوءوا الدار والإيمان » سكنوهما ، وإن كان الإيمان لا يسكن كما تسكن المنازل ، لكنّهم لما ثبتوا عليه ، واطمأنّوا سمّاه منزلا لهم ومتبوّأً ، ويجوز أن يكون مثل قوله :

وَرَأَيْتُ زَوجَكِ فِي الوَغَى مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً (٣)

ثم ذكر عليه السلام أنّ أهل الشام اختارُوا لأنفسهم أقربَ القوم مما يحبّونه ، وهو عمرو بن العاص ، وكرّر لفظة « القوم » ، وكان الأصل أن يقول : ألا وإنّ القومَ اختاروا لأنفسهم أقربَهم مما يحبُّون ، فأخرجه مخرج قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٤) . والذى يحبّه أهل الشام هو الانتصار على أهلِ العراقِ والظّفَر بهم ، وكان عمرو بن العاص أقربَهم إلى بلوغ ذلك ، والوصول إليه بمكْره وحيلته وخدائعه .

والقوم فى قوله ثانيا : « أقربُ القوم » ، بمعنى النّاس كأنّه قال : واخترتم لأنفسكم أقربَ الناس ، ممّا تكرهونه ، وهو أبو موسى الأشعرى ، واسمه عبدالله بن قيس ، والذى يكرهه أهلُ العراق هو مايحبّه أهل الشام ، وهو خذلان عسكر العراق وانكسارهم ، واستيلاء أهل الشام عليهم ، وكان أبو موسى أقربَ النّاس إلى وقوع ذلك ، وهكذا وقع لَبلهِه وغفْلته وفساد رأيه ، وبغضه عليًّا عليه السلام من قبل .

ثم قال : أنتم بالأمس ، يعنى فى واقعة الجمل ، قد سمعتم أبا موسى ينهى أهل الكوفة

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الحشر ٩ : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

(٢) سورة التحريم ٤ . (٣) لعبد الله بن الزبعرى ، كما فى حواشى ابن القوطية على الكامل ١٨٩ (ليبسك) ، وانظر أمالى المرتضى ٢ : ٢٦٠ ، وحواشى شرح المرزوقى للحماسة ١١٤٧

(٤) سورة المائدة ٧ .

عن نُصْرَتى ، ويقول لهم : هذه هى الفتنة التى وعدنا بها، فقطّعوا أوتار قِسِيِّكم. وشيموا سيوفكم ، أى أغمدوها فإن كان صادقا فما باله سَار إلىّ ، وصار معى فى الصفّ ، وحضر حرب صِفّين ، وكثّر سواد أهل العراق وإن لم يحارب ، ولم يسلّ السيف ، فإنّ مَنْ حَضَر فى إحدى الجهتين وإن لم يحارب كمن حارب ، وإن كان كاذبا فيما رواه من خَبَر الفتنة فقد لزمتْه التُّهمة وقُبْح الاختلاف إليه فى الحكومة ، وهذا يؤكّد صحّة إحدى الروايتين فى أمرِ أبى موسى ، فإنه قد اختلفت الرواية : هل حضر حرب صِفِّين مع أهل العراق أم لا ؟ فمن قال : حضر ، قال : حضر ولم يحارب ، وما طلبه اليمانيّون من أصحاب علىٍّ عليه السلام ليجعلوه حَكَما كالأشعث بن قيس وغيره إلا وهو حاضِرٌ معهم فى الصفّ ، ولم يكن منهم على مسافة ، ولو كان على مسافة لما طلبوه ، ولكان لهم فيمن حضر غَناء عنه ، ولو كان على مسافة لَمَا وافق علىّ عليه السلام على تحكيمه ، ولا كان علىٌّ عليه السلام ممّن يحكّم من لم يحضر معه .

وقال الأكثرون : إنّه كان معتزلا للحرب بعيداً عن أهل العراق وأهل الشام .

فإن قلت : فلِمَ لا يحمَلُ قوله عليه السلام : « فإن كان صادقا فقد أخطأ بسيره غير مستكرَه » على مسيره إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل العراق حيث طلبوه ليفوّضوا إليه أمرَ الحكومة ؟

قلت : لو حملْنا كلامَه عليه السلام على هذا لم يكن لازماً لأبى موسى ، وكان الجواب عنه هيّناً ، وذلك لأنّ أبا موسى يقول : إنما أنكرت الحربَ وما سرت لأحارب ولا لأشهد الحرب ، ولا أغرِى بالحرْب ، وإنما سرتُ للإصلاح بيْن النّاس ، وإطفاء نائرة الفتنة ، فليس يناقض ذلك ماروَيتُه عن الرسول من خبر الفتنة ، ولا ماقلته فى الكوفة فى واقعة الجمل : « قطّعوا أوتار قِسِيِّكُمْ » .

* * *

قوله عليه السلام : « فادفعوا فى صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس » ، يقال لمن يرام كفه عن أمر يتطاول له : ادفع فى صدره ، وذلك لأنّ من يقدم على أمر ببدنه فيدفع دافع فى صدره حقيقة، فإنه يردّه أو يكاد ، فنقل ذلك إلى الدفع المعنوىّ .

قوله عليه السلام : « وخذوا مَهَل الأيّام » ، أى اغتنموا سَعَة الوقت.وخذوه مناهَبَةً قبل أن يضيق بكم أو يفوت .

قوله عليه السلام : « وحوطوا قواصِىَ الإسلام » : مابَعُدَ من الأطراف والنواحى. ثم قال لهم : « ألا ترون إلى بلادِكم تُغْزَى ! » ، هذا يدلّ عَلَى أن هذه الخطبة بعد انقضاء أمرِ التحكيم ، لأن معاوية بعد أن تمّ عَلَى أبى موسى من الخديعة ماتمّ استعجل أمرَه ، وبعث السّرايا إلى أعمال أمير المؤمنين علىّ عليه السلام .

وتقول : قد رمى فلان صَفاة فلان ، إذا دهاه بداهية ، قال الشاعر :

والدّهْرُ يُوتِرُ قوسَــــه ... يرمى صَفاتك بالمعــا بِلْ

وأصل ذلك الصخرة الملساء ، لا يؤثّر فيها السهام ولا يرميها الرامى ، إلا بعدأن نَبَلَ غيرها ، يقول : قد بلغت غاراتُ أهل الشام حدودَ الــكوفة التى هى دار الملك وسرير الخلافة ، وذلك لا يكون إلا بعد الإثخان فى غيرها من الأطراف .

***

[فصل فى نسب أبى موسى والرأى فيه عند المعتزلة]

ونحن نذكر نسب أبى موسى وشيئا من سيرته وحاله نقلا من كتاب "الاستيعاب" لابن عبد البر المحدّث ، ونتبع ذلك بما نقلناه من غير الــكتاب المذكور. قال ابن عبد البر:

هو عبد الله بن قيس بن سلَيم بن حضارة بن حَرْب بن عامر بن عَنز بن بكر بن عامر

ابن عذر بن وائل بن ناجيه بن الجماهر بن الأشعر ، وهو نَبْت بن أدد بن زيد بن يشجُب بن عريب بن كَهْلان بن سَبَأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان . وأمّه امرأة من عَكّ ، أسلمت وماتت بالمدينة ، واختلف فى أنّه هل هو من مهاجِرة الحبشة أم لا ؟ والصحيح أنّه ليس منهم ، ولكنه أسلمَ ثم رجع إلى بلاد قومه ، فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من الأشعريّين على رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فوافق قدومُهم قدومَ أهل السفينتين جعفر ابن أبى طالب وأصحابه من أرض الحبشة ، فوافَوْا رسول الله صلّى الله عليه وآله بخَيْبر ، فظنّ قومٌ أنّ أبا موسى قدِم من الحبشة مع جعفر .

وقيل إنه لم يهاجر إلى الحبشة ، وإنّما أقبل فى سفينة مع قوم من الأشعريّين ، فرمت الريح سفينَتهم إلى أرض الحبشة ، وخرجوا منها مع جعفر وأصحابه ، فكان قدومهم معاً ، فظنّ قومٌ أنه كان من مهاجرة الحبشة .

قال : وولّاه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من مَخاليف اليمن زَبيد ، وولّاه عمر البصرة ، لمّا عزل المغيرة عنها ، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان فعزله عثمان عنها ، وولّاها عبدَ الله بن عامر بن كُريز ، فنزل أبو موسى الكوفة حينئذ ، وسكنها ، فلمّا كره أهلُ الكوفة سعيد بن العاص ودفعوه عنها ، ولّوْا أبا موسى ، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يوليّه ، فأقرّه على الكوفة ، فلما قتل عثمان عزله علىّ عليه السلام عنها ، فلم يزل واجداً لذلك على علىٍّ عليه السلام ، حتى جاء منه ماقال حذيفة فيه ، فقد روى حُذَيفة فيه كلاما كرهت ذكرَه والله يغفر له (١)

قلت : الكلام الذى أشار إليه أبو عمر بن عبد البرّ ولم يذكره قوله فيه ، وقد ذكر عنده بالدّين ، أما أنتم فتقولون ذلك ، وأمّا أنا فأشهد أنّه عدوّ لله ولرسوله ، وحرْب لهما فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللّعنة ولهم

---

(١) الاستيعاب ٣٨٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ .

سوء الدار . وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين ، أسرّ إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أمرَهم ، وأعلمه أسماءهم .

وروى أن عمارا سئل عن أبي موسى ، فقال : لقد سمعتُ فيه من حُذَيفة قولاً عظيما ، سمعته يقول : صاحب البُرْنس الأسود ، ثم كلَح كُلُوحاً علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط .

وروى عن سويد بن غفلة : قال : كنت مع أبي موسى على شاطىء الفرات فى خلافة عثمان ، فروى لى خبرا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سمعته يقول : « إن بنى إسرائيل اختلفوا ؛ فلم يزل الاختلاف بينهم ، حتى بعثوا حَكمين ضالّين ضلاّ وأضلّا مَن اتبعهما ، ولا ينفكّ أمر أمّتى حتى يبعثوا حكَمين يَضلّان ويُضلّان من تبعهما » ، فقلت له : احذر يا أبا موسى أن تكون أحدَهما ! قال : نخلع قميصه ، وقال : أبرأ إلى الله من ذلك ، كما أبرأ من قميصى هذا .

***

فأما ما تعتقده المعتزلة فيه ، فأنا أذكر ما قاله أبو محمد بن متّويه فى كتاب " الكفاية " قال رحمه الله :

أما أبو موسى فإنه عظم جُرْمه بما فعله ، وأدّى ذلك إلى الضّرر الذى لم يخف حالُه ، وكان علىّ عليه السلام يقنتُ عليه وعلى غيره ، فيقول : اللهمّ العنْ معاوية أولا وعَمْراً ثانيا ، وأبا الأعور السُّلمىّ ثالثا ، وأبا موسى الأشعرىّ رابعا .

روى عنه عليه السلام : أنه كان يقول فى أبى موسى : صبغ بالعلم صبغا وسلخ منه سلخا .

قال : وأبو موسى هو الذى روى عن النبىّ صلى الله عليه وآله أنه قال : كان فى

بنى إسرائيل حكمان ضالّان ، وسيكون فى أمتى حكمان ضالان ، ضالّ من اتبعهما . وأنه قيل له : ألا يجوز أن تكون أحدهما ؟ فقال : لا ـ أو كلاماً ، ما هذا معناه ـ فلمّا بُلِيَ به ، قيل فيه : البلاء موكّل بالمنطق ، ولم يثبت فى توبته ماثبت فى توبة غيره ، وإن كان الشيخ أبو علىّ قد ذكر فى آخر كتاب الحكمين أنه جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فى مرض الحسن بن علىّ ، فقال له : أجئتنا عائدا أم شامتا ؟ فقال بل عائدا ، وحدّث بحديث فى فضل العيادة .

قال ابن متويه : وهذه أمارة ضعيفة فى توبته .

انتهى كلام ابن متويه ، وذكرته لك لتعلم أنه عند المعتزلة من أرباب الكبائر ، وحكمه حكم أمثاله ممن واقع كبيرة ومات عليها .

***

قال أبو عمر بن عبد البرّ : واختلف فى تاريخ موته ، فقيل : سنة اثنتين وأربعين ، وقيل : سنة أربع وأربعين ، وقيل سنة خمسين ، وقيل : سنة اثنتين وخمسين .

واختلف فى قبره ، فقيل : مات بمكّة ودفن بها ، وقيل مات بالكوفة ودفن بها .

(٢٤٣)

الأصْلُ

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله :

هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ ، يُخبرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حُكْمِ مَنْطِقِهِمْ . لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَهُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ ، وَوَلَائِجُ الاعْتِصَامِ ، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ ، وَانْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مَقَامِهِ ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ .

***

الشَّرْحُ :

يقول : بهم يحيا العلم ويموت الجهل ؛ فسمّاهم حياة ذاك ، وموت هذا ، نظرا إلى السببيّة ؛ يدلّكم حلمهم وصفحهم عن الذنوب على علمهم وفضائلهم ، ويدلّكم ماظهر منهم من الأفعال الحسنة على مابطن من إخلاصهم ، ويدلّكم صمتهم وسكوتُهم عمّا لا يعنيهم ، عن حكمة منطقهم .

ويروى : « ويدلّكم صمتُهم على منطقهم » ؛ وليس فى هذه الرواية لفظة « حكم » .

لا يخالفون الحقّ : لا يعدلون عنه ، ولا يختلفون فيه كما يختلف غيرهم من الفرق وأرباب المذاهب ؛ فمنهم من له فى المسألة قولان وأكثر ، ومنهم من يقول قولا ثم يرجع عنه ، ومنهم من يرى فى أصول الدين رأيا ثم ينفيه ويتركه .

ودعائم الإسلام : أركانه .

والولائج : جمع وَلِيجة ، وهى الموضع يدخل إليه ويستَتر فيه ، ويعتصم به .

وعاد الحق إلى نصابه : رجع إلى مستقرّه وموضعه : وانزاح الباطل : زال. وانقطع لسانه : انقطعت حجّته .

عقلوا الدين عقـل رعاية ، أى عرفوا الدين وعلموه معرفة مَن وعى الشىء وفهمه وأتقنه . ووعاية ، أى وعوا الدين وحفظوه وحاطوه ، ليس كما يعقله غيرهم عن سماع ورواية ، فإن من يروى العلم ويسنده إلى الرجال ويأخذه من أفواه الناس كثير ، ومن يحفظ العلم حفظ فهم وإدْرَاكٍ ، أصالَةً لا تقليداً قليل .

تم الجزء الثالث عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ؛
ويليه الجزء الرابع عشر

فهرس الخطب*

صفحة

٢٢٤ ـ من كلام له عليه السلام فى وصف بيعته بالخلافة ٣

٢٢٥ ـ من خطبة له عليه السلام يحث فيها على التقوى ويستطرد إلى وصف الزهاد ٥ـ٨

٢٢٦ ـ من خطبة له عليه السلام خطبها بذى قار وهو متوجه إلى البصرة ٩

٢٢٧ ـ من كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمعة على إثر خلافته ١٠

٢٢٨ ـ من كلام له عليه السلام فى وصف اللسان ، واستطرد إلى وصف زمانه ١٢

٢٢٩ ـ من كلام له عليه السلام ، وقد ذكر عنده اختلاف الناس ١٨

٢٣٠ ـ من كلام له عليه السلام قاله وهو يلى غسل رسول الله وتجهيزه ٢٧ـ٤٣

٢٣١ ـ من خطبة له عليه السلام فى تمجيد الله وتوحيده ، وذكر رسالة محمد عليه السلام ، ثم استطرد إلى عجيب خلق الله لأصناف الحيوان ٤٤ـ٦٦

٢٣٢ ـ من خطبة له عليه السلام فى التوحيد ٦٩ـ٩١

٢٣٣ ـ من خطبة له عليه السلام تختص بالملاحم ٩٥

٢٣٤ ـ من خطبة له عليه السلام يوصى الناس فيها بالتقوى ويذكرهم الموت ويحذرهم الغفلة ٩٩

٢٣٥ ـ من كلام له عليه السلام فى الإيمان ١٠١

٢٣٦ ـ من خطبة له عليه السلام فى الحث على التقوى ويذكر الناس بأمر الآخرة ١١٠ـ١١١

٢٣٧ ـ من خطبة له عليه السلام فى حمد الله وتمجيده والتزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة ١١٥ـ١١٦

٢٣٨ ـ من خطبة له عليه السلام ؛ وهى التى تسمّى الخطبة القاصعة ؛ وتتضمّن ذم إبليس ، ويحذر الناس من سلوك طريقته ١٢٧

(*) وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة

صفحة

٢٣٩ ـ من كلام له عليه السلام قاله لعبد الله بن العباس، وقد جاء برسالة من عثمان وهو محصور ٢٩٦

٢٤٠ ـ من كلام له عليه السلام اقتصّ فيه ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم لحاقه به ٣٠٣

٢٤١ ـ من خطبة له عليه السلام فى الزهد ٣٠٧

٢٤٢ ـ من خطبة له عليه السلام فى شأن الحكمين وذم أهل الشام ٣٠٩

٢٤٣ ـ من خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد عليه السلام ٣١٧

فهرس الموضوعات*

عبد الله بن زمعة ونسبه ١٠، ١١

ذكر من أرتج عليهم أو حصروا عند الكلام ١٣ـ١٧

ذكر طرف من سيرة النبيّ عليه السلام عند موته ٢٧ـ٤٣

من أشعار الشارح فى المناجاة ٥٠ـ٥٤

فصل فى ذكر أحوال الذرّة وعجائب النملة ٥٧ـ٦٣

ذكر غريب أحوال الجرادة وما احتوت عليه من صنوف الصنعة ٦٧ـ٦٨

قصة وقعت لأحد الوعّاظ ببغداد ١٠٧ ـ ١٠٩

فصل فى ذكر الأسباب التى دعت العرب إلى وأد البنات ١٧٤ ـ ١٧٧

ذكر ما كان من صلة علىّ برسول الله فى صغره ١٩٨ ـ ٢٠١

ذكر حال رسول الله فى نشأته ٢٠١ ـ ٢١٢

القول فى إسلام أبى بكر وعلىّ وخصائص كل منهما ٢١٥ ـ ٢٩٥

وصيّة العباس قبل موته لعلىّ ٢٩٧ ـ ٢٩٩

فصل فى نسب أبى موسى والرأى فيه عند المعتزلة ٣١٣ ـ ٣١٦

(*) وهى الموضوعات الواردة فى الشرح .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع عشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٩٦٧ م — ١٣٨٧ هـ)
جميع الحقوق محفوظة

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

باب
الكتبِ والرّسائل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

الأصلُ :

باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأولياء[1] بلاده ، ويدخل فى ذلك ما اختير من عهوده إلى عماله ووصاياه لأهله وأصحابه .

الشرح :

لمّا فرَغ من إيراد المختار من خطَب أمير المؤمنين عليه السلام وكلامه الجارى مَجْرَى الخُطب من المواعظ والزواجر ، شرع فى إيراد بابٍ من مختار كلامه عليه السلام ، وهو ما كان جارياً مَجْرَى الرّسائل والكُتب ، ويدخل فى ذلك العهود والوصايا . وقد أورد فى هذا الباب ما هو بالباب الأوّل أشبَه ، نحو كلامه عليه السلام لشُريح القاضى لمّا اشترى دارا ، وكلامه لشريح بن هانئ لمّا جعله على مقدّمته إلى الشام .

وسمى ما يكتب للولاة عهدا اشتقاقا من قولهم : عهدت إلى فلان ، أى أوصيته .

---

(١) ا : « وأمراء بلاده » .

(١)

الأصل :

من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة:

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ ،جَبْهَةِ ٱلْأَنْصَارِ وَسَنَامِ ٱلْعَرَبِ.
أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ .
إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ ٱسْتِعْتَابَهُ .وَأُقِلُّ[١] عِتَابَهُ ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِما فِيهِ ٱلْوَجِيفُ،وَأَرْفَقُ حِدَائِهِما ٱلْعَنِيفُ.وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ،فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ قَتَلُوهُ،وَ بَايَعَنِي ٱلنَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ ، وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ .

وَٱعْلَمُوا أَنَّ دَارَ ٱلْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا ، وَجَاشَتْ جَيْشَ ٱلْمِرْجَلِ ، وَقَامَتِ ٱلْفِتْنَةُ عَلَى ٱلْقُطْبِ ، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ . إِنْ شَاءَ ٱللهُ .

***

الشرح :

قوله : « جبهة الأنصار » ؛ يمكن أن يريدَ جماعة الأنصار ، فإنّ الجبهة فى اللغة الجماعة ويمكن أن يريد به سادة الأنصار وأشرافهم ، لأنّ جبهة الإنسان أعلَى أعضائه ، وليس يريد بالأنصار هاهنا بنى قَيْلة[٢] ، بل الأنصار هاهنا الأعوان .

---

(١) مخطوطة النهج : « فأقل » .
(٢) هى قيلة أم الأوس والخزرج .

قوله عليه السلام : « وسَنام العرب » ؛ أى أهل الرفعة والعلوّ منهم ، لأنّ السنام أعلى أعضاء البعير .

قوله عليه السلام : « أُكثِر استعتابه وأُقلُّ عتابه » ، الاستعتاب : طلب العُتْبى ، وهى الرّضا ، قال : كنت أكثر طلبَ رضاه ، وأقل عتابه وتعنيفه على الأمور ، وأمّا طلحة والزبير فكانا شديدَيْن عليه .

والوجيف : سير سريع ، وهذا مَثَلٌ للمشمرين[1] فى الطعن عليه ، حتى إنّ السّير السريع أبطأ ما يسيران فى أمره ، والحُداء العنيف أرفق ما يحرّضان به عليه .

ودار الهجرة : المدينة .

وقوله : « قد قلعت بأهلها وقلعوا بها » ، الباء ها هنا زائدة فى أحد الموضعين ، وهو الأول ، وبمعنى « من » فى الثانى ، يقول : فارقت أهلها وفارقوها ، ومنه قولهم : « هذا منزل قُلْعة » أى ليس بمستوطن .

وجاشت : اضطربت . والمِرْجل : القِدْر .

ومن لطيف الكلام قوله عليه السلام : « فكنتُ رجلا من المهاجرين » ، فإن فى ذلك من التخلّص والتبرّى ما لا يخفى على المتأمّل ، ألا ترى أنه لم يبق عليه فى ذلك حجّة لطاعن ، حيث كان قد جعل نفسه كواحدٍ من عُرْض المهاجرين ، الذين بنفرٍ يسير منهم انعقدت خلافة أبى بكر ، وهم أهل الحلّ والعقد ، وإنما كان الإجماع حجّةً لدخولهم فيه .

ومن لطيف الكلام أيضا قوله : « فأُتيحَ له قوم قتلوه » ، ولم يقل : « أتاح الله له قوما » ، ولا قال : « أتاحَ له الشيطان قوماً » ، وجعل الأمر مبهما .

وقد ذكر أنّ خط الرضىّ رحمه الله « مستكرِهين » بكسر الراء ، والفتح أحسن وأصوب ، وإن كان قد جاء : استكرهتُ الشىء بمعنى كرهته .

---

(١) ا : « وهذا مثل فى العرب للمشمر فى الطعن عليه » .

وقال الراوندىّ : المراد بدار الهجرة ها هنا الكوفة التى هاجر أمير المؤمنين عليه السلام إليها ، وليس بصحيح ، بل المراد المدينة ، وسياق الكلام يقتضى ذلك ، ولأنّه كان حين كتب هذا الكتاب إلى أهل الكوفة بعيداً عنهم ، فكيف يكتب إليهم يخبرهم عن أنفسهم .

***

[أخبار علىّ عند مسيره إلى البصرة ، ورسله إلى أهل الكوفة]

وروى محمّد بن إسحاق عن عمّه عبد الرحمن بن يسار القرشىّ ، قال : لمّا نزل علىّ عليه السلام الرّبَذة متوجّها إلى البصرة بعث إلى الكوفة محمّد بن جعفر بن أبى طالب ومحمد بن أبى بكر الصديق ، وكتب إليهم هذا الكتاب ، وزاد فى آخره :

لحسبى بكم إخواناً ، وللدين أنصارا ، فـ ﴿ انفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذلِكُمْ خيرٌ لَكُمْ إن كُنتم تعلَمُونَ ﴾[١] .

وروى أبو مِخْنف ، قال : حدّثنى الصَّقْعب ، قال : سمعتُ عبد الله بن جُنادة يحدّث أنّ عليًا عليه السلام لمّا نزل الرّبَذَة بعث هاشم بن عُتْبة بن أبى وقّاص إلى أبى موسى الأشعرىّ ، وهو الأمير يومئذ على الكوفة ، لينفِر إليه النّاس ، وكتب إليه معه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . أمّا بعد ، فإنّى قد بعثت إليك هاشم بن عُتْبة لتُشْخِص إلىّ مَنْ قِبَلك من المسلمين ليتوجّهُوا إلى قوم نكثوا بيعتى ، وقتلوا شيعتى ، وأحدثوا فى الإسلام هذا الحدَث العظيم ، فاشخَص بالنّاس إلىّ معه حين يقدم عليك ، فإنى لم أولكَ المصر الّذِى أنت فيه ، ولم أقرك عليه إلّا لتكون من أعوانى على الحقّ ، وأنصارى على هذا الأمر ، والسّلام .

---

(١) سورة التوبة ٤١ .

فأما رواية محمد بن إسحاق فإنه قال : لمّا قدِم محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر الكوفة ، استنفرا[1] النّاس ، فدخل قومٌ منهم على أبى موسى ليلًا ، فقالوا له : أشِرْ علينا برأيك فى الخروج معَ هذين الرجلين إلى علىّ عليه السلام ، فقال : أمّا سبيلُ الآخرة فالزموا بيوتكم ، وأمّا سبيلُ الدنيا فاشخصوا معهما . فمنع بذلك أهلَ الكوفة من الخروج. وبلغ ذلك المحمديْن ، فأغلظا لأبى موسى ، فقال أبو موسى : والله إنّ بيعة عثمان لفى عنق علىّ وعنقِي وأعناقكما ، ولو أردنا قتالًا ما كنّا لنبدأ بأحدٍ قبل قتَلة عثمان . فخرجا من عنده ، فلحقا بعلىّ عليه السلام ، فأخبراه الخبر .

وأمّا رواية أبى مِخنف ؛ فإنه قال : إنّ هاشم بن عُتْبة لمّاقدِم الكوفة، دعا أبوموسى السّائبَ بن مالك الأشعرىّ ، فاستشاره ، فقال : اتبع ما كتب به إليك . فأبى ذلك ، وحبس الكتاب ، وبعث إلى هاشم يتوعدّه ويخوّفه .

قال السائب : فأتيتُ هاشما فأخبرتُه برأى أبى موسى ، فكتب إلى علىٍّ عليه السلام :

لعبد الله على أميرالمؤمنين من هاشم بن عُتْبة . أمّا بعدُ ياأميرَ المؤمنين ؛ فإنى قدمت بكتابك على امرئ مُشاقّ بعيد الوُدّ ، ظاهر الغلّ والشنآن ، فتهددنى بالسجن ، وخوّفنى بالقتل ، وقد كتبتُ إليك هذا الكتاب مع المحلّ بن خليفة، أخى طيّئ ، وهو من شيعتك وأنصارك ، وعنده علمُ ماقبلَنا ، فاسأله عمّا بدا لك ، واكتب إلىّ برأيك والسلام .

قال : فلما قدم المحلّ بكتاب هاشم على علىٍّ عليه السلام سلّم عليه ، ثم قال : الحمدُ لله الذِى أدّى الحقّ إلى أهله ، ووضعه موضعه؛ فكرهَ ذلك قوم قدوالله كرهوا نبوّة محمدصلى الله عليه وآله ، ثم بارزوه وجاهدوه ، فردّالله عليهم كيدَهم فى نحورهم ، وجعل دائرة السّوْء عليهم . والله ياأميرَالمؤمنين لنجاهدنّهم معك فى كلّ موطن؛ حفظا لرسول الله صلى الله عليه وآله فى أهل بيته ، إذ صاروا أعداء لهم بعده .

---

(١) ا : « واستنفرا » ، وما أثبته من ب .

فرحّب به علىّ عليه السلام ، وقال له خيرا ، ثم أجلسه إلى جانبه ، وقرأ كتاب هاشم ، وسأله عن النّاس وعن أبى موسى ، فقال : والله ياأميرَ المؤمنين ، ماأثقُ به ولا آمنه على خلافك ، إن وجد مَنْ يساعده على ذلك . فقال علىٌّ عليه السلام : والله ما كان عندى بمؤتمَن ولا ناصح ، ولقد أردت عزْله فأتانى الأشتر ، فسألنى أن أقرّه ، وذكر أنّ أهل الـكوفة به راضون فأقررتُه .

***

وروى أبو مِخْنَف ، قال : وبعث علىٌّ عليه السّلام من الرَّبَذة بعد وصول المحلّ بن خليفة ،(١أخى طيّئ١)، عبدَ الله بن عباس ومحمدَ بن أبى بكر إلى أبى موسى ؛ وكتب معهما :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، أمّا بعد يابن الحائك ، ياعاضّ أيْرِ أبيه ، فوالله إنى كنت لأرى أن بُعْدك من هذا الأمر الذى لم يجعلك الله له أهلا ، ولا جعل لك فيه نصيبا ، سيمنعك من ردّ أمرى والانتزاء[٢] علىّ . وقد بعثت إليك ابنَ عباس وابنَ أبى بكر فخلّهما والمِصْر وأهلَه ، واعتزل عملنا مذءوما مدحورا . فإن فعلت وإلّا فإنّى قد أمرتُهما أن ينابذاك على سواء ، إنّ الله لايهدى كيدَ الخائنين . فإذا ظهرا عليك قطّعاك إرْبًا إرْبًا ، والسلام على مَنْ شكر النعمة ، ووفَّى بالبيْعة ، وعمِل برجاء العاقبة .

قال أبو مِخْنَف : فلمّا أبطأ ابنُ عبّاس وابنُ أبى بكْر عن علىٍّ عليه السلام ، ولم يدرِ ماصنعا ، رحل عن الرَّبَذة إلى ذى قارٍ فنزلها ، فلمّا نزل ذا قارٍ ، بعث إلى الـكوفة الحسنَ ابنَه عليـه السلام وعمّارَ بن ياسر وزيد بن صُوحان وقيسَ بن سعد بن عُبـادة ، ومعهم كتاب إلى أهل الـكوفة ، فأقبلوا حتى كانوا بالقادسيّة ، فتلقّاهم النّاس ، فلما دخلوا الـكوفة قرءوا كتاب علىّ ، وهو

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين ، إلى مَنْ بالـكوفة من المسلمين :

(١ـ١) ساقط من ب .

(٢) الانتزاء : الوثوب .

أمّا بعدُ ؛ فإنى خرجت مخرجى هذا ؛ إمّا ظالما، وإمّا مظلوما، وإماباغيا ، وإمامبغيًّا علىّ ، فأنشدالله رجلاً بلغه كتابى هذا إلّا نفَر إلىّ ، فإن كنتُ مظلوما أعاننى ، وإن كنت ظالما استعتبنى . والسلام .

قال أبو مخنف : فحدّثنى موسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلَى ، عن أبيه ، قال :أقبلنا مع الحسن وعَمّار بن ياسر من ذِ قارٍ ، حتى نزلنا القادسيّة ، فنزل الحسن وعمّار ، ونزلنا معهما ، فاحتبَى عَمّارٌ بحمائل سيفه ، ثم جعل يسأل الناس عن أهل الكوفة وعن حالهم، ثم سمعتُه يقول : ماتركت فى نفسى حزّة أهمّ إلىّ من ألاّ نكون نبشنا عثمان من قبره، ثم أحرقناه بالنار .

قال : فلمّا دخلَ الحسن وعمّار الكوفة ،اجتمع إليهما النّاس ، فقام الحسن ،فاستنفر النّاس ، فحمِد الله وصلّى على رسوله ، ثم قال : أيّها الناس ، إنّا جئناندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنّة رسوله ، وإلى أفقه مَنْ تفقّه من المسلمين ، وأعدل مَنْ تعدّلون ،وأفضلِ من تفضّلُون ، وأوْفَى مَنْ تبايعون ، مَنْ لم يَعِبْه القرآن ، ولم تُجهّلْه السّنّة ولم تقعدبه السابقة ، إلى مَنْ قرّبه الله تعالى إلى[1] رسوله قرابتين: قرابة الدين وقرابة الرّحِم ، إلى مَنْ سبق النّاس إلى كلّ مأثُرة ، إلى مَنْ كفى الله به رسوله والنّاس متخاذلون؛ فقرب منه وهم متباعدون،وصلّى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجِمون ، وصدّقه وهم يكذّبون. إلى مَنْ لم ترَدّ له رواية ولا تُكافأ له سابقة ، وهويسألكم النّصر ،ويدعوكم إلى الحقّ ، ويأمركم بالمسير إليه ، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعتَه ، وقتلوا أهْلَ الصلاح من أصحابه ، ومثّلوا بعمّاله ، وانتهبوا بيت ماله .فاشخصوا إليه رحمكم الله ، فمروا بالمعروف وانهَوْا عن المنكر ، واحضُروا بما يحضر به الصالحون[2] .

قال أبومخنف : حدثنى جابر بن يزيد ،قال: حدثنى تميم بن حذيم الناجىّ ،قال:قدم علينا

---

(١) ا : « ورسوله » . (٢) تاريخ الطبرى . . .

الحسنُ بن عليٍّ عليه السلام وعمّار بن ياسر، يستنفران النّاس إلى عليّ عليه السلام، ومعهما كتابه، فلما فرغا من قراءة كتابه، قام الحسن ــ وهو فتًى حَدَث، والله إنى لأرثى له من حداثة سنّه وصعوبة مقامه ــ فرماه النّاسُ بأبصارهم وهم يقولون: اللهمّ سدّد منطق ابن بنت نبيّنا! فوضع يده على عمود يتساند إليه، وكان عليلا من شكوى به، فقال: الحمدُ لله العزيز الجبّار، الواحد القهّار، الكبير المتعال، ﴿سواءٌ منكم من أسَرَّ القول ومَنْ جَهر به ومَنْ هو مستخْفٍ باللّيل وساربٌ بالنهار﴾. أحمَدُه على حسن البلاء، وتظاهر النّعماء، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدّة ورخاء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، امتنّ علينا بنبوّته، واختصّه برسالته، وأنزل عليه وحيَه، واصطفاه على جميع خَلْقِه، وأرسله إلى الإنس والجنّ، حين عُبِدت الأوثان وأطيع الشيطان، وجُحِد الرحمن، فصلّى الله عليه وعلى وآله وجزاه أفضل ماجزى المسلمين. أمّا بعد فإنى لا أقول لكم إلّا ماتعرفون، إن أميرَ المؤمنين عليّ بن أبى طالب ــ أرشدَ الله أمرَه، وأعزّ نصره ــ بعثنى إليكم يدعوكم إلى الصواب، وإلى العمل بالكتاب، والجهاد فى سبيل الله، وإن كان فى عاجل ذلك ماتكرهون، فإنّ فى آجله ماتحبُّون إن شاء الله. ولقد علمتم أنّ عليّاً صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وحدَه، وإنه يومَ صَدّق به لفى عاشرة من سنّه، ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله جميعَ مشاهده. وكان من اجتهاده فى مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة فى الإسلام ماقد بلغكم، ولم يزل رسولُ الله صلى الله عليه وآله راضياً عنه، حتى غمّضه بيدِه وغسله وحده، والملائكة أعوانه، والفضل ابن عمّه ينقل إليه الماء، ثم أدخله حفرته، وأوصاه بقضاء دينْه وعِدَاته، وغير ذلك من أموره، كلّ ذلك من منّ الله عليه. ثم والله مادعا إلى نفسه، ولقد تداكّ الناس عليه تداكّ الإبل الهِيم عند ورُودها، فبايعوه طائعين، ثم نكث منهم ناكثون بلا حدَثٍ أحدثه، ولا خلافٍ أتاه حسداً له وبغياً عليه. فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعتِه، والجدّ والصبر والاستعانة بالله

والخفوف إلى مادعا كم إليه أمير المؤمنين . عصَمنا الله وإيّا كم بما عصم به أولياءه وأهل طاعته ، وألهمنا وإيّا كم تقواه ، وأعاننا وإيّا كم على جهاد أعدائه. وأستغفر الله العظيم لى ولكم.

ثم مضى إلى الرُّحبة ، فهيّأ منزلا لأبيه أمير المؤمنين .

قال جابر : فقلت لتميم : كيف أطاق هذا الغلام ماقد قصصتَه من كلامه ؟ فقال : ولَمَا سقط عَنِّى من قوله أكثر ، ولقد حفظت بعض ماسمعت .

***

قال : ولمّا نزل علىٌّ عليه السلام ذا قارٍ ، كتبت عائشة إلى حفصة بنت عمر : أمّا بعد، فإنى أخبرك أن عليّا قد نزل ذا قارٍ ، وأقام بها مرعوباً خائفا لما بلغه من عُدّتنا وجماعتنا، فهو بمنزلة الأشقر ؛ إن تقدم عُقِر ، وإن تأخّر نُحِر ، فدعت حفصة جوارىَ لها يتغنّين ويضربن بالدّفوف ، فأمرتهنّ أن يقلن فى غنائهنّ : ما الخبر ما الخبر ، علىّ فى السفر ، كالفرس الأشقر ، إن تقدم عُقِر ، وإن تأخّر نُحِر .

وجعلتْ بناتُ الطُّلَقاء يدخلْن على حفصة ، ويجتمعن لسماع ذلك الغناء .

فبلغ أمّ كُلثوم بنت علىّ عليه السلام ، فلبست جلابيبها ، ودَخلت عليهنّ فى نسوة متنكّرات ، ثم أسفرتْ عن وجهها ، فلمّا عرفتها حَفصة خجلت ، واسترجعت ، فقالت أم كلثوم : لئن تظاهرتُما عليه منذُ اليوم ، لقد تظاهرتما على أخيه من قبل ، فأنزل الله فيكما ماأنزل !

فقالت حَفصة : كفى رحمك الله ! وأمرَتْ بالكتاب فمزّق ، واستغفرت الله .

قال أبو مِخْنف : روى هذا جرير بن يزيد ، عن الحكم ، ورواه الحسن بن دينار ، عن الحسن البصرىّ .

وذكر الواقدىّ مثل ذلك ، وذكر المدائنىّ أيضا مثله ، قال : فقال سهلُ بن حُنَيف فى ذلك هذه الأشعار :

عَذَرْنَا الرِّجَالَ بحَرْبِ الرِّجَالِ ... فما للنساء وما للسِّبابِ !
أمَا حسبُنَا ما أُتينا به ! ... لكِ الخيرُ من هَتْك ذاك الحجابِ
ومخرجُها اليومَ مِنْ بيتِها ... يُعرِّفها الذَّنْبَ نَبْحُ الكلابِ
إلى أن أتانا كتابٌ لها ... مشومٌ، فياقبْحَ ذاك الكتابِ !

قال : فحدّثنا الكلبىّ ، عن أبى صالح أنّ عليا عليه السلام ؛ لمّا نزل ذا قارٍ فى قلّة من عسكره ، صعِد الزُّبير مِنبَر البصرة ، فقال : ألا ألف فارس أسير بهم إلى علىّ ، فأبيّته بياتا ، وأصبّحه صباحا ، قبل أن يأتِيَه المدد ! فلم يجبه أحدٌ ، فنزل واجماً ،وقال:هذه والله الفتنة التى كُنّا نحدَّث بها ! فقال له بعض مواليه : رحمك الله ياأباعبد الله ! تسمّيها فتنة ثم نقاتل فيها ! فقال : ويحك ! والله إنا لَنبْصِر ثم لا نَصْبِر. فاسترجع المولَى ثم خرج فى اللّيل فارًّا إلى علىّ عليه السلام فأخبره ، فقال : اللهمّ عليك به !

***

قال أبو مخنف : ولمّا فرغ الحسن بن علىّ عليه السلام من خُطبته ، قام بعده عمّار ، فحمِد الله وأثنَى عليه ، وصلّى على رسوله ، ثم قال : أيها النّاس ، أخو نبيّكم وابن عمّه يستنفركم لنصر دين الله ،وقد بلاكم الله بحقّ دينكم ،وحرمة أمّكم ، فحقّ دينكم أوجبُ، وحرمته أعظم . أيها الناس ، عليكم بإمام لا يؤدَّب ، وفقيه لا يعلَّم ، وصاحب بأس لا ينكِل ، وذى سابقة فى الإسلام ليست لأحد ، وإنّكم لو قد حضرتموه بيّن لكم أمركم إن شاء الله .

قال : فلمّا سمع موسى خطبة الحسَن وعمّار ، قام فصعِد المنبر ، وقال : الحمدُ لله الّذى أكرمنا بمحمّد ، فجمعنا بعد الفُرْقة ، وجعلنا إخوانًا متحابّين بعد العداوة، وحرّم علينا دماءنا وأموالنا ، قال الله سبحانه : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ١٨٨

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾ (١) . فاتقوا الله عباد الله ، وضعوا أسلحتكم ، وكفُّوا عن قتال إخوانكم .

أمّا بعد يا أهلَ الكوفة ، إن تطيعوا الله بادياً ، وتطيعونى ثانيا ، تكونوا جُرثومةً من جراثيم العرب ، يأوِى إليكم المضطر ، ويأمَنُ فيكم الخائف . إنّ عليا إنّما يستنفِركم لجهاد أمّكم عائشة وطلحة والزُّبير حوارىّ رسول الله ومَنْ معهم من المسلمين ، وأنا أعلم بهذه الفِتَن أنها إذا أقبلت شبّهت ، وإذا أدبرت أسفرت ، إنّى أخاف عليكم أن يلتقى غارّان منكم فيقتتلا ثم يتركا كالأحلاس الملقاة بنجوةٍ من الأرض ، ثم يبقى رِجْرِجةٌ (٢) من النّاس ، لا يأمُرُون بالمعروف ، ولا ينهوْن عن منكر . إنها قد جاءتكم فتنة كافرةٌ لا يدرَى من أين تؤتَى ! تترك الحليم حيران ! كأنّى أسمعُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله بالأمس يذكر الفِتَن ، فيقول : « أنت فيها نائماً خيرٌ منك قاعدا ، وأنت فيها جالساً خير منك قائما ، وأنت فيها قائماً خيرٌ منك ساعياً » . فثلِّموا سيوفكم وقصّفوا رماحكم ، وانْصِلوا (٣) سهامَكم ، وقطّعوا أوتارَكم ، وخلُّوا قريشا ترتُقْ فتقها ، وترأبْ صَدْعها ، فإن فعلتْ فلأنفسها مافعلت ، وإن أبت فعلى أنفسِها ما جَنَتْ ، سمنُها فى أديمها . استنصحونى ولا تستغشّونى ، وأطيعونى ولا تعصونى ، يتبيّن لكم رشدُكم ، ويَصْلَى هذه الفتنة مَنْ جناها .

فقام إليه عمّار بن ياسر ، فقال : أنت سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك ! قال : نعم هذه يدى بما قلت ، فقال : إن كنت صادقاً فإنّما عناك بذلك وحدك ، واتّخذ عليك الحجّة ، فالزم بيتك ولا تدخلنّ فى الفتنة ، أما إنّى أشهدُ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمر علياً بقتال الناكثين ، وسمّى له فيهم مَنْ سمّى ، وأمره بقتال القاسطين ، وإن شئت لأقيمنّ لك شهودا يشهدون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة النساء ٩٣ .

(٢) الرجرجة : البقية ، وأصله فى الماء .

(٣) أنصل السهم : أزال عنه النصل .

إنّما نهاك وحدك ، وحذّرك من الدخول فى الفتنــة . ثم قال له : أعطنى يدك على ماسمعت . فمدّ إليه يده ، فقال له عمّار : غلب الله مَنْ غالبه وجاهـده ! ثم جذبه فنزل عن المنبر .

***

وروى محمد بن جرير الطبرى فى " التاريخ " قال : لما أتى عليًا عليه السلام الخبرُ وهو بالمدينة بأمْرِ عائشة وطلحة والزبير ، وأنّهم قد توجّهوا نحو العراق ،خرجَ يُبادر[1] ، وهو يرجوأن يدرِكَهم ويردّهم ، فلمّا انتهى إلى الرَّبَذة أتاه عنهم أنّهم قد أمعنوا، فأقام بالرَّبَذة أيّاماً ، وأتاه عنهم أنّهم يريدون البَصْرة ، فسُرّ بذلك ،وقال :إنّ أهل الـكوفة أشدُّ لى حُبًّا ، وفيهم رؤساء العرب وأعلامهم . فـكتب إليهم : إنّى قد اخترتـكم على الأمصار ، وإنى بالأثر[2] .

***

قال أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله : كتب علىٌّ عليه السلام من الرَّبَذة إلى أهل الـكوفة : أما بعد ، فإنى قد اخترتـكم ، وآثرت النُّزولَ بين أظهركم ، لمـا أعرف من مودّتـكم وحبّكم لله ورسوله ، فمن جاءنى ونصرنى فقـد أجاب الحقّ ، وقضى الذى عليه .

قال أبو جعفر : فأوّلُ مَنْ بعثه علىٌّ عليه السلام من الرَّبذة إلى الـكرفة محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر ، فجاء أهلُ الـكوفة إلى أبى موسى،وهو الأميرعليهم ليستشيروه[3] فى الخروج إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فقال لهم : أمّا سبيلُ الآخرة فأنْ تقعدُوا، وأمّا سبيلُ الدنيا فأن تخرجُوا .

وبلغ المحمدَيْن قولُ أبى موسى الأشعرىّ ، فأتياه وأغلظا له ، فأغلظ لهما ، وقال :

---

(١) تاريخ الطبرى: « يبادرهم » . (٢) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٠٦ (طبعة أوربا) .
(٣) ب : « يستشيرونه » .

لا يحلّ لك القتال مع علىّ حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلّا قتل حيث كان.

وقالت أخت علىّ بن عدىّ، من بنى عبد العُزّى بن عبد شمس، وكان أخوها علىّ ابن عدىّ من شيعة علىّ عليه السلام، وفى جملة عسكره:

لاهمّ فاعقِرْ بعلىّ جَمَلَهْ ولا تبارِكْ فى بعيرٍ حَمَلَهْ

* ألا علىَّ بن عدىّ ليس لَهْ *

قال أبو جعفر: ثم أجمع علىٌّ عليه السلام على المسير من الرَّبذة إلى البصرة، فقام إليه رفاعة بن رافع، فقال: ياأميرَ المؤمنين؛ أىّ شىء تريد؟ وأين تذهب بنا؟ قال: أمّا الذى نريد وننوى فإصلاح؛ إن قبلوا منّا وأجابوا إليه، قال، فإن لم يقبلوا، قال: ندعوهم ونعطيهم من الحقّ ما نرجو أن يرضَوْا به(٢)، قال: فإن لم يرضوا! قال: نَدَعُهم ما تركونا: قال: فإن لم يتركونا، قال: نمتنع منهم، قال: فنعْم إذا.

وقام الحجّاج بن غَزِيّة الأنصارىّ، فقال: والله ياأميرَ المؤمنين لأرضينَّك بالفعل، كما أرضيتَنى منذ اليوم بالقول. ثم قال:

دَرَاكِها دَرَاكِها قَبْلَ الفَوْتْ وانفرْ بنا واسمُ بِنا نحوَ الصَّوتْ

* لا وألتْ نفسى إن خفت الموتْ *

والله لننصرنّ الله عزّ وجلّ كما سمّانا أنصارا.

قال أبو جعفر رحمه: وسار علىٌّ عليه السلام نحو البَصْرة، ورايتُه مع ابنه محمّد ابن الحنفيّة، وعلى ميمنته عبدُ الله بن عباس، وعلى ميسرته عُمَر بن أبى سلمة، وعلىٌّ عليه السلام فى القلْب على ناقة حَمْراء، يقودُ فرساً كُمَيْتا(٣). فتلقّاه بِفَيدٍ غلامٌ من

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٣٩، مع تصرف واختصار.

(٢) الطبرى: «ونعطيهم الحق ونصبر».

(٣) الكميت من الخيل: الذى خالط حمرته قنوء؛ أى سواد غير خالص.

بنى سعد بن ثعلبة ، يدعى مُرّة ، فقال : مَنْ هؤلاء ؟ قيل : هذا أمير المؤمنين ، فقال : سَفرةٌ قانية ، فيها دماء من نفوس فانية . فسمعها علىٌّ عليه السلام فدعاه، فقال : ماأسمُك؟ قال : مُرّة ، قال أمرّ الله عيشك ! أكاهن سائر اليوم ؟ قال : بل عائف ، فخلّى سبيله . ونزل بَفيْد فأتته أسدٌ وطيّئٌ ، فعرضوا عليه أنفسهم ، فقال : الزموا قراركم ، ففى المهاجرين كفاية .

وقدِم رجلٌ من الكوفة فَيْداً ، فأتى عليا عليه السلام ، فقال له : من الرّجل ؟ قال : عامر بن مطرّف ، قال : الليثى ؟ قال : الشيْبانىّ ، قال: أخبرْنى عمّا وراءك؟ قال : إن أردتَ الصّلح فأبو موسى صاحبُك ،وإن أردتَ القتال فأبو موسى ليس لك بصاحب. فقال عليه السلام : ماأريد إلّا الصلح إلّا أن يُرَدّ علينا[1] .

قال أبو جعفر : وقدم عليه عثمان بن حُنَيف ، وقد نتف طلحة والزبير شعرَ رأسه ولحيتَه وحاجبيْه ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، بعثتَنى ذا لحية ، وجئتك أمرد ، فقال : أصبت خيرا وأجرا . ثم قال : أيُّها النّاس ، إنّ طلحة والزُّبير بايعانى ، ثم نكثانى بيعتى ، وألّبا علىّ النّاس ، ومن العجَب انقيادهما لأبى بكر وعمر وخلافهما علىّ ، والله إنّهما ليعلمان أنّى لستُ بدونهما[2] . اللهمّ فاحلُل ماعقَدا، ولاتبرم ماقدأحْكما فى أنفسهما، وأرِهما المساءة فيما قد عملا[3] .

قال أبو جعفر : وعاد محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر إلى علىٍّ عليه السلام ، فلقياه وقد انتهى إلى ذى قارٍ ، فأخبراه الخبر ، فقال علىّ عليه السلام لعبد الله بن العباس : اذهب أنت إلى الكوفة ، فادعُ أبا موسى إلى الطاعة ، وحَذِّره من العصيان والخلاف ، واستنفِر النّاس . فذهب عبد الله بن عباس حتى قدِم الكوفة ، فلقىَ أبا موسى، واجتمع الرؤساء من أهل الكوفة . فقام أبو موسى نخطبهم ، وقال: إنّ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم صحبُوه فى مواطن كثيرة ، فهم أعلم بالله ممن لم يصحبْه ، وإنّ لكم علىّ حقًّا ،

(١) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٤١ — ٣١٤٣ .

(٢) الطبرى : « بدون رجل .

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٤٣ ، ٣١٤٤ .

وأنا مؤدّيه إليكم، أمراً ألا تستخفّوا بسلطان الله ، وألّا تجترئوا [على الله] أن تأخذوا كلّ مَنْ قدم عليكم من أهل المدينة فى هذا الأمر ، فتردُّوه إلى المدينة ، حتى تجتمع الأمّة على إمام ترتضِى به ؛ إنها فتنة صمّاء ، النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جُرثومةً من جرائيم العرب، أغمِدوا سيوفكم ، وأنصلوا أسنّتكم ، واقطعوا أوتار قسيّكم ، حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلِيَ هذه الفتنة .

قال أبو جعفر رحمه الله : فرجع ابنُ عبّاس إلى علىّ عليه السلام، فأخبره ، فدعا الحسن ابنَه عليه السلام وعمّار بن ياسر ، وأرسلهما إلى الكوفة ، فلمّا قدماها كان أوّل مَنْ أتاهما مسروق بن الأجدَع ، فسلّم عليهما ، وأقبل على عمّار ، فقال : ياأبا اليقظان ، علامَ قتلتم أمير المؤمنين ؟ قال : علَى شتمِ أعراضنا ، وضرْب أبشارنا . قال : فوالله ماعاقبتم بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين . ثم خرج أبو موسى فلقيَ الحسن عليه السلام فضمّه إليه ، وقال لعمّار : ياأبا اليقظان ، أغدوْتَ فيمَنْ غدَا على أمير المؤمنين[1] ، وأحللت نفسك مع الفُجّار ؟ قال : لم أفعل، ولِمَ تَسُوءنى ؟ فقطع عليهما الحسن ، وقال لأبى موسى : ياأبا موسى. لم تثبِّطُ النّاس عنّا ، فوالله ماأردنا إلا الإصلاح ، ومامثل أمير المؤمنين يخاف على شىء ، قال أبو موسى : صدقت بأبى وأمّى ! ولكنّ المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: « ستكونُ فتنة[2] .. » وذكر تمام الحديث. فغضب عمار وساءه ذلك، وقال : أيّها الناس ، إنّما قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ذلك له خاصّة، وقام رجلٌ من بنى تميم فقال لعمّار : اسكت أيّها العبد ! أنت أمسِ مع الغوغاء ، وتسافِه أميرنا اليوم ! وثار زيد بن صُوحان وطَبَقته ، فانتصروا لعمّار ، وجعل أبو موسى يكفُّ النّاس ويردعُهم عن الفتنة . ثم انطلق حتى صعِد المنبر ، وأقبل زيد بن صُوحان ومعه كتاب من عائشة إليه خاصّة ، وكتاب منها إلى أهل الكوفة عامّة ، تثبّطهم عن نُصرة

(١) الطبرى : « أغدوت فيمن غدا »

(٢) بقية الحديث : « القاعد فيها خير من النائم ، والقائم خير من الماشى والماشى خير من الراكب » .

علىّ ، وتأمرهم بلزوم الأرض ، وقال : أيُّها الناس ، انظروا إلى هذه ، أُمِرَتْ أن تقَرّ فى بيتها ، وأمِرنا نحن أن نقاتِل ، حتى لاتكون فتنة ، فأمرتنا بما أمِرتْ به ، وركبت ماأمِرْنا به ، فقام إليه شَبَث بن رِبْعىّ . فقال له : وما أنت وذاك أيها العُمانىّ الأحمق ! سرَقْتَ أمس بجَلُولاء فقطعَكَ الله ،وتسبّ أم المؤمنين ! فقام زيد ، وشال يدَه المقطوعة وأومأ بيده إلى أبى موسى وهو على المِنْبر ، وقال له : ياعبدَ الله بن قَيْس ، أتردّ الفرات عن أمواجِهِ ! دَعْ عنك مالست تدركه ، ثم قرأ : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ... ﴾[1] الآيتين ، ثم نادى: سيرُوا إلى أميرالمؤمنين وصراط سيّد المرسلين، وانفِرُوا إليه أجمعين. وقام الحسن بن علىّ عليه السلام ، فقال :أيُّها الناس ، أجيبوادعوةَ إمامكم ، وسيرُوا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر مَنْ ينفر إليه ، والله لأن يليَه أولُو النُّهى أمثلُ فى العاجلة ، وخيرٌ فى العاقبة ؛ فأجيبوا دعوتَنا ، وأعينونَا على أمرنا ؛ أصلحكم الله !

وقام عبد خير فقال : ياأبا موسى ، أخبِرْنى عن هذين الرجلَيْن ، ألم يبايعا عليا ! قال: بلَى ، قال : أفأحدَث علىّ حدثا يحلّ به نقض بيعته ؟ قال : لاأدرى ، قال : لادَرَيت ولا أتيت ! إذا كنت لاتدرى فنحن تاركوكَ حتى تدرى . أخبرنى :هل تعلم أحداًخارجا عن هذه الفرق الأربع : علىّ بظهر الكوفة، وطلحةوالزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام،وفرقة رابعة بالحجاز قُعود لايجبى بهم فَىْء ، ولا يقاتَل بهم عدو ! فقال أبو موسى : أولئكخيرُ الناس ، قال عبد خير : اسكت ياأبا موسى ، فقد غلب عليك غشُّك[2] .

***

قال أبو جعفر : وأتت الأخبار عليًّا عليه السلام باختلاف الناس بالكوفة ، فقال للأشتر : أنت شفعتَ فى أبى موسى أن أُقِرّه على الكوفة ، فاذهب فأصلِحْ ماأفسدتَ ،

---

(١) سورة العنكبوت ١ـ٣ (٢) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٤٦ ـ ٣١٤٢ مع تصرف واختصار .

فقام الأشتر ، فشخص نحو الكوفة ، فأقبل حتى دخلها والناس فى المسجد الأعظم ، فجعل لا يمرّ بقبيلة إلّا دعاهم ، وقال : اتّبِعونى إلى القصر ، حتى وصل القصر ، فاقتحمه وأبو موسى يومئذ يخطب النّاس على المنبر ، ويثبّطهم ، وعمار يخاطبه ، والحسن عليه السلام يقول : اعتزلْ عملَنا وتنحَّ عن منبرنا ، لا أمّ لك !

قال أبو جعفر : فروى أبو مَرْيم الثّقفىّ ، قال : والله إنّى لفى المسجدِ يومئذ إذْ دخل علينا غِلمان أبى موسى يشتدّون ويبادِرُون[1] أبا موسى : أيُّها الأمير ، هذا الأشتر قد جاء ، فدخل القصر ، فضربنا وأخرجنا . فنزل أبو موسى من المِنْبَر ، وجاء حتى دخل القصر ، فصاح به الأشتر : اخرُج من قصرنا لا أمّ لك ، أخرج الله نفسَك ! فو الله إنّك لمن المنافقين قديماً . قال : أجِّلْنى هذه العشيّة ، قال : قد أجّلتك ، ولا تبيتنّ فى القصر [الليلة][2] . ودخل النّاسُ ينتهبون متاعَ أبى موسى ، فمنعهم الأشتر ، وقال : إنى قد أخرجتُه وعزلتُه عنكم . فكفّ الناس حينئذ عنه[3] .

***

قال أبو جعفر : فروى الشعبىّ ، عن أبى الطُّفيل ، قال : قال علىٌّ عليه السلام : يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجُل واحد ، فو الله لقعدت على نَجَفَة[4] ذى قار ، فأحصيتهم واحدا واحدا ، فما زادوا رجلاً ، ولا نقصوا رجلاً[5] .

***

[فصل فى نسب عائشة وأخبارها]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع طرفا من نَسب عائشة وأخبارها ، وما يقوله أصحابنا المتكلّمون فيها ، جريًا على عادتنا فى ذكر مثل ذلك كلّما مررنا بذكر أحد من الصحابة .

---

(١) الطبرى : « ينادون » . (٢) من الطبرى . (٣) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٥٣ ، ٣١٥٤

(٤) فى الأصول : « لجفة » ، والصواب ما أثبته من الطبرى . والنجفة : المكان المشرف على ما حوله من الأرض . (٥) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٧٣ ، ٣١٧٤ .

أمّا نسبُها ، فإنها ابنةُ أبى بكر ، وقد ذكرنا نسبه فيما تقدم ، وأمُّها أم رُومان ابنة عامر بن عُوَيمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أذينة بن سُبيع بن دُهمان بن الحارث بن تميم ابن مالك بن كنانة . تزوجها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بمكة قبل الهجرة بسنتين ـ وقيل بثلاث ـ وهى بنت ست سنين ـ وقيل بنت سبع سنين ـ وبنىَ عليها بالمدينة وهى بنت تسع ، لم يختلفوا فى ذلك .

وكانت تذكر لجبير بن مطعِم وتسمىَّ له ، وورد فى الأخبار الصَّحيحة أن رسول صلى الله عليه وآله أرِىَ عائشة فى المنام فى سَرَقَةِ حرير ، متوفَّى خديجة رضى الله عنها ، فقال : إن يكن هذا من عند الله يُمْضِهِ ؛ فتزوّجها بعد موت خديجة بثلاث سنين ، وتزوّجها فى شوال ، وأعرس بها بالمدينة فى شوال ، على رأس ثمانية عشر شهرا من مهاجَره إلى المدينة(١) .

وقال ابن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " : كانت عائشة تحبّ أن تدخُل النّساء من أهلها وأحبّتها فى شوال على أزواجهنّ ، وتقول : هلْ كان فى نسائه أحظَى عنده منى وقد نكحَنى وبنى علىّ فى شوال(١) !

قلت : قرئ هذا الكلام على بعض الناس ، فقال : كيف رأت الحال بينها وبين أحمائها وأهل بيت زوجها !

وروى أبو عمر بن عبد البرّ ، فى الكتاب المذكور : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله تُوفِّىَ عنها وهى بنت ثمان عشرة سنة ، فكان سنّها معه تسع سنين ، ولم ينكح بِكْراً غيرها ، واستأذنتْ رسول الله صلى الله عليه وآله فى الكُنية ، فقال لها : اكتَنِى بابنك عبد الله بن الزُّبير ـ يعنى ابن أختها ـ فكانت كنيتُها أم عبد الله ، وكانت فقيهةً عالمة بالفرائض والشعر والطب(١) .

---

(١) الاستيعاب ٤٧٤ .

وروى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ، قال : « فضلُ عائشة على النّساء كفضلِ الثّريد على الطعام » ، وأصحابنا يحملون لفظة النّساء فى هذا الخبر على زوجاته ، لأنّ فاطمة عليها السلام عندهم أفضلُ منها ؛ لقوله صلى الله عليه وآله : « إنّها سيّدة نساء العالمين » .

وقذِفت بصفوان بن المعطّل السُّلَمِيّ فى سنة ستّ ، منصَرفَ رسول الله صلى الله عليه وآله من غزاة بنى المصطلق ـ وكانت معه ـ فقال فيها أهل الإفك ما قالوا ، ونزل القرآن ببراءتها .

وقوم من الشيعة زعموا أنّ الآيات التى فى سورة النور لم تنزل فيها ، وإنما أنزلت فى ماريَة القبطيّة ، وما قذفت به مع الأسود القبطىّ . وجَحْدهم لإنزال ذلك فى عائشة جَحْدٌ لما يعلم ضرورة من الإخبار المتواترة . ثم كان من أمرها وأمر حفصه وما جرى لهما مع رسول الله صلى الله عليه وآله فى الأمر الّذى أسرّه على إحداهما ما قد نطق الكتاب العزيز به . واعتزل رسول الله صلى الله عليه وآله نساءه كلهنّ ، واعتزلهما معهنّ ثم صالحهنّ ، وطلّق حفصة ثم راجعها ؛ وجرت بين عائشة وفاطمة إبلاغات ، وحديث يُوغر الصُّدور ، فتولّد بين عائشة وبين علىّ عليه السلام نوع ضغينة ، وانضمّ إلى ذلك إشارته على رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى قصّة الإفك بضرب الجارية وتقريرها وقوله : « إن النساء كثير » .

ثم جرى حديث صلاة أبى بكر بالناس ، فزعم الشِّيعة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يأمر بذلك ، وأنّه إنما صلى بالناس عن أمر عائشة ابنته ، وأنّ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله خرج متحامِلاً وهو مثقَل ، فنحّاه عن المحراب . وزعم معظم المحدّثين أن ذلك كان عن أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وقوله ، ثم اختلفوا ، فمنهم من قال : نحّاه وصلّى هُوَ بالناس ، ومنهم من قال : بل ائتمّ بأبى بكر كسائر الناس ، ومنهم

من قال : كان الناس يصلّون بصلاة أبى بكر ، وأبو بكر يصلّى بصلاة رسول الله صلّى الله عليه وآله .

ثم كان منها فى أمر عثمان ، وتضريب الناس عليه ، ما قد ذكرناه فى مواضعه ، ثم تلا ذلك يوم الجمل .

***

واختلف المتكلمون فى حالها وحال مَنْ حضر واقعة الجمل ، فقالت الإماميّة : كَفَر أصحابُ الجمل كلُّهم ؛ الرؤساء والأتباع . وقال قوم من الحشويّة والعامّة : اجتهدوا فلا إثم عليهم ، ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ علىّ عليه السلام وأصحابه .

وقال قوم من هؤلاء : بل نقول : أصحاب الجمل أخطئوا ، ولكنه خطأ مغفور ، وكخطأ المجتهد فى بعض مسائل الفروع عند مَنْ قال بالأشبه ؛ وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية .

وقال أصحابنا المعتزلة : كلّ أهلِ الجمل هالكون إلّا مَنْ ثبتت توبته منهم ، قالوا : وعائشة ممّن ثبتت توبتها ، وكذلك طلحة والزبير ، أمّا عائشة فإنها اعترفت لعلىّ عليه السلام يوم الجمل بالخطأ ، وسألته العفوَ ، وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم ، وأنها كانت تقول : ليته كان لى من رسول الله صلى الله عليه وآله بنون عشرة ، كلّهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ـ وثكلتُهم ـ ولم يكن يومُ الجمل ! وأنّها كانت تقول : ليتنى مِتّ قبل يوم الجمل ، وأنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكى حتى تبلّ خمارها . وأمّا الزبير فرجع عن الحرب معترفا بالخطأ لمّا أذكره علىّ عليه السلام ما أذكره . وأمّا طلحة فإنه مرّ به ـ وهو صريع ـ فارس ، فقال له : قف ، فوقف ، قال : من أىّ الفريقين أنت ؟ قال : من أصحابِ أميرِ المؤمنين ، قال : أقعِدْنى ، فأقعده ، فقال : امدُد يدكَ أبايعْك لأمير المؤمنين ، فبايعه .

وقال : شيوخنا :ليس لقائل أن يقولَ :مايروى من أخبار الآحادبتوبتهم لايعارض ماعلم قطعا من معصيتهم . قالوا :لأنّ التوبة إنما يحكم بها للمكلّف على غالب الظنّ فى جميع المواضع ، لاعلى القطع ، ألا ترى أنا نجوّز أن يكون من أظهر التوبة منافقاً وكاذبا ،فبان أن المرجع فى قبولها فى كلّ موضع إنما هو إلى الظنّ ، فجاز أن يعارض ماعلم من معصيتهم بما يظنّ من توبتهم .

(٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة :

وَجَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِى الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ .

* * *

الشرح :

موضع قوله : « من أهل مصر » نصب على التميز ، ويجوز أن يكون حالا .

فإن قلت : كيف يكون تميزا وتقديره : وجزاكم الله متمدّنين أحسن مايجزى المطيع ؛ والتميز لا يكون إلا جامداً ، وهذا مشتقّ !

قلت : إنهم أجازوا كونَ التميز مشتقا فى نحو قولهم : « ما أنت جارةً » ، وقولهم : « ياسيّداً ما أنت من سيّد » .

وما يجوز أن تكون مصدرية ، أى أحسن جزاء العاملين ، ويجوز أن تكون بمعنى الذى ، ويكون قد حذف العائد إلى الموصول ، وتقديره أحسن الذى يجزى به العاملين .

(٣)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه لشريح بن الحارث قاضيه :

رُوِيَ أَنَّ شُرَيْحَ بن الحارث قاضِيَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامِ اشْتَرَى عَلَى عَهْدِهِ داراً بِثَمَانِينَ دِيناراً ؛ فَبَلَغَهُ ذَلِكَ ، فَاسْتَدْعَى شُرَيْحاً ، وَقَالَ لَهُ : بَلَغَنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِيناراً ، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً ، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً . فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

يَاشُرَيْحُ ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً ، وَيُسْلِمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً . فَانْظُرْ يَاشُرَيْحُ لَا تَكُونُ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ ؛ فَإِذاً أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ .

أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ ، لَكَتَبْتُ لَكَ كِتَاباً عَلَى هَذِهِ النُّسْخَةِ ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِالدِّرْهَمِ (١) فَمَا فَوْقُ ، والنسخةُ هَذِهِ:

« هَذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ . اشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ ، وَخِطَّةِ الْهَالِكِينَ . وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ : الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْآفَاتِ ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ ؛ وَالْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي ، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي . وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ . اشْتَرَى هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ ، مِنْ هَذَا

(١) مخطوطة النهج : « بدرهم » .

الْمُزْعِجِ بِالْأَجَلِ هَـذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ ، وَالدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ ؛ فَمَا أَدْرَكَ هَـذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَى مِنْ دَرَكٍ . فَعَلَى مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاعِنَةِ ، مِثْلِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَأَكْثَرَ ، وَمَنْ بَنَى وَشَيَّدَ ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ - إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ ، ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى ، وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا » .

* * *

الشرح :

[نسب شُرَيح وذكر بعض أخباره]

هو شُرَيح بن الحارث بن المنتجع بن معاوية بن جَهْم بن ثَوْر بن عُفير[1] بن عدىّ ابن الحارث بن مُرّة بن أُدَد الكندىّ ؛ وقيل إنه حليفٌ لكِندة من بنى الرائش .

وقال ابنُ الكلبىّ : ليس اسم أبيه الحارث ، وإنّما هو شريح بن معاوية ابن ثوْر .

وقال قوم : هو شُرَيح بن هانئ .

وقال قوم : هو شريح بن شَرَاحيل . والصحيح أنّه شُرَيح بن الحارث ، ويكنى أبا أميّة . استعمله عمر بن الخطاب على القضاء بالكوفة ، فلم يزل قاضياستّين سنة ،لم يتعطّل فيها إلا ثلاث سنين فى فِتْنة ابن الزّبير ؛ امتنع فيها من القضاء ، ثم استعفى الحجاجَ من

---

(١) ب : « عقر » ، والصواب ما أثبته من الاستيعاب .

العمل فأعفاه، فلزم منزله إلى أن مات ، وعُمّر عمراً طويلا، قيل : إنه عاش مائة سنة وثمانيا وستين ، وقيل مائة سنة ، وتوفِّىَ سنة سبع وثمانين.

وكان خَفيفَ الرّوح ، مَزّاحا ، فقدم إليه رجلان ، فأقرّ أحدهما بما ادّعى به خصمه، وهو لا يعلم فقضى عليه ، فقال لشُرَيْح : مَنْ شهد عندك بهذا ؟ قال : ابن أخت خالك .

وقيل : إنه جاءته امرأته تبكى وتتظلّم على خَصْمها ، فما رقّ لها حتى قال له إنسان كان بحضرته : ألا تنظرُ أيُّها القاضى إلى بكائها ! فقال : إنّ إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون .

وأقرّ على عليه السلام شُرَيحا على القضاء : مع مخالفته له فى مسائل كثيرة من الفقه مذكورة فى كتب الفقهاء .

واستأذنه شُرَيح وغيره من قُضاة عثمان فى القضاء أوّل ماوقعت الفُرْقة ، فقال : اقضوا كما كنتم تَقْضُون حتى تكون للنّاس جماعة ، أو أموت كما مات أصحابى .

وسخط علىٌّ عليه السلام مرّة عليه فطرده عن الكوفة ولم يعزله عن القضاء، وأمره بالمقام ببانقيا ـ وكانت قرية قريبة من الكوفة أكثر ساكنها اليهود ـ فأقام بها مدّة، حتى رضى عنه وأعاده إلى الكوفة .

وقال أبو عمر بن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " : أدرك شُريح الجاهليّة ، ولا يعدّ من الصحابة ، بل من التابعين ، وكان شاعرا محسنا ، وكان سِناطا لا شعر فى وجهه[1] .

* * *

قوله عليه السلام : «وخِطّة الهالكين» بكسر الخاء، وهى الأرض التى يختطّها الإنسان،

(١) الاستيعاب ٥٩٠ ، وذكر أنه توفى سنة سبع وثمانين وهو ابن مائة سنة ؛ وولى القضاء ستين سنة من زمن عمر إلى زمن عبد الملك بن مروان .

أى يُعْلِم عليها علامة بالخطّ ليعمرها ؛ ومنه خطط الكوفة والبصرة .

وزخرف البناء ، أى ذهّب جدرانه بالزّخرف ، وهو الذهب .

ونجّد : فرش المنزل بالوسائد ، والنجّاد الذى يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما ، والتنجيد : التزيين بذلك ، ويجوز أن يريد بقوله : « نجّد » رفع وعلا ، من النَّجْد ،وهو المرتفع من الأرض .

واعتقد : جعل لنفسه عُقدة كالضَّيْعة أو الذّخيرة من المال الصامت .

« وإشخاصهم » مرفوع بالابتداء وخبره الجار المجرور المقدّم ، وهو قوله: « فعلى مبلبل أجسام الملوك» . وموضع الاستحسان من هذا الفصل ـ وإن كان كله حسناً ـ أمران:

أحدُهما : أنّه عليه السلام نظر إليه نظر مغضَب ؛ إنكارا لابتياعه دارا بثمانين دينارا، وهذا يدلّ على زهد شديدٍ فى الدنيا واستكثار للقليل منها ، ونسبه هذا المشترى إلى الإسراف ، وخوف من أن يكون ابتاعها بمال حرام .

الثانى : أنه أملى عليه كتابا زهديًّا وعظيا ، مماثلا لكتب الشُّروط التى تكتب فى ابتياع الأملاك ، فإنهم يكتبون : « هذا مااشترى فلان من فلان ، اشترى منه دارا من شارع كذا وخطة كذا ، ويجمع هذه الدار حدود أربعة ، فحدّ منها ينتهى إلى دار فلان، وحدٌّ آخر ينتهى إلى ملك فلان ، وحدّ آخر ينتهى إلى ما كان يعرف بفلان ، وهو الآن معروف بفلان ، وحدٌّ آخر ينتهى إلى كذا . ومنه شروع باب هذه الدار ، وطريقها: «اشترى هذا المشترى المذكور من البائع المذكور جميع الدار المذكورة بثمن مبلغه كذا وكذا دينارا ، أو درهما ؛ فما أدرك المشترى المذكور من دركٍ فمرجوع به على من يُوجب الشرع الرجوع به عليه » . ثم تكتب الشهود فى آخر الكتاب . شهد فلان ابن فلان بذلك ، وشهد فلان ابن فلان به أيضا ؛ وهذا يدلُّ على أنّ الشروط المكتوبة الآن قد كانت

فى زمن الصحابة تكتب مثلها أو نحوها؛ إلا أنّا ماسمعنا عن أحد منهم أنه نقل صيغة الشرط الفقهىّ إلى معنى آخر كما قد نظمه هو عليه السلام ، ولا غرْو فما زال سبّاقاً إلى العجائب والغرائب !

فإن قلت : لم جعل الشيطان المغوى فى الحدّ الرابع ؟

قلت : ليقول : وفيه يشرع باب هذه الدار ، لأنه إذا كان الحدّ إليه ينتهى كان أسهل لدخوله إليها ودخول أتباعه وأوليائه من أهل الشيْطنة والضلال .

الأصل

ومن كتاب له كتبه عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه :

فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ ٱلطَّاعَةِ ، فَذَاكَ ٱلَّذِي نُحِبُّ ، وَإِنْ تَوَافَتِ ٱلْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى ٱلشِّقَاقِ وَٱلعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ ، وَاسْتَغْنِ بِمَنِ ٱنْقَادَ مَعَكَ ، عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ ؛ فَإِنَّ ٱلْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ .

***

الشرح

انْهَدَ : أى انهض . وتقاعس ، أى أبطأ وتأخر .

والمتكارِه : الذى يخرج إلى الجهاد من غير نيّة وبصيرة ، وإنما يخرج كارها مرتابا ، ومثل قوله عليه السلام : « فإنّ المتكارِه مغيبه خير من مشهده ، وقعوده أغنى من نهوضه » قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مازَادُوكُمْ إِلّا خَبالًا ﴾[1] .

---

(١) سورة التوبة ٤٧ :

(٥)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس ،وهو عامل أذْربيجان :

وَإنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ ، وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعًى لِمَنْ فَوْقَكَ ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ ، وَلَا تُخَاطِرَ إلَّا بِوَثِيقَةٍ ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ تعالَى ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إلَيَّ ، وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ . وَالسَّلَامُ .

***

الشرح :

قد ذكرنا نسب أشعث بن قيس فيما تقدم .

وأذربيجان : اسم أعجمىٌّ غير مصروف ، الألف مقصورة ، والذال ساكنة . قال حبيب :

وأذْرَبيجَانَ احتيالٌ ، بعد ما كانت معرَّس عِبرةٍ ونَكَالِ[1]

وقال الشمّاخ :

تذكَّرتُهَا وَهْنـاً وقد حال دونها قُرَى أذْرَبيجانَ المسَالحُ والجالُ[2]

والنّسبة إليه أذْرِىّ بسكون الذال ، هكذا القياس ، ولكن المروىّ عن أبى بكر فى الكلام الذى قاله عند موته : « ولتألَمُنَّ النومَ على الصُّوف الأذَرِىّ » بفتح الذال .

والطُّعمة بضم الطاء المهملة : المأكلة، ويقال: فلان خبيث الطُّعمة، أى ردىء الكسب.

والطِّعمة بالكسر لهيئة التطعّم ، يقول : إنّ عملَك لم يسوّغه الشرع والوالى من قِبَلى إياه؛

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣٢

(٢) معجم البلدان ١ : ١٥٩ ، ولم أجده فى ديوانه .

ولا جعله لك أكلاً ؛ ولكنه أمانة في يدك وعنقك للمسلمين ، وفوقك سلطان أنتَ له رعيّة فليس لك أن تفتاتَ فى الرعيّة الذين تحت يدك ، يقال : افتاتَ فلان على فلان ، إذا فعل بغير إذنه ماسبيله أن يستأذنه فيه ، وأصله من الفَوْت وهو السَّبْق ، كأنه سبقه إلى ذلك الأمر.

وقوله : « ولا تخاطرْ إلّا بوثيقةٍ » ، أى لا تقدِم على أمرٍ مَخوفٍ فيما يتعلّق بالمال الذى تتولّاه إلا بعد أن تتوثّق لنفسك ، يقال: أخذ فلان بالوثيقة فى أمره ، أى احتاط.

ثم قال له : « ولعلّى لا أكون شرَّ ولاتِك » ، وهو كلام يطيِّب به نفسَه ويسكِّن به جأشَه ، لأنّ فى أوّل الكلام إيحاشا له ، إذ كانت ألفاظه تدلّ على أنّه لم يرء أمينا على المال ، فاستدرك ذلك بالكلمة الأخيرة ، أى ربّما تحمد خلافتى وولايتى عليك ، وتصادف منّى إحساناً إليك ، أى عسى ألّا يكون شكرُكَ لعثمان ومَنْ قبله أكثرَ من شكرك لى ، وهذا من باب وعدك الخفىّ ، وتسمّيه العرب المَلْث .

وأول هــذا الكتاب :

« من عبد الله علىٍّ أميرِ المؤمنين إلى الأشعث بن قيس . أمّا بعدُ ، فلولا هَنات وهَنات كانت منك ، كنت المقدّم فى هذا الأمر قبل الناس ، ولعلّ أمرا كان يحمل بعضه بعضا إن اتّقيت الله عزّ وجلّ ، وقد كان من بيعة النّاس إيّاى ماقدعلمت ، وكان من أمر طلحة والزبير ماقد بلغكَ ، فخرجت إليهما ، فأبلغت فى الدُّعاء ، وأحسنت فى البقيّة ، وإن عملك ليس لك بطعمة ... » ، إلى آخر الكلام ، وهذا الكتاب كتبه إلى الأشعث ابن قيس بعد انقضاء الجمل .

(٦)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضاً ، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى .

وَلَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةُ ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ ، لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ ، إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى ؛ فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ ! وَالسَّلَامُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم ذكرُ هذا الكلام فى أثناء اقتصاص مراسلة أمير المؤمنين عليه السلام معاويةَ بجرير بن عبد الله البَجَلِيّ ، وقد ذكره أرباب السِّيرة كلُّهم ، وأورده شيوخنا المتكلِّمون فى كتبهم احتجاجا على صحة الاختيار ، وكونه طريقا إلى الإمامة ، وأول الكتاب :

« أما بعد ، فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى القومُ الّذين بايعوا .. »

إلى آخر الفصل .

والمشهور المرويّ : « فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن أو رغبة » ، أى رغبة عن ذلك الإمام الذى وقع الاختيار له .

والمرويّ بعد قوله : « ولّاه الله بعد ما تولّى » ، « وأصلاه جهنّمَ وساءت مصيرا» ، وإنّ طلحةَ والزُّبيرَ بايعانى ثم نقضَا بيْعتى ، فكان نقضُهما كردّتهما ، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحقُّ وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخلَ فيه المسلمون ، فإنّ أحبَّ الأمور إلىّ فيك العافية ، إلّا أن تتعرّض للبلاء ، فإن تعرّضْتَ له قاتلتك ، واستعنت بالله عليك ، وقد أكثرتَ فى قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل النّاسُ فيه ، ثم حاكم القوم إلىّ أحمِلْك وإيّاهم على كتاب الله ، فأمّا تلك الّتِى تريدها فخدْعة الصبىّ عن اللّبن ، ولعمرى يا معاوية إن نظرت بعقلك . . . » إلى آخر الكلام .

وبعده : « واعلم أنك من الطُّلقاء الذين لاتحلّ لهم الخلافة ، ولاتعترض بهم الشورى ، وقد أرسلتُ إليك جريرَ بنَ عبد الله البَجَلىّ ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع ولا قوة إلا بالله » .

واعلم أن هذا الفصلَ دالّ بصريحه على كون الاختيار طريقا إلى الإمامة كما يذكره أصحابنا المتكلّمون ، لأنه احتجّ على معاوية ببيعة أهل الحلّ والعقْد له ، ولم يراعِ فى ذلك إجماعَ المسلمين كلّهم ، وقياسه على بيعة أهل الحلّ والعقد لأبى بكر ، فإنه ما رُوعِى فيها إجماع المسلمين ، لأنّ سعد بن عُبادة لم يبايعْ ، ولا أحدٌ من أهل بيته وولده ، ولأنّ عليًا وبنى هاشم ومَنِ انضوَى إليهم لم يبايعوا فى مبدأ الأمر ، وامتنعوا ؛ ولم يتوقّف المسلمون فى تصحيح إمامة أبى بكر وتنفيذ أحكامه على بيعتهم ، وهذا دليل على صحة الاختيار وكونه طريقا إلى الإمامة ، وأنه لا يقدح فى إمامته عليه السلام امتناعُ معاوية من البيعة وأهل الشام ؛ فأما الإماميّة فتحملُ هذا الكتابَ منه عليه السلام على التقيّة ، وتقول : إنه ما كان يمكنه

أن يصرّح لمعاوية فى مكتوبه بباطن الحال ، ويقول له : أنا منصوص علىّ من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعهود إلى المسلمين أن أكون خليفةً فيهم بلا فصل ،فيكون فى ذلك طعن على الأئمة المتقدّمين ، وتفسد حاله مع الذين بايعوه من أهل المدينة ؛ وهذا القول من الإماميّة دعوى لو عضدَها دليل لوجب أن يقال بها ، ويُصار إليها ؛ ولكن لا دليل لهم على مايذهبون إليه من الأصول التى تسوقهم إلى حَمْلِ هذا الكلام على التّقيّة .

فأما قوله عليه السلام : « وقد أكثرتَ فى قَتَلَة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله » ، فيجب أن يذكر فى شرحه مايقول المتكلّمون فى هذه الواقعة .

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله : هذا الكلام حقّ وصواب ، لأن أولياء الدّم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته ، ثم يرفعوا خصومهم إليه ، فإنْ حَكَم بالحقّ استديمت إمامته ، وإن حادَ عن الحق انقضت خلافته ، وأولياء عثمان الذين هم بنُوه لم يبايعوا عليًّا عليه السلام ، ولا دَخَلوا تحت طاعته ثمّ ،وكذلك معاويةُ ابن عمّ عثمان لم يبايِعْ ولا أطاع ؛ فمطالبتهم له بأن يقتصّ لهم من قاتلى عثمان قبل بيعتهم إياه وطاعتهم له ظلم منهم وعدوان .

فإن قلت : هب أنّ القصاص من قتلة عثمان موقوفٌ على ماذكره عليه السلام ؛ أما كان يجبُ عليه لامن طريق القصاص أن ينهى عن المنكر ! وأنتم تذهبون إلى أنّ النّهى عن المنكر واجب على مَنْ هو سُوقة ، فكيف على الإمام الأعظم !

قلت : هذا غير وارد هاهنا ، لأنّ النهى عن المنكر إنّما يجب قبل وقوع المنكَر، لكيلا يقع ، فإذا وقع المنكر ، فأىّ نهى يكونُ عنه ! وقد نهى علىّ عليه السلام أهلَ مصر وغيرَهم عن قتلِ عثمان قبل قتلِه مرارا ، ونابذهم بيده ولسانه وبأولاده فلم يغنِ

شيئاً ، وتفاقم الأمر حتى قُتِل ؛ ولا يجب بعد القتل إلّا القصاص ، فإذا امتنع أولياء الدم من طاعة الإمام لم يجبْ عليه أن يقتصَّ من القاتلين ، لأنّ القصاص حقّهم ، وقد سقط ببغيهم على الإمام وخروجهم عن طاعته . وقد قلنا نحن فيما تقدّم : إنّ القصاص إنّما يجب على مَنْ باشر القتل ؛ والذين باشروا قتل عثمان قُتِلوا يوم قتل عثمان في دار عثمان، والذين كان معاوية يطالبُهم بدم عثمان لم يباشروا القتل ، وإنّما كثّروا السّواد وحَصَروه عثمان في الدار ، وأجلبوا عليه وشتموه وتوعّدوه ، ومنهم مَنْ تسوّر عليه داره ولم ينزل إليه ، ومنهم مَنْ نزل فحضر محضر قتله ولم يشرك فيه ، وكلّ هؤلاء لا يجب عليهم القصاص في الشّرع .

***

[جرير بن عبد الله البجليّ عند معاوية]

وقد ذكرنا فيما تقدّم شرحَ حال جرير بن عبد الله البَجَليّ في إرسال عليّ عليه السلام إيّاه إلى معاوية مستقصى . وذَكَرَ الزُّبير بن بكّار في " الموفقيات " أنّ عليا عليه السلام لما بعث جريرا إلى معاوية ، خرج وهو لا يرى أحداً قد سبقه إليه ، قال : فقدمت على معاوية فوجدتُه يخطب النّاس وهم حوله يبكون حول قميص عثمان وهو معلّق على رُمح مخضوب بالدّم ؛ وعليه أصابع زوجته نائلة بنت الفَرافصة مقطوعة ، فدفعت إليه كتاب عليّ عليه السلام ، وكان معي في الطريق رجلٌ يسير بسيرى ، ويقيم بمقامى ، فمَثُل بين يديه في تلك الحال وأنشده :

إنّ بني عمّك عبدِ المطّلبْ هُمْ قتلُوا شيخَكُمُ غيرَ كَذِبْ

* وأنت أوْلى النّاس بالوَثْب فِثِبْ *

وقد ذكرنا تمامَ هذه الأبيات فيما تقدم .

قال ثم دفع إليه كتابا من الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعيط ؛ وهو أخو عثمان لأمّه ، كتبه مع هذا الرجل من الكوفة سراً أوله :

* مُعاوِىَ إنّ المُلكَ قد جُبّ غارِبُهْ *

الأبيات التى ذكرنا فيما تقدم .

قال : فقال لى معاوية : أقِمْ فإنّ الناس قد نفروا عند قتل عثمان حتى يسكنوا . فأقمت أربعة أشهر ، ثم جاءه كتاب آخر من الوليد بن عُقْبة ، أوّله :

ألا أبلِغْ معاويةَ بنَ حَرْبٍ ... فإنّكَ مِن أخِي ثقةٍ مُليمُ (١)
قَطَعتَ الدّهرَ كالسَّدِمِ المعنّى ... تُهدِّرُ فى دمشقَ ولا تريمُ (٢)
وإنّك والكتابَ إلى علىٍّ ... كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ (٣)
فلو كنتَ القتيلَ وكان حيّاً ... لشمّرَ لا ألفٌ ولا سَئومُ (٤)

قال : فلمّا جاءه هذا الكتاب وصل بين طُومارين (٥) أبيضين ، ثم طواهما وكتب عنوانهما .

---

(١) المليم : من وقع منه ما يلام عليه .

(٢) السدم فى الأصل : الذى يرغب عن فحلته ، فيحال بينه وبين الآفة ؛ والبيت فى اللسان ١٥ :١٧٦

(٣) يقول : أنت تسعى فى إصلاح أمر قد تم فساده كالمرأة التى تدبغ الأديم الحلم الذى وقعت فيه الحلمة (وهى دودة) فنقبته وأفسدته فلا ينتفع به . وقد وردت الأربعة فى اللسان (حلم) ، وذكر بعدها :

لكَ الْوَيْلاتُ أَقحِمْهَا عَلَيْهِمْ ... فَخَيْرُ الطّالِبِي التِّرَةِ الْغَشُومُ
فَقَوْمُكَ بالمدينةِ قد تَرَدَّوْا ... فَهُمْ صَرْعَى كأَنَّهُمُ الْهَشِيمُ

(٤) رواية هذا البيت فى اللسان :

فَلَوْ كُنْتَ الْمُصابَ وَكانَ حَيّاً ... تجرّدَ ، لا ألفٌ وَلا سَئُومُ

(٥) الطومار : الصحيفة .

« من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب » .

ودفعهما إلىّ ، لاأعلم مافيهما ، ولا أظنّهما إلا جوابًا ، وبعث معى رجلًا من بنى عَبْس لا أدرى مامعه ، فخرجنا حتى قدمنا إلى الكوفة ، واجتمع النّاس فى المسجد ، لايشكُّون أنَّها بيعة أهل الشام ؛ فلما فتح علىّ عليه السلام الكتاب لم يجد شيئًا ، وقام العبسىّ ، فقال : مَنْ هاهنا من أحياء قيس ، وأخصّ من قيس غطفان ، وأخصّ من غَطَفان عَبْسًا ؟ إنى أحلف بالله لقد تركت تحت قميص عثمان أكثر من خمسين ألف شيخ خاضِبِى لحاهم بدموع أعينهم ، متعاقدين متحالفين ، ليقتُلن قَتَلَته فى البرّ والبحر ، وإنى أحلف بالله ليقتحمنَّها عليكم ابنُ أبى سفيان بأكثر من أربعين ألفا من خِصْيان الخيل ، فماظنّكم بعد بما فيها من الفُحول . ثم دفع إلى علىّ عليه السلام كتابا من معاوية ففتحه فوجد فيه :

أتانىَ أمرٌ فيه للنفس غُمَّةٌ ... وفيه اجتداعٌ للأنوف أصيلُ
مصابُ أمير المؤمنين وَهَدَّةٌ ... تكادُ لها صُمُّ الجبالِ تَزولُ

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدّم .

٧

الأصلُ

ومن كتاب منه عليه السلام إليه أيضا :

أَمَّا بَعْدُ فقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ ، نَمَّقْتَها بِضَلَالِكَ ، وَأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ . وَكِتابُ امْرِئٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فأجابه ، وَقادَهُ الضَّلَالُ فاتَّبَعَهُ ، فَهَجَرَ لَاغِطاً ، وَضَلَّ خابِطاً .

***

الشّرحُ

موعظـة موصّلة ، أى مجموعة الألفاظ من هاهنا وهاهنا ، وذلك عيب فى الكتابة والخطابة ، وإنما الكاتب من يرتجل فيقول قولاً فصلاً ، أو يَرْوِى فيأتى بالبديع المستحسَن، وهو فى الحالَيْن كليهما يُنفِق من كِيسه ، ولا يستعير كلامَ غيره .

والرسالة المحبّرة : المزيّنة الألفاظ ؛ كأنه عليه السلام يشير إلى أنه قد كان يظهر عليها أثر التكلّف والتصنّع .

والتّنميق : التزيين أيضا .

وهَجَر الرّجل ، أى هَذَى ، ومنه قوله تعالى فى أحد التفسيرين : ﴿ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾[1] .

واللّاغط : ذو اللغط ، وهو الصوت والجلبة .

---

(١) سورة الفرقان ٢٠ .

وخَبَط البعير فهو خابط ، إذا مشى ضالًا نخبط بيدْيه كلَّ مايلقاه ، ولا يتوقّى شيئًا .

***

وهذا الكتاب كتبه علىٌّ عليه السلام جوابًا عن كتاب كتبه معاويةُ إليه فى أثناء حرب صِفِّينَ بل فى أواخرها ، وكان كتاب معاوية :

« من عبد الله معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب ، أما بعد ، فإنّ الله تعالى يقول فى محكم كتابه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1] ، وإنى أحذِّرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشقّ عصا هذه الأمّة وتفريق جماعتها ، فاتق الله واذكر موقف القيامة ، وأقلع عمّا أسرفتَ فيه من الخوض فى دماء المسلمين ، وإنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « لو تمالأ أهلُ صَنْعاء وعَدَن على قتل رجل واحد من المسلمين لأكبّهم الله على مناخرهم فى النار » ، فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين ، بلهَ ماطَحنتْ رَحَا حربِه من أهل القرآن ، وذى العبادة والإيمان ، من شيخ كبير ، وشابٍّ غَرِير ، كلّهم بالله تعالى مؤمن ، وله مخلص ، وبرسوله مقرّ عارف! فإن كنتَ أبا حسن إنما تحارب على الإمْرة والخلافة ، فلَعَمْرِى لو صحّت خلافتك لكنتَ قريبًا من أن تعذَر فى حرب المسلمين ، ولكنّها ماصحّت لك ؛ أنّى بصحّتها وأهلُ الشام لم يدخلوا فيها ، ولم يرتضوا بها ! وخف الله وسطَواته ، واتّق بأسه ، ونَكاله ، وأغمِدْ سيفك عن الناس ، فقد والله أكلتْهم الحرب ، فلم يبقَ منهم إلا كالثَّمد فى قرارة الغدِير . والله المستعان » :

فكتب علىّ عليه السلام إليه جوابا عن كتابه .

---

(١) سورة الزمر : ٦٥ .

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان : « أمّا بعد فقد أتتني منك موعظةٌ موصّلة ، ورسالة محبّرة ، نمّقتها بضلالك ، وأمضيتها بسوء رأيك ، وكتاب امرئٍ ليس له بَصَرٌ يهديه ، ولا قائد يُرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده الضلال فاتّبعه ، فهجَر لاغطاً ، وضلّ خابطاً ، فأمّا أمرُك لي بالتقوى فأرجو أن أكونَ من أهلها ، وأستعيذ بالله من أن أكونَ من الّذين إذا أمِرُوا بها أخذتْهم العزّة بالإثم . وأمّا تحذيرُك إيّاي أن يحبَط عملي وسابقتي في الإسلام ، فلَعمري لو كنتُ الباغيَ عليك ، لكان لك أن تحذّرني ذلك ، ولكنّي وجدت الله تعالى يقول : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾(١) ، فنظرنا إلى الفئتين ، أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها ، لأن بيعتي بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام ، كما لزمتك بيعة عثمان بالمدينة وأنت أمير لعمر على الشام ، وكما لزمتْ يزيد أخاك بيعةُ عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام . وأمّا شق عصا هذه الأمّة ، فأنا أحقّ أن أنهاك عنه . فأمّا تخويفُك لي من قَتل أهلِ البغي ، فإن رسول الله صلى عليه وآله أمرني بقتالهم وقَتلِهم ، وقال لأصحابه : « إنّ فيكم مَنْ يقاتل عَلَى تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله » ، وأشار إليّ وأنا أوْلَى من اتبّع أمره .

وأما قولك : إنّ بيعتي لم تصحّ لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها ! كيف وإنما هي بيعة واحدة ، تلزم الحاضر والغائب ، لا يُثنّى فيها النظر ، ولا يستأنف فيها الخيار ، الخارج منها طاعنٌ ، والمروّي فيها مُداهن . فاربَعْ على ظَلْعِك ، وانزِعْ سِربالَ غَيّك ، واترك مالا جَدوَى له عليك ، فليس لك عندي إلّا السيف ، حتى تفيء إلى أمر الله صاغرا ، وتدخل في البَيعة راغما . والسلام » .

---

(١) سورة الحجرات ٩

الأصْلُ

ومن هذا الكتاب :

لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يُثَنَّى فِيهَا النَّظَرُ ، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ ، الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ ، وَالْمُرَوِّى فِيهَا مُدَاهِنٌ .

***

الشَّرْحُ :

لايثنّى فيها النظر ، أى لايعاود ولا يراجع ثانية . ولا يستأنف فيها الخيار : ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم ، لأنها تلزم غير العاقدين كما تلزم العاقدين ، فيسقط الخيار فيها ، الخارج منها طاعن على الأمّة ، لأنهم أجمعوا على أنّ الاختيار طريق الإمامة.

والمروّى فيها مداهن ، أى الذى يرتئى ويبطىء عن الطاعة ويفكّر ، وأصله من الرويّة . والمداهن : المنافق .

(٨)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البَجَلىّ لما أرسله إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى ٱلْفَصْلِ ، وَخُذْهُ بِٱلْأَمْرِ ٱلْجَزْمِ ، ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ ، فَإِنِ ٱخْتَارَ ٱلْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ ، وَإِنِ ٱخْتَارَ ٱلسِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ . وَٱلسَّلَامُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم ذكر نسب جرير بن عبد الله البَجَلىّ .

وقوله عليه السلام : « فاحمل معاوية على الفَصْل » ، أى لا تتركه متلكّئا متردّدا ، يُطْمِعُك تارة ويؤيسك أخرى ، بل احمله على أمر فَيْصَلٍ ، إمّا البَيْعة ، أو أن يأذن بالحرب .

وكذلك قوله : « وخذه بالأمر الجزم » ، أى الأمر المقطوع به ، لا تكنْ ممّن يُقدِّم رِجْلا ويؤخّر أخرى ، وأصل الجزْم القطع .

وحرب مُجْلِيَة : تُجْلِي المقهورين فيها عن ديارهم ، أى تُخرِجهم .

وسِلْم مخزية ، أى فاضحة ؛ وإنما جعلها مخزية لأن معاوية امتنع أولا من البَيْعة ؛ فإذا دخل فى السِّلْم فإنما يدخل فيها بالبيعة ، وإذا بايع بعد الامتناع ؛ فقد دخل تحت الهَضْم ورَضىَ بالضَّيم ؛ وذلك هو الخِزْى .

قوله « فانبِذ إليه » من قوله تعالى : ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ [(١)] وأصله العهد والمدنة وعقد الحِلف يكون بين الرجلين أو بين القبيلتين ، ثم يبدو لهما فى ذلك فينتقلان إلىَ الحرب فينبذ أحدُهما إلى الآخر عهده ، كأنه كتاب مكتوب بينهما قد نبذه أحدُهما يوم الحرب وأبطله ، فاستعير ذلك للمجاهرة بالعداوة والمكاشفة ، ونسخ شريعة السلام السابقة بالحرب المعاقبة لها .

---

(١) سورة الأنفال ٥٨ .

(٩)

الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا ، وَاجْتِيَاحَ أَصْلِنَا ، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ ، وَفَعَلُوا بِنَا الْأَفَاعِيلَ ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ ، وَأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ ،وَاضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ .

فَعَزَمَ اللهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حَوْمَتِهِ ، مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ الْأَجْرَ ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ .

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَاسُ ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ ، وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ ، وَمَنِيَّتَهُ أُخِّرَتْ .

فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي ،وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا ، إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَالَا أَعْرِفُهُ ، وَلَا أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

وَأَمَّا مَاسَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَى غَيْرِكَ ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ ، لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ ، لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ ، وَلَا جَبَلٍ

وَلَا سَهلٍ ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وِجْـدَانُه ، وَزَوْرٌ لَا يَسُرُّكَ لُقْيـانُهُ .
وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « فأراد قومنا » ، يعنى قريشا .

والاجتياح : الاستئصال ، ومنـه الجائحة وهى السَّنَة ، أو الفتنة التى تجتاح المـال أو الأنفس .

قوله : « ومنعونا العذب » ، أى العيش العذب . لا أنّهم منعوهم الماء العَذْب ، على أنه قد نقل أنّهم منعوا أيام الحصار فى شِعْب بنى هاشم من الماء العذب .

وسنذكر ذلك .

قوله : « وأحلسونا الخوف » ، أى ألزموناه . والحِلْس : كساء رقيق يـكون تحت برذعة البعير . وأحلاس البيوت : ما يُبسَط تحت حُرِّ الثياب ، وفى الحديث : « كن حِلْس بيتك » ، أى لا تخالط النّاس واعتزلْ عنهم ، فلما كان الحِلْس ملازماً ظهرَ البعير ، وأحلاس البيوت ملازمة لها ، قال : « وأحلسونا الخوف » ؛ أى جعلوه لنا كالحِلْس الملازم .

قوله : « واضطرونا إلى جبل وعر » ، مَثَل ضرَبَه عليـه السلام لخشونة مُقامِهم وشَظَف منزلهم ، أى كانت حالنا فيه كحال من اضطر إلى ركوب جبل وَعْر ، ويجوز أن يكون حقيقة لا مثلا ، لأن الشّعب الذى حصروهم فيه مَضِيق بين جبلين .

قوله : « فعزم الله لنا » ، أى قضى الله لنا ، ووفّقنا لذلك ، وجعلنا عازمين عليه .

والحوْزَة : الناحية ، وحوزة الملك : بَيْضته .

وحومة الماء والرمل : معظمه .

والرمى عنها : المناضلة والمحاماة ، ويروى : « والرمى من وراء حرمته »، والضمير فى «حوزته » و « حومته » راجع إلى النبى صلى الله عليه وآله ، وقد سبق ذكره، وهو قوله: « نبينا » ويروى » والرّميا » .

وقال الراوندىّ : « وهمُّوا بنا الهمومَ » ، أى همُّوا نزول الهمّ بنا، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وليس ماقاله بجيّد بل « الهموم » منصوب هاهنا على المصدر ، أى همّوا بنا هموما كثيرة ، وهمّوا بنا أى أرادوا نهبَنا ، كقوله تعالى : ﴿ وهمَّ بِهَا ﴾[1] ، على تفسير أصحابنا ، وإنما أدخل لام التعريف فى الهموم ، أى هموا بنا تلك الهموم التى تعرفونها ، فأتى باللام ليكون أعظم وأكبر فى الصدور من تنكيرها ، أى تلك الهموم معروفة مشهورة بين الناس لتكرّر عزم المشركين فى أوقات كثيرة مختلفة على الإيقاع .

وقوله : « وفعلوا بنا الأفاعيل » ، يقال لمن أثروا آثارا منكرة : فعلوا بنا الأفاعيل، وقلّ أن يقالَ ذلك فى غير الضرر والأذى ، ومنه قول أميّة بن خلَف لعبد الرحمن بن عوف وهو يذكر حمزة بن عبد المطاب يوم بدر : « ذاكَ الّذى فعل بنا الأفاعيل » .

قوله : « يحامى عن الأصل » ، أى يدافع عن محمد ويذبُّ عنه حميّةً ومحافظة على النسب .

قوله : « خِلْو مما نحن فيه » ، أى خالٍ . والحِلْف : العهد .

واحمرّ البأس ، كلمة مستعارة ، أى اشتدّت الحرب حتى احمرّت الأرض من الدم ، فجعل البأس هو الأحمر مجازا ، كقولهم : الموت الأحمر .

---

(١) سورة يوسف ٢٤ .

قوله : «وأحجم الناس»، أى كَفُّوا عن الحرب وجَبُنوا عن الإقدام ، يقال: حجمت فلانا عن كذا أحجُمه بالضمّ ، فأحجم هُوَ ، وهذه اللفظة من النوادر ، كقولهم : « كبيته فأ كبّ » .

ويوم مؤتة بالهمز ، ومؤتة : أرض معروفة .

وقوله : « وأرادَ مَنْ لو شئتُ لذكرت اسمَه » ، يعنى به نفسَه .

قوله : «إذ صرتُ يقرَنُ بى مَنْ لم يَسْعَ بقدمى» إشارة إلى معاوية فى الظّاهر، وإلى مَنْ تقدّم عليه من الخلفاء فى الباطن ، والدليل عليه قوله : « التى لا يُدْلِى أحد بمثلها »، فأطلق القولَ إطلاقاً عامًّا مستغرقا لكلّ الناس أجمعين .

ثم قال : « إلّا أنْ يدّعِيَ مدّعٍ مالا أعرفه ، ولا أظن الله يعرفه » ، أى كلّ من ادّعى خلاف ما ذكرته فهو كاذب ، لأنه لو كان صادقا لكان علىّ عليه السلام يعرفه لا محالة ، فإذا قال عن نفسه : إنّ كل دعوة تخالف ما ذكرت فإنّى لا أعرف صحّتها ، فمعناه أنها باطلة .

وقوله : « ولا أظنّ الله يعرفه » ، فالظنّ ها هنا بمعنى العلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ (١) ، وأخرج هذه الكلمة مخرج قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (٢) ، وليس المراد سلْب العلم بل العلم بالسلب ، كذلك ليس مراده عليه السلام سَلْبَ الظّن الذى هو بمعنى العلم ، بل ظن السلب ، أى علم السلب ، أى وأعلم أن الله سبحانه يعرف انتفاءه ، وكلّ ما يعلم اللهُ انتفاءه فليس بثابت .

وقال الراونديّ : قوله عليه السلام : « ولا أظنّ الله يعرفه » ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ ﴾ (٣) .

(١) سورة الكهف ٥٣ (٢) سورة يونس ١٨ .

(٣) سورة محمد ٣١ .

والله يعلم كلّ شيء قبل وجوده ، وإنما معناه : حتّى نعلم جهادهم موجودا ، وليست هذه الكلمة من الآية بسبيل لتجعل مثالا لها ، ولكنّ الراونديّ يتكلّم بكلّ ما يخطر له من غير أن يميّز ما يقول .

وتقول :أدلَى فلان بحجته ، أى احتجّ بها ، وفلان مُدْلٍ برَحِمِه ، أى مَتّ بها . وأدلَى بماله إلى الحاكم : دفعه إليه ليجعله وسيلة إلى قضاء حاجته منه ، فأمّا الشّفاعة فلا يقال فيها : « أدليت » ، ولكن « دلوت بفلان » أى استشفعت به ، وقال عمر لمّا استسقَى بالعباس رحمه الله : « اللهمّ إنا نتقرّب إليك بعمّ نبيك وقفيّة آبائه ، وكُبْر رجاله ، دلوْنا به إليك مستشفعين »[1] .

قوله عليه السلام : « فلم أره يسعُنى » أى لم أرَ أنه يحلّ لى دفعهم إليك . والضمير فى « أرَهُ » ضمير الشأن والقصّة ، و « أره » من الرأى لا من الرؤية ، كقولك : لم أرَ الرّأى الفلانى .

ونَزَع فلان عن كذا ، أى فارقه وتركه ، ينزِع بالكسر ، والغىّ : الجهل والضلال .

والشّقاق : الخلاف .

الوجْدان : مصدر وجدت كذا ، أى أصبته . والزّوْر : الزائر .

واللُّقيان : مصدر لقيت ، تقول : لقيته لقاء ولقيانا .

ثم قال : « والسلام لأهله » لم يستجز فى الدين أن يقول له : « والسلام عليك » لأنّه عنده فاسق لا يجوز إكرامه ، فقال : « والسلام لأهله » ، أى على أهله .

ويجب أن نتكلّم فى هذا الفصل فى مواضع :

منها ذكر ما جاء فى السيرة من إجلاب قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله وبنى هاشم وحَصْرهم فى الشعب .

---

(١) الفائق ٢ : ٣٦٦ . قفية آبائه : تلوهم . وكبر قومه أقعدهم فى النسب .

ومنها : الكلام فى المؤمنين والكافرين من بنى هاشم الّذين كانوا فى الشّعْب محصورين معه صلى الله عليه وآله مَنْ هم .

ومنها : شرح قصّة بدر .

ومنها : شرح غزاة أُحُد .

ومنها : شرح غزاة مُؤْتة .

***

[إجلاب قريش على بنى هاشم وحصرهم فى الشعب]

فأما الكلام فى الفصل الأول فنذكر منه ما ذكره محمد بن إسحاق بن يَسار فى كتاب " السيرة " والمغازى ، فإنه كتاب معتمد عند أصحاب الحديث والمؤرّخين ، ومصنّفه شيخ الناس كلهم .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : لم يسبق عليًا عليه السلام إلى الإيمان بالله ورسالة محمد صلى الله عليه وآله أحدٌ من الناس ، اللّهمّ إلّا أن تكون خديجة زوجةُ رسول الله صلّى الله عليه وآله . قال : وقد كان صلى الله عليه وآله يخرج ومعه علىّ مستخفين من الناس ، فيصلّيَان الصلواتِ فى بعض شِعاب مكة ، فإذا أمسيا رَجعا فمكثا بذلك ما شاء الله أن يمكثا ، لاثالث لهما . ثم إنّ أبا طالب عَثَر عليهما يوماً وهما يصلّيان ، فقال لمحمد صلى الله عليه وآله : يابن أخى، ما هذا الذى تفعله ! فقال: « أىْ عمّ ، هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ، ودين أبينا إبراهيم ـ أو كما قال عليه السلام ـ بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عمِّ أحقُّ من بذلتُ له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحقّ مَنْ أجابنى إليه ، وأعاننى عليه » . أو كما قال . فقال أبو طالب : إنى لا أستطيع يابن أخى أنْ أفارِق

دينى ودين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لايخلص[١] إليك شىء تكرهه مابقيتُ .
فزعموا[٢] أنه قال لعلىّ : أىْ بنىّ ، ماهذا الذى تصنع ؟ قال : ياأبتاه ، آمنتُ بالله ورسوله وصدّقتُه فيما جاء به ، وصلّيتُ إليه ، واتبعت قول نبيّه . فزعموا أنّه قال له : أما إنه لا يدعوك — أو لن يدعوك — إلّا إلى خير ، فالزمه .

قال ابن إسحاق : ثم أسلمَ زيدُ بن حارثة مولَى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فكانَ أوّلَ مَنْ أسلمَ ، وصلّى معه بعد علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

ثم أسلم أبو بكر بن أبى قُحافة ، فكان ثالثا لهما ، ثم أسلم عثمان بن عفان ، وطلحة، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعد بن أبى وقّاص ، فصاروا ثمانية ؛ فهم الثمانية الذين سَبَقوا النّاس إلى الإسلام بمكّة ، ثم أسلم بعد هؤلاء الثمانية أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو سلمةَ بن عبد الأسد وأرقم بن أبى أرقم ، ثم انتشر الإسلام بمكّة ، وفشا ذكره ، وتحدّث النّاس به ، وأمر الله رسولَه أن يصدَع بما أمر به ، فكانت مدّة إخفاء رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه وشأنه إلى أن أمر بإظهار الدين ثلاث سنين — فيما بلغنى[٣] .

قال محمد بن إسحاق : ولم تكن قريش تنكِر أمرَه حينئذ كلّ الإنكار ، حتّى ذكر آلهتهم وعابها ، فأعظموا ذلك وأنكروه ، وأجمعوا على عداوته وخلافه، وحدب عليه عمُّه أبو طالب فمنَعه ، وقام دونه حتى مضى مظهراً لأمر الله لايردّه عنه شىء . قال : فلمّا رأتْ قريش محاماةَ أبى طالب عنه وقيامَه دونه ، وامتناعَه من أن يسلمه ، مشى إليه رجالٌ من أشراف قريش ؛ منهم عُتبة بن ربيعة ، وشيبة أخوه ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو البخترىّ بن هشام ، والأسود بن المطّلب ، والوليد بن المُغيرة ، وأبو جهل عمرو بن هشام،

---

(١) لا يخلص إليك بشىء ؛ أى لا يوصل إليك ؛ يقال : خاصت إليه ، أى وصلت إليه .
(٢) ابن هشام : « وذكروا »
(٣) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٥ .

والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج ؛ وأمثالهم من رؤساء قريش. فقالوا: يا أبا طالب، إنّ ابنَ أخِيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلّل آراءنا؛ فإمّا أنْ تكفّه عنّا ، وإمّا أن تُخَلِّيَ بيننا وبينه . فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقا ، وردّهم ردًّا جميلا ، فانصرفوا عنه ، ومضى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عَلَى ماهو عليه ، يظهرُ دينَ الله ، ويدعو إليه ، ثم شرَق [1] الأمرُ بينه وبينهم ، تباعدا وتضاغنا [2] ، حتى أكثرت قريش ذِكرَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله بينها ، وتذامروا فيه ، وحضّ بعضُهم بعضاً عليه ، فمشَوْا إلى أبي طالب مرةً ثانية ، فقالوا : ياأبا طالب ، إنّ لك سنًّا وشرَفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنْهيناك من ابن أخيك فلم تنهَهَ عنّا ، وإنا والله لانصْبر على شتْم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيْب آلهتنا ، فإمّا أن تكفّه عنّا أو ننازله وإيّاك [3] حتى يهلك أحدُ الفريقين . ثم انصرفوا ، فعظُم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم ، ولم تطِبْ نفسه بإسلام ابن أخيه لهم وخذلانه ، فبعث إليه فقال : يابنَ أخي ، إنّ قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا — للّذي قالوا — فأبق عليّ وعَلَى نفسِك ، ولا تحمِّلْني من الأمر مالا أطيقه. قال : فظنّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله أنّه قد بدا لعمّه فيه بَداء ، وأنه خاذله ومسلِمه ، وأنّه قد ضعف عن نصرته والقيام دونه ، فقال : ياعمّ ، والله لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في شِمالي على أنْ أترك هـذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلِك . ثم استعبر باكيًا وقام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب : أقبل يابن أخي ، فأقبل راجعا ، فقال له : اذهب يابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا [4] .

---

(١) ابن هشام : ثم شرى الأمر بينه وبينهم » ، قال أبو ذر : معناه « كثر وتزايد » ، وأصله في البرق ، يقال : شرى البرق : إذا كثر لمعانه .

(٢) التضاغن : المعاداة . (٣) ننازله وإياك : أي نحاربكما .

(٤) سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٦ — ٢٧٨ .

قال ابن إسحاق : وقال أبو طالب يذكر ما أجمعت عليه قريش من حَرْبه لمّا قام بنصر محمد صلى الله عليه وآله :

والله لنْ يَصِلُوا إليك بجمعهمْ ... حتى أُوَسَّدَ فى التّراب دفِينَا[١]
فانفُذ لأمرك ما عليك مخافةٌ ... وابشر وقرّ بذاك منه عيونا
ودعوتَنِي وزعمت أنّك ناصحى ... ولقد صدقت وكُنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنّه ... من خيرِ أديان البرّية دِيناَ
لولا الملامَةُ أو حذارى سُبَّةً ... لوجدتَنى سَمحاً بذاك مبينا

قال محمد بن إسحاق : ثم إنّ قريشا حين عرفت أنّ أبا طالب قد أبى خِذلان رسول الله صلى الله عليه وآله وإسلامه إليهم ورأوْا إجماعَه على مفارقتهم وعداوتهم ، مشوْا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومىّ — وكان أجمل فتىً فى قريش — فقالوا له : يا أبا طالب، هذا عُمارة بن الوليد ، أبهى[٢] فتىً فى قُرَيش وأجمله ، نخذه إليك[٣] ، فاتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم لنا هذا ابن أخيك الذى قد خالف دينَك ودين آبائك ، وفرّق جماعة قومك لنقتله ، فإنّما هو رجلٌ برجل . فقال أبو طالب ! والله ما أنصفتُمونى[٤] ! تعطونى ابنَكم أغذُوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ! هذا والله مالا يكون أبدا . فقال له المطعِم بن عدىّ بن نوفل — وكان له صديقاً مصافِيا — والله يا أبا طالب ما أراك تريدُ أن تقبل من قومك شيئاً ! لعمرى قد جهدوا فى التخلص ممّا تكره وأراك لا تُنصفهم ! فقال أبو طالب : والله ما أنصفونى ولا أنصفْتنى ؛ ولكنّك قد أجمعت على خذلانى ومظاهرة[٥] القوم علىّ ! فاصنع ما بدا لك[٦] !

---

(١) ديوانه ١٧٦ ، ١٧٧ (٢) ابن هشام : « أنهد فتى » أى أشده وأقواه .
(٣) ابن هشام : « نخذه فلك عقله ونصره » .
(٤) ابن هشام : « والله لبئس ما تسومونني » .
(٥) مظاهرة القوم ، يريد إعانتهم . (٦) سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ .

قال: فعندذلك تنابذ القوم وصارت الأحقاد، ونادى بعضهم بعضاً، وتذامروا بينهم على مَن فى القبائل من المسلمين الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وآله. فوثبت كلُّ قبيلة على مَنْ فيها منهم، يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنعَ الله رسوله منهم بعمّه أبى طالب، وقام فى بنى هاشم وبنى عبد المطلب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع، فدعاهم إلى ماهو عليه من منْع رسول الله صلى الله عليه وآله، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى مادعاهم إليه من الدّفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا ما كان من أبى لهب، فإنهلم يجتمع معهم على ذلك، فكان أبوطالب يرسل إليه الأشعار، ويناشده النصر، منها القطعة التى أولها:

حــديثٌ عن أبى لهبٍ أتانا وكانفَـــهُ على ذاكُمْ رجالُ

ومنها القطعة التى أولها:

أظننت عَـــنِّى قد خذلت وغالنِى منك الغوائلُ بعــد شيب المكبرِ

ومنها القطعة التى أولها:

تستعرض الأقــوام توسِعهمْ عُذْراً وما إن قلتَ مِن عُذرِ

قال محمد بن إسحاق: فلم يؤثَر عن أبى لهب خير قطّ إلا مايروى أنّ أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومىّ؛ لمّا وثب عليه قومه ليعذّبوه ويفتنوه عن الإسلام هرب منهم؛ فاستجار بأبى طالب، وأمّ أبى طالب مخزوميّة، وهى أمّ عبد الله والد رسول الله صلّى الله عليه وآله فأجاره، فمشى إليه رجالٌ من بنى مخزوم، وقالوا له: ياأبا طالب، هبْكَ منعتَ منّا ابنَ أخيك محمّداً، فمالك ولصاحبنا تمنعه منّا! قال: إنّه استجار بى وهو ابن أختى، وإن أنا لم أمنع ابنَ أختى لم أمنع ابنَ أخى؛ فارتفعت أصواتهم وأصواته، فقام أبو لهب ولم ينصر أبا طالب قبلها ولا بعدها، فقال: يامعشرَ قريش، والله لقد أكثرتم على هذا

الشيخ، لا تزالون تتوثبون عليه فى جواره من بين قومه ! أمَا والله لتنتهُنَّ عنه أو لنقومنَّ معه فيما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . فقالوا : بل ننصرف عمّا تكره ياأبا عُتْبة . فقاموا فانصرفوا ، وكان وليًا لهم ومعينا على رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى طالب ، فاتّقوه وخافوا أن تحمله الحميّة على الإسلام ، فطمع فيه أبو طالب حيث سمعه قال ماقال ، وأمّل أن يقوم معه فى نُصرة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال يحرّضه على ذلك :

وإنّ امرأً أبو عُتيبة عمُّــــه ... لَفِى مَعْزِلٍ من أن يُسام المظالمَا (١)

ولا تقبلنَّ الدّهرَ ماعشتَ خطّـةً ... تُسبَّ بهــا إمّا هبطتَ المواسمَا

أقول له وأين مِنــهُ نصيحــتى ... أبا عُتْبَة ثَبّتْ سوادَكَ قائمــا

وولّ سبيل العجز غــيرَك منهمُ ... فإنّك لم تخْلَقْ على العجــزِ لازما

وحاربْ فإنّ الحرْب نصف ولن ترَى ... أخا الحرب يُعطى الخسف حتى يُسَالِما

كذبتم وبيت الله نَبْزَى محمّــدا ... ولمّــا تروْا يوما من الشعْب قائما

وقال يخاطب أبا لهب أيضاً :

عَجِبتُ لحلمٍ يابن شيبــة عازبٍ ... وأحلام أقوامٍ لديك سِخَافِ (٢)

يقولون شايع مَنْ أراد محمّدا ... بظلم وقُمْ فى أمرِه بخــلافِ

أضاميمُ إما حاسد ذو خيـانة ... وإما قريب عنك غير مصاف

فلا تركبنّ الدهر منــه ذِمامةً ... وأنت امروٌ من خير عبد مناف

ولا تتركنه ماحييتَ لمعظِمٍ ... وكنْ رَجُلاً ذا نجْــدةٍ وَعفافِ

يذودُ العـدا عن ذروةٍ هاشميَّــةٍ ... إلافُهُمْ فى النّاس خـيرُ إلافِ

فإنّ له قرْبى لديكَ قريبــةً ... وليس بذى حِلْفٍ ولا بمُضافِ

ولـكنّه من هاشمٍ ذى صميمها ... إلى أبحرٍ فوق البُحور طوافِ

---

(١) ديوانه ١٦٢ ، ١٦٣

(٢) ديوانه ٩٠ .

وزاحمْ جميع الناس عنه وكنْ له ... وزيراً على الأعداء غير مُجافِ
وإن غضبت منه قريشٌ فقلْ لها ... بنى عمّنا ماقومُكمْ بضعافِ
وما بالُكمْ تَغشَوْنَ منه ظُلامَةً ... وما بالُ أحقادٍ هناك خوافِ
فما قومُنا بالقوم يخشَوْن ظلمنا ... وما نحنُ فيما ساءهم بخِفافِ
ولكنّنا أهل الحفائظ والنّهى ... وعزٍّ ببطحاء المشاعر وافِ

قال محمد بن إسحاق : فلمّا طال البلاء على المسلمين والفتنة والعذاب ، وارتدّ كثير عن الدين باللسان لا بالقلب ، كانوا إذا عذّبوهم يقولون : نشهد أنّ هذا الله ، وأن اللّات والعُزّى هى الآلهة،فإذا خلوْا عنهم عادوا إلى الإسلام ، فحبسوهم وأوثقوهم بالقِدّ،وجعلوهم فى حرّ الشّمس على الصّخْر والصّفا ، وامتدّت أيّام الشقاء عليهم ولم يَصِلوا إلى محمّد صلى الله عليه وآله لقيام أبى طالب دونه ، فأجمعت قريش على أن يكتبوا بينهم وبين بنى هاشم صحيفةً يتعاقدون فيها ألّا يناكحوهم ولا يبايعوهم ، ولا يجالسوهم ؛ فكتبوها وعلّقوها فى جوف الكعبة تأكيداً على أنفسهم ؛ وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصىّ . فلما فعلوا ذلك انحازت هاشم والمطّلب ، فدخلوا كلّهم مع أبى طالب فى الشّعب ، فاجتمعوا إليه ، وخرج منهم أبو لهب إلى قريش فظاهرها على قومه .

قال محمد بن إسحاق : فضاق الأمر ببنى هاشم وعدموا القوت ، إلّا ما كان يحمل إليهم سرًّا وخفية ؛ وهو شىء قليل لا يُمْسِك أرماقهم ، وأخافتْهم قريش ؛ فلم يكن يظهر منهم أحدٌ ، ولا يدخل إليهم أحد،وذلك أشدّ مالقِىَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته بمكة .

قال محمد بن إسحاق : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا حتى جهدوا ألّا يصل إليهم

شيء إلا القليل سرًّا ممّن يريد صلتهم من قريش ؛ وقد كان أبو جهل بن هشام لقي حكيم ابن حزام بن خُويلد بن أسَد بن عبد العُزّى ، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمّته خديجة بنت خويلد — وهي عند رسول الله محاصَرة في الشِّعب — فتعلّق به ، وقال : أتحمل الطّعام إلى بني هاشم ! والله لاتبرح أنت وطعامُك حتى أفضحك بمكّة ! فجاءه أبو البختريّ العاص ابن هشام بن الحارث بن أسَد بن عبد العُزّى ، فقال : مالك وله ! قال : إنه يحمل الطعام إلى بني هاشم ، فقال أبو البختريّ : ياهذا ، إنّ طعاما كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ؛ أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ! خلّ سبيل الرّجل ، فأبى أبو جهل حتى نال كلٌّ منهما مِنْ صاحبه ، فأخذ له أبو البختريّ لَحْيَ بعيرٍ فضربه به فشجّه ووطئه وطأ شديداً . فانصرف وهو يكره أنْ يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وبنو هاشم بذلك ، فيشمتوا ، فلما أراد الله تعالى من إبطال الصَّحِيفة ، والفرَج عن بني هاشم من الضّيق والأزْل الذى كانوا فيه ، قام هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ في ذلك أحسن قيام ، وذلك أنّ أباه عمرو بن الحارث كان أخاً لنضْلة بن هاشم بن عبدمناف بن قصيّ من أمه ، فكان هشام بن عمرو يحسب لذلك واصلاً ببني هاشم ؛ وكان ذا شرفٍ في قومه بني عامر بن لؤي ، فكان يأتي بالبعير ليلا وقد أوْقره طعاما ، وبنو هاشم وبنو المطّلب في الشِّعب ، حتى إذا أقبل به فم الشّعب فمنع بخطامه من رأسه ، ثم يضربه علَى جَنْبه ، فيدخل الشّعب عليهم ثم يأتي به مرّة أخرى ، وقد أوقره تمراً ، فيصنع به مثل ذلك .

ثم أنّه مشى إلى زُهير بن أبي أميّة بن المغيرة المخزوميّ ، فقال : يازهير ، أرضيتَ أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وتلبس الثّياب ، وتنكح النّساء ؛ وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ، ولا يواصلون ولا يزارون ! أما إنّي أحلف لو كان أخوالك أبو الحكم بن هشام ودعوته إلى مثل مادعاك

إليه منهم ماأجابك أبداً . قال : ويحكَ ياهشام ! فماذا أصنع ! إنّما أنا رجلٌ واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمتُ فى نقض هذه الصحيفة القاطعة . قال : قد وجدت رجلًا ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أنا ، قال زهير : ابغنا ثالثا ، فذهب إلى المطعِم بن عدىّ بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له : يامطعِم ، أرضِيت أن يهلك بطنان من عبد مناف جوعاً وجَهْداً وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ! أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدنّ قريشا إلى مساءتكم فى غيره سريعة . قال : ويحك ! ماذا أصنع ! إنما أنا رجل واحد ، قال قد وجدتُ ثانيا ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أنا، قال: ابغنى ثالثا، قال:قدوجدت،قال:مَنْ هو؟ قال : زهير بن أميّة ، قال أنا ، قال : ابغنا رابعا ، فذهب إلى أبى البخترىّ بن هشام،فقال له نحو ماقال للمطعِم ، قال : وهل مِنْ أحدٍ يعين على هذا ؟ قال ؛ نعم وذكرهم ،قال:فابغنا خامسا ، فمضى إلى زَمْعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فكلّمه ، فقال : وهل يعين على ذلك من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سمّى له القوم ، فاتّعدُوا خَطْم الحجُون ليلًا بأعلى مكّة ، فأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام فى الصَّحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدؤكم وأكون أوّلكم يتكلّم ، فلمّا أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبى أميّة ، عليه حلّة له . فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس ، فقال : ياأهل مكّة ، أنأكل الطعام ، ونشرب الشراب ، ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْكى ! والله لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! وكان أبو جهل فى ناحية المسجد ، فقال: كذبت والله لاتشقّ ! فقال زمعة بن الأسود لأبى جهل : والله أنتَ أكذب ، مارضينا والله بها حين كُتِبتْ . فقال أبو البخترىّ معه : صدق والله زَمْعة ، لانرضى بها ولا نقرّ بما كتب فيها ! فقال المطعِم بن عدىّ : صدَقا والله ، وكذب مَنْ قال غيرذلك؛ نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها . وقال هشام بن عمرو مثل قولهم ، فقال أبو جهل : هذا أمر قضِىَ بليل ، وقام مطعِم بن عدىّ إلى الصحيفة لحطّها وشقّها ، فوجد الأرَضة قد أكلتها ، إلا

ما كان من «باسمك اللهم» قالوا: وأمّا كاتبها منصور بن عكرمة فشلّت يده فيما يذكرون. فلمّا مزّقت الصحيفة خرج بنو هاشم من حصار الشّعب.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل أبو طالب ثابتًا صابرا مستمرًّا على نصر رسول الله صلى الله عليه وآله وحمايته والقيام دونه، حتى مات فى أوّل السنة الحادية العشرة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله فطمعت فيه قريش حينئذ، ونالت منه، فخرج عن مكّة خائفا يطلُب أحياء العرب، يعرض عليهم نفسَه، فلم يزل كذلك حتى دخل مكّة فى جوار المطعِم بن عدىّ؛ ثم كان من أمره مع الخزرج ما كان ليلة العقبة.

قال: ومن شعر أبى طالب الذى يذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وقيامه دونه:

أرقتَ وقدْ تَصوَّبَتِ النُّجُومُ ... وبتَّ ولا تسالمُك الهمومُ[1]
لِظُلمِ عشيرةٍ ظلموا وعَقُّوا ... وغبّ عقوقهم لهمُ وخيمُ
همُ انتهكوا المحارمَ من أخيهمْ ... وكلّ فعالهم دَنسٌ ذميمُ
وراموا خطّة جوراً وظُلْماً ... وبعضُ القول ذو جَنَفٍ مُليمُ
لتخرجَ هاشماً فتكونَ منها ... بلاقعَ بطنُ مكّة فالحطيمُ
فمهلاً قومنا لاتركبُونَا ... بمظلمة لها خَطْبٌ جَسِيمُ!
فيندمَ بعضُكم ويذِلَّ بعضٌ ... وليس بمفلحٍ أبداً ظَلُومُ
أرادوا قتل أحمدَ زاعِميه ... وليس بقتلِه منهمْ زَعِيمُ
وَدُونَ مُحَمَّدٍ منّا ندىٌّ ... همُ العِرنين والعُضْوُ الصَّمِيمُ

ومن ذلك قوله:

وقالوا لأحمد أنت امرُؤٌ ... خَلُوفُ الحديثِ، ضَعيفُ السَّبَبْ

---

(١) ديوانه ١٤٩.

وإن كان أحمـــدُ قد جاءهُمْ ... بصـدقٍ ولم يأتِهِمْ بالْكَذِبْ
فإنّا ومَنْ حَجَّ مِنْ راكِبٍ ... وكعبة مكة ذات الْحُجُبْ
تنالون أحمـــدَ أو تصطلُوا ... ظُبَاةَ الرِّمَاحِ وحَـدَّ الْقُضُبْ
وتغـــترفوا بين أبياتِـكُمْ ... صُـدورَ العوالِي وخَيْلًا شُزُبْ
تراهنَّ من بين ضَافِي السَّبيبِ ... قصـيرِ الحِزَام طويل اللَّبَبْ
عليهـا صناديدُ مِنْ هاشِمٍ ... هُمُ الأنجبُون مـع المنتجَبْ

***

وروى عبد الله بن مسعود ، قال : لمّا فرغ رسولُ الله صلى الله عليه وآله من قَتْلى بدر ، وأمر بطرحِهِم فى الْقَلِيب ، جعل يتذكّر من شعر أبى طالب بيتا فلا يحضرُه ، فقال له أبو بكر : لعلّه قولُه يارسول الله :

وإنّا لعمرُ الله إنْ جَـدَّ جَدُّنا ... اتلتبسنْ أسيافُنـا بالأماثل(١)

فسُرَّ بظفرِهِ بالبيت ، وقال : إى لعمر الله ، لقد التبست .

ومن شعر أبى طالب قوله :

ألا أبْلِغَا عَــنِّى لُؤيًّا رِسالَةً ... بحقٍّ وما تغني رسالةُ مرسلِ(٢)
بنى عَمِّنَا الأدْنَيْن فيما يخصُّهُمْ ... وإخواننا من عبدِ شمس ونوفلِ
أظاهرتُمُ قوما علينـا سفَاهَةً ... وأمرا غويًّا من غُواةٍ وَجُهَّـلِ
يقولون لو أنّا قتَلْنَا مُحَمَّـداً ... أقرّتْ نواصِي هاشم بالتـذلُّلِ
كذبتم وربِّ الْهَدْيِ تدمَى نحورُه ... بمكّة ، والبيتِ العتيقِ الْمُقَبَّـلِ
تنالونَهُ ، أو تصطلوا دونَ نَيْلِهِ ... صوارمَ تَفْرِى كلَّ عُضْوٍ ومفصِلِ
فمهلًا ولمّا تنتج الحربُ بِـكْرَهَا ... بخيـلٍ تمام ، أو بآخر مُعْجِلِ

(١) ديوانه ١١١ (٢) ديوانه ١٣٧ .

وتلقوْا بيـــع الأبطحين محمّدًا   على رَبوةٍ فى رأس عَنْقاء عَيْطَلِ
وتأوِى إليه هاشمٌ ، إنّ هاشما   عَرانين كعبٍ آخرٌ بَعْدَ أوّلِ
فإن كنتمُ ترجون قتــلَ محمّدٍ   فرُوموا بما جَمَّعْتُمُ نَقْلَ يَذْبُلِ
فإنّا سنحميه بـكُلِّ طِمِرَّةٍ   وذى مَيْعةٍ نَهْدِ المراكِل هَيْـكَلِ
وكلّ رُدَيْنِيٍّ ظِمـاء كعوبُهُ   وعضب كإيماض الغَمامة مِفْصَـلِ

***

قلت : كان صديقنا علىّ بن يحيى البطريق رحمه الله ، يقول : لولا خاصّة النبوّة وسرّها لما كان مثلُ أبى طالب ـ وهو شيخ قريش ورئيسُها وذو شرفها ـ يمدح ابنَ أخيه محمدا ، وهو شابٌّ قد رُبِّىَ فى حِجْره وهو يتيمه ومكفوله ، وجارٍ مجرَى أولادِه بمثل قوله :

وتلقوا رَبيــعَ الأبطحين محمّداً   على رَبْوةٍ فى رأسِ عَنْقاء عَيْطَلِ
وتأوى إليـــه هاشم ، إنّ هاشما   عرانين كعبٍ آخرٌ بعــدَ أوّلِ

ومثل قوله :

وأبيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمـامُ بوجهِهِ   ثِمَالُ اليتامَى عِصْمَةٌ للأرامـلِ
يُطِيف به الهُلّاكُ من آل هاشمٍ   فهم عنده فى نعمـــةٍ وفواضلِ

فإن هذا الأسلوب من الشعر لا يمدح به التابع والذّنَابى من الناس ، وإنما هو من مديح الملوك والعظماء ، فإذا تصوّرت أنه شعر أبى طالب ، ذاك الشيخ المبجّل العظيم فى محمد صلى الله عليه وآله ، وهو شابٌّ مستجير به ، معتصم بظلّه من قريش ، قد ربّاه فى حِجْره غُلاما ، وعلى عاتقه طفلا ، وبين يديه شابًا ، يأكل من زاده ، ويأوى إلى داره ، علمت موضع خاصّيّة النبوّة وسرّها ، وأن أمره كان عظيما ، وأنّ الله تعالى أوقع فى القلوب والأنفس له منزلة رفيعة ومكانا جليلا .

وقرأت فى "أمالى أبى جعفر محمد بن حبيب" رحمه الله، قال: كان أبو طالب إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله أحيانا يبكى ويقول: إذا رأيته ذكرت أخى، وكان عبد الله أخاه لأبويه، وكان شديد الحُبّ والحنوّ عليه، وكذلك كان عبدُ المطّلب شديدَ الحبّ له، وكان أبو طالب كثيرا ما يخاف على رسول الله صلى الله عليه وآله البيات إذا عرف مضجعه، يقيمهُ ليلا من منامه، ويُضجِع ابنَه عليًّا مكانه، فقال له علىٌّ ليلة: يا أبت، إنّى مقتول، فقال له:

اصبرنْ يابُنىّ فالصبر أحجَى ... كلّ حىٍّ مصيرُه لِشَعُوبِ (١)
قدّر اللهُ والبلاء شديدٌ ... لفداء الحبيب وابن الحبيبِ
لِفدَاء الأغرِّ ذى الحسَب الثا ... قب والباع والكريم النجيبِ
إن تصبْك المنون فالنبل تَبْرِى ... فمصيبٌ منها، وغيرُ مصيبِ
كلُّ حىّ وإن تملَّى بعمرٍ ... آخذٌ من مَذَاقِها بنصيبِ

فأجاب علىٌّ عليه السلام، فقال له:

أتأمرنى بالصّبرِ فى نصرِ أحمدٍ ... وواللهِ ما قلت الّذى قلت جازعا (٢)
ولكنّنى أحببتُ أن ترَى نُصْرَتِى ... وتعلم أنى لم أزلْ لك طائعَا
سأسعَى لوجه اللهِ فى نَصْرِ أحمدٍ ... نبىّ الهُدَى المحمود طِفلاً ويافِعَا

***

[القول فى المؤمنين والكافرين من بنى هاشم]

الفصل الثانى: فى تفسير قوله عليه السلام «مؤمننا يبغى بذلك الأجر، وكافرنا يحامى عن الأصل، ومن أسلم من قريش خلوٌ ممّا نحن فيه لحلف يمنعهُ، أو عشيرة تقوم دونه

(١) ديوانه ٤١، وشعوب: المنية.
(٢) ديوان أبى طالب ٤١.

فهم من القتل بمكان أمن » ، فنقول : إنّ بنى هاشم لما حُصِروا فى الشِّعب بعد أن مَنَعُوا رسول الله صلى الله عليه وآله من قُرَيش ، كانوا صِنْفين : مسلمين وكفارا ، فكان علىّ عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب مسلمَيْن .

واختلف فى جعفر بن أبى طالب : هل حُصِر فى الشِّعب معهم أم لا ؟ فقيل : حُصِر فى الشِّعب معهم ، وقيل : بل كان قد هاجر إلى الحبشة ، ولم يشهد حِصَار الشِّعب ، وهذا هو القول الأصحّ . وكان من المسلمين المحصورين فى الشِّعب مع بنى هاشم عُبيدة بن الحارث بن المطّلب بن عبد مناف ؛ وهو وإن لم يكن من بنى هاشم إلّا أنّه يجرى مجراهم ، لأن بنى المطّلب وبنى هاشم كانوا يداً واحدة ، لم يفترقوا فى جاهليّة ولا إسلام .

وكان العبّاس رحمه الله فى حِصَار الشِّعب معهم إلّا أنّه كان على دين قومه ، وكذلك عَقِيل بن أبى طالب ، وطالب بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب ، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب — وكان شديداً على رسول الله صلى الله عليه وآله ، يُبغضه ويَهْجوه بالأشعار ، إلّا أنه كان لا يرضى بقتله ، ولا يقارّ قريشاً فى دمه ؛ محافظة على النسب — وكان سيّد المحصورين فى الشّعب ورئيسهم وشيخهم أبو طالب بن عبد المطّلب ، وهو الكافل والمحامى .

***

[اختلاف الرأى فى إيمان أبى طالب]

واختلف الناس فى إيمان أبى طالب [1] ، فقالت الإمامية وأكثر الزّيدية : ما مات إلّا مسلما .

---

(١) ب : « فيه » ، وما أثبته من ا .

وقال بعض شيوخنا المعتزلة بذلك ، منهم الشيخ أبو القاسم البلخىّ وأبو جعفر الإسكافىّ وغيرهما .

وقال أكثر الناس من أهل الحديث والعامّة من شيوخنا البصريين وغيرهم : مات على دين قومه، ويروُون فى ذلك حديثا مشهورا، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له عند موته : قُلْ ياعمّ كلمةً أشهد لك بها غداً عند الله تعالى ، فقال : لولا أن تقول العرب: إنّ أبا طالب جَزِع عند الموت لأقررت بها عينَك .

وروى أنّه قال : أنا على دين الأشياخ .

وقيل إنّه قال : أنا على دين عبد المطلب . وقيل غير ذلك .

وروى كثير من المحدّثين أنّ قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ... ﴾[١] الآية ، أنزلت فى أبى طالب ، لأنّ رسول الله استغفر له بعد موته.

ورووْا أنّ قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[٢] نزلت فى أبى طالب .

ورووْا أنّ علياعليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بعد موت أبى طالب، فقال له : إنّ عمك الضالّ قد قضَى ، فما الّذى تأمرنى فيه ؟

واحتجُوا بأنه لم يَنقُل أحدٌ عنه أنه رآه يصلّى، والصلاة هى المفرّقة بين المسلم والكافر، وأنّ عليا وجعفرا لم يأخذا من تركته شيئاً ، ورووا عن النبىّ صلّى الله عليه وآله أنه قال « إنّ الله قد وعدنى بتخفيف عذابه لِمَا صنَع فى حقّى ، وإنّه فى ضحْضاح من نار » .

ورووا عنه أيضاً أنّه قيل له : لو استغفرتَ لأبيك وأمّك ! فقال: « لو استغفرتُ لهما لاستغفرتُ لأبى طالب ؛ فإنه صنع إلىّ مالم يصنعا. وإنّ عبد الله وآمنة وأبا طالب جمراتٌ من جمرات جهنّم » .

---

(١) سورة التوبة ١١٣ ، ١١٤ . (٢) سورة القصص ٥٦ .

فأما الذين زعموا أنه كان مسلماً، فقد رووْا خلاف ذلك، وأسندوا خبراً إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال لي جبرائيل: إنّ الله مشفّعك في ستّة : بطنٍ حملتك؛ آمنة بنت وهب، وصُلْب أنزلك؛ عبدالله بن عبد المطلب ،وحِجْر كَفَلك ؛ أبي طالب ، وبيتٍ آواك ؛ عبدالمطلب، وأخ كان لك في الجاهلية ـ قيل: يارسولَ الله ، وما كان فعله ؟ قال : كان سخيًّا يطعم الطعام ، ويجود بالنّوال ـ وثدْى أرضعتْك؛ حليمة بنت أبي ذؤيب .

قلت : سألتُ النّقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد عن هذا الخبر ، وقد قرأتُه عليه : هل كان لرسول الله صلى الله عليه وآله أخٌ من أبيه أو من أمّه أو منهما في الجاهليّة ؛ فقال : لا ، إنما يعني أخًا له في المودّة والصحبة ، قلت له : فمن هو ؟ قال : لا أدري .

قالوا : وقد نقل النّاس كافّة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : نُقِلْنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكيّة . فوجب بهذا أن يكون آباؤه كلُّهم منزّهين عن الشّرْك ، لأنهم لو كانوا عبَدة أصنام لما كانوا طاهرين .

قالوا : وأمّا ما ذكر في القرآن من إبراهيم وأبيه آزر ، وكونه كان ضالًّا مشركا ، فلا يقدح في مذهبنا ، لأنّ آزر كان عمّ إبراهيم ؛ فأما أبوه فتارخ بن ناحور ، وسُمّى العمّ أبا، كما قال: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ ﴾ (١) ، ثم عدّ فيهم إسماعيل وليس من آبائه ، ولكنّه عمّه .

قلت : وهذا الاحتجاج عندي ضعيف ، لأن المراد من قوله : « نُقِلْنا من الأصلاب الطّاهرة إلى الأرحام الزكيّة » تنزيه آبائه وأجداده وأمهاته عن السّفاح لا غير؛ هذا مقتضى

---

(١) سورة البقرة ١٣٣ .

سياقة الكلام، لأنّ العرب كان يعيبُ بعضها بعضا باختلاط المياه واشتباه الأنساب ونكاح الشبهة.

وقولهم: لو كانوا عبَدة أصنام لما كانوا طاهرين؛ يقال لهم: لم قلتم: إنهم لو كانوا عبَدة أصنام لما كانوا طاهرى الأصلاب! فإنه لا منافاةَ بين طهارة الأصلاب وعبادة الصنم، ألا ترَى أنّه لو أراد مازعموه لما ذكر الأصلاب والأرحام، بل جعل عوَضها العقائد.

واعتذارُهم عن إبراهيم وأبيه يقدح فى قولهم فى أبى طالب، لأنه لم يكن أبا محمد صلى الله عليه وآله، بل كان عمّه، فإذا جاز عندهم أن يكون العمّ — وهو آزر — مشركا كما قد اقترحوه فى تأويلهم، لم يكن لهم حُجّة من هذا الوجه على إسلام أبى طالب.

واحتجُّوا فى إسلام الآباء بما روى عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: يبعث الله عبدَ المطّلب يوم القِيامة وعليه سِيما الأنبياء وبهاء الملوك.

وروى أنّ العبّاس بن عبدالمطلب قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة: يارسولَ الله، ماترجو لأبى طالب؟ فقال: أرجو له كلّ خير من الله عزّ وجلّ.

وروى أنّ رجلًا من رجال الشّيعة، وهو أبان بن محمود كتب إلى علىّ بن موسى الرّضا عليه السلام: جُعلتُ فداك! إنى قد شككتُ فى إسلام أبى طالب! فكتب إليه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِق الرَّسُولَ مِنْ بعْدِ ما تَبيّن له الهدى وَيَتّبِعْ غَيْرَ سبيل المؤمنين[1] ..﴾ الآية، وبعدها إنك إن لم تقرّ بإيمان أبى طالب كان مصيرُك إلى النار.

وقد روى عن علىّ بن محمد الباقر عليه السلام أنه سئل عمّا يقوله الناس: إنّ أبا طالب فى ضَحْضاح من نار؛ فقال: لو وضع إيمان أبى طالب فى كفّة ميزان وإيمان هذا الخلق فى الكفة الأخرى لرجح إيمانه. ثم قال: ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السلام كان يأمر أن يحجّ عن عبد الله وأبيه[2] أبى طالب فى حياته، ثم أوصى فى وصيته بالحجّ عنهم!

وروى أنّ أبا بكر جاء بأبى قُحافة إلى النبىّ صلى الله عليه وآله عامَ الفتح يقوده،

---

(١) سورة النساء:

(٢) فى الأصول: «وابنه».

وهو شيخ كبير أعمى ، فقال رسول الله : ألا تركت الشيْخ حتى نأتيَه ! فقال : أردتُ يا رسول الله أن يأجره الله ! أما والّذى بعثك بالحقّ لأنا كنت أشدّ فرحا بإسلام عمّك أبى طالب منّى بإسلام أبى ، ألتمس بذلك قُرّة عينك ، فقال : صدقت .

وروىَ أنّ علىّ بن الحسين عليه السلام سئِل عن هذا ، فقال : واعجبا ! إن الله تعالى نَهَى رسوله أن يقرّ مسلمة على نكاح كافر ، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السّابقات إلى الإسلام ، ولم تزل تحت أبى طالب حتى مات .

ويَروِى قوم من الزيدية أنّ أبا طالب أسند المحدّثون عنه حديثا ينتهى إلى أبى رافع مولى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، قال : سمعتُ أبا طالب يقول بمكة : حدّثنى محمدا بن أخى أنّ ربّه بعثه بصلَة الرّحم ، وأن يعبدَه وحده لا يعبد معه غيره ، ومحمد عندى الصادق الأمين .

وقال قوم : إنّ قولَ النبىّ صلّى الله عليه وآله : « أنا وكافلُ اليتيم كهاتين فى الجنة » إنما عنى به أبا طالب .

وقالت الإماميّة : إن ما يرويه العامّة من أنّ عليا عليه السلام وجعفرا لم يأخذا من تركة أبى طالب شيئاً حديث موضوع ، ومذهب أهلِ البيت بخلاف ذلك ، فإن المسلِم عندهم يرثُ الكافر ، ولا يرثُ الكافرُ المسلم ، ولو كان أعلى درجة منه فى النسب .

قالوا : وقوله صلى الله عليه وآله : « لا توراث بين أهل ملّتين » ، نقول بموجبه ، لأنّ التوارث تفاعل ، ولا تفاعل عندنا فى ميراثهما ، واللفظ يستدعِى الطّرَفين ، كالتضارب لا يكون إلّا من اثنين ، قالوا : وحُبُّ رسولِ الله صلى الله عليه وآله

لأبى طالب معلوم مشهور ، ولو كان كافرا ماجاز له حبّه ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . . ﴾[1] الآية .

قالوا : وقد اشتهر واستفاض الحديث وهو قوله صلى الله عليه وآله لعَقِيل : « أنا أحبّك حُبّين : حبًّا لك وحبًّا لحبِّ أبى طالب فإنه كان يحبّك » .

قالوا : وخطبة النّكاح مشهورة ، خطبها أبو طالب عند نِكاح محمد صلى الله عليه وآله خديجة ، وهى قوله : « الحمدُ لله الّذى جعلنا من ذرّيّة إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكّام على الناس . ثم إنّ محمد بن عبدالله أخِى مَنْ لا يوازَن به فتًى من قريش إلا رجَح عليه برًّا وفضلا ، وحزما وعقلا ، ورأيا ونُبْلا ، وإن كان فى المال قُلٌّ فإنما المال ظلّ زائل ، وعاريّةٌ مسترجَعة ، وله فى خديجة بنت خُوَيلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصَّداق فعلىّ ، وله والله بعدُ نبأ شائع وخطب جليل » .

قالوا : أفتراه يعلَم نبأه الشّائع وخطبه الجليل ، ثم يعانده ويكذّبه ، وهو من أولى الألباب ! هذا غير سائغ فى العقول .

قالوا : وقد روى عن أبى عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال : « إنّ أصحابَ الكهف أسرُّوا الإيمان ، وأظهروا الكفر فآتاهم اللهأجرهم مرتين ، وإنّ أبا طالب أسرّ الإيمان ، وأظهر الشرك ، فآتاهالله أجره مرتين » .

وفى الحديث المشهور : إنّ جبرائيل عليه السلام قال له ليلة مات أبو طالب : « اخرج منها فقد مات ناصرُك » .

قالوا : وأما حديث الضّحضاح من النار ، فإنما يرويه النّاس كلُّهم عن رجل واحد ، وهو المغيرة بن شعبة ، وبغضه لبنى هاشم وعلى الخصوص لعلىّ عليه السلام مشهور معلوم ، وقصته وفسقه أمر غير خاف .

---

(١) سورة المجادلة ٢٢ .

وقالوا : وقد رُوِىَ بأسانيد كثيرة بعضها عن العباس بن عبد المطلب ، وبعضها عن أبى بكر بن أبى قُحافة ، أنّ أبا طالب ما مات حتى قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. والخبر مشهور أنّ أبا طالب عند الموت قال كلاما خفيًا ، فأصغى إليه أخوه العباس، ثم رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يابن أخى ، والله لقد قالها عمُّكَ ، ولكنه ضعف عن أن يبلغك صوته .

وروى عن علىٍّ عليه السلام أنه قال : ما مات أبو طالب حتّى أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله من نفسه الرّضاَ .

***

قالوا : وأشعار أبى طالب تدلّ على أنه كان مسلما ، ولا فرق بين الكلام المنظوم والمنثور إذا تضمنا إقرارا بالإسلام ، ألا ترى أنّ يهوديًا لو توسط جماعة من المسلمين ، وأنشد شعرا قد ارتجله ونظمه يتضمّن الإقرار بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله ، لكنّا نحكم بإسلامه كما لو قال :أشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله ! فمن تلك الأشعار قوله[1]:

يُرجُّون منّا خُطّةً دون نيْلِها ... ضِرابٌ وطعنٌ بالوشيجِ المقوَّمِ
يرجُّون أن نسخَى بقتلِ محمّد ... ولم تختضب سمرُ العوالى من الدّمِ
كذبتم وبيتِ الله حتى تفلّقوا[2] ... جَماجمَ تُلقَى بالحطيم وزمزم
وتُقطَع أرحامٌ وتَنسى حليلةٌ ... حليلاً ، ويُغشى محرَمٌ بعد محرَمِ
على ما مضى من مقتكم وعقوقكم ... وغشيانكم فى أمرِكم كلّ مأثَمِ
وظلم نبىٍّ جاء يدعُو إلى الهدى ... وأمر أتى مِنْ عندذى العرش قَيِّمِ

---

(١) ديوانه ١٥٢ ـ ١٥٤ ؛ من قصيدة أولها :

أَلا مَنْ لِهَمّ آخِرَ اللّيلِ مُعْتِمِ ... طوانى ، وأخرى النجم لمّا تفحّمِ

(٢) الديوان : « تعرفوا » .

فلاَ تحسبونا مُسلِميه فمِثْـــلُه ... إذا كان فى قوم فليس بمسلَمَ

***

ومن شعر أبى طالب فى أمر الصحيفة التى كتبتها قريش فى قطيعة بنى هاشم :

ألَا أبلغَا عنّى على ذاتِ بينهـــا ... لؤيًّا وخُصًّا من لؤىٍّ بنى كعبِ (١)
ألم تعلمُوا أنّا وجـــدْنا محمّـــدا ... رسولًا كموسى خُطّ فى أوّل الكتْبِ
وأنّ عليـــه فى العباد محبّـــة ... ولا حيْف فيمن خصّه الله بالحبّ (٢)
وأنّ الذى رَقّشْتمُ فى كتابكم ... يكون لكم يوماً كراغيةِ السَّقْب (٣)
أفيقوا أفيقوا قبـــل أن تُحفَر الزُّبَى ... ويصبحَ من لم يجنِ ذنبا كذى ذنب
ولا تتبعوا أمر الغـــواة وتقطعُوا ... أواصرَنا بعـــد المودّة والقرب
وتستجلبوا حَرْبًا عَوَانًا وربّمـــا ... أمرّ على مَنْ ذَاقَهُ حَلَبُ الحرْبِ
فلسنا وبيتِ الله نُسلِم أحمـــدا ... لِعَزّاء من عَضّ الزّمان ولا كرب
ولمّا تَبِنْ مِنّا ومنكمْ سوالفٌ ... وأيدٍ أُترّت بالمهنّـــدة الشُّهْب (٤)
بمعتركٍ ضَيّق ترى قِصَـــد القَنا ... بهو الضباعَ العُرْجَ تعكِف كالشَّرب (٥)
كأنّ مجال الخيـــل فى حَجَراته ... وغمغمة الأبطال معركة الحـــرب
أليسَ أبونا هاشم شـــدّ أزرهُ ... وأوصى بنيـــه بالطِّعان وبالضرب !
ولسنا نملّ الحـــرب حتى تملّنا ... ولا نشتكى مما ينوب من النُّكْبِ (٦)

---

(١) ديوانه ٢٠ـ٢٤ ... (٢) الديوان : « ولا خير ممن خصه الله » .
(٣) الرغاء : صوت الإبل . والسقب : ولد الناقة .
(٤) أترت : قطعت . والمهندة : السيوف .
(٥) قصد القنا : قطع الرماح المتكسرة .
(٦) النكب والنكبة : المصيبة .

ولكنّنا أهلُ الحفائظِ والنُّهى   إذا طار أرواح الكُماة من الرُّعبِ

ومن ذلك قوله :

فلا تُسفِهوا أحلامَكُم فى محمّدٍ   ولا تتْبعوا أمرَ الغُواة الأشائِمِ (١)

تمنّيتم أن تقتلوه وإنّما   أمانيّكم هذى كأحلام نائمِ

وإنّكمُ واللهِ لا تقتلونَهُ   ولمّا تروا قَطْفَ اللِّحى والجماجِمِ (٢)

زعمتم بأنّا مسلمون محمّداً   ولمّا نقاذف دونه ونزاحمِ

من القومِ مفضالٌ أبِيٌّ على العِدَا   تمكّن فى الفرعين من آل هاشمِ

أمينٌ حبيبٌ فى العباد مسوّمٌ   بخاتم رَبٍّ قاهرٍ فى الخواتمِ

يرَى الناسُ برهانا عليه وهيبةً   وما جاهلٌ فى قومه مثلُ عالمِ

نبيٌّ أتاه الوحْيُ من عند رَبّهِ   ومن قال لا يقرع بها سنَّ نادمِ

ومن ذلك قوله ـ وقد غضب لعثمان بن مظعون الجمحىّ ، حين عذّبته قريش ونالت منه :

أمِنْ تذكُّر دهر غير مأمونِ   أصبحتَ مكتئبا تبكِى كمحزونِ (٣)

أمْ مِنْ تذكُّر أقوام ذوِى سفهٍ   يغشوْن بالظّلم مَنْ يدعو إلى الدّينِ

ألا يرون ـ أذلَّ اللهُ جمْعَهُمُ   أنّا غضبنا لعثمان بن مَظْعُونِ

ونمنع الضَّيْمَ مَنْ يبغِى مَضَامَتَنا   بكلِّ مطّرِدٍ فى الكفِّ مسنُونِ

ومُرْهفاتٍ كأنّ المِلحَ خالَطها   يُشْفَى بها الدّاءُ من هام المجانين

حتى تقَرّ رجالٌ لا حلومَ لها   بعد الصُّعوبة بالإسماح واللّينِ

---

(١) ديوانه ١٥٥ ـ ١٥٨ ، من قصيدة مطلعها :

لِمَنْ أرْبُعٌ أقْوَيْنَ بَيْنَ القَدَائِمِ   أقْمَنَ بِمَدْحَاةِ الرِّيَاحِ التوَائِمِ

(٢) الديوان : « القلاصم » .

(٣) ديوانه ١٧٣ .

أو تؤمنوا بكتابٍ مُنْزَلٍ عجبٍ ... عَلَى نبيٍّ كموسَى أو كذِى النونِ (١)

قالوا : وقد جاء فى الخبر أنّ أبا جهل بن هشام جاء مرّة إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وهو ساجد وبيده حَجَر يريد أن يرْضَخ به رأسَه ، فلصق الْحجرُ بكفّه فلم يستطع ماأراد ، فقال أبو طالب فى ذلك من جملة أبيات :

أفيقُوا بنى عَمّنا وانتهُوا ... عن الغَىّ من بعضِ ذا المنطقِ (٢)

وإلّا فإنّى إذاً خائف ... بوائقَ فى داركُمْ تلتقِى (٣)

كما ذاق مَنْ كان من قَبْلِكم ... ثمود وعاد وماذَا بَقِى !

ومنها :

وأعجبُ من ذاكَ فى أمركُمْ ... عجائب فى الحَجَرِ المُلصَقِ

بكفّ الذى قام من حِينهِ ... إلى الصابر الصادق المتّقِى

فأثبته الله فى كَفّه ... على رَغْمةِ الخائن الأحمقِ

قالوا : وقد اشتهر عن عبد الله المأمون رحمه الله أنّه كان يقول : أسلم أبو طالب واللهِ بقوله :

نصرتُ الرّسولَ رسولَ المليكِ ... ببيضٍ تلالأ كلمع البُروقِ (٤)

أذُبُّ وأحمِى رسولَ الإلهِ ... حماية حامٍ عليه شفيقِ

وما إنْ أدِبُّ لأعدائه ... دبيبَ البِكار حذار الفَنِيقِ (٥)

ولكن أزيرُ لهمْ سامياً ... كما زارَ ليثٌ بغِيلٍ مضيقِ

---

(١) بعده فى الديوان :

يأتِى بأمرٍ جلِىٍّ غير ذى عِوَجٍ ... كما تبيّنَ فى آياتِ ياسينِ

(٢) ديوانه ٩٤ (٣) بعده فى الديوان :

تكونُ لغيركُمُ عبرةً ... وربِّ المَغارِبِ والمشْرِقِ

(٤) ديوانه ٩٨ .

(٥) الفنيق : الفحل المكرم على أهله .

قالوا : وقد جاء فى السّيرَة ، وذكره أكثر المؤرخين ، أنّ عمرو بن العاص لمّا خرج إلى بلاد الحبشة ليكيد جعفرَ بن أبى طالب وأصحابَه عند النجاشىّ ، قال :

تقول ابنتِي : أين أين الرحيلُ ؟ ... وما البينُ منّى بمستنكَرِ
فقلتُ : دعينى فإنّى امرؤٌ ... أريدُ النّجاشىّ فى جَعْفَرِ
لأكوِيَه عنده كَيَّةً ... أقيمُ بها نخوة الأصعَرِ
ولن أنثنى عن بَنِي هاشمٍ ... بما اسطعت فى الغَيْب والمحضَرِ
وعن عائب اللّات فى قوله ... ولولا رضا اللّات لم تمطرِ
وإنى لأشنَى قريشٍ له ... وإن كان كالذّهب الأحمرِ

قالوا : فكان عمرو يُسمى الشانئ ابن الشانئ ، لأن أباه كان إذا مرّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله بمكّة يقول له : والله إنّى لأشنؤك ، وفيه أنزل : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ (١) . قالوا : فكتب أبو طالب إلى النجاشىّ شعراً يحرّضه فيه على إكرام جعفر وأصحابه والإعراض عمّا يقوله عمرو فيه وفيهم ، من جملته :

ألا ليتَ شعرِى كيف فى الناس جعفرٌ ... وعمرو وأعداءُ النبى الأقاربُ ! (٢)
وهلْ نال إحسانُ النجاشىّ جعفرا ... وأصحابه ، أمْ عاق عن ذاك شاغبُ !

فى أبيات كثيرة .

***

قالوا : وروى عن علىّ علية السلام أنه قال : قال لى أبى : يابنىّ الزم ابنَ عمّك، فإنك تسلم به من كلّ بأس عاجل وآجل ، ثم قال لى :

إنّ الوثيقةَ فى لزومِ محمّدٍ ... فاشدُدْ بصحبتِهِ على أيْدِيكا

---

(١) سورة الكوثر ٣ .
(٢) ديوانه ٢٥ .

ومن شعره المناسب لهذا المعنى قوله :

إن عليــا وجعفـرا ثقتى ... عند ملمّ الزّمانِ والنُّوَبِ (١)
لا تخذلا وانصرا ابنَ عمّكما ... أخى لأمّى من بينهم وأبى
والله لا أخــذل النبىّ ولا ... يخذله من بنىّ ذو حَسَب

***

قالوا : وقد جاءت الرّواية أنّ أبا طالب لمّا مات جاء علىّ عليه السلام إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فآذنه بموته ، فتوجّع عظيما وحزن شديدا ، ثم قال له : امض فتولّ غسله ، فإذا رفعته على سريره فأعلمنى ، ففعل ، فاعترضه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وهو محمول على رءوس الرّجال ، فقال : وصلتْك رَحم ياعمّ ، وجُزيت خيرا ! فلقد ربّيْتَ وكَفَلْتَ صغيرا ، ونصرت وآزرت كبيرا ؛ ثم تبعه إلى حفرته ، فوقف عليـه ، فقال : أما والله لأستغفرنّ لك ولأشفعنّ فيك شفاعةً يعجب لها الثقَلان .

قالوا : والمسلم لا يجوز أن يتولّى غسل الكافر ، ولا يجوز للنبىّ أن يرقّ لكافر ، ولا أن يدعوَ له بخير ، ولا أن يعدَه بالاستغفار والشفاعة ، وإنما تولّى علىّ عليه السلام غسله ، لأن طالبا وعَقِيلا لم يكونا أسلما بعد ، وكان جعفر بالحبشة ، ولم تكُنْ صلاة الجنائز شُرعت بعد ، ولا صلى رسولُ الله صلى الله عليه وآله على خديجة ، وإنما كان تشييعٌ ورقّةٌ ودعاء .

قالوا : ومن شعر أبى طالب يخاطب أخاه حمزة ، وكان يكنى أبا يعلَى :

فصبراً أبا يعلَى على دينِ أحمـدٍ ... وكن مظهرا للدين وفِّقتَ صابرَا
وحُطْ من أتى بالحق من عند ربه ... بصدق وعزم لا تكن حمْزُ كافرا
فقد سرّنى إذ قلت إنك مؤمنٌ ... فكن لرسـول الله فى الله ناصرَا

---

(١) ديوانه ٤٢ .

وبادِ قريشاً بالذى قد أتيتـــه جهاراً وقل ما كان أحمد ساحرا

قالوا : ومن شعره المشهور :

أنتَ النبىُّ محمدُ قَرْمٌ أعزَّ مسوَّدُ (١)
لمســوَّدين أكارمٍ طابوا وطــاب المولدُ
نعم الأرومة أصلُهــا عمرو الخِضَمّ الأوحدُ (٢)
هشَم الرَّبيــكة فى الجِفا ن وعيشُ مكة أنكدُ (٣)
فجرت بذلك سُنّــةٌ فيهــا الخبيزة تُثْرَدُ (٤)
ولنــا السقاية للحجيــج بهــا يُماثُ العُنجدُ (٥)
والمأزمان وما حوتْ عرفاتُهــا والمسجدُ
أنّى تُضَامُ ولم أمُتْ وأنا الشُّجاع العِرْبدُ (٦)
وبِطاحُ مــكّة لايرى فيها نجيعٌ أســودُ
وبنو أبيــكَ كأنّهمْ أسدُ العَرِين توَقّدُ
ولقــد عهدتُك صادقاً فى القــوْل لا تتزّيد
مازلتَ تنطق بالصَّوا بِ وأنت طِفلٌ أمردُ

قالوا : ومن شعره المشهور أيضاً قوله يخاطب محمدا ، ويسكّن جأشه ، ويأمره بإظهار الدعوة :

لايمنعنّــك منَ حقٍّ تقوم به أيدٍ تصولُ ولا سَلْق بأصوات (٧)

---

(١) ديوانه ٧٠ ــ ٧٢ .
(٢) الخضم : الكثير العطاء .
(٣) الربيكة : طعام يعمل من تمر وأقط وسمن .
(٤) الخبيزة : الخبز ، وفى الأساس : « ثردت الخبز أثرده ؛ وهو أن تفته ثم تبله بمرق » .
(٥) العنجد : الزبيب .
(٦) العربد فى الأصل : الحية ؛ وهو كناية عن الشجاعة .
(٧) ديوانه ٥٠ .

فإن كفّك كفى إن بليت بهم ودون نفسك نفسى فى المَمَاتِ

ومن ذلك قوله ، ويقال إنها لطالب بن أبى طالب :

إذا قيل مَن خيرُ هـذا الورى قبيلاً وأكرمُهم أُسْرَهْ (١) ؟
أناف لعبدِ منافٍ أبٌ وفضّله هاشم العِزّهْ
لقد حلّ مجد بنى هاشمٍ مكان النّعائم والنّثرهْ
وخير بنى هاشم أحمد رسول الإلٰه على فترهْ

ومن ذلك قوله :

لقد أكرم الله النبىَّ محمدا فأكرمُ خلق الله فى النّاس أحمدُ (٢)
وشقّ له مِنْ اسمِهِ لِيُجِلَّه فذُو العرش محمود وهذا محمّد

وقوله أيضا ، وقد يروى لعلى عليه السلام :

ياشاهد الله علىّ فاشهدِ (٣) أنّى على دين النبىّ أحمدِ
* مَنْ ضلّ فى الدين فإنى مهتدِ *

قالوا : فكلّ هذه الأشعار قد جاءت مجىء التواتر ، لأنه إن لم تكن آحادها متواترة، فمجموعها يدلّ على أمر واحد مشترك ؛ وهو تصديق محمد صلّى الله عليه وآله ، ومجموعها متواتر ، كما أنّ كلّ واحدة من قتلات علىٍّ عليه السلام الفرسان منقولة آحادا ، ومجموعها متواتر ، يفيدنا العلم الضّرورىّ بشجاعته ، وكذلك القول فيما رُوِى من سخاء حاتم ، وحلْم الأحنف ومعاوية ، وذكاء إياس وخلاعة أبى نواس ، وغير ذلك ، قالوا : واتركوا هذا كلّه جانبا ، ماقولكم فى القصيدة اللّامية التى شهرتها كشهرة " قفانبك " وإن جاز الشكّ فيها أوفى شىء من أبياتها ، جاز الشك فى " قفانبك " وفى بعض أبياتها ، ونحن نذكر منها هاهنا قطعة وهى قوله :

(١) ديوانه ٥٠ (٢) ديوانه ٧٥ .
(٣) ديوانه ٧٥ .

أعوذ بربّ البيت من كلّ طاعنٍ ... علينا بسوء أو يلوح بباطلِ (١)
ومن فاجر يغتابنا بمغيبةٍ ... ومن ملحق فى الدّين مالم نحاولِ
كذَبْتُم وبيتِ الله يُبْزَى محمدٌ ... ولمّا نطاعنْ دونه ونناضلِ (٢)
وننصره حتى نصرّعَ دُونه ... ونَذْهَل عن أبنائنا والحلائلِ
وحتى نرى ذا الرّدْع يركب رَدْعَهُ ... من الطّعن فعل الأنكب المتحامل (٣)
وينهض قومٌ فى الحديد إليكمُ ... نهوض الرّوايا تحت ذات الصّلاصل (٤)
وإنّا وبيت الله مَنْ جَدّ جدّنا ... لتلتبسنْ أسيافنا بالأماثل (٥)
بكلّ فتىً مثلِ الشّهاب سَمَيْدَعٍ ... أخِي ثقةٍ عند الحفيظة باسلِ
وما ترْكُ قومٍ لا أبالك سيّداً ... يحُوط الذّمار غيرُ نِكْسٍ مواكلِ (٦)
وأبيض يُستسقى الغمام بوجهِ ... ثِمالُ اليتامى عِصْمَةٌ للأراملِ (٧)
يَلُوذُ به الهُلّاكُ من آل هاشمٍ ... فهم عنده فى نعمة وفواضلِ
وميزان صِدْقٍ لا يخيس شَعيرةً ... ووزّان صدق وزنه غير عائل (٨)
ألم تعلموا أن ابْننا لا مكذّبٌ ... لَدَيْنا، ولا يعبا بقول الأباطلِ !
لعمرِى لقد كلِّفت وجدا بأحمدٍ ... وأحببته حبّ الحبيب المواصِل
وجُدتُ بنفسِى دونه فحميتهُ ... ودافعتُ عنه بالذُّرَى والكواهل
فلا زال للدّنيا جمالا لأهلها ... وشَيْناً لمنْ عادَى وزينَ المحافِلِ
وأيّده ربُّ العباد بنصره ... وأظهر ديناً حقّه غير باطل

***

(١) ديوانه ١٠٠ ـ ١٣٤
(٢) يبزى، أى يغلب.
(٣) يركب ردعه: يخرّ لوجهه على دمه، والردع: اللطخ والأثر من الدم.
(٤) الروايا: جمع راوية؛ وهو البعير يستقى عليه. وذات الصلاصل: المزادة التى ينقل فيها الماء، والصلاصل جمع صلصلة، وهى بقية الماء فى الإداوة.
(٥) الأماثل: الأشراف
(٦) الديوان: «غير ذرب».
(٧) ثمال اليتامى: عمادهم.
(٨) يقال: عال الميزان يعول، إذا مال.

وورد فى السيرة والمغازى أنّ عتبة بن ربيعة أو شيبة لمّا قطع رجْل عبيدة بن الحارث ابن المطلب يوم بدر أشبل[١] عليه عليّ وحمزة فاستنقذاه منه وخبطا عتبة بسيفيهما حتى قتلاه ، واحتملا صاحبهما من المعركة إلى العريش ، فألقياه بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ مخّ ساقه ليسيل ، فقال : يارسول الله ، لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أنه قد صدق فى قوله :

كَذبتمْ وبيتِ الله نُخلى محمّـداً   ولمّا نطاعِنْ دُونَه ونُناضِلِ
وننصرُه حتى نصرّع حوله   ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ

فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وآله استغفر له ولأبى طالب يومئذ ، وبلغ عبيدة مع النبيّ صلى الله عليه وآله إلى الصَّفْراء فمات فدفن بها .

قالوا : وقد روى أنّ أعرابيًّا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فى عام جَدْب ، فقال : أتيناك يارسول الله ولم يبق لنا صبيٌّ يرتضع ، ولا شارف[٢] يجترّ ثم أنشده :

أتيناك والعذراء تَدْمَى لبانُها   وقد شغلت أمّ الرضيع عن الطِّفْلِ
وألقى بكفَّيهِ الفتى لاستكانةٍ   من الجوع حتى ما يُمرُّ ولا يُحْلِي
ولا شيء مما يأ كل النّاس عندنا   سوى الحنظل العاميِّ والعِلْهِز الفَسْلِ
وليسَ لنا إلّا إليـك فرارُنا   وأين فِرارُ النّاس إلا إلى الرسل !

فقام النبيّ صلى الله عليه وآله يجرّ رداءه ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « اللهم اسقنا غيثا مغيثا ، مريئا هنيئا ، مريعا سَحًّا سجالا ، غدقًا طبقًا قاطبادائما ، درًّا تحيي به الأرض ، وتنبت به الزرع ، وتدرّ به الضَّرع ، واجعله سقيا نافعا عاجلاً غير رائث . فوالله ، ماردّ رسول الله صلى الله عليـه وآله يدَه إلى نحره حتى ألقت السَّماء

(١) أشبل : عطف .   (٢) الشارف : الناقة .

أزواقها ، وجاء الناس يضجّون : الغرق الغرق يارسول الله! فقال : اللهمّ حوالَيْنا ولا علينا، فانجاب السَّحاب عن المدينة حتى استدارَ حولها كالإكليل .

فضحك رسول الله حتى بدت نواجذُه ، ثم قال : لله درُّ أبي طالب ! لو كان حيّاً لقرّت عينه . منْ يُنشِدنا قوله ؟ فقام عليّ فقال : يارسولَ الله ، لعلك أردت :

* وأبيض يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه *

قال : أجلْ ، فأنشده أبياتاً من هذه القصيدة ، ورسول الله يستغفر لأبي طالب على المنبر؛ ثم قام رجل من كنانة فأنشده :

لك الحمدُ والحمدُ ممّن شَكَرْ ... سُقِينا بوجهِ النَّبيّ المَطَرْ
دعا الله خالقَه دعوةً ... إليه ، وأشخصَ منه البصرْ
فما كانَ إلّا كما ساعةٍ ... أو أقصرَ حتى رَأينا الدّرر
دِفاقَ العزَالِي وَجمّ البِعاق[1] ... أغاثَ به الله عُليا مُضَرْ
فكان كما قاله عَمُّه ... أبو طالبٍ ذُو رُواء غُرَرْ
به يَسّر الله صَوْبَ الغمامِ ... فهذا العِيان وذاكَ الخَبَرْ
فمن يَشْكُرِ الله يَلْقَ المزيدَ ... وَمَنْ يَكْفُرِ الله يَلْقَ الغِيَرْ

فقال رسول الله : إن يكن شاعر أحسن فقد أحسنت .

قالوا : وإنّما لم يظهِر أبو طالب الإسلامَ ويجاهر به ، لأنه لو أظهره لم يتهيّأ له من نُصْرة النبيّ صلّى الله عليه وآله ماتهيّأ له ، وكان كواحدٍ من المسلمين الّذين اتبّعوه ، نحو أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهما ممّن أسلم ، ولم يتمكّن من نُصْرته والقيام دونه

(١) العزالى : جمع عزلاء ، وهى فى الأصل : مصب الماء من القربة والراوية ، ويقال للسحابة إذا انهمرت بالمطر : قد حلت عزاليها ، وأرسلت عزاليها . والبعاق : المطر الذى ينبعق بالماء .

حينئذ ، وإنّما تمكّن أبو طالب من المحاماة عنه بالثبات فى الظاهر على دين قريش وإن أبطن الإسلام ؛ كما لو أنّ إنسانا كان يُبْطِن التشيّع مثلا ، وهو فى بلد من بلاد الكرّامية ، وله فى ذلك البلد وَجاهة وقدَم ، وهو يُظْهِر مذهبَ الكرّامية ، ويحفظُ ناموسه بينهم بذلك ، وكان فى ذلك البلد نفرٌ يسير من الشّيعة لا يزالون يُنالون بالأذى والضَّرر من أهل ذلك البلد ورؤسائه ، فإنّه مادام قادرا على إظهار مذهب أهلِ البلد ، يكون أشدَّ تمكّنا من المدافعة والمحاماة عن أولئك النّفر ، فلو أظهر ما يجوز من التشيّع ، وكاشف أهل البلد بذلك ، صار حكمُه حكم واحد من أولئك النّفر ، ولحقه من الأذى والضَّرر ما يلحقهم ، ولم يتمكّن من الدفاع أحيانا عنهم كما كان أولا .

قلت : فأمّا أنا فإنّ الحال ملتبسةٌ عندى ، والأخبار متعارضة ؛ والله أعلم بحقيقة حاله كيف كانت[١] .

ويقف فى صدرى رسالة النفس الزكية[٢] إلى المنصور ، وقوله فيها : « فأنا ابنُ خير الأخيار ، وأنا ابن شرّ الأشرار ، وأنا ابن سيّد أهل الجنّة ، وأنا ابن سيّد أهل النار » .

فإنّ هذه شهادة منه على أبى طالب بالكُفْر ، وهو ابنه وغير متّهم عليه ، وعهده قريب من عهد النبىّ صلّى الله عليه وآله ، لم يطل الزمان فيكون الخبر مفتعلا .

وجملة الأمر أنه قد رُوِى فى إسلامه أخبار كثيرة ، وروى فى موته على دين قومه أخبار كثيرة ، فتعارَض الجرْح والتّعديل ، فكان كتعارض البيّنتين عند الحاكم ، وذلك يقتضى التوقُّف ، فأنا فى أمره من المتوقّفين .

---

(١) وضع الشيخ المفيد رسالة فى إيمان أبى طالب ، طبعت فى مجموعة نفائس المخطوطات ، العدد الثالث من المجموعة الأولى . طبعت فى النجف سنة ١٩٥٦ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الملقب بالأرقط وبالمهدى وبالنفس الزكية ، خرج على المنصور ثائرا لمقتل أبيه بالكوفة فى مائتين وخمسين رجلا ، فقبض على أمير المدينة ، وبايعه أهلها فانتدب المنصور لقتاله ولىّ عهده عيسى بن موسى ، فسار إليه ، وانتهى الأمر بمقتله سنة ١٤٥ . (مقاتل الطالبين ٢٣٢) .

فأمّا الصّلاة وكونه لم يُنقل عنه أنه صلّى ، فيجوز أن يكون لأنّ الصلاة لم تكن بعد قد فرضت ، وإنما كانت نفْلا غير واجب ؛ فمن شاء صلّى ، ومن شاء ترك ، ولم تفرض إلّا بالمدينة . ويمكن أنْ يقول أصحابُ الحديث : إذا تعارض الجرح والتعديل كما قد أشرتم إليه ، فالترجيح عند أصحاب أصولِ الفقه لجانب الجرح ، لأن الجارح قد اطّلع على زيادة لم يطلّع عليها المعدِّل .

ولخصومهم أن يجيبوا عن هذا فنقول : إنّ هذا إنما يقال ويذكر فى أصول الفقه فى طعن مفصّل فى مقابلة تعديل مجمل ، مثاله أن يروِىَ شُعبةُ مثلا حديثا عن رجل ، فهو بروايته عنه قد وثّقه ، ويكفى فى توثيقه له أن يكون مستور الحال ، ظاهرُه العدالة ، فيطعن فيه الدّارقطنىّ مثلا بأن يقول : كان مدلّسا ، أو كان يرتكب الذّنب الفلانىّ ، فيكون قد طعن طعنا مفصّلا فى مقابلة تعديل مجمل ، وفيما نحن فيه وبصدده الرّوايتان متعارضتان تفصيلا لا إجمالا ، لأن هؤلاء يروُون أنّه تلفّظ بكلمتَىِ الشهادة عند الموت ، وهؤلاء يروُون أنه قال عند الموت : أنا على دين الأشياخ .

وبمثل هذا يجاب على مَنْ يقول من الشيعة : روايتنا فى إسلامه أرجح ، لأنا نروِى حكما إيجابيا ونشهد على إثبات ، وخصومنا يشهدون على النّفى ، ولا شهادة على النفى ، وذلك أنّ الشهادة فى الجانبيْن معا ، إنما هى على إثبات ، ولكنه إثبات متضادّ .

وصنّف بعض الطالبيين فى هذا العصر كتاباً فى إسلام أبى طالب ، وبعثه إلىّ ، وسألنى أن أكتب عليه[1] بخطّى نظما أو نثرا ، أشهد فيه بصحّة ذلك ، وبوثاقة الأدلّة عليه ، فتحرّجت أن أحكم بذلك حكماً قاطعاً ، لما عندى من التوقّف فيه ، ولم أستجز أنْ أقعدَ عن تعظيم أبى طالب ، فإنّى أعلم أنه لولاه لما قامت للإسلام دِعامة . وأعلم أنّ حقّه واجب على كلّ مسلم فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، فكتبت على ظاهر المجلّد :

---

(١) ساقطة من ب .

وَلَوْلَا أبو طالبٍ وابنُهُ   لما مُثِّل الدِّين شَخْصاً فقاما
فذَاك بمكّةَ آوى وحامَى   وهذا بيثْرَبَ جسّ الحِماما[1]
تكفّلَ عبدُ مناف بأمرٍ   وأودَى فكان علىٌّ تَماما
فقل فى ثَبيرٍ مضى بعد ما   قَضى ما قضاه وأبقى شَماما
فلله ذا فاتحاً للهدى   ولله ذا للمعالى ختاما
وما ضَرَّ مجدَ أبى طالب   جهولٌ لغَا أو بصيرٌ تعامَى
كما لا يضرّ إياةَ الصبا[2]   ح مَنْ ظنّ ضوء النهار الظلاما

فوفّيته حقّه من التعظيم والإجلال ، ولم أجزم بأمر عندى فيه وقفة .

***

[قصة غزوة بدر]

الفصل الثالث : فى شرح القصّة فى غزاة بدر ، ونحن نذكر ذلك من كتاب " المغازى " لمحمد بن عمر الواقدىّ ، ونذكر ما عساه زاده محمد بن إسحاق فى كتاب " المغازى " ، وما زاده [أحمد بن][3] يحيى بن جابر البلاذُرىّ فى " تاريخ الأشراف " .

قال الواقدىّ : بلغ[4] رسول الله صلّى الله عليه وآله أن عِيرَ قريشٍ قد فصلت من مكّة تريد الشام ، وقد جمعت قريش فيها أموالها ، فندب لها أصحابه ، وخرج يعترضها على رأس ستّة عشر شهراً من مهاجَرِه عليه السلام ، فخرج فى خمسين ومائة ــ ويقال فى مائتين ــ فلم يلقَ العِير ؛ وفاتته ذاهبةً إلى الشام . . وهذه غزاة ذى العُشَيرة ، رجع منها إلى المدينة فلم يلقَ حربا ، فلما تحيّن انصراف العِير من الشام قافلةً ندب أصحابه لها ، وبعث طلحة بن عُبيد الله وسَعِيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل قبل خروجه من المدينة بعشرِ ليال ،

---

(١) ا : « حسن » .
(٢) إياة الصبح : ضوءه ، وأصله فى الشمس .
(٣) من ا .
(٤) مغازى الواقدى ص ١١ وما بعدها .

يتجسّسان خبر العِير ، حتى نزلَا على كشد[1] الجهنىّ بالموضع المعروف بالنّخبار[2] ، وهو من وراء ذِى المَرْوة على السّاحل ، فأجارهما وأنزلهما ، فلم يزالا مقيمين فى خباء وبَرٍ حتى مرّت العِير ، فرفعهما على نَشَزٍ من الأرض ، فنظرا إلى القوم وإلى ماتحمل العِير ، وجعل أهل العير يقولون لكشد : يا كشد، هل رأيتَ أحدا من عيون محمد ؟ فيقول : أعوذ بالله ، وأنّى لمحمد عيون بالنخبار ! فلمّا راحت العير باتا حتى أصبحا ثم خرجا، وخرج معهما كشد خفيرا ، حتى أوردهما ذا المَرْوَة ، وساحلت العِير فأسرعت ، وسار بها أصحابُها ليلاً ونهارا، فَرَقًا من الطَّلب ، وقدم طلحة وسعيد المدينة فى اليوم الّذِى لَقِىَ رسول الله صلى الله عليه وآله قريشًا ببدر ، فخرجا يعترِضَانِ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فلقياه بتربان ـ وتُربان بين مَلَل والسَّالة على المحجّة ، وكانت منزل عروة ابن أذينة الشاعر ـ وقدِم كشد بعد ذلك على النبى صلى الله عليه وآله ، وقد أخبر طلحة وسعيد رسول الله صلى الله عليه وآله بما صَنَع بهما ، فحباه وأكرمه ، وقال : ألا أقطع لك ينبُع ؟ قال : إنى كبير ، وقد نفد عمرى ، ولكن أقطِعها لابن أخى ، فأقطَعَها له[3] .

قالوا : وندب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين ، وقال : هذه عِير قريش ، فيها أموالُهم : لعلّ الله أن يغنِّمَكُموها. فأسرع مَنْ أسرع ، حتّى إنْ كان الرجل ليساهِم أباه فى الخروج ، فكان ممّن ساهم أباه سعد بن خَيْثمة ، فقال سعد لأبيه : إنّه لو كان غير الجنة آثرتك به ، إنّى لأرجُو الشهادة فى وجهى هذا ، فقال خيثمة : آثِرْنى وقِرّ مع نسائك ، فأبى سعد ، فقال خيثمة : إنه لابدّ لأحدنا من أن يقيم ، فاستَهما ، فخرج سهم سعد ، فقتِل ببدر. وأبطأ عن النبى صلى الله عليه وآله بشرٌ كثير من أصحابه ، وكرهوا خروجَه، وكان فى ذلك كلام كثير واختلاف ، وبعضهم تخلّف من أهل النّيّات والبصائر، لم يظنّوا أنّه يكون قتال، إنّما هو الخروج للغنيمة ، ولو ظنّوا أنّه يكون قتال لما تخلّفوا ؛ منهم أُسَيْد

(١) فى الإصابة : كسد بالسين المهملة وما أثبته من الأصول يوافق ما فى المغازى .
(١) فى مغازى الواقدى : « النخبار من وراء ذى المروة على الساحل » . ولم أجده فى ياقوت .
(٣) الخبر فى الإصابة ٣ : ٣٧٧ .

ابن حُضَير ، فلما قدِم رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال أُسَيد : الحمد لله الذى سرّك وأظهرَك على عدوّك ، والذى بعثك بالحقّ ماتخلّفتُ عنك رغبةً بنفسى عن نفسك ، ولا ظننت أنّك تلاقى عَدُوًّا ، ولا ظننتُ إلّا أنها العِير ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : صدقت .

قال : وخرجَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، حتّى انتهى إلى المكان المعروف بالبُقْع (١) وهى بيوت السُّقيا (٢) ، وهى متصلة ببيوت المدينة ، فضرب عسكره هناك ، وعرض المقاتلة ، فعرض عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، ورافع بن خديج ، والبَراء بن عازب ، وأُسَيد بن ظُهَير ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت ، فردّهم ولم يُجِزْهُم .

قال الواقدىّ : فحدثنى أبو بكر بن إسماعيل ، عن أبيه ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه ، قال : رأيتُ أخِى عمير بن أبى وقّاص قبل أن يعرضَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم يتوارَى ، فقلت : مالك ياأخى ؟ قال : إنّى أخافُ أن يَرانى رسول الله صلى الله عليه وآله فيستصغرَنى ، فيردَّنى ، وأنا أحبّ الخروجَ ، لعلّ الله أن يرزقَنِى الشهادة . قال : فعُرِض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستصغره ، فقال : ارجِعْ ، فبكى [عمير] (٣) ، فأجازه .

قال : فكان سعد يقول : كنت أعقِد له حمائلَ سيفهِ من صِغَرِه ، فقتِل ببدر وهو ابن ستّ عشرةَ سنة .

قال : فلمّا نزلَ عليه السلام بيوت السُّقْيا أمرَ أصحابَه أن يستقُوا (٤) من بئرهم : وشرب عليه السلام منها ، كان أوّل مَنْ شرِب وصلّى عندها ، ودعا يومئذ لأهل المدينة ، فقال :

---

(١) قال ياقوت «البقع : اسم بئر بالمدينة» ، وقال الواقدى : «البقع من السقيا التى بنقب بنى دينار بالمدينة»

(٢) فى ياقوت : « عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستقى الماء العذب من بيوت السقيا ، وفى حديث آخر : كان يستعذب الماء العذب من بيوت السقيا ، والسقيا : قرية جامعة من عمل الفرع ، بينهما مما يلى الجحفة تسعة عشر ميلا . . . وقال ابن الفقيه : السقيا من أسافل أودية تهامة .

(٣) من ا والواقدى .

(٤) ب : « يستسقوا » ، وأثبت ما فى ا والواقدى .

اللهمّ إن إبراهيم عبدُك وخليلُك ونبيّك ، دعاك لأهلِ مكة ، وإنى محمد عبدُك ونبيك ، أدعوك لأهلِ المدينة ، أن تبارك لهم فى صاعِهم ومُدّهم وثمارهم ، اللهمّ حَبّب إلينا المدينة ، واجعل ما بها من الوباء بخُمّ . اللهمّ إنى حرّمت ما بين لا بَتَيْها ، كما حرّم إبراهيم خليلك مكة .

قال الواقدىّ : وخمّ على ميلين من الُجحفة .

وقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله أمامه عدىّ بن أبى الزغباء وبسيس بن عمرو ، وجاء إليه عبد الله بن عمرو بن حرام ، فقال : يا رسول الله ، لقد سرّنى منزلُك هذا ، وعرضُك فيه أصحابَك ، وتفاءلت به ، إنّ هذا منزلنا فى بنى سلِمة ، حيث كان بيننا وبين أهل حُسَيكة ما كان .

قال الواقدىّ : هى حُسَيكة[1] الذّباب ، والذّباب[2] : جبل بناحية المدينة ، وكان بحُسَيكة يهود ، وكان لهم بها منازل .

قال عبد الله بن عمرو بن حرام فعرضنا يارسول الله ها هنا أصحابنا ، فأجزنا مَنْ كان يطيق السلاح ، ورددْنا مَنْ صغرُ عن حمل السلاح ، ثم سرنا إلى يهود حُسَيكة ، وهم أعزّ يهود كانوا يومئذ ، فقتلناهم كيف شئنا ، فذلّت لنا سائرُ[3] يهود إلى اليوم ، وأنا أرجو يا رسول الله أن نلتقِىَ نحن وقريش ، فيقرّ الله عينَك منهم .

قال الواقدىّ : وكان خلّاد بن عمرو بن الَجمُوح لمّا كان من النهار رجع إلى أهله بخُرْباء ، فقال له أبوه عمرو بن الجموح : ما ظننت إلا أنكم قد سِرْتم ، فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يعرِض الناس بالبقيع ، فقال عمرو : نعم الفأل ! والله إنى لأرجو أن تغنموا وأن تظفرُوا بمشركى قريش ، إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى حُسَيكة .

---

(١) حسيكة ، ضبطه ياقوت بالتصغير ، وقال : « هو موضع بالمدينة فى طرق ذباب » .
(٢) ضبطه ياقوت : « بكسر أوله وباءين » ، وقال : «جبل بالمدينة له ذكر فى المغازى والأخبار» .
(٣) ب : « اليهود » .

قال : فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد غيّر اسمه ، وسمّاه السقيا . قال : فكانت فى نفسى أن أشتريها ، حتى اشتراها سعدُ بن أبى وقّاص ببَكْرَيْن ، ويقال بسبع أواق ، فذُكِر للنبى صلى الله عليه وآله أن سعدا اشتراها ، فقال : ربح البيع !

قال الواقدىّ : فراح رسول الله صلى الله عليه وآله من بيوت السُّقْيَا ، لاثنتى عشرة ليلة[1] مضت من رَمضان ، وخرج المسلمون معه ثلاثمائة وخمسة ، وتخلّف ثمانية ، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم ، فكانت الإبل سبعين بعيراً ، وكانوا يتعاقبون الإبل : الاثنين ، والثلاثة ، والأربعة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ومَرْثد بن أبى مَرْثد — ويقال زيد بن حارثة مكان مَرْثَد — يتعاقبون بعيراً واحداً ، وكان حمزة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة ، موالى النبى صلى الله عليه وآله على بعير ، وكان عُبيدة بن الحارث والطفيل والحصين ابنا الحارث ، ومسطح ابن أُثاثة على بعير لعبيدة بن الحارث ناضح[2] ابتاعه من أبى داود المازنىّ ، وكان مُعاذ وعوف ومعوّذ بنو عَفْراء ومولاهم أبو الحمراء على بعيرٍ ، وكان أُبَىّ بن كعب وعمارة بن حِزام وحارثة بن النّعمان على بعير ، وكان خِراش بن الصِّمّة وقُطْبة بن عامر ابن حديدة وعبد الله بن عمرو بن حزام على بعير ، وكان عُتْبة بن غَزْوان وطليب بن عمير على جَمَلٍ لعتبة بن غزوان يقال له العبْس ، وكان مصعب بن عمير وسُويبط بن حَرْملة ومسعود بن رَبيع عَلَى جمل لُمصعب ، وكان عمّار بن ياسر وعبد الله بن مسعود على بعيرٍ ، وكان عبد الله بن كعب وأبو داود المازنىّ وسليط بن قيس على جملٍ لعبد الله بن كعب ، وكان عثمان بن عفّان وقُدامة بن مظعون وعبد الله بن مَظْعون والسائب بن عثمان على بعيرٍ يتعاقبون ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرّحمن بن عوف على بعيرٍ ، وكان سعد بن مُعاذ وأخوه وابن أخيه الحارث بن أوْس والحارث بن أنس على جمل لسعْد بن مُعاذ ناضحٍ يقال له الذيّال ، وكان سعيد بن زيد ، وسلمة بن

(١) ساقطة من ب

(٢) الناضح : البعير يستقى عليه الماء .

سلامة بن وقش وعباد بن بشر ورافع بن يزيد على ناضحٍ لسعيد بن زيد ، ما تزوّدُوا إلّا صاعاً من تمر .

قال الواقدىّ : فروى مُعاذ بن رفاعة ، عن أبيه ، قال : خرجت مع النبيّ صلى الله عليه وآله إلى بدر ، وكان كلّ ثلاثة يتعاقبون بعيراً ، فكنت أنا وأخى خلّاد بن رافع على بكْرٍ لنا ومعنا عُبيدة بن يزيد بن عامر ، فكنّا نتعاقب ، فسِرْنا حتّى إذا كنّا بالرَّوْحاء إذ مرّ بنا بكْرنا وبرك علينا وأعيا ، فقال أخى : اللهمّ إن لك علىّ نذراً ، لئن رددتنا إلى المدينة لأنحرنّه ، فمرّ بنا النبىّ صلى الله عليه وآله ونحن على تلك الحال ، فقلنا : يارسول الله ، برك علينا بكرُنا ، فدعا بماء فتمضمض وتوضّأ فى إناء ، ثم قال : افتحا فاه ، ففعلنا فصبّه فى فيه ، ثم على رأسِه ثم على عنقه ثم على حارِكه ، ثم على سَنامه ، ثم على عَجُزه ، ثم على ذَنَبه ، ثم قال : اركبا ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله فلحقناه أسفلَ من المنصرف ، وإنّ بكرنا لينفِر بنا ، حتى إذا كنّا بالمصلّى راجعين من بدر ، برك علينا ، فنحرَه أخى ، فقسم لحمه وتصدّق به .

قال الواقدىّ : وقد رُوِى أنّ سعد بن عُبادة حَمَل فى بدر على عشرين جملا .

قال : ورُوِى عن سعد بن أبى وقّاص ، أنّه قال : خرجنا إلى بَدْرٍ مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومعنا سبعون بعيرا ، فكانوا يتعاقبون الثلاثة والأربعة والاثنان على بعير ، وكنتُ أنا من أعظم أصحابِ النبىّ عليه السلام عنه غَناء ، وأرجلهم رُجْلَة [1] ، وأرْمَاهم لِسَهْمٍ ، لم أركب خطوة ذاهبا ولا راجعا .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين فَصَل من بيوت السُّقْيا : اللهمّ إنهم حُفاةٌ فاحملْهم ، وعراةٌ فاكسُهم ، وجياع فأشبِعْهم ، وعالةٌ فأغنِهم من فضلك؛ فما رجع أحد منهم يريد أن يركب إلّا وجد ظهراً ، للرّجُل البعير والبعيران ، واكتسى

---

(١) الرجلة بالضم : القوة لى المشى .

مَنْ كان عارياً ، وأصابو طعاما من أزوادهم ، وأصابوا فداء الأسرى[1] ، فأغنى به كلَّ عائل .

قال : واستعمل رسولُ الله صلى الله عليه وآله على المشاة قيس بن أبى صعصعة - واسم أبى صعصعة عمر بن يزيد بن عوف بن مبذول - وأمره النبىّ صلّى الله عليه وآله حين فَصَل من بُيُوت السقيا أن يعدّ المسلمين ، فوقف لهم ببئر أبى عبيدة يعدّهم ، ثم أخبر النبىّ صلى الله عليه وآله ، وخرج من بُيوت السقيا ، حتى سلك بطن العقيق ، ثم سلك طريق المكيْمِن[2] ، حتى خرج على بطحاء بن أزهر ؛ فنزل تحت شجرة هناك ، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك ، فبنى منها مسجدا ، فصلّى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، وأصبح يوم الاثنين وهو هناك ؛ ثم صار إلى بطن مَلَل وتُرْبان بين الحفيرة ومَلَل .

قال الواقدىّ : فكان سعد بن أبى وقّاص ، يقول : لما كنّا بتُرْبان ، قال لى رسول الله صلى عليه وآله : ياسعْد ، انظر إلى الظّبى ، فأفوّق له بسهم ، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله فوضع رأسه بين مَنكِبِي وأذنى ، ثم قال : اللهمّ سدّد رمْيته - قال: فما أخطأ سهمى عن نحره ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرجت أعدُو فأخذته وبه رمَق فذ كّيته[3] ، فحملناه حتى نزلنا قريباً ، وأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله فقسِم بين أصحابه .

قال الواقدىّ : وكان معهم فَرَسان : فرس لمرْثد بن أبى مرثَد الغنوىّ ، وفرس للمقداد ابن عمرو البهرانىّ ، حليف بنى زُهرة ، ويقال فرس للزبير ؛ ولم يكن إلّا فَرَسان لاختلاف عندهم ، أنّ المقداد له فرس ؛ وقد روى عن ضُباعة بنت الزُّبير عن المقداد ،

---

(١) ا : « للأسرى » .

(٢) المكيمن ، ضبطه ياقوت على التصغير ، وقال : عقيق المدينة » وفى الواقدى : « المكتمن » .

(٣) ذكيته . ذبحته .

قال : كان معى يوم بَدْر فرس يقال له سبحة . وقد روى سعد بن مالك الغَنَوىّ عن آبائه أن مرثد بن أبى مرثد الغَنَوى شهد بدراً على فرس له يقال له السَّيل .

قال الواقدىّ : ولحقت قريش بالشام فى عيرها ، وكانت العير ألف بعيرٍ ، وكان فيها أموال عظام ، ولم يبق بمكّة قرشىٌّ ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به فى العِير ؛ حتى إنّ المرأة لتبعثُ بالشىء التافه ، وكان يقال : إن فيها لخمسين ألف دينار . وقالوا : أقلّ ، وإن كان ليقال : إنّ أكثر مافيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبى أُحَيحة إمّا مالهم أو مال مع قوم قُرّاض على النّصف ، وكان عامّة العير لهم ؛ ويقال : بل كان لبنى مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة أو أربعة آلاف مثقال ذهبا ، وكان يقال للحارث بن عامر بن نوفل فيها ألفا مثقال .

قال الواقدىّ: وحدّثنى هشام بن عمارة بن أبى الحُويرث ، قال : كان لبنى عبدمناف فيها عشرة آلاف مثقال ، وكان مَتْجَرُهم إلى غَزّة من أرض الشام .

قال الواقدىّ : وحدثنى عبد الله بن جعفر ، عن أبى عوْن مولى المِسْور ، عن مَخْرمة ابن نوْفل ، قال : لما لحقنا بالشّام أدركنا رجلٌ من جُذام ، فأخبرنا أنّ محمـدا قد كان عرض لعيرنا فى بدأتنا ، وأنه تركه مقيما ينتظر رجعتنا ، قد حالف علينا أهـلَ الطريق ووادَعهم . قال مخرمة : فخرجنا خائفين نخاف الرّصَد ، فبعثنـا ضمضم بن عمرو حين فَصَلْنا من الشام .

قال الواقدىّ : وكان عمرو بن العاص مع العير ، وكان يحدّث بعـد ذلك يقول : لمّا كنا بالزّرقاء ـ والزّرقاء بالشام من أذْرِعات على مرحلتين ـ ونحنُ منحدِرون إلى مكّة لقينا رجلاً من جُذام ، فقال : قد كان عرض محمد لـكم فى بدأتـكم فى أصحـابه ، فقلنا : ماشعرنا ، قال : بلى ، فأقام شهرا ، ثم رجع إلى يثرب، وأنتم يوم عرض محمد لـكم مخفّون فهو الآن أحرى أن يعرِض لـكم ؛ إنّما يعُدّ لـكم الأيام عـدًّا ، فاحذروا على عيركم ،

وارتئوا آراءكم ، فوالله ما أرى من عَدد ولا كُراع ولا حَلْقة [١] . فأجمع القوم أمرهم ، فبعثوا ضَمْضَم بن عمرو ، وكان فى العير ، وقد كانت قريش مرّت به وهو بالساحل ، معه بكران ، فاستأجروه بعشرين مثقالا ، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشاً أنّ محمدا قد عرَض لعيرهم ، وأمره أن يجدَع بعيره إذا دخل ، ويحوّل رحله ، ويشقّ قميصَه من قُبُلِه ودُبُره ، ويصيح : الغوث الغوث ! ويقال : إنّما بعثوه من تبُوك ، وكان فى العير ثلاثون رجلا من قريش ؛ فيهم عمرو بن العاص ، ومَخرمة بن نوفل .

قال الواقدىّ : وقد كانت عاتكة بنت عبد المطلب رأتْ قبل مجىء ضَمْضَم بن عمرو رؤيا أفزعتْها ، وعظُمت فى صدرها ، فأرسلت إلى أخيها العباس ، فقالت : يا أخى ، لقد والله رأيت رؤيا أفزعتْنى [٢] ، وتخوّفتُ أن يدخل على قومِك منها شرّ ومصيبة ، فاكتم علىّ ما أحدّثك منها ، رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : يا آل غُدَر ، انفروا إلى مصارعكم فى ثلاث ، فصرخ بها ثلاث مرات ، فأرَى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد ، والناس يتبعونه إذ مثل به بعيرُه على ظهر الكعبة ، فصرخ مثلها ثلاثا ، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس ، فصرخ بمثلها ثلاثاً ، ثم أخذ صخرةً من أبى قبيس فأرسلها ، فأقبلت تهوِى ، حتى إذا كانت فى أسفل الجبل ارفضّت ، فما بقى بيت من بيوت مكّة ولا دارٌ من دورها إلا دخلتْه منها فِلْذة [٣] .

قال الواقدىّ : وكان عمرو بن العاص يحدّث بعد ذلك فيقول : لقد رأيتُ كلّ هذا ، ولقد رأيت فى دارنا فلْذة من الصَّخرة التى انفلقت من أبى قبيس ، ولقد كان ذلك عبرة ، ولكن الله لم يرِدْ أن نُسلم يومئذ ، لكنه أخّر إسلامنا إلى ما أراد .

قلت : كان بعض أصحابنا يقول : لم يكفِ عمراً أن يقول : رأيتُ الصَّخرة فى دُور مكة عِيانا ، فيخرِج ذلك مخرج الاستهزاء باطنا على وَجْه النفاق واستخفافه بعقول المسلمين

(١) الحلقة هنا : السلاح .
(٢) الواقدى : « أفظعتها » .
(٣) الفلذة : القطعة من الحجارة .

زعم، حتى يضيف إلى ذلك القول بالخبر الصُّراح فيقول : إنّ الله تعالى لم يكن أراد منه الإسلام يومئذ .

قال الواقديّ : قالوا : ولم يدخل دارا ولا بيتا من دُور بنى هاشم ولا بنى زُهرة من تلك الصخرة شىء ! قال : فقال العبّاس : إنّ هذه لرؤيا ، فخرج مغتما ، حتى لقى الوليد بن عتبة ابن ربيعة ــ وكان له صديقاً ــ فذكرها له واستكتمه ؛ ففشا الحديث فى الناس ، قال العباس : فغدوتُ أطوف بالبيت ، وأبو جهل فى رَهْطٍ من قريش يتحدّثون برؤيا عاتكة ، فقال أبو جهل : مارأت عاتكة هذه ؟ فقلت : وما ذاك ؟ فقال : يابنى عبد المطّلب ، أما رضيتم بأن تتنبّأ رجالكم حتى تتنبّأ نساءكم ! زعمت عاتكة أنها رأت فى المنام كذا وكذا ــ للّذى رأت ــ فسنتربّص بكم ثلاثا ، فإن يكن ما قالت حقًّا فسيكون، وإن مضت الثلاث ولم يكن ، نكتبْ عليكم أنكم أكذبُ أهل بيت فى العرب ! فقال له العباس : يامصفّر استه ، أنت أوْلَى بالكذب واللؤم منّا ! فقال أبو جهل : إنا استبقْنا المجد وأنتم، فقلتم : فينا السقاية ، فقلنا : لا نُبالِى ، تسقون الحجّاج ، ثم قلتم :فينا الحجابة،فقلنا:لا نبالى تحجبون البيت ، ثم قلتم : فينا النَّدْوة ، قلنا : لا نبالى يكون الطعام فتطعمون الناس . ثم قلتم : فينا الرِّفادة ، فقلنا : لا نبالى ، تجمعون عندكم ماترفدون به الضعيف ،فلمّا أطعمنا الناس وأطعمتم ، وازدحمت الرّكب واستبقْنا المجد ، فكنا كفرسَىْ رِهان،قلتم:منا نبىٌّ ، ثم قلتم : منّا نبيّة ! فلا واللّات والعُزّى لا كان هذا أبدا !

قلت : لا أرى كلام أبى جهل منتظما ؛ لأنه إذا سلّم للعباس أنّ هذه الخصال كلّها فيهم ، وهى الخصال التى تشرُف بها القبائل بعضُها على بعض ، فكيف يقول : لا نبالى لا نبالى ! وكيف يقول : فلمّا أطعمنا للناس وأطعمتم ، وقد كان الكلام منتظما ،لو قال : ولنا بإزاء هذه المفاخر كذا وكذا ، ثم يقول بعد ذلك : استبقنا المجد فكنّا كفرسَىْ رهان ، وازدحمت الرّكب ؛ ولم يقل شيئاً ولا عدّ مآثره ، ولعلّ أبا جهل قد قال مالم ينقل .

قال الواقدىّ : قال العبّاس : فوالله ما كان منّى غير أنّى جحدت ذلك ، وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً ، فلما أمسيتُ لم تبق امرأة أصابتْها ولادة عبد المطلب إلا جاءت ، فقلن لى : أرضيتم بهذا الفاسق الخبيث يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول نساءكم ! ولم تكن لك عند ذلك غيرة ! فقلت : والله ماقلت إلا لأنّى لاأبالى به ، ولأيمُ الله لأعرضِنّ له غدا ، فإن عاد كفيتُكُنّ إياه . فلما أصبحوا من ذلك اليوم الّذى رأت فيه عاتكة مارأتْ ، قال أبو جهل : هذه ثلاثة أيام مابقى . قال العباس : وغدوتُ فى اليوم الثالث ، وأنا حديد مغضَب ، أرى أن قد فاتنى منه أمر أحبّ أن أدركه ، وأذكر ما أحفظنى به النساء من مقالتهنّ ، فوالله إنّى لأمشى نحوه — وكان رجلًا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر — إذ خرج نحو باب بنى سَهْم يشتدّ ، فقلت : ما باله لعنه الله! أ كلّ هذا فَرَقا من أن أشاتمه ! فإذا هو قد سمع صوت ضَمْضم بن عمرو وهو يقول : يامعشر قريش ، يا آل لؤىّ بن غالب ، اللَّطيمة قد عرض لها محمد فى أصحابه ! الغوث الغوث ! والله ماأرى أن تدركوها ، وضمضم ينادى بذلك فى بطن الوادى ، وقد جَدَع أذنى بعيره وشقّ قميصه قُبُلًا ودُبرا ، وحوّل رحله ، وكان يقول : لقد رأيتُنى قبل أن أدخل مكّة وإنى لأرى فى النّوم وأنا على راحلتى كأنّ وادى مكّة يسيل من أسفله إلى أعلاه دما ، فاستيقظت فزعاً مذعورا ، فكرهتُها لقريش ، ووقع فى نفسى أنّها مصيبة فى أنفسهم .

قال الواقدىّ : وكان عمير بن وهب الُجمَحىّ يقول : مارأيت أعجبَ من أمر ضمضم قطّ ، وما صرّح على لسانه إلاّ شيطان ! كأنه لم يملّكنا من أمورنا شيئاً ، حتى نفَرنا على الصَّعب والذلول ، وكان حكيم بن حزام يقول : ما كان الّذى جاءنا فاستنفرنا إلى العير إنسانا ! إن هو إلا شيطان ، قيل : كيف ياأبا خالد ؟ قال : إنى لأعجب منه ، ماملكنا من أمرنا شيئاً .

قال الواقدىّ : فجهز النّاس وشُغل بعضهم عن بعض ، وكان النّاس بين رجلين : إمّا خارج وإما باعث مكانَه رجلا ، وأشفقت قريش لرؤيا عاتكة ، وسرّ بنو هاشم .

وقال قائلهم : كلاّ ، زعمتم أنّا كذبنا وكذبتْ عاتكة ! فأقامت قريش ثلاثا تتجهّز ـ ويقال : يومين ـ وأخرجت أسلحتها واشترَوا سلاحا ، وأعان قويّهم ضعيفَهم ، وقام سُهَيل ابن عمرو فى رجال من قريش ، فقال : يامعشرَ قريش ، هذا محمّد والصُّباة معه من شبّانكم وأهل يثرب قد عرضوا لعيركم ولطيمتكم(١) ، فمن أراد ظهرا فهذا ظهر ، ومَنْ أراد قوّة فهذه قوّة . وقام زمعة بن الأسود ، فقال : إنّه واللّات والعزّى مانزل بكم أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرِضوا لعيركم فيها خزائنكم ؛ فأوعِبوا(٢) ولا يتخلّف منكم أحد ، ومَنْ كان لا قوّة له فهذه قوة ، والله لئن أصابها محمّد وأصحابه لا يروعكم منهم إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم . وقال طُعيمة بن عدىّ : يامعشر قريش ، والله مانزل بكم أمرٌ أجلّ من هذه ! أن يستباح عيركم ، ولطيمة قريش فيها أموالكم وخزائنكم ؛ والله ما أعرف رجلًا ولا امرأة من بنى عبدمناف له نَشٌّ(٣) فصاعدا ، إلّا وهو فى هذه العير ، فمن كان لا قوّة به فعندنا قوّة نحمله ونقوّيه . فحمل على عشرين بعيرا وقوى بهم ، وخلَفهم فى أهلهم بمعونة . وقام حنظلة بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان فحضّا الناس على الخروج ، ولم يدعُوا إلى قوة ولا حُمْلان ؛ فقيل لهما : ألا تدعُوان إلى مادعا إليه قومكما من الحملان ؟ قالا : والله مالنا مال ، وما المال إلا لأبى سفيان . ومشى نوفل بن معاوية الديلىّ إلى أهل القوّة من قريش ، وكلّمهم فى بذْل النفقة والحملان لمن خَرج ، فكلّم عبد الله بن أبى ربيعة ، فقال : هذه خمسمائة دينار تضعُها حيث رأيت ، وكلّم حُويطب بن عبد العزى ، فأخذ منه مائتى دينار أو ثلثمائة ، ثم قوىَ بها فى السلاح والظهر .

قال الواقدىّ : وذكروا أنه كان لا يتخلّف أحدٌ من قريش إلا بعث مكانه بعثا ، فمشت قريش إلى أبى لهب ، فقالوا له : إنك سيّد من سادات قريش ، وإنّك إن تخلّفت عن

---

(١) اللطيمة : التجارة ؛ وقيل : اللطيمة : العطر خاصة .

(٢) أوعبوا : استعدوا .

(٣) النش : وزن نواة من ذهب .

النفير يعتبر بك غيرُك من قومك، فاخرج أو ابعث رجلاً ، فقال : واللّات والعُزّى لا أخرجُ ولا أبعث أحداً، فجاءه أبو جهل فقال : أقم يا أبا عتبة، فوالله ما خرجنا إلا غضباً لدينك ودين آبائك ! وخاف أبو جهل أن يُسْلِم أبو لهب ، فسكت أبو لهب ولم يخرج ولم يبعث، وما منع أبا لهب أن يخرج إلا الإشفاقُ من رُؤيا عاتكة ، كان يقول : إنما رؤيا عاتكة أخذٌ باليد، ويقال إنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان له عليه دَيْن ، فقال : اخرج ودَيْنى عليك لك ، فخرج عنه .

***

وقال محمد بن إسحاق فى المَغازى : كان دَيْن أبى لهب على العاص بن هشام أربعة آلاف درهم ، فمطَله بها وأفلس ، فتركها له على أن يكون مكانه ، فخرج مكانه .

قال الواقدىّ : وأخرج عُتْبة وشيبة دروعاً لهما ، فنظر إليهما مولاهما عدّاس وهما يصلِحان دروعهما وآلةَ حربهما ، فقال : ما تريدان ؟ فقالا : ألم تر إلى الرّجل الذى أرسلناك إليه بالعنَب فى كَرْمنا بالطّائف ؟ قال : نعم ، قالا : نخرج فنقاتله ، فبكى ، وقال : لا تخرجا؛ فوالله إنه لنبىّ ، فأبيا فخرجا ، وخرج معهما فقُتِل ببدر معهما .

قلت : حديث العِنب فى كَرْم ابنى ربيعة بالطائف قد ذكره أرباب السيرة ، وشرحه الطّبرى فى التاريخ ، قال : لما مات أبو طالب بمكّة طمعت قريش فى رسول الله صلى الله عليه وآله ونالت منه مالم تكن تناله فى حياة أبى طالب ، فخرج من مكة خائفا على نفسه مهاجرا إلى ربّه يؤمّ الطائف ، راجياً أن يدعوَ أهلَها إلى الإسلام فيجيبوه ، وذلك فى شوال من سنة عشر من النبوة ، فأقام بالطائف عشرة أيام ، وقيل شهرا ، لا يدَع أحداً من أشراف ثقيف إلا جاءه وكلّمه ، فلم يجيبوه ، وأشاروا عليه أن يخرج عن أرضهم ، ويلحق بمَجاهل الأرض وبحيث لا يعرف ، وأغرَوْا به سفهاءهم ، فرمَوْه بالحجارة ، حتى إنّ رجلَيْه لتدْمَيان ، فكان معه زيد بن حارثة ، فكان يقيه بنفسه ، حتى لقد شُجّ فى رأسه .

والشّيعة تروى أنّ علىّ بن أبى طالب كان معه أيضا فى هجرة الطائف ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثقِيف وهو محزون ، بعد أن مشى إلى عبد ياليل ومسعود وحبيب ابنى عمرو بن عمير ، وهم يومئذ سادة ثقيف ، فجلس إليهم ، ودعاهم إلى الله وإلى نصرته والقيام معه على قومه ، فقال له أحدهم : أنا أمرُط[1] بباب الكعبة ، إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحدا أرسلَه غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلّمك كلمة أبدا ، لئن كنتَ رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظمُ خطراً من أن أردّ عليك الكلام ، ولئن كنتَ كاذبا على الله ماينبغى أن أكلمك . فقام رسول الله صلى الله عليه وآله من عندهم ، وقد يئس من خَيْر ثقيف ، واجتمع عليه صِبيانهم وسفهاؤهم ، وصاحوا به وسبُّوه وطردوه ، حتى اجتمع عليه الناس يعْجَبون منه ، وألجئوه بالحجارة والطّرد والشّتم إلى حائط[2] لعُتْبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما يومئذ فى الحائط ، فلمّا دخل الحائط رجع عنه سفهاء ثقِيف ، فعمد إلى ظل حَبَلة[3] منه فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران ويريان مالقىَ من سفهاء ثقيف .

قال الطبرىّ : فلمّا اطمأنّ به قال ـ فيما ذُكِر لى : اللهمّ إليك أشكو ضعفَ قوّتى وقلّة حيلتى وهوانى على النّاس ؛ ياأرحمَ الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّى ، إلى من تَكلِنى ! إلى بعيد فيتجهّمنى ، أم إلى عدوّ ملّكته أمرى ، فإن لم يكن منك غضب علىّ فلا أبالى! ولكن عافيتُك هى أوسع لى ، أعوذ بنورِ وجهك الذى أشرقَتْ به الظُّلمات ، وصلَح عليه أمرُ الدّنيا والآخرة ، من أن ينزِل بى غضبُك ، أو يحلّ علىّ سَخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، لاحول ولا قوة إلا بك !

فلمّا رأى عُتبة وشيبة مالقىَ تحرّكت له رحِمُهما ، فدعَوا غلاما نَصرانيًّا لهما ، يقال له

---

(١) فى الطبرى : « هو يمرط ثياب الكعبة » ، أى يمزقها . (٢) الحائط هنا : البستان .
(٣) الحبلة : الكرمة .

عدّاس ، فقالاله : خذ قِطْفا[١] من هذا العنب وضَعْه فى ذلك الطّبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرّجل ، وقل له فليأ كل منه ، ففعل وأقبل به حتى وضعه بين يديه ، فوضع يده فيه ، فقال : بسم الله ،وأ كل ، فقال عدّاس: والله إنّ هذه الكلمة لا يقولها أهلُ هذه البلدة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله :مِنْ أىّ البلاد أنت؟ وما دينُك ؟ قال : أنانصرانىّ من أهل نِينَوى ، قال : أمِنْ قرية الرجل الصالح يونس بن مَتّى ؟ قال : ومايدرِيكَ مَنْ يونس بن متّى؟ قال : ذاكَ أخى، كان نبياوأنا نبىّ. فأ كبّ عدّاس على يديه ورجليه ورأسه يقبّلها ، قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما اصاحبه : أمّا غلامك فقد أفسدَه عليك ، فلمّا جاءهما قالا : ويلك ياعدّاس ! مالك تقبّل رأسَ هــذا الرجل ويديْه وقدميه ! قال : ياسيّدى ، مافى الأرض خير من هذا ، فقد أخبرنى بأمر لايعلمه إلّا نبىّ[٢].

***

قال الواقدىّ : واستقسمت قريش بالأزلام عند هُبَل للخروج ، واستقسم أميّة بن خلَف وعُتْبة وشَيْبة بالآمر والناهى ، فخرج القِدْح[٣] الناهى ، فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل ، فقال : مااستقسمتُ ولا نتخلّف عن عِيرنا .

قال الواقدىّ : لما توجّه زمْعة بن الأسود خارجا ، فـكان بذى طُوًى أخرج قِداحه، واستقسم بهـا ، فخرج النّاهى عن الخروج ،فلقى غيظا ، ثم أعادها الثانية فخرج مثل ذلك فـكسرها ، وقال : ما رأيت كاليوم قِدْحا أ كذب ! ومرّ به سُهَيل بن عمرو وهو على تلك الحال ، فقال : مالى أراك غضبان ياأبا حُـكَيمة ؟ فأخبره زمْعة ، فقال : امضِ عنك أيها الرجل ، قد أخبرنى عُمير بن وهب أنه لقيَه مثل الذى أخبرتنى ، فمضوا على هــذا الحديث[٤].

---

(١) القطف : عنقود العنب . وهو فى الأصل : اسم لـكل ما يقطف .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ٣٤٥ ، ٣٤٦ (طبعة المعارف) .
(٣) القدح هنا : السهم الذى كانوا يستقسمون به . (٤) مغازى الواقدى ٢٧ .

قال الواقدىّ : وحدّثنى موسى بن ضَمْرة بن سعيد ، عن أبيه ، قال : قال أبو سفيان ابن حرب لضَمْضَم : إذا قدمت على قريش فقل لها : لا تستقسم بالأزلام .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن عبد الله ، عن الزّهرىّ ، عن أبى بكر بن سُليم ابن أبى خَيْثمة ، قال : سمعتُ حكيم بن حزام يقول : ما توجّهتُ وجها قطّ كان أكرَه إلىّ من مسيرى إلى بدر ، ولا بان لى فى وجه قطّ ما بان لى قبل أن أخرج ، ثم قال : قدم ضمضم ، فصاح بالنّفير فاستقسمت بالأزلام ، كلُّ ذلك يخرج الذى أكره ، ثم خرجت على ذلك حتى نزلنا مرّ الظّهْران ، فنحَر ابنُ الحنظليّة جزُورا منها بها حياة ، فما بقىَ خِباء من أخبيه العسكر إلّا أصابه من دمها ، فكان هذا بيّن[1] ، ثم هممتُ بالرجوع ، ثم أذكر ابن الحنظليّة وشؤمه ، فيردّنى حتى مضيت لوجهى . وكان حكيم يقول : لقد رأينا حين بلغنا الثنيّة البيضاء — وهى الثنيّة التى تهبطك على فَخّ وأنت مُقْبِل من المدينة — إذا عدّاس[2] جالس عليها . والناس يمرّون ، إذ مَرّ علينا ابنا ربيعة ، فوثب إليهما ، فأخذ بأرجلهما فى غَرْزِها ، وهو يقول : بأبى أنتما وأمّى ! والله إنه لرسولُ الله صلى الله عليه ، وما تُساقانِ إلّا إلى مصارعكما ! وإن عينيْه لتسيل دمعا على خدّيه ، فأردت أن أرجع أيضا ، ثم مضيت . ومرّ به العاص بنُ منبّه بن الحجّاج ، فوقف عليه حين ولّى عُتْبة وشَيْبة ، فقال : ما يُبْكيك ؟ قال : يبكينى سيّدى — أو سيّدا أهل[3] الوادى — يخرجان إلى مصارعهما ، ويقاتلان رسولَ الله صلى الله عليه وآله ! فقال العاص : وإنّ محمدا لرسول الله ! فانتفض عدّاس انتفاضة واقشعرّ جلدُه ، ثم بكى ، وقال : إى والله ، إنه لرسول الله إلى الناس كافّة . قال : فأسلم العاص بن منبّه ، ومضى وهو على الشكّ ، حتى قُتِل مع المشركين على شكّ وارتياب . ويقال : رجع عدّاس ولم يشهد بدرا ، ويقال : شهد بدرا وقتل .

قال الواقدىّ : والقول الأوّل أثبت عندنا .

---

(١) فى الأصول : « بينه » والتصويب من الواقدى . (٢) قال صاحب القاموس : عداس ، كشداد .
(٣) الواقدى ٢٨ : « يبكينى سيداى وسيدا أهل الوادى » .

قال الواقدىّ : وخرج سعد بن مُعاذ معتمرا قَبْل بدر ، فنزل على أميّة بن خلف ، فأتاه أبو جهل ، وقال : أتترك هذا وقد آوَى محمدا وآذننا بالحرب ! فقال سعد بن معاذ : قل ماشئت ، أما إنّ طريق عيركم علينا ، قال أميّة بن خلف : مَهْ ! لاتقلْ هذا لأبى الحكم فإنه سيّد أهل الوادى . قال سعد بن معاذ : وأنت تقول ذلك يا أميّة ؟ أما والله لَسمِعت محمدا يقول : لأقتلنّ أمية بن خلَف ، قال أمية : أنت سمعتَه ؟ قال سعد بن معاذ : فقلت : نعم ، قال : فوقع فى نفسه ، فلما جاء النّفير أَبَى أميّة أن يخرج معهم إلى بدر ، فأتاه عُقْبة ابن أبى مُعَيْط وأبو جهل ، ومع عقبة مَجْمرة فيها بَخور ، ومع أبى جهل مكحلة ومِرْوَد ، فأدخلها عقبة تحته ، فقال : تبخّر ، فإنما أنت امرأة ، وقال أبو جهل : اكتحل فإنما أنت امرأة . فقال أميّة : ابتاعوا لى أفضل بعيرٍ فى الوادى ، فابتاعوا له جملا بثلاثمائة دينار من نَعم بنى قُشير ، فغنِمه المسلمون يوم بَدْر ، فصار فى سهم خُبَيب[١] بن يساف .

قال الواقدىّ : وقالوا : ما كان أحد ممّن خرج إلى العِير أكرَه للخروج من الحارث ابن عامر ، وقال : ليت قريشا تعزم على القعود وأن مالى فى العير تلف ومال بنى عبد مناف أيضا . فيقال له : إنك سيّدٌ من ساداتها ، أفلا تردعها عن الخروج ؟ قال : إنّى أرى قريشاً قد أزمعت على الخروج ، ولا أرى أحدا به طِرْق[٢] تخلّف إلّا من علّة ، وأنا أكره خلافها ، وما أحبّ أن تعلم قريش ما أقول ، على أنّ ابن الحنظليّة رجل مشئوم على قومه ، ما أعلمه إلّا يحرز قومه أهل يثرب ، ولقد قسم الحارث[٣] مالاً من ماله بين ولده ، ووقع فى نفسه أنه لايرجع إلى مكة ، وجاءه ضمضم بن عمرو ، وكانت للحارث عنده أياد ، فقال : أبا عامر ، إنى رأيت رؤيا كرهتُها ، وإنى لكاليَقْظان على راحلتى وأراكم أنّ واديكم يسيل دماً من أسفله إلى أعلاه ، فقال الحارث : ما خرج أحد وجهاً من الوجوه أكرَه له من وجهى هذا ، قال : يقول ضمضم : والله إنى لأرى لك أن تجلس ، فقال : لو سمعت

(١) الواقدى ٢٩ ، وفى الأصول « حبيب » ، والتصويب من الواقدى والإصابة .
(٢) طرق ، أى قوة . (٣) ساقطة من الواقدى .

هـذا منك قبل أن أخرُج ماسرت خطوة ، فاطوِ هـذا الخبر أن تعلمه قريش ، فإنها تتّهم كلّ مَنْ عوّقها عن المسير ـ وكان ضمضم قد ذكر هـذا الحديث للحارث ببطن يأجج (١) ـ قالوا : وكرهت قريش أهل الرّأى منهم المسيرَ ، ومشى بعضُهم إلى بعض ، وكان ممّن أبطأ بهم عن ذلك الحارث بن عامر ، وأميّة بن خلف ، وعُتْبة وشيبة ابنا ربيعة ، وحكيم بن حزام وأبو البَخْترىّ ، وعلىّ بن أميّة بن خلف ، والعاص بن منبّه ، حتى بكّتهم أبو جهل بالجُبن ، وأعانه عُقْبة بن أبى مُعَيط والنّضْر بن الحـارث بن كلَدة ، وحضُّوهم على الخروج ، وقالوا : هـذا فعل النساء . فأجمعوا المَسير ، وقالت قريش : لا تدَعُوا أحدا من عدوّكم خَلْفـكم (٢) .

قال الواقدىّ : وممّا استدلّ به على كراهة الحارث بن عامر للخروج وعُتْبة وشَيْبة ، أنّه ماعرض رجل منهم حُملانا ، ولا حملوا أحـداً من الناس ، وإن كان الرجل ليأتيهم حليفاً أو عديدا ، ولا قوّة له ، فيطلب الحملان منهم ، فيقولون : إن كان لك مال وأحببتَ أن تخرج فافعل وإلّا فأقم ، حتى كانت قريش تعرف ذلك منهم .

قال الواقدىّ : فلمّا اجتمعت قريش إلى الخروج والمسير ، ذكروا الذى بينهم وبين بنى بَـكْر من العداوة ، وخافوهم على مَنْ يخلفونه ، وكان أشدّهم خوفا عُتْبة بن ربيعة ، وكان يقول : يامعشَر قريش ، إنـكم وإن ظفرتم بالّذى تريدون ، فإنّا لا نأمن على مَنْ نخلّف ، إنّما نخلَّف نساء ولا ذرّيّة ومن لا طَعم به فارتئوا آراءكم (٣) ، فتصوّر لهم إبليس فى صورة سُراقة بن جعشم المدلجىّ فقال : يامعشر قريش ، قد عرفتم شرفى ومكانى فى قومى ، أنا لـكم جار أن تأتِيَـكم كنانة بشىء تـكرهونه ، فطابت نفس عُتْبة ، وقال له أبوجهل :

---

(١) الأصول : « تأجج » وأثبت ما فى الواقدى .

(٢) الواقدى ٣٠

(٣) الواقدى : « رأيكم » .

فما تريد ؟ هـذا سيّد كنانة ، هو لنا جارٌ عَلَى [١] من تخلّف ، فقال عتبة : لا شيء ، أنا خارج [٢] .

قال الواقدىّ : وكان الّذى بين بنى كنانة وقريش أنّ ابناً لحفص بن الأحنف أحدَ بنى مُعَيط بن عامر بن لؤى ، خرج يبغى ضالّة ، وهو غلام فى رأسه ذؤابة ، وعليه حُلّة ، وكان غلاما وضيئا ، فمرّ بعامر بن يزيد بن عامر بن الملوّح بن يعمر ، أحد رؤساء بنى كنانة ـ وكان بضَجْنان ـ فقال : مَنْ أنت ياغلام ؟ قال : ابن لحفص بن الأحنف ، فقال : يابنى بكْر ، ألـكم فى قريش دم ؟ قالوا : نعم ، قال : ما كان رجل يقتل هذا برجله إلّا استوفى ، فاتبعه رجلٌ من بنى بـكر فقتله بدمٍ له فى قريش ؛ فتـكلّمت فيه قريش ، فقال عامر ابن يزيد : قد كانت لنا فيـكم دماء ، فإن شئتم فأدُّوا مالنا قبلـكم ونؤدّى إليكم ما كان فينا ، وإن شئتم فإنّما هو الدّم ؛ رجل برجل ؛ وإن شئتم فتجافَوْا عنّا فيما قِبلنا ، ونتجافى عنـكم فيما قبلـكم . فهان ذلك الغلام على قريش ، وقالوا : صدق ! رجل برجل ؛ فلهَوْا عنه أن يطالبوا بدمه ، فبينا أخوه مكرز بن حفص بمرّ الظّهران ، إذ نظر عامر بن يزيد وهو سيّد بنى بكْر على جمل له ؛ فلما رآه قال : ما أطلب أثراً بعد عين ! وأناخ بعيره ، وهو متوشّح سيفَه ، فعلاه به حتى قتله ، ثم أتى مكّة من الليل ، فعلّق سيف عامر بن يزيد بأستار الـكعبة ، فلما أصبحت قريش رأوْا سيف عامر بن يزيد ، فعرفوا أنّ مكْرز بن حفص قتله ، وقد كانت تسمع من مكْرز فى ذلك قولاً ، وجزعت بنو بكْر من قتل سيّدها ، فـكانت معدّة لقتل رجلين من قريش سيّدين أو ثلاثة من ساداتها ، فجاء النّفير وهم على هذا الأمر ، فخافوهم على مَنْ تخلّف بمكّة من ذراريهم ، فلما قال سراقة ماقال ، وهو ينطق بلسان إبليس شجُع القوم [٢] .

---

(١) الواقدى : « علام نتخلف ! » . (٢) الواقدى ٣١ ، ٣٢ .

قال الواقدىّ : وخرجت قريش سِراعا ، وخرجوا بالقيان والدّفوف ؛ سارة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب وعزّة مولاة أسود بن المطلب ، وفلانة مولاة أميّة بن خلَف ، يغنّين فى كلّ منهل ، وينحرون الُجزر ، وخرجوا بالجيش يتقاذفون بالحراب ، وخرجوا بتسعمائة وخمسين مقاتلا ، وقادوا مائة فَرَس ، بطراً ورئاء الناس ؛ كما ذكر الله تعالى فى كتابه(١) ؛ وأبو جهل يقول: أيظنّ محمد أن يصيب منّا ما أصاب بنخْلة وأصحابه؛ سيعلم أنمنع(٢) عيرنا أم لا !

قلت : سرّية نخلة سرّية قبل بدْر ، وكان أميرها عبدَ الله بن جَحْش قتل فيها عمرو ابن الحضرمىّ ، حليف بنى عَبْد شمس ، قتله واقد بن عبد الله التميمىّ ؛ رماه بسهم فقتله ، وأسر الحكم بن كَيْسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، واستاق المسلمون العِير ؛ وكانت خمسمائة بعير خمّسها رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وقسّم أربعمائة فيمنْ شهدها من المسلمين؛ وهم مائتا رجل ، فأصاب كلّ رجل بعيران.

قال الواقدىّ : وكانت الخيل لأهل القوّة منهم ، وكان فى بنى مخزوم منها ثلاثون فرسا ، وكانت الإبل سبعمائة بعير ، وكان أهل الخيل كلّهم دارع ، وكانوا مائة ؛ وكان فى الرّجالة دروع سوى ذلك(٣) .

قال الواقدىّ : وأقبل أبو سفيان بالعير ، وخاف هو وأصحابه خوفاً شديداً حين دنوْا من المدينة ، واستبطئوا ضمضما والنّفير ، فلمّا كانت الليلة التى يُصْبحون فيها على ماء بدر، جعلت العير تقبِلُ بوجوهها إلى ماء بدر ؛ وكانوا باتوا من وراء بدر آخرَ ليلتهم، وهم على

---

(١) ذكر الواقدى بعدها الآية : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ ... ﴾ . إلى آخر الآية .

(٢) الواقدى : « أمنع » .

(٣) الواقدى ٣٢ ، ٣٣ .

أن يُصبحوا بدرا ؛ إن لم يعترض لهم ؛ فما أقرّتهم العير حتى ضربوها بالعُقُل [١] على أن بعضها ليُثْنَى بعِقَالين ، وهى ترجّع [٢] الحنين ، تواردا إلى ماء بدر ؛ وما إنْ بها إلى الماء من حاجة ، لقد شربت بالأمس ؛ وجعل أهل العير يقولون : إن هذا شىء ماصَنَعَتْه الإبل منذ خرجنا ، قالوا : وغشينا تلك الليلة ظُلمة شديدة حتى مانبصر شيئاً [٣] .

قال الواقدىّ : وكان بسبس بن عمرو وعدىّ بن أبى الزّغباء وَرَدَا على مجدىّ بدراً يَتَجسّسان [٤] الخبر ، فلما نزلا ماء بدر ، أناخا راحلتيهما إلى قريب من الماء ، ثم أخذا أسقيتهما ، يسقيان من الماء ، فسمعا جاريتين من جوارى جُهينة ، يقال لإحداهما برزة وهى تلزم صاحبتها فى درهم ، كان لها عليها وصاحبتها تقول : إنّما العير غداً أو بعد غد قد نزلت ؛ ومجدىّ بن عمر يسمعها ، فقال : صدقت ، فلما سمع ذلك بسبس وعدىّ انطلقا راجعين إلى النبىّ صلى الله عليه وآله حتى أتياه بعرق الظبية ، فأخبراه الخبر [٣] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المُزَنىّ ، عن أبيه ، عن جدّه — وكان أحدَ البكّائين — قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : لقد سلك فَجّ الرّوحاء موسى النبى عليه السلام فى سبعين ألفاً من بنى إسرائيل وصلُّوا فى المسجد الذى بعِرق الظُّبْية .

قال الواقدىّ : وهى من الرّوْحاء على ميلين ممّا يلى المدينة ؛ إذا خرجت على يسارك .

قال الواقدىّ : وأصبح أبو سفيان ببدْر ، قد تقدم العِير وهو خائف من الرَّصَد فقال : يامجدىّ ، هل أحسست أحداً ! تعلّم والله مابمكة قرشىّ ولا قرشية له نُشّ

---

(١) العقل : جمع عقال ؛ وهو الرباط الذى تعقل به الدابة . (٢) الواقدى : « ترجع » .

(٣) الواقدى ٣٣ ، ٣٤ (٤) الواقدى : « يتحسان »

فصاعدا – والنش نصف أوقية وزن عشرين درهما – إلّا وقد بعث به معنا! ولئن كتمتنا شأن عدوّنا لا يصالحك رجلٌ من قريش ما بلّ بحرٌ صوفة[١] . فقال مجدىّ : والله ما رأيت أحدا أنكره ، ولا بينك وبين يثرب من عدوّ ، ولو كان بينك وبينها عدوّ لم يخفَ علينا، وما كنت لأخفيَه عنك ؛ إلّا أنى قد رأيت راكبيْن أتيا إلى هذا المكان – وأشار إلى مناخ عدىّ وبسبس – فأناخا به ، ثم استقيا بأسقيتهما ؛ ثم انصرفا . فجاء أبو سفيان مناخهما ، فأخذ أبعاراً من أبعار بعيريْهما ففتّها ؛ فإذا فيها نوًى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ! هذه والله عيون محمد وأصحابه ؛ ما أرى القوم إلا قريباً ، فضرب وجه عيره، فساحل[٢] بها، وترك بدراً يسارا وانطلق سريعاً ، وأقبلت قريش من مكّة ينزلون كلّ منهل يطعمون الطعام مَنْ أتاهم ، وينحرون الجزور ،فبيناهم كذلك فى مسيرهم إذ تخلّف عتبة وشَيْبة ؛ وهما يتردّدان ، قال أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ! لقد خشيتُ[٣] منها ؛ قال الآخر : فاذكرها ؛ وذكرها ، فأدركهما أبو جهل ، فقال : ما تتحادثون به ؟ قالا : نذكر رؤيا عاتكة ، قال يا عجباً من بنى عبد المطّلب ! لمْ يرضَوْا أن تتنبأ علينا رجالهم حتى تنبّأت علينا النساء ! أما والله لئن رجعنا إلى مكّة لنفعلنّ بهم ولنفعلنّ ! قال عتبة : إنّ لهم أرحاماً وقرابة قريبة . ثم قال أحدهما لصاحبه : هل لك أن ترجع ؟ قال أبو جهل : أترجعان بعد ما سرنا فتخذلان قومكما ، وتقطعان بهم بعد أن رأيتم ثأركم بأعينكم ! أتظنّان أنّ محمدا وأصحابه يلاقونكما ! كلاّ والله ، إنّ معى مِنْ قومى مائة وثمانين كلّهم من أهل بيتى يحلّون إذا أحللت ، ويرحلون إذا رحلت ،فارجعا إن شئتما . قالا : والله لقد هلكت وأهلكت قومك .

ثم قال عتبة لأخيه شيبة : إن هذا رجل مشئوم – يعنى أبا جهل – وإنه لا يمسّه من قرابة محمد ما يمسّنا ، مع أنّ محمدا معه الولد فارجع بنا ودع قوله[٤] .

---

(١) فى اللسان : « صوف البحر شىء على شكل هذا الصوف الحيوانى واحدته صوفة ، ومن الأمثال قولهم : « لا آتيك ما بل بحر صوفة » .
(٢) سار بها نحو الساحل .
(٣) ب : « سمعت » وأثبت ما فى ا والواقدى .
(٤) الواقدى ٣٣ ، ٣٥ .

قلت : مراده بقوله « مع أن محمداً معه الولد » ، أبو حذيفة بن عتُبة بن ربيعة ، كان أسلم وشهد بدرا مع رسول الله صلى ء لمبه وآله .

قال الواقدىّ : فقال شيبة : والله تـكون علينا سُبّة يا أبا الوليد أن نرجع الآن بعد ماسرنا فمضينا . ثم انتهى إلى الُجحفة عشاء، فنام جُهيم بن الصّلْت بن مخرمة بن عبد المطلب ابن عبد مناف ، فقال : إنّى لأُرى بين النّائم واليقظان ؛ أنظرُ إلى رجل أقبل على فرسٍ معه بعير له ، حتى وقف علىّ ، فقال : قُتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وزمعة بن الأسود ، وأميّة بن خلف ، وأبو البخترىّ ، وأبو الحكم ، ونوفل بن خويلد ، فى رجال سمّاهم من أشراف قريش ؛ وأسر سهيل بن عمرو ، وفرّ الحارث بن هشام عن أخيه، قال: وكأنّ قائلا يقول : والله إنى لأظنّهم الذين يخرجون إلى مصارعهم . ثم قال : أراه ضرب فى لَبّة بعيره فأرسله فى العسكر ، فقال أبو جهل : وهذا نبىّ آخر من بنى عبد مناف ! ستعلم غدا مَن المقتول ؛ نحن أو محمد وأصحابه ! وقالت قريش لُجهيم : إنّما يلعب بك الشيطان فى منامِك ، فسترى غداً خلافَ مارأيت ! يُقتَل أشراف محمد ويؤسرون . قال : فخلا عتبة بأخيه شيبة ، فقال له : هل لك فى الرّجوع ؟ فهذه الرؤيا مثل رؤيا عاتـكة ، ومثل قول عدّاس ، والله ما كذبَنَا عدّاس ؛ ولعمرى لئن كان محمد كاذباً إنّ فى العرب ان يكفيناه ، ولئن كان صادقاً إنّا لأسعد العرب به لِلُحمته . فقال شيبة : هو على ماتقول ؛ أفنرجع من بين أهل العسكر ؟ فجاء أبو جهل وهما على ذلك فقال : ماتريدان ؟ قالا : الرجوع ؛ ألا ترى إلى رؤيا عاتكة ، وإلى رؤيا جُهيم بن الصلت مع قول عدّاس لنا ! فقال : لا تَخذُلان والله قومكما وتقطعان بهم . قالا : هلـكت والله وأهلـكت قومَك ! فمضيا على ذلك .

قال الواقدىّ : فلما أفلت أبو سفيان بالعير ، ورأى أنْ قد أحرزها وأمِن عليها، أرسل إلى قريش قيسَ بن امرىء القيس — وكان مع أصحاب العِير — خرج معهم من مكّة، فأرسله أبو سفيان يأمرهم بالرجوع ، ويقول : قد نجتْ عيرُكم وأموالُكم ، فلا تحرزوا أنفسكم

أهل يثرب ، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك ، إنما خرجتم لتمنعوا عِيرَكم وأموالكم ، وقد نجّاها الله . فإن أبوا عليك فلا يأبَوْن خَصْلة واحدة ؛ يردّون القيان[١] . فعالج قيس بن امرئ القيس قريشاً ، فأبت الرجوع . قالوا : أمّا القِيان فسنردّهن ؛ فردّوهن من الجحفة[٢] .

قلت : لاأعلم مراد أبى سفيان بردّ القيان ، وهو الذى أخرجهنّ مع الجيش يوم أُحُد يحرّضْن قريشا على إدراك الثأر ، ويغنّين ، ويضربْنَ الدّفوف ، فكيف نهى عن ذلك فى بدر وفعله فى أحُد ! وأقول: مَنْ تأمّل الحال علم أنّ قريشالم يمكن أن تنتصرَ يوم بدر، لأنّ الذى خالطها من التخاذُل والتّوا كل وكَراهيَة الحرب وحبّ الرجوع وخوف اللقاء وخُفوق الهِمَم وفتور العزائم ، ورجوع بنى زُهرةوغيرهم من الطريق ، واختلاف آرائهم فى القتال ، يكفى بعضه فى هلا كهم وعدم فلاحهم ، لوكانوا قد لقُوا قوما جُبناء، فكيف وإنما لقُوا الأوْس والخزْرج ، وهم أشجع العرب ، وفيهم علىّ بن أبى طالب عليه السلام وحَمْزة بن عبد المطلب، وهما أشجع البَشَر ، وجماعةمن المهاجرين أنجاد أبطال ، ورئيسهم محمد بن عبد الله ، رسول الله، الداعى إلى الحق والعدل والتوحيد ، المؤيّد بالقوّة الإلهيّة، دع ماأضيف إلى ذلك من ملائكة السماء ، كما نطق به الكتاب !

قال الواقدىّ : ولحِق الرسول أبا سفيان بالهَدّة ــ والهَدّة على سبعة أميال من عُقبة عُسفان ، على تسعة وثلاثين ميلا من مكّة ــ فأخبره بمضى قريش ، فقال : واقوماه ! هذا عمل عمرو بن هشام ، يكره أن يرجع لأنه قد ترأّس عَلَى النّاس وبغى ، والبغى منقصة وشؤم، والله لئن أصاب أصحاب محمد النّفيرذللنا إلى أن يدخل مكّة علينا .

قال الواقدىّ : وقال أبو جهل : والله لانرجع حتى نرِدَ بدرا ــ وكانت بدر موسما

---

(١) بعدها فى الواقدى : « فإن الحرب إذا أكلت انكلت » .
(٢) الواقدى ٣٦ .

من مواسم العرب فى الجاهليّة ، يجتمعون بها وفيها سوق ـ تسمع بنا العرب وبمسيرنا ، فنقيم على بَدْر ثلاثا ، ننحر الجزُر ونطعم الطّعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان، فلن تزال العرب تهابنا أبدا .

قال الواقدىّ : وكان الفرات بن حيان العِجلىّ أرسلته قريش حين فَصَلت من مكّة إلى أبى سفيان بن حرب يخبره بمسيرها وفصولها ، وما قد حشدت . فخالف أبا سفيان فى الطريق ، وذلك أنّ أبا سفيان لصِق بالبحر، ولزم الفُرات بن حيّان المحجّة ، فوافَى المشركين بالجُحْفة ، فسمع كلام أبى جهل ،وهو يقول : لانرجع ، فقال : مابأنفسِهم عن نفسك رغبة ! وإنّ الذى يرجع بعد أن رأى ثأره من كَثَب لضعيف ، فمضى مع قريش ، فترك أبا سفيان ، وجرح يوم بَدْر جراحات كثيرة ، وهرب على قدميْه ، وهو يقول : مارأيت كاليوم أمراً أنكد(١) ! إنّ ابن الحنظليّة لغير مُبارك الأمر .

قال الوقدىّ : وقال الأخنس بن شَرِيق(٢) ـ واسمه أُبَىّ ، وكان حليفاً لبنى زُهْرة : يابنى زهرة ، قد نجّى الله عِيرَكم ،وخلّص أموالكم ، ونجّى صاحبَكم مَخْرمة بن نوفل، وإنما خرجتم لتمنعوه وماله ، وإنما محمد رجل منكم ، ابن أختكم ؛ فإن يك نبيًّا فأنتم أسعد به ، وإن يك كاذبا يلى قتله غيركم خير من أن تَلُوا قتل ابن أختكم ، فارجعوا واجعلوا خَبْنَها لى ، فلا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير مايهمّكم ، ودعوا مايقوله هذا الرجل ـ يعنى أبا جهل ـ فإنه مهلِك قومَه ، سريع فى فسادهم ، فأطاعته بنو زُهرة ، وكان فيهم مُطاعا ، وكانوا يتيمّنون به ، فقالوا : فكيف نصنع بالرجوع حتى نرجع ؟ فقال الأخنس : نسير مع القوم، فإذا أمسيت سقطت عن بعيرى ، فيقولون : نحل(٣) الأخنس، فإذا أصبحوا فقالوا : سيروا ، فقولوا : لانفارق صاحبَنا ، حتى نعلم أحىّ هو أم ميت ،

---

(١) فى الأصول آكد ، وأثبت ما فى الواقدى ٣٦ .

(٢) الواقدىّ : « وكان أعرابياً » .   (٣) الواقدى : « نهش » .

فندفنه ، فإذا مضوْا رجعنا إلى مكة. ففعات بنو زهرة ذلك ، فلمّا أصبحوا بالأبواء راجعين تبيّن للناس أنّ بنى زُهرة رجعوا فلم يشهدها زُهرِىّ (١) البتّة ، وكانوا مائة ، وقيل: أقلّ من مائة وهو أثبت . وقال قوم : كانوا ثلثمائة ولم يثبت ذلك .

قال الواقدىّ: وقال عدىّ بن أبى الزغباء منحدَرَه (٢) من بدر إلى المدينة ؛ [وانتشرت الركاب عليه ، فجعل عدىّ يقول] (٣) :

أقِمْ لها صدورَها يابِسْبَسُ إنّ مَطَايا القومِ لا تُحْبَسُ
وَحَمْلُها على الطَّرِيقِ أَكْيَسُ قد نصرَ الله وفرّ الأخنسُ (٤)

قال الواقدىّ : وذكر أبو بكر بن عمر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، إنّ بنى عدىّ خرجوا من النَّفِير حتى كانوا بثَنِية لَفْت (٥) ، فلمّا كان فى السَّحَر عدلوا فى الساحل منصرفين إلى مكّة ، فصادفهم أبو سفيان ، فقال : كيف رجعتم يابنى عدىّ ! ولا فى العير ولا فى النفير ! قالوا : أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، فرجع مَنْ رجع ومضى من مضى ، فلم يشهدها أحد من بنى عدىّ . ويقال : إنه لاقاهم بمرّ الظَّهْران، فقال تلك المقالة لهم .

قال الواقدىّ : وأمّا رسولُ الله صلى الله عليه وآله (٥) ، فكان صبيحة أربع عشرة من شهر رمضان بعرق الظُّبْية ، فجاء أعرابىٌّ قد أقبل من تِهامة ، فقال له أصحاب النبى صلى الله عليه وآله :هل لك علم بأبى سفيان بن حرب ؟ قال : مالى بأبى سفيان عِلْم،قالوا: تعال ، فسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : أوَفيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : فأيّكم رسول الله ؟ قالوا : هذا ، فقال : أنت رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : فما فى

---

(١) الواقدى : « أحد من بنى زهرة » .
(٢) الواقدى : فى منحدره » .
(٣) من الواقدى .
(٤) الواقدى ٣٨ .
(٥) الواقدى : « ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بطن ناقتي هذه إن كنت صادقاً ؟ فقال سلمة بن سلامة بن وقش : نكحتها وهي حُبْلى منك ! فكره رسول الله صلى الله عليه وآله مقالته ،وأعرض عنه .

قال الواقديّ : وسار رسولُ الله صلى الله عليه وآله حتّى أتى الرَّوْحاء ليلةَ الأربعاء، للنّصف من شهر رمضان ؛ فقال لأصحابه : هذا سجاسج ـ يعني وادي الروحاء ـ هذا أفضل أودية العرب (١) .

قال الواقديّ : وصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بالرَّوحاء ، فلمّا رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وتْره لعنَ الكفَرة ، ودعا عليهم ، فقال : اللهمّ لا تفلتنّ أبا جهل ابن هشام فِرْعون هذه الأمة ، اللهمّ لا تفلتنّ زَمْعة بن الأسود ، اللهمّ أسخِنْ عين أبي زَمْعة ! اللهمّ أعم بصر أبي دبيلة (٢) . اللهمّ لا تفلتنّ سهيل بن عمرو ! ثم دعا لقوم من قريش ، فقال : اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين ؛ ولم يدع للوليد بن المغيرة يومئذ ؛ وأسر ببدر ، ولكنّه لما رجع إلى مكّة بعد بدر أسلم ، وأراد أن يخرج إلى المدينة فحبس ، فدعا له النبي صلى الله عليه وآله بعد ذلك .

قال الواقديّ:وكان خُبيب بن يِساف (٣) رجلا شجاعا ، وكان يأبَى الإسلام،فلماخرج النبيّ صلى الله عليه وآله إلى بدْر خرج هو وقيس بن محرّث ـ ويقال ابن الحارث ـ وهما على دين قومهما؛فأدركا رسول الله صلى الله عليه وآله بالعقيق؛وخُبَيب مقنّعٌ في الحديد، فعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله من تحتِ المِغْفَر ، فالتفت إلى سعد بن معاذ وهو يسير إلى جَنْبه ، فقال : أليس بخُبيب بن يِساف ؟ قال : بلى ، فأقبل خُبيب حتى أخذ

---

(١) الواقدي ٣٩ .
(٢) الواقدي : « واعم بصر أبي زمعة » .
(٣) يساف ، بالكسر ، وقد يفتح ، وانظر القاموس .

ببِطان[١] ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال له ولقيس بن محرِّث : ما أخرجَكما ؟ قال : كنتَ ابنَ اختنا وجارنا ، وخرجنا مع قومنا للغنيمة ، فقال صلى الله عليه وآله : لا يخرجنّ معنا رجلٌ ليس على ديننا ، فقال خُبَيب : لقد علم قومى أنّى عظيم الغَناء فى الحرب ، شديد النِّكاية ، فأقاتل معك للغنيمة ولا أسلِم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا ولكن أسلِمْ ثم قاتل ؛ فلمّا كان بالروحاء جاء فقال : يا رسولَ الله ، أسلمت لربّ العالمين ، وشهدت أنّك رسول الله ، فسرّ بذلك ، وقال : امضِه ، فكان عظيم الغَناء فى بدْر وفى غير بدر . وأمّا قيس بن الحارث فأبى أن يُسلم ، فرجع إلى المدينة ، فلما قدم النبيّ صلى الله عليه وآله من بَدْر أسلم وشهد أحُدا فقتل .

قال الواقديّ : ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله صامَ يوما أو يومين ، ثم نادى مناديه : يامعشرَ العصاة ، إنى مفطر ، فأفطِرُوا ؛ وذلك أنه قد كان قال لهم قبل ذلك : أفطروا فلم يفعلوا[٢] .

قلت : هذا هو سرّ النبوّة وخاصّيتها ؛ إذا تأمّل المتأملون ذلك ، وهو أن يبلغ بهم حبُّه وطاعتهُ وقبولُ قوله على أن يكلّفهم ما يشقّ عليهم فيمتثلوه امتثالا صادرا عن حبّ شديد وحرص عظيم على الطاعة ، حتى إنه لينسخه عنهم ويسقط وجوبَه عليهم ، فيكرهون ذلك ولا يُسقِطونه عن أنفسهم ، إلّا بعد الإنكار التّام ؛ وهذا أحسن من المعجزات الخارقة للعادات ، بل هـذا بعينه معجزة خارقة للعادة أقوى وآكد من شقّ البحر وقلب العصا حيّة !

قال الواقديّ : ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله حتى إذا كان دُوَيْن بدر ، أتاه الخبر بمسير قريش ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله بمسيرهم ، واستشار النّاس

---

(١) البطان : حزام القتب . (٢) الواقدى ٤٠ ، ٤١ .

فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قال : يا رسولَ الله ؛ إنها قريش وعزّها والله ماذلّت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لاتسلم عزّها أبدا ، ولتقاتلنّك ، فاتّهب لذلك أهبته ، وأعدّ عدّته ، ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال : يا رسول الله لأمر الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيها : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إنا هَا هُنَا قَاعِدُون ﴾(١) ، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا معكم مقاتلون ، والذى بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى برك الغِماد لسرنا .

قال الواقدى : بِرْك الغِماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلى البحر ، وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله خيرا ، ودعا له بخير ، ثم قال صلى الله عليه وآله : أشيروا علىّ أيها الناس – وإنما يريد الأنصار ، وكان يظن أنّ الأنصار لا تنصره إلا فى الدار ، وذلك أنهم شرطوا أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أشيرُوا علىّ ، فقام سعد بن مُعاذ ، فقال : أنا أجيب عن الأنصار ، كأنك يا رسولَ الله تريدنا ! قال : أجَل ، قال : إنك عسى أن تكون خرجت عن أمرٍ قد أوحِيَ إليك ، وإنا قد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به حق ، وأعطيناك مواثيقَنا وعهودنا على السمع والطاعة ، فامض يا نبيّ الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضْتَ بنا هذا البحر لخضتَه لخضناه معك ما بقيَ منّا رجل ، وصِلْ مَنْ شئت ، وخذ من أموالنا ما أردت ، فما أخذته من أموالنا أحبُّ إلينا مما تركتَ ، والذى نفسى بيده ما سلكت هذه الطريق قطّ ، ومالى بها من علم ، وإنا لا نكره أن نلقَى عدوّنا غداً ؛ إنا لصُبُرٌ عند الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا بعضَ ما تقرّ به عينك(٢) .

---

(١) سورة المائدة ٢٤ .

(٢) الواقدى ٤٤ وفيه : « ما تقربه عينيك » .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قَتادة ، عن محمود بن لَبيد قال : قال سعد بن مُعاذ يومئذ : يارسولَ الله ، إنا قد خَلّفنا من قومنا قوماً مانحنُ بأشدّ حبًّا لك منهم ، ولا أطوعَ لهم رغبة ونيّة فى الجهاد ، ولو ظنّوا أنّك يارسولَ الله ملاقٍ عدوًّا ماتخلّفوا عنك ، ولكن إنّما ظنوا أنها العِير . نبنى لك عريشا ، فتكونُ فيه ونُعِدّ عندك رواحلك ، ثم نلقى عدوّنا ، فإنْ أعزّنا الله وأظهرنا على عدوّنا ، كان ذلك ماأحببنا ، وإن تكن الأخرى ، جلستَ على رواحِلك ، فلحقت مَنْ وراءنا . فقال له النبىّ صلى الله عليه وآله خيرا ، ثم قال : أو يقضى الله خيرا ياسعد[1] !

قال الواقدىّ : فلمّا فرغ سعد من المشُورة ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : سيرُوا على بَركةِ الله ، فإنّ الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، واللهِ لكأنّى أنظر إلى مصارع القوم .

قال الواقدىّ : وقالوا : لقد أرانا رسول الله صلى الله عليه وآله مصارعَهم يومئذ، هذا مصرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان ، فما عدا كلّ رجل منهم مصرعه ، قال : فعلم القوم أنّهم يلاقون القتال ، وأنّ العير تفلّتتْ ، ورجا القوم النّصر لقول النبى صلى الله عليه وآله[1] .

قال الواقدىّ : فمن يومئذ عَقَد رسول الله صلّى الله عليه وآله الألوية ، وكانت ثلاثة، وأظهر السّلاح ، وكان خرج من المدينة على غيرِ لواء معقودٍ ، وسار فلقىَ سُفْيان الضَّمرىّ ، ومع رسول الله صلى الله عليه وآله قتادة بن النّعمان ومعاذ بن جبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من الرّجل ؟ فقال الضّمرىّ : بل ومَنْ أنتم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : تخبرُنا ونخبرُك ، فقال الضّمرى : وذاك بذاك ؟ قال : نعم ، قال الضَّمْرىّ : فاسألوا عمّا شئتم ، فقال له صلى الله عليه وآله : أخبِرْنا عن قُريش ، قال الضّمرى : بلغنى أنّهم خرجوا يوم كذا من مكة ، فإن كان الخبر صادقا ، فإنهم بجنْبِ هذا الوادى ، ثم قال

(١) مغازى الواقدى ٤٥ .

الضَّمْرِىّ : فمن أنتم ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وآله : نحن مِنْ ماء، وأشار بيده نحو العِراق، فجعل الضَّمْرِىّ يقول : من ماء ! من أى ماء ؟ من العراق أم من غيره ؟ ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أصحابه .

قال الواقدىّ : فبات الفريقانِ كلّ منهم لا يعلم بمنزل صاحبه ، إنما بينهم قَوْزٌ[١] من رمل[٢] .

قال الواقدىّ : ومرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بجبلين ، فسأل عنهما فقالوا : هذا مُسْلِح[٣] ومُخْرِئ ، فقال : مَنْ ساكنهما ؟ فقيل: بنو النّار وبنو حرّاق ، فانصرف عنهما وجعلهما يساراً[٤] ، ولقيه بسبس بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء فأخبراه خبرَ قريش، ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وادى بدْر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، فبعث عليا عليه السلام والزّبير وسعد بن أبى وقاص وبَسْبس بن عمرو يتحسّسون[٥] على الماء، وأشار لهم إلى ظُرَيب[٦] ، وقال: أرجو أن تجدُوا الخير عند القليب الذى[٧] يلى هذا الظّريب[٨] ، فاندفعوا تلقاءه ، فوجدوا على تلك القليب رَوايا قريش فيها سُقّاؤهم ، فأسروهم ، وأفلت بعضُهم ، فكان مِمّن عرف أنه أفلت عجير ، فكان أوّلَ مَنْ جاء قريشا بخبر النبى صلى الله عليه وآله وأصحابه ، فنادى : ياآل غالب ! هذا ابنُ أبى كبْشة وأصحابه ، وقد أخذوا سُقّاكم ، فماج العسكر وكرِهُوا ماجاء به[٩] .

---

(١) القوز من الرمل : العالى كأنه جبل ، وتشبه به أرداف النساء .

(٢) الواقدى ٤٦، وبعدها : « وكان قد صلى بالدبة ، ثم صلى بسير، ثم صلى بذات أجدال، صلى بخيف عين العلا ، ثم صلى بالخبيرين ، ثم نظر إلى جبلين . . . » .

(٣) الأصول : « مصلح » ، والتصويب من الواقدى .

(٤) الواقدى : « فانصرف من عند الخبيرين ، فمضى حتى قطع الخبرف ، وجعلهما يسارا حتى سلكه فى المعترضة » .

(٥) كذا فى الواقدى : وفى الأصول « يتجسسون » بالجيم ، تصحيف .

(٦) كذا فى الواقدى .

(٧) الأصول : « التى » ، والتصويب من الواقدى .

(٨) قال الواقدى : « والقليب : بئر بأصل الظريب ، والظريب : جبل صغير .

(٩) الواقدى ٤٦ ، ٤٧ .

قال الواقدىّ : فكان حكيم بن حزام يحدّث ، قال : كنّا يومئذ فى خِباء لنا على جَزُور نشوِى من لحمها ، فما هو إلا أنْ سمِعْنا الخبر ، فامتنع الطعام منّا ، ولقى بعضُنا بعضا، ولقينى عُتْبة بن ربيعة ، فقال : ياأبا خالد ، ما أعلم أحداً يسير أعجبَ من مسيرنا ، إنّ عيرنا قد نجتْ ، وإنا جئنا إلى قومٍ فى بلادهم بغياً عليهم ، فقلت : أراه لأمرٍ حُمّ ، ولا رأى لمن لا يطاع ! هذا شؤم ابن الحنظليّة ، فقال عتبة : أبا خالد ، أتخاف أنْ تبيّتنا القوم ؟ قلت: لأنت آمن من ذلك ، قال : فما الرأى ياأبا خالد ؟ قلت : نتحارس حتى نصبح وترون رأيكم .

قال عُتْبة : هذا الرّأى ، قال : فتحارسْنا حتى أصبحنا ، فقال أبو جهل : هذا عن أمرِ عُتْبة كره قتال محمد وأصحابه ، إنّ هذا لهو العجَب ، أتظنون أنّ محمدا وأصحابه يعترضون لجمعكم ! والله لأنتحينّ ناحية بقومى فلا يحرسنا أحد ، فتنحّى ناحية ، وإنّ السماء لتمطِرُ عليه ، قال : يقول عتبة : إنّ هذا لهو النّكَد (١) .

قال الواقدىّ : أُخِذَ من السُّقّاء من على القَلِيب يَسار غلام سعيد بن العاص ، وأسلم غلام منبّه بن الحجّاج ، وأبو رافع غلام أميّة بن خلف ، فأُتى بهم النبىّ صلى الله عليه وآله وهو قائم يصلّى ، فسألهم المسلمون ، فقالوا : نحن سُقّاء قريش ، بعثونا نسقِيهم من الماء ، فكره القوم خبرَهم ، ورجوا أن يكونوا لأبى سفيان وأصحاب العير ، فضربوهم ، فلمّا أذلقوهم (٢) بالضّرْب ، قالوا : نحن لأبى سفيان ، ونحن فى العِير ، وهذا العير بهذا القَوز ، فكانوا إذا قالوا ذلك يُمسِكون عَنْ ضربهم ، فسلّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله من صلاته ، ثم قال : إن صدقوكم ضربتموهم ، وإن كذبوكم تركتموهم ! فقال أصحابُه عليه السلام : إنهم يارسولَ الله يقولون : إنّ قريشا قد جاءت ، فقال : لقد صدقوكم ! خرجت قريش تمنعُ عيرها وخافوكم عليها ، ثم أقبلَ صلى الله عليه وآله على السُّقّاء ، فقال : أين

---

(١) الواقدى ٤٧ .

(٢) أذلقوهم : أوجعوهم ضرباً .

قريش ؟ فقالوا : خلف هذا الكثيب الذى ترى ، قال : كم هم ؟ قالوا : كثير ، قال: كم عددهم ؟ قالوا : لاندرى ، قال : كم ينحرُون ؟ قالوا : يوما عشرة ويوما تسعة ،فقال:القوم مابين الألف والتسعمائة ، ثم قال للسُّقَّاء : كم خرج من أهلِ مكة ؟ قالوا: لم يبق أحدٌ بهطم إلا خرج ، فأقبل رسول صلى الله عليه وآله على النّاس ، فقال : هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبِدها ، ثم سألهم رسول الله صلى الله عليه وآله : هل رجع منهم أحد ؟قالوا: نعم رجع ابن أبى شريق ببنى زهرة ، فقال صلى الله عليه وآله: راشدهم [1] ،وما كان برشيد، وإن كان ماعلمت لمعادياً لله ولكتابه . ثم قال: فأحد غيرهم؟قالوا: نعمْ بنو عدِىّ بن كعب، فتركهم رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال لأصحابه : أشيروا علىّ فى المنزل ، فقال الُحباب بن المنذر : يارسول الله ، أرأيت منزلك هذا ، أهو منزل أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه ، أم هو الرّأى والحرْب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرّأىُ والحرْب والمكيدة ،قال: فإنّ هذا ليس بمنزل ! انطلق بنا إلى أدْنَى مياه القوم ، فإنّى عالم بها وبقُلُبها ، فإن بها قَليبا قد عرفت عذوبة مائها ، وماؤها كثير لا ينزح ؛ نبنى عليها حوْضاً ، ونقذف فيها بالآنية فنشرب ، ونقاتل ، ونعوّر [2] ماسواها من القُلُب .

قال الواقدىّ : فكان ابن عباس يقول: نزل جبريل عَلَى النبى صلى الله عليه وآله فقال: الرأى ماأشار به الُحباب فقال : ياحباب ، أشرت بالرّأى ، ونهض ، وفعل كلّ ذلك [3] .

قال الواقدىّ : وبعث الله السماء ، وكان الوادى دهساً ـ أى كثير الرمل ـ فأصاب المسلمين مالبّد الأرض ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشاً مالم يقدروامعه أن يرتحلوا منه، وإنما بين الطائفتين قَوْز من رمل .

قال الواقدىّ : وأصاب المسلمين تلك الليلة النُّعاس أُلقىَ عليهم ، فناموا ولم يصبهم من المطر مايؤذيهم .

---

(١) الواقدى : « أرشدهم » .
(٢) يقال : عوّر البئر ؛ إذا كبسها بالتراب .
(٣) الواقدى ٤٨ .

قال الزُّبير بن العوام : لقد سلَّط الله عليهم النعّاس تلك الليلة ، حتى إنّى كنت لأتشدّد ، و النعّاس يجلد بى الأرض فما أطيق إلا ذلك ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه على مثل ذلك الحال . وقال سعدُ بن أبى وقّاص : لقد رأيتُنى ، وإن ذَقنى بين ثديى ، فما أشعر حتى أقع على جنبى .

وقال رفاعة بن رافع بن مالك : لقد غلَبنى النوم ، فاحتلمت حتى اغتسلت آخر الليل (١) .

قال الواقدىّ : فلمّا تحوّل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المنزل بعد أن أخذ السّقاء ، أرسل عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود ، فأطافا بالقوم ، ثم رجعا إليه فقالا له : يارسولَ الله ، القوم مذعورون فزِعون ، إن الفرس ليريد أن يصهل فيضرب وجهه ، مع أن السماء تَسُحُّ عليهم (٢) .

قال الواقدىّ : فلمّا أصبحوا قال منبِّه بن الحجّاج — وكان رجلا يبصر الأثَر : هذا والله أثر ابنِ سُمَيّة ، وابن أم عبْد ، أعرفهما ، لقد جاءنا محمد بسفهائنا وسفهاء أهل يثرب ، ثم قال :

لم يترك الجوع لنا مَبيتا   لا بدّ أن نموت أو نُميتا (٣)

يامعشرَ قريش ، انظروا غداً إن لقينا محمد وأصحابه ، فاتّقوا على شبّانكم وفتيانكم ،

---

(١) الواقدى ٤٩ ، ٥٠ .   (٢) الواقدى ٥٠ .

(٣) بعدها فى الواقدىّ : قال أبو عبدالله : قد ذكرت قول منبه بن الحجاج :

* لَمْ يَتْرُكِ الْجُوعُ لَنَا مَبِيتاَ *

لمحمد بن يحيى بن سهل بن أبى حثمة ، فقال : لعمرى لقد كانوا شباعاً ؛ لقد أخبرنى أبى أنه سمع نوفل ابن معاوية يقول : نحرنا تلك الليلة عشر جزائر ؛ فنحن فى خباء من أخبيتهم نشوى السنام والكبد وطيبة اللحم ونحن نخاف من البيات فنحن نتحارس الى أن أضاء الفجر ، فأسمع منبهاً يقول بعد أن أسفر : هذا ابن سمية وابن مسعود ، وأسمعه يقول :

لم يترُكِ الْخوْفُ لنَا مَبِيتاَ   لا بُدَّ أَنْ نموتَ أَوْ نُميتاَ

بأهل يثرب ، فإنا إن نرجع بهم إلى مكة يبصروا من ضلالتهم مافارقوا من دين آبائهم[١] .

قال الوقدى : ولما نزلَ رسول الله صلى الله عليه وآله على القَلِيب بُنِي له عريش من جَرِيد ، فقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشّحًا سيفَه ، فدخلَ النبيّ صلى الله عليه وآله وأبو بكر[١] .

قلت : لأعجبُ من أمرِ العريش ، من أين كان لهم ، أو معهم من سَعفِ النّخل ما يبنون به عريشا ، وليس تلك الأرض — أعنى أرض بدر — أرضَ نخل ؛ والذى كان معهم من سعَف النخل يجرى مجرى السلاح كان يسيرا جدا ! قيل إنه كان بأيدى سبعة منهم سِعاف عوَضَ السيوف ، والباقون كانوا بالسّيوف والسهام والقِسيّ ، وهذا قول شاذّ ، والصحيح أنه ماخلا أحدٌ منهم عن سلاح ، اللهمّ إلا أنْ يكون معهم سعافات يسيرة ، وظلل عليها بثوب أو سِتْر ، وإلّا فلا أرى لبناء عريش من جريد النخل هناك وجها !

قال الواقدىّ : وصفّ رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه قبل أن تنزل قريش ، فطلعت قريش ورسول الله صلى الله عليه وآله يصفُّ أصحابه ، وقد أترعوا حوضاً يفرطون فيه من السحر ، وقذفت فيه الآنية ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وآله رايتَه إلى مصعب بن عمير ، فتقدم بها إلى الموضع الّذى أمره أن يضعها ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وآله ينظر إلى الصفوف ، فاستقبل المغارب ، وجعل الشمس خلفَه ، وأقبل المشركون ، فاستقبلوا الشمس ، ونزل بالعُدْوة الدّنيا من الوادى ، ونزلوا بالعُدْوة[٢] اليمانيّة ، وهى القصوى ، وجاءه رجل من أصحابه فقال : يارسولَ الله ، إن كان هذا عن وحيٍ فامض له ، وإلا فإنّى

---

(١) الواقدى ٥٠ .
(٢) فى الواقدى : « عدوتا النهر والوادى : جنبتاه » .

أرى أن تعلوا الوادى؛ فإنى أرى ريحاً قد هاجت من أعلاها، وأراها بعثت بنصرك. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « قد صففت صفوفى ووضعت رايتى ، فلا أغيّر ذلك ». ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأمدَّه الله بالملائكة(١) .

قال الواقدىّ : وروى عروة بن الزبير ، قال : عَدّل رسول الله صلى الله عليه وآله الصّفوف يومئذ ، فتقدم سواد بن غَزِيّة أمام الصفّ ، فدفع النبى صلى الله عليه وآله بقِدْح فى بطْنه ، وقال: استوِ ياسواد ، فقال : أوجعتنِي والذى بعثك بالحقّ ، أقِدْنى ، فكشف صلى الله عليه وآله عن بطنه ، وقال :استقِدْ ، فاعتنقه وقبّله، فقال : ماحملك على ماصنعت؟ قال : حَضَر يارسول الله من أمر الله ماقد ترى ، وخشِيت القتل ، فأردت أن يكون آخرَ عهدى بك ، وأن أعتنقك(٢) .

قال الواقدىّ : فحدثنى موسى بن يعقوب ، عن أبى الحويرث ، عن محمد بن جبير بن مُطعِم ، عن رجل من بنى أوْد قال : سمعت علياً عليه السلام يخطب على منبر الكوفة ، ويقول : بينا أنا أمِيح(٣) فى قَلِيب بدر جاءت ريح لم أرَ مثلها قط شدّة ، ثم ذهبت فجاءت أخرى لم أرَ مثلها إلّا التى كانت قبلها ، ثم جاءت ريح أخرى لم أرَ مثلها إلا الأُولَيَيْن ، فكانت الأولى جبريل فى ألف مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، والثانية ميكائيل فى ألف عن ميمنته ، والثالثة إسرافيل فى ألف عن مَيْسرته ، فلمّا هزَم الله أعداءه ، حملنى رسول الله صلى الله عليه وآله على فرس ، فجرتْ بى ، فلمّا جرتْ بى خررتُ على عنقها ، فدعوت ربّى ، فأمسكنى حتى استويتُ ، ومالى وللخيل ، وإنما كنت صاحب الحشَم ، فلما استويت طعنت فيهم بيدى هذه حتى اختضبت منى(٤) ذى – يعنى إبطه(٥) –

---

(١) فى الواقدى ٥١ : « فنزل عليه جبريل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ ، بعضهم على إثر بعض . (٢) الواقدى ٥٢ .

(٣) فى الأصول : « أمتح » . وفى الواقدى : « أميح يعنى أستق ، وهو من ينزع الدلاء ، وهو المتح أيضاً » . (٤) الواقدى : « ذه » . (٥) الواقدى ٥٢ ، ٥٣ .

قلت : أكثر الرواة يروُونه : « فحملنى رسول الله على فرسِهِ » ، والصحيح ما ذكرناه ، لأنه لم يكنْ لرسول الله صلى الله عليه وآله فرس يوم بدر ، وإنما حضرها راكب بعير ، ولكنه لمّا اصطدم الصفّان ، وقتل قوم من فرسان المشركين ، حملَ رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا عليه السلام على بعض الخيل المأخوذة منهم .

قال الواقدىّ : قالوا : كان على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ، وكان على ميسرته علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وكان على ميمنة قريش هُبيرة بن أبى وهب المخزومىّ ، وعَلَى ميسرتهم عمرو بن عبد وَدّ . قيل : كان زَمْعة بن الأسود عَلَى ميسرتهم ، وقيل : بل كان على خيل المشركين ، وقيل : الذى كان على الخيل الحارث بن هشام ، وقال قوم : لم يكن هبيرة على الميمنة ، بل كان عليها الحارث بن عامر بن نوفل[١] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن صالح عن يزيد بن رُومان وابن أبى حَبيبة ، قالا : ما كان على ميمنة النبى صلى الله عليه وآله يوم بَدْر ولا على ميسرته أحدٌ يسمّى ، وكذلك ميمنة المشركين وميسرتهم ما سمعنا فيها بأحدٍ[١] .

قال الواقدىّ : وهذا هو الثّبت عندنا قال : وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ الأعظم لواء المهاجرين مع مُصعب بن عمير ، ولواء الخزرج مع الُحباب بن المنذر ولواء الأوْس مع سعد بنِ معاذ ، وكان مع قريش ثلاثة ألوية ، لواء مع أبى عَزِيز[٢] ، ولواء مع المنذر بن الحارث ، ولواء مع طلحة بن أبى طلحة[٢] .

قال الواقدىّ : وخطب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين يومئذ ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنى أحثّكم على ما حثّكم الله عليه ، وأنهاكم عمّا نهاكم الله عنه فإنّ الله عظيمٌ شأنه ، يأمر بالحقّ ، ويحبّ الصدق ، ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده

---

(١) فى الأصول : « عزيزة » ، وهو خطأ ، وهو أبو عزيز بن عمر بن هاشم ، وانظر الإصابة ٤ : ١٣٣ ، والاستيعاب ٤ : ١٧١٤ .

(٢) الواقدى ٥٣ ، ٥٤ .

به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحقّ ؛ لا يقبل الله فيه من أحدٍ إلا ما ابتغى به وجهه . وإنّ الصبر فى البأس مما يفرّج الله به الهمّ ، وينجّى به من الغمّ ، تدركون به النّجاة فى الآخرة ، فيكم نبىّ الله يحذّركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شىء من أمركم يمقتكم عليه ، فإنه تعالى يقول : ﴿ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾[1] ؛ انظروا إلى الذى أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وما أعزّكم به بعد الذّلة ، فاستمسكوا به يرض ربّكم عنكم ، وابلُوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبون به الّذى وَعَدَكم من رحمته ومغفرته ، فإنّ وعده حقّ ، وقوله صدق ؛ وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحىّ القيّوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكّلنا ، وإليه المصير ، ويغفر الله لى وللمسلمين[2] .

قال الواقدىّ : ولمّا رأى رسولُ الله صلى الله عليه وآله قريشاً تصوّب من الوادى ، وكان أوّل مَنْ طلع زَمْعة بن الأسود على فرسٍ له يتبعه ابنه ، فاستجال بفرسِه ، يريد أن يبنُوا للقوم منزلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهمّ إنّك أنزلت علىّ الكتاب ، وأمرتنى بالقتال ، ووعدتَنى إحدَى الطائفتين ، وأنت لا تخلِف الميعاد . اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها ، تحادُّكَ وتكذّب رسولك . اللهمّ نصرَكَ الذى وعدتَنى . اللهمّ أَحِنهم الغداة ! وطلع عُتبة بن ربيعة على جَمَلٍ أحمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنْ يكُ فى أحدٍ من القوم خيرٌ ففى صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشُدوا .

قال الواقدىّ : وكان إيماء بن رَحَضَة قد بعث إلى قريش ابناً له بعشر جزائر حين مرّوا به أهداها لهم ، وقال : إن أحببتم أن يمدّكم بسلاح ورجال فإنّا معدّون لذلك ، مؤدون فعلنا ، فأرسلوا : أن وصلتك رحِم ، قد قضيتَ الّذى عليك ، ولعمرى لئن

---

(١) سورة غافر ١٠ .   (٢) مغازى الواقدى ٥٣ .

كنّا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم ؛ ولئن كنّا نقاتل الله — بزعم محمد — فما لأحدٍ بالله طاقة[(١)] .

قال الواقديّ : فروى خفاف بن إيماء بن رحْضة ، قال : كان أبى ليس شىء أحبّ إليه من إصلاح بين الناس ، موكَّلًا بذلك ؛ فلمّا مرّت به قريش أرسلنى بجزائر عشر هدية لها ، فأقبلتُ أسوقها ، وتبعنى أبى ، فدفعتها إلى قريش فقبلوها ووزّعوها فى القبائل ، فمرّ أبى على عُتْبة بن ربيعة ، وهو سيّد الناس يومئذ ، فقال : يا أبا الوليد ، ما هذا المسير ؟ قال : لا أدرى والله غُلِبت ، قال : فأنت سيّد العشيرة ، فما يمنعك أن ترجع بالناس ، وتحمل دم حليفِك ، وتحمل العير التى أصابوا بنخْلة ، فتوزّعها على قومك ! فو الله ما يطلبون قبل محمد إلّا هذا ؛ والله يا أبا الوليد ما تقتلون بمحمد وأصحابه إلاّ أنفسَكم[(٢)] !

قال الواقديّ : وحدّثنى ابن أبى الزّناد ، عن أبيه ، قال : ما سمعنا بأحدٍ سار بغير مال إلا عتبة بن ربيعة[(٢)] .

قال الواقديّ : وروى محمد بن جبير بن مطعِم ، قال : لما نزل القومُ أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب إلى قريش ، فقال : ارجعوا ؛ فلأن يلى هذا الأمرَ منّى غيرُكم أحبُّ إلىّ من أن تلُوه منّى ؛ وأن أليَه من غيركم أحبُّ إلىّ من أن أليَه منكم ، فقال حكيم بن حزام : قد عرض نَصَفًا ، فلبّوه[(٣)] ؛ والله لا تُنصَرون عليه بعد أن عرض عليكم من النَّصَف ما عَرَض . وقال أبو جهل : لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم ، ولا نطلب أثرًا بعد عَيْن ، ولا يعرض[(٤)] لعيرنا بعد هذا أبدا .

قال الواقديّ : وأقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوضَ ، منهم حكيم بن حزام ، فأراد المسلمون تنحيتهم[(٥)] عنه ، فقال النبى صلى الله عليه وآله : دعوهم ؛ فوردُوا الماء ،

---

(١) مغازى الواقدى ٥٥ .   (٢) الواقدى ٥٦ .   (٣) الواقدى : « فاقبلوه » .
(٤) الواقدى : « يعترض » .   (٥) الواقدى : « تخليتهم » ؛ قال : « يعنى طردهم » .

فشربوا ، فلم يشرب منهم أحد إلّا قتِل ؛ إلّا ما كان من حكيم بن حِزام [١] .

قال الواقدىّ : فـكان سعيد بن المسيّب ، يقول : نجا حكيم من الدّهر مرتين ، لما أراد الله تعالى به من الخير ، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله على نفر من المشركين وهم جلُوس يريدونه ، فقرأ « يٓس » ؛ ونثر على رءوسهم التراب ، فما أفلت منهم أحدٌ إلا قتِل ، ماعدا حكيم بن حزام . وورد الحوض يوم بدر مع مَنْ ورده مع المشركين ، فما ورده إلا من قتل إلا حكيم بن حزام .

قال الواقدىّ : فلمّا اطمأنّ القوم بعثوا عُميْر بن وهب الُجمحىّ ، كان صاحب قِداح ، فقالوا : احزُر [٢] لنا محمدا وأصحابه ، فاستجال بفرسه حول العسكر ، وصوّب فى الوادى وصعّد ، يقول : عسى أن يـكون لهم مدد أو كمين ! ثم رجع فقال : لا مدد ولا كمين ، والقوم ثلثمائة ، إن زادوا قليلا ،ومعهم سبعون بعيرا ومعهم فرسان ، ثم قال: يامعشرَ قريش ، البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ؛ قوم ليس لهم مَنَعة ولا ملجأ إلّا سيوفهم ؛ ألا ترونَهم خُرْساً لا يتـكلّمون ، يتلمّظون تلمّظ الأفاعى ! والله ماأرى أن يقتَل منهم رجل حتى يقتُل رجُلاً ، فإذا أصابوا منـكم عددهم ؛ فما خيرٌ فى العيش بعد ذلك ! فرُوا رأيكم [٣] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى يونس بن محمد الظَّفرىّ ، عن أبيه ، أنه قال : لما قال لهم عُمير بن وهب هذه المقالة ، أرسلوا أبا أسامة الجشَمِىّ ، وكان فارسا ، فأطاف بالنبىّ صلى الله عليه وآله وأصحابه ، ثم رجع إليهم ، فقالوا له : مارأيت ؟ قال : والله مارأيتُ جَلَداً ولا عددا ولا حَلْقة [٤] ولا كُراعا ، ولـكنّى والله رأيت قوماً لا يريدون أن يردُّوا إلى أهليهم ! رأيت قوما مستميتين ، ليست معهم مَنَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، زُرْق العيون،

---

(١) الواقدى ٥٦ .
(٢) فى الأصول : « احنر » تصحيف .
(٣) الواقدى ٥٩ .
(٤) الحلقة هنا : السلاح .

كأنهم الحصا تحت الحجَف [١] ، ثم قال : أخشى أن يكون لهم كمين أو مدد ، فصوّب فى الوادى ثم صعّد ، ثم رجع إليهم ، فقال : لا كمين ولا مَدد ! فرُوا رأيكم [٢] .

قال الواقدىّ : ولما سمع حكيم بن حزام ماقال عُمير بن وهب ، مشى فى النـاس ، فأتى عتبة بن ربيعة ، فقال : ياأبا الوليد ، أنت كبير قريش وسيّدها والمطاع فيها ، فهل لك ألّا تزال تُذكر فيها بخير آخر الدهر ، مع مافعلت يوم عُـكاظ ! وعتبة يومئذ رئيس الناس ، فقـال : وما ذاك يا أبا خالد ؟ قال : ترجع بالنـاس ، وتحمل دم حليفك ، وما أصابه محمد من تلك العِير ببطن نخلة ، إنـكم لا تطلبون من محمد شيئاً غير هـذا الدّم والعير . فقال عتبة : قد فعلت ، وأنت علىّ بذلك . ثم جلس عتبة على جمله ، فسار فى المشركين من قريش يقول : ياقوم أطيعونى ، ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه ، واعصبوا هذا الأمر برأسى ، واجعلوا جبنَها [٣] فىّ ، فإنّ منهم رجالا قرابتهم قريبة ؛ ولا يزال الرّجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه فيورث ذلك بينـكم شحناء وأضغانا ، ولن تخلصوا إلى قتلهم حتى يصيبوا منـكم عددهم ، مع أنّه لا آمن أن تـكون الدائرة عليكم ، وأنتم لا تطلبون إلّا دمَ القتيل منـكم ، والعِير التى أصيبت ، وأنا أحتمـل ذلك ، وهو علىّ ؛ ياقوم إن يك محمـد كاذبا يـكفيـكموه ذؤبان العرب ، وإن يك مَلِـكا كنتم فى ملك ابن أخيـكم ، وإن يك نبيًّا كنتم أسعدَ النـاس به ! ياقوم لا تردُّوا نصيحتى ، ولا تسفّهوا رأيى . فحسده أبو جهل حين سمع خطبته ، وقال : إن يرجع النّاس عن خطبة عتبة يكن سيّد الجماعة ، وكان عتبة أنطقَ الناس ، وأطولَهم لسانا ، وأجملهم جمالاً ، ثم قال عتبة لهم : أنشدكم الله فى هذه الوجوه التى كأنها المصابيح ، أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التى كأنّها وجوهُ الحيّات ! فلمّا فرغ عتبة من كلامه قال أبو جهل : إنّ عتبة يشير عليـكم بهـذا

---

(١) الحجف : الترس .

(٢) مغازى الواقدى ٥٧ ، ٥٨ . (٣) فى الأصول : « حينها » ، وأثبت ما فى الواقدى .

لأنّ محمدا ابن عمه ، وهو يكره أن يقتل ابنه وابن عمه ، امتلأ والله سَحْرُك ياعتبة وجَبُنْت حين التقت حَلقتا البِطان [١] . الآن تخذّل بيننا وتأمرنا بالرجوع ! لا والله لانرجع حتى يحكُم الله بيننا وبين محمد . فغضب عتبة ، فقال: يامصفّرا اُستِه ، ستعلم أيّنا أجبن والأم ! وستَعلم قريش مَنِ الجبان المفسد لقومه ! وأنشد :

هــذاىَ وأمرت أمرِى فبشّرى بالثّكل أم عمرو [٢]

قال الواقدىّ : وذهب أبو جهل إلى عامر بن الحضرمىّ ، أخى عمرو بن الحضرمىّ المقتول بنخْـلة ، فقال له : هذا حليفك ــ يعنى عتبة ــ يريد أن يرجع بالنّاس ، وقدرأيت ثأرك بعينك ، وتخذل بين النّاس !أقد تحمل دم أخيـك ، وزعم أنّك قابل الدِّية ، ألا تستحى ؟ تقبل الدية وقد قدرت على قاتل أخيـك ! قمْ فانشد خُفرتك ؛ فقام عامر بن الحضرمىّ فا كتشف [٣] ، ثم حثا على استه التراب ، وصرخ : واعمراه ! يخزّى بذلك عتبة ؛ لأنّه حليفة من بين قريش ، فأفسد على النّاس الرأىَ الذى دعاهم إليه عُتْبة ، وحلف عامر لايرجع حتّى يقتل من أصحاب محمد . وقال أبو جهل لعُمَير بن وهب : حرّش بين الناس ، فحمل عمـير فناوش المسلمين ، لأن ينفضّ الصفّ ، فثبت المسلمون على صفّهم ؛ ولم يزولوا ، وتقدّم ابن الحَضْرمىّ فشدّ على القوم ، فنشبت الحرب [٤] .

قال الواقدىّ : فروى نافع بن جبير عن حكيم بن حزام ، قال: لما أفسد الرأى أبو جهل على النّاس ، وحرّش بينهم عامر بن الحضرمىّ فأقحم فرسه ، كان أوّل من خرج إليه من المسلمين مهجّع مولى عمر بن الخطاب ، فقتله عامر ، وكان أوّلَ قتيل قتِل من الأنصار حارثة ابن سراقة ، قتله حيّان بن العرِقة [٥] .

قال الواقدىّ : وقال عمر بن الخطاب فى مجلس ولايته : ياعمـيرَ بن وهب ، أنت

---

(١) حلقتا البطان ، كناية عن اشتداد الأمر . (٢) مغازى الواقدى ٥٨ ، ٥٩ .
(٣) اكتشف : تعرى (٤) الواقدى ٥٩
(٥) الواقدى ٦٠ : « ويقال : عمير بن الحمام ، قتله خالد بن الأعلم العقيلى » .

حاذِرُنا للمشركين يوم بدْر ، تصعّد فى الوادى وتصوّب ، كأنّى أنظر إلى فرسك تحتك تخبر المشركين أنه لا كمين لنا ولا مدد ! قال : إى والله ياأمير المؤمنين ،وأخرى،أناوالله الذى حرّشت بين الناس يومئذ ، ولكن الله جاءنا بالإسلام ،وهداناله ؛وما كان فينامن الشِّرْك أعظم من ذلك ، قال عمر : صدقت (١) .

قال الواقدىّ : وكان عتبة بن ربيعة كلّم حكيم بن حزام ، وقال : ليس عند أحد خلاف إلا عند ابن الحنظليّة ، فاذهب إليه ، فقل له : إنّ عتبة يحمل دم حليفه ، ويضمن العير . قال حكيم : فدخلت على أبى جهل ، وهو يتخلّق بخلَوق طيب ، ودرعه موضوعة بين يديه ، فقلت : إن عتبة بن ربيعة بعثنى إليك ، فأقبلَ علىّ مغضبا ؛فقال :ماوجدعتبة أحداً يرسله غيرك ؛ فقلت : والله لو كان غيره أرسلنى مامشيت فى ذلك ،ولكنى مشيتُ فى إصلاح بين الناس ـ وكان أبو الوليد سيّد العشيرة ـفغضب غضبةأخرى.قال: وتقول أيضا سيّد العشيرة ، فقلت : أنا أقوله ، وقريش كلها تقوله ، فأمر عامرا أن يصيح بخفرته، واكتشف ، وقال : إنّ عُتبة جاع ، فاسقوه سويقا ، وجعل المشركين يقولون : عتبة جاع ، فاسقوه سويقا ، وجعل أبو جهل يسرّ بما صنع المشركون بعتبة . قال حكيم : فجئت إلى منبّه بن الحجاج فقلت له مثل ماقلت لأبى جهل ، فوجدته خيراً من أبى جهل، قال : نعمّا مشيتَ فيه ، وما دعا إليه عتبه ! فرجعت إلى عتبة فوجدته قد غضب من كلام قريش ، فنزل عن جمله ، وقد كان طاف عليهم فى عسكرهم يأمرهم بالكفّ عن القتال ، فيأبوْن ، فحمِى ، فنزل فلبس دِرْعه ، وطلبوا له بَيْضَةً فلم يوجد فى الجيش بَيْضة تسع رأسه من عِظَم هامته ، فلما رأى ذلك اعتجَر ، ثم برز راجلا بين أخيه شيبة وبين ابنه الوليد ابن عتبة فبينا أبو جهل فى الصف على فرس أنثى ، حاذاه عُتْبة ، وسلّ سيفه ، فقيل : هو والله يقتله ، فضرب بالسيف عُرقوب فرس أبى جهل ، فاكتسعت (٢) الفرس ،

---

(١) مغازى الواقدى ٦٠ . (٢) اكتسعت الفرس : سقطت من ناحية مؤخرها ورمت به .

وقال : انزل ، فإنَّ هـذا اليوم ليس بيوم ركوب ؛ ليس كلّ قومك راكبا ، فنزل أبو جهـل وعُتْبة يقول : سيعلم أيّنا شؤم عشيرته الغـداة ! قال حكيم : فقلت : تالله مارأيتُ كاليوم !

قال الواقدىّ : ثم دعا عُتْبة إلى المبارزة ورسول الله صلى الله عليه وآله فى العَرِيش ، وأصحابه على صفوفهم ، فاضطجع ، فغشيَه النوم ، وقال : لا تقاتلوا حتى أوذنـكم ، وإن كثبوكم فارمُوهم ولا تسلُّوا السيوفَ حتى يغشَوْكم. فقال أبو بكر : يارسول الله قد دنا القوم، وقد نالوا مِنّا ، فاستيقظ ، وقد أراه الله إيّاهم فى منامه قايلا ، وقلّل بعضهم فى أعين بعض، ففزع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو رافع يديه يناشد ربّه ماوعده من النّصر، ويقول: «اللهمّ إن تظهر علىّ هذه العصابة يظهر الشّرك، ولا يقم لك دين»، وأبو بكر يقول: والله لينصرنّك الله وليبيّضنّ وجهك. قال عبدالله بن رواحة : يارسول الله ، إنّى أشيرُ عليك، وأنت أعظم وأعلم بالله من أن يشارَ عليك ، إنّ الله أجلّ وأعظم من أن ينشَد وعـده ! فقال عليـه السلام : يابن رواحة ، ألَا أنشدُ الله وعدَه، إن الله لا يخلف الميعاد ! وأقبل عُتْبة يعمِد إلى القتال ، فقال له حكيم بن حزام : مهلاً مهلاً ياأبا الوليد ! لا تنهَ عن شىء وتـكون أوّله [١].

قال الواقدىّ : قال خُفاف بن إيماء: فرأيت أصحابَ النبىّ صلى الله عليه وآله يوم بدر، وقد تصافّ النّاس وتزاحفوا ، وهم لايسلّون السيوف ، ولـكنهم قد انتضوا القِسِىّ، وقد تترّس بعضهم عن بعض بصفوفٍ متقاربة، لافرج بينها ؛ والآخرون قد سلُّوا السيوف حين طلعوا ، فعجبت من ذلك، فسألت بعد ذلك رجلا من المهاجرين، فقال : أمرَنا رسول الله صلى الله عليه وآله ألّا نسلّ السيوف حتى يغشونا [٢] .

قال الواقدىّ : فلما تزاحف الناس قال الأسود بن عبد الأسد المخزومى حين دنا من

---

(١) مغازى الواقدى ٦٠ ، ٦١ .

الحوض : أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنّ دونه. فشدّ حتى دنا من الحوض ، واستقبله حمزة بن عبد المطلب ، فضربه فأطنّ (١) قدمه ، فزحف الأسود ليبرّ قسمه زعم ، حتى وقف فى الحوض فهدمه برجله الصحيحة ، وشرب منه ، وأتبعه حمزة ، فضربه فى الحوض فقتله ، والمشركون ينظرون ذلك على صفوفهم (٢) .

قال الواقدىّ : ودَنا النّاس بعضُهم من بعض ، فخرج عتبة وشيبة والوليد حتى فَصَلوا من الصفّ ، ثم دعوْا إلى المبارزة ، فخرج إليهم فتيان ثلاثة من الأنصار ، وهم بنو عَفْراء: مُعاذ ومعوّذ وعوف، بنو الحارث ـ ويقال: إنّ ثالثهم عبد الله بن رواحة ، والثّابت عندنا أنهم بنو عَفْراء ـ فاستحى رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ، وكره أن يكون أوّل قتال لقِيَ المسلمون فيه المشركين فى الأنصار، وأحبّ أن تكون الشوْكة لبنى عمّه وقومه، فأمرهم ، فرجعوا إلى مصافّهم، وقال لهم خيرا ، ثم نادى منادى المشركين : يا محمد، أخرِجْ إلينا الأكفاء من قومنا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : يابنى هاشم ، قوموا فقاتلوا بحقّكم الذى بعث الله به نبيّكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله . فقام حمزة بن عبد المطّلب وعلىّ بن أبى طالب وعُبيدة بن الحارث بن المطّلب بن عبد مناف ، فمشوْا إليهم فقال عتبة : تكلّموا نعرفْكم ـ وكان عليهم البِيض ، فأنكروهم ـ فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم (٣) .

***

وروى محمد بن إسحاق فى كتاب " المغازى " خلاف هذه الرواية ، قال : إن بنى عَفْراء وعبد الله بن رَوَاحة برزوا إلى عُتبة وشَيْبة والوليد ، فقالوا لهم : مَنْ أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ، فقالوا : ارجعوا فما لنا بكم من حاجة ! ثم نادى مناديهم : يا محمد

---

(١) أطن قدمه : قطعها .

(٢) على صفوفهم : أى على حالتهم التى كانوا عليها .

(٣) مغازى الواقدى ٦٢ ، ٦٣ .

أخرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان[١] .

قلت : وهذه الرواية أشهر من رواية الواقدىّ ، وفى رواية الواقدىّ ما يؤكد صحة رواية محمد بن إسحاق ، وهو قوله : إن منادى المشركين نادى : يا محمد ، أخرِج إلينا الأكفاء من قومنا . فلو لم يكن قد كلّمهم بنو عفراء وكلّموهم وردّوهم ، لما نادى مناديهم بذلك . ويدلّ على ذلك قول بعض القرشيّين لبعض الأنصار فى فخرٍ فخرَ به عليه : أنا من قوم لم يرضَ مشركوهم أن يقتلوا مؤمِنى قومك .

قال الواقدىّ : فقال حمزة : أنا حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ، فقال عتبة : كفء كريم ، وأنا أسد الحلفاء ، من هذان معك ؟ قال : علىّ بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، فقال : كفآن كريمان[٢] .

قال الواقدىّ : قال ابن أبى الزّناد : حدّثنى أبى ، قال : لم أسمع لعُتْبة كلمةً قطّ أوهَن من قوله : « أنا أسد الحلْفاء » يعنى بالحلْفاء الأجَمَة .

قلت : قد روى هذه الكلمة على صيغة أخرى : « وأنا أسد الحُلَفاء » ، وروى : « أنا أسد الأحْلَاف » .

قالوا فى تفسيرها : أراد أنا سيد أهل الحلْف المطيّبين ، وكان الذين حضروه بنى عبد مناف وبنى أسد بن عبد العزّى وبنى تَيْم وبنى زُهْرة وبنى الحارث بن فهر ؛ خمس قبائل . وردّ قوم هذا التأويل ، فقالوا : إن المطيّبين لم يكن يقال لهم : الحلَفاء ولا الأحلاف ، وإنما ذلك لقب خصومهم وأعدائهم الّذين وقع التحالف لأجلهم ، وهم بنو عبد الدار ، وبنو مخزوم ، وبنو سَهم ، وبنو جُمَح ، وبنو عدىّ بن كعب ؛ خمس

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٥ ، وفيها : « قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا على » .
(٢) مغازى الواقدى ٦٣ .

قبائل . وقال قوم فى تفسيرها : إنما عنَى حِلْف الفُضول ، وكان بعد حلف المطيّبين بزمان ، وشهد حلف الفُضول رسول الله صلى الله عليه وآله وهو صغير فى دار ابن جُدْعان ، وكان سببه أن رجلا من اليمن قدم مكّة بمتاع ، فاشتراه العاص بن وائل السهمىّ ومطَله بالثّمن حتى أتعبه ، فقام بالحِجْر وناشد قُريشا ظلامته ، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد بن عبد العزّى وبنو زهرة ، وبنو تيم ، فى دار ابن جُدْعان ، فتحالفوا ، وغمسُوا أيديَهم فى ماء زمزم ، بعد أن غسلوا به أركان البيت ؛ أن ينصروا كلّ مظلوم بمكة ، ويردُّوا عليه ظلامته ، ويأخذوا على يد الظالم ، وينهَوْا عن كلّ منكر ، ما بلّ بحرٌ صوفة ؛ فسمّى حلف الفضول لفضله ، وقد ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : « شهدته وما أحبّ أن لى به حُمْرَ النعم ، ولا يزيده الإسلام إلّا شدة » ، وهذا التفسير أيضا غير صحيح ، لأن بنى عبد الشمس لم يكونوا فى حِلْف الفضول ، فقد بان أن ما ذكره الواقدىّ أصح وأثبت .

قال الواقدىّ : ثم قال عتبة لابنه : قم يا وليد ، فقام الوليد وقام إليه علىّ — وكانا أصغرَ النفر — فاختلفا ضربتين ، فقتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ثم قام عتبة ، وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتيْن ، فقتله حمزة رضى الله عنه ، ثم قام شيبة ، وقام إليه عُبيدة — وهو يومئذ أسنَ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله — فضرب شَيْبة رِجْل عبيدة بذباب السيف ، فأصاب عضلة ساقه ، فقطعها وكرّ حمزة وعلىّ على شيبة فقتلاه ، واحتملا عبيدة فحازاه إلى الصفّ ، ومخّ ساقه يسيل ، فقال عبيدة : يارسول الله ، ألستُ شهيداً ؟ قال : بلى ، قال : أما والله لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أنّى أحق بما قال حين يقول :

كذبتمْ وبيتِ الله نُخْلِى محمّدا ولمّا نطاعنْ دونهُ ونناضِلِ (١)
وننصرُه حتى نصرّع حولَه ونذهَل عن أبنائنا والحلائِلِ

ونزلت فيهم هذه الآية : ﴿ هَذَانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ ﴾ (٢) .

---

(١) ديوانه ١١٠ ، وفيه : « نبزى محمداً » .
(٢) سورة الحج ١٩ والخبر فى الواقدى ٦٣ ، ٦٤ .

وروى محمد بن إسحاق أن عتبة بارزَ عُبيدة بن الحارث ، وأنّ شيبة بارز حمزة بن عبدالمطلب ، فقتل حمزة شيبة ، لم يمهله أن قتله ؛ ولم يمهل علىٌّ الوليدأن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضرْبتين ، كلاهما أثبتَ[١] صاحبه ، وكرّ حمزة وعلىٌّ عليه السلام على عُتْبة بأسيافهما ، حتى وقعا عليه[٢] ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى الصف[٣] .

قلت : وهذه الرواية توافق مايذكره أمير المؤمنين عليه السلام فى كلامه ، إذ يقول لمعاوية : وعندى السيفُ الذى أعضضتُ به أخاكَ وخالكَ وجدّكَ يوم بدر . ويقول فى موضع آخر : قدعرفت مواقع نصالِها فى أخيك وخالِك وجدّك ، وماهى من الظالمين ببعيد .

واختار البلاذُرىّ رواية الواقدىّ : وقال : إن حمزة قتل عتبة ، وإنّ علياعليه السلام قتل الوليد ، وشرك فى قتل شيبة[٤] .

وهـذا هو المناسب لأحوالهم من طريق السنّ ، لأن شيبة أسنّ الثلاثة ، فجُعل بإزاء عبيدة وهو أسنّ الثلاثة ، والوليد أصغر الثلاثة سنًّا ، فجُعل بإزاء علىٍّ عليه السلام ، وهو أصغر الثلاثة سنا ، وعتبة أوسطهم سنًّا ، فجعل بإزاء حمزة وهو أوسطهم سنًّا . وأيضا فإنّ عتبة كان أمثلَ الثلاثة ، فمقتضى القياس أن يكونَ قرنه أمثلَ الثلاثة ، وهو حمزة إذ ذاك ، لأنّ عليًّا عليه السلام لم يكن قد اشتهر أمره جدا ، وإنما اشتهر الشُّهرة التامّة بعد بدر . ولمن روى أنّ حمزة بارز شيبة ـ وهى رواية ابن إسحاق ـ أن ينتصر بشعر هند بنت عتبة ترثى أباها :

أعينىَّ جودا بدمـع سَرِبْ ... على خير خِنْدف لم ينقلبْ[٥]
تداعَى له رهطُــه قُصْرةً ... بنو هاشمٍ وبنـو المطّلبْ[٦]
يذيقونه حرّ أسيــافهم ... يعلُّونه بعـد ماقـد عَطِبْ[٧]

(١) أثبته : جرحه .
(٢) ابن هشام : « ذففا عليه » .
(٣) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٥ .
(٤) أنساب الأشراف ١ : ٢٩٧ .
(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٥٤١ .
(٦) يقـال : هو ابن عمى قصرة ، أى قريب . وفى ا والواقدى : « غدوة » .
(٧) ا : « شجب » .

فإذا كانت قد قالت إن عتبة أباها أذاقه بنو هاشم وبنو المطلب حرّ أسيافهم ، فقد ثبت أن المبارز لعتبة إنما هو عُبيدة لأنه من بنى المطلب جرح عتبة ، فأثبته ثم ذفّف[١] عليه حمزة وعلىّ عليه السلام . فأما الشّيعة ، فإنها تروى أن حمزة بادر عتبة فقتله ، وأنّ اشتراك علىّ وحمزة إنما هوفى دم شيبة بعد أن جرحه عبيدة بن الحارث ، هكذا ذكر محمد ابن النعمان فى كتاب " الإرشاد " ؛ وهو خلاف ماتنطق به كتب أميرالمؤمنين عليه السلام إلى معاوية ، والأمر عندى مشتبه فى هذا الموضع .

وروى محمد بن النّعمان ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنّه كان يذكر يوم بدر ويقول : أختلف أنا والوليد بن عتبة ضربتين ، فأخطأتنى ضربتُه ، وأضربه فاتّقانى بيده اليسرى ، فأبانها السيف ، فكأنى أنظر إلى وميض خاتم فى شماله ، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبتُه ، فرأيت به الرّدْع[٢] من خَلُوق ، فعلمت أنه قريب عهد بعرس .

***

قال الواقدىّ : وقد روىَ أن عُتبة بن ربيعة حين دعا إلى البراز ، قام إليه ابنه أبو حُذَيفة بن عتبة يبارزه ، فقال له النبى صلى الله عليه وآله : اجلس ، فلمّا قام إليه النّفر أعان أبو حذيفة على أبيه عُتْبة بضربة[٣] .

قال الواقدىّ : وأخبرنى ابن أبى الزّناد، عن أبيه، قال: شَيْبة أكبر من عتبة بثلاث سنين، وحمزة أسنّ من النبى صلى الله عليه وآله بأربع سنين ، والعبّاس أسنّ من النبىّ صلّى الله عليه وآله بثلاث سنين[٤] .

قال الواقدىّ :واستفتح أبو جهل يوم بدر، فقال : اللهمّ أقطعُنا للرّحم وآتانا بمالا يعلم، فأَحِنه الغداة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ... ﴾[٥] الآية .

(١) ذفف عليه : أى أجهز . (٢) الردع : « الزعفران » .
(٣) مغازى الواقدى ٦٤ . (٤) مغازى الواقدى ٦٥ ؛ والخبر هنا أوفى وأشمل .
(٥) سورة الأنفال ١٩ ، والخبر فى الواقدى ٦٥ ، وتاريخ الطبرى ٢ : ٤٤١ (طبعة المعارف) .

قال الواقدىّ : وروى عُروة عن عائشة أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله جعل شعار المهاجرين يوم بدر : يابنى عبد الرحمن ، وشعار الخزرج : يابنى عبد الله ، وشعار الأوس: يابنى عبد الله .

قال : وَرَوَى زيد بن علىّ بن الحسين عليه السلام ، أنّ شعارَ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يوم بدر : يامنصور أَمِتْ(١) .

قال الواقدىّ : ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن قتل أبى البخترىّ ، وكان قد لبس السلاح بمكّة يوما قبل الهجرة فى بعض ما كان ينال النبى صلى الله عليه وآله من الأذى ، وقال : لا يعرض اليوم أحدٌ لمحمّد بأذى إلا وضعت فيه السّلاح . فشكر ذلك له النبىّ صلى الله عليه وآله . قال أبو داود المازنىّ : فلحقتهُ يوم بدر ، فقلت له : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد نهى عن قتلِك إن أعطيت بيدك ، قال : وما تريد إلىّ ! إنْ كان قد نهى عن قتلى ، فقد كنت أبليتهُ ذلك ، فأمّا أن أعطىَ بيدى ، فواللات والعزّى لقد علمتْ نسوة بمكّة أنى لا أعطِى بيدى ، وقد عرفتُ أنك لا تدَعنى ، فافعل الذى تريد . فرماه أبو داود بسهم ، وقال : اللهمّ سهمك ؛ وأبو البخترىّ عبدك ، فضعه فى مقتله : وأبو البخترىّ دارع ، ففتق السهم الدرع فقتله .

قال الواقدىّ : ويقال إنّ المجذّر بن ذياد قتل أبا البخترىّ ولا يعرفه ، وقال المجذر فى ذلك شعراً عُرِف منه أنه قاتله (٢) .

***

وفى رواية محمد بن إسحاق ؛ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى يوم بدر عن قتل أبى البخترىّ ، واسمه الوليد بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزّى ، لأنه كان أكفّ

---

(١) مغازى الواقدى ٦٦ . (٢) مغازى الواقدى ٧٥ .

الناس عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله بمكّة ، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شىء يكرهه ، وكان فيمن قام فى نقض الصحيفة التى كتبتها قريش على بنى هاشم ، فلقيه المجذَّر بن ذياد البلَوِىّ حليف الأنصار ، فقال له : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله نهانا عن قتلك ، ومع أبى البخترىّ زميل له خرج معه من مكّة يقال له جُنادة بن مُلَيْحة ، فقال أبو البخترىّ : وزميلى ! قال المجذَّر : والله مانحن بتاركى زميلك ، مانهانا رسول الله صلى الله عليه وآله إلا عنك وحدك[١] ، قال : إذاً والله لأموتنّ أنا وهو جميعا ، لا تتحدّث عنى نساء أهل مكة أنى تركت زميلى حرصا على الحياة ، فنازله المجذَّر . وارتجز أبو البخترى[٢] فقال:

لن يُسلِم ابن حرّة زميلَهْ حتى يموت أو يرى سبيلَهُ

ثم اقتتلا ، فقتله المجذَّر ، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأخبره ، وقال: والذى بعثك بالحقّ لقد جهدت أن يستأسر فآتيك به ، فأبى إلّا القتال فقاتلته[٣] فقتلته[٤] .

* * *

قال الواقدىّ : ونهى النبىّ صلى الله عليه وآله عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل ، وقال : ائسروه ولا تقتلوه ، وكان كارها للخروج إلى بدر ، فلقيه خبيب بن يساف فقتله ولا يعرفه ، فبلغ النبىّ صلى الله عليه وآله ذلك ، فقال : لو وجدته قبل أن يقتَل لتركته لنسائه . ونهى عن قتل زَمْعة بن الأسود فقتله ثابت بن الجذْع ، ولا يعرفه .

قال الواقدى : وارتجز عدىّ بن أبى الزّغباء يوم بدر ، فقال :

أنا عدىّ والسَّحَلْ أمشى بهامَشْىَ الفَحَلْ

يعنى درعه . فقال النبىّ صلى الله عليه وآله : مَنْ عدىّ ؟ فقال رجل من القوم : أنا يارسول الله ، قال : وماذا ؟ [قال : ابن فلان ، قال : لست أنت عديًا ، فقال عدىّ بن أبى

---

(١) ابن هشام : « ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك » .
(٢) ابن هشام : « فقال أبو البخترى حين نازله المجذّر ، وأبى إلا القتال » .
(٣) ابن هشام : « إلا أن يقاتلنى » .
(٤) الخبر فى سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٠ ، ٢٧١ .

الزغباء : أنا يا سول الله عدىّ ، قال : وماذا] [١] ؟ قال : « والسَّحَل ، أمشى بها مشى الفَحَل » ، قال النبىّ صلى الله عليه وآله : وما السَّحَل ، قال : درعى ، فقال صلى الله عليه وآله « نعم العدىّ ، عدىّ بن أبى الزغباء » [٢] .

قال الواقدى : وكان عقبة بن أبى مُعَيْط قال بمكة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة :

يا راكبَ الناقة القَصْواء هاجِرَنا عمّا قليلٍ ترانى راكبَ الْفرَسِ
أُعِلُّ رُمْحِىَ فيكم ثم أُنْهِلُهُ والسَّيْفُ يأخذ منكم كلَّ ملتبِسِ

فبلغ قولُه النبىّ صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهم أكبّه لمنخرِه واصرعه » ؛ فجمح به فرسُه يوم بدر بعد أن ولّى الناس ، فأخذه عبد الله بن سلَمة العَجْلانىّ أسيراً ، وأمر النبى صلى الله عليه وآله عاصم بن أبى الأقلح ، فضرب عنقه صَبْرا [٣] .

قال الواقدىّ : وكان عبد الرحمن يحدّث يقول : إنى لأجمع أدراعاً يوم بدر ، بعد أن ولّى الناس ، فإذا أميّة بن خلف — وكان لى صديقا فى الجاهلية ، وكان اسمى عبد عمرو ، فلما جاء الإسلام تسمّيت عبدَ الرحمن ، فكان يلقانى بمكة فيقول : يا عبد عمرو ، فلا أجيبه ، فيقول : إنى لا أقول لك عبد الرحمن ، إنّ مسيلِمة باليمامة [٤] تسمّى بالرحمن ، فأنا لا أدعوك إليه ، فكان يدعونى عبد الإله ، فلما كان يوم بدر رأيتُه وكأنه جمل يُساق ، ومعه ابنه علىّ ، فنادانى : ياعبد عمرو ، فأبيت أن أجيبَه ، فنادانى : ياعبد الإله ، فأجبته ، فقال : أما لكم حاجة فى اللّبن ؟ نحن خير لك من أدرعك هذه ، فقلت : امضيا فجعلت أسوقهما أمامى ، وقد رأى أميّة أنه قد أمِن بعض الأمن ، فقال لى أميّة : رأيت رجلاً فيكم اليوم معلِماً فى صدره بريشة نعامة ، من هو ؟ فقلت : حمزة بن عبد المطلب

(١) من مغازى الواقدى .
(٢) مغازى الواقدى ٧٦ .
(٣) مغازى الواقدى ٧٦ ، ٧٧ .
(٤) الواقدى « يتسمى » .

فقال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل ! ثم قال : فمن رَجُلٌ دحداح قصير معلَم بعصابة حمراء ؟ قلت : ذاك رجل من الأنصار ، يقال له : سِماك بن خَرَشة ، قال : وبذاك أيضاً ياعبد الإله صرنا اليوم جَزَراً لكم ! قال : فبينا هو معى أزجّيه[١] أمامى ، ومعه ابنه ، إذ بصر به بلال وهو يعجن عجينا له ، فترك العجين ، وجعل يفتِلُ يديه منه فتلاً ذريعا ، وهو ينادى : يا معشر الأنصار ، أميّة بن خلَف رأس الكفر ! لا نجوتُ إن نجوتَ ـ قال : لأنه كان يعذّبه بمكة ، فأقبلت الأنصار كأنّهم عُوذٌ حَنّت إلى أولادها ، حتى طرحوا أميّة على ظهره ، واضطجعت عليه أحميه منهم ، فأقبل الحبّاب بن المنذر ، فأدخل سيفَه ، فاقتطع أرنبة أنفه ، فلمّا فقد أميّة أنفه ، قال لى : إيهاً عنك ! أى خلّ بينى وبينهم ، قال عبد الرحمن فذكرت قول حسان :

* أو عَنْ ذلك الأنف جادعُ *

قال : ويقبل إليه خُبَيب بن يَساف ، فضربه حتى قتله ، وقد كان أميّة ضرب خُبيب ابن يساف حتى قطع يده من المنكِب ، فأعادها النبىّ صلى الله عليه وآله فالتحمت واستوت ، فتزوّج خُبَيب بن يساف بعد ذلك ابنة أمية بن خلف ، فرأت تلك الضربة ، فقالت : لا يشلّ الله يدَ رجلٍ فعل هذا ! فقال خبيب : وأنا والله قد أوردتُه شَعُوب ، فكان خُبَيب يحدّث يقول : فأضربه فوق العاتِق ، فأقطع عاتقه حتى بلغت مؤتزره ، وعليه الدّرع ، وأنا أقول : خذها وأنا ابن يساف ! وأخذت سلاحه ودرعه ، وأقبل علىّ ابن أميّة فتعرّض له الحبّاب ، فقطع رجله ، فصاح صيحة ما سمع مثلها قطّ ، ولقيه عمّار فضربه ضربة فقتله . ويقال : إن عمّاراً لاقاه قبل ضربة الحبّاب ، فاختلفا ضربات ، فقتله عمّار . والأُولَى أثبت ، أنه ضربه بعد أن قطعت رجله[٢] .

قال الواقدىّ : وقد سمعنا فى قتل أميّة غير ذلك ، حدثنى عُبيد بن يحيى ، عن معاذ بن

---

(١) أزجيه : أسوقه .   (٢) مغازى الوقدى ٧٧ ، ٧٨ .

رفاعة ، عن أبيه ، قال : لمّا كان يوم بدْر وأحْدقنا بأميّة بن خلف ، وكان له فيهم شأن، ومعى رمحى ، ومعه رمحه ، فتطاعنّا حتى سقطتْ أزجّتُها ، ثم صرنا إلى السَّيْفين فتضاربنا بهما حتى انثلما ، ثم بصرت بفَتْق فى درعه تحت إبطه ، فخششت السيف فيه حتى قتلته ، وخرج السيف عليه الوَدك (١) .

قال الواقدىّ : وقد سمعنا وجها آخر : حدثنى محمد بن قُدامة بن موسى ، عن أبيه، عن عائشة بنت قدامة ، قالت : قال صفوان بن أميّة بن خلَف يوما : ياقُدَام ـ لقدامة بن مظعون ـ أنت المشلِي (٢) بأبى يوم بدر النّاس ! فقال قدامة : لا والله مافعلت ،ولوفعلت مااعتذرت من قتل مشرك . قال صفوان : فمن ياقدام المشلِي به يوم بدر ؟قال :رأيت فتيةً من الأنصار أقبلوا إليه ، فيهم معمر بن حُبيب بن عبيد الحارث ، يرفع سيفه ويضعه فيه، فقال صفوان : أبو قرد ! وكان مَعْمر رجلا دميماً ، فسمع بذلك الحارث بن حاطب، فغضب له ، فدخل على أمّ صفوان ، فقال : مايدَعُنا صفوان من الأذى فى الجاهليّة والإسلام ! قالت : وما ذاك ؟ فأخبرها بمقالةِ صفوان لمعمر حين قال : أبو قرد ! فقالت أمّ صفوان : ياصفوان ، أتنتقص معمر بن خبيب من أهل بدْر ! والله لا أقبل لك كرامة سنةً . قال صفوان : ياأمّة ، لا أعود والله أبدا ، تكلّمتُ بكلمة لم ألقِ لها بالا (٣) .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن قُدامة ، عن أبيه ، عن عائشة بنت قدامة ، قالت : قيل لأمّ صفْوان بن أميّة ـ ونظرت إلى الحبّاب بن المنذر بمكّة : هـذا الذى قطع رِجْل علىّ بن أمية يومَ بدْر ، قالت : دعونا عن ذكر مَنْ قُتِل عَلَى الشِّرْك ، قد أهان الله عليا بضربة الحبّاب بن المنذر ، وأكرم الله الحبّاب بضربته عليا ، ولقد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقتل على غير ذلك (٤) .

* * *

(١) مغازى الواقدى ٧٨ ، ٧٩ . (٢) المشلى : المحرض .
(٣) مغازى الواقدى ٧٩ .
(٤) مغازى الواقدى ٧٩ ، ٨٠ ، وانظر سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

فأمّا محمد بن إسحاق ، فإنه قال : قال عبد الرحمن بن عوف : أخذت بيدِ أميّة بن خلَف ويد ابنه عليّ بن أمية أسيرين يوم بَدْر ، فبينا أنا أمشى بينهما ، رآنا بلال ـ وكان أميّة هو الذى يعذّب بلالا بمكّة ، يخرجه إلى رَمْضاء [١] مكة إذا حميت ، فيضجِعه على ظهره ، ثم يأمرُه بالصَّخْرة العظيمة فتوضع بحرارتها على صدره ، ويقول له : لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد ! فيقول بلال : أحدٌ أحدٌ ! لا يزيده عَلَى ذلك ـ فلمّا رآه صاح : رأس الكفر أميّة بن خَلَف ، لا نجوتُ إن نجوتَ ! قال عبد الرحمن : فقلت أى بلال ، أسيرى! فقال : لا نجوتُ إن نجا ، فقلت : استمع يابن السوداء ، قال : لا نجوت إن نجا ، ثم صرخ بأعلى صوتِه : يا أنصار الله ، أميّة بن خلَف رأس الكفر ، لا نجوتُ إن نجا ، فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المُسْكَة [٢] ، وأنا أذبّ عنه ، [٣] ويحذف عمّار بن ياسر عليا ابنه بالسيف ، فأصاب رجله ، فوقع وصاح أميّة صيحةً ماسمعت مثلَها قط [٣] ، فخلّيت عنه ، وقلت : انجُ بنفسك ولا نجاء به ! فوالله ماأغنِي عنك شيئا ، قال : فهبروهما [٤] بأسيافهم حتى فرغوا منهما . قال : فكان عبد الرحمن بن عوف ، يقول : رحِم الله بلالا ! أذهب أدرعِي ، وفجعنى بأسيرِى [٥] !

* * *

قال الواقدىّ : وكان الزُّبير بن العوام يحدّث فيقول : لمّا كان يومئذ لقيتُ عبيدة ابن سعيد بن العاص على فرس ، عليه لَأمة كاملة لا يُرى منه إلا عيناه ، وهو يقول ـ وكانت له صبيّة صغيرة ، يحملها وكان لها بُطين وكانت مقسّمة : أنا أبو ذات الكرش ، أنا أبو ذات

---

(١) الرمضاء : الرمل الشديد الحرارة من الشمس .

(٢) المسكة : السوار .

(٣ ـ ٣) ابن هشام : « فأخاف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع وصاح أمية صيحة عظيمة ما سمعت بمثلها قط » .

(٤) هبروهما : قطعوا لحمهما ؛ تقول : هبرت اللحم إذا قطعته قطعاً .

(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

الكرش . قال : وفى يدى عَنَزَة[١] فأطعن بها فى عينه ووقع ، وأطؤه برجلى عَلَى خَدّه ، حتى أخرجت العَنَزَة متعقّفة ، وأخرجت حدقته ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله تلك العَنَزَة ، فكانت تحمل بين يديه ، ثم صارت تحمل بين يدى أبى بكر وعمر وعثمان[٢] .

قال الواقدىّ : وأقبل عاصم بن أبى عوف بن صُبَيرة السَّهمِىّ ، لما جال الناس واختلطوا ، وكأنه ذئب ، وهو يقول: يامعشرَ قريش ، عليكم بالقاطع مفرّق الجماعة، الآتى بما لا يعرف ، محمد ، لا نجوتُ إن نجا ! ويعترضه أبو دُجانة ، فاختلفا ضربتَين ، ويضربه أبو دجانة فقتله ، ووقف عَلَى سَلَبه يسلبه ، فمرّ به عمر بن الخطاب ، فقال : دع سَلَبه حتى يُجهِض[٣] العدوّ ، وأنا أشهد لك به[٤] .

قال الواقدىّ : ويقبل معبد بن وهب ، أحد بنى عامر بن لؤىّ ، فضرب أبا دُجانة ضربة بَرَكَ منها أبو دُجانة كما يبرك الجمل ، ثم انتهض ، وأقبل عَلَى معبد ، فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئا ، حتى يقع معبد بحفرة أمامه لا يراها ، ونزل أبو دُجانة عليه ، فذبحه ذبحاً ، وأخذ سلبه .

قال الواقدىّ : ولما كان يومئذ ، ورأت بنو مخزوم مقتل مَنْ قُتِل ، قالت: أبو الحكم! لا يخلص إليه ، فإنّ ابنَىْ ربيعة عجلا وبطرا : ولم تحام عنهما[٦] عشيرتهما . فاجتمعت بنو مخزوم ، فأحدقوا به ، فجعلوه [فى][٧] مثل الحرَجة ، وأجمعوا أن يلبسوا لأمة أبى جهل رجلًا منهم ، فألبسوها عبد الله بن المنذر بن أبى رفاعة ، فصمد له علىّ عليه السلام ، فقتله وهو يراه أبا جهل ، ومضى عنه وهو يقول : أنا ابن عبد المطلب ! ثم ألبسوها أباقيس بن

---

(١) العنزة : شبيه العكازة ، أطول من العصا وأقصر من الرمح ، لها زج من أسفلها .
(٢) مغازى الواقدى ٨٠ (٣) ا والواقدى : «يجهض» .
(٤) مغازى الواقدى ٨١ (٥) مغازى الواقدى ٨٠ ، ٨١ .
(٦) كذا فى ا ، وفى ب والواقدى : «عليهما» . (٧) من الواقدى .

الفاكه بن المغيرة ، فصمَد له حمزة وهو يراه أبا جهل ، فضربه فقتله وهو يقول : خذها وأنا ابن عبد المطلب ! ثم ألبسوها حرْملة بن عمرو ، فصمَد له عليّ عليه السلام فقتله ، ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعلم ، فأبى أن يلبسها ، قال معاذ بن عمرو بن الجموح : فنظرت يومئذ إلى أبي جَهْل في مثل الحَرَجَة ، وهم يقولون : أبو الحكم ! لا يخلص إليه ، فعرفت أنه هو ، فقلت : والله لأموتنّ دونه اليوم أو لأخلصنّ إليه ، فصمدت له ، حتى إذا أمكنتنى منه غِرّة حملت عليه ، فضربته ضربةً طرحت رجلَه من السّاق ، فشبّهتها النّواة تنزو من تحت المراضخ ، فأقبل ابنهُ عكرمة عليّ فضربني على عاتقي ، فطرح يدي من العاتق ، إلا أنه بقيت جلدة ، فذهبت أسحب يدِي بتلك الجلدة خلفِي ، فلما آذتني وضعت عليها رجلي ، ثم تمطيت عليها فقطعتها ، ثم لاقيت عِكْرِمة وهو يلوذ كلّ ملاذ، ولو كانَتْ يدي معي لرجوت يومئذ أن أصيبَه . ومات معاذ في زمن عثمان [1] .

قال الواقديّ : فروى أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله نفّل معاذ بن عمرو بن الجموح سيفَ أبي جهل ، وأنه عند آل معاذ بن عمرو اليوم وبه فلّ، بعد أن أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله إلى عكرمة بن أبي جهل ، يسأله : مَنْ قتل أباكَ ؟ قال : الذى قطعت يده ، فدفع رسول الله صلى الله عليه وآله سيفَه إلى معاذ بن عمرو، لأن عكرمة بن أبي جهل قطع يده يوم بدر [2] .

قال الواقديّ: وما كان بنو المغيرة يشكّون أن سيف أبي الحكَم صار إلى مُعاذ بن عمرو بن الجموح ، وأنه قاتله يوم بدر [2] .

قال الواقديّ : وقد سمعت في قتله وأخذ سَلَبه غير هذا؛ حدّثني عبدالحميد بن جعفر، عن عمر بن الحكم بن ثوبان ، عن عبدالرحمن بن عوف ؛ قال : عبّأنا رسول الله صلى الله عليه وآله بليل ؛ فأصبحنا ونحن على صُفوفنا ؛ فإذا بغلامَيْن ؛ ليس منهما واحد إلّا قد

---

(١) مغازى الواقدى ٨١ .

(٢) مغازى الواقدى ٨١ ، ٨٢ .

ربطت حمائل سيفه فى عنقه لصغره ، فالتفت إلىّ أحدهما ، فقال : ياعمّ ، أيّهم أبو جهل ؟ قال : قلت : وما تصنع به يابن أخى ؟ قال : بلغنى أنه يسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فحلفت : لئن رأيته لأقتلنه أو لأموتنّ دونه . فأشرت إليه ، فالتفت إلىّ الآخر، وقال لى مثل ذلك ، فأشرت له إليه ، وقلت له : من أنتما ؟ قالا : ابنا الحارث ، قال : فجعلا لا يطرفان عن أبى جهل ؛ حتى إذا كان القتال خَلَصا إليه فقتلاه وقتلهما (١) .

قال الواقدىّ : فحدّثنى محمد بن عوف ، عن إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت ، قال : لما كان يومئذ ، قال عبد الرحمن ، ونظر إليهما عن يمينه وعن شماله : ليته كان إلى جنبى مَنْ هو أبدن من هذين الصبيّين ! فلم أنشب أن التفتّ إلى عوف ، فقال : أيّهم أبو جهل ؟ فقلت : ذاك حيث ترى ، فخرج يعدو إليه كأنه سَبُع ، ولحقه أخوه ، فأنا أنظر إليهم يضطربون بالسيوف ؛ ثم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ بهم فى القتلى، وهما إلى جانب أبى جهل (٢) .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن رفاعة بن ثعلبة ، قال : سمعتُ أبى ينكر مايقول الناس فى ابنى عفْراء من صِغَرهما ، ويقول : كانا يوم بدر أصغرهما ابن خمس وثلاثين سنة، فهذا يربطُ حمائل سيفه ! قال الواقدىّ : والقول الأوّل أثبت (٣) .

وروى محمّد بن عمار بن ياسر ، عن رُبَيّع بنت معوّذ ، قالت : دخلتُ فى نسوةٍ من الأنصار على أسماء أمّ أبى جهل فى زمن عمر بن الخطاب ، وكان ابنها عبد الله بن أبى ربيعة يبعث إليها بعِطْرٍ من اليمن ، فكانت تبيعه إلى الأعطية ، فكنّا نشترى منها ، فلمّا جعلت لى فى قواريرى ، ووزنت لى كما وزنت لصواحبى ، قال : اكتبنّ لى عليكنّ حق ، قلت : نعم ، اكتب لها على الرّبيّع بنت معوذ ، فقالت : أسماء خلفى : وإنك

---

(١) مغازى الواقدى ٨٢ ، ٨٣ . (٢) مغازى الواقدى ٨٣ .
(٣) مغازى الواقدى ٨٣ .

لابنة قاتل سيده ! فقلت : لا ، ولـكن ابنة قاتل عبده ، فقالت: والله لا أبيعك شيئا أبدا، فقلت : أنا والله لا أشترى منك أبدا ، فوالله ماهو بطِيب ولا عَرْف؛ والله يابنىّ ماشممت عطرا قطّ كان أطيبَ منه ، ولـكنّى يابنىّ غضبت [١] .

قال الواقدىّ : فلما وضعت الحرب أوزارها ، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يلتمَس أبو جهل ، قال ابن مسعود : فوجدته فى آخر رَمَق ، فوضعت رجلى على عنقه ، فقلت : الحمدُ لله الذى أخزاك ! قال : إنما أخزى الله العبد ابن أمّ عَبْد ! لقد ارتقيتَ يارويعىّ الغنم مرتقى صعبا ! لمن الدَّبَرة ؟ قلت : لله ولرسوله ، قال ابن مسعود : فأقلع بيضتَه عن قفاه ، وقلت : إنى قاتلك ، قال : لستَ بأوّل عبد قتل سيّدَه ، أما إنّ أشدّ مالقيتُه اليوم لَقتلك إيّاى ؛ ألّا يكون وَلِىَ قتلى رجلٌ من الأحلاف أو من المطيّبين ! قال : فضربه عبد الله ضربةً وقع رأسه بين يديه ، ثم سلبه ، وأقبل بسلاحه ودِرْعه وبيضته ، فوضعها بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : أبشِرْ يانبىّ الله بقتل عدوّ الله أبى جهل! فقال رسول الله : أحقًّا ياعبد الله ! فوالّذى نفسى بيده لهو أحبُّ إلىّ من حُمْر النّعم ! أو كما قال . ثم قال : إنه أصابه جَحْش [٢] من دفعٍ دفعته فى مأدبة ابن جُدْعان ، فجحشت ركبتُه فالتمسوه ؟ فوجدوا ذلك الأثر [٣] .

قال الواقدىّ : وروى أنّ أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومىّ كان عند النبى صلى الله عليه وآله تلك السّاعة ، فوجَد فى نفسه، وأقبل على ابن مسعود، وقال : أنت قتلته ؟ قال: نعم ، الله قتله ! قال أبو سلمة : أنت وُلّيت قتله ؟ قال : نعم ، قال : لو شاء لجعلك فى كُمّه! فقال ابن مسعود : فقد والله قتلتُه وجرّدتُه؛ فقال أبو سلمة : فما علامته ؟ قال : شامة سوداء ببطن فخذه اليمنى ؛ فعرف أبو سلمة النّعْت ، فقال : أجرّدته ، ولم يجرّد قرشى غيره! فقال

---

(١) مغازى الواقدى ٨٤

(٢) الجحش : الخدش ، أو فوقه دون الجرح .

(٣) الواقدى ٨٤، ٨٥ .

ابن مسعود : إنه والله لم يكن فى قريش ولا فى حُلفائها أحدٌ أعدَى لله ولا لرسوله منه ؛ وما أعتذر من شىء صنعته به . فأمسك أبو سلمة (١) .

قال الواقدىّ : سُمع أبو سلَمَة بعد ذلك يستغفر الله من كلامه فى أبى جهل ، وقال : اللهمّ إنك قد أنجزت ما وعدتَنى ، فتمّم علىّ نعمتك . قال : وكان عبد الله بن عتبة بن مسعود ، يقول : سيف أبى جهل عندنا محلًّى بفضّة ، غنمه عبدالله بن مسعود يومئذ (١) .

قال الواقدىُّ : اجتمع قولُ أصحابنا أنّ معاذ بن عمرو وابنىْ عَفْراء أثبتوه ، وضرب ابن مسعود عنقَه فى آخر رَمق ، فكلّ شرِكَ فى قتله (١) .

قال الواقدىّ : وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وقف على مصرع ابنىْ عفراء ، فقال : يرحم الله ابنىْ عفْراء ؛ فإنهما قد شركا فى قتل فرْعون هذه الأمّة ، ورأس أئمة الكفر ، فقيل : يارسولَ الله ومَنْ قتله معهما ؟ قال : الملائكة ، وذفّف عليه ابن مسعود ؛ فكان قد شرك فى قتله (٢) .

قال الواقدىّ : وحدثنى معمر ، عن الزهرىّ ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله يوم بدر : اللهمّ اكفنى نوفل بن العدويّة ـ وهو نوفل بن خُويلد ، من بنى أسد بن عبد العُزّى ـ وأقبل نوفل يومئذ يصيحُ وهو مرعوب ، قد رأى قتل أصحابه ، وكان فى أوّل ما التقوْاهم والمسلمون ، يصيح بصوت له زَجَل ، رافعا عقيرته : يامعشر قريش ، إن هذا اليوم يوم العَلاء والرفعة . فلما رأى قريشا قد انكشفت جعل يصيح بالأنصار : ماحاجتكم إلى دمائنا ؟ أما ترون مَنْ تقتلون ؟ أمالكم فى اللبن من حاجة ! فأسره جَبّار بن صَخْر ، فهو يسوقه أمامه ، فجعل نوفل يقول لجبار ، ورأى عليا عليه السلام مقبلا نحوه : ياأخا الأنصار ، مَنْ هذا واللات والعزّى ! إنّى لأرى رجلًا ، إنه ليريدنى ! قال

---

(١) مغازى الواقدى ٨٥ .
(٢) مغازى الواقدى ٨٥ ، ٨٦ ، وذفف عليه ، أى أجهز على قتله .

جبار : هـذا على بن أبى طالب ، قال نوفل : تالله مارأيتُ كاليوم رجلاأسرع فى قومه! فصمَد له على عليه السلام فيضربه فينشب سيف علىٍّ فى حَجَفتـه [١] ساعة ، ثم ينزعه فيضرب به ساقيه ، ودِرْعه مشتمرة ، فيقطعها ، ثم أجهز عليه فقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : مَنْ له علم بنوفل بن خويلد ؟ قال علىّ عليه السلام : أنا قتلته ، فـكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : الحمد لله الذى أجاب دعوتى فيه [٢] .

قال الواقدىُّ : وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث للقتال ،فالتقى هو وعلىّ عليه السلام ، وقتله علىّ ، فـكان عمر بن الخطاب يقول لابنه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص: مالى أراكَ معرِضاً ، تظن أنّى قتلت أباك ! فقال سعيد : لو قتلتَه لـكان على الباطل وكنتَ على الحقّ ، قال : فقال عمر : إنّ قريشاً أعظم الناس أحلاما ، وأكثرها أمانة ، لايبغيهم أحدٌ الغوائلَ إلا كبّه الله لفيه [٣] .

قال الواقدىّ : وروى أنّ عمر قال لسعيد بن العاص : مالى أراك معرضا كأنى قتلت أباك يوم بدر ؛ وإن كنت لا أعتذر من قتل مشرك ، لقد قتلت خالى بيدى العاص بن هاشم بن المغيرة .

***

ونقلت من غير كتاب الواقدى أنّ عثمان بن عفان وسعيد بن العاص حضرا عنـد عمر فى أيام خلافته ، فجلس سعيد بن العاص حَجْرة [٤] فنظر إليه عمر ،فقال :مالى أراك مُعرِضاً كأنى قتلت أباك ! إنّى لم أقتله ، ولـكنه قتله أبو حسن ! وكان على عليه السلام حاضرا ، فقال : اللهمّ غَفْرا ! ذهب الشِّرْك بما فيه ، ومحا الإسلام ما قبله ؛ فلماذا تُهاجُ

---

(١) الحجفة : الترس
(٢) مغازى الواقدى ٨٦ .
(٣) مغازى الواقدى ٨٦ ، ٨٧ .
(٤) حجرة ؛ أى ناحية .

القلوب ! فسكت عمر ، وقال سعيد : لقد قتله كفء كريم ؛ وهو أحبّ إلىّ من أن يقتله من ليس من بنى عبد مناف .

قال الواقدىّ : وكان علىّ عليه السلام يحدّث ، فيقول : إنّى يومئذ بعد ما متع[1] النهار ، ونحن والمشركون قد اختلطت صفوفنا وصفوفهم ، خرجت فى إثر رجل منهم ، فإذا رجل من المشركين على كثيب رمل وسعد بن خَيثمة ، وهما يقتتلان حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة ، والمشرك مقنّع فى الحديد ، وكان فارسا ، فاقتحم عن فرسه ، فعرفنى وهو معلِم ، فنادانى : هلّم يابن أبى طالب إلى البراز ! فعطفت إلى البراز ، فعطفت عليه ، فانحطّ إلىّ مقبلا ، وكنت رجلا قصيراً ، فانحططت راجعا لكى ينزل إلىّ ، كرهت أن يعلونى ، فقال : يابن أبى طالب ، فررت ! فقلت : قريبا مفرّ ابن الشتراء . فلما استقرّت قدماى وثبتُّ أقبل فاتّقيتُ فلما دنا منى ضربنى بالدَّرقة ، فوقع سيفه ، فلحِج[2] فأضربه على عاتقه وهو دارع ، فارتعش ، ولقد قطّ سيفى درعَه ، فظننت أنّ سيفى سيقتله ، فإذا بريق سيف من ورائى ، فطأطأت رأسى ، ويقع السيف ، فأطنّ قِحْف رأسه بالبيضة ، وهو يقول : خذها وأنا ابن عبد المطلب ، فالتفتّ من ورائى ، فإذا هو حمزة عمّى[3] ، والمقتول طُعيمة ابن عدىّ[4] .

***

قلت : فى رواية محمد بن إسحاق بن يسار أنّ طُعَيمة بن عـدىّ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ثم قال : وقيل : قتله حمزة[5] .

وفى رواية الشِّيعة قتله علىّ بن أبى طالب ، شَجَره بالرمح ، فقال له : والله لاتخاصمنا فى الله بعد اليوم أبدا ؛ وهكذا روى محمد بن إسحاق .

(١) الواقدى : « ارتفع » .
(٢) الواقدى : يعنى « لزم » .
(٣) الواقدى : « حمزة بن عبد المطلب » .
(٤) مغازى الواقدى ٨٧ .
(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٧ .

وروى محمد بن إسحاق قال: وخرج النبي صلى الله عليه وآله من العريش إلى الناس ينظر القتال ، فحرّض المسلمين وقال : كلّ امرئ بما أصاب ، وقال : والّذي نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فى جملة ، فيقتل صابراً محتسبا مقبلًا غير مدبر ، إلّا أدخله الله الجنة . فقال عُمَير بن الُحمام أخو بنى سَلِمة ، وفى يده تمَرَات يأكلهنّ : بخ بخ ! فمابينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يَقتُلَنى هؤلاء ! ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قُتل(١) .

قال محمد بن إسحاق :وحدّثنى عاصم بن عمرو بن قتادة أنّ عوف بن الحارث ـ وهو ابن عفراء ـ قال لرسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر: يارسول الله ، مايُضحِكُ الرّب من عبده ؟ قال : غمسه يده فى العدوّ حاسرا . فنزع عوف درعا كانت عليه وقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتِل(٢) .

قال الواقدىّ وابن إسحاق : وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله كفًا من البَطْحاء، فرماهم بها ، وقال : شاهت الوجوه(٣) ! اللهمّ أرعب قلوبهم ، وزلزلْ أقدامهم . فانهزم المشركون لايلوُون على شىء ، والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون(٢) .

قال الواقدىّ : وكان هبيرة بن أبى وهب المخزومىّ لما رأى الهزيمة انخزل ظهره فعُقر ، فلم يستطع أن يقوم، فأتاه أبو أسامة الجشمىّ حليفُه ، ففتق درعه واحتمله ـ ويقال: ضربه أبو داود المازنىّ بالسّيف فقطع درعه، ووقع لوجهه ، وأخلد إلى الأرض ، وجاوزه أبو داود وبصُر به ابنا زهير الجشميان مالك ، وأبو أُسامة ، وهما حليفاه ، فذبّا عنه حتى نجوَا به ، واحتمله أبو أسامة ومالك يذبّ عنه ، حتى خلّصاه . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : حماه كلباه الحليفان(٤) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٨ . (٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٨ .
(٣) بعدها فى ابن هشام : « ثم بعجهم بها » . (٤) مغازى الواقدى ٨٩ مع اختلاف فى الرواية .

قال الواقدىّ : وحدثنى عمر بن عثمان عن عُكّاشة بن محصن ، قال : انقطع سيفى يوم بدر ، فأعطانى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عوداً ، فإذا هو سيف أبيض طويل ، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين ، ولم يزل ذلك السيف عند عُكّاشة حتى هلك .

قال : وقد روى رجالٌ من بنى عبد الأشهل عدّة ، قالوا : انكسر سيف سلَمة بن أسلم[١] بن حريش[٢] يوم بدر ، فبقى أعزل لا سلاح معه ، فأعطاه رسول الله صلّى الله عليه وآله قضيباً كان فى يده من عراجين ابن طاب[٣] ، فقال : اضرب به ، فإذا هو سيف جيّد ، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبى عبيد[٤] .

قال الواقدىّ : وأصاب حارثة بن سُراقة ، وهو يكْرَع فى الحوض سهمٌ غَرَبٌ[٥] من المشركين فوقع فى نحره ، فمات ، فلقد شرب القوم آخرَ النهار من دمه ؛ وبلغ أمّه وأختَه ـ وهما بالمدينة مقتله ـ فقالت أمّه : والله لا أبكى عليه ؛ حتى يقدم رسول الله صلى الله عليه وآله فأسأله ، فإن كان فى الجنّة لم أبك عليه ، وإن كان فى النّار بكيته لَعَمْرُ الله فأعولْتُه ! فلمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله من بدْر جاءت أمّه إليه ، فقالت : يا رسول الله ، قد عرفت موضع حارثة فى قلبى ، فأردت أن أبكىَ عليه ، ثم قلت : لا أفعلُ حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وآله عنه ؛ فإن كان فى الجنّة لم أبكِه ، وإن كان فى النار بكيتُه فأعولته ! فقال النبى صلى الله عليه وآله : « هُبِلْتِ : أجنّة واحدة ! إنها جنان كثيرة ، والذى نفسى بيده إنه لفى الفردوس الأعلى » ، قالت : فلا أبكى عليه أبدا .

قال الواقدىّ : ودعا رسولُ الله صلى الله عليه وآله حينئذ بماء فى إناء ، فغمس يده فيه ومضمض فاه ، ثم ناول أمّ حارثة بن سراقة ، فشربت ثم ناولت ابنتها فشربت ،

---

(١) ب : « أشهل » ، وصوابه من ا والواقدى وابن هشام .
(٢) ا : « جريش » ، والصواب ما فى ب والواقدى .
(٣) فى اللسان : « عذق ابن طالب نخلة بالمدينة ، وقيل : ابن طاب ضرب من الرطب هنا لك » .
(٤) مغازى الواقدى ٨٨ . (٥) سهم غرب على الوصف : لا يدرى راميه .

ثم أمرها فنضحتا فى جيوبهما ، ثم رجعنا من عند النبىّ صلى الله عليه وآله ، وما بالمدينة امرأتان أقرّ عينا منهما ولا أسرّ [١] .

قال الواقدىّ : وكان حكيم بن حزام يقول : انهزمنا يوم بدر ، فجعلت أسعى وأقول : قاتل الله ابن الحنظليّة ! يزعم أن النهار قد ذهب ، والله إن النهار لكما هو ؛ قال حكيم : وما ذا بى إلا حبًّا أن يأتىَ الليلُ فيقصّر عنا طلب القوم ، فيدرك حكيم عبيد الله وعبد الرحمن بنى العوام على جمل لهما ، فقال عبد الرحمن لأخيه : انزل فاحمل أبا خالد ، وكان عُبيد الله رجلاً أعرج ، لا رُجْلة [٢] به ، فقال عبيد الله : إنه لا رُجْلة بى كما ترى ؛ وقال عبد الرحمن : والله أن منه لا بدّ . ألا نحمل رجلاً ، إن متنا كفانا ما خلفنا من عيالنا ، وإن عشنا حملنا كلّنا ! فنزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج ، فحملاه ، فكانوا يتعاقبون الجمل ، فلما دنا من مكة وكان بمرّ الظَّهْران ، قال : والله لقد رأيتُ ها هنا أمرا ما كان يخرج على مثله أحد له رأى ، ولكنه شؤم ابن الحنظليّة ! إنّ جزورا نحرت ها هنا فلم يبق خباء إلّا أصابه من دمها . فقالا : قد رأينا ذلك ؛ ولكن رأيناك وقومك قد مضيتم فمضينا معكم ، ولم يكن لنا معكم أمر .

قال الواقدىّ : فحدّثنى عبد الرحمن بن الحارث عن مخلد بن خفاف ، عن أبيه ، قال : كانت الدّروع فى قريش كثيرة يومئذ ؛ فلمّا انهزموا جعلوا يلقونها ، وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقطون ما طرحوا ، ولقد رأيتُنى يومئذ التقطت ثلاث أدرع جئت بها أهلى ، فكانت عندنا بعد ، فزعم لى رجلٌ من قريش — ورأى دِرْعاً منها عندنا فعرفها — قال : هذه درْع الحارث بن هشام [٣] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن حميد ، عن عبد الله بن عمرو بن أميّة ، قال : أخبرنى من انكشف من قريش يومئذ منهزما ، وإنه ليقول فى نفسه ، ما رأيتُ مثل هذا فرّ منه إلّا النساء [٤] !

---

(١) مغازى الواقدى ٨٨ .

(٢) الرجلة ؛ بالضم : القوة على المشى .

(٣) مغازى الواقدى ٨٩ ، ٩٠ .

(٤) مغازى الواقدى ٩٠ .

قال الواقدى : كان قَبَاث بن أشْيَم الكنانىّ يقول : شهدت مع المشركين بدراً ، وإنى لأنظر إلى قلّة أصحاب محمد فى عينى ، وكثرة مَنْ معنا من الخيل والرَّجْل ، فانهزمتُ فيمن انهزم، فلقد رأيتنى وإنّى لأنظر إلى المشركين فى كلّ وجه ، وإنى لأقول فى نفسى: مارأيت مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء ! وصاحبنى رجل ، فبينا هو يسير معى إذ لحقنا من خلْفنا ، فقلت لصاحبي : أبِكَ نهوض ؟ قال : لا والله مابى ! قال وعُقِر وترفعت ، فلقد صبّحت غَيْقَة ـ قال :وغَيْقَةُ عن يسار السّقيا بينهاوبين الفُرع ليلة وبين الفُرع والمدينة ثمانية بُرُد ـ قبل الشمس ؛ كنت هاديا بالطريق ؛ ولم أسلك المحاجّ[1]،وخفت من الطّلَب فتنكّبت عنها ، فلقيَنى رجل من قومى بغيقَة ، فقال : ماوراءك ؟ قلت : لاشىء ؟قُتِلْنَا وأسِرنا وانهزمنا ، فهل عندك من حُملان ؟ قال : فحملنى على بعير ، وزوّدنى زاداً ، حتى لقيت الطريق بالجحفة ، ثم مضيت حتى دخلت مكّة ؛ وإنى لأنظر إلى الحَيْسمان بن حابس الخزاعى بالغَمِيم ، فعرفت أنه تقدم ينعَى قريشا بمكة ، فلو أردت أن أسبقه لسبقته، فتنكّبت[2] عنه حتى سبقنى ببعض النهار ،فقدمت وقدانتهى إلى مكة خبر قتلاهم،وهم يلعنون الخزاعىّ ، ويقولون : ماجاءنا بخير ! فمكثت بمكّة ، فلما كان بعد الخندق ، قلت : لو قدمت المدينة ، فنظرت مايقول محمد ! وقد وقع فى قلبى الإسلام ، فقدمت المدينة ، فسألت عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا : هو ذاك فى ظلّ المسجد مع ملأ من أصحابه ، فأتيته وأنا لاأعرفه من بينهم ، فسلّمت فقال : ياقَبَاث بن أشيم ، أنت القائل يوم بدر : مارأيت مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء ! قلت : أشهدأنك رسول الله ، وأنّ هذا الأمر ماخرج منّى إلى أحد قطّ وما ترمرمت[3] به ؛ إلا شيئاحدّثت به نفسى ، فلولاأنك نبىّ ماأطلعك الله عليه ؛هلم حتى أبايعك فأسلمت[4] .

---

(١) الواقدى : « المحاج » .
(٢) ب . « فنكبت » ، وأثبت ما فى الواقدى .
(٣) ما ترمرمت به ؛ أى ما نطقت به .
(٤) مغازى الواقدى ٩٠ ، ٩١ .

قال الواقدىّ : وقد روى أنه لما توجّه المشركون إلى بدر كان فتيان ممن تخلف عنهم بمكة سمّارا يسمرون بذى طُوًى فى القمر حتى يذهب الليل ، يتناشدون الأشعار ويتحدّثون ، فبيناهم كذلك إذ سمعوا صوتا قريبا منهم ولا يرون القائل ، رافعا صوته يتغنّى :

أزاد الحنيفيُّون بدراً مصيبة ... سينقضّ منها ركنُ كِسْرى وقَيْصَرَا

أرنّت لها صُمّ الجبال وأفزعتْ ... قبائل مابين الوَتِير فخَيْبَرَا[١]

أجازت جبال الأخشبيْن وجُرِّدتْ ... حرائرُ يضربن التّرائبَ حُسّرا[٢]

قال الواقدىّ : أنشدَنيه[٣] ، ورواه لى عبد الله بن أبى عُبيدة ، عن محمّد بن عمّار بن ياسر ، قال : فاستمعوا الصّوت ، فلا يروْن أحداً ، فخرجوا فى طلبه ، فلم يروْا أحداً، فخرجوا فزِعين ، حتى جازوا الحِجْر ، فوجدوا مشيخةً منهم جِلّةً سمّارا ، فأخبروهم الخبر ، فقالوا لهم : إنْ كان ماتقولون ، فإنّ محمدا وأصحابه يسمّوْن الحنيفيّة . قال : فلم يبقَ أحدٌ من الفتيان الّذين كانوا بذى طوًى إلا وَعِك ، فما مكثوا إلّا ليلتين أو ثلاثا ، حتى قدم الحَيْسُمان[٤] الخزاعىّ بخبر أهل بَدْر ، ومن قتل منهم ، فجعل يخبرهم ، فيقول : قتِل عُتبة وشَيْبة ابنا ربيعة ، وقتِل ابنا الحجاج وأبو البخترىّ ، وزمْعة بن الأسود — قال : وصفوان بن أمية فى الحِجْر جالس يقول : لايعقل هذا شيئاً مما يتكلّم به ! سلوه عنّى ، فقالوا : صفوان بن أميّة لك به علم؟ قال : نعم ، هو ذاك فى الحِجْر ، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولَيْن ، ورأيت سُهيل بن عمرو والنّضر بن الحارث أسيريْن ، رأيتهما مقرونيْن فى الحبال[٥] .

---

(١) كذا فى ا والواقدى ، وفى ب : « وخيبرا » .

(٢) كذا فى ا ، وفى ب : « التراب وحسرا » .

(٣) الواقدى : « أنشدنى » .

(٤) فى الأصول : « الحيثان » ؛ والثواب ما أثبته من الواقدى والبلاذرى وابن هشام والطبرى .

(٥) مغازى الواقدى ١١٤ .

قال الواقدىّ : وبلغ النجاشىَّ مقتلُ قريش وما ظفّر الله به [١] رسوله ، فخرج فى ثوبيْن أبيضين ، ثم جلس على الأرض ، ودعا جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، فقال: أيّكم يعرف [٢] بدراً ؟ فأخبروه ، فقال : أنا عارف بها ، قد رعيتُ الغنم [فى] [٣] جوانبها، هى من الساحل على بعض نهار ، ولكنى أردتُ أن أتثبّت منكم ، قد نصر الله رسوله ببدر ، فاحمَدوا الله على ذلك . فقال بطارقته : أصلح الله الملك ! إن هذا شىء لم تكن تصنعه ، يريدون لبسَ البياض والجلوس على الأرض ، فقال : إن عيسى بن مريم كان إذا حدثَتْ له نعمة ازداد بها تواضعا [٤] .

قال الواقدىّ : فلمّا رجعت قريش إلى مكّة ، قام فيهم أبو سفيان بن حرْب ، فقال : يامعشرَ قريش ، لا تبكوا على قتلاكم ،ولا تنحْ عليهم نائحة ، ولا يندبهم شاعر،وأظهِروا الجلد والعزَاء ، فإنكم إذا نُحتم عليهم وبكيتموهم بالشّعر أذهب ذلك غيظكم فأكلّكم [ذلك] [٥] عن عداوة محمد وأصحابه ، مع أن محمدا إن بلغه وأصحابه ذلك شمتوا بكم ، فتكون أعظم المصيبتيْن ، ولعلّكم تدركون ثأركم ، فالدّهن والنساء علىّ حرام حتى أغزو محمدا . فمكثتْ قريش شهرا لا يبكيهم شاعر ، ولا تنوح عليهم نائحة .

قال الواقدىّ : وكان الأسود بن المطلب قد ذهب بصره ، وقد كَمِد على مَنْ قتل من ولده ، وكان يحبّ أن يبكى عليهم فتأبى عليه قريش ذلك ، فكان يقول لغلامه بين اليومين: ويلك ! احمل معى خمرا،واسلك بى الفجّ الذى سلكه أبو حَكِيمة — يعنى زمْعة ولده المقتول ببدر — فيأتى به غلامه على الطريق عند ذلك الفجّ فيجلس ، فيسقيه الخمر

---

(١) الواقدى : « نبيه » . (٢) الواقدى : « أين بدر » . (٣) من ا والواقدى .

(٤) الواقدى : ١١٥ « تلبس ثوبين وتجلس على الأرض ؟ فقال : إنى من قوم إذا أحدث الله لهم نعمة ازدادوا بها تواضعاً . ويقال : إنه قال : إن عيسى بن مريم عليه السلام كان إذا حدثت له نعمة ازداد بها تواضعاً » . والخبر فى الواقدى ١١٤ .

(٥) من الواقدى ١١٥ .

حتى ينتشى ، ثم يبكى على أبى حَكِيمة وإخوته ، ثم يحثى التراب على رأسه ، ويقول لغلامه : ويحك ! اكتم علىّ ، فإنى أكره أن تعلم بى قريش ، إنى أراها لم تجمع البكاء على قتلاها (١) .

قال الواقدى : حدثنى مصعب بن ثابت عن عيسى بن معمر ، عن عبّاد بن عبد الله ابن الزبير ، عن عائشة قالت : قالت قريش حين رجعوا إلى مكة : لا تبكُوا على قتلاكم، فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم،ولا تبعثوا فى أسراكم،فيأرب (٢) بكم القوم ، ألا فأمسكوا عن البكاء .

قال : وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده : زمْعة وعُقَيْل والحارث بن زَمْعة ، فكان يحبّ أن يبكى على قتلاه ، فبينا هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلامه — وقد ذهب بصره — : انظر،هل بكت قريش على قتلاها ! لعلّى أبكى على أبى حَكِيمة — يعنى زَمْعة — فإنّ جوفى قد احترق ، فذهب الغلام ورجع إليه ، فقال : إنما هى امرأة تبكى على بعيرها قد أضلّته ، فقال الأسود :

تبكّى أن يضلّ لها بعيرٌ … ويمنعها من النوم السهودُ (٣)
فلا تبكى على بَكْرٍ ولكن … على بَكْرٍ تصاغرت الخدُود (٤)
فبكّى إن بكيت على عقِيلٍ … وبكّى حارثا أسَد الأسودِ
وبكّيهم ولا تَسمِى جميعاً (٥) … فما لأبى حَكيمةَ من نَدِيدِ

---

(١) مغازى الواقدى ١١٤ .
(٢) فيأرب : فيشتد .
(٣) الخبر والشعر — مع اختلاف الرواية — فى سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩١ ، والشعر أيضاً فى ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٢ : ٨٧٢ .
(٤) الحماسة : « تقاصرت الجدود ، قال المرزوقى : « هو تفاعل من القصور والعجز ؛ لا القصر الذى هو ضد الطول ، وفى الواقدى عن هشام : سمعت أبى ينشد « تصاغرت الخدود » ، ولا ينكر « الخدود » .
(٥) لا تسمى ، لا تسأمى .

على بدر سَراة بنى هُصيصٍ وَمخزوم ورهط أبى الوليد
ألَا قد سادَ بعدهمُ رجالٌ ولولا يومُ بدرٍ لم يسودُوا

قال الواقدىّ : ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة ، فقلن : ألا تبكِين عَلَى أبيك وأخيك وعمّك وأهل بيتك ! فقالت : حَلّأنى(١) أنْ أبكيَهم ، فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمَتوا بنا ونساء بنى الخزرج ، لا والله حتى أثأر محمدا وأصحابه ، والدّهن علىّ حرام إن دخل رأسى حتى نغزُوَ محمدا ! والله لو أعلم أنّ الحزن يذهب عن قلبى لبكيتُ ، ولكن لا يذهبه إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتلة الأحبّة ، فمكثت عَلَى حالها لا تقرب الدّهن ، ولا قربت فراش أبى سفيان من يوم حلفتْ حتّى كانت وقعة أحُد(٢) .

قال الواقدىّ : وبلغ نوفل بن معاوية الدّيلىّ وهو فى أهله ـ وقد كان شهد معهم بدرا ـ أنّ قريشا بكتْ على قتلاها؛ فقدم مكة ، فقال : يامعشرَ قريش ، لقد خفّت أحلامكم، وسفِه رأيكم ، وأطعتم نساءكم ، أمثل قتلاكم يبكَى عليهم ! همْ أجلّ من البكاء ، مع أنّ ذلك يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه ، فلا ينبغى أن يذهب الغيظ عنكم ، إلّا أن تدركوا ثأرَكم من عدوّكم . فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه ، فقال : ياأبامعاوية ، غُلبت، والله ماناحت امرأة من بنى عبد شمس على قتيل لها إلى اليوم ، ولا بكاهم شاعر إلانهيتُه حتى ندركَ ثأرنا من محمد وأصحابه ، وإنى لأنا الموتور الثائر ، قتِل ابنى حنظلة، وسادة أهل هذا الوادى ؛ أصبح هذا الوادى مقشعرًا لفقدهم(٣) !

قال الواقدىّ : وحدّثنى معاذ بن محمد الأنصارىّ ، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: لما رجع المشركون إلى مكّة ،وقد قتل صناديدهم وأشرافهم ، أقبل عمير بن وهب بن عمير الُجمَحىّ حتى جلس إلى صفوان بن أمية فى الحِجْر ، فقال صفوان بن أمية : قُبِّح العيش

---

(١) حلأنى : منعنى .
(٢) مغازى الواقدى ١١٦ ، ١١٧ .
(٣) مغازى الواقدى ١١٨ .

بعد قتلَى بدر ! قال عمير بن وهب : أجل والله ، مافى العيش بعدهم خيرٌ ، ولولا دينٌ علىّ لا أجد له قضاء ، وعيال لا أدَع لهم شيئاً ، لرحلتُ إلى محمد حتى أقتلَه إن ملأتُ عينى منه ؛ فإنّه بلَغنى أنه يطوف فى الأسواق ، فإنّ لى عندهم علّة ، أقول : قدمت على ابنى هـذا الأسير . ففرح صفوان بقوله ، وقال : ياأبا أميّة ، وهل نراك فاعلا ؟ قال : إى وربّ هذه البنيّة ! قال صفوان : فعلىّ دينُك ، وعيالك أسوة عيالى ، فأنت تعلم أنه ليس بمكّة رجل أشدّ توسّعا على عياله منّى . قال عمير : قد عرفت ذلك ياأبا وهب ، قال صفوان : فإنّ عيالك مع عيالى ، لا يسعنى شىء ونَعجز عنهم ، ودينك علىّ . فحمله صفوان على بعيره ، وجهّزه وأجرى على عياله مثل مايجرى على عيال نفسه ، وأمر عمير بسيفه فشحِذ وسمّ ، ثم خرج إلى المدينة ، وقال لصفوان : اكتم علىّ أياماً حتّى أقدمها ، وخرج فلم يذكره صفوان ، وقدم عُمير ، فنزل على باب المسجد ، وعقَل راحلته ، وأخذ السيف فتقلّده ، ثم عَمَد نحو رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعمر بن الخطاب فى نفرٍ من المسلمين يتحدّثون[1] ، ويذكرون نعمةَ الله عليهم فى بَدْر ، فرأى عميرا وعليه السّيف ، ففزع عمر منه ، وقال لأصحابه : دونـكم الـكلب ! هـذا عمير بن وهب عدوّ الله الذى حَرّش بيننا يوم بدر ، وحزرنا للقوم ؛ وصعّد فينا وصوّب ؛ يخبر قريشاً أنه لا عدد لنا ولا كمين. فقاموا إليه فأخذوه ، فانطلق عمر إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يارسولَ الله ؛ هذا عمير بن وهْب ، قد دخل المسجد ومعه السّلاح ، وهو الغادر الخبيث الذى لا يؤمَن على شىء ، فقال النّبىّ صلّى الله عليه وآله : أدخِلْه علىّ ، فخرج عمر فأخذ بحمائل سيفه ، فقبض بيده عليها ، وأخذ بيده الأخرى قائم السيف ، ثم أدخله عَلَى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا رآه ، قال : ياعمر ، تأخّر عنه ، فلما دنا عمير إلى النبى صلى الله عليه وآله قال : أنعِم صباحا ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وآله : قد أكرمنا الله عن تحيّتك ، وجعل تحيّتنا السّلام ، وهى تحيّة أهل الجنّة . قال عمير : إنّ عهدك بها لحديث ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله : قد أبدلنا

---

(١) الواقدى : « فنظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو فى نفر من أصحابه يتحدثون » .

الله خيرا ، فما أقدمك يا عمير ؟ قال : قدمت فى أسيرى عندكم تفادونه وتقاربوننا فيه ، فإنكم العشيرة والأصل ! قال النبيّ صلى الله عليه وآله : فما بالُ السيف ! قال عمير : قبحها الله من سيوف ! وهل أغنتْ من شيء ! إنما نسيته حين نزلت وهو فى رقبتى ، ولعمرى إنّ لى لهمًّا غيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اصدق يا عمير ، ما الذى أقدمك ؟ قال: ماقدمت إلّا فى أسيرِى ، قال صلى الله عليه وآله : فما شرطتَ لصفوان بن أميّة فى الحِجْر ؟ ففزع عمير ، وقال : ماذا شرطتُ له ؟ قال : تحمّلْتَ بقتلِى ، على أن يقضىَ دينَك ، ويعول عيالَك ، والله حائل بينك وبين ذلك ! قال عمير : أشهد أنك صادق ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، كنّا يا رسول الله نكذّبك بالوحى ، وبما يأتيك من السماء ، وإن هذا الحديث كان بينى وبين صفوان كما قلت ، لم يطّلع عليه غيره وغيرى ، وقد أمرتُه أن يكتمه[1] ليالى ، فأطلعك الله عليه ، فآمنت بالله ورسوله ، وشهدت أنّ ما جئتَ به حقّ . الحمد لله الذى ساقنى هذا المساق ! وفرح المسلمون حين هداه الله ، وقال عمر بن الخطاب : لخنزيرٌ كان أحبّ إلىّ منه حين طلع ، وهو الساعة أحبّ إلىّ من بعض ولدِى . وقال النبى صلى الله عليه وآله : « علّموا أخاكم القرآن ، وأطلِقوا له أسيرَه » ، فقال عمير : يا رسول الله ، إنّى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، فلله الحمد أن هدانى ، فأْذنْ لى فألحق قريشا فأدعوَهم إلى الله وإلى الإسلام ، فلعل الله يهديهم ويستنقذهم من الهلكة ، فأذن له فخرج ، فلحق بمكة . وكان صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكبٍ يقدم من المدينة ، يقول : هل حدَث بالمدينة من حدث ؟ ويقول لقريش : أبشروا بوقعةٍ تنسيكم وَقْعة بدر ، فقدم رجل من المدينة ، فسأله صفوان عن عمير ، فقال : أسلَم ، فلعنه صفوان ولعنه المشركون بمكة ، وقالوا : صَبأ عميْر ، وحلف صفوان ألّا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه ، وطرح عياله . وقدم عمير ، فنزل فى أهله ، ولم يأتِ صفوان ، وأظهر الإسلام ، فبلغ صفوانَ . فقال : قد عرفت حين لم يبدأ بى قبل منزله ، وقد كان رجل

(١) ا : « يكتم عنى » .

أخبرنى أنه ارتكس ، لا أكلّمه من رأسى أبدا ، ولا أنفعه ولا عياله بنافعةٍ أبدا ، فوقع عليه عُمَير وهو فى الحِجْر فقال : يا أبا وهْب . فأعرض صفوان عنه ، فقال عمير : أنت سيّد من ساداتنا ، أرأيت الذى كنّا عليه من عبادة حَجَر ، والذبح له ! أهذا دين ! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده وسوله . فلم يجبه صَفْوان بكلمة ، وأسلم مع عمير بشر كثير(١) .

قال الواقدىّ : وكان فِتيةٌ من قريش خمسة قد أسلموا ، فاحتبسهم آباؤهم ، فخرجوا مع أهلهم وقومهم إلى بدر ، وهم على الشكّ والارتياب ، لم يخلِصوا إسلامهم ؛ وهم : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زَمْعة بن الأسود ، وعلىّ بن أميّة بن خلف ، والعاص بن منبّه بن الحجاج ، فلما قدموا بدراً ورأوا قلّة أصحاب النبى صلى الله عليه وآله ، قالوا : غرّ هؤلاء دينهم ، ففيهم أنزل : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤلاء دِينُهُمْ ﴾ (٢) ، ثم أنزل فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا . . . ﴾ (٣) إلى تمام ثلاث آيات (٤) .

قال : فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى من أقام بمكة مسلِما ، فقال جندب بن ضمرة الخزاعىّ : لا عذر لى ولا حجّة فى مقامى بمكة ــ وكان مريضاً ــ فقال لأهله : أخرجونى ، لعلى أجد رَوْحاً ! قالوا : أىّ وجهٍ أحبّ إليك ؟ قال : نعم التنعيم ! فخرجوا به إلى التنعيم ، وبين التنعيم ومكة أربعة أميال من طريق المدينة ــ فقال : اللهمّ إنى خرجت إليك مهاجرا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ (٥) الآية ، فلمّا رأى ذلك مَنْ كان بمكة مِمن يطيق الخروجَ ، خرجوا فطلبهم أبو سفيان فى رجال من المشركين ،

---

(١) مغازى الواقدى ١١٧ ــ ١٢٣
(٢) سورة الأنفال ٤٩ .
(٣) سورة النساء ٩٧ وما بعدها .
(٤) مغازى الواقدى ٦٧ .
(٥) سورة النساء ١٠٠ .

فردُّوهم وسجنوهم ، فافتتن منهم ناس ، وكان الذين افتتنوا إنّما افتتنوا حين أصابهم البلاء فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ ... ﴾ (١) الآية وما بعدها. فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى مَنْ كان بمكّة مسلما ، فلما جاءهم الكتاب بما أنزل فيهم ، قالوا : اللهمّ إنّ لك علينا إن أفلتنا ألّا نعدل بك أحدا ، فخرجوا الثانية ، فطلبهم أبو سفيان والمشركون ، فأعجزوهم هرباً فى الجبال ، حتى قدِموا المدينة ، واشتدّ البلاء على مَنْ ردُّوا من المسلمين ، فضربوهم وآذوهم وأكرهوهم على ترك الإسلام ، ورجع ابن أبى سَرْح مشركا ، فقال لقريش :ما كان يعلّم محمدا إلا ابن قمطة (٢) ، عبد نصرانىّ ، لقد كنت أكتب له فأحوّل ما أردت ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (٣) . . . ﴾ الآية (٤) .

* * *

القول فى نزول الملائكة يوم بدر ومحاربتها المشركين

اختلف المسلمون فى ذلك ، فقال الجمهور منهم : نزلت الملائكة حقيقة ، كما ينزل الحيوان والحجر من الموضع العالى إلى الموضع السافل .

وقال قوم من أصحاب المعانى غير ذلك .

واختلف أرباب القول الأوّل ، فقال الأكثرون : نزلت وحاربت ،وقال قوم منهم: نزلت ولم تحارب ، وروَى كلّ قومٍ فى نُصْرة قولهم روايات .

فقال الواقدىّ فى كتاب " المغازى " : حدّثنى عمر بن عُقْبة ، عن شُعبة مولى ابن عباس ، قال : سمعت ابن عباس يقول : لما تواقف النّاس أُغْمِيَ على رسول الله صلى

---

(١) سورة العنكبوت ١٠ .
(٢) كذا فى الأصول ومغازى الواقدى ، وفى تفسير القرطبي ١٠ : ١٧٧ ، اسمه جبر، وقيل سمه يعيش .
(٣) سورة النحل ١٠٣ .
(٤) مغازى الواقدى ٦٧ .

صلى الله عليه وآله ساعة ، ثم كشف عنه فبشّر المؤمنين بجبرائيل فى جُنْد من الملائكة فى ميمنة الناس ، وميكائيل فى جند آخر فى ميسرة الناس ، وإسرافيل فى جند آخر فى ألف ، وكان إبليس قد تصور للمشركين فى صورة سُراقة بن جعشم المدلجىّ ، يذمر المشركين ، ويخبرهم أنه لاغالب لهم من الناس ، فلما أبصر عدوّ الله الملائكة نكص على عقبيه ، وقال : ﴿ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرَى مَالَا تَرَوْنَ ﴾ ، فتشبّث به الحارث بن هشام ، وهو يرى أنه سُراقة لما سمع من كلامه ، فضرب فى صدر الحارث ، فسقط الحارث ، وانطلق إبليس لايرى حتى وقع فى البحر ، ورفع يديه قائلا : يارب موعدك الذى وعدتَنى ! وأقبل أبو جهل على أصحابه يحضّهم على القتال وقال : لايغرّنكم خذلان سراقة بن جعشم إيّاكم ، فإنما كان على ميعاد من محمد وأصحابه ، سيعلم إذا رجعنا إلى قُدَيد مانصنع بقومه ! ولا يهولنّكم مقتل عُتْبة وشيبة والوليد ، فإنهم عجلوا وبطروا حين قاتلوا ، وايمُ الله لانرجع اليوم حتى نقرن محمدا وأصحابه فى الحبال ، فلا ألفينّ أحدا منكم قتل منهم أحدا ، ولكن خذوهم أخذاً نعرّفهم بالذى صنعوا ، لمفارقتهم دينكم ورغبتهم عمّا كان يعبد آباؤهم .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عتبة بن يحيى ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع ، عن أبيه ، قال : إن كنا لنسمع لإبليس يومئذ خُواراً ودعاء بالثُّبور والويل ، وتصوّر فى صورة سراقة ابن جعشم حتى هرب ، فاقتحم البحر ، ورفع يديه مادًّا لهما ، يقول : ياربّ ماوعدتنى ! ولقد كانت قريش بعد ذلك تعيّر سراقة بما صنع يومئذ ، فيقول : والله ماصنعت شيئا !

قال الواقدىّ : فحدثنى أبو إسحاق الأسلمىّ ، عن الحسن بن عبيد الله ، مولى بنى العباس ، عن عمارة الليثىّ ، قال : حدّثنى شيخٌ صيّاد من الحىّ ـ وكان يومئذ على ساحل البحر ـ قال : سمعت صياحاً : ياويلاه ! ياويلاه ! قد ملأ الوادى : ياحرباه ياحرباه ! فنظرتُ فإذا سراقة بن جعشم ، فدنوت منه ، فقلت : مالك فداك أبى وأمى ! فلم يَرجع إلىّ شيئاً ، ثم أراه اقتحم البحر ، ورفع يديه مادًّا ، يقول : ياربّ ماوعدتَنى ! فقلت

فى نفسى : جُنّ وبيت الله سراقة ! وذلك حين زاغت الشمس ، وذلك عند انهزامهم يوم بدر (١) .

قال الواقدىّ :قالوا: كانت سيماء الملائكة عمائم قد أرخوْها بين أكتافهم ، خضراء وصفراء وحمراء من نور ، والصوف فى نواصى خيلهم .

قال الواقدىّ : حدّثنى محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمر ، عن محمود بن لبيد ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : «إن الملائكة قد سوّمت فسوّموا» ، فأعلم المسلمون بالصُّوف فى مغافِرهم وقلانسهم (٢) .

قال الواقدىّ : حدثنى محمد بن صالح قال : كان أربعة من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يعلِمُون (٣) فى الزُّحوف : حمزة بن عبد المطلب كان يوم بدر معلِما بريشة نعامة ، وكان علىّ عليه السلام معلِما بصوفة بيضاء ، وكان الزبير معلِما بعصابة صفراء ، وكان أبو دجانة يعلِم بعصابة حمراء ، وكان الزبير يحدِّث أن الملائكة نزلت يوم بدر على خيْل بلق عليها عمائم صفر فكانت على صورة الزبير .

قال الواقدىّ : فروى عن سُهيل بن عمرو ، قال : لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلِمين يقبلون ويأسرون .

قال الوقدىّ : وكان أبو أسد الساعدىّ يحدّث بعد أن ذهب بصرُه ، ويقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشِّعب الذى خرجتْ منه الملائكة، لا أشكّ فيه ولا أمترى ! قال : وكان أسيّد يحدّث عن رجل من بنى غفار حدّثه ، قال : أقبلت أنا وابن عمٍ لى يوم بدر ، حتى صعدنا على جبل ، ونحن يومئذ على الشرك ننظر الوقعة وعلى من تكون الدبرة فننتهب مع منْ ينتهب إذ رأيت سحابة دنت منّا ، فسمعت منها

---

(١) مغازى الواقدى ٧٠ . (٢) مغازى الواقدى ٧٠ .

(٣) يقال : رجل معلم بكسر اللام ؛ إذا علم مكانه فى الحرب بعلامة أعلمها .

همهمة الخيل ، وقعقعة الحديد ، وسمعت قائلا يقول : أقدم حيزوم ! فأما ابنُ عمّى ، فانكشف قناع قلبه ، فمات ، وأما أنا فكدت أهلك ، فتماسكت وأتبعت بصرى حيث تذهب السحابة ، فجاءت إلى النبىّ صلى الله عليه وأصحابه : ثم رجعت ، وليس فيها شىء مما كنت أسمع .

قال الواقدىّ : وحدّثنى خارجة بن إبراهيم بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، عن أبيه ، قال : سأل رسول الله صلى الله عليه وآله جبرائيل : مَنْ القائل يوم بدر : أقبل حيزوم ؟ فقال جبرائيل : يامحمد ، ما كلّ أهل السماء أعرف .

قال الواقدىّ : وحدثنى عبد الرحمن بن الحارث ، عن أبيه ، عن جده ، عبيدة بن أبى عبيدة ، عن أبى رُهْم الغفارى عن ابن عمٍّ له ، قال : بينا أنا وابن عمٍّ لى على ماء بدر ، فلما رأينا قِلّة منْ مع محمد وكثرة قريش ، قلنا : إذا التقت الفئتان عمَدنا إلى عسكر محمد وأصحابه فانتهبناه ، فانطلقنا نحو المجنّبة اليسرى من أصحاب محمد ، ونحن نقول : هؤلاء ربع قريش ، فبينا نحن نمشى فى الميسرة إذ جاءت سحابة فغشيتنا ، فرفعنا أبصارنا لها ، فسمعنا أصوات الرجال والسلاح ، وسمعنا قائلا يقول لفرسه : «أقدم حيزوم» ، وسمعناهم يقولون : « رويدا تتاءم أخراكم » ، فنزلوا على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم جاءت أخرى مثل تلك فكانت مع النبى صلى الله عليه وآله ، فنظرنا إلى أصحاب محمد وإذاهم على الضّعف من قريش ، فمات ابنُ عمّى ، وأمّا أنا فتماسكت ، وأخبرت النبى صلى الله عليه وآله بذلك ، وأسلمت .

قال الواقدىّ : وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال « مارُئِىَ الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغضب منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من نزول الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام ، إلا ما رأى يوم بَدْر ». قيل : وما رأى

يارسول الله يوم بدر ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يوزّع الملائكة . قال : وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال يومئذ : « هذا جبرائيل يسوق بريح ، كأنه دِحْية الكلبىّ ، إنّى نُصرت بالصَّبَا وأُهلِكَتْ عاد بالدَّبور »(١) .

قال الواقدىّ : وكان عبد الرحمن بن عوف يقولُ : رأيتُ يوم بَدْر رجلين ؛أحدهما عن يمين النبىّ صلى الله عليه وسلّم ، والآخر عن يساره ، يقاتلان أشدّ القتال ، ثم ثلثهما ثالث مِنْ خَلْفه ، ثم ربّعهما رابع أمامه(٢) .

قال : وقد روى سعد بن أبى وقاص مثل ذلك ، قال :رأيت رجلَيْن يوم بدر،يقاتلان عن النبىّ صلى الله عليه وسلّم ،أحدُهما عن يمينه ، والآخر عن يساره ، وإنى لأراه ينظر إلى ذا مَرّةً ، وإلى ذا مرّةً ، سرورا بما فتحه(٣) الله تعالى(٤) .

قال الواقدىّ : وحدّثنى إسحاق بن يحيى ، عن حمزة بن صُهَيب ، عن أبيه ، قال : ماأدرى كم يد مقطوعة وضربة جائفة لم يَدْم كَلْمُها يوم بَدْر ، قد رأيتها(٥) .

قال الواقدىّ : وروى أبو بُرْدة بن نِيار ، قال :جئتُ يوم بدْر بثلاثة رءوس فوضعتها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقلت : يارسول الله ، أمّا اثنان فقتلتهما ، وأمّا الثالث فإنّى رأيتُ رجلًا طويلا أبيض ضربه فتدهده(٦) أمامه ؛ فأخذت رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك فلان من الملائكة(٧) » .

قال الواقدىّ : وكان ابنُ عباس رحمه الله ، يقول : لم تقاتل الملائكة إلّا يوم بدر(٧) .

---

(١) مغازى الواقدى ٧٢ .
(٢) مغازى الواقدى ٧٣ .
(٣) الواقدى : « ظفره الله » .
(٤) مغازى الواقدى ٧٣ .
(٥) مغازى الواقدى ٧٣ .
(٦) تدهده : تدحرج ، وفى الواقدى « تدهدى » .
(٧) مغازى الواقدى ٧٣ .

قال : وحدّثنى ابن أبى حبيبة عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس، قال : كان الملك يتصوّر فى صورة مَنْ يعرفه المسلمون من الناس [(١)] ليثبتهم ، فيقول : إنّى قد دنوتُ من المشركين ، فسمعتهم يقولون : لو حملوا علينا ماثبتنا لهم ،وليسوابشىء، فاحملوا عليهم ؛ وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ [(٢)] الآية [(٣)].

قال الواقدىّ : وحدّثنى موسى بن محمد ، عن أبيه ، قال : كان السائب بن أبى حُبَيش الأسدىّ يحدّث فى زمن عمر بن الخطاب ، فيقول : والله ما أسَرَنى يوم بدر أحدٌ من النّاس ، فيقال : فمن ؟ فيقول : لمّا انهزمتْ قريش انهزمتُ معها فيدركنى رجل أبيض طويل ، على فرس أبلق بين السماء والأرض ، فأوثقنى رباطا ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدنى مربوطاً ، وكان عبد الرحمن ينادى فى العسكر : مَنْ أسَرَ هذا ؟ فليس أحد يزعم أنه أسرنى ، حتى انتهى بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقال لى رسول الله : يابن أبى حُبيش ، مَنْ أسَرك ؟ قلت : لاأعرفه ، وكرهت أن أخبره بالذى رأيت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أسره مَلَك من الملائكة كريم ،اذهب يابن عوْف بأسيرك » ، فذهب بى عبد الرحمن . قال السائب : ومازالت تلك الكلمة أحفظُها،وتأخّر إسلامى حتّى كان من إسلامى ما كان [(٤)] .

قال الواقدىّ : وكان حكيم بن حزام ، يقول : لقد رأيتُنا يوم بدر ،وقدوقع بوادى خَلْص بجاد من السماء قد سدّ الأفق ـ قال ووادى خلص ناحية الرُّوَيثة ـ قال : فإذا الوادى يسيل نملًا ، فوقع فى نفسى أنّ هذا شىء من السماء أيّد به محمد ، فما كانت إلّا الهزيمة ، وهى الملائكة [(٥)]

---

(١) الواقدى : « من تعرفون من الناس » .

(٢) سورة الأنفال ١٢ .

(٣) مغازى الواقدى ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) مغازى الواقدى ٧٤ .

(٥) مغازى الواقدى ٧٤ ، ٧٥ .

قال الواقدىّ : وقد قالوا : إنه لمّا التحم القتال، ورسول الله صلى الله عليه وآله رافع يديْه يسأل الله النّصر وما وعده ، ويقول : اللهمّ إن ظَهَرت علىّ هـذه العصابة ، ظهر الشّرْك ؛ ولا يقوم لك دين ، وأبو بكر يقول : والله لينصرنّك الله وليبيّضنّ وجهك ، فأنزل الله تعالى ألفاً من الملائكة مردفين عند أكتاف العدو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أبا بكر ، أبشِرْ ، هذا جبرائيل معتجرٌ بعمامة صفراء ، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض » ، ثم قال: إنه لما نزل الأرض تغيّب عنّى ساعة، ثم طلع على ثناياه النقع ، يقول : أتاك النّصر من الله إذ دعوتَه (١) .

قال الواقدىّ : وحدّثنى موسى بن يعقوب ، عن عمّه ، قال : سمعتُ أبا بكر بن سليمان بن أبى خَيْثَمة، يقول : سمعت مَرْوان بن الحكَم يسأل حكيم بن حِزام عن يوم بدرٍ فجعل الشيخ يكره ذلك ، حتى ألحّ عليه ، فقال حكيم : التقينا فاقتتلنا ، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض مثل وقع الحصاة فى الطَّسْت، وقبض النبى صلى الله عليه وآله القبضة، فرمى بها فانهزمنا .

قال الواقدىّ : وقد روى عبد الله بن ثعلبة بن صغير ، قال : سمعتُ نوفل بن معاوية الدؤلىّ ، يقول : انهزمنا يوم بَدْر ، ونحن نسمع كوقع الحصا فى الطّساس بين أيدينا ومنْ خلفنا ، فكان ذلك أشدّ الرّعب علينا .

***

فأما الذين قالوا : نزلت الملائكة ولم تقاتل ، فذكر الزمخشرىّ فى كتابه فى تفسير القرآن المعروف " بالكشاف " أن قوما أنكروا قتال الملائكة يوم بَدْر ؛ وقالوا : لو قاتل واحدٌ من الملائكة جميع البشر لم يثبتوا له ولاستأصلهم بأجمعهم ببعض قوته ، فإنّ جبرائيل عليه السلام رفع مدائن قوم لوط — كما جاء فى الخبر — على خافقة من جناحه،

(١) مغازى الواقدى ٧٥ ، ٧٦ .

حتى بلغ بها إلى السماء ، ثم قلبها فجعل عاليَها سافلها ، فما عسى أن يبلغ قوّة ألف رجل من قريش ليحتاج فى مقاومتها وحربهـا إلى ألف ملك من ملائـكة السماء مضافين إلى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من بنى آدم ! وجعل هؤلاء قوله تعالى : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ... ﴾ (١) أمرا للمسلمين لا أمراً للملائـكة .

ورووا فى نصرة قولهم روايات ، قالوا : وإنّما كان نزول الملائـكة ليـكثّروا سواد المسلمين فى أعين المشركين ، فإنّهم كانوا يروْنهم فى مبدأ الحال قليلين فى أعينهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ ... ﴾ (٢) ، ليطمع المشركون فيهم ويجترئوا على حربهم ، فلمّا نشبت الحرب كثّرهم الله تعالى بالملائـكة فى أعين المشركين ليفرّوا ولا يثبتوا . وأيضا فإنّ الملائـكة نزلت وتصوّرت بصُوَر البشر الّذين يعرفهم المسلمون ، وقالوا لهم ماجرت العادة أن يقال مثله من تثبيت القلوب يوم الحرب ، نحو قولهم : ليس المشركون بشىء ، لا قوّة عندهم ، لا قلوب لهم ، لو حملتم عليهم لهزمتموهم . . . وأمثال ذلك .

ولقائل أن يقول : إذا كان قادرا على أن يقلّل ثلاثمائة إنسان فى أعين قريش حتى يظنّوهم مائة ، فهو قادر على أن يكثّرهم فى أعين قريش بعد التقاء حَلْقَتِى البطان ، فيظنّوهم ألفين وأكثر من غير حاجة إلى إنزال الملائـكة .

فإنْ قلت : لعلّ فى إنزالهم لطفا للمكلّفين .

قلت : ولعلّ فى محاربتهم لطفا للمكلّفين ؛ وأما أصحاب المعانى فإنهم لم يحملوا الكلام على ظاهره ، ولهم فى تأويله قول ليس هذا موضع ذكره .

***

---

(١) سورة الأنفال ١٢ . (٢) سورة الأنفال ٤٤ .

القول فيما جرى فى الغنيمة

والأسارى بعد هزيمة قريش ورجوعها إلى مكة

قال الواقدىّ : لما تصافّ المشركون والمسلمون ، قال النبى صلى الله عليه وآله : «مَنْ قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا » ؛ فلمّا انهزم المشركون كان النّاس ثلاث فرق ؛ فرْقة قامت عند خَيْمة رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وكان أبوبكر معه فى الخيْمة ـ وفرقة أغارت على النّهْب تنتهب ، وفرقة طلبت العدوّ فأسروا وغنموا ، فتكلّمَ سعد بن مُعاد ـ وكان ممن أقام على خيمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يارسول الله ، مامنعنا أن نطلب العدوّ زهادةٌ فى الأجر ،ولا جبنٌ عن العدوّ ، ولكناخفنا أن نعرِى موضعك ، فيميل عليك خيلٌ من خيل المشركين ورجال من رجالهم ، وقدأقام عند خيمتك وجوهُ الناس من المهاجرين والأنصار ، والناس كثير ، ومتى تُعْطِ هؤلاء لايبقى لأصحابك شىء ،والقتلى والأسرى كثير ،والغنيمةقليلة ،فاختلفوا فأنزل الله عزوجل: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ... ﴾ الآية، فرجع المسلمون ، وليس لهم من الغنيمة شىء ثم أنزل الله فيما بعد : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ . . . ﴾[1] فقسمه عليهم بينهم .

قال الواقدىّ : وقد روى عبادة بن الوليد بن عبادة عن جدّه عبادة بن الصامت،قال: سلّمنا الأنفال يوم بدر لله وللرسول ،ولم يخمّس رسول الله صلى الله عليه وآله بدراً ، ونزلت بعد : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ،فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله بالمسلمين

---

(١) سورة الأنفال ٤١

الخمس فيما كان من أول غنيمة بعد بدر .

قال الواقدىّ : وقد روى عن أبى أُسيد الساعدىّ مثله .

وروى عكرمة ، قال : اختلف النّاس فى الغنائم يوم بَدْر ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالغنائم أن تردّ فى المقسم ، فلم يبق منها شىء إلا ردّ . وظن أهلُ الشجاعة أنّه صلى الله عليه وآله يخصّهم بها دون غيرهم من أهل الضّعف ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن تقسّم بينهم على سواء ، فقال سعد بن أبى وقّاص : يارسولَ الله تعطِى فارس القوم الّذى يحميهم مثل ماتعطى الضعيف ؟ فقال صلى الله عليه وآله : « ثكلتْك أمّك! وهل تُنْصَرون إلّا بضعفائكم ! » .

قال الواقدىّ : فروى محمد بن سهل بن خيثمة ، قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن تردّ الأسرَى والأسلاب ، وما أخذوا من المغنم ، ثم أقرع بينهم فى الأسرى ، وقسّم أسلاب المقتولين الّذِين يُعرف قاتلوهم بين قاتليهم ، وقسّم ماوجده فى العسكر بين جميع المسلمين عن فراق .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عبد الحميد بن جعفر ، قال : سألتُ موسى بن سعد بن زيد ابن ثابت : كيف فعل النبى صلى الله عليه وآله يوم بدر فى الأسرى والأسلاب والأنفال؟ فقال : نادى مناديه يومئذ : مَنْ قتل قتيلا فله سلبُه ، ومن أسَر أسيرا فهو له ، وأمر بما وجد فى العسكر وما أخذ بغير قتال ، فقسّمه بينهم عن فراق . فقلت لعبد الحميد : فلمَنْ أعطى سلَب أبى جهل ! فقال : قد قيل : إنه أعطاه مُعاذ بن عمرو بن الجموح ، وقيل : أعطاه ابنَ مسعود .

قال : وأخـذ علىّ عليه السلام دِرْع الوليد بن عُتْبة وبيضته ومِغْفره ، وأخذ حمزة سلاح عُتْبة ، وأخذ عُبيدة بن الحارث سلاحَ شيبة ، ثم صار إلى ورثته .

قال الواقدىّ : فكانت القسمة على ثلاثمائة وسبعة عشر سهما ، لأنّ الرجال كانت ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وكان معهم فرسان لهما أربعة أسهم ، وقسم أيضا فوق ذلك لثمانية أسهم ، لم يحضروا ، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم ، ثلاثة من المهاجرين لا خلاف فيهم ، وهم : عثمان بن عفان خلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته رقيّة وماتت يوم قدم زيد بن حارثة بالبشارة إلى المدينة ، وطلحة بن عُبيد الله وسعد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل ، بعثهما رسول الله صلى الله عليه وآله يتجسّسان خبر العِير . وخمسة من الأنصار هم : أبو لُبابة بن عبد المنذر ، خلّفه على المدينة ، وعاصم بن عدىّ ، خلّفه على قُباء وأهل العالية ، والحارث بن حاطب أمره بأمرٍ فى بنى عَمْرو بن عَوْف ، وخوّات بن جُبير كُسِر بالروحاء ، والحارث بن الصِّمّة مثله ، فلا اختلاف فى هؤلاء . واختلف فى أربعة غيرهم ، فروى أنّه ضرب لسعد بن عبادة بسهمه وأجره ، وقال : لئن لم يشهدها لقد كان فيها راغباً ، وذلك أنّه كان يحضّ النّاس على الخروج إلى بدْر ، فنُهش فمنعه ذلك من الخروج .

وروى أنّه ضرب لسعد بن مالك الساعدىّ بسهمه وأجره ، وكان تجهّز إلى بدر ، فمرض بالمدينة ، فمات خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأوصى إليه عليه السلام .

وروى أنّه ضرب لرجلين آخرين من الأنصار ولم يسمّهما الواقدىّ وقال : هؤلاء الأربعة غير مجمع عليهم كإجماعهم على الثمانية .

قال : وقد اختلف : هل ضرب بسهم فى الغنيمة لقتلى بدر ؟ فقال الأكثرون : لم يضرب لهم ، وقال بعضهم : بل ضرب لهم ؛ حدّثنى ابن أبى سبْرة ، عن يعقوب بن زيد ، عن أبيه ، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ضرب لشهداء بدر أربعة عشر رجلا . قال : وقد قال عبد الله ابن سعد بن خَيْثمة : أخذنا سَهْم أبى الذى ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله حين

قسم الغنائم ، وحمله إلينا عُوَيمر بن ساعدة . قال : وقد روى السّائب بن أبى لُبابة ، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أسْهَم لمبشّر بن عبد المنذر ، قال : وقد قدم بسهمه علينا مَعْن بن عدىّ .

قال الواقدىّ : وكانت الإبل التى أصابوا يومئذ مائة وخمسين بعيراً ، وكان معه أدَمٌ كثير ، حملوه للتّجارة ، فمنعه المسلمون يومئذ ، وكان فيما أصابوا قطيفة حمراء ، فقال بعضهم: مالنا لا نرى القطيفة ! ماترى رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أخذها ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ (١). وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : يارسول الله، إن فلانا غَلّ قطيفة ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله الرّجُلَ ، فقال : لم أفعل ، فقال الدالّ : يارسولَ الله ، احفروا هاهنا ، فحفرنا فاستخرجت القطيفة ، فقال قائل : يارسولَ الله ، استغفر لفلان مرّتَيْن ؛ أو مرارا ، فقال عليه السلام : دعونا من أبى حرّ .

قال الواقدىّ : وأصاب المسلمون من خيولهم عشرة أفْرَاس ، وكان جمل أبى جهل فيما غنموه ، فأخذه النبى صلى الله عليه وآله ، فلم يزل عنده يضرب فى إبله ويغزو عليه حتى ساقه فى هدْى الحديبية ، فسأله يومئذ المشركون الجمل بمائة بعير ، فقال : لولا أنّا سمّيناه فى الهدْى لفعلنا .

قال الواقدىّ : وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله صَفِىّ (٢) من الغنيمة قبل القسمة، فتنفلّ سيفه ذا الفقار ، يومئذ، كان لمنبّه بن الحجاج . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد غزا إلى بدر بسيف وهبه له سعد بن عبادة يقال له العَضْب .

قال : وسمعت ابن أبى سَبْرة ، يقول : سمعت صالح بن كيسان ، يقول : خرج رسول

---

(١) سورة آل عمران ١٦١
(٢) الصفى من الغنيمة : نصيب الرئيس

الله صلى الله عليه وآله يوم بَدْر ، وما معه سيف ، وكان أول سيف قلّده سيف منبّه بن الحجاج غنمه يوم بدر .

وقال البلاذُرِىّ : كان ذُو الفقار للعاص بن منبّه بن الحجّاج ، ويقال : لمنبّه ، ويقال لشيبة ، والثَّبَت عندنا أنه كان للعاص بن منبّه .

قال الواقدىّ : وكان أبو أُسَيْدٌ الساعدىّ إذا ذُكِر الأرقم بن أبى الأرقم ، يقول : ما يومى منه بواحد ، فيقال : ما هذا هو ؟ فيقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين أنَ يردّوا يومَ بدْر ما فى أيديهم من المغنم ، فرددت سيف أبى عائذ المخزومىّ — واسم السيف المرزبان، وكان له قيمة وقدْرٌ — وأنا أطمع أن يردّ إلىّ ، فكلّم الأرقم رسول الله صلّى الله عليه وآله فيه — وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لايمنع شيئاً يسأله — فأعطاه السيف . وخرج بنىّ له يَفعة[(١)] ، فاحتمله الغُول ، فذهبت به متوركة ظهرا ، فقيل لأبى أسيد : وكانت الغيلان فى ذلك الزمان ؟ فقال : نعم ، ولكنها قد هلكت ، فلقى بنى الأرقم بن أبى الأرقم ، فبهش[(٢)] إليه باكيا مستجيرا به ، فقال: مَنْ أنت؟ فأخبره،فقالت الغول : أنا حاضنتُه ، فلها عنه والصبىّ يكذبها ، فلم يعرّج عليه حتى الساعة ، فخرج من دارِى فرس لى ، فقطع رَسَنه ، فلقيه الأرقم بالغابة فركبه ؛ حتى إذا دنا من المدينة أفلت منه فتعذر إلىّ أنه أفلت منى ، فلم أقدِر علية حتى الساعة .

قال : وروى عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله يومَ بدْر سيف العاص بن منبه ، فأعطاه ، قال : وأخذ عليه السلام مماليك حضروا بدراً ، ولم يسهم لهم وهم ثلاثة أعبد ، غلام لحاطب بن أبى بلتعة ، وغلام لعبد الرحمن

---

(١) غلام يفع ويفعة ، إذا كان مترعرعاً .

(٢) بهش إليه : خف إليه .

ابن عوف، وغلام لسعد بن معاذ، واستعمل صلى الله عليه وآله شُقران غلامه على الأسرى، فأخذوا من كلّ أسير ما لو كان حرًّا ما أصابه فى المقْسم.

وروى عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه، قال: رميتُ سهيل بن عمرو يوم بدْر فقطعت نساءه، فاتبعت أثر الدم حتى وجدتُه قد أخذه مالك بن الدخشم، وهو ممسك بناصيته، فقلت: أسيرى رميتُه! فقال: أسيرى أخذته! فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذه منا جميعا، وأفلت سهل الرّوحاء، فصاح عليه السلام بالناس، فخرجوا فى طلبه، فقال صلى الله عليه وآله: مَنْ وجده فليقتله، فوجده هو صلى الله عليه وآله فلم يقتله.

قال الواقدىّ: وأصاب أبو بردة بن نِيار أسيراً من المشركين، يقال له معبد ابن وَهْب، من بنى سعد بن ليث فلقيه عمر بن الخطاب وكان عمر يحضّ على قتل الأسرى، لا يرى أحدا فى يديه أسير إلاّ أمر بقتله، وذلك قبل أن يتفرق الناس، فلقيه معبد وهو أسير مع أبى بُرْدة، فقال: أترون يا عمر أنّكم قد غلبتم! كلاّ واللاّت والعزّى! فقال عمر: عباد الله المسلمين، أتتكلم وأنت أسير فى أيدينا! ثم أخذه من أبى بُرْدة فضرب عنقه - ويقال: إن أبا بُرْدة قتله.

قال الواقدى: وروى أبو بكر بن إسمعيل، عن أبيه، عن عامر بن سعد، قال: قال النبى صلى الله عليه وآله يومئذ: «لا تخبروا سعدا بقتل أخيه، فيقتلَ كل أسير فى أيديكم».

قال الواقدىّ: ولمّا جىء بالأسرى كرِه ذلك سعد بن معاذ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كأنه شقّ عليك أن يؤسروا! قال: نعم يا رسول الله، كانت أوّلَ

وقعة التقينا فيها بالمشركين فأحببتُ أن يُذلّهم الله ، وأن يثخن فيهم القتل .

قال الواقديّ : وكان النّضر بن الحارث أَسَره المقداد يومئذ ، فلمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من بدر ، فكان الأُثَيْل عُرِض عليه الأسرى ، فنظر إلى النَّضْر بن الحارث فأبّده البصر ، فقال لرجل إلى جنبه : محمد والله قاتلي ! لقد نظر إليّ بعينين فيهما الموت ! فقال الذى إلى جنبه : والله ماهذا منك إلا رعب ، فقال النضر لمصعب بن عمير : يامصعب،أنت أقرب مَنْ هاهنا بي رِحِماً ؛ كلّم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابى،هو والله قاتلى إن لم تفعل . قال مصعب : إنك كنت تقول فى كتاب الله كذا كذا ، وتقول فى نبيّه كذا وكذا،قال : يامصعب؛فليجعلنى كأحد أصحابى.إن قتِلوا قتلت،وإن منّ عليهم منّ عليّ.قال مصعب:إنك كنت تعذّب أصحابه،قال : أما والله لو أسرتْك قريش ماقتلت أبدا وأنا حيّ . قال مصعب : والله إنى لأراك صادقا ، ولكن لست مثلك قطع الإسلام العهود .

قال الواقديّ : وعرضت الأسرى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فرأى النَّضْر ابن الحارث ، فقال : اضربو عنقه ، فقال المقداد : أسيرى يارسول الله ! فقال اللهمّ أغنِ المقداد من فَضْلك ، قم ياعليّ فاضرب عنقه ، فقام عليّ فضرب عنقه بالسيف صَبْراً ، وذلك بالأُثيل ، فقالت أخته [1] :

يا راكباً إن الأُثيلَ مَظِنَّةٌ   مِنْ صُبْح خامسة وأنت مُوَفَّقُ [2]
بلّغْ به مَيْتاً فإنّ تحيّةً   ما إنْ تزالُ بها الرّكائب تخفِقُ
منّى إليه وعبرةً مسفوحةً   جادتْ لمائحها ، وأُخرى تَخْنُقُ

---

(١) واسمها قتيلة ، ذكرها التبريزى فى الحماسة .
(٢) الأبيات فى ديوان الحماسة ٣ : ١٧ ـ بشرح التبريزى

فليسمعنّ النَضْر إن ناديتُه … إن كان يسمع ميّت أو ينطقُ
ظَلَّتْ سيوفُ بنى أبية تنوشُهُ … لله أرحامٌ هناك تمزّق ! (١)
صبراً يقاد إلى المدينة راغماً … رَسْفَ المقيّد وهو عانٍ مُوثَقَ (٢)
أمحمدٌ ولأنتَ نَجْلُ نجيبة … فى قومها، والفَحْلُ فحلٌ معرقُ (٣)
ما كان ضرّك لو مننْتَ وربّما … مَنّ الفتى وهو المغيظُ المحْنَقُ
والنضر أقربُ مَنْ قتلت وسيلةً … وأحقّهم إن كان عتق يُعْتَقُ

قال الواقدى : وروى أن النبى صلى الله عليه وآله لما وصل إليه شِعْرُها رقّ له، وقال : « لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلته » .

قال الواقدىّ : ولما أسِرَ سهيل بن عمرو ، قال عمر بن الخطاب : يارسولَ الله ، انزع ثنيّتيه يدلَعْ لسانه ، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا أمثّل به فيمثّل الله بى وإن كنت نبيا، ولعله يقوم مقاما لا تكرهُه ». فقام سهيل بن عمرو بمكة حين جاءه وفاة النبي صلى الله عليه وآله بخطبة أبى بكر بالمدينة ، كأنه كان يسمعها ، فقال عمر حين بلغه كلام سُهيل : أشهد أنك رسول الله ـ يريد قوله صلى الله عليه وآله : « لعله يقوم مقاما لا تكرهه » .

قال الواقدىّ : وكان على عليه السلام يحدّث ، فيقول : أتى جبريل النبىّ صلى الله عليه وآله يوم بدر ، فخيّره فى الأسرى أن يضرب أعناقهم ، أو يأخذ منهم الفداء ، ويستشهد من المسلمين فى قابل عِدّتهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه، وقال : هذا جبريل يخيّركم فى الأسرى ، بين أن تُضرب أعناقهم أو تؤخذ منهم الفدية ويستشهد

---

(١) الحماسة : « تشقق » (٢) لم يرد فى رواية الحماسة .
(٣) فى الحماسة : « ضن كريمة » قال فى شرحه : « ضنء نجيبة » أى ولدها . ومعرق : له عرق فى الكرم .

منكم قابلا عدتهم . قالوا : بل نأخذ الفِدْية ونستعين بها ، ويستشهد منا مَنْ يدخل الجنة، فقبل منهم الفداء ، وقتل من المسلمين قابلا عدتهم بأُحُد .

قلت : لو كان هذا الحديث صحيحا لما عوتبوا ، فقيل لهم : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾(١) ، ثم قال : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .. ﴾(٢)، لأنه إذا كان خيّرهم ، فقد أباحهم أخذ الفداء، وأخبرهم أنه حسن، فلا يجوز فيما بعد أن ينكره عليهم ، ويقول إنه قبيح .

قال الواقدي : لما حِبس الأسرى وجعل عليهم شُقران مولى رسولِ الله صلى الله عليه وآله طَمِعوا فى الحياة ، فقالوا : لو بعثنا إلى أبى بكر ! فإنه أوصلُ قريش لأرحامنا! فبعثوا إلى أبى بكر ، فأتاهم فقالوا : ياأبا بكر ، إنّ فينا الآباء والأبناء والإخوان ،والعُمومة وبنى العمّ ، وأبعدنا قريب ، كلّم صاحبَك فليمنّ علينا ويفادِنا ، فقال : نعم إن شاء الله ، لا آلوكم خيرا . ثم انصرف إلى رسول الله صلى عايه وآله . قالوا : وابعثوا إلى عمر بن الخطاب ، فإنّه مَنْ قد علمتم ، ، ولا يؤمَن أن يفسد عليكم لعله يكفّ عنكم !فأرسلوا إليه، فجاءهم فقالوا له مثلَ ماقالوا لأبى بكر ، ففال : لا آلوكم شرًّا ! ثم انصرف إلى النبى صلى الله عليه وآله ، فوجَد أبا بكر عنده ، والنّاس حوله ، وأبو بكر يُليّنه ويفثّاه ، ويقول : يارسولَ الله ، بأبى أنت وأمّى !قومُك فيهم الآباء والأبناء والعُمومة والإخوان وبنو العمّ، وأبعدهم عنك قريب ! فامنن عليهم ، منّ الله عليك ، أوفادِهم قوةً للمسلمين، فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك ! ثمّ قام فتنحّى ناحيةً ، وسكت رسول الله صلى الله عابه وآله فلم يجِبْه ، فجاء عمر فجلس مجلسَ أبى بكر ، فقال يارسول الله، همْ أعداء الله ، كذّبوك

---

(١) سورة الأنفال ٦٧ .　　(٢) سورة الأنفال ٦٨ .

وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم ، فهم رءوسُ الكفر وأئمة الضلالة ، يوطىء الله بهم الإسلام ، ويذلّ بهم الشّرْك ! فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يجبْه ، وعاد أبو بكر إلى مَقْعده الأوّل، فقال : بأبى أنت وأمّى ! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العمّ ، وأبعدهم منك قريب ! فامنن عليهم أوفادِهم . هم عشيرتك وقومك لاتكن أوّلَ من يستأصلهم ، وأن يهديهم الله خيرٌ من أن يهلكهم . فسكت صلى الله عليه وآله عنه فلم يردّ عليه شيئاً ، وقام ناحية . فقام عمر فجلس مجالسه ، فقال : يارسولَ الله، ماتنتظر بهم ! اضربْ أعناقَهم ، يوطىء الله بهم الإسلام ، ويذلّ أهل الشرك ، هم أعداء الله ، كذّبوك وأخرجوك يارسولَ الله ، اشف صدور المؤمنين ، لو قدرُوا منّا على مثل هذا ما أقالونا أبدا . فسكتَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله فلم يجبْه ، فقام ناحية ، فجلس وعاد أبو بكر، فكلّمه مثل كلامه الأوّل فلم يجبه ، ثم تنحّى ، فجاء عمر فكلّمه بمثل كلامه الأول فلم يجبه ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدخل قُبّته ، فمكث فيها ساعة ، ثم خرج ، والناس يخوضون فى شأنهم، يقولَ بعضهم : القولُ ماقال أبو بكر ، وآخرون يقولون : القولُ ماقال عمر . فلمّا خرج قال للناس :ماتقولون فى صاحبيْكم هذين ؟ دعوهما فإنّ لهما مثلًا ، مثلُ أبى بكر فى الملائكة كميكائيل ينزل برضاَ الله وعفوه على عباده ، ومثلُه فى الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألينَ على قومه من العسَل ، أوقدَ له قومُه النّارفطرحوه فيها ، فما زاد على أن قال : ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(١) وقال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٢) وكعيسى إذ يقول: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣) . ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسّخط من الله والنّقمة على أعداء الله ، ومثلُه فى الأنبياء كمثل نوح ، كان أشدّ على قومه من الحجارة ، إذ يقول : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى

(١) سورة الأنبياء ٦٧ .

(٢) سورة إبراهيم ١٤ .

(٣) سورة المائدة ١١٨ .

ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْـكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾[١] فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعا ، ومثل موسى إذ يقول : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾[٢] وإنّ بكم عَيْلة ، فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق . فقال عبدُ الله بن مسعود : يارسولَ الله ، إلّا سهيل بن بيضاء .

قال الواقديّ : هكذا روى ابن أبى حبيبة ، وهذا وَهَم ، سهيل بن بيضاء مسلم من مهاجرة الحبشة ، وشهد بدراً ، وإنما هو أخ له . ويقال له سهيل . قال : قال عبد الله بن مسعود : فإنّى رأيته يُظهِر الإسلام بمكّة ـ قال : فسكتَ النبيُّ صلى الله عليه وآله ، قال عبد الله : فما مرّت علىّ ساعةٌ قطّ كانت أشدّ علىّ من تلك الساعة ، جعلت أنظر إلى السّماء أتخوّف أن تسقط على الحجارة لتقدّمى بين يدى الله ورسوله بالـكلام ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله رأسَه ، فقال : « إلّا سُهَيل بن بيضاء » ، قال : فما مرّت علىّ ساعة أقرّ لعينى منها، إذ قالها رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم قال : « إن الله عز وجل ليشدّد القلْب حتى يكونَ أشدَّ من الحجارة ، وإنه لَيُلِين القلبَ حتّى يكونَ أليَنَ من الزّبد» ، فقبل الفداء ثم قال بعد: « لو نزلَ عذابٌ يوم بدر لما نجا منه إلّا عمر » ، كان يقول: اقتُل ولا تأخذ الفداء . وكان سعد بن معاذ يقول : اقتل ولا تأخذ الفداء .

قلت : عندى فى هذا كلام ، أما فى أصل الحديث فلانّ فيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال ، ومثله كعيسى إذ قال : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، وهذه الآية من المائدة والمائدة أنزلت فى آخر عمره ، ولم ينزل بعدها إلّا سورة براءة ، وبدر كانت فى السنة الثانية من الهجرة ،فكيف هذا ! اللهم إلا أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ . . . ﴾ الآيات ، قد كانت أنزلت إما بمكّة أو بالمدينة قبل بدر ،

---

(١) سورة نوح ٢٦ . (٢) سورة يونس ٨٨ .

فلما جمع عثمان القرآن ضمّها إلى سورة المائدة ، فلعلّه قد كان ذلك فينبغى أن ننظر فى هذا، فهو مشكل !

وأما حديث سُهَيْل بن بيضاء فإنّه يُوهم مذهب موسى بن عمران فى أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يحكم فى الوقائع بما يشاء ، لأنه قيل له : احكم بما تشاء ؛ فإنك لا تحكم إلّا بالحقّ، وهو مذهب متروك إلا أنه يمكن أن يقال : لعلّه لما سكت صلى الله عليه وآله عندما قال ابن مسعود ذلك القول ، نزل عليه فى تلك السكتة الوحْى وقيل له : إلا سهيل ابن بيضاء ، فقال حينئذ : « إلّا سهيل بن بيضاء » ، كما أوحى إليه .

وأمّا الحديثُ الّذى فيه : « لو نزل عذاب لما نجا منه إلّا عمر » ، فالواقدىّ وغيره من المحدّثين اتفقوا على أن سعد بن معاذ كان يقول مثل ماقاله عمر ؛ بل هو المبتدئ بذلك الرأى ، ورسول الله صلى الله عليه وآله بعدُ فى العريش ، والمشركون لم ينفضّ جمعهم كلّ ذلك الانفضاض ؛ فكيف خصّ عمر بالنجاة وحده دون سعد ! ويمكن أن يقال : إنه كان شديد التأليب والتحريض عليهم ، وكثيرَ الإلحاح على رسول الله صلى الله عليه وآله فى أمرهم ، فنسب ذلك الرأى إليه لاشتهاره به ، وإن شركه فيه غيره .

***

قال الواقدىّ : وحدّثنى معمَرعن الزّهرىّ ، عن محمد بن جُبَير بن مطعِم ، عن أبيه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر: « لو كان مطعم بن عدىّ حيًّا لوهبتُ له هؤلاء النَّتْنَى »[1] . قال وكانت لمطعِم بن عدىّ عند النبي صلى الله عليه وآله يدٌ أجاره حين رجع من الطائف .

---

(١) قال ابن الأثير فى النهاية ٤ : ١٢٤ : « يعنى أسارى بدر ، واحدهم نتن ؛ كزمن وزمنى ، سماهم نتنى لكفرهم؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ .

قال الواقدىّ : وحدثنى محمد بن عبد الله ، عن الزهرىّ ، عن سعيد بن المسيّب، قال: أمّن رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من الأسرى يوم بدْر أبا عزّة عمرو بن عبد الله بن عُمير الجُمَحِىّ – وكان شاعرا – ، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال له: إنّ لى خمس بنات ، ليس لهنّ شىء ، فتصدّق بى عليهنّ يا محمد ، ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك . وقال أبو عزّة : أعطيك موثقا ألاّ أقاتلك ، ولا أكثر عليك أبدا. فأرسله رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما خرجت قريش إلى أُحُد ، جاء صفوان بن أميّة ، فقال : اخرج معنا ، قال: إنى قد أعطيتُ محمدا موثقاً ألاّ أقاتله ، ولا أكثّر عليه أبدا . وقد منّ علىّ ولم يمنّ على غيرى حتى قتله أو أخذ منه الفِداء . فضمِن له صفوان أن يجعَل بناتِه مع بناته إن قتل ؛ وإن عاش أعطاه مالا كثيرا لا يأكله عياله . فخرج أبو عزّة يدعو العرب ويحشرها ، ثم خرج معَ قريش يوم أحُد ، فأُسِر ولم يؤسَر غيرهُ من قريش ، فقال : يا محمد ، إنما خرجت كرهاً ولى بنات ، فامننْ علىّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: « أين ما أعطيتَنى من العهد والميثاق ! لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : سخرتُ بمحمد مرتين » (١) . فقتله .

قال : وروَى سعيد بن المسيّب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يومئذ : « إنّ المؤمن لا يُلدَغ من جُحْرٍ مرتين ، يا عاصم بن ثابت ، قدّمه فاضرب عنقه » ، فقدّمه عاصم فضرب عنقه .

قال الواقدىّ : وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وآله يوم بدر بالقُلُب أن تغوّر (٢) ثم أمر بالقتلى ، فطرحوا فيها كلّهم إلا أميّة بن خلف فإنه كان مسمِناً (٣) انتفخ من يومه. فلما أرادوا أن يلقوه تزايلَ لحمه ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله : اتركوه (٤) .

---

(١) مغازى الواقدى ١٠٥ .
(٢) تغور : تملأ بالتراب .
(٣) المسمن : السمين خلقة .
(٤) مغازى الواقدى ١٠٦ .

وقال ابن إسحاق : انتفخ أميّة بن خلف فى دِرْعه حتى ملأها ؛ فلما ذهبوا يحرّكونه تزايل ، فأقرّوه وألقَوْا عليه التراب والحجارة ما غيّبه [(١)] .

قال الواقدىّ : ونظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عُتْبة بن ربيعة يجرّ إلى القليب — وكان رجلا جسيما ، وفى وجهه أثر الجُدَرِىّ — فتغيّر وجه ابنه أبى حذيفة بن عتبة، فقال له النبىّ صلى الله عليه وآله : مالك ! كأنّك ساءك [(٢)] ما أصاب أباك ! قال : لا والله يارسولَ الله، ولكنى رأيتُ لأبى عقلا وشرفا ؛ كنت أرجو أن يَهْدِيَه ذلك إلى الإسلام ، فلما أخطأه ذلك ، ورأيت ما أصابه غاظنى . فقال أبو بكر : كان والله يارسول الله أبقى فى العشيرة من غيره ، ولقد كان كارهاً لوجهه ، ولكن الحَيْن ومصارع السوء . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الحمد لله الذى جعل خدّ أبى جهل الأسفل وصرَعه وشفانا منه » . فلما توافَوْا فى القليب وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يطوف عليهم وهم مصرّعون، جعل أبو بكر يخبره بهم رجلاً رجلاً ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يحمَد الله ويشكره ويقول: الحمدُ لله الذى أنجز لى ماوعدنى ! فقد وعدنى إحدى الطائفتين ، ثم وقف عَلَى أهل القَلِيب فناداهم رجلا رجلا : « ياعتبة بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة ، ويا أميّة بن خلفَ ، ويا أباجهل بن هشام! هلْ وجدتُم ماوعد ربكم حقًّا ؟ فإنى وجدت ماوعدنى ربى حقا ! بئس القوم كنتم لنبيّكم! كذبتمونى وصدّقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرَنى الناس، فقالوا : يارسول الله ، أتنادى قوماً قد ماتوا ! فقال : « لقد علموا أنّ ماوعدهم ربهم حقّ » [(٣)] .

وقال ابن إسحاق فى كتاب " المغازى " : إن عائشة كانت تروى هذا الخبر، وتقول: فالنّاس يقولون : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم . قال : « لقد سمعوا ماقلتُ لهم » ، وليس كذلك ، إنّما قال : « لقد علموا أنّ ماوعدهم ربهم حقّ [(٤)] » .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٩ . (٢) ابن هشام : « قد دخلك من أمر أبيك شىء » .
(٣) مغازى الواقدى ١٠٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٢ .
(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٠ .

قال محمد بن إسحاق : وحدثنى حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، قال : لما ناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله قال له المسلمون : يا رسولَ الله ؛ أتنادى قوما قد أنتنوا ! فقال : « ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » .

***

قلت : لقائل أن يقول لعائشة : إذا جاز أن يعلموا وهم موتَى ، جاز أن يسمعوا وهم موتَى، فإن قالت : ما أخبرت أن يعلَموا وهم موتى ، ولكن تعود الأرواح إلى أبدانهم، وهى فى القليب ، ويرَوْن العذاب ، فيعلمون أنّ ما وعدهم به الرّسول حقّ ! قيل لها : ولا مانع من أن تعود الأرواح إلى أبدانهم وهى فى القَلِيب ؛ فيسمعوا صوتَ رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فإذن لا وجْهَ لإنكارها ما يقوله النّاس !

ويمكن أن يُنتصر لقول عائشة على وجه حكمىّ ، وهو أنّ الأنفس بعد المفارقة تعلم ولا تسمع ؛ لأنّ الإحساس إنما يكون بواسطة الآلة ، وبعد الموت تفسد الآلة ؛ فأمّا العلم فإنه لا يحتاج إلى الآلة ؛ لأنّ النفس تعلم بجوهرها فقط .

قال الواقدىّ : وكان انهزام قريش وتولّيها حين زالت الشمس ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله ببدر ، وأمر عبد الله بن كعب بقبض الغنائم وحملها وأمر نفرا من أصحابه أن يعينوه ، فصلّى العصر ببدر ثم راح فمر بالأُثيل قبل غروب الشمس فنزل به ، وبات به وبأصحابه جراح ، وليست بالكثيرة ، وقال : مَنْ رجلٌ يحفظنا الليلة ؟ فأسكت القوم ، فقام رجل فقال : مَنْ أنت ؟ قال : ذكْوان بن عبد قيس ، قال : اجلس ، ثم أعاد القول الثانية ، فقام رجل ، فقال : من أنت ؟ قال : ابن عبد القيس، فقال : اجلس؛ ثم مكث ساعة وأعاد القول ؛ فقام رجل فقال : مَنْ أنت ؟ قال : أبو سُبُع (٢)، فسكت

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٠ .

(٢) فى الأصول : « سبيع » ، وصوابه ماف الواقدى ؛ وانظرما فى الاستيعاب .

ثم مكث ساعة ، وقال : قوموا ثلاثتكم . فقام ذَكْوان بن عبدقيس وحده ، فقال له : وأين صاحباك ؟ قال : يا رسول الله أنا الذى كنت أجيبك الليلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : حفظك الله ! فبات ذكوان يحرُس المسلمين تلك الليلة ، حتى كان آخر الليل فارتحل (١) .

قال الواقدىّ : ورِوىَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى العصر بالأُثيل ، فلمّا صلّى ركعة تبسّم ، فلما سلّم سئل عن تبسمه فقال : مرّ بى ميكائيل وعلى جَناحه النَّقْع ، فتبسّم إلىّ ، وقال : إنى كنت فى طلب القوم ، وأتانى جبريل على فرس أنثى معقود الناصية ، قد عمّ ثنيّتيْه الغبار فقال : يا محمد إنّ ربى بعثنى إليك ، وأمرنى ألّا أفارقك حتى ترضى ، فهل رضيت ؟ فقلت : نعم (٢) .

قال الواقدىّ : وأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله بالأسرى ، حتى إذا كان بعرْق الظَّبْية أمر عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح أن يضرب عنق عُقْبة بن أبى مُعَيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبدشمس ، وكان أسرَه عبد الله بن سلمة العجلانىّ ، فجعل عقبة يقول : يا ويلى ! علام أُقتل يا معشر قريش من بين من ها هنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لعداوتك لله ولرسوله ، فقال : يا محمد ، منّك أفضل ، فاجعلنى كرجل من قومى إن قتلتَهم قتلتنى ، وإن مَنَنْتَ عليهم مننتَ علىّ ، وإن أخذت منهم الفداء كنتُ كأحدهم ، يا محمد مَنْ للصبية ؟ فقال : النار ، قدّمه يا عاصم ، فاضرب عنقه ، فقدمه عاصم فضرب عنقه ، فقال النبى صلى الله عليه وآله : بئس الرجل كنتَ والله ما علمتُ كافرا بالله وبرسوله ، وبكتابه مؤذياً لنبيه ، فأحمد الله الذى قتلك وأقرّ عينى منك (٣) .

قال محمد بن إسحاق : وروى عِكْرمة مولى ابن عباس ، عن أبى رافع ، قال : كنتُ غلاماً للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد فشا فينا أهلَ البيت ، فأسلم العباس ،

(١) مغازى الواقدى ١٠٧ (٢) مغازى الواقدى ١٠٧ .
(٣) مغازى الواقدى ١٠٧ ، ١٠٨ .

وأسلمت أم الفضل زوجته ، وكان العبّاس يهاب قومه ويكره خلافهم ، فكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مالٍ كثير متفرّق فى قومه ؛ وكان عدوّ الله أبو لهب قد تخلّف عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، وكذلك كانوا صنعوا ، لم يتخلّف رجل إلا بعث مكانه رجلا ، فلمّا جاء الخبر عن مُصاب أصحاب بدر من قريش ، كبته (١) الله وأخزاه ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزًّا .

قال : وكنتُ رجلًا ضعيفا ، وكنت أعمل القِداح (٢) ، أنحتها فى حُجْرة زمزم ، فوالله إنى لجالس أنحت قِداحى ، وعندى أمّ الفضل جالسة ، وقد سرّنا ماجاءنا من الخبَر ، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرّ رجليه بشرّ ، حتى جلس إلى طُنُب (٣) الحجْرة ، فكان ظهره إلى ظهرى ، فبينا هو جالس إذ قال للناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب قد قدِم ـ وكان شهد مع المشركين بدرا ـ فقال أبو لهب : هلمّ يابنَ أخى فعندك والله الخبر ، قال : فجلس إليه والناس قيام حوله ، فقال : يابن أخى ، أخبِرْنى كيف كان أمر الناس ؟ قال : لا شىء ، والله إن هو إلّا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا ، فقتلونا كيف شاءوا ، وأسرونا كيف شاءوا ، وايمُ الله مع ذلك مالمت النّاس ، لقِينا رجالا بيضا على خيل بُلق بين السماء والأرض . لا والله ماتبقى (٤) شيئا ، ولا يقوم لها شىء . قال أبو رافع : فرفعتُ طُنُب الحجرة ، ثم قلت : تلك والله الملائكة ، قال : (٥ فرفع أبو لهب يدَه ، فضرب بى الأرض ثم برَك علىّ يضربنى ٥) ، وكنت رجلا ضعيفا ، فقامت أمّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة ، فأخذته فضربته على (٦) رأسه ، فشجّته شجّة منكرة ، وقالت : استضعفته إذ غاب

---

(١) كبته الله : ذله وأخزاه .

(٢) ابن هشام : الأقداح .
(٣) طنب الحجرة : طرفها .

(٤) ابن هشام : « ما تلين شيئا » ، أى ما تبق شيئا .

(٥ـ٥) العبارة فى ابن هشام : « فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهى ضربة شديدة ؛ قال : وثاورته ، فاحتملنى فضرب بى الأرض ، ثم برك على يضربنى » . وثاورته ، أى وثبت إليه .

(٦) ابن هشام : « فضربته به ضربة قلعت فى رأسه شجة منكرة » ، وقلعت ، أى شقت .

سيّده ، فقام مولّيا ذليلا ، فوالله ماعاش إلّا سبعَ ليال ، حتى رماه الله بالعدَسة[١] فقتلته[٢] .

ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثا وما يدفنانه ، حتى أنتن فى بيته ـ وكانت قريش تتقى العَدَسة وعدْوَاها ، كما يتّقى النّاس الطاعون ـ حتى قال لهما رجل من قريش : ويْحكما ! ألا تستحيان أنّ أباكما قد أنتن فى بيته لا تغيّبانه ! قالا : إنّا نخشى هذه القُرْحة ، قال : فانطلقا وأنا معكما ، فوالله ماغسلوه إلّا قذفا عليه بالماء من بعيد ، مايمسّونه ؛ وأخرجوه فألقوْه بأعلى مكة إلى كنان هناك ، وقذفوا عليه بالحجارة حتى واروْه .

قال محمد بن إسحاق : فحضر العبّاس بدرا ، فأُسِر فيمن أُسِر ، وكان الّذى أسره أبو اليسر كعب بن عمرو أحد بنى سلِمة ، فلمّا أمسى القوم والأسارى محبوسون فى الوَثاق ، وبات رسول الله صلى الله عليه وآله تلك الليلة ساهرا ، فقال له أصحابه : مالك لا تنامُ يارسول الله ؟ قال : « سمعتُ أنينَ العبّاس من وَثاقه » ، فقاموا إليه فأطلقوه ، فنام رسول الله صلى الله عليه وآله[٣] .

قال : وروى ابنُ عباس رحمه الله ، قال : كان أبو اليسر رجلًا مجموعا ، وكان العبّاس طويلا جسيما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ياأبا اليسر ، كيف أسرْتَ العبّاس؟ قال: يارسولَ الله ، لقد أعاننى عليه رجل مارأيتُه من قبل ، من هيئته كذا ، قال صلى الله عليه وآله : « لقد أعانك عليه مَلَك كريم » .

قال محمد بن إسحاق : قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله فى أوّل الوقْعة ، نهى أن يقتل أحد من بنى هاشم ، قال : حدّثنى بذلك الزُّهرىّ ، عن عبد الله بن ثعلبة حليف بنى زُهرة ، قال: وحدّثنى العبّاس بن عبد الله بن معبد بن العباس ، عن بعض أهله ، عن عبد الله بن عبّاس رحمه الله ،

(١) العدسة ، قال أبو ذر الخشنى : « هى قرحة قاتلة كالطاعون ، وقد عدس الرجل ، إذا أصابه ذلك » .
(٢) الخبر إلى هنا فى سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٩ ، ٢٩١ .
(٣) تاريخ الطبرى ٢ : ٤٦٢ (طبعة المعارف) ، والأغانى ٤ : ٢٠٥ ، ٢٠٦ (طبعة دار الكتب)

قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وآله لأصحابه : إنّى قد عرفت أنّ رجالًا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرِجُوا كُرْهاً ، لاحاجةلنا بقتلهم ، فَمَنْ لقىَ منكم أحدامن بنى هاشم فلايقتله ومن لقىَ أبا البخترىّ فلا يقتله ،ومَنْ لقىَ العبّاس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله فلا يقتله ، فإنّه إنما خرج مستكرها ، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة : أنقتلُ آباءَنا وإخوانَنا وعشائرنا ونترك العباس ! والله لئن لقيتُه لألحِمَنّه[١] السيف ، فسمعها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال لعمر بن الخطاب : ياأبا حفص . يقول عمر: والله إنّه لأوّل يوم كنّانى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبى حفص ـ أيضرَبُ وجهُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله بالسّيف ؟ فقال عمر : يارسولَ الله ، دعنى أضرب عنقَه بالسيف ، فوالله لقد نافق ، قال : فكان أبو حذيفة يقول : والله ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التى قلتُ يومئذ، ولا أزال منها خائفا أبدا إلاأن يكفّرها الله عنّى بشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا[٢] .

قال محمد بن إسحاق : وكان رسول اللهصلى الله عليه وآله لما استشار أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ فى أمر الأسارى ، غلظ عمر عليهم غلظة شديدة ، فقال : يارسولَ الله أطعْنى فيما أشير به عليك ، فإنى لا آلوك نصحاً ، قدّم عمّكَ العباس فاضربْ عنقَه بيدك ، وقدِّم عَقِيلا إلىعلىّ أخيه يضرب عنقه، وقدّم كلّ أسيرمنهم إلى أقرب الناس إليهيقتله، قال : فكرِه رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك ولم يعجبه .

قال محمد بن إسحاق: فلمّا قدم بالأسرى إلىالمدينة قال رسولالله صلى الله عليهوآله:

---

(١) لألحمنه ، أى لأطعمن لحمه بالسيف ، ولأخالطنه ، وقال ابن هشام : لألحمنه بالسيف ، أى لأضربنه به فى وجهه » .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ٤٥٠ طبعة المعارف ، وسيرة ابن هشام .

افْدِ نفسَك ياعبّاس وابنى أخويك عَقِيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عُقْبة بن عمرو ، فإنّك ذو مال ، فقال العبّاس : يارسولَ الله ، إنى كنت مسلما، ولكن القوم استكرهونى ، فقال صلى الله عليه وآله : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ماقلتَ حقًا فإن الله يجزيك به ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافتدِ نفسك ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ منه عشرين أوقيّة من ذهب أصابها معه حين أسِر ، فقال العباس : يارسولَ الله ، احسِبها لى من فدائى ، فقال صلى الله عليه وآله : ذاك شىء أعطانا الله منك ، فقال : يارسولَ الله ، فإنه ليس لى مال ، قال : فأين المال الذى وضعتَه بمكة حين خرجتَ عند أمّ الفضْل بنت الحارث ، وليس معكما أحد ، ثم قلت : إن أصِبْتُ فى سفرى هذا فللفضْل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا، ولقُثَم كذا وكذا! فقال العباس : والّذى بعثك بالحقّ يارسولَ الله ، ماعلم بهذا أحدٌ غيرى وغيرها ، وإنّى لأعلم أنّك رسول الله، ثم فدى نفسَه وابنى أخويه وحليفه .

***

قال الواقدىّ : قدم رسول الله صلى الله عليه وآله من الأثيَل زيد بن حارثة وعبدالله ابن رواحة يبشّران النّاس بالمدينة فجاء يوم الأحد فى الضّحى ، وفارق عبد الله زيدا بالعَقِيق ، فجعل عبد الله ينادى عوالى المدينة : يامعشر الأنصار ، أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين وأسْرهم ، قتِل ابنا ربيعة ، وابنا الحجّاج، وأبو جهل، وزمْعة بن الأسود، وأميّة بن خلف، وأسِر سُهيل بن عمرو ذو الأنياب؛ فى أسرى كثير. قال عاصم بن عدىّ: فقمت إليه فنحوته ، فقلت : أحقًا ماتقول يابن رواحة ؟ قال : إى والله ، وغداً يقدُم رسول الله إن شاء الله ، ومعه الأسرى مقرّنين ، ثم تتبّع دورَ الأنصار بالعالية يبشّرهم ، داراً داراً ، والصّبْيان يشتدّون معه، ويقولون : قُتِل أبو جهل الفاسق ، حتى انتهوْا إلى

دُور بنى أميّة بن زيد ، وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبى صلى الله عليه وآله القَصْوَاء ، يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلّى صاح على راحلته : قتِل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وابنا الحجّاج وأبو جهل ، وأبو البخترىّ وزمْعة بن الأسود وأميّة بن خلف ، وأسِرَ سُهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثيرة ، فجعل النّاس لا يصدقون زيد بن حارثة ، ويقولون: ماجاء زيد إلا فَلاًّ ،حتى غاظ المسلمين ذلك ، وخافوا ، قال : وكان قدومُ زيد حين سوّوا على رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله التّراب بالبقِيع ، فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد : قتل صاحبكم ومَنْ معه،وقال رجل من المنافقين لأبى لُبابة بن عبدالمنذر : قد تفرّق أصحابكم تفرّقًا لايجتمعون معه أبدا ، وقد قتل عِلْية أصحابكم ، وقتل محمّد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا يدرى مايقول من الرّعب ، وقد جاء فَلاًّ ، فقال أبو لُبابة : كذَّب الله قولك ، وقالت يهود : ماجاء زيد إلا فَلاًّ . قال أسامة بن زيد : فجئت حتّى خلوتُ بأبى ، فقلت : ياأبتِ ، أحقٌّ ماتقول ؟ فقال إى والله حقا يابنىّ ، فقويَتْ نفسى ، فرجعت إلى ذلك المنافق ، فقلت : أنت المرجِف برسول الله وبالمسلمين ! لنقدمنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قدم ، فليضربنّ عنقَك ، فقال : ياأبا محمد ، إنّما هو شىء سمعت الناس يقولونه .

قال الواقدىّ : فقدم بالأسْرى وعليهم شُقران وهم تسعة وأربعون رجلا الذين أحصوا ،وهم سبعون فى الأصل،مجمع عليه لاشك فيه؛إلّا أنهم لم يحص سائرهم،ولقى النّاس رسول الله صلى الله عليه وآله بالرّوْحاء يهنئونه بفتح الله عليه ، فلقيه وجوه الخزرج ، فقال سلمة بن سلامة بن وَقْش:ما الذى تهنئونه؟فوالله ماقتلنا إلّا عجائز صُلْعا ! فتبسّم النبى صلى الله عليه وآله وقال : يابن أخى،أولئك الملأ،لو رأيتهم لهِبتَهم،ولو أمروك لأطَعْتَهم، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرتها ! وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيّهم ! فقال سلمة : أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله،إنّك يارسولَ الله لم تزل عنّى معرضا منذ كنّا بالرّوْحاء

فى بدأتنا ، فقال صلى الله عليـه وآله : أمّا ماقلت للأعرابى : وقعتَ على ناقتك فهى حبلى منك ، ففحشت وقلت مالا علم لك به ، وأما ماقلت فى القوم ؛ فإنَّك عَمدت إلى نعمةٍ من نعم الله تزهدها ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وآله معـذرته ، وكان من عِلْية أصحابه .

قال الواقدىّ:فروى الزهرىّ،قال : لقى أبو هند البياضىّ مولى فَرْوة بن عمرو رسولَ الله صلى الله عليه وآله ومعه حَمِيت مملوء حَيْساً (١) أهداه له ، فقـال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنما أبو هند رجلٌ من الأنصار فأنـكحوه، وأنـكحوا إليه » .

قال الواقدىّ : ولقيه أُسَيد بن حُضَير ، فقال : يارسولَ الله ، الحمد لله الذى ظفّرك وأقرّ عينك ، والله يارسولَ الله ، ما كان تخلّفى عن بدر وأنا أظنّ بك أنّك تلقى عدوًّا، ولـكنى ظننت أنّها العير ، ولو ظننت أنّه عدوّ لما تخلّفت ، فقال رسولُ الله : صدقت .

قال : ولقيه عبد الله بن قيس بتُرْبان (٢) ، فقال : يارسول الله الحمد لله على سلامتك وظفرك ، كنتُ يارسولَ الله لياليَ خرجتَ مورودا ــ أى محموما ــ فلم تفارقنى حتى كان بالأمس ، فأقبلت إليك ، فقال : آجرك الله .

قال الواقدىّ:وكان سُهيل بن عمرو لما كان بثنوكة بين السُّقْيا ومَلَل، كان مع مالك ابن الدّخشم الّذى أسره ، فقال له : خلّ سبيلى للغائط ، فقام معه ، فقال سهيـل : إنّى أحتشم فاستأخِرْ عنّى ، فاستأخر عنه ، فمضى سهيل على وجهه ، انتزع يدَه من القران ، ومضى ، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدّخشم،أقبل فصاح فى النّاس ، فخرجوا فى طلبه ، وخرج النبىّ صلى الله عليه وآله فى طَلَبه بنفسه،وقال : مَنْ وجده فليقتله،فوجَده رسول الله

---

(١) الحميت : الزق يجعل فيه السمن والعسل والزيت . والحيس : تمر يخلط بسمط وأقط فيعجن وبدلك شديداً حتى يمتزج ، ثم يندر نواه ، وقد يجعل فيه سويق .

(٢) تربان ، بالضم ، ذكره ياقوت ، وقال : « واد فيه مياه كثيرة ، نزله رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى غزوة بدر .

صلى اللهعليه وآله بنفسه أخفى نفَسه بين شجرات ، فأمر به فَربطَتْ يداه إلى عنقه ، ثم قرنه إلى راحلته ، فلم يركب سهيل خطوة حتى قدم المدينة[١] .

قال الواقدىّ : فحدّثنى إسحاق بن حازم بن عبد الله بن مقسم ، عن جابر بن عبدالله الأنصارىّ ، قال : لقىَ رسول الله صلى الله عليه وآله أسامة بن زيد ،ورسولُ الله صلى الله عليه وآله على ناقته القصوى ، فأجلسه بين يديه وسهيل بن عمرو مجبوب ، ويداه إلى عنقه ، فلمّا نظر إلى سهيل قالوا : يارسول لله ، أبو يزيد ! قال : نعم ، هذا الذى كان يطعم الخبز بمكة .

***

وقال البلاذُرىّ : قال أسامة ــ وهو يومئذ غلام ــ يارسول الله ، هذا الذى كان يطعم الناس بمكة السريد ــ يعنى الثريد[٢] .

قلت : هذه لثغة مقلوبة ، لأنّ الألثغ يبدل السين ثاء ، وهذا أبدل الثاء سينا ، ومن الناس من يرويها : « هذا الذى كان يطعم الناس بمكّة الشريد » بالشين المعجمة .

قال البلاذرىّ : وحدّثنى مُصعب بن عبد الله الزُّبيرىّ ، عن أشياخه أنّ أسامة رأى سُهَيلا يومئذ ، فقال : يارسولَ الله هذا الذى كان يطعم السّريد بمكّة ، فقال رسول الله صلى اللهعليه وآله : «هذا أبو يزيدالذى يطعِم الطعام ، ولكنه سعى فى إطفاء نور الله ، فأمكن الله منه » .

قال : وفيه يقول أميّة بن أبى الصّلت الثقفىّ :

يابا يزيد رأيت سيبَك واسعاً ‎ ‎ ‎ ‎ وسماء جودك تستهلّ فتمطرُ

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٣ (طبعة المعارف) .
(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٤ .

قال : وفيه يقول مالك بن الدخشم (١) ، وهو الذى أسره يوم بدر :

أسرتُ سهيلاً فلا أبتغِى | به غيرَه من جميع الأمَمْ
وخندف تعلم أنَّ الفتَى | سُهيلًا فتاها إذا تظَلِمْ
ضربت بذى الشفر حتى انثنى | وأكرهت نفسى على ذى العلَمْ

أى على ذى العلْم بسكون اللام ، ولكنه حرّكه للضرورة .

وكان سهيل أعلَمَ مشقوق الشّفَة العليا ، فكانت أنيابه ، بادية ، فلذلك قالوا : ذو الأنياب .

***

قال الواقدىّ : ولمّا قدم بالأسرى كانت سوْدة بنت زمْعة زوْج النبىّ صلى الله عليه وآله عند آل عَفْراء فى مناحتهم على عوف ومعوّذ ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب ، قالت سودة : فأتينا فقيل لنا : هؤلاء الأسرى قد أتى بهم ، فخرجت إلى بيتى ورسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، وإذا أبو يزيد مجموعة يداه إلى عنقه فى ناحيه البيت ، فوالله ماملكت نفسى حين رأيته مجموعةً يداه إلى عنقه أن قلت : أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ! ألا متم كراما فو الله ماراعنى إلا قول رسول صلى الله عليه وآله من البيت : « ياسودة ، أعلى الله وعلى رسوله » ، فقلت : يانبىّ الله ، والذى بعثك بالحقّ إنى ماملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أنْ قلت ماقلت .

***

قال الواقدىّ :وحدثنى خالدبن إلياس، قال :حدّثنى أبو بكر بن عبدالله بن أبى جَهْم ، قال : دخل يومئذ خالد بن هشام بن المغيرة وأميّة بن أبى حُذيفة منزلَ أم سلَمَة وأم سلمة فى مناحة آل عَفْراء ، فقيل لها : أُتِىَ بالأسرى ، فخرجت فدخلت عليهم فلم تكلّمهم حتى

---

(١) البلاذرى : « مالك ابن الدخشم بن مالك بن الدخشم بن مرضخة بن غنم — وهو قوقل — بن عوف ابن الخزرج .

رجعت ، فتجد رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله فى بيت عائشة ، فقالت : يارسولَ الله ، إن بنى عمى طلبوا أن يدخل بهم علىّ فأضيفهم ، وأدهن رءوسهم وألمّ من شعثهم ، ولم أحبّ أن أفعل شيئاً من ذلك حتى استأمرك ، فقال صلى الله عليه وآله : « لست أكره شيئاً من ذلك ، فافعلى مِنْ هـذا مابدا لك » . قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن عبدالله، عن الزهرىّ ، قال : قال أبو العاص بن الربيع : كنت مستأسِراً مع رَهْط من الأنصار جزاهم الله خيراً ، كنّا إذا تعشّينا أو تغدّينا آثرونى بالخبز ، وأكلوا التمر ، والخبز عندهم قليل والتمر زادهم ، حتى إنّ الرجُلَ لتقع فى يده الكسرة فيدفعها إلىّ ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد . قال : وكانوا يحملوننا ويمشون .

وقال محمد بن إسحاق فى كتابه: كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس خَتَن رسول الله صلى الله عليه وآله زوج ابنته زينب ، وكان أبو العاص من رجال مكّة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة ، وكان ابناً لهالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد ، وكان الرّبيع بن عبد العُزّى بعلَ هذه فكانت خديجة خالته ، فسألتْ خديجة رسول الله صلى الله عليه وآله أن يزوّجه زينبَ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لايخالف خديجة ، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحْىُ ، فزوّجه إيّاها ، فكان أبو العاص من خديجة بمنزلة ولدها ، فلمّا أكرم الله رسوله بنبوّته آمنت به خديجة وبناته كلّهنّ وصدّقته وشهدْنَ أن ماجاء به حق ودِينٌ بدينه ، وثبَت أبو العاص على شِركه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد زوّج عُتبة بن أبى لهب إحدى ابنتيه رقيّة أو أم كلثوم ، وذلك من قبل أن ينزل عليه ، فلمّا أنزل عليه الوحى ونادى قومه بأمر الله باعدوه ، فقال بعضهم لبعض: إنكم قد فرّغتم محمد من همّه ، أخذتم عنه بناته وأخرجتموهنّ من عياله ، فردّوا عليه بناته ، فاشغلوه بهنّ فمشوْا إلى أبى العاص بن الربيع ، فقالوا : فارقْ صاحبتَك بنت محمد ، ونحن نزوّجك أىّ

امرأة شئت من قريش ، فقال : لاها اللهِ ! إذن لا أفارق صاحبتى ، وما أحبّ أنّ لى بها امرأةً من قريش ! فكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إذا ذكره يُثْنِى عليه خيرا فى صهره ، ثم مشوا إلى الفاسق عُتْبة بن أبى لهب ، فقالوا له : طلّق بنت محمّد ، ونحن ننكحك أىّ امرأة شئت من قريش ، فقال : إن أنتم زوّجتمونى ابنة أبان بن سعيد ابن العاص ، أو ابنةَ سعيد بن العاص فارقتُها ، فزوّجوه ابنة سعيد بن العاص ، ففارقها ولم يكن دخل بها ، فأخرجها الله من يده كرامةً لها وهوانا له ثم خلف عليها عثمان ابن عفان بعده ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله مغلوبا على أمره بمكّة لا يُحِلّ ولا يُحرّم ، وكان الإسلام قد فرّق بين زينب وأبى العاص ، إلّا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يقدر وهو بمكّة أن يفرّق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو على شِرْكه ، حتى هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وبقيتْ زينب بمكّة مع أبى العاص ، فلمّا سارتْ قريش إلى بدْر سار أبو العاص معهم ، فأصيب فى الأسرى يوم بدر ، فأُتى به النبيّ صلى الله عليه وآله ، فكان عنده مع الأسارى ، فلمّا بعث أهل مكة فى فداء أساراهم ، بعثت زينب فى فداء أبى العاص بعلها بمال ، وكان فيما بعثت به قلادة كانت خديجة أمّها أدخلتها بها على أبى العاص ليلة زفافها عليه ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله رقّ لها رقّة شديدة ، وقال للمسلمين : إنْ رأيتم أن تطلِقوا لها أسيرها ، وتردّوا عليها مابعثت به من الفداء فافعلوا ، فقالوا : نعم يارسولَ الله ؛ نفديك بأنفسنا وأموالنا ، فردُّوا عليها مابعثت به ، وأطلقوا لها أبا العاص بغير فداء (١) .

***

قلت : قرأت على النقيب أبى جعفر يحيى بن أبى زيد البصرىّ العلوىّ رحمه الله هذا الخبر ، فقال : أترى أبا بكر وعمر لم يشهدا هذا المشهد ! أما كان يقتضى التكريم والإحسان

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

أن يطيّب قلب فاطمة بفدك ، ويستوهب لها من المسلمين، أتقصر منزلتها عند رسول الله صلى الله عليه وآله عن منزلة زينب أختها وهي سيّدة نساء العالمين ! هذا إذا لم يثبُت لها حقّ ، لا بالنِّحلة ولا بالإرث ، فقلت له : فدكُ بموجب الخبر الذى رواه أبو بكر قد صار حقًّا من حقوق المسلمين فلم يجُز له أن يأخذه منهم ، فقال : وفداء أبى العاص بن الربيع قد صار حقًّا من حقوق المسلمين ، وقد أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله منهم ! فقلت : رسول الله صلى الله عليه وآله صاحبُ الشريعة ، والحُكْم حكمُه ، وليس أبو بكر كذلك، فقال : ما قلتُ : هلاّ أخذه أبو بكر من المسلمين قهرا فدفعه إلى فاطمة ، وإنما قلت : هلاّ استنزل المسلمين عنه واستوهبه منهم لها كما استوهب رسول الله صلّى الله عليه وآله المسلمين فداء أبى العاص! أتراه لو قال: هذه بنت نبيّكم قد حضرتْ تطلب هذه النَّخلاتِ، أفتطيبون عنها نفسا ؟ أكانوا منعوها ذلك ! فقلت له : قد قال قاضى القضاة أبو الحسن عبد الجبّار بن أحمد نحو هذا ، قال : إنهما لم يأتيا بحسن فى شَرْع التكرّم ، وإن كان ما أتياه حَسَنًا فى الدّين .

* * *

قال محمد بن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أطلق سبيل أبى العاص أخذ عليه فيما نرى أو شرط عليه فى إطلاقه ، أو أنّ أبا العاص وعد رسول الله صلّى الله عليه وآله ابتداء بأن يحمل زينب إليه إلى المدينة ، ولم يظهر ذلك من أبى العاص ؛ ولا من رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أنّه لما خُلِّىَ سبيله ، وخرج إلى مكّة بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بعده زيد بن حارثه ورجلا من الأنصار ، فقال لهما : كونا بمكان كذا[1] حتى تمرّ بكما زينب فتصحبانها حتى تأتيانى بها ، فخرجا نحو مكّة ، وذلك بعد بدر بشهر

---

(١) سيرة ابن هشام : « كونا ببطن يأجج » ، ويأجج : اسم لمكانين : أحدهما على ثمانية أميال من مكة ، وثانيهما أبعد منه ، وفيه بنى مسجد الشجرة ، وبينه وبين مسجد التنعيم ميلان .

[أو شيعه](١)، فلما قدم أبو العاص مكّة أمرها باللّحوق بأبيها ، فأخذت تتجهّز(٢) .

قال محمد بن إسحاق : فحدّثت عن زينب أنّها قالت : بينا أنا أتجهّز للحوق بأبى ، لقيتْنِى هند بنت عُتْبة ، فقالت : ألم يبلغنى يا بنت محمد أنك تريدين اللّحوق بأبيك ! فقلت : ما أردت ذلك ، فقالت : أىْ بنت عم لا تفعلى إن كانت لك حاجة فى متاع أو فيما يرفق بك فى سفرك أو مال تبلغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك ، فلا تَضْطَنِى(٣) منّى ، فإنه لا يدخل بين النّساء ما يدخل بين الرجال ، قالت : وايمُ الله ، إنى لأظنها حينئذ صادقة، ما أظنها قالت حينئذ إلا لتفعل ، ولكن خفْتُها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

قالت : وتجهّزتُ حتى فرغت من جهازى ، فحملنى أخو بَعْلِى وهو كنانة بن الربيع .

قال محمد بن إسحاق: قدّم لها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته،وأخذ قوسه وكنانته،وخرج بها نهاراً يقود بعيرها،وهى فى هَوْدَج لها ،وتحدّث بذلك الرّجال من قريش والنساء،وتلاومت فى ذلك ،وأشفقت أن تخرج ابنة محمد من بينهم على تلك الحال، فخرجوا فى طلبها سراعا حتى أدركوها بذى طوى ؛ فكان أوّل مَنْ سبق إليها هبّار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزّى بن قصىّ ، ونافع بن عبد القيس الفِهْرِىّ ،فروّعها هبّار بالرّمح وهى فى الهودج ، وكانت حاملا ، فلما رجعت طرحت مافى بطنها ، وقد كانت من خوفها رأت دماً وهى فى الهودج ، فلذلك أباح رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكّة دمَ هبّار ابن الأسود(٤) .

***

---

(١) من سيرة ابن هشام . وشيعه أى قريب منه .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٣) تضطنى ، أى تستحى ، ومنه قول الطرماح :

إذا ذُكرتْ مسعاةُ والدِهِ اضْطَنَى ولا يَضْطَنِى من شَتْمِ أهْلِ الْفَضَائِلِ

(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

قلت : وهذا الخبر أيضا قرأته على النّقيب أبى جعفر رحمه الله، فقال : إذا كان رسول الله صلّى الله عليه وآله أباح دم هبّار بن الأسود لأنّه روّع زينب فألقتْ ذا بطنها ، فظهر الحال أنه لو كان حيًّا لأباح دم مَنْ روّع فاطمة حتى ألقت ذا بطنها . فقلت : أروى عنك مايقوله قومٌ أنّ فاطمة روِّعت فألقت المحسن (١) ، فقال : لا تروِه عنّى ولا تروِ عنّى بطلانه ، فإنّى متوقّف فى هذا الموضع لتعارض الأخبار عندى فيه .

قال الواقدىّ : فبرك حَمُوها كنانة بن الربيع ، ونثلَ (٢) كنانته بين يديه ، ثم أخذ منها سهما فوضعه فى كبد قوسه ، وقال : أحلف بالله لا يدنُو اليوم منها رجلٌ إلّا وضعتُ فيه سهما ، فتكرّ (٣) الناس عنه .

قال : وجاء أبو سفيان بن حرب فى جِلّةٍ من قُريش ، فقال : أيّها الرّجل ، اكفُفْ عنّا نَبْلَك حتى نكلّمك ، فكفّ . فأقبل أبو سفيان حتّى وقف عليه ، فقال : إنّك لم تحسن ولم تُصِبْ ، خرجتَ بالمرأة على رءوس الناس علانية جهارا ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد أبيها ، فيظنّ الناس إذا أنت خرجت بابنته إليه جهارا أنّ ذلك عن ذلٍّ أصابنا ، وأنّ ذلك منّا وَهَن ، ولعمرى مالنا فى حبسها عن أبيها من حاجة ، ومافيها من ثأر ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدّث الناس بردّها سُلّها سَلاًّ خفيًّا ، فألحقها بأبيها. فردها كنانة بن الربيع إلى مكة ، فأقامت بها ليالىَ حتى إذا هدأ الصوت عنها حملها على بعيرها، وخرج بها ليلا حتى سلّمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدما بها على رسول الله صلى الله عليه وآله (٤) .

***

قال محمد بن إسحاق : فروى سليمان بن يسار ، عن أبى إسحاق الدّوْسى ، عن

---

(١) ا : « محسناً » . (٢) نثل كنانته : أخرج ما فيها .
(٣) تكر عنه ، أى ترجع ، وفى ابن هشام : « فتكرر الناس عنه » .
(٤) انظر سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٩ .

٥٦٤

أبي هريرة ، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سرية أنا فيها إلى عيرٍ لقريش ، فيها متاع لهم وناس منهم ، فقال : إن ظفرتم بهبّار بن الأسود ونافع بن عبدقيس ، فحرّقوهما بالنار ، حتى إذا كان الغدُ بعث فقال لنا : « إني كنت قد أمرتكم بتحريق الرّجلين إن أخذتموهما ، ثم رأيت أنّه لا ينبغي لأحدٍ أن يعذِّب بالنّار إلا الله تعالى ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما ولا تحرّقوهما »[(١)].

قلت : لقائل من المجبِرة أنْ يقول : أليس هذا نسخ الشّيء قبل تقضّي[(٢)] وقت فعله ، وأهل العدل لا يجيزون ذلك ! وهذا السؤال مشكِل ، ولا جوابَ عنه إلّا بدفع الخبر إمّا بتضعيف أحد من رواته ، أو إبطال الاحتجاج به لكونه خبر واحد ، أو بوجه آخر ؛ وهو أن نجيز للنبي الاجتهاد في الأحكام الشرعية كما يذهب إليه كثير من شيوخنا ، وهو مذهب القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ومثل هذا الخبر حديث براءة وإنفاذها مع أبي بكر ، وبعث عليٍّ عليه السلام ، فأخذها منه في الطريق ، وقرأها على أهلِ مكّة بعد أن كان أبو بكر هو المأمور بقراءتها عليهم .

فأمّا البلاذريّ فإنه روى أن هبّار بن الأسود كان ممّن عرّض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله حين حُمِلتْ من مكّة إلى المدينة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر سراياه إن ظفروا به أن يحرّقوه بالنار ، ثم قال[(٣)] : لا يعذِّب بالنّار إلا ربّ النار ، وأمرهم إن ظفروا به أن يقطعوا يديْه ورجليه ويقتلوه ؛ فلم يظفروا به ، حتى إذا كان يوم الفتح هرب هبّار ، ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة — ويقال : أتاه بالجعرانة — حين فرغ من أمر حُنَين ، فمثَلَ بين يديه ، وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقبل إسلامه وأمر ألّا يُعرَض له ، وخرجت سَلْمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٠٢ .
(٢) ا « مضيّ » .
(٣) ساقطة من ب .

فقالت : لا أنعم الله بك عينا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مهلاً ، فقد محا الإسلام ماقبله » !

قال البلاذرى : فقال الزبير بن العوام : لقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بعد غلظته على هبّار بن الأسود يطأطىء رأسه استحياء منه وهبّار يعتذر إليه ، وهو يعتذر إلى هبّار أيضا [(١)] .

* * *

قال محمد بن إسحاق : فأقام أبو العاص بمكّة على شِرْكه ، وأقامت زينب عند أبيها صلى الله عليه وآله بالمدينة ، قد فرّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قبل الفَتْح ، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بمالٍ له ، وأموال لقريش أبضعوا [(٢)] بها معه ، وكان رجلا مأمونا ، فلمّا فرغ من تجارته وأقبل قافلا لقيتْه سريّة لرسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فأصابوا ما معه وأعجزهم هو هاربا ، فخرجت السريّة بما أصابت من ماله ؛ حتّى قدمت به على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج أبو العاص تحت الليل ، حتى دخل على زينب ـ ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله ـ منزلَها ، فاستجار بها فأجارتْه ، وإنما جاء فى طلب ماله الذى أصابته تلك السريّة ، فلمّا كبّر رسول الله صلى الله عليه وآله فى صلاة الصبح ، وكبّر الناس معه ، صرخت زينب من صُفّةِ النساء : أيها الناس ، إنّى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بالنّاس الصبح ، فلمّا سلم من الصلاة ، أقبل عليهم فقال : « أيها الناس ، هل سمعتم ماسمعتُ ؟ » ، قالوا : نعم ، قال : « أمَا والّذى نفس محمد بيده ماعلمت بشىء مما كان حتى سمعتم ، إنه يجير على الناس أدناهم » . ثم انصرف ودخل على ابنته زينب ، فقال : « أىْ بنيّة ، أكرمى مثواه ، وأحسنِى قِراه ، ولا يصلَنّ إليك ، فإنّك

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣٩٨ مع اختلاف فى الرواية .
(٢) ا : « أبضعوها معه » .

لا تحِلّين له » . ثم بعث إلى تلك السريّة الذين كانوا أصابوا مال أبي العاص، فقال لهم: إنّ هذا الرجل منّا بحيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردّوا عليه الذى له ، فإنّا نحبّ ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم ، وأنتم أحقّ به . فقالوا : يارسولَ الله ، بل نردّه عليه ، فردُّوا عليه ماله ومتاعه ، حتى إنّ الرجل كان يأتى بالحَبْل [1] ، ويأتى الآخر بالشنّة [2] ، ويأتى الآخر بالإداوة [3] ، والآخر بالشِّظاظ [4] ، حتى ردُّوا مالَه ومتاعه بأسرِه من عنـد آخره ولم يفقد منه شيئا . ثم احتمل إلى مكّة ، فلما قدمها أدّى إلى كلّ ذى مال من قريش مالَه ممّن كان أبضع معه بشىء ، حتى إذا فرغ من ذلك ، قال لهم : يامعشرَ قريش ، هل بقىَ لأحدٍ منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا فجزاك الله خيرا ، لقد وجدناك وفيًّا كريما ، قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والله مامنعنى من الإسلام إلاّ تخوّف أن تظنّوا أنى أردتُ أن آكل أموالكم ، وأذهب بها فإذ سلّمها الله لكم ، وأدّاها إليكم ؛ فإنى أشهدكم أنّى قد أسلمتُ واتبعت دين محمد . ثم خرج سريعا حتى قدم على رسول الله المدينة [5] .

قال محمد بن إسحاق : فحدّثنى داود بن الحصين ، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وآله ردّ زينب بعد ستّ سنين على أبى العاص بالنكاح الأول لم يحدث شيئا [6] .

***

قال الواقدىّ : فلمّا فرغ رسولُ الله صلى الله عليه وآله من أمر الأسارَى، وفرّق الله عزّ وجلّ ببدر بين الكفر والإيمان ، أذلّ رقاب المشركين والمنافقين واليهود ، ولم يبق بالمدينة يهودىّ ولا منافق إلّا خضعت عنقه .

---

(١) ابن هشام : « بالدلو » .
(٢) الشنة : السقاء البالى .
(٣) الإداوة : المطهرة التى يتوضأ بها .
(٤) الشظاظ : عود يشد به فم الغرارة .
(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٠٣ ، ٣٠٤
(٦) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٠٤ .

وقال قوم من المنافقين : ليتنا خرجْناَ معه حتى نصيب غنيمة . وقالت يهود فيما بينها : هو الذى نجد نعته فى كتبنا ، والله لا تُرْفع له راية بعد اليوم إلّا ظهرت .

وقال كعب بن الأشرف : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها ، هؤلاء أشراف الناس وساداتهم ، وملوكُ العرب وأهل الحرَم والأمْن قد أصيبوا . وخرج إلى مكّة ، فنزل على أبى وَدَاعة بن ضُبيرة ، وجعله يرسل هجاء المسلمين ، ورثى قتلى بدر من المشركين ، فقال :

طَحَنَتْ رَحَا بدرٍ لِمُهْلَكِ أهلِه ... ولِمِثْلِ بدْرٍ يُستهلّ ويُدْمَعُ[1]
قُتِلَتْ سراةُ النَّاس حول حياضِه ... لا تبعَدُوا إنَّ الملوكَ تُصرَّعُ[2]
ويقولُ أقوامٌ أذِلّ بعزّهم[3] : ... إن ابن أشرفَ ظلّ كعبا يجزَعُ
صدقُوا فليتَ الأرض ساعة قُتِّلوا ... ظلّتْ تسيخُ بأهلها وتَصدّعُ[4]
نُبّئتُ أنّ الحارث بن هشامِهمْ ... فى النّاس يبنى الصالحاتِ ويَجْمَعُ[5]
ليزورَ يثرب بالجموع وإنّمــا ... يسعى على الحسبِ القديمِ الأرْوَعُ[6]

قال الواقدىّ : أملاها علىّ عبدُ الله بن جعفر ومحمد بن صالح وابن أبى الزّناد . فلمّا أرسل كعب هذه الأبيات أخذَها الناس بمكة عنه ، وأظهروا المراثى ـ وقد كانوا حرّموها كيلا يشمت المسلمون بهم ـ وجعل الصبيان والجوارى ينشدونَها بمكّة ، فناحت بها قريش

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٣١ ، ٤٣٢ ، وأنساب الأشراف ١ : ٢٨٤ ، والبيتان الأخيران فى نسب قريش ٣٠١ .

(٢) سراة الناس : خيارهم .

(٣) البلاذرى : « غوى أمرهم » ، ابن هشام : « أسر بسخطهم » . الواقدى : «أذل بسخطهم» .

(٤) بعده فى ابن هشام :

صارَ الذى أثرَ الحديث بطعنةٍ ... أوعاشَ أعمى مرعَشاً لا يسمعُ
نبئت أن بنى المغيرة كلَّهُمْ ... خَشَعُوا لقتلِ أبى الحكيمِ وجُدِّعوا
وابنا رَبيعـــةَ عنده ومُنَبّهٌ ... ما نَالَ مثلَ الهالــكينَ وتُبَّعُ

(٥) نسب قريش : « يبنى المكرمات » .

(٦) نسب قريش : « ليزور أثرب » ، وأثرب لغة فى يثرب .

على قتلاها شهراً ، ولم تبقَ دارٌ بمكة إلّا فيها النوْح ـ وجزّ النساء شعورهنّ ، وكان يؤتى براحلة الرّجل منهم أو بفرسه ، فتوقَف بين أظهرهم ، فينوحون حولها ، وخرجن إلى السّكك ، وضربْنَ الستور فى الأزقّة ، [وقطعن] (١) فخرجن إليها ينحْن ، وصدّق أهلُ مكة رؤيا عاتكة وجهيم بن الصَّلْت (٢) .

قال الواقدىّ : وكان الّذين قدموا من قريش فى فداء الأسرَى أربعة عشر رجلا ، وقيل خمسة عشر رجلا ، وكان أوّل مَنْ قدِم المطّلب بن أبى وداعة ، ثم قدم الباقون بعده بثلاث ليال .

قال : فحدّثنى إسحاق بن يحيى ، قال : سألت نافع بن جُبَير : كيف كان الفداء ؟ قال : أرفعهم أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف ، إلّا قوما لا مال لهم منّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله فى أبى وداعة : إنّ له بمكّة ابنا كيّسا له مال ، وهو مُغْلٍ فدَاءه ، فلمّا قدم افتداه بأربعة آلاف ، وكان أوّل أسير افتُدى ؛ وذلك أنّ قريشا قالت لابن المطلب بن أبى وداعة ـ ورأتْه يتجهزّ ، يخرج إليه ـ : لا تعجَلْ ؛ فإنّا نخاف أن تفسد علينا فى أسارانا ، ويرى محمّد تهالكنا فيُغلِى علينا الفدية ، فإن كنت تجد فإنّ كلّ قومك لا يجدون من السّعة ما تجد . فقال : لا أخرج حتى تخرجوا ، فخادعهم حتى إذا غفلوا خرج من الّليل على راحلته ، فسار أربعة ليال إلى المدينة فافتدى أباه بأربعة آلاف ، فلامه قريش فى ذلك ، فقال : ما كنت لأترك أبى أسيرا فى أيدى القوم وأنتم مضجعون ، فقال أبو سفيان بن حرب : إن هذا غلام حدَث يعجب بنفسه وبرأيه ، وهو مفسد عليكم ، إنى والله غير مفتدٍ عمرو بن أبى سفيان ، ولو مكث سنة

---

(١) من الواقدى .
(٢) مغازى الواقدى ١١٥ ، ١١٦ .

أو يرسله محمد: والله ما أنا بأعوذكم، ولكنى أكره أن أُدخِل عليكم ما يشقّ عليكم، ولكن يكون عمرو كأسوتكم.

***

قال الواقدىّ: فأمّا أسماء القوم الّذين قدموا فى الأسرى، فإنّه قدم من بنى عبدشمس الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيط، وعمرو بن الربيع أخو أبى العاص بن الربيع. ومن بنى نوفل ابن عبدمناف جُبيَر بن مطعِم: ومن بنى عبد الدار بن قُصىّ طلحة بن أبى طلحة، ومن بنى أسد ابن عبد العُزّى بن قصىّ عثمان بن أبى حُبيش. ومن بنى مخزوم عبد الله بن أبى ربيعة وخالد بن الوليد وهشام بن الوليد بن المغيرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبى جهل. ومن بنى جُمَح أُبىّ بن خلَف وعُمير بن وهب. ومن بنى سهم المطّلب بن أبى وداعة وعمرو بن قيس. ومن بنى مالك بن حِسْل مكرز بن حفْص بن الأحنف، كلّ هؤلاء قدموا المدينة فى فداء أهلهم وعشائرهم. وكان جبير بن مطعِم يقول: دخل الإسلامُ فى قلبى منذ قدمت المدينة فى الفِداء، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ فى صلاة المغرب: ﴿ والطُّورِ*وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾، فاستمعت قراءته، فدخل الإسلام فى قلبى منذ ذلك اليوم (١).

***

القول فى تفصيل أسماء أسارى بدر ومن أسرهم

قال الواقدىّ: أسِر من بنى هاشم العبّاس بن عبد المطلب، أسره أبو اليسَر كعب ابن عمرو، وعَقِيل بن أبى طالب أسره عَبيد (٢) بن أوس الظَّفَرىّ، ونوفل بن الحارث

---

(١) انظر مغازى الواقدى ١٣٣ ـ ١٤١.
(٢) « عبيدة »، والصواب ما أثبته من ا والواقدى وابن هشام.

ابن عبد المطّلب أَسَره جَبّار بن صخر ؛ وأسِر حليف لبنى هاشم من بنى فهر ، اسمه عُتْبة فهؤلاء أربعة .

ومن بنى المطّلب بن عبد مناف السّائب بن عبيد ، وعبيد بن عمرو[1] بن علقمة ، رَجُلان أسرهما سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلىّ .

قال الواقدىّ : حدثنى بذلك ابن أبى حبيبة ، قال : ولم يقدم لهما أحد ، وكانا لامال لهما ، ففكّ رسول الله صلى الله عليه وآله عنهما بغير فدْية .

ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف عُقْبة بن أبى مُعَيط المقتول صَبْراً[2] ، على يد عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح بأمر رسول الله ، أسره عبد الله بن أبى سلمة العجلانىّ ، والحارث بن أبى وجْزة ابن أبى عمرو بن أمية ، أسره سعد بن أبى وقّاص ، فقدم فى فدائه الوليد بن عقبة بن أبى مُعيط فافتداه بأربعة آلاف .

قال الواقدىّ : وقد كان الحارث هذا لما أمر النبى صلى الله عليه وآله بردّ الأسارى ، ثم أقرع بين أصحابه عليهم ، وقع فى سهم سعد بن أبى وقاص الّذِى كان أسره أوّل مرة — وعمرو ابن أبى سفيان ، أسره علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وصار بالقُرْعة فى سهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأطلقه بغير فدْية ، أطلقه بسعد بن النعمان بن أكال من بنى معاوية ، خرج معتمرا ، فحبس بمكة ، فلم يطلقه المشركون حتى أطلق رسول الله صلى الله عليه وآله عمرو بن أبى سفيان .

وروى محمد بن إسحاق فى كتاب "المغازى" : أنّ عمرو بن أبى سفيان أسره علىّ عليه السلام يوم بَدْر ، وكانت أمّه ابنة عُقْبة بن أبى مُعَيط ، فمكث فى يد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقيل لأبى سفيان : ألا تفتدِى ابنك عمرا ؟ قال : أيجمع علىّ دمى ومالى ! قتلوا حنظلَة وأفتدى عمراً ! دعوه فى أيديهم فليمسكوه مابدا لهم . فبينا هو محبوس بالمدينة ، خرج

(١) كذا فى الأصول والواقدى ، وأنساب الأشراف ، وفى ابن هشام : « نعمان بن عمرو » .
(٢) الواقدى : « قتل صبراً » .

سعد بن النعمان بن أكّال أخو بنى عمرو بن عوف معتمرا ، ومعه امرأة [1] له ، وكان شيخا كبيرا لايخشى ماصنع [2] به أبوسفيان: وقد عهدقريشا ألّا يعرِض لحاجّ ولامعتمِر [3] ، فعدَا عليه أبو سفيان ، فحبسه بمكة بابنه عمرو بن أبى سفيان ، وأرسل إلى قوم بالمدينة هذا الشعر :

أرهط ابن أكّالٍ أجيبوا دعاءه تعاقدتمُ لاتُسلِموا السيّد الكَهْلا
فإنّ بنى عمرو لئــام أذِلّةٌ لئن لم يفكّوا عن أسيرهمُ الكَبْلا

فمشى بنو عمرو بن عوف حين بلغهم الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأخبروه بذلك، وسألوه أن يعطيَهم عمرو بن أبى سفيان ليفكُّوا به صاحبَهم ، فأعطاهم إياه، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلّى سبيل سعد . وقال حسان بن ثابت يجيب أبا سفيان :

ولو كان سعدٌ يوم مكّة مطلقــا لأكثر فيكُمْ قبل أن يؤسر القتلَى
بعَضْبٍ حُســام أو بصفراء نَبْعــةٍ تحنّ إذا ما أنبِضت تحفِزُ النَّبْلاَ [4]

وأبو العاص بن الربيع، أسَره خِرَاش بن الصِّمّة؛ فقدم فى فدائه عمرو بن أبى الربيع أخوه، وحليف لهم ، يقال له أبو ريشة افتداه عمرو بن الربيع أيضا . وعمرو بن الأزرق افتكّه عمرو بن الربيع أيضا، وكان قد صار فى سهم تميم مولى خراش بن الصِّمّة، وعُقْبة بن الحارث الحضرمىّ أسره عمارة بن حزم، فصار فى القرعة لأبىّ بن كعب ، افتداه عمرو بن أبى سفيان ابن أميّة ، وأبو العاص بن نوفل بن عبد شمس، أسره عمّار بن ياسر قدم فى فدائه ابن عمّه. فهؤلاء ثمانية .

---

(١) ابن هشام : « مرية » . (٢) ابن هشام : « ما صنع به » .
(٣) ابن هشام : لا يعرضون لأحد جاء حاجا أو معتمرا إلا بخير » .
(٤) العضب : السيف القاطع ، وكذلك الحسام . وصفراء أراد بها قوساً . والنبعة : شجرة تنبت بالجبال ؛ تصنع منها القسى . وتحن : تصوت . وأنبضت : مد وترها . والأنباض : أن يحرك وتر القوس ويعد . والخبر فى سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

ومن بنى نوفل بن عبد مناف عدىّ بن الخيار ، أسره خراش بن الصّمة ، وعثمان ابن عبدشمس، ابن أخى عتبة بن غَزْوان حليفهم [1] ، أسره حارثة بن النّعمان، وأبو ثور، أسره أبو مَرْثد الغنوىّ ، فهؤلاء ثلاثة افتداهم جُبير بن مطعِم .

ومن بنى عبدالدار بن قصىّ أبو عزيز بن عُمير،أسره أبو اليَسَر، ثم صار بالقرعة لمحرِز ابن نَضْلة – قال الواقدىّ:أبو عزيز هذا هوأخو مصعب بن عمير لأبيه وأمّه،وقال مصعب لمحرز بن نضلة : اشدد يديْك به ؛ فإنّ له أمّا بمكة كثيرة المال ، فقال له أبو عزيز : هذه وصاتك بى يا أخى ! فقال مصعب : إنّه أخى دونك ، فبعثتْ فيه أمّه أربعة آلاف، وذلك بعد أن سألتْ : ما أغلى ماتفُادِى به قريش ؟ فقيل لها : أربعة آلاف – والأسود بن عامر ابن الحارث بن السبّاق ، أسره حمزة بن عبد المطلب، فهذان اثنان قدم فى فدائهما طَلْحة ابن أبى طلحة .

ومن بنى أسد بن عبد العُزّى بن قُصىّ: السائب بن أبى حُبَيش بن المطّلب بن أسد ابن عبد العزّى ، أسره عبدالرحمن بن عوف . وعثمان بن الحويرث بن عثمان بن أسد بن عبد العزّى ، أسره حاطب بن أبى بَلْتعة ، وسالم بن شمّاخ أسره سعد بن أبى وقّاص ؛ فهؤلاء ثلاثة قدِم فى فدائهم عثمان بن أبى حبيش بأربعة آلاف لكلّ رجل منهم .

ومن بنى تميم بن مرّة ، مالك بن عبدالله بن عثمان،أسره قُطْبة بن عامر بن حديدة، فمات فى المدينة أسيرا .

ومن بنى مخزوم خالد بن هشام بن المغيرة،أسره سواد بن غزيّة.وأميّة بن أبى حذيفة ابن المغيرة ، أسره بلال . وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وكان أفلت يوم نَخْلة ، أسره واقد بن عبد الله التميمىّ يوم بدر ، فقال له : الحمدُ لله الذى أمكننى منك ، فقد كنت أفلتّ يوم نخلة – وقدم فى فداء هؤلاء الثلاثة عبد الله بن أبى ربيعة ، افتدى كلّ واحد منهم بأربعة آلاف – والوليد بن الوليدة بن المغيرة ، أسره عبد الله بن جحش ،

---

(١) الواقدى : « حليف لهم » .

فقدِم فى فدائه أخواه خالد بن الوليد وهشام بن الوليد ، فتمنّع عبد الله بن جحش حتى افتكّاه بأربعة آلاف ، فجعل هشام بن الوليد يريد ألّا يبلغ ذلك ـ يريد ثلاثة آلاف فقال خالد لهشام : إنه ليس بابن أمّك ، والله لو أبَى فيه إلّا كذا وكذا لفعلت . فلمّا افتدياه خرجا به حتى بلغا به ذا الحُليفة ، فأفلت ، فأتى النبىّ صلى الله عليه وآله فأسلم ، فقيل : ألا أسلمتَ قبل أن تفتدى ! قال : كرهتُ أن أسلِم حتّى أكونَ أسوةً بقومى .

ـ قال الواقدىّ : ويقال إن الذى أسر الوليد بن الوليد سليط بن قيس المازنىّ ـ وقيس ابن السائب ؛ أسره عبدة بن الحسحاس ، فحبسه عنده حينا ، وهو يظنّ أنّ له مالًا ، ثم قدم فى فدائه أخوه فرْوة بن السائب ، فأقام أيضاً حيناً ، ثمّ افتداه بأربعة آلاف فيها عُروض .

ومن بنى أبى رفاعة صيْفِىّ بن أبى رفاعة بن عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ، وكان لا مال له ، أسره رجلٌ من المسلمين ، فمكث عندهم ، ثم أرسله . وأبو المنذر بن أبى رفاعة بن عائذ افتُدى بألفين ـ ولم يذكر الواقدى مَنْ أسره ـ وعبدالله ، وهو أبو عطاء ابن السائب بن عائذ بن عبد الله ، افتُدى بألف درهم ، أسره سعد بن أبى وقاص ، والمطلب بن حنظلة بن الحارث بن عبيد بن عمير بن مخزوم ، أسره أبو أيوب الأنصارىّ ـ ولم يكن له مال فأرسله بعد حين ـ وخالد بن الأعلم العقيلىّ ، حليف لبنى مخزوم ، وهو الذى يقول :

وَلَسْنَا على الأعقاب تدمَى كلومُنــا ولـكِنْ على أقدامِنَا تقطرُ الدِّما[1]

---

(١) رواية ابن هشام ٢ : ٣٦٥ :

ولَسْنَا على الأدْبَار تَدْمَى كُلُومُنَا ولـكنْ على أقْدَامِنَا يَقْطُرُ الدَّمُ

وقال محمد بن إسحاق : روى أنّه كان أوّل المنهزمين[(١)] ، أسره الحبّاب بن المنذر بن الجَمُوح ، وقدم فى فدائه عكرمة بن أبى جهل ، فهؤلاء عشرة .

ومن بنى جُمح عبد الله بن أبىّ بن خلف ، أسره فَرْوة بن أبى عمرو البياضىّ ، قدم فى فدائه أبوه أبىّ بن خَلَف فتمنّع بهفروةحينا .وأبو عزّة عمرو بن عبد الله بن وهب ، أطلقه رسول الله صلى الله عليه وآله بغير فِدْية ، وكان شاعرا خبيث اللسان ، ثم قتله يوم أُحُد ، بعد أن أسره ــ ولم يذكر الواقدى الّذى أسره يوم بدر ــ ووهب بن عمير بن وهب ، أسره رفاعة بن رافع الزرق ، وقدم أبوه عمير بن وهْب فى فدائه ، فأسلم فأرسل النبىّ صلى الله عليه وآله له ابنه بغير فداء ، وربيعة بن درّاج بن العنبس بن وهبان[(٢)] ابن وهب بن حُذافة بن جمح ، وكان لا مال له ، فأخذ منه بشىء يسير ، وأرسل به ــ ولم يذكر الواقدى مَنْ أسره ــ والفاكه مولى أميّة بن خلف ، أسره سعد بن أبى وقّاص ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى سَهْم بن عمرو أبو وَدَاعة بن ضُبَيرة وكان أوّل أسير افتدى ، قدم فى فدائه ابنهُ المطّلب ، فافتداه بأربعة آلاف ــ ولم يذكر الواقدى مَنْ أسره ــ وفَرْوة بن قَيْس بن عدىّ بن حذافة بن سعيد بن سهم ، أسره ثابت بن أقرم ، وقدم فى فدائه عمرو ابن قيس ، افتداه بأربعة آلاف ، وحنظله بن قبيصة بن حُذَافة بن سعد ، أسره عثمان ابن مظعون . والحجّاج بن الحارث بن قيس بن سعد بن سَهْم ، أسره عبد الرحمن بن عوف ، فأفلت ، فأخذه أبو داود المازنى . فهؤلاء أربعة .

ومن بنى مالك بن حِسْل سُهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبدوَدّ بن نصر بن مالك ؛ أسره مالك بن الدّخشم ، وقدم فى فدائه مكرز بن حَفْص بن الأحنف ، وانتهى فى فدائه إلى إرضائهم بأربعة آلاف ، فقالوا : هات المال ، فقال : نعم ، اجعلوا رجلاً مكان رجل ؛

---

(١) ابن هشام : « أول من وى فاراً منهزماً » . (٢) ابن هشام : « أهبان » .

وقوم يروونها : « رِجْلاً مكان رِجل » ، فخلّوا سبيل سُهيل ، وحبسوا مِكْرز بن حفص عندهم ، حتى بعث سهيل بالمال من مكّة . وعبد الله بن زَمْعة بن قيس بن نصر بن مالك، أسره عمير بن عوف ، مولى سُهَيل بن عمرو . وعبدالعزّى بن مشنوء بن وقدان بن قيس ابن عبد شمس بن عبد ودّ سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بعد إسلامه عبد الرحمن ، أسره النعمان بن مالك . فهؤلاء ثلاثة .

ومن بنى فِهْر الطّفيل بن أبى قُنَيع ، فهؤلاء ستّة وأربعون [1] أسيرا .

وفى كتاب الواقدىّ أنّه كان الأسارى الّذين أحصوا وعرفوا تسعة وأربعين ، ولم نجد التفصيل يلحق هذه الجملة [2] .

وروى الواقدى عن سعيد بن المسيّب ، قال : كانت الأسارى سبعين ، وإنّ القتلى كانت زيادة على سبعين إلّا أنّ المعروفين من الأسرى هم الذين ذكرناهم ، والباقون لم يذكر المؤرخون أسماءهم .

***

القول فى المطعمين فى بدر من المشركين

قال الواقدىّ : المتفق عليه ولا خلاف بينهم فيه تسعة ؛ فمن بنى عبد مناف الحارث ابن عامر بن نوفل بن عبد منات ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس .

ومن بنى أسد بن عبد العزّى ، زمْعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد ، ونوفل بن خويلد المعروف بابن العدويّة .

ومن بنى مخزوم ، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة .

ومن بنى جُمح ، أميّة بن خلَف .

---

(١) عدتهم فى ابن هشام « ثلاثة وأربعون » . (٢) مغازى الواقدى ١٣٣ ـ ١٣٩ ، وانظر أنساب الأشراف ١ : ٣٠١ ـ ٣٠٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٦٤ ـ ٣٦٧ .

ومن بنى سَهْم نبيه ومنبّه ابنا الحجاج .

فهؤلاء تسعة .

قال الواقدىّ : وكان سعيد بن المسيّب يقول : ما أطعَم أحد ببدر إلا قتِل .

قال الواقدىّ : قد ذكروا عدّة من المطعمين ، اختلف [1] فيهم ، كسُهيل بن عمرو وأبى البخترى وغيرهما [2] .

قال : حدثنى إسماعيل بن إبراهيم ، عن موسى بن عتبة ، قال : أوّل مَنْ نحر لهم أبو جهل بمرّ الظّهران عشرا ، ثم أميّة بن خلف بعُسْفان تسعا ، ثم سهيل بن عمرو بقُدَيد عشرا ، ثم مالوا إلى مياه من نحو البحر ضلّوا الطريق ، فأقاموا بها يوما ، فنحر لهم شيبة ابن ربيعة تسعا ، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم قيس الجمحىّ تسعا ، ثم نحر عتبة عشرا ، ونحر لهم الحارث بن عمرو تسعا ، ثم نحر لهم أبو البخترىّ على ماء بدر عشرا ، ونحر لهم مقيس ابن ضبابة على ماء بدر تسعا ، ثم شغلتهم الحرب .

قال الواقدىّ : وقد كان ابن أبى الزّناد يقول : والله ما أظنّ مقيسا كان يقدر على قَلُوص واحدة .

قال الواقدىّ : وأمّا أنا فلا أعرف قيسا الجمحىّ . قال : وقد روت أم بكر ، عن المسور بن مخرمة ابنها ، قال : كان النّفر يشتركون فى الإطعام ، فينسب إلى الرّجل الواحد ويسكت عن سائرهم [3] .

***

وروى محمد بن إسحاق أنّ العباس بن عبد المطلب كان من المطعمين فى بدر ، وكذلك طُعَيمة بن عدىّ بن نوفل ، كان يعتقب هو وحكيم والحارث بن عامر بن نوفل ، وكان أبو البخترى يعتقِب هو وحكيم بن حزام فى الإطعام ، وكان النّضر بن والحارث بن كلَدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدّار من المطعِمين . قال : وكان النبىّ صلّى الله عليه وآله يكره قتل

(١) ا ومغازى الواقدى : « وقد اختلف علينا فيهم » . (٢) معازى الواقدى : وغيرهم » .

(٣) مغازى الواقدى ١٢٣ ، ١٢٤ .

الحارث بن عامر ، قال يوم بدر : « مَنْ ظفر به منكم فليتركه لأيتام بنى نوفل » ، فقتِل فى المعركة [1] .

***

القول فيمن استشهد من المسلمين ببدر

قال الواقدىّ : حدّثنى عبد الله بن جعفر ، قال : سألت الزهرىّ : كم استشهد من المسلمين ببذر ؟ قال : أربعة عشر [2] ، ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

قال : فمن بنى المطلب بن عبد مناف عبيدة بن الحارث ، قتله شيبة بن ربيعة .

وفى رواية الواقدى قتله عتبة ، فدفنه النبى صلى الله عليه وآله بالصفراء .

ومن بنى زُهرة عمير بن أبى وقاص، قتله عمرو بن عبد وَدّ، فارس الأحزاب، وعمير بن عبد وَدّ ذو الشمالين ، حليف لبنى زُهرة بن خُزاعة ، قتله أبو أسامة الجشمىّ .

ومن بنى عدىّ بن كعب عاقل بن أبى البُكير، حليف لهم من بنى سعد بن بكر، قتله مالك بن زهير الجُشَمِىّ ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، قتله عامر بن الحضرمىّ ؛ ويقال : إنّ مهجعا أوّل من قتل من المهاجرين .

ومن بنى الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء ، قتلة طُعَيمة بن عدىّ .

وهؤلاء الستة من المهاجرين .

ومن الأنصار، ثمّ من بنى عمرو بن عوف، مبشّر بن عبدالمنذر ، قتله أبو ثور. وسعد ابن خيثمة ، قتله عمرو بن عبدودّ — ويقال طعيمة بن عدىّ — ومن بنى عدىّ بن النجار حارثة بن سراقة رماه حبان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته ، فقتله .

ومن بنى مالك بن النجار ، عوف ومعوّذ ابنا عفراء ؛ قتلهما أبو جهل .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٣١١ .

(٢) فى مغازى الواقدى : « ثم عددهم على ، فهم هؤلاء الذين سميت » .

ومن بنى سلِمة بن حرام عمير بن الحمام بن الجموح، قتله خالد بن الأعلم العقيلىّ — ويقال إن عمـير بن الحمام أول قتيل قتل من الأنصار ، وقد روى أن أوّل قتيل منهم حارث ابن سراقة .

ومن بنى زُرَيق ، رافع بن المُعلّى ، قتله عكرمة بن أبى جهل .

ومن بنى الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث بن قسحم (١)، قتله نوفل بن معاوية الديلىّ.

فهؤلاء الثمانية من الأنصار .

قال الواقدىّ : وقد روى عن عكرمة ، عن ابن عباس أن أنسة مولى النبي صلى الله عليه وآله قتل ببدر .

وروى [أن] (٢) معاذ بن ماعص جرِح ببدر ، فمات من جراحته بالمدينـة ، وأن عبيد بن السكن جرح فاشتكى جُرحه ، فمات منه حين قدم (٣) .

***

القول فيمن قتل ببدر من المشركين وأسماء قاتليهم

قال الواقدىّ: فمن بنى عبدشمس بن عبدمناف حنظلة بن أبى سفيان بن حرب، قتله علىّ ابن أبى طالب عليه السلام، والحارث بن الحضرمىّ قتله عمار بن ياسر، وعامر بن الحضرمى قتله عاصم ابن ثابت بن أبى الأقلح، وعمير بن أبى عمير وابنه، موليان لهم؛ قتل سالم مولى أبى حذيفة منهم عمير بن أبى عمير — ولم يذكر الواقدىّ من قتل ابنه — وعبيدة بن سعيد بن العاص ، قتله الزبير بن العوام ، والعاص بن سعيد بن العاص ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام، وعقبة بن أبى معيط ، قتله عاصم بن ثابت صبْرا بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله .

---

(١) الواقدى : « بسحم » .

(٢) من الواقدى .

(٣) مغازى الواقدى ١٤٢ ، ١٤٣ .

وروى البلاذرى أنّ رسول الله صلّى عليه وآله صلبه بعد قتله ؛ فكان أول مصلوب فى الإسلام . قال: وفيه يقول ضرار بن الخطاب :

عين بـــكّى لعُقْبَة بن أبانِ ... فرع فهرٍ وفارس الفرسانِ[1]

وعتْبة بن ربيعة ،قتله حمزة بن عبدالمطاب.وشيبة بن ربيعة، قتله عُبيدة بن الحارث وحمزة وعلىّ ، الثلاثة اشتركوا فى قتله . والوليد بن عتْبة بن ربيعة ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام . وعامر بن عبد الله حليف لهم من أنمار ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام،وقيل: قتله سعد بن معاذ ، فهؤلاء اثنا عشر .

ومن بنى نوفل بن عبد مناف الحارث بن نوفل ، قَتَله خُبَيْب بن يِساف[2]،وطُعَيْمة ابن عدىّ، ويكنى أبا الرّيان، قتله حمزة بن عبدالمطّلب فى رواية الواقدىّ ، وقتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى رواية محمد بن إسحاق[3] . وروى البلاذُرىّ رواية غريبة ، أن طُعَيْمة بن عدىّ أُسِرَ يوم بدر ، فقتله النبىّ صلى الله عليه وآله صَبْراً على يد حمزة ، فهؤلاء اثنان .

ومن بنى أسَد بن عبد العزّى زَمْعة بن الأسود ، قتله أبو دُجَانة[4] ، وقيل : قتله ثابت بن الجِذْع[5] ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام . وعَقيل بن الأسود بن المطّلب ، قتله علىّ وحمزة ، شرِكا فى قتله . قال الواقدىّ : وحدّثنى أبو معشر ، قال : قتَله علىّ بن أبى طالب عليه السلام وحده ، وقيل : قتله أبو داود المازنىّ وحده . وأبو البخترىّ ، وهو العاص بن هشام ، قتله المجذّر بن

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٢٩٧ ، وفيه : « عين فابكى » .
(٢) فى ابن هشام : « إساف » بهمزة مكسورة ، قال ابن حجر فى الإصابة : « وقد تبدل تحتانية » .
(٣) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٧ .
(٤) دجانة ، كنامة : سماك بن خرشة . (٥) الإصابة : الجدع .

زياد ، وقيل: قتله أبو اليسَر . ونوفل بن خُويلد بن أسَد بن عبد العزّى؛ وهو ابن العَدَوِيّة، قتَله علىٌّ عليه السلام ؛ فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عبد الدار بن قصىّ ، النّضر بن الحارث بن كلَدة؛ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام صَبْراً بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان الّذى أسَره المقداد بن عمرو ، فوعد المقداد -إن استنقذه- بفداء جليل، فلمّا قدِّم ليُقتل ، قال المقداد : يارسولَ الله، إنّى ذُو عيال ، وأحبّ الدين، فقال : اللهمّ أغْنِ المقدادَ من فضلك ! ياعلىّ ، قم فاضرب عنقه . وزيد بن مُلَيص مولى عمرو بن هاشم بن عبد مناف ، من عبد الدار ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وقيل : قتله بلال . فهؤلاء اثنان .

ومن بنى تيم بن مرّة عُمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيْم بن مرّة،قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام . وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان ، قتله صُهيب ، فهؤلاء اثنان – ولم يذكر البلاذرىّ عثمان بن مالك .

ومن بنى مخزوم بن يَقَظة ثم من بنى المُغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ، أبوجهل عمرو بن هشام بن المغيرة ، ضربه معـاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعوّذ وعوْف ابنا عفراء، وذفَّف(١) عليه عبد الله بن مسعود . والعاص بن هاشم بن المغيرة ، خال عمر بن الخطاب ، قتله عمرو بن يزيد بن تميم التميمىّ ، حليف لهم ، قتله عمّار بن ياسر ، وقيل : قتله علىّ عليه السلام .

ومن بنى الوليد بن المُغيرة ، أبوقيس بن الوليد بن الوليد؛ أخو خالد بن الوليد،قتله علىّ ابن أبى طالب عليه السلام .

ومن بنى الفاكه بن المغيرة أبوقيس بن الفاكه بن المغيرة ،قتله حمزة بن عبد المطلب، وقيل : قتله الُحباب بن المنذر .

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ١ : ٢٩٧ . (٢) ذفف عليه : أجهز .

ومن بنى أميّة بن المغيرة مسعود بن أبى أميّة ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

ومن بنى عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ثم من بنى رفاعة ، أميّة بن عائذ بن رفاعة بن أبى رفاعة ، قتله سعد بن الربيع . وأبو المنذر بن أبى رفاعة ، قتله معن بن عدىّ العجلانىّ . وعبد الله بن أبى رفاعة ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام . وزُهير ابن أبى رفاعة ، قتله أبو أسيد الساعدىّ . والسائب بن أبى رفاعة ، قتله عبد الرحمن ابن عوف .

ومن بنى أبى السائب المخزومىّ – وهو صيفى بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم – السائب بن السائب ، قتله الزبير بن العوام . والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، قتله حمزة بن عبد المطلّب . وحليف لهم من طيّئ ، وهو عمرو بن شيبان[1] ، قتله يزيد بن قيس . وحليف آخر ، وهو جبّار بن سفيان ، أخو عمرو بن سفيان المقدّم ذكره ، قتله أبو بُرْدة بن نِيار .

ومن بنى عمران بن مخزوم حاجز[2] بن السّائب بن عُويمر بن عائذ ، قتله علىّ عليه السلام .

وروى البَلاذُرِىّ أنّ حاجزاً هذا وأخاه عُويمر بن السائب بن عُويمر ، قتلهما على ابن أبى طالب عليه السلام[3] – وعُوَيمر بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ؛ قتله النُّعمان بن أبى مالك ؛ فهؤلاء تسعة عشر .

ومن بنى جُمَح بن عمرو بن هصيص ، أميّة بن خلَف قتله خُبَيب بن يساف وبلال ، شرِكا فيه .

قال الواقدىّ : وكان معاذ بن رفاعة بن رافع يقول : بل قتله أبو رفاعة بن رافع .

---

(١) الواقدى : « سفيان » . (٢) فى البلاذرى : « جابر » .

(٣) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٠ .

وعلىّ بن أمية بن خلف ، قتله عمّار بن ياسر . وأوس بن المُغيرة بن لوذان ، قتله على عليه السلام ، وعثمان بن مظعون ، شرِكا فيه ؛ فهؤلاء ثلاثة .

ومن بنى سَهْم ، منبّه بن الحجاج ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وقيل : قتله أبو أسيد الساعدىّ . ونبيه بن الحجّاج قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام . والعاص ابن منبّه بن الحجاج ، قتله علىّ عليه السلام . وأبو العاص بن قَيْس بن عدىّ بن سعد ابن سهم ، قتله أبو دُجانة ـ قال الواقدىّ : وحدثنى أبو معشر عن أصحابه ، قالوا : قتله علىّ عليه السلام ـ وعاص بن أبى عوف بن صبيرة بن سعيد بن سعد ، قتله أبو دُجانة ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عامر بن لؤىّ ، ثمّ من بنى مالك بن حسل ، معاوية بن عبد قيس حليف لهم ، قتله عُكاشة بن محصن . ومعبد بن وهب ، حليف لهم من كلْب ، قتله أبو دُجانة فهؤلاء اثنان .

فجميع مَنْ قتل ببدر فى رواية الواقدىّ من المشركين فى الحرب صبرا ، اثنان وخمسون رجلا ، قتَل علىٌّ عليه السلام منهم مع الذين شرك فى قتلهم أربعة وعشرين رجلا . وقد كثرت الرواية أنّ المقتولين ببدر كانوا سبعين ، ولكن الذين عرفوا وحفظت أسماؤهم من ذكرناه ، وفى رواية الشيعة أنّ زَمَعة بن الأسود بن المطلب قتله علىّ ، والأشهر فى الرواية أنه قتله الحارث بن زمعة ، وأن زمعة قتله أبو دُجانة[1] .

***

القول فيمن شهد بدراً من المسلمين

قال الواقدىّ : كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا مع القوم الذين ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله بسهامهم وهم غائبون وعدّتهم ثمانية . قال : وهذا هو الأغلب فى الرواية ،

---

(١) انظر تسمية من قتل من المشركين ببدر فى الواقدى ١٤٣ — ١٥١ .

قال : ولم يشهد بدرا من المسلمين إلّا قرشيّ أو حليف لقرشيّ أو أنصاريّ أو حليف لأنصاريّ أو مولى واحد منهما ، وهكذا من جانب المشركين ، فإنه لم يشهدها إلّا قرشيّ أو حليف لقرشيّ أو مولى لهم .

قال : فكانت قريش ومواليها وحلفاؤها ستة وثمانين رجلا ، وكانت الأنصار ومواليها وحلفاؤها مائتين وسبعة وعشرين رجلا [١] .

فأما تفصيل أسماء من شهدها من المسلمين فله موضع فى كتب المحدثين أملك به من هذا الموضع .

***

[قصة غزوة أُحُد]

الفصل الرابع : فى شرح قصة غزاة أحُد . ونحن نذكر ذلك من كتاب الواقدىّ [٢] رحمه الله على عاداتنا فى ذكر غزاة بدر ، ونضيف إليه من الزيادات التى ذكرها ابن إسحاق والبلاذرىّ مايقتضى الحال ذكره .

قال الواقدى : لما رجع مَنْ حضر بدرا من المشركين إلى مكة وجدوا العير التى قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة فى دار النّدوة ، وكذلك كانوا يصنعون ، فلم يحرّكها أبو سفيان ولم يفرّقها لغيبة أهل العير ، ومشت أشراف قريش إلى أبى سفيان: الأسودُ بن عبد المطلب بن أسد ، وجُبير بن مطعِم ، وصفوان بن أميّة ، وعِكرمة بن أبى جهل ، والحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وحويطب بن عبد العزّى ؛ فقالوا: ياأبا سُفيان ، انظر هذه العير التى قدِمْت بها فاحتبستَها [٣] ، فقد عرفتَ أنها أموال أهل مكة ولَطِيمة [٤] قريش ، وهم طيِّبو الأنفس ، يجهِّزون بهذه العير جيشا كثيفا إلى محمد، فقد

(١) مغازى الواقدى ١٥١ ، ١٥٢ .
(٢) أخبار غزوة أحـد فى مغازى الواقدى ص ١٩٧ وما بعدها .
(٣) الواقدى : « فاحتبسها » .
(٤) اللطيمة : العير تحمل الطيب وبز التجار .

ترى مَنْ من قُتل آبائنا وأبنائنا وعشائرنا . فقال أبو سفيان : وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنا أوّل من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى ، فأنا والله الموتور والثائر[١] ، وقد قتِل ابنى حنظلة ببدر وأشراف قومى . فلم تزل العِيرُ موقوفةً حتى تجهّزوا للخروج ، فباعوها فصارت ذهبا عينا ، ويقال : إنما قالوا : ياأبا سفيان ، بِعِ العير ثم اعزل أرباحها ، فكانت العِيرُ ألف بعير ، وكان المال خمسين ألف دينار ؛ وكانوا يربحون فى تجاراتهم للدينار دينارا ، وكان متجرُهم من الشام غزّة ، لايعدونها إلى غيرها ، وكان أبو سفيان ، قد حبس عير بنى زهرة ، لأنهم رجعوا من طريق بدر ، وسلّم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبنى أبيه وبنى عبد مناف بن زُهرة ، فأبى مخرمة أن يقبل عِيره حتى يسلّم إلى بنى زُهْرة جميعا[٢] ، وتكلم الأخنس ، فقال : وما لعير بنى زُهرة من بين عيرات قريش ! قال أبو سفيان : لأنهم رجعوا عن قريش ، قال الأخنس : أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد أحرزْنا العير ؛ لاتخرجوا فى غير شىء ، فرجعنا ، فأخذت بنو زُهرة عيرها وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة ؛ كلّ ما كان لهم فى العير .

قال الواقدى : وهذا يبين أنه إنما أخرج القومَ أرباح العير . قال : وفيهم أنزل[٣] :
﴿ إنّ الذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقونَ أموالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سبيل الله . . . ﴾ الآية .

قال : فلما أجمعوا على المسير ، قالوا : نسير فى العرب فنستنصرهم ؛ فإنّ عبد مناة غير متخلّفين عنّا ، هم أوصلُ العرب لأرحامنا ومن اتّبعنا من الأحابيش فأجمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسيرون فى العرب ، يدعونهم إلى نصرهم ؛ فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب وابن الزِّبَعرى وأبا عزّة الجُمَحِى ، فأبى أبو عزّة أن يسيرَ[٤] وقال : منّ

(١) الثائر : الذى يقوم بالثأر . (٢) ا : « جما » .
(٣) ا : « أنزلت » . (٤) فى الواقدى : « فأطاع النفر وأبى أبو عزة » .

علىّ محمد يوم بدر ، وحلفت ألّا أظاهر[١] عليه عدوًّا أبدا . فمشى إليه صفوان بن أمية فقال : اخرج فأبى ، وقال : عاهدتُ محمدا يوم بدر ألّاأظاهر عليه عدوًّا أبدا ، وأنا أفي له بما عاهدته عليه[٢] ، مَنّ علىّ ولم يَمُنّ على غيرى حتى قتله أو أخذ منه الفداء . فقال صفوان : اخرج معنا ، فإن تسلَم أعطك من المال ماشئت ، وإن تُقتَل تكنْ عيالك مع عيالى . فأبى أبو عزّة ، حتى كان الغد ، وانصرف عنه صفوان بن أمية آيسا منه؛ فلمّا كان الغد جاءه صفوانُ وجبير بن مطعِم ، فقال له صفوان الكلام الأوّل فأَبى ، فقال جبير : ما كنتُ أظنّ أنى أعيش حتى يمشىَ إليك أبو وهب فى أمرٍ تأبى عليه ! فأحفظه ،فقال: أنا أخرج ، قال : فخرج إلى العرب يجمعها ، ويقول :

إيهِ بنى عبد مناةِ الرزّامْ[٣] أنتمْ حماةٌ وأبوكمْ حامْ
لا تُسلِمونى لا يحلُّ إسلامْ لايعدُونّى نصرُكم بعد العامْ[٤]

وخرج النفَر مع أبى عزّة فألّبُوا العربَ وجمعوا ، وبلغوا ثَقيفًا فأوعبوا[٥] . فلمّا أجمعوا المسير وتألّب مَنْ كان معهم من العرب وحضروا ، واختلفتْ قريش فى إخراج الظُعُن معهم ، قال صفوان بن أميّة : اخرجوا بالظُّعُن[٦] فأنا أول من فعل ، فإنه أقمن أن يحفظْنكُم ويذكّرنكم قتلَى بدر ، فإنّ العهد حديث ، ونحن قوم موتورون مستميتون، لانريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندركَ ثأرنا أو نموت دونه . فقال عكرمة بن أبى جهل : أنا أوّل من أجاب إلى مادعوتَ إليه ، وقال عمرو بن العاص مثل ذلك ، فمشى فى ذلك

---

(١) الواقدى : « لا أظاهر » . (٢) من الواقدى .

(٣) ابن هشام ٣ : ٤ : « إيهاً بنى عبد مناة » . والرزام : جمع رازم ؛ وهو الذى يثبت فى مكانه لا يبرحه ، تقول : رزم البعير ، إذا ثبت فى مكانه .

(٤) ابن هشام : « لاتعدونى » .

(٥) ب : « أرغبوا » ، وأثبت ما فى ا والواقدى ، وأوعبوا ، أى خرجوا للغزو .

(٦) الظعن : جمع ظعينة ؛ وهى المرأة فى الهودج ؛ وأصل الظعينة الهودج ، سميت المرأة به لقربها منه فى السفر ؛ وقيل : سميت ظعينة لأنها تظعن مع زوجها .

نوفل بن معاوية الدِّيلِىّ ، فقال : يامعشرَ قريش ، هذا ليس برأى ، أن تعرِّضوا حُرَمكم لعدوّكم ؛ ولا آمن أن تكون الدَّبْرة[1] لهم فتفتضحوا فى نسائكم . فقال صفوان : لا كان غير هذا أبدا ! فجاء نوفل إلى أبى سفيان بن حرْب ، فقال له تلك المقالة ، فصاحت هند بنت عتبة : إنك والله سلِمت يوم بدر ، فرجعتَ إلى نسائك ؛ نعم نخرج فنشهد القتال ، فقد رُدّت القيان من الجحفة فى سفرهم إلى بدر ، فقتِلت الأحبّة يومئذ . فقال أبو سفيان : لستُ أخالف قريشا ، أنا رجلٌ منها ؛ مافعلتْ فعلت . فخرجوا بالظُّعُن ، فخرج أبو سفيان ابن حرب بامرأتين : هند بنت عتبة بن ربيعة وأمَيْمة بنت سعد بن وهب بن أشيَم بن كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين : برْزة بنت مسعود الثقفىّ وهى أم عبد الله الأكبر والبغوم بنت المعذّل من كنانة ، وهى أمّ عبد الله الأصغر ، وخرج طلحة بن أبى طلحة بامرأته سُلافة بنت سعد بن شهيد ، وهى من الأوس ، وهى أمّ بنيه : مسافع ، والحارث ، وكلاب والجلاس بنى طلحة بن أبى طلحة ، وخرج عكْرمة بن أبى جهل بامرأته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام ، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبّه بن الحجاج ، وهى أم عبد الله بن عمرو بن العاص — وقال محمد بن إسحاق : اسمها ريْطة — وخرجت خُناس بنت مالك بن المضرّب إحدى نساء بنى مالك بن حسل مع ابنها أبى عزيز بن عمير ، أخى مُصْعب بن عمير من بنى عبد الدار ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامرأته رَمْلة بنت طارق بن علقمة الكنانية ، وخرج كنانة بن علىّ بن ربيعة بن عبد العُزّى بن عبد شمس بن عبد مناف بامرأته أمّ حكيم بنت طارق ، وخرج سفيان بن عُوَيف بامرأته قُتَيلة بنت عمرو بن هلال ، وخرج النعمان بن عمرو وجابر مسك الذئب أخوه ؛ بأمّهما

(١) الدَّبْرة : العاقبة .

(٢) من ا والواقدى .

الدُّغَينــة ، وخرج غراب بن سفيان بن عويف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الـكنانية ، وهى التى رفعت لواء قريش حين سقط حتى تراجعت قريش إلى لوائها ، وفيهايقول حسان :

ولولا لواء الحارثيّـــةِ أصبَحُوا يباعون فى الأسواق بالثَّمَن البَخْسِ

قالوا : وخرج سُفْيان بن عويف بعشرة من ولده ، وحَشَدت بنو كنانة . وكانت الألوية يومَ خرجوا من مكّة ثلاثة عقدوها فى دار النَّدوة ؛ لواء يحمله سُفيان بن عويف لبنى كنانة ، ولواء الأحابيش يحمِله رجـل منهم ، ولواء لقريش يحمِلُه[1] طلحة بن أبى طلحة .

قال الواقدىّ :ويقال خرجت قريش ولِفُّها[2] كلّهم ؛من كنانة والأحابيش وغيرهم على لواء واحدٍ ، يحملُه طلحة بن أبى طلحة . وهو الأثبت عندنا .

قال : وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضَوَى[3] إليها ، وكان فيهم من ثَقِيف مائة رجل ، وخرجوا بعدّة وسلاح كثير ، وقادوا مائتى فرس ، وكان فيهم سبعمائةدراع وثلاثة آلاف بعير . فلمّا أجمعوا على المسير كتب العبّاس بن عبد المطلب كتاباً وختَمه ، واستأجر رجلاً من بنى غِفار ، وشرط عليه أن يسيرَ ثلاثا إلى رسول اللهصلى الله عليهوآله يخبره أنّ قريشاً قد اجتمعت[4] للمسير إليك ؛ فما كنت صانعا إذا حَلُّوا[5] بك فاصنعه . وقد وجّهوا وهم ثلاثة آلاف ، وقادوا مائتى فرس ، وفيهم سبعمائة دراع ، وثلاثة آلاف بعير ، وقدأوعبوا من السِّلاح .فقدم الغفارىّ فلم يجد رسولَ اللهصلى الله عليه وآلهبالمدينة، وجده بقُبَاء ، فخرج حتى وجدَ رسول الله صلى الله عليه وآله على باب مسجد قُباء يركب

---

(١) ب : « يحمله » ، وأثبت ما فى ا والواقدى .
(٢) لفها ، أى من اجتمع إليها من القبائل .
(٣) صوى إليها : انضم إليها ، وفى ا والواقدى : « انضم » .
(٤) ا : « أجمعت المسير » . (٥) ب : « خلوا » وأثبت ما فى ا والواقدى .

حماره ، فدفع إليه الكتاب ، فقرأه عليه أبيّ بن كعب ، واستكتم أبيًا مافيه ، ودخل منزلَ سعد بن الربيع ، فقال : أفي البيت أحد ؟ فقال سعد : لا ، فتكلّمْ بحاجتك ،فأخبره بكتابِ العبّاس بن عبد المطلب ، فجعل سعد يقول : يارسولَ الله ، والله إنّي لأرجُو أن يكونَ في ذلك خير ، وأرجعت[1] يهود المدينة والمنافقون، وقالوا : ماجاء محمدا شيء يحبّه، وانصرف رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وقد استكتم سعدَ بن الربيع الخبَر. فلمّا خرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله من منزله ، خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه، فقالت : ماقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؟ قال: مالك ولذاك ، لاأمّ لك ! قالت: كنت أستمع عليكم ،وأخبرتُ سعدا الخبر ،فاسترجع سعد ، وقال : لاأراكِ تستمعين علينا وأنا أقولُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تكلّم بحاجتك ! ثم أخذ بِجُمْع لِمَتِها[2]، ثم خرج يعدُو بها حتى أدرك رسولَ الله صلى الله عليه وآله بالجسر ، وقد بَلَحَتْ ، فقال : يارسولَ الله ،إنّ امرأتي سألتني عمّا قلتُ فكتمتُها، فقالت :قد سمعتُ قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم،ثم جاءت بالحديث كلّه ـ فخشيت يارسولَ الله أن يظهر من ذلك شيء فتظنّ أنّي أفشيتُ سرّك ، فقال صلى الله عليه وسلّم : خلّ سبيلَها . وشاع الخبر بين النّاس بمسير قريش . وقدم عمرو بن سالم الخزاعيّ في نفر من خُزاعة ، ساروا من مكّة أربعا ، فوافوْا قريشا وقد عسكروا بذي طُوَى،فأخبروا رسولَ الله صلى الله عليه وآله الخبَر،ثمّ انصرفوا ولقوا قريشا ببطْن رابغ ، وهو أربع ليال من المدينة ، فنكّبوا عن قريش .

قال الواقديّ : فلمّا أصبح أبو سفيان بالأبواء أخبِر أنّ عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس مُمْسين إلى مكّة ، فقال أبو سفيان : أحلف بالله أنهم جاءوا محمّدا فخبّروه بمسيرنا وعَدَدنا[3] ، وحذّروه منّا ، فهم الآن يلزمون صياصِيَهم ، فما أرانا نصيب منهم شيأ في وجهنا. فقال صفوان بن أميّة: إنْ لم يُصحِرُوا[4] لنا عمَدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه ،

---

(١) الواقدي : « وقد أرجفت » . (٢) ا « لبتها »

(٣) الواقدي : « فأخبروه بعددنا » . (٤) أصحروا : خرجوا إلى الصحراء ؛ وهو الفضاء المستوى الواسع .

فتركناهم ولا أموال لهم ، فلا يختارونها أبدا ، وإن أصحروا لنافعددُنا أكثرُ من عددهم ، وسلاحُنا أكثرُ من سلاحهم ، ولنا خيل ولا خيَل معهم ، ونحن نقاتل على وِتْر عندهم ولا وِتْر لهم عندنا .

قال الواقدىّ : وكان أبو عامر الفاسق قد خرج فى خمسين رجلا من الأوْس ، حتى قدِم بهم مكّة حين قدم النبىّ صلّى الله عليه وآله يحرّضها ويُعلمها أنها على الحقّ ،وماجاءبه محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدْر ، ولم يسرْ معها ، فلمّا خرجت قريش إلى أحُد سارَ معها ، وكان يقول لقريش : إنّى لو قدمت على قومى لم يختلفْ عليكم منهم اثنان،وهؤلاء معى نفرٌ منهم خمسون رجلا . فصدّقوه بما قال ، وطمِعوا فى نصره .

قال الواقدىّ : وخرج النّساء معهنّ الدّفوف يحرّضْنَ الرجال ويذكّرْنهم قتلَى بدر فى كلّ منزل ، وجعلت قريش تنزل كلّ منهَل ، ينحرون مانحروا من الجُزُر ممّا كانوا جمعوا من العين ، ويتقوَّوْن به فى مسيرهم ، ويأكلون من أزوادهم ممّا جمعوا من الأموال .

قال الواقدىّ : وكانت قريش لمّا مرّت بالأبواء ، قالت : إنّكم قد خرجتم بالظُّعن معكم ، ونحن نخاف على نسائنا، فتعالوْا ننبش قبر أمّ محمد ، فإنّ النّساء عورة ، فإن يصبْ من نسائكم أحداً قلتم هذه رمّة أمّك ، فإن كان برًّا بأمّه ـ كما يزعم ـ فلعمرى لنفادينّكم برمّة أمّه ، وإن لم يظفر بأحد من نسائكم فلعمرى ليفدينّ رمّة أمّه بمال كثير إن كان بها برًّا . فاستشار أبو سفيان بن حرب أهلَ الرأى من قريش فى ذلك ، فقالوا : لا تذكر من هذا شيئا ، فلو فعلنا نبشتْ بنو بكر وخُزاعة موتانا .

قال الواقدىّ : وكانت قريش بذى الُحليفة يوم الخميس صبيحة عشر من مخرَجهم من مكّة ، وذلك لخمس ليال مضيْن من شوّال على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة ، فلمّا

أصبحوا بذى الُحليفة خرج فرسان منهم فأنزلوهم الوِطاء [1]، وبعث النبىّ صلى الله عليه وآله عينين له ؛ آنسا ومؤنسا ابنى فضالة ليلة الخميس ، فاعترضا لقريش بالعَقيق ، فسارا معهم ، حتى نزلوا الوِطاء ، وأتيَا رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبراه ، وكان المسلمون قد ازدرعوا العِرْض [2] — والعرض ما بين الوطاء بأُحُد إلى الجُرْف إلى العرْصَة ، عَرْصة البقل اليوم ، وكان أهلُه بنو سلِمة وحارثة وظَفَر وعبد الأشهل ، وكان الماء يومئذ بالجرف نشطة لا يرِم سابق الناضح مجلسا واحدا ينفتل الجمل فى ساعته ، حتى ذهبت بمياهه عيون الغابة التى حفرها معاوية بن أبى سفيان [3] ، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرْعهم ليلة الخميس المدينة ، فقدم المشركون على زرعهم نخلّوا فيه إبلَهم وخيولهم ، وكان لأسيد بن حُضير فى العرض عشرون ناضحا تسقى شعيرا ، وكان المسلمون قد حذِروا على جمالهم وعمالهم وآلة حرثِهم ، وكان المشركون يرعَوْن يوم الخميس ، فلما أمسَوْا جمعوا الإبل وقصلوا عليها القصيل ، وقصلوا على خيولهم ليلة الجمعة ، فلما أصبحوا يوم الجمعة خلّوا ظهرهم فى الزرع وخيلهم ، حتى تركوا العِرض ليس به خضراء .

قال الواقدىّ : فلمّا نزلوا وحلّوا العُقَد ، واطأنّوا بعثَ رسول الله صلى الله عليه وآله الُحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم ، فدخل فيهم وحَزَر ونظر إلى جميع ما يريد ، وكان قد بعثه سرًّا ، وقال له : إذا رجعت فلا تخبرْنى بين أحد من المسلمين إلّا أنْ ترى فى القوم قِلّة ، فرجع إليه فأخبره خاليًا ، وقال له : رأيت عددا حزرتُهم ثلاث آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، والخيل مائتا فرس ، ورأيت دُروعا ظاهرة حَزَرتُها سبعمائة درع . قال: هل رأيت ظُعُنا ؟ قال : نعم رأيت النّساء معهن الدفاف والأكبار — وهى الطّبول — فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : أردْنَ أن يحرّضن القوم ويذكّرْنهم قتلى بدر ، هكذا

---

(١) الوطاء : ما انخفض من الأرض . (٢) العرض : الوادى .
(٣) كذا وردت العبارة فى الأصول وفى الواقدى وفيها غموض .

جاءنى خبرهم ؛ لا تذكر من شأنهم حرفاً ، حسبنا الله ونعم الوكيل ! اللهمّ بك أحول ، وبك أصول !

قال الواقدىّ: وخرج سَلَمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة، حتى إذا كان بأدنى العِرض إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس ركضوا فى أثره ، فوقف لهم على نَشز[١] من الحرّة ، فرشقهم بالنَّبل مرة ، وبالحجارة أخرى حتى انكشفوا عنه ، فلما ولّوا جاء إلى مزرعته بأدنى العِرض ، فاستخرج سيفاً كان له ، ودرع حديد كان له ، دفنا فى ناحية المزرعة ، وخرج بهما يعدُو ، حتى أتى بنى عبد الأشهل ، فخبّر قومه بما لقى .

قال الواقدىّ : وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمس خلوْن من شوال ، وكانت الوقعة يوم السبت لسبع خلوْن من شوال، وباتت وجوهُ الأوس والخزرج : سعد بن مُعاذ وأسيد ابن حُضير ، وسعد بن عبادة ، فى عدّة منهم ليلة الجمعة ، عليهم السلاح فى المسجد بباب النبى صلى الله عليه وآله خوفا من تبييت المشركين ، وحُرِست المدينة تلك الليلة ، حتى أصبحوا ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله رؤيا ليلة الجمعة ، فلمّا أصبح واجتمع المسلمون خطبهم .

قال الواقدىّ : فحدّثنى محمّد بن صالح ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، قال : ظهر النبى صلى الله عليه وآله المنبر ، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال : أيها النّاس، إنى رأيتُ فى منامى رؤيا ؛ رأيت كأنّى فى درعٍ حصينة ، ورأيت كأنّ سيفى ذا الفقار انفصم[٢] من عند ظُبَته ، ورأيت بقرا تذبح ، ورأيت كأنّى مردِف كبشا ، فقال النّاس: يارسولَ الله ، فما أوّلتها ؟ قال : أما الدّرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها ، وأمّا

(١) ب : « نشزة » .
(٢) ا والواقدى : « انقصم » .

انفصام[1] سيفى عند ظُبَتِه فمصيبة فى نفسى ، وأمّا البقر المذبَّح فقتلَى فى أصحابى ؛ وأما أنّى مردف[2] كبشا فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله .

قال الواقدىّ : وروى عن ابن عباس ، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال : « أما انفصام سيفى فقتلُ رجل من أهل بيتى » .

قال الواقدىّ :وروى المسور بن مَخْرَمة،قال : قال النبىّ صلى الله عليه وآله : ورأيت فى سيفى فَلاً فكرهته ، هو الذى أصاب وجهه عليه السلام .

قال الواقدىّ : وقال النبىّ صلى الله عليه وآله : أشيروا علىّ ، ورأى صلى الله عليه وآله ألّا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يحبّ أن يوَافق على مثل مارأى ؛ وعلى ماعبّر عليه الرؤيا ، فقام عبد الله بن أبىّ ؛ فقال : يارسول الله ، كنّا نقاتل فى الجاهلية فى هذه المدينة ، ونجعل النّساء والذرارىّ فى هذه الصّياصى ، ونجعل معهم الحجارة ، والله لربّما مكث الولْدان شهرا ينقلُون الحجارة ، إعداداً لعدوّنا ، ونشبّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كلّ ناحية ، وترمى المرأة والصبىّ من فوق الصياصى والآطامِ،ونقاتل بأسيافنا فى السكك. يارسول الله إنّ مدينتنا عذْراء مافُضّت علينا قطّ ، وما خرجنا إلى عدوّ قطّ منها إلا أصاب منّا ، وما دخل علينا قطّ إلا أصبناه،فدعْهم يارسول الله ، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشرّ محبس ، وإن رجعوا رجعوا خاسرين مغلوبين ، لم ينالوا خيراً . يارسول الله ، أطعنى فى هذا الأمر ، واعلم أنى ورثتُ هذا الرأى من أكابر قومى وأهل الرأى منهم ، فهم كانوا أهلَ الحرب والتجربة .

قال الواقدىّ : فكان رأىُ رسول الله صلى الله عليه وآله مع رأى ابن أبىّ ، وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار

---

(١) ا والواقدى : « انقصام » . (٢) ا : « وأما الكبش المردف » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : امكثوا فى المدينة ، واجعلوا النساء والذرارىّ فى الآطام ، فإن دُخِل علينا قاتلناهُم فى الأزقّة ، فنحنُ أعلمُ بها منهم ، ورُمُوا من فوق الصياصى والآطام — وكانوا قد شبّكوا المدينة بالبنيان من كلّ ناحية ، فهى كالحصن — فقال فِتْيان أحداث لم يشهدوا بدرا ، وطلبوا من رسول الله الخروجَ إلى عدوّهم ، ورغبوا فى الشهادة ، وأحبّوا لقاء العدوّ ، وقالوا : اخرج بنا إلى عدوّنا ، وقال رجال من أهل النّبَه[1] وأهل السّنّ ، منهم حمزة بن عبدالمطلب ، وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج : إنا نخشى يارسول الله ، أن يظنّ عدوّنا أنّا كرهنا الخروج إليهم جُبْناً عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنتَ يوم بدر فى ثلثمائة رجل ، فظفّرَك الله بهم ، ونحن اليوم بشرٌ كثير ، وكنا نتمنّى هذا اليوم ، وندعو الله به ، فقد ساقه الله إلينا فى ساحتنا هذه — ورسول الله صلى الله عليه وآله لِمَا رأى من إلحاحهم كاره ، وقد لبِسُوا السّلاح يخطرون بسيوفهم ، يتساوَمُون كأنهم الفحول . وقال مالك بن سنان أبو أبى سعيد الخُدْرىّ : يارسولَ الله ، نحن والله بين إحدى الحُسْنَيَيْن ، إمّا يظفّرنا الله بهم ، فهذا الذى نريد ، فيذلهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر ، فلا يبقى منهم إلا الشّريد ، والأخرى يارسول الله يرزقنا الله الشهادة ، والله يارسولَ الله ، مانبالى أيّهما كان ، إنّ كلا لفيه الخير . فلم يبلغنا أنّ النبى صلى الله عليه وآله رجع إليه قولا ، وسكت . وقال حمزة بن عبد المطلب : والذى أنزِل عليه الكتاب ، لا أطعَم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارجا من المدينة ، وكان يقال : كان حمزة يوم الجمعة صائما ، ويوم السبت ، فلاقاهم وهو صائم .

وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بنى سالم : يارسول الله ، أنا أشهد أنّ البقر المذبّح قتلَى من أصحابك ، وأنّى منهم ، فلم تحرِمُنا الجنّة ! فوالله الذى لا إله إلّا هو

---

(١) النبه : الفطنة ، وفى ا : « النبة » .

لأدْخُلنها . قال رسول الله : بم ؟ قال : إنى أحبّ الله ورسوله ، ولا أفِرُّ يوم الزّحف . فقال : صدقت ، فاستُشهد يومئذ .

وقال إياس بن أوْس بن عَتِيك : يارسولَ الله ، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبّح ، نرجو يارسولَ الله أن نذبح فى القوم ، ويُذبح فينا ، فنصير إلى الجنة ، ويصيرون إلى النار ، مع أنّى يارسولَ الله لا أحبّ أن ترجعَ قريش إلى قومها ، فتقول : حصرْنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها ، فتكون هذه جُرْأة لقريش ، وقد وطِئُوا سعَفنا ؛ فإذالم نذبّ عن عِرْضنا ، فلم ندّرِع ؟ وقد كُنّا يارسول فى جاهليّتنا ، والعرب يأتوننا ، فلايطمعون بهذا منّا حتى نخرُجَ إليهم بأسيافنا فنذبّهم عنّا ، فنحن اليوم أحقّ إذ أمدّنا الله بك ، وعرفنا مصيرَنا ، لا نحصر أنفسنا فى بيوتنا .

وقامَ خَيثمة ، أبوسعد بن خَيْثمة فقال : يارسول الله ، إن قريشامكثتْ حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب فى بواديها ومَن اتبعهامن أحابيشها ثم جاءونا قد قادوا الخيل ، واعتلوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، فيحصروننا فى بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يكلَمُوا ، فيجرّئهم ذلك علينا حتى يشنّوا الغارات علينا ، ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا ، مع ماقد صنعوا بحروثنا ، ويجترىءُ علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذارأونا لم نخرج إليهم ، فنذبّهم عن حريمنا ، وعسى الله أن يُظفِرَنا بهم ، فتلك عادة الله عندنا ، أو تكون الأخرى ، فهى الشهادة . لقد أخطأتْنِى وقعة بدر ، وقد كنت عليها حريصاً ؛ لقدبلغ من حرصى أنْ ساهمت ابنى فى الخروج ، نخرج سهمُه ، فرُزِق الشهادة وقد كنت حريصاعلى الشهادة ، وقد رأيت ابنى البارحةَ فى النّوم فى أحسن صورة يسرَحُ فى ثمار الجنة وأنهارها ، وهو يقول الحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ماوعدنى ربى حقا ، وقد والله يارسولَ الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقتِه فى الجنّة ، وقد كبرتْ سنّى ، ودقّ عظمى ، وأحببت

لقاء ربّى، فادعُ الله يارسول الله أن يرزقَنِي الشهادة، ومرافقة سعد فى الجنّة؛ فدعا له رسولُ الله بذلك، فقتِل بأحُدٍ شهيداً.

قال أنس بن قَتَادة: يارسولَ الله؛ هى إحدى الحسنيين، إمّا الشهادة وإمّا الغنيمة والظَّفَر بقتلهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّى أخافُ عليكم الهزيمة.

فلما أبَوْا إلّا الخروج والجهاد، صلّى رسول الله يوم الجمعة بالناس، ثم وعظهم، وأمرهم بالجدّ والاجتهاد، وأخبرهم أنّ لهم الصَّبْرَ ماصبروا؛ ففرح الناس حيث أعلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالشُّخوص إلى عدوّهم، وكرِه ذلك المخرَجَ بشرٌ كثير من أصحاب رسول الله، وأمرهم بالتهيُّؤ لعدوّهم، ثم صلّى العصرَ بالناس، وقد حشد الناسُ، وحضر أهلُ العوالى، ورفعوا النّساء إلى الآطام، فحضرت بنو عمرو بن عوف بلِفِّها، والنّبيت ولفّها؛ وتلبسوا السّلاح، فدخَل رسول الله صلى الله عليه وآله بيته، ودخل معه أبو بكر وعمر فعمّماه ولبَّساه وصُفّ [الناس][1] له مابين حجرته إلى منبره؛ ينتظرون خروجه، فجاءهم سعد بن مُعاذ، وأسيد بن حُضَير، فقالا لهم: قلتم لرسول الله ماقلتم، واستكرهتموه على الخروج، والأمر ينزّل عليه من السماء، فردُّوا الأمر إليه، فما أمرَكم فافعلوه، ومارأيتم فيه [له][1] هوًى أو أدبا فأطيعوه. فبينا[2] القومُ على ذلك من الأمر، وبعض القوم يقول: القول ماقال سعد، وبعضهم على البصيرة على الشخوص، وبعضهم للخروج كارهٌ؛ إذ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله قد لبس لأمْتَه، وقد لبس الدّرع فأظهرها، وحزم وسطها بِمنْطقة من حمائل سيف من أدَمٍ كانت بعدُ عند آل أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، واعتمّ، وتقلّد السيف. فلمّا خرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله ندمُوا جميعا

(١) من الواقدى.
(٢) ا: « فبينما »، وهى رواية الواقدى.

على ماصنعوا ،وقال الذين يلحُّون على رسول الله صلى الله عليه وآله :ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع مابدا لك ، وما كان لنا أن نستكرِهَك والأمرُ إلى الله ثم إليـك ، فقال : قد دعوتُـكم إلى هذا الحديث فأبيتم ،ولا ينبغى لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكُمَ الله بينه وبين أعدائه ـ قال : وكانت الأنبياء قبله إذا لبس النبيّ لأمته لم يضعها حتى يحكم الله بينه وبينه أعدائه ـ ثم قال لهم : انظروا ماأمرتُـكم به فاتبعوه ، امضُوا على اسم الله ؛فلكم النَّصر ماصبرتم .

* * *

قلت : فمَنْ تأمّل أحوال المسلمين فى هذه الغزاة ، من فشلهم وخَوَرهم واختلافهم فى الخروج من المدينة والمقام بها،وكراهة النبيّ صلى الله عليه وآله للخروج، ثمّ خروجه على مضض، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج، ثم انخزال طائفةٍ كثيرة من الجيش عن الحرب،ورجوعهم إلى المدينة ، علم أنّه لاانتصارَ لهم على العدوّ أصلًا ، فإنّ النّصر معروف بالعزْم والجدّ والبصيرة فى الحرب ، واتّفاق الكلمة .ومَنْ تأمّل أيضاهذه الأحوال؛ علم أنّها ضدّ الأحوال التى كانت فى غزاة بدر ، وأنّ أحوال قريش لما خرجت إلى بدر كانت مماثلةً لأحوال المسلمين لمّاخرجوا إلى أحُد ؛ ولذلك كانت الدَّبْرة فى بدر على قريش .

قال الواقدىّ : وكان مالك بن عمرو النّجّارىّ مات يوم الجمعة ، فلمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله فلبس لأمته وخرج وهو موضوع عند موضع الجنائز ،صلّى[1] عليه ، ثم دعا بدابته ، فركِب إلى أحُد .

* * *

قال الواقدىّ : وجاء جُعَيْل بن سُراقة إلى النبى صلى الله عليه وسلّم وهو متوجّه إلى أحُد ، فقال : يارسولَ الله ، قيل لى : إنّك تُقتَل غدا ـ وهو يتنفس مكروبًا ـ فضرب النبىّ صلى الله عليه وآله بيده إلى صدره ، وقال : أليس الدهر كلّه غداً ! قال : ثم دعا بثلاثة أرماح ، فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوْس إلى أسَيْد بن حُضَير ، ودفع لواء الخزرج إلى الحُباب بن المنذر بن الجَمُوح ـ ويقال إلى سعد بن عبادة ـ ودفع لواء المهاجرين

(١) ب : « فصلى » ، والصواب ما أثبته من ا والواقدى .

إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ـ ويقال إلى مصعب بن عُمَير ـ ثم دعا بفرسه ، فركبه؛ وتقلّد القوس وأخذ بيده قناة ـ زجُّ الرّمح يومئذ من شَبَه ـ والمسلمون متلبّسون السلاح، قد أظهروا الدروع ، فهم مائة دارع ؛ فلمّا ركب صلى الله عليه وآله خرج السَّعْدان أمامه يعدُوان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ؛ كلّ واحدٍ منهما دارع ، والناس عن يمينه وشماله حتى سلك على البدائع ، ثم زقاق الحُسَى ، حتى أتى الشَّيْخين ـ وهما أُطُمَان كانا فى الجاهلية فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدّثان ، فسمّىَ الأُطُمَان الشيخين ـ فلمّا انتهى إلى رأس الثنيّة ، التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجَل[1] خلفه ، فقال: ماهذه؟ قال: هذه حُلَفاء[2] ابن أبىّ من اليهود فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لانستنصر بأهل الشِّرْك على أهل الشِّرْك . ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وعرض عسكره بالشَّيْخين ، فعُرِض عليه غلمان ، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد، والنّعمان ابن بشير ، وزيد بن أرقم ، والبَرَاء بن عازب ، وأُسَيْد بن ظهير ، وعَرابة بن أوْس ، وأبو سعيد الخدرىّ ، وسَمُرة بن جندب ، ورافع بن خُدَيج .

قال الواقدىّ : فردّهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، قال رافع بن خُديج : فقال ظهير بن رافع : يارسولَ الله ، إنه رامٍ يعيننى . قال : وجعلتُ أتطاول ، وعلىّ خُفّان لى، فأجازنى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا أجازنى قال سَمُرة بن جندب لمرىّ بن سنان الحارثىّ ـ وهو زوج أمّه : ياأبَهْ ، أجاز رسول الله صلى الله عليه وآله رافع بن خُدَيج، وردّنى وأنا أصرع رافعا ! فقال مرىّ : يارسولَ الله ، رددتَ ابنى ، وأجزتَ رافع بن خُديج وابنى يصرعه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : تصارعا ، فصرع سَمُرة رافعا، فأجازه رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم .

قال الواقدىّ : وأقبل ابنُ أبىّ ، فنزل ناحية العسكر ، فجعل حلفاؤه ومَنْ معه[3] من المنافقين يقولون لابن أبىّ : أشرتَ عليه بالرأى ، ونصحتَه وأخبرته أنّ هذا رأى مَنْ

(١) الزجل ، محركة : رفع الصوت والجلبة .
(٢) ب : « خلفاء » .
(٣) كذا فى ا والواقدى وفى ب : « زمعة » .

مضى من آبائك ، وكان ذلك رأيه مع رأيك ؛ فأبى أن يقبله ، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه . قال : فصادفوا من ابن أبىّ نفاقا وغشًّا ، فبات رسول الله صلى الله عليه وآله بالشَّيْخين ، وبات ابنُ أبىّ فى أصحابه ، وفرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من عَرْض مَنْ عَرَض ، وغابت الشمس ، فأذّن بلال بالمغرب ، فصلّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بأصحابه ، ثم أذّن بالعشاء ، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله نازل فى بنى النّجّار ، واستعمل على الحرس محمّد بن مسلمة فى خمسين رجلا يُطِيفون بالعسكر ، حتى ادّلَجَ [1] رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، وكان المشركون قد رأَوْا رسول الله صلى الله عليه وآله حيث ادّلَجَ ، ونزل بالشَّيْخين ، فجمعوا خيلَهم وظهرَهم ، واستعملوا على حرَسهم عِكْرِمة بن أبى جهل فى خيلٍ من المشركين ؛ وباتت صاهلة خيلهم لاتهدأ ، تدنو طلائعهم ؛ حتى تلصق بالحَرّة ، فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلُهم، ويهابون موضع الحَرّة ، ومحمد بن مسلمة .

قال الواقدىّ : وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال حين صلّى العشاء : مَنْ يحفظنا الليلة ؟ فقال رجل : أنا يارسول الله فقال : مَنْ أنت ؟ قال: ذكوان بن عبد القيس، فقال : اجلس ، ثم قال ثانية : مَنْ رجلٌ يحفظنا الليلة ؟ فقام رجل ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : أبو سَبُع ، قال : اجلس ، ثم قال ثالثة مثل ذلك ، فقام رجل ، فقال : مَنْ أنت ؟ فقال : أنا ابن عبد قيس ؛ فمكث رسول الله صلى الله عليه وآله ساعةً ، ثم قال : قوموا ثلاثتكم ، فقام ذكوان بن عبد قيس ، فقال رسول الله : وأين صاحباك ؟ فقال ذكوان: أنا الّذِى كنت أجيبُك الليلةَ ! قال : فاذهب حفظك الله .

* * *

قلت : قد تقدّم هـذا الحديث بذاته فى غزوة بدر ، وظاهر الحال أنّه مكرّر ،

---

(١) الادلاج : السير فى آخر الليل .

وأنه إنّما كان فى غزاة واحدة ، ويجوز أن يكون قد وقع فى الغزاتين ، ولكن على بعد.

قال الواقدىّ : فلبس ذكوان دِرْعه ، وأخذ دَرَقتـه ، فكان يطوف على العسكر تلك الليلة ، ويقال : كان يحرُس رسول الله صلى الله عليه وآله لم يفارقه .

قال : ونامَ رسـولُ الله صلى الله عليـه وآله حتى ادّلج ، فلمّا كان فى السَّحَر ، قال رسول الله : أين الأدلّاء ؟ مَنْ رجلٌ يدلّنا على الطريق ، ويخرجنا على القوم من كَثَب ؟ فقام أبو خثيمة الحارثىّ ، فقال : أنا يارسولَ الله ، ويقال : أوس بن قيظىّ ويقال : محيِّصة .

قال الواقدىّ : وأثبت ذلك عندنا أبو خثيمة خرج برسول الله صلى الله عليه وآله، وركب فرسه ، فسلك به فى بنى حارثة ، ثم أخذ فى الأموال حتى مرّ بحائط مِرْبع بن قيظىّ؛ وكان أعمى البصر منافقا ، فلمّا دخلَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله حائطـه ، قام يحثى التراب فى وجُوه المسلمين ، ويقول : إن كنتَ رسولَ الله فلا تدخلْ حائطى ، فلا أحِلّه لك .

قال محمد بن إسحاق : وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب ، وقال : والله لو أعلم أنى لاأصيب غيرَك يامحمّد لضربت بها وجهك [1] .

قال الواقدىّ : فضربه سعد بن زيد الأشهلىّ بقوْسٍ فى يده فشجّه فى رأسه ، فنزل الدّم ، فغضب له بعض بنى حارثة ممّن هو على مثل رأيه ، فقال : [2] هى على عداوتكم يابنى عَبْد الأشهل ، لاتدعونها أبداً لنا [2] ! فقال أسيد بن حُضَير : لا والله ، ولكن نفاقكم، والله لولا أنى لاأدرى مايوافق النبىّ صلى الله عليه وآله لضربت عنقه وعنق مَنْ هو على مثل رأيه .

قال : ونهاهم النبىّ صلى الله عليه وآله عن الكلام فأُسكِتوا .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩ .

(٢ ــ ٢) الواقدى : « هى عداوتكم يا بنى عبد الأشهل لا تدعوها أبدا » .

وقال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وآله :دعوه ، فإنه أعمى البصر، أعمى القلب . يعنى مِرْبع بن قيظىّ [١] .

قال الواقدىّ : ومضى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فبينا هو فى مسيره إذ ذبّ فرس أبى بردة بن نِيار بذنبه فأصاب كُلّاب سيفه ، فسلّ سيفَه ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : ياصاحبَ السيف ، شِمْ [٢] سيفَك ، فإنى أخال السيوفَ ستسلّ اليوم فيكثُر سَلُّها. قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّ الفأل ، ويكره الطِّيَرة ،قال:ولبس رسول الله صلى الله عليه وآله من الشَّيْخين درعاً واحدة ، حتى انتهى إلى أُحُد ، فلبس درعا أخرى ومغفرا ، وبيضةً فوق المِغْفر ، فلمّا نهض رسول الله صلى الله عليه وآله من الشَّيْخين ، زحف المشركين على تعبيةٍ حتى انتهوْا إلى موضع أرض ابن عامر اليوم،فلمّا انتهى رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى موضع القنطرة اليوم جاءه وقد حانت الصّلاة ، وهو يرى المشركين، فأمر بلالًا فأذّن ، وأقام وصلّى بأصحابِه الصُّبح صفوفا ، وانخزل [٣] عبدُ الله بن أبىّ من ذلك المكان فى كتيبته ، كأنه هَيْقه [٤] تقدّمهم ،فاتّبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام ، فقال : أذكّركم الله ودينكم ونبيّكم ، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم ! فقال ابنُ أبىّ : ماأرى أنه يكون بينهم قتال،وإن أطعتنى ياأبا جابر لترجعنّ ، فإنّ أهلَ الرأى والحِجَى قد رجعوا ، ونحن ناصروه فى مدينتنا،وقد خالَفَنا ، وأشرتُ عليه بالرأى فأبَى إلا طواعية الغِلْمان . فلمّا أبى علَى عبدالله بن عمرو أن يرجِع ، ودخل هو وأصحابه أزقّة المدينة ، قال لهم أبو جابر:أبعدكم الله! إنّ الله سيُغنى النّبى والمؤمنين عن نصركم . فانصرف ابنُ أبىّ وهو يقول: أيعصِينى ويطيع الولدان! وانصرف عبدُ الله بن عمرو يعدُو حتى لحق رسولَ الله وهو يسوّى الصفوف ، فلمّا أصيب أصحاب

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩ .

(٢) شم سيفك ، أى اغمده .

(٣) انخزل ، أى انفرد ، وانظر اللسان .

(٤) الهيق : ذكر النعام .

رسول الله صلى الله عليه وآله سُرّ ابنُ أبىّ ، وأظهر الشماتة ، وقال: عصانى وأطاع مَنْ لا رأى له !

قال الواقدىّ : وجعلَ رسول الله صلى الله عليه وآله يصفّ أصحابه ، وجعل الرماة خمسين رجلا على عينين ،عليهم عبد الله بن جُبير – ويقال : سعدبى أبى وقّاص ، والثّبَت أنه عبد الله بن جُبَير – قال : وجعل أحُداً خلْف ظهرِه ، واستقبل المدينة وجعل عينين عن يساره ، وأقبل المشركون ، واستدبروا المدينة فى الوادى ، واستقبلوا أحُدا ، ويقال : جعل عينين خلْف ظهره ، واستدبر الشمس ، واستقبلها المشركون .

قال : والقول الأوّل أثبت عندنا ، أنّ أحُداً كان خلْف ظهره ، وهو عليه السلام مستقبل المدينة .

قال : ونهى أن يقاتل أحدٌ حتى يأمرهم بالقتال ، فقال عُمارة بن يزيد بن السّكَن : أنّى نُغير على زرع بنى قَيْلة ولمّا نضارب! وأقبل المشركون قد صفّوا صفوفَهم ،واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسَرة عِكْرمة بن أبى جهل ، ولهم مجنّبتان ، مائتا فرس ، وجعلوا على الخيل صَفْوان بن أمية – ويقال عمرو بن العاص – وعلى الرّماة عبدالله بن أبى ربيعة ، وكانوا مائةرامٍ ، ودفعوا اللّواء إلى طلحة بن أبى طلحة – واسم أبى طلحة عبدالله[1] ابن عبدالعُزّى بن عثمان بن عبد الدّار بن قصىّ – وصاح أبو سفيان يومئذ : يابنى عبدالدّار ؛ نحن نعرف أنّكم أحقّ باللواء منّا ، وأنّا إنّما أتينا يومَ بدر من اللواء ، وإنما يُؤتَى القوم من قِبَل لوائهم ، فالزموا لواءكم ، وحافظوا عليه ، وخلّوا بيننا وبينه ، فإنّا قوم مستميتون موتورون ، نطلب ثأراً حديثَ العهد . وجعل يقول : إذا زالت الألوية ، فما قَوام الناس وبقاؤهم بعدها ! فغضبت بنو عبد الدّار ، وقالوا : نحن نسلّم لواءنا ! لا كان هذا أبدا ! وأمّا المحافظة[2] عليه فسترى. ثم أسندوا الرّماح إليه ،وأحدقت به بنو عبدالدّار،

(١) فى الواقدى : « عبد العزى بن عثمان » .
(٢) فى الواقدى : « فأما محافظة عليه » .

وأغلظوا لأبي سفيان بعضَ الإغلاظ ، فقال أبو سفيان : فنجعل لواء آخر ؟ قالوا : نعم ، ولا يحمله إلّا رجل من بنى عبد الدار ، لا كان غير ذلك أبدا .

قال الواقدىّ : وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يمشى على رجليه ، يسوّى تلك الصفوف ، ويبوّئ أصحابَه مقاعد للقتال ، يقول : تقدّم يافلان ، وتأخّر يافلان ، حتّى إنه ليَرى منكب الرجل خارجا فيؤخّره ؛ فهو يقوّمهم كأنما يقوم القِداح ، حتى إذا استوت الصفوف ، سأل : مَنْ يحمل لواء المشركين ؟ قيل : عبد الدار ، قال : نحن أحقّ بالوفاء منهم ، أين مُصعَب بن عمير ؟ قال : ها أنذا . قال: خذ اللواء، فأخذه مصعب فتقدم به بين يدى رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال البلاذُرىّ : أخذه من علىّ عليه السلام ، فدفعه إلى مصعب بن عمير ، لأنه من بنى عبد الدار[١] .

قال الواقدىّ : ثمّ قام عليه السلام ، فخطب النّاس ، فقال صلى الله عليه وسلّم : أيها النّاس ، أوصيكم بما أوصانى به الله فى كتابه ؛ من العمل بطاعته ، والتناهِى عن محارمه . ثم إنّكم اليوم بمنزل أجر وذُخْر لمن ذكر الذى عليه ، ثم وطّن نفسه على الصَّبْر واليقين والجِدّ والنشاط ، فإنّ جهاد العدوّ شديد كريه ، قليل مَنْ يصبر عليه ، إلّا مَنْ عزم له على رشده . إنّ الله مع مَنْ أطاعه ، وإن الشّيطان مع مَنْ عصاه ، فاستفتحوا أعمالكم بالصّبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ماوعدكم الله ، وعليكم بالّذى آمركم به ، فإنّى حريص على رشدكم . إنّ الاختلاف والتنازع والتّثبيط من أمر العجْز والضّعْف ، وهو مما لا يحبّه الله ، ولا يعطى عليه النّصر والظّفَر . أيها الناس إنه قُذِف فى قلبى أنّ مَنْ كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ماعند الله غفر الله له ذنبه ، ومَنْ صلّى عَلَى محمد[٢] صلّى الله عليه وملائكته

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣١٧ .

(٢) ا ، والواقدى : « ومن صلى علىّ » .

عشرا ، ومَنْ أحسنَ ؛ من مسلم أو كافر وقع أجرُه على الله فى عاجل دنياه أو فى آجلِ آخرته ، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة ، إلّا صبيًا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا ، ومَن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنىٌّ حميد . ما أعلم من عمل يقرّبكم إلى الله إلّا وقد أمرتُكم به ، ولا أعلم من عمل يقرّبكم إلى النار إلّا وقد نهيتُكم عنه ، وإنه قد نَفَثَ الرُّوح الأمين فى رُوعى أنّه لن تموت نفس حتى تستوفىَ أقصى رزقها ، لا ينقص منه شىء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربّكم ، وأجملوا فى طلب الرزق ، ولا يحملنّكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربّكم ، فإنه لا يُقْدر على ماعنده إلا بطاعته ، قد بيّن لكم الحلال والحرام ، غير أنّ بينهما شُبهًا من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلّا مَنْ عصم ، فمن تركها حفظ عِرْضه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالرّاعى إلى جنب الحِمَى أوشك أن يقع فيه ويفعله ، وليس مَلِك إلّا وله حمًى ، ألَا وإنّ حمى الله محارمه ، والمؤمن من المؤمنين كالرّأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعَى إليه سائر جسده . والسلام عليكم .

قال الواقدىّ : فحدّثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن خالد بن رَبَاح ، عن المطّلب بن عبدالله ، قال : أوّل مَنْ أنشب الحرب بينهم أبو عامر ، طلع فى خمسين من قومه ، معه عبيد قريش فنادى أبو عامر — واسمه عبد عمرو — ياللأوس ! أنا أبو عامر ، قالوا : لا مرحبا بك ولا أهلا ؛ يافاسق ! فقال : لقد أصاب قومى بعدى شرّ . قال : ومعه عبيد أهل مكّة ، فتراموْا بالحجارة هم والمسلمون ، حتى تراضخوا بها ساعة إلى أن ولّى أبو عامر وأصحابه ؛ ويقال : إن العبيد لم يقاتلوا ، وإنهم أمروهم بحفظ عسكرهم .

قال الواقدىّ : وجعل نساء المشركين قبل أن يلتقىَ الجمعان أمام صفوف المشركين يضربْنَ بالأكْبَار (١) والدِّفاف والغرابيل (٢) ، ثمّ يرجعن فيكنّ إلى مؤخّر الصّفّ ؛ حتى

---

(١) الأكبار : جمع كبر ، بفتحتين ، وهو الطبل ، معرب .
(٢) الغرابيل : جمع غربال ، وهو هنا الدف .

إذا دنَوا من المسلمين تأخّر النساء ، فقمن خَلف الصّفوف ،وجعل كلّما ولّى رجل حرّضنه، وذكّرنه قتلى بدر .

وقال الواقديّ : وكان قُزْمان من المنافقين ، وكان قد تخلّف عن أُحُد ، فلما أصبح عيّره نساء بنى ظَفَر ، فقلن : ياقُزْمان ، قد خرج الرجال وبقيت ! استحيِ ياقُزْمان ، ألا تستحْيي ممّا صنعت ! ماأنت إلّا امرأة ، خرج قومك وبقيت فى الدار ! فأحفظنَه ، فدخل بيته ، فأخرَج قوسه وجُعبته وسيفَه ـ وكان يعرف بالشجاعة ـ وخرج يعدو،حتّى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يسوّى صفوف المسلمين ، فجاء من خلْف الصفّ ، حتى انتهى إلى الصفّ الأول ، فكان فيه ، وكان أوّل مَنْ رَمى بسهم من المسلمين،جعل يرسلُ نَبلاً كأنها الرماح،وإنه ليكِتّ كتيت[1] الجمل ثم صار إلى السيف، ففعل الأفاعيل ، حتى إذا كان آخر ذلك قَتل نفسَه . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ذكره قال : من أهل النار . قال : فلما انكشف المسلمون ، كسر جفن سيفه وجعل يقول : الموتُ أحسن من الفِرار . ياللأَوْس ! قاتلوا على الأحساب ، واصنعوامثل ما أصنع.قال : فيدخل بالسّيف وسط المشركين،حتى يقال : قد قتِل ، ثم يطلع فيقول: أنا الغلام الظَّفَرىّ ، حتى قتَل منهم سبعة ، وأصابته الجراحة ، وكثُرت فيه ، فوقع فمرّ به قَتادة بن النعمان ، فقال له : أبا الغيداق، قال قزمان : لبّيك؛ قال : هنيئا لك الشهادة!قال قزمان : إنّى والله ماقاتلتُ ياأبا عمرو على دين، ماقاتلت إلا على الحِفاظ ، أن تسير قريش إلينا فتطأ سعَفنا ، قال : فآذَتْه الجراحة فقتل نفسه ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر[2] » .

---

(١) الكتيت : صياح الجمل .

(٢) فى ابن هشام ٣ : ٣٧ عن ابن إسحاق : « حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، قال : كان فينا رجل أتيٌّ لا يدرى ممن هو ؛ يقال له قزمان ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا ذكر له : « إنه لمن أهل النار » ، قال : « فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً ، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين . وكان ذا بأس ، فأثبتته الجراحة ، فاحتمل إلى دار بني ظفر . قال : فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر ، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلت إلا على أحساب قومى ، ولولا ذلك ما قاتلت ، قال : فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته ، فقتل به نفسه » .

قال الواقدىّ : وتقدّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى الرّماة ، فقال : احموا لنا ظهورَنا ، فإنا نخاف أن نؤتَى مِنْ ورائنا ، والزموا مكانَكم ، لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم ، فلا تفارقوا مكانَكم ؛ وإن رأيتمونا نقتَل ؛ فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنّا . اللهمّ إنى أشهدك عليهم ، ارشقُوا [1] خيلهم بالنّبل ؛ فإن الخيل لا تقدم على النَّبل ، وكان للمشركين مجنّبتان : ميمنة عليها خالد بن الوليد ، وميسرةَ عليها عِكْرمة بن أبى جهل .

قال الواقدىّ : وعمل رسول الله صلى الله عليه وآله لنفسه مَيمنة وميسرة ، ودفع اللّواء الأعظم إلى مصعب بن عُمَير ، ودفع لواء الأوْس إلى أسَيْد بن حُضَير ، ولواء الخزرج إلى سعد ابن عبادة – وقيل : إلى الُحباب بن المنذر – فجعلت الرماة تحمِى ظهور المسلمين ، وترشق خيلَ المشركين بالنَّبل ، فولّت هاربه ، قال بعض المسلمين [2] : والله لقد رَمَقْتُ نبلنا يومئذ ، مارأيت سهما واحدا مما يرمى به خيلُهم يقع فى الأرض ، إمّا فى فرس أو فى رجل ؛ ودنا القوم بعضهم من بعض ، وقدّموا طلحة بن أبى طلحة صاحب لوائهم ، وصفّوا صفوفهم ، وأقاموا النّساء خلْف الرجال يضربن بين أكتافهم بالأكْبار والدّفوف ، وهند وصواحبها يحرّضْن ويذمّرن [3] الرجال ، ويذكرن مَنْ أصيب ببدر ، ويقلن :

نحنُ بناتِ طارِقْ   نمشى على النَّمارِقْ
إنْ تُقبِلوا نعانِقْ   أو تدبرُوا نفارِقْ
* فراقَ غيْرَ وامِقْ *

قال الواقدىّ : وبرز طلحة ، فصاح : مَنْ يبارز ؟ فقال علىٌّ عليه السلام له : هل لك فى مبارزتى ؟ قال : نعم ، فبرزا بين الصّفّين ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس تحت

---

(١) أرشق الرامى : رمى وجها ، أى أطلق السهم إلى المكان المواجه له .
(٢) الواقدى : « الرماة » .   (٣) يذمرن الرجال : يحضونهم على القتال .

الرّاية ، عليه دِرْعان ومغفر و بيضته،فالتقيا ، فبدره علىٌّ عليه السلام[(١)] بضربة على رأسه، فمضى السيف حتى فلَق هامَته إلى أن انتهى إلى لحيته فوقع ، وانصرف علىٌّ عليه السلام ، فقيل له : هلاّ ذفَّفْت[(٢)] عليه ! قال : إنه لما صرِع استقبلنى بعورته ؛فعطفتْنِى عليه الرّحم ؛ وقد علمت أن الله سيقتله ؛ هو كبش الكتيبة .

قال الواقدىّ : ورُوِى أنّ طلحة حمل على علىٍّ عليه السلام ؛ فضربه بالسيف ، فاتقاه بالدّرَقة ، فلم يصنع شيئا ، وحمل علىّ عليه السلام وعلى طلحة درْع ومغْفر ، فضربه بالسيف ، فقطع ساقيه ، ثم أراد أن يذفّف عليه ؛ فسأله طلحة بالرّحم ألا يفعل ؛ فتركه ولم يذفِّف عليه .

قال الواقدىّ : ويقال : إنّ عليا عليه السلام ذفّف عليه ؛ ويقال : إنّ بعض المسلمين مرّ به فى المعركة فذفّف عليه . قال : فلما قتل طلحة سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وكبّر تكبيرا عاليا وكبّر المسلمون ؛ ثم شدّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على كتائب المشركين ؛ فجعلوا يضربون وجوهَهم،حتى انتقضت صفوفهم ؛ ولم يقتل إلّا طلحة ابن أبى طلحة وحده .

قال الواقدىّ : ثم حمل لواء المشركين بعد طلحة أخوه عثمان بن أبى طلحة ، وهو أبو شيبة ، فارتجز وقال :

إنّ علَىّ ربّ اللواء حقًّا أن تُخضب الصَّعْدة أو تَندقَّا

فتقدّم باللواء والنسوة خلفه ، يحرّضن ويضربن بالدفوف ، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب رحمه الله ، فضربه بالسيف على كاهله ، فقطع يده وكتِفه ، حتى انتهى إلى

(١) ب : « فبرزه » تحريف ، والصواب ما فى ا ، والواقدى .
(٢) ذففت عليه أجهز .

مُؤتَزَرِه فبدا سَحْره[1] ، ورجع ، فقال : أنا ابن ساق الحجيج ؛ ثم حمل اللواء أخوهما أبو سعد بن أبى طلحة ، فرماه سعد بن أبى وقاص فأصاب حنجرته ـ وكان دراعا ، وعليه مغفر لا رفرف عليه[2] ، وعلى رأسه بيضته فأدلع لسانه[3] إدلاع الكلب .

قال الواقدىّ : وقد روى أنّ أبا سعد لما حمل اللواء ، قام النساء خلفه يقلن :

ضربًا بنى عبدِ الدّارْ ضَرْبًا حُماةَ الأدْبارْ

* ضربا بكلّ بتّارْ *

قال سعد بن أبى وقاص : فأحمِل عليه فأقطع يدَه اليمنى ، فأخذ اللواء باليد اليسرى ، فأضرب به على يده اليسرى ؛ فقطعتها ، فأخذ اللواء بذراعيه جميعا وضَمّه إلى صدره ، وحنى عليه ظهرَه . قال سعد : فأُدخِلُ سيَة القوس بين الدّرع والمِغفر ، فأقلع[4] المغفر ، فأرمى به وراء ظهره ، ثم ضربته حتى قتلته ، وأخذت أسلبُه درعه ، فنهض إلىّ سُبيع بن عبد عوف ونفر معه فمنعونى سلبه ، وكان سلبه أجود سلب رجل من المشركين : درع فضفاضة ، ومِغْفر وسيف جيّد ، ولكن حيل بينى وبينه .

قال الواقدىّ : وهذا أثبت القولين .

***

قلت : شتّان بين علىّ وسعد ! هذا يجاحش على السَّلَبِ ويتأسّف على فواته ، وذلك يقتل عمرو بن عبد وَدّ يوم الخندق ، وهو فارس قريش وصنديدها ومبارزه ، فيعرض عن سلبه ، فيقال له : كيف تركت سَلَبه وهو أنفس سلب ! فيقول : كرهت أن أبزّ السّبِىّ ثيابه ، فكأنّ حبيبا عناه بقوله :

---

(١) السحر هنا : الرئة .

(٢) الواقدى : « له » .

(٣) أدلع لسانه : أخرجه .

(٤) الواقدى : « فأقتلع » .

إنّ الأســـودَ أسودُ الغابِ همّتُها   يوم الكريهة فى المسلوب لا السَّلبِ[1]

***

قال الواقدىّ : ثم حمل لواء المشركين بعد أبى سعد بن أبى طلحة مسافع بن أبى طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح فقتله ، فحمل إلى أمّه سلافة بنت سعد ابن الشهيد ، وهى مع النساء بأحُد ، فقالت : من أصابك ؟ قال : لا أدرى ، سمعته يقول : خُذْها وأنا ابن الأقلح ، فقالت : أقْلَحِىّ والله ! أى هو من رهطى - وكانت من الأوس .

قال الواقدىّ : وروىَ أنّ عاصما لما رماه ، قال له : خذها وأنا ابن كسرة ، وكانوا يقال لهم فى الجاهلية : بنو كِسَر الذهب ، فقال لأمه : لا أدرى ، إلا أنى سمعته يقول : خذها وأنا ابن كسرة ، فقالت سُلافة : أوسىّ والله كسرىّ ، أى أنه منّا ، فيومئذ نذرت سلافة أن تشرب فى قَحْف رأس عاصم بن ثابت الخمر ، وجعلت لمن جاءها به مائة من الإبل .

***

قلت : فلما قتله المشركون فى يوم الرَّجيع أرادوا أن يأخذوا رأسَه ، فيحملوه إلى سُلافة فحمته الدَّبْرُ[2] يومه ذلك ، فلمّا جاء الليل فظنوا أنّ الدَّبْر لا تحميه ليلا ، جاء الوادى بسيل عظيم ، فذهب برأسه وبدنه . اتفق المؤرخون على ذلك .

***

قال الواقدىّ : ثم حمل اللواء بعد الحارث أخوه كلاب بن طلحة بن أبى طلحة ، فقتله الزُّبير بن العوّام ، ثم حمله أخوه الجلاس بن طلحة بن أبى طلحة ، فقتله طلحة بن عبيد الله ، ثم حمله أرطاة بن عبد شُرحبيل ، فقتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ثم حمله شريح بن

---

(١) ديوانه ١ : ٧١ ، وروايته : « إن أسود الغيل » .

(٢) الدبر : جماعة النحل أو الزنابير .

قانط[1] ، فقتل لا يُدْرى مَنْ قتله ، ثم حمله صُواب ، غلام بنى عبد الدار ، **فاختلف فى** قاتله فقيل : قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ،وقيل سعد بن أبى وقاص . **وقيل:قزمان،** وهو أثبت الأقوال.

قال الواقدىّ : انتهى قُزمان إلى صُواب، فحمل عليه ، فقطع يده اليمنى ، **فاحتمل اللواء** باليسرى فقطع اليسرى ، فاحتضن اللواء بذراعيه وعَضُديْه ، وحَنَى عليه ظهره ، وقال : يابنى عبدالدّار ، هل اعْذَرْت ؟ فحمل عليهقُزْمان فقتله.

قال الواقدىّ : وقالوا : ماظفَّر الله تعالى نبيّـه فى موطن قَطّ ماظفره وأصحابه يوم أُحُد ،حتىعصوا الرسول ، وتنازعوا فى الأمر،لقد قتل أصحاب اللواءوانكشف المشركون منهم لا يلوون ، ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدّفاف والفرح .

قال الواقدىّ : وقد روى كثير من الصحابة ممّن شهد أُحُدًا ، قال كلّ واحد منهم: والله إنّى لأنظر إلى هند وصواحبها منهزماتٍ ، مادون أخذهنّ شيء لمن أراده ؛ ولكن لا مردّ لقضاء الله . قالوا : وكانخالد بن الوليد كلّما أتى من قِبَل ميسرة النبي صلى الله عليه وآله ليجوز حتى يأتيهم من قبل السَّفح ؛ تردّه الرّماة ، حتىفعل وفعلوا ذلك مرارا ، ولكن المسلمين أُتُوا من قبل الرّماة ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عز إليهم فقال : قوموا على مصافّكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نُقتلُ فلا تنصرونا . فلمّا انهزم المشركون ، وتبعهم المسلمون يضعون السِّلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهزوهم عن المعسكر ، ووقعوا ينتهبونه . **قال بعض الرماة** لبعض : لم تقيمون هاهنا فى غير شيء ! قد هزم الله العدوّ ؛ **وهؤلاء إخوانكم ينهبون** عسكرهم ، فادخلوا عسكر المشركين ، فاغنموا مع إخوانكم ، **فقال بعضهم : ألم تعلموا** أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكم: « **احموا ظهورنا ، وإن غنمنا فلا يشركونا»،**

---

(١) الواقدى : « فارط » .

فقال الآخرون : لم يُرِدْ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم هـذا ، وقد أذلّ الله المشركين وهزمهم ، فادخلوا العسكر ، فانتهبوا مع إخوانـكم . فلمّا اختلفوا خطبَهم أميرُهم عبد الله ابن جُبَير ، وكان يومئذ معلماً بثياب بيض ، فحمد الله وأمرهم بطاعة رسوله ، وألّا يخالف أمره ، فعصوْه ، وانطلقوا فلم يبقَ معه إلّا نُفيْرٌ مايبلغون العشرة ، منهم الحارث بن أنس ابن رافع ، يقول : ياقوم ، اذكروا عهـد نبيّـكم إليـكم ، وأطيعوا أميرَكم . فأبَوْا ، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون ، وخلّوا الجَبَل[1] ، وانتقضت صفوف المشركين ؛ واستدارت رحالهم ، ودارت[2] الريح ـ وكانت إلى أن انتقض صفُّهم صباً ، فصارت دَبُوراً ـ فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلّة أهله ، فكرّ بالخيل ، وتبعه عكرمة بالخيل ، فانطلقا إلى موضع الرماة ، فحملوا عليهم ؛ فراماهم القوم حتى أصيبوا ، ورمى عبد الله بن جُبير حتى فنيتْ نَبْـله ، ثم طاعن بالرمّح حتى انكسر ؛ ثمّ كسر جفن سيفه ؛ فقاتل حتى قتِل ، وأفلت جُعَيل بن سراقة وأبو بُرْدة بن نِيَار بعد أن شاهدا قتل عبد الله بن جُبَير ، وكان آخر من انصرف من الخيل ، فلحقا بالمسلمين .

قال الواقديّ : فروى رافع بن خديج ، قال: لما قتل خالد الرّماة أقبلَ بالخيل وعكرمة ابن أبي جهل يتلوه ، فخالطَنا وقد انتقضت صفوفنا ، ونادى إبليس ـ وتصور في صورة جُعَيل بن سراقة : إنّ محمدا قد قتِل ! ثلاث صرخات ، فابتلِيَ يومئذ جُعَيل بن سراقة ببليّة عظيمة حين تصوّر إبليس فى صورته ، وإن جُعَيلا ليقاتل مع المسلمين أشدّ القتال ، وإنه إلى جنب أبي بُرْدة بن نِيَار وخوّات بن جُبير . قال رافع بن خُدَيج: فوالله ماراًينا دولةً كانت أسرع من دولة المشركين علينا ، وأقبل المسلمون على جُعَيل بن سراقة يريدون قتله ، يقولون : هذا الذى صاح أنّ محمدا قد قُتِل ، فشهد له خوّات بن جبير وأبو بُرْدة ، أنه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح ، وأنّ الصائح غيره .

---

(١) الواقدى : « عينين » ، وهو الجبل . (٢) الواقدى : « وحالت » .

قال الواقدىّ : فروى رافع ، قال : أُتِينا من قِبَل أنفسنا ، ومعصية نبيّنا ، واختلط المسلمون ، وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضا ، ومايشعرون بما يصنعون من الدَّهَش والعَجَل ، وقد جرِح يومئذ أُسَيْد بن حُضَير جرحيْن ، ضربه أحدهما أبو بردة بن نِيَار ، وما يدرى ، يقول : خذهاوأنا الغلام الأنصارىّ ، وكرّ أبو زعنةفى حَوْمة القتال ؛فضرب أبا بردة ضربتيْن، مايشعر أنه هو، يقول :خذها وأناأبو زَعْنة ، حتى عرفه بعد ،فكان إذا لقيَه ، قال : انظر ما صنعت بى ، فيقول أبو زَعْنة : وأنت فقد ضربت أُسَيْد بن حضير ولا تشعر ! ولكن هذا الجرح فى سبيل الله ،فذكِر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله، فقال : هو فى سبيل الله ياأبا بُردة ، لك أجره ، حتى كأنّك ضربك أحد المشركين ، ومَنْ قُتِل فهوشهيد .

قال الواقدىّ : وكان الشيخان : حُسيل بن جابر ورفاعة بن وَقْش شيخين كبيرين،قد رفعا فى الآطام مع النّساء ، فقال أحدهما لصاحبه : لاأبالك ! مانستبقى من أنفسنا ! فوالله مانحنُ إلّا هامة اليوم أو غدٍ ، وما بقى من أجلنا قدر ظِمْء[1] دابة ، فلو أخذنا أسيافنا فلحقنا برسول اللهصلى الله عليهوآله لعلّ الله يرزقنا الشهادة ! قال : فلحقا برسول اللهصلى الله عليه وآله ، فأمّا رفاعة فقتله المشركون ، وأما حُسَيل بن جابر فالتفت عليه سيوفُ المسلمين ، وهم لايعرفونه حين اختلطوا ، وابنه حذيفة يقول : أبى أبى ! حتى قتِل ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين؛ ماصنعتم ! فزاد بهعند رسول الله صلى اللهعليه وآله خيراً ، وأمر رسول الله بديته أن تخرج ، ويقال : إنّ الذى أصابه عتبة بن مسعود، فتصدّق حذيفة ابنه بدمه على المسلمين .

قال الواقدىّ : وأقبل يومئذ الُحباب بنالمنذر بن الجموحيصيح : ياآل سلمة !فأقبلوا

---

(١) يقال : ما بقى منه إلا ظمء دابة ؛ أى لم يبق من عمره إلا اليسير .

عُنُقاً(١) واحدا : لبّيك داعىَ الله ، لبّيك داعىَ الله! فيضرب يومئذ جبّار بن صخر ضربةً فى رأسه مثقلة وما يدرى ، حتى أظهروا الشعار بينهم ، فجعلوا يصيحون : أمِتْ أمِتْ ! فكفّ بعضُهم عن بعض .

قال الواقدىّ : وكان نسطاس مولى ضرار بن أميّة ممن حضر أُحُداً مع المشركين ، ثم أسلم بعد، وحسُن إسلامه، فكان يحدّث ،قال : قد كنت ممّن خلف فى العسكر يومئذ، ولم يقاتل معهم عبد إلّا وحشىّ وصُواب غلام بنى عبد الدّار ، فكان أبو سفيان صاح فيهم : يامعشرَ قريش ، خلّوا(٢) غلمانَكم على متاعكم يكونوا هم الذين يقومون على رحالكم ، فجمعنا بعضها إلى بعض ، وعَقَلْنا الإبل ، وانطلق القوم على تعبيتهم ، ميمنة وميسرة وألبسنا الرحال الأنطاع ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، فاقتتلوا ساعة ، وإذا أصحابنا منهزمونَ ،فدخل المسلمون معسكرنا ،ونحن فى الرحال ، فأحدقوا(٣) بنا ، فكنت فيمن أسِرُوا ، وانتهبوا المعسكر أقبح انتهاب ، حتى إنّ رجُلًا منهم قال : أين مالُ صفوان بن أميّة ؟ فقلت : ماحمل إلّا نفقة فى الرَّحْل ، فخرج يسوقنى حتى أخرجتُها من العَيْبة خمسين ومائة مثقال ذهبا ، وقد ولّى أصحابنا وأيسنا منهم ؛ وانحاش النّساء ، فهنّ فى حُجُرهنّ سَلَمٌ لمن أرادهنّ ، فصار النهب فى أيدى المسلمين .

قال نسطاس : فإنّا لعلَى مانحنُ عليه من الاستسلام ، ونظرتُ إلى الجبل ، فإذا خيل مقبلة تركض ،فدخلوا العسكر ،فلم يكن أحد يردّهم ،قد ضيّعت الثغور التى كان بها الرّماة وجاءوا إلى النّهب والرماة ينتهبون ، وأنا أنظر إليهم متأبّطى قسيّهم وجعابَهم ، كلّ واحد منهم فى يديه أو حضنه شىء قد أخذه ، فلما دخلتْ خيلنا دخلت على قوم غارّين آمنين ، فوضعوا فيهم السيوف ، فقتلوهم قتلا ذريعاً ، وتفرّق المسلمون فى كلّ وجه ،

---

(١) العنق : الجماعة من الناس .
(٢) ا والواقدى : « خلفوا » .
(٣) ا والواقدى : « فدخل أصحاب محمد فى الرحال ، فأحدقوا بنا » .

وتركوا ما انتهبوا ، وأجلوا عن عسكرنا ، فارتجعنا بعد ، لم نفقد منه شيئاً ، وخلّوا أسرانا ، ووجدنا الذّهب فى المعركة ، ولقد رأيت يومئذ رجلاً من المسلمين ضمّ صفوان ابن أميّة إليه ضَمّةً ظننت أنه سيموت ، حتى أدركته وبه رَمَق ، فوجأت[1] ذلك المسلم بخنجر معى ، فوقع ، فسألت عنه ، فقيل : رجل من بنى ساعدة . ثم هدانى الله بعد للإسلام .

قال الواقدىّ : فحدثنى ابن أبى سبْرة ؛ عن إسحاق بن عبد الله ، عن عمر بن الحكم ، قال : ما علمنا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين أغاروا على النّهْب فأخذوا ما أخذوا من الذهب بقى معه من ذلك شىء يرجع به حيث غشِيَنا المشركون ، واختلفوا إلا رجلين : أحدهما عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح ، جاء بِمنطقة وجدها فى العسكر ، فيها خمسون دينارا فشدّها على حَقْويه من تحت ثيابه ، وجاء عبّاد بن بشر بصُرّة فيها ثلاثة عشر مثقالا ألقاها فى جَيْب قميصه ، وفوقها الدّرع وقد حزم وسطه ، فأتيا بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يخمّسه ونفّلهما إياه .

قال الواقدىّ : وروى يعقوب بن أبى صعصعة ، عن موسى بن ضمرة ، عن أبيه ، قال : لما صاح الشَّيْطان أزبّ[2] العقبة ؛ أن محمدا قد قتل لما أراد الله عزّ وجلّ من ذلك ، سُقِط فى أيدى المسلمين ، وتفرّقوا فى كلّ وجه ، وأصعدوا فى الجبل ، فكان أوّل مَنْ بشّرهم بكونِ رسول الله صلى الله عليه وآله سالماً كعبُ بن مالك . قال كعب : عرفته ، فجعلت أصيح : هذا رسول الله ! وهو يشير إلىّ بإصبعه على فيه : أن اسكت .

قال الواقدىّ : وروت عميرة بنت عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبيها ، قالت : قال أبى لمّا انكشف الناس : كنت أوّل مَنْ عرف رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) وجأته ؛ أى ضربته .
(٢) أزب العقبة : اسم لشيطان معروف ذكر فى حديث العقبة . انظر القاموس .

وبشّرت به المسلمين حيًّا سويًّا ، عرفت عينيه من تحت المِغْفر ؛ فناديت : يامعشرَ الأنصار! أبشروا ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأشار إلىّ رسول الله صلى الله عليه وآله أن اصمت : قال : ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله بكعب ، فلبس لأمته ، وألبس كعبا لأمة نفسِه ، وقاتل كعب يومئذ قتالا شديدا ، جرح سبعة عشر جرحا .

قال الواقدىّ : وحدّثنى ابنُ أبى سَبْرة عن خالد بن رباح ، عن الأعرج ، قال : لما صاح الشيطان إنّ محمدا قد قُتِل ؛ قال أبو سفيان بن حرب : يا معشرَ قريش ، أيّكم قتل محمّدا ؟ قال ابن قمِئة : أنا قتلته . قال : نسوِّرك[1] كما تفعل الأعاجم بأبطالها . وجعل أبو سفيان يطوفُ بأبى عامر الفاسق فى المعركة ؛ هل يرى محمدا بين القتلى ! فمرّ بخارجة ابن زيد بن أبى زُهير ، فقال : يا أبا سفيان ، هل تدرِى مَنْ هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا خارجة بن زيد، هذا أسيد بنى الحارث بن الخزرج ؛ ومرّ بعباس بن عبادة بن نَضْلة إلى جنبه ، قال : أتعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا ابن قوقل ؛ هذا الشريف فى بيت الشرف ، ثم مرّ بذكْوان بن عبد قيس ، فقال : وهذا من ساداتهم ، ثم مرّ بابنه حنظلة ابن أبى عامر ، فوقف عليه ، فقال أبو سفيان : مَن هذا ؟ قال : هذا أعزّ مَن هاهنا علىّ ، هذا ابنى حنظلة . قال أبو سفيان : ما نرى مصرع محمد ؛ ولو كان قُتِل لرأيناه ، كذب ابن قمِئة . ولقى خالد بن الوليد ، فقال : هل تبيّن عندك قتل محمد ؟ قال : لا ، رأيتُه أقبل فى نفر من أصحابه مصعدين فى الجبل ، فقال أبو سفيان : هذا حقّ ، كذب ابن قمِئة ، زعم أنه قتله !

***

قلت : قرأت على النّقيب أبى يزيد رحمه الله هذه الغَزَاة من كتاب الواقدىّ ، وقلت له : كيف جرى لهؤلاء فى هذه الوقعة؟ فإنى أستعظم ما جرَى ! فقال : وما فى ذلك ممّا تستعظمه ! حَمَل قلب المسلمين من بعد قتل أصحاب الألوية على قَلْب المشركين، فكسره

---

(١) نسورك : نلبسك السوار ، وهذا مما كانت تفعله الأعاجم بملوكهم .

فلو ثبتت مجنَبَتا رسول الله اللّتان فيهما أسيد بن حُضَير والُحباب بن المنذر بإزاء مجنّبتى المشركين ، لم ينكسر عسكر الإسلام ؛ ولكن مجنّبتا المسلمين أطبقت إطباقا واحدا على قَلْب المشركين ، مضافا إلى قلب المسلمين ، فصار عسكر رسول الله صلى الله عليه وآله قَلْباً واحدا ، وكتيبة واحدة ، فحطمه قلب قريش حَطْمة شديدة . فلمّا رأت مجنّبتا قريش أنّه ليس بإزائها أحدٌ ، استدارت المجنّبتان من وراء عسكر المسلمين ، وصمد كثير منهم للرّماة الذين كانوا يحمون ظهر المسلمين،فقتلوهم عن آخرهم ، لأنهم لم يكونوا ممّن يقومون لخالد وعكرمة ، وهما فى ألفىْ رجل ، وإنما كانوا خمسين رجلا،لاسيّما وقد ترك كثير منهم مركزه وشرِه إلى الغنيمة ، فأكبّ على النّهب .

قال رحمه الله : والذى كسر المسلمين يومئذ ، ونال كلّ منال خالد بن الوليد ، وكان فارسا شجاعا ، ومعه خيل كثيرة ، ورجال أبطال موتورون،واستدار خَلْف الجبل؛فدخل من الثّغرة التى كان الرّماة عليها ، فأتاه من وراء المسلمين ، وتراجع قلب المشركين بعد الهزيمة ، فصار المسلمون بينهم فى مثل الحَلْقة المستديرة،واختلط النّاس ، فلم يعرف المسلمون بعضُهم بعضا ، وضرب الرجل منهم أخاه وأباه بالسّيف وهو لايعرفه لشدّة النَّقْع والغبار، ولما اعتراهم من الدَّهَش والعجَلة والخوف ؛ فكانت الدَّبْرة عليهم ، بعد أن كانت لهم ؛ ومثل هذا يجرى دائما فى الحرْب .

فقلت له رحمه الله : فلمّا انكشفَ المسلمون ، وفرّ منهم مَنْ فَرّ ، ما كانت حال رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال : ثبَت فى نفرٍ يسير من أصحابه يحامون عنه .

فقلت : ثم ماذا ، قال : ثم ثابت إليه الأنصار ، وردّت إليه عُنُقا واحدا بعد فرارهم وتفرّقهم ، وامتاز المسلمون عن المشركين وكانوا ناحية ، ثم التحمت الحرب ، واصطدم الفَيْلَقان [1] .

---

(١) الفيلق ، كصيقل الجيش .

قلت : ثمّ ماذا ؟ قال : لم يزل المسلمون يحامُون عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمشركون يتكاثرون عليهم ، ويقتلون فيهم حتى لم يبقَ من النهار إلّا القليل ، والدَّوْلة للمشركين .

قلت : ثمّ ماذا ؟ قال : ثمّ علم الذين بقوا من المسلمين أنّه لا طاقة لهم بالمشركين ، فأصعدوا فى الجبل فاعتصموا به .

فقلت له : فرسول الله صلى الله عليه وآله ما الذى صنع ؟ فقال : صعّد فى الجبال .

قلت له : أفيجوز أن يقال : إنه فرّ ؟ فقال : إنّما يكون الفرار ممّن أمعن فى الهرب فى الصحراء والبَيْداء ، فأمّا من الجبل مطلٌّ عليه وهو فى سفحه ؛ فلمّا رأى مالا يعجبه أصعد فى الجبل ؛ فإنّه لا يسمّى فارًّا . ثم سكت رحمه الله ساعة ، ثم قال : هكذا وقعت الحال ؛ فإن شئتَ أن تسمّى ذلك فرارا فسمِّه ، فقد خرج من مكّة يوم الهجرة فارًّا من المشركين ، ولا وصمةَ عليه فى ذلك .

فقلت له : قد روى الواقدىّ عن بعض الصحابة ، قال : لم يبرحْ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ذلك اليوم شبراً واحدا ، حتى تحاجزت الفئتان ! فقال : دعْ صاحب هذه الرواية فلْيقل ماشاء ، فالصحيح ماذكرته لك ، ثم قال : كيف يقال : لم يزلْ واقفاً حتى تحاجزت الفئتان! وإنما تحاجزا بعد أن ناداه أبو سفيان، وهو فى أعلى الجبل بما ناداه، فلما عرف أنّه حيٌّ وأنّه فى أعلى الجبل ، وأن الخيل لا تستطيع الصُّعود إليه ، وأنّ القوم إن صعدوا إليه رجّالة لم يثقُوا بالظَّفَر به ؛ لأنّ معه أكثر أصحابه وهم مستميتون إن صعّد القوم إليهم ، وأنهم لا يقتلون منهم واحدا حتى يقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة ، لأنهم لا سبيل لهم إلى الهرَب ، لكونهم محصورين فى ذَرْوٍ واحد ، فالرجل منهم يحامى عن خَيط رقبته — كفّوا عن الصعود وقنعوا بماوصلوا إليه منْ قتل مَنْ قتلوه فى الحرب، وأمّلُوا

يوما ثانيا يكون لهم فيه الظّفر الكلّىّ بالنبىّ صلى الله عليه وآله ، فرجعوا عنهم وطلبوا مكّة .

وروى الواقدىّ عن أبى سَبْرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبى فَرْوة ، عن أبى الحويرث ، عن نافع بن جُبير ، قال : سمعت رجلًا من المهاجرين يقول : شهدت أحُداً ، فنظرت إلى النّبل يأتِى من كلّ ناحية ، ورسول الله صلى الله عليه وآله فى وسطها كلّ ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيتُ عبدَ الله بن شهاب الزهرىّ يقول يومئذ : دُلّونِى على محمّد ، فلا نجوتُ إن نجا ! وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى جنبه ، مامعه أحد ، ثم جاوزه ، ولقى عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية ، فقال له صفوان : تَرِحتَ[1] ! هلا ضربت محمدا ، فقطعت هذه الشأفة ، فقد أمكنك الله منه ! قال ابن شهاب : وهل رأيتَه؟ قال : نعم أنتَ إلى جنبه ، قال : والله مارأيتُه ، أحلف بالله إنّه منّا لممنوع ، خرجنا أربعة تعاهدنا وتعاقدنا على قتله ؛ فلم نخلص إلى ذلك .

قال الواقدىّ : فروى نملة ــ واسم أبى نملة عبدالله بن معاذ ، وكان أبوه معاذ أخا البَرَاء بن معرور لأمّه ــ قال : لمّا انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وما معه أحد إلا نُفَير قد أحدقُوا به من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فانطلقوا به إلى الشِّعْب وما للمسلمين لواء قائم ولا فِئة ولا جمع ، وإنّ كتائبَ المشركين لتحوشهم مقبلة ومُدْبرة فى الوادى ، يلتقون ويفترقون مايرَوْن أحدا يردّهم .

قال الواقدىّ : وحدثنى إبراهيم بن محمد بن شُرحبيل العبدرىّ ، عن أبيه ، قال : حمل مصعب اللّواء ، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب فأقبل ابن قميئة ، وهو فارس فضرب يد مصعب فقطعها ، فقال مصعب : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وأخذ اللواء بيده اليسرى ، وحنَى عليه فضربه فقطع اليسرى ، فضمّه بعضديه إلى صدره ؛

---

(١) ا : « ترحت » .

وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ ، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه، واندقّ الرمح ، ووقع مُصْعَب وسقط اللّواء ، وابتدرَه رجلان من بنى عبد الدّار؛ سويبط بن حَرْملة وأبو الرُّوم ، فأخذه أبو الرُّوم ، فلم يزل بيده حتّى دخل به المدينة، حين انصرف المسلمون .

قال الواقدىّ : وقالوا : إنّ رسولَ الله لمّا لحمه القتال ، وخلص إليه وذبّ عنه مصعب ابن عمير وأبو دُجَانة ، حتى كَثُرت به الجراحة، جعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: « مَنْ رجلٌ يشرِى نفسه؟ » فوثب فئة من الأنصار خمسة ، منهم عُمارة بن زياد بن السَّكن، فقاتل حتى أُثبِت ، وفاءت فئة من المسلمين حتى أجهضوا أعداء الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعُمارة بن زياد : ادْنُ منِّى ، حتى وسّده رسول الله صلى الله عليه وآله قدَمه ، وإنّ به لأربعة عشر جُرْحاً حتى مات ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يذمُر النّاس ويحضّهم عَلَى القتال ، وكان رجالٌ من المشركين قد أذْلَقُوا[1] المسلمين بالرّمى: منهم حبّان ابن العرِقة وأبو أسامة الجُشمِىّ ، فجعل النبى صلى الله عليه وآله يقول لسعد : « ارم فداك أبى وأمّى ! » فرمى حبّان بن العرقة بسهم فأصاب ذَيْل أمّ أيمن ، وكانت جاءت يومئذ تسقِى الجرحى ، فقلبها ، وانكشف ذَيلُها عنها ، فاستغرب حبّان بن العرقة ضحكا، وشقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدفع إلى سعد بن أبى وقاص سهما لا نصلَ له ، وقال : ارمِ به ، فرمى فوضع السّهم فى ثغرة نحر حبّان ، فوقع مستلقياً ، وبدت عورته . قال سعد : فرأيت النبىّ صلى الله عليه وآله ضحِك يومئذ حتى بدت نواجذه ، وقال : استقاد لها سعد، أجاب الله دعوتَك ، وسدّد رميّتك ، ورمى يومئذ مالك بن زهير الجُشمِىّ أخو أبى أسامة الجُشَمِىّ المسلمين رمياً شديدا ، وكان هو وريّان بن العرقة قد أسرعَا فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأكثرا فيهم القتل يستتران بالصّخْر ، ويرميان ،

(١) أذلقوهم : أوجعوهم .

فبيناهم على ذلك أبصر سعد بن أبى وقّاص مالكَ بن زهير يرمِى من وراء صخرة قدرمى، وأطلع رأسَه ، فيرميه سعد ، فأصاب السَّهمُ عينه ، حتى خرج من قَفَاه ، فترى[1] فى السماء قامة ، ثم رجع فسقط ، فقتله الله عزّ وجل .

قال الواقدىّ : ورمى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن قوسِه يومئـذ حتى صارت شَظَايا ، فأخذها قتادة بن النعمان ، وكانت عنـده ، وأصيبت يومئذ عين قتَادة حتى وقعت على وَجْنَتِه . قال قتادة : فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقلت : يارسولَ الله، إن تحتى امرأة شابّة جميلة ، أحبّها وتحبُّنى ، وأنا أخشى أن تقـذر مكان عينىّ ، فأخـذها رسولُ الله صـلى الله عليه وآله فردّها وانصرف بها ، وعادت كما كانت ، فلم تضرب عليـه ساعة من ليل ونهار ، وكان يقول بعد أن أسنّ : هى أقوى عينىّ ـ وكانت أحسنهما .

قال الواقدىّ : وباشر رسولُ الله صلّى الله عليه وآله القتالَ بنفسه ، فرمى بالنّبل حتى فنيت نبلُه ، وانـكسرت سِيَةُ قوسِه ، وقبل ذلك انقطع وتره ،وبقيَتْ فى يده قطعة تـكون شبراً فى سِيَة القوس ، فأخذ القوس عُـكّاشة بن مِحْصن يُوتِره له ، فقال : يارسولَ الله ، لايبلغ الوتر ، فقال مدّه يبلغ ، قال عُـكّاشة : فوالذى بعثه بالحقّ لمددته حتى بلغ،وطويت منه ليتين أو ثلاثة على سِيَة القوس ، ثمّ أخذَه رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فما زال يرامى القوم ، وأبو طلحه أمامه يستره مترساً عنه ، حتى نظرت إلى سيةقوسه قد تحطّمتْ، فأخذها قتادة بن النعمان .

قال الواقدىّ : وكان أبو طلحةَ يوم أُحُد قد نَثَلَ كِنانته[2] بين يدى النبى صلى الله عليه وآله ، وكان رامياً ، وكان صَيّتاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لصَوْتُ أبى طلحة فى الجيش خيرٌ من أربعين رجلا » ، وكان فى كنانته خمسون سهما نثلها بين يدى

(١) ا : فتراءى » .

(٢) نثل كنانته : أخرج ما فيها .

رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وجعل يصيح : نفسى دون نفسك يارسول الله ! فلم يزل يرمى بها سهماً سهماً ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يطلع رأسه من خلف أبى طلحة بين أذنِه ومنكبه ، ينظر إلى مواقع النَّبْل حتى فنيت نبلُه ، وهو يقول : نحرِى دون نحرِك! جعلنى الله فداك ! قالوا : إنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله ، ليَأخذُ العود من الأرض فيقول : ارمِ ياأبا طلحة ، فيرمى به سهما جيِّدا .

قال الواقدىّ : وكان الرُّماة المذكورون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله جماعة : منهم سعد بن أبى وقّاص ، وأبو طلحة ، وعاصم بن ثابت ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، والمقداد بن عمرو ، وزيد بن حارثة ، وحاطب بن أبى بَلْتعة ، وعُتْبة بن غَزْوان ، وخِراش ابن الصِّمّة ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وبِشْر بن البَرَاء بن معرور ، وأبو نائلة مَلْكان ابن سلامة ، وقتادة بن النعمان .

قال الواقدىّ : ورمى أبو رهْمٍ الغِفارىّ بسهم فأصاب نحرَه ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فبصق عليه ، فبرأ ، فكان أبو رهم بعد ذلك يسمى المنحور .

***

وروى أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد اللغوىّ ، غلام ثعلب ، ورواه أيضا محمد ابن حبيب فى أماليه ، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لما فرّ معظمُ أصحابه عنه يوم أُحُد ، كثرت عليه كتائب المشركين ، وقصدته كتيبة من بنى كنانة ، ثم من بنى عبد مناة بن كنانة ، فيها بنو سفيان بن عُوَيف ؛ وهم : خالد بن سفيان ، وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان ، وغراب بن سفيان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ياعلىّ ، اكفِنِى هذه الكتيبة ، فحمل عليها وإنها لتُقارب خمسين فارسا ؛ وهو عليه السلام راجل ، فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرّق عنه ثم تجتمع [1] عليه ، هكذا مرارا حتى قتل بنى سفيان بن عويف الأربعة ، وتمام العشرة منها ، ممن لايُعرف بأسمائهم ، فقال جبرئيل

(١) ا : « يجمع » .

عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله : يا محمد ، إن هذه المواساة ، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وما يمنعه وهو منّى وأنا منه! فقال جبرائيل عليه السلام : وأنا منكما . قال : وسمع ذلك اليوم صوت من قِبَل السماء ، لا يرى شخص الصارخ به ، ينادى مرارا :

لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فـتـَى إلا على

فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عنه ، فقال : هذا جبرائيل .

* * *

قلت : وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدّثين وهو من الأخبار المشهورة ، ووقفت عليه فى بعض نسخ مغازى محمد بن إسحاق ، ورأيت بعضها خالياً عنه ، وسألت شيخى عبد الوهاب بن سكينة رحمه الله عن هذا الخبر ، فقال : خبر صحيح ، فقلت : فما بالُ الصّحاح لم تشتمل عليه ؟ قال : أو كلّما كان صحيحا تشتمل عليه كتب الصحاح ؟ كم قد أهمل جامعو الصِّحاح من الأخبار الصحيحة !

قال الواقدىّ : وأقبل عثمانُ بن عبد الله بن المغيرة المخزومىّ يُحضِر[1] فرسا له أبْلَق ، يريد رسول الله صلى الله عليه وآله ، عليه لأمة كاملة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله متوجّه إلى الشِّعب وهو يصيح : لا نجوتُ إن نجوتَ ! فيقفُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويعثر بعثمان فرسُه فى بعض تلك الحُفَر التى حفرها أبو عامر الفاسق للمسلمين ، فيقع الفرس لوجهه ، وسقط عثمان عنه ، وخرج الفرس غائراً ، فيأخذه بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويمشى إليه الحارث بن الصمّة ، فاضطربا ساعة بالسيفين ، ثم يضرب الحارث رجله ، وكانت درعه مشمّرة فبرك ، وذفّف[2] عليه ، وأخذ الحارث

---

(١) يحضر فرساً : يجريه ، والحضر : ضرب من السير .
(٢) ذفف عليه : أجهز .

يومئذ سلَبه : درعاً جيّداً ، ومغفراً ، وسيفا جيّداً ، ولم يسمع بأحد من المشركين سلب يومئذ غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وآله ينظر إلى قتالهما ، فسأل عن الرجل ، قيل : عثمان بن عبد الله بن المغيرة ، قال : الحمدُ لله الذى أحانه[1] ، وقد كان عبد الله بن جحش أسره من قبل ببطن نخلة ، حتى قدم به على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فافتدى ورجع إلى قريش ، وغزا معهم أحداً ، فقتل هناك ، ويرى مصرع عثمان عبيد بن حاجز العامرى أحدُ بنى عامر بن لؤىّ ، فأقبل يعدو كأنه سبع ، فيضرب حارث بن الصّمة ضربةً على عاتقه ، فوقع الحارث جريحا حتى احتمله أصحابه ، ويقبل أبو دجانة على عبيد بنْ حاجز ، فتناوشا ساعة من نهار ، وكلّ واحد منهما يتقى بالدرَقة سيف صاحبه ، ثم حمل عليه أبو دُجَانة فاحتضنه ، ثم جلد به الأرض ، وذبحه بالسيف كما تذبح الشاة ، ثم انصرف ، فلحق برسول الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : ويروى أن سهل بن حُنيف ، جعل ينضح بالنبل عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : نبِّلوا سهلا[2] فإنه سهل ، ونظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبى الدرداء ، والناس منهزمون فى كلّ وجه ، فقال : نعم الفارس عُويمر ؛ غير أنه لم يشهد أحُدا !

قال الواقدىّ : وروى الحارث بن عبيد الله بن كعب بن مالك ، قال : حدثنى من نظر إلى أبى سَبْرة بن الحارث بن علقمة ، ولقى أحد المشركين ، فاختلفا ضربات ، كلّ ذلك يرُوغ أحدهما عن الآخر ، قال : فنظر الناس إليهما كأنهما سبُعان ضاريان يقفان مرّة ويقتلان أخرى ، ثم تعانقا ، فوقعا إلى الأرض جميعا ، فعلاه أبو سَبْرة فذبحه بسيفه كما تذبح الشاة ، ونهض عنه فيقبل خالد بن الوليد وهو على فرس أدهم أغرّ محجّل ، يجرّ قناة طويلة ، فطعن أبا سبرة من خلفه ، فنظرت إلى سنان الرمح خرج من صدره ،

---

(١) أحانه : أهلكه .

(٢) نبلوا سهلا ؛ أى أعطوه النبل .

ووقع أبو سَبْرة ميّتاً ، وانصرف خالد بن الوليد ، يقول : أنا أبو سليمان !

قال الواقدىّ : وقاتل طلحة بن عبيد الله يومئذ عن النبىّ صلى الله عليه وآله قتالا شديداً ، وكان طلحة يقول : لقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله حيث انهزم أصحابه ، وكثر المشركون ، فأحدقوا بالنبىّ صلى الله عليه وآله من كلّ ناحية ، فما أدرى أقوم من بين يديه أو من ورائه؟ أم عن يمينه أم شماله ؟ فأذبّ بالسيف عنه هاهنا وهاهنا حتى انكشفوا ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ يقول لطلحة : «لقد أوجب» وروى : « لقد أنحَب » أى قضى نذره .

قال الواقدىّ : وروى أنّ سعد بن أبى وقاص ذكر طلحة فقال : يرحمه الله ! إنه كان أعظَمنا غناء عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد ،قيل : كيف ياأبا إسحاق ؟ قال : لزم النبى صلى الله عليه وآله وكُنا نتفرق عنه ، ثم نثوب إليه ، لقد رأيته يدورُ حول النبى صلى الله عليه وآله يتَرّس بنفسه .

قال الواقدىّ : وسئِل طلحة : ياأبا محمد ، ماأصاب إصبَعك ؟ قال : رَمى مالك بن زهير الجشمىّ بسهم يريدُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم — وكان لايخطى رميّته — فاتقيتُ بيدِى عن وجْهِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصاب خِنْصرِى فشُلّ .

قال الواقدىّ وقالوا : إنّ طلحة قال لما رمى : حَسّ[1] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لوقال : « بسم الله لدخل الجنة ، والناس ينظرون [إليه][2] ،منْ أحبّ أن ينظر إلى رجل يمشى فى الدنيا وهو من أهل الجنّة ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله ، طلحة ممنْ قضى نحبه[3] .

---

(١) حس ، بالبناء على الكسر ؛ كلمة يقولها من يفجؤه ما يؤلمه ، ومنه قولهم : ضرب فما قال : حس » .
(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣١٨ .
(٣) فى اللسان : «طلحة ممن قضى نحبه» النحب : النذر ، كأنه ألزم نفسه أن يصدق الأعداء فى الحرب فوفى به ولم يفسخ ، وقيل : هو النحب الموت ، كأنه يلزم نفسه أن يقاتل حتى يموت » .

قال الواقدىّ : وكان طلحة يحدّث يقول : لمّا جال المسلمون تلك الجوْلة ، ثم تراجعوا أقبل رجل من بنى عامر بن لؤىّ يدعى شيبة بن مالك بن المضرّب ، يجرّ رمحه ، وهو على فرس أغرّ كميت مدجّجا فى الحديد ، يصيح : أنا أبو ذات الودع ، دلّونى على محمّد ، فأضرب عرقوب فرسه ، فاكتسعت(١) [به](٢)، ثم أتناول رمحه ، فوالله ما أخطأت به عن حَدَقته ، نخار كما يخور الثور ، فما برحت به واضعا رجلى على خدّه حتى أزرْتُه شَعُوب(٣) .

قال الواقدىّ : وكان طلحة قد أصابته فى رأسه المصلّبة ضربه رجل من المشركين ضربتين ، ضربة وهو مقبل ، وضربه وهو معرِض عنه ، وكان نَزَف منها الدم ، قال أبو بكر : جئت النبى صلّى الله عليه وسلم يوم أُحد ، فقال : عليك بابن عمّك ، فأتى طلحة بن عبيد الله ، وقد نزف الدم ، فجعلت أنضحُ فى وجهه الماء وهو مغشىٌّ عليه ، ثم أفاق ، فقال :مافعل رسولُ الله صلى الله عليه وآله؟ فقلت : خيرا، هوأرسلنى إليك،فقال: الحمد لله ، كلّ مصيبةٍ بعده جَلَل .

قال الواقدىّ : وكان ضرار بن الخطّاب الفهْرىّ يقول : نظرتُ إلى طلحة بن عبيد الله قد حلق رأسه عند المروة فى عُمرة ، فنظرت إلى المصلّبة فى رأسه ، فكان ضرار يقول : أنا والله ضربتُه ، هو استقبلنى فضربته ، ثم أكرّ عليه ، وقد أعرض ، فأضربه ضربة أخرى .

---

(١) كذا فى ا واللسان ، وفى ب والواقدى : « انكسعت » ، وفى اللسان : « وحديث طلحة يوم أحد : « فضربت عرقوب فرسه فاكتسعت به » ، أى سقطت » .
(٢) من اللسان .
(٣) فى اللسان : « وفى حديث طلحة : حتى أزرته شعوب ، أوردته المنية فزارها . وشعوب من أسماء المنيـة .

قال الواقدىّ : ولما كان يوم الجمل ، وقتلَ علىّ عليه السلام مَنْ قتل من الناس ، ودخل البصرة ، جاءه رجل من العرب ، فتكلّم بين يديه ، ونال من طلحة ، فزبَرَه علىّ عليه السلام ، وقال : إنّك لم تشهد يوم أحد ، وعِظَمَ غنائه عن الإسلام ، مع مكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فانكسر الرجلُ وسكت ، فقال له قائل من القوم : وما كان غناؤه وبلاؤه يرحمه الله يوم أُحُد ؟ فقال علىّ عليه السلام : نعم ، يرحمه الله ، لقد رأيته وإنه ليترّس بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّ السيوف لتغشاه ، والنَّبل من كلّ ناحية ؛ وما هو إلا جُنّة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، يقيه بنفسه ، فقال رجل : لقد كان يوم أُحُد يوماً قتِل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصابت رسول الله صلى الله عليه وآله فيه الجراحة ، فقال علىّ عليه السلام : أشهد لسمعت رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول : ليت أنّى غودرت مع أصحابى بنُحْص[1] الجبل ، ثم قال على عليه السلام : لقد رأيتُنى يومئذ وإنى لأذبّهم فى ناحية ، وإن أبا دُجَانة لفى ناحية يذبّ طائفة منهم ؛ حتى فرج الله ذلك كلّه ؛ ولقد رأيتُنى وانفردت منهم يومئذ فرقة خَشناء[2] ، فيها عكرمة بن أبى جهل ، فدخلت وسطهم بالسيف ، فضربت به ، واشتملوا علىّ حتى أفضيت إلى آخرهم ، ثم كررت فيهم الثانية ، حتى رجعت من حيث جئت ؛ ولكنّ الأجل استأخر ، ويقضى الله أمرا كان مفعولا .

قال الواقدىّ : وحدّثنى جابر بن سُليم عن عثمان بن صفوان ، عن عُمارة بن خزيمة ، قال : حدّثنى مَنْ نظر إلى الُحباب بن المنذر بن الجموح ، وإنه ليحُوشهم[3] يومئذ كما تحاش الغنم ؛ ولقد اشتملوا عليه حتى قيل : قد قتل ، ثم برز والسيف فى يده ، وافترقوا عنه ، وجعل يحمل على فرقة منهم ، وإنهم ليهربون منه إلى جَمْع منهم ،

---

(١) ب : « بحصن » ، وصوابه من ا والواقدى ، وفيه : قال ابن أبى الزناد : نحص الجبل أسفله » .
(٢) فرقة خشناء ، أى كثيرة السلاح . (٣) يحوشهم ، أى يجمعهم .

وصار الُحباب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ، وكان الُحباب يومئذ معلما بعصابة خضراء فى مِغْفَره .

قال الواقدىّ : وطلع يومئذ عبد الرحمن بن أبى بكر على فرس مدجّجاً لا يُرى منه إلا عيناه ، فقال : مَنْ يبارز ؟ أنا عبد الرحمن بن عتيق ! فنهض إليه أبو بكر ، وقال : أنا أبارزه ، وجرّد سيفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : شِمْ سيفَك ، وارجع إلى مكانك ، ومتّعنا بنفسك .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما وجدتُ لشماس بن عثمان شبها إلّا الُجنّة ، يعنى مما يقاتل عن رسول الله يومئذ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ يمينا ولا شمالا إلّا رأى شماس بن عثمان فى ذلك الوجه ، يذبّ بسيفه عنه ، حتى غشى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فترّسَ (١) بنفسه دونه ، حتى قتل ، فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما وجدت لشماس شبها إلّا الُجنّة » .

قال الواقدىّ : ولمّا ولى المسلمون حين عطف عليهم خالد بن الوليد مِنْ خلفهم ، كان أوّل مَن أقبل من المسلمين بعد التوْلية قيس بن محرث مع طائفة من الأنصار ، وقد كانوا بلغوا بنى حارثة فرجعوا سراعاً فصادفوا المشركين فى كثرتهم ، فدخلوا فى حَوْمتهم ، فما أفلت منهم رجل حتى قُتِلوا كلهم ، ولقد ضاربهم قيس بن مِحْرث ، فامتنع بسيفه حتى قتل منهم نفرا ، فما قتلوه إلا بالرّماح ، نظموه ، ولقد وجد به أربع عشرة طعنة جائفة (٢) وعشر ضربات بالسيف .

قال الواقدىّ : وكان عباس بن عبادة بن نَضْلة المعروف بابن قَوْقل ، وخارجة بن

---

(١) ترس بنفسه ، أى جعل نفسه له كالترس .

(٢) الطعنة الجائفة : التى تبلغ الجوف ، وفى الواقدى : « قد جافته » .

زيد بن أبى زهير ، وأوس بن أرقم بن زيد ، وعبّاس رافع صوته يقول: يامعشرَ المسلمين، الله ونبيّكم ! هذا الذى أصابكم بمعصية نبيّكم ؛ وعدَكم[1] النصر فما صبرتم. ثم نزع مِغْفره عن رأسِه ، وخلع دِرْعه وقال لخارجة بن زيد : هل لك فى دِرْعِى ومِغْفَرِى؟ قال خارجة: لا ، أنا أريد الذى تريد ، فخالطوا القوم جميعا ، وعبّاس يقول : ما عذرُنا عند ربّنا إن أصيب نبيُّنا ومنّا عينٌ تطرف ! قال : فيقول[2] خارجة: لاعذرَ لنا والله عند ربّنا ولا حُجّة، فأمّا عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السُّلَمِىّ ، ولقد ضربه عباس ضربتيْن ، فجرحه جرحيْن عظيمين ، فارتُثّ يومئذ جريحا ، فمكث جريحا سنة ، ثم استبلّ. وأخذَتْ خارجة ابن زيد الرماح ، فجرح بضعة عشر جرحاً ، فمرّ به صفوان بن أميّة ، فعرفه فقال : هذا من أكابر أصحاب محمد ، وبه رَمَق ، فأجهز عليه . وقَتَلَ أوس بن أرقم، وقال صفوان: مَنْ رأى خبيب بن يساف ؟ وهو يطلبه فلا يقدر عليه . ومثّل يومئذ بخارجة ، وقال : هذا ممّن أغرى بأبى يوم بدر — يعنى أميّة بن خلف — وقال : الآن شفيتُ نفسى حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد ، قتلت ابن قوقل ، وقتلت ابن أبى زهير ، وقتلت أوس ابن أرقم .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومئذ : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقّه ؟ قالوا : وما حقُّه يارسول الله ؟ قال : يضرب به العدوّ ، فقال عمر : أنا يارسول الله، فأعرض عنه ، ثم عَرَضه رسول الله صلى الله عليه وسلّم بذلك الشَّرْط ، فقام الزُّبير، فقال: أنا ، فأعرض عنه ، حتى وجدَ[3] عمرو الزبير فى أنفسهما ، ثم عرضه الثالثة، فقام أبو دُجَانة ، وقال : أنا يارسول الله آخذه بحقّه ، فدفعه إليه . فصدق حين لقى به العدوّ، وأعطى السيف حقّه ، فقال أحدُ الرجلين — إمّا عمر بن الخطاب أو الزّبير : والله لأجعلنّ هذا الرجل الذى أعطاه السيف ومنَعنِيه من شأنى ، قال : فاتّبعته ، فوالله ما رأيت أحداً قاتل أفضلَ

(١) ا : « فيوعدكم » . (٢) الواقدى : « يقول » . (٣) أى غضبا .

من قتاله ، لقد رأيتُه يضرب به حتى إذا كلّ عليه وخاف ألّا يُحيك [(١)] عمَد به إلى الحجارة، فشحذه ، ثم يضرب به العدوّ ، حتى يردّه [(٢)] كأنّه مِنجل، وكان حين أعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله السّيف مشى بين الصّفّين ، واختال فى مشيته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين رآه يمشى تلك المشية : إنّ هذه لَمِشْيَةٌ يُبغضها الله تعالى إلّا فى مثل هذا الموطن ، قال : وكان أربعة من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله يعلِمون فى الزّحوف، أحدُهم أبو دُجانة ، كان يعصب رأسه بعصابة حمراء ، وكان قومه يعلَمون أنّه إذا اعتصبَ بها أحسن القتال ، وكان علىٌّ عليه السلام يعلِم بصوفةٍ بيضاء ، وكان الزّبير يعلِم بعصابة صفراء ، وكان حمزة يعلِم بريش نعامة .

قال الواقدىّ : وكان أبو دُجانة يحدّث يقول : إنّى لأنظر يومئذ إلى امرأة تقذِف النّاس وتحُوشهم حَوْشاً منكرا ، فرفعتُ عليها السيف ، وما أحسبها إلا رجلا؛ حتى علمت أنّها امرأة ، وكرهت أن أضرب بسيف رسول الله صلى الله عليه وآله امرأة — والمرأة عمْرة بنت الحارث .

قال الواقدىّ : وكان كعب بن مالك يقول : أصابنى الجراح يوم أحُد ، فلمّا رأيت المشركين يمثّلون بالمسلمين أشدّ المُثَل وأقبحها ، قمتُ فتنحّيت عن القتلى، فإنّى لفى موضعى أقبَلَ خالد بن الأعلم العقيلىّ جامعَ اللأمة يحوش المسلمين ،يقول استوسقوا [(٣)] كما يستوسق جُرْب الغنم ،وهو مدجّج فى الحديد ، يصيح : يامعشرَ قريش ، لاتقتلوا محمدا،ائسروه أسراً حتى نعرّفه ماصنع ؛ ويصمُد له قُزْمان فيضربه بالسيف ضربة على عاتقِه رأيت منها سَحْره ، ثم أخذ سيفه وانصرف ، فطلع عليه من المشركين فارس ما أرى منه إلا عينيْه، فحمل عليه قُزمان ، فضربه ضربةً جزَله اثنين ، فإذا هو الوليد بن العاص بن هشام المخزومىّ ، ثم يقول كعب : إنى لأنظر يومئذ وأقول : مارأيتُ مثل هذا الرجل أشجع

---

(١) لا يحيك : لا يؤثر .   (٢) ا : « رده » .   (٣) استوسقوا : اجتمعوا .

بالسيف ، ثم ختم له بما ختم له به ! فيقال له : فما ختم له به ؟ فيقول : من أهل النار ، قتل نفسَه يومئذ .

قال الواقدىّ: وروى أبو النّمر الكنانىّ، قال : أقبلت يوم أُحُد وأنا من المشركين، وقد انكشف المسلمون ، وقد حضرتُ فى عشرة من إخوتى ، فقتل منهم أربعة ؛ وكان الريح للمسلمين أوّل ماالتقينا،فلقد رأيتُنى وانكشفنا مولّين ، وأقبل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على نهب العسكر،حتى بلغت الجمّاء ، ثم كرّت خيلنا ، فقلت : والله ما كرّت الخيلُ إلا عن أمر رأته ، فكررنا على أقدامنا كأنّنا الخيل ، فنجِد القوم قد أخذ بعضُهم بعضاً ، يقاتلون على غير صفوف ، مايدرى بعضهم مَنْ يضرب ، وما للمسلمين لواء قائم ، ومع رجل من بنى عبد الدار لواء المشركين ، وأنا أسمع شعار أصحاب محمد بينهم : « أمِتْ أمِتْ »، فأقول فى نفسى: ما «أمت» ؟ وإنّى لأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وإنّ أصحابه محدقُون به ، وإنّ النّبل ليمرّ عن يمينه ويساره ، ويقع بين يديه ، ويخرج من ورائه ، ولقد رميت يومئذ بخمسين مِرْماة ، فأصبت منها بأسهم بعض أصحابه ، ثم هدانى الله إلى الإسلام .

قال الواقدى : وكان عَمْرو بن ثابت بن وَقْش شاكّاً فى الإسلام،وكان قومُه يكلّمونه فى الإسلام ، فيقول : لو أعلم ماتقولون حقا ماتأخّرتعنه ، حتى إذا كان يوم أحُد بدَا له الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلّم بأحُد ، وأخذ سيفَه وأسلم ، وخرج حتى دخل فى القوم ، فقاتل حتى أثبِت [١] ، فوجِد فى القتلى جريحا ميّتا ، فدنوْا منه وهو بآخر رَمق، فقالوا:ماجاء بك ياعمرو ؟ قال : الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله، وأخذت سيفى وحضرت فرزقنى الله الشهادة ، ومات فى أيديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إنّه لمن أهل الجنّة » .

---

(١) أثبت ، أى جرح .

قال الواقديّ : فكان أبو هُريرة يقول ، والناس حوله : أخبروني برجل يدخل الجنّة لم يصلّ لله تعالى سجدة ؟ فيسكت النّاس، فيقول أبو هريرة: هو أخو بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقْش .

قال الواقديّ : وكان مخيرق اليهوديّ من أحبار يهود ، فقال يومَ السَّبْت ورسولُ الله صلى الله عليه وسلّم بأحُد : يامعشرَ يهود ، والله إنّكم لتعلمون أنّ محمّداً نبيّ ، وأنّ نصره عليكم حقّ . فقالوا : ويحك ! اليوم يوم السبت ، فقال : لا سبْت ، ثم أخذ سلاحه وحضر مع النبي صلى الله عليه وسلّم ، فأصِيب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « مخيرق خير يهود » .

قال الواقديّ : وكان مخيرق قال حين خرج إلى أحُد : أن أصِبت فأموالى لمحمّد يضعُها حيث أراه الله فيه ، فهى عامّة صدقات النبيّ صلّى الله عليه وسلم .

قال الواقديّ : وكان حاطب بن أميّة منافقا، وكان ابنه يزيد بن حاطب رجلَ صِدْق ، شهد أحُداً مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فارتُثّ(١) جريحا ، فرجع به قومه إلى منزله ، قال: يقول أبوه وهو يرى أهلَ الدّار يبكون عنده : أنتم والله صنعتم هذا به ، قالوا : كيف ؟ قال : أغررتموه من نفسِه حتى خرج فقتِل ، ثم صرتم معه إلى شىء آخر تعِدُونه جنّة ، يدخل فيها حبّة من حرْمل ، قالوا : قاتلك الله ! قال هو ذاك ، ولم يقرّ بالإسلام (٢) .

قال الواقديّ : وكان قزمان عَسِيفا(٣) من بنى ظَفَر، لايدرى ممّن هو، وكان لهم محبّاً،

---

(١) ارتث : حمل من المعركة جريحاً وبه رمق .

(٢) الخبر فى ابن هشام ٣ : ٣٧ عن عاصم بن عمر بن قتادة : « أن رجلا منهم كان يدعى حاطب ابن أمية بن رافع ، وكان له ابن يقال له زيد بن حاطب ؛ أصابته جراحة يوم أحد ؛ فأتى به إلى قومه وهو بالموت ، فاجتمع إليه أهل الدار ؛ فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء : أبشر يابن حاطب بالجنة ، قال : وكان حاطب شيخا قد عسا (أى كبر) فى الجاهلية ، فنجم يومئذ نفاقه ، فقال : بأى شىء تبشرونه ! أبجنة من حرمل ! غررتم والله هذا الغلام من نفسه !

(٣) عسيفاً ، أى أجيراً .

وكان مقلًا ولا ولد له ولا زوجة ، وكان شجاعا يُعرف بذلك فى حروبهم التى كانت تكون بينهم ، فشهد أحداً ، وقاتل قتالا شديدا ، فقتل ستة أو سبعة ، فأصابته الجِراح فقيل للنبى صلى الله عليه وسلم : إن قزمان قد أصابته الجِراح ، فهو شهيد ، فقال : بل من أهلِ النّار ، فجاءوا إلى قزمان ، فقالوا : هنيئا لك أبا الغيداق الشهادة ! فقال : بِمَ تبشّروننى ! والله ماقاتلنا إلّا على الأحساب ، قالوا : بشّرناك بالجنة ، قال حبّة والله من حَرْمل ، إنّا والله ماقاتلنا على جَنّة ولا على نار ، إنما قاتلنا على أحسابنا ، ثمّ أخرج سهما من كنانته ، فجعل يتوجَّأ بِه نفسه ، فلما أبطأ عليه المِشْقَص ، أخذ السيف ، فاتّكأ عليه ، حتى خرج من ظهره ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وآله فقال : « هو من أهل النار » .

قال الواقدىّ : وكان عمرو بن الجموح رجلًا أعرج ، فلمّا كان يوم أُحُد ، وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبىّ صلى الله عليه وسلّم المشاهد أمثال الأسد ، أراد قومُه أن يحبسوه ، وقالوا : أنت رجل أعرَج ، ولا حرج عليك ، وقد ذهب بنوك مع النبىّ صلى الله عليه وسلّم قال : بخ ! يذهبون إلى الجنَّة وأجلس أنا عندكم ! فقالت هند بنت عمرو بن حزام امرأته : كأنّى أنظر إليه موليّاً قد أخذ دَرَقته ، وهو يقول : اللهمّ لا تردّنى إلى أهلى ، فخرج ولحقه بعضُ قومه يكلّمونه فى القعود ، فأبى وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال : يارسولَ الله ، إنّ قومِى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك ، والله إنّى لأرجو أن أطأ بعرْجتى هذه فى الجنة ، فقال له : أمّا أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك ، فأبى ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلّم لقومه وبنيه : لا عليكم أن تمنعوه ، لعلّ الله يرزقه الشهادة ؛ فخلُّوا عنه . فقتِل يومئذ شهيدا . وكان أبو طلحة يحدّث ، يقول : نظرت إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون ، ثم ثابوا وهو فى الرّعيل الأوّل ، لكأنّى أنظر إلى ضِلعه وهو يعرُج فى مشيته ، وهو يقول : أنا والله مشتاق إلى الجنّة ، ثم أنظر إلى ابنه يعدُو فى أثره ، حتى قُتِلا جميعا .

قال الواقدىّ ، وكانت عائشة خرجت فى نسوة تستروح الخبر ، ولم يكن قد ضُرِب الحجاب يومئذٍ ، حتى كانت بمنقطع الحرّة وهى هابطة من بنى حارثة إلى الوادى ، لقيتْ هنداً بنت عمرو بن حزام ، أخت عبد الله بن عمرو بن حزام ، تسوق بعيراً لها ، عليه زوجها عمرو بن الجموح ، وابنها خلّاد بن عمرو بن الجموح ، وأخوها عبدُ الله بن عمرو بن حزام[1] أبو جابر بن عبد الله ، فقالت لها عائشة : عندكِ الخبر ، فما وراءكِ ؟ فقالت هند : خير ، أمّا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فصالح ، وكلّ مُصيبة بعده جَلَل ، واتّخذ الله من المؤمنين شهداء : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً ﴾ .

ـ قلت : هكذا وردت الرواية ، وعندى أنها لم تقل كلّ ذلك ، ولعلها قالت : « وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ » ، لا غير ، وإلّا فكيف يواطىء كلامُها آية من كلام الله تعالى أنزلت بعد الخندق والخندق بعد أحد ! هذا من البعيد جدًّا ـ

قال : فقالتْ لها عائشة : فمَنْ هؤلاء ؟ قالت : أخى وابنى وزَوْجى قَتْلَى ، قالت : فأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلى المدينة أقبرُهم بها ، « حلْ حلْ » ، تزجُر بعيرها ، فبرك البعير ، فقالت عائشة : لثقل ماحُمّل ، قالت هند : ماذاك به ، لربّما حمل مايحمله البعيران ، ولكنى أراه لغير ذلك ، فزجرتْه فقام ، فلما وجهت به إلى المدينة برك ، فوجّهته راجعة إلى أُحُد ، فأسرع ، فرجعت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلّم فأخبرته بذلك ، فقال : إنّ الجمل لمأمور ، هل قال عمرو شيئا ؟ قالت : نعم ، إنه لما وجّه إلى أُحُد استقبل القبلة ، ثم قال : اللّهمّ لا تردّنى إلى أهلى ، وارزقنى الشهادة ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : فلذلك الجمل لايمضى ، إنّ منكم يامعشرَ الأنصار من لو أقسم على الله لأبرّه ، منهم عمرو بن الجموح ، ياهندُ ، مازالت الملائكة مظلّة على أخيك من لدن قُتِل إلى الساعة ، ينظرون أين يدفن ! ثم مكث رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى قبرهم ، ثم قال : ياهند ، قد ترافقوا فى الجنة

(١) الواقدى : « حرام » .

جميعا ؛ عمرو بن الجموح بعلك ، وخـلّاد ابنُك ، وعبد الله أخوك . فقالت هند : يا رسول الله ، فادع الله لى عسى أن يجعلنى معهم !

قال الواقدىّ : وكان جابر بن عبد الله ، يقول : اصطبح ناسٌ يوم أحُد الخمرَ ، منهم أبى ، فقتِلوا شهداء .

قال الواقدىّ : وكان جابرٌ يقول : أوّل قتيل من المسلمين يوم أحُد أبى ؛ قتله سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السُّلَمىّ ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ الهزيمة .

قال الواقدىّ : وكان جابر يحدّث ، ويقول : استشهد أبى ، وجعلتْ عمّتى تبكى ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ما يبكيها ! ما زالت الملائكة تظلّ عليه بأجنحتها حتى دُفِن .

قال الواقدىّ : وقال عُبيد الله بن عمرو بن حزام : رأيتُ فى النوم قبل يوم أحُد بأيام مبشّرَ بن عبد المنذر ، أحد الشهداء ببدر ، يقول لى : أنت قادم علينا فى أيّام ! فقلت : فأين أنت ؟ قال : فى الجنّة نسرح منها حيث نشاء ، فقلت له : ألم تقتل يوم بدر ؟ قال : بلى ، ثم أحييت ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هذه الشهادة يا جابر » .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحُد : ادفنوا عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح فى قبر واحد ، ويقال : إنهما وجدا وقد مُثّل بهما كلَّ مُثلة قطعت آرابهما[1] عضوا عضوا ، فلا تعرف أبدانهما . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ادفنوهما فى قبر واحد » ، ويقال : إنما أمر بدفنهما فى قبر واحد ، لما كان بينهما

(١) الأراب : جمع إرب ، بالكسر والسكون ، وهو العضو .

من الصفاء ، فقال : ادفنوا هذين المتحابَّين فى الدنيا فى قبر واحد .

وكان عبد الله بن عمرو بن حرام رجلاً أحمر أصلَع ، ليس بالطويل ؛ وكان عمرو بن الجموح طويلا ، فعُرفا ودخل السَّيل بعد عليهما ، وكان قبرهما مما يلى السّيل ، فحفِر عنهما ، وعليهما نمِرتان وعبد الله قد أصابه جرح فى وجهه ، فيدُه على وجهه[1] ، فأميطت يده عن جرحه ، فثعب[2] الدم ، فردت إلى مكانها فسكن الدّم .

قال الواقدىّ : وكان جابر بن عبد الله يقول : رأيت أبى فى حفرته ، وكأنه نائم ، وما تغيّر من حاله قليل ولا كثير ؛ فقيل له : أفرأيتَ أ كفانه ؟ قال : إنما كُفّن فى نمِرة[3] خُمِّر بها وجهُه ، وعلى رجليه الحرْمل فوجدنا النّمِرة كما هى ، والحرمل على رجليه كهيئته ، وبين ذلك وبين وقت دفنه ست وأربعون سنة ، فشاورهم جابر فى أن يطيّبه بمسك ، فأبى ذلك أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وسلم وقالوا : لا تحدّثوا فيهم شيئا .

قال : ويقال إنّ معاوية لما أراد أن يُجْرِىَ العين التى أحدثها بالمدينة ، وهى كظامة نادى مناديه بالمدينة : من كان له قتيل بأحُد فليشهد . فخرج النّاس إلى قتلاهم فوجدوهم رطابا يتثنَّوْن ، فأصابت المسحاةُ رِجْل رجلٍ منهم ، فثعَبت دما ، فقال أبو سعيد الخُدْرِىّ : لا ينكر بعد هذا منكر أبدا .

قال : ووُجد عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح فى قبر واحد ، ووُجد خارجة بن زيد بن أبى زهير وسعد بن الربيع فى قبر واحدٍ ، فأمّا قبرُ عبد الله وعمرو فحوّل ، وذلك أنّ القناة كانت تمرّ على قبرهما ، وأما قبر خارجة وسعد فترِك ، وذلك لأنّ مكانه كان معتزلا ، وسُوِّىَ عليهما التراب ، ولقد كانوا يحفِرون التّراب ، فكلّما حفروا قُتْرَةً من تُراب ، فاح عليهم المسك .

---

(١) ا : « جرحه » . (٢) ثعب الدم : سال .
(٣) النمرة : بردة من صوف .

قال : وقالوا : إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال لجابر : ياجابر ، ألا أبشّرك ؟ فقال : بلَى ، بأبى وأمّى ! قال : فإنّ الله أحيا أباك ، ثم كلّمه كلاما ، فقال له : تمنّ على ربّك ماشئت ! فقال : أتمنّى أن أرجع فأُقتَل مع نبيّك ، ثم أحيا فأُقتل مع نبيّك ، فقال: إنّى قد قضيت أنّهم لايرجعون .

قال الواقديّ : وكانت نَسيبة بنت كعب أمّ عمارة بن غزيّة بن عمرو قد شهدت أحُداً، وزوجها[1] غزيّة وابناها عُمارة بن غزيْة وعبدالله بن زيد ، وخرجت ومعها شَنّ[2] لها فى أوّل النهار تريد تسقى الجرْحى ، فقاتلت يومئذ وأبلتْ بلاء حسنا ، فجرحت اثنىْ عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، فكانت أمّ سعد بنت سعد بن الرّبيع تحدّث ، فتقول : دخلتُ عليها ، فقالت لها : ياخالة ، حدّثينى خبَرك ، فقالت : خرجت أوّل النهار إلى أحُد ، وأنا أنظر مايصنع النّاس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيتُ إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وهو فى الصّحابة والدّوْلة والريح للمسلمين ، فلمّا انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ، فجعلت أباشر القِتال ، وأذبُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالسّيْف ، وأرمى بالقوس ، حتى خلصت إلى الجراح ، فرأيت على عاتقها جُرحا أجوفَ له غوْر ، فقلت : ياأمّ عُمارة ، مَنْ أصابك بهذا ؟ قالت : أقبل ابن قمِيئة ، وقدولّى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيح : دلّونى على محمدّ ، لانجوتُ إنْ نجا ! فاعترض له مُصعب بن عمير وناس معه ، فكنت فيهم، فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضرَبات ، ولكنّ عدو الله كان عليه دِرْعان . فقالت لها : يدكِ ماأصابها ؟ قالت : أصيبتْ يوم اليمامة ، لمّا جعلت الأعراب تنهزم بالنّاس ، نادت الأنصار : أخلصونا. فأخلصت الأنصار ، فكنت معهم ، حتى انتهينا إلى حديقة الموت ، فاقتتلنا عليها ساعة ، حتى قُتل أبو دُجانة على باب الحديقة ؛ ودخلتها

(١) كذا فى ا والواقدى ، وفى ب : « وتزوجها » .
(٢) الشن : القربة الخلق الصغيرة ، يكون فيها الماء أبرد من غيرها .

وأنا أريد عدوّ الله مُسيلمة ، فيعرض لى رجل ، فضرب يدى فقطعها ، فوالله ما كانت ناهية ، ولا عرّجت عليها ، حتى وقفت على الخبيث مقتولًا ، وابنى عبد الله بن زيد المازنىّ يمسحُ سيفه بثيابه ، فقلت : أقتلتَه ؟ قال : نعم ، فسجدتُ شكراً لله عزّ وجلّ وانصرفت .

قال الواقدىّ : وكان ضَمْرة بن سعيد يحدّث عن جدّته ، وكانت قد شهدت أحُدًا تسقى الماء ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يومئذ : لَمقام نَسيبة بنت كعب اليوم خيرٌ من مُقام فلان وفلان . وكان يراها يومئذ تقاتل أشدّ القتال ، وإنّها لحاجزة ثوبَها على وسطها ، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا .

* * *

قلت : ليت الرّاوى لم يكنِّ هذه الكناية ، وكان يذكرهما باسمهما حتى لا تترامى الظنون إلى أمور مشتبهة ! ومن أمانة المحدّث أن يذكر الحديث على وجهه ولا يكتم منه شيئا ، فما باله كتم اسم هذين الرجلين !

قال : فلما حضرت نَسيبة[1] الوفاة ، كنت فيمن غسّلها فعددت جراحها جرحا جرحا فوجدتها ثلاثة عشر ؛ وكانت تقول : إنى لأنظر إلى ابن قَمِيئة وهو يضربُها على عاتقها ـ وكان أعظم جِراحها ، لقد داوته سنة ـ ثم نادى منادى النبىّ صلى الله عليه وسلّم بعد انقضاء أحُد : إلى حمراء الأسد ! فشدّت عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزف الدّم ، ولقد مكثنا ليلتنا نكمّد الجراح ، حتى أصبحْنا ، فلمّا رجع رسولُ الله من حَمْراء الأسد ، لم يصلْ إلى بيته حتى أرسلَ إليها عبد الله بن كعب المازنىّ يسأل عنها ، فرجع إليه فأخبره بسلامتها ، فسرّ بذلك .

قال الواقدىّ : وحدثنى عبد الجبار بن عُمارة بن غزيّة ، قال : قالت أمّ عُمارة

(١) الواقدى : « فلما حضرتها » .

لقد رأيتُنى وانكشف النّاسُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فما بقىَ إلا نُفَيْرٌ مايتمُّون عشرة ، وأنا وأبنائى وزوجى بين يديه نذبّ عنه ، والناس يمرُّون عنه منهزمين ، فرآنى ولا تُرْس معى ، ورأى رجلا موليّا معه تُرْس ، فقال : ياصاحبَ التُّرس ، الق ترسك إلى مَنْ يقاتل . فألقى ترسه فأخذته ، فجعلت أترّس به على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل ، ولو كانوا رجّالة مثلنا أصبناهم ، فيقبل رجل على فرس ، فضربنى وترّست له ، فلم يصنع سيفه شيئا ، وولّى وأضرب عُرقوب فرسه ، فوقع على ظهره ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يصيح : يابن عُمارة ، أمّك أمّك ! قالت : فعاوننى عليه حتى أوْرَدْتُه شَعُوب [1] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، عن عبدالله بن زيد المازنىّ ، قال : جرحت يومئذ جرحا فى عضدِى اليسرى ، ضربنى رجل كأنه الرَّقْل ولم يعرّج علىّ ، ومضى عنّى ، وجعل الدم لا يرقأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : اعصب جُرحك ، فتقبِل أمّى إلىّ ، ومعها عصائب فى حَقْوَيْها قد أعدّتها للجراح ، فربطت جرحى والنبىّ صلى الله عليه وسلّم واقف ينظر ، ثم قالت : انهض يابنىّ ، فضارب القوم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : ومن يطيق ماتطيقين يا أمّ عُمارة ! قالت : وأقبل الرّجل الّذى ضربنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا ضارب ابنك ، فاعترضت أمّى له ، فضربت ساقه ، فبرَكَ ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلّم تبسم حتى بدت نواجذُه ، ثم قال : استقدتِ يا أمّ عُمارة . ثم أقبلنا نعلُوه [2] بالسلاح حتى أتينا على نفسه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى ظفّرك وأقرّ عينك من عدوّك ، وأراكِ ثأركِ بعينك !

---

(١) شعوب : اسم المنية .
(٢) ب : « نعله » ، والصواب ما أثبته من ا والواقدى .

قال الواقدىّ : وروى موسى بن ضمرة بن سعيد،عن أبيه ، قال : أتى عمر بن الخطاب فى أيام خلافته بِمُروط[1] كان فيها مِرْط واسع جيّد ، فقال بعضهم : إنْ هذا المِرْط بثمن كذا ، فلو أرسلتَ به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفيّة بنت أبى عبيد ، وذلكَ حِدْثان[2] مادخلت على ابن عمر ،فقال : بل أبعث به إلى مَنْ هو أحقّ منها،أمّ عمارة نسيبة بنت كعب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحُد يقول: ما التفتُّ يميناً وشمالاً إلّا وأنا أراها تقاتل دونى .

قال الواقدى:وروى مَرْوان بن سعيد بن المعلّى،قال : قيل لأمّ عمارة : ياأمّ عمارة،هل كنّ نساء قريش يومئذ يقاتلنْ مع أزواجهنّ ؟ فقالت : أعوذ بالله ، لا والله مارأيتُ امرأة منهنّ رمتْ بسهم ولا حَجَر ، ولـكن رأيت معهنّ الدّفاف والأكبار يضربن ويذكّرن القوم قتلَى بدر، ومعهنّ مكاحل ومراود،فـكلّما ولّى رجل أو تـكعكع ناولته إحداهنّ مرودا ومكحلة ، ويقلن : إنّما أنت امرأة ، ولقد رأيتهنّ ولّـين منهزماتٍ مشمّرات،ولها عنهنّ الرّجال أصحاب الخيل ، ونجوا على متون خيلهم ، وجعلْنَ يتبعنَ الرّجال على أقدامهنّ ، فجعلن يسقطن فى الطريق ، ولقد رأيت هندا بنت عتبة ، وكانت امرأة ثقيلة ، ولها خُلق ، قاعدة خاشيةً من الخيل ، ما بها مشى ، ومعها امرأة أخرى ، حتى كثر القوم علينا ، فأصابوا منّا ما أصابوا،فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ من قِبَل الرماة ومعصيتهم لرسول[3] الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدىّ : وحدثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن عبد الرحمن بن عبدالله بن أبى صعصعة، عن الحارث بن عبد الله ، قال : سمعتُ عبد الله بن زيد بن عاصم ، يقول : شهدتُ أحُداً

---

(١) المرط ، بالكسر : كساء من صوف أو خز أو كتان يؤتزر به ، وربما تلقيه المرأة على رأسها وتتلفع به وجمعه مروط .

(٢) حدثان الأمر : ابتداؤه .

(٣) ا : « الرسول » .

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمّا تفرّق الناس عنه ، دنوت منه ، وأمى تذبّ عنه ، فقال : يابن عُمارة ، قلت : نعم ، قال : ارمِ ؛ فرميتُ بين يديه رجلا من المشركين بحجَر ، وهو على فرس ، فأصيبت عين الفرس ، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعلت أعلوه بالحجارة ، حتى نضّدت عليه منها وقْرا ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم ينظر إلىّ ويتبسم ، فنظر إلى جرح بأمى على عاتقها ، فقال : أمّكَ أمّكَ ! اعصب جُرحها ، بارك الله عليكم من أهلِ بيت ! لمقامُ أمّك خيرٌ من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك - يعنى زوج أمه - خيرٌ من مقام فلان ، رحمكم الله من أهل بيت ! فقالت أمّى : ادع لنا الله يا رسول الله أن نرافقَكَ فى الجنة ، فقال : « اللهم اجعلهم رُفقائى فى الجنة » ؛ قالت : فما أبالى ما أصابنى من الدنيا .

قال الواقدىّ : وكان حنظلة بن أبى عامر تزوّج جميلة بنت عبد الله بن أُبىّ بن سَلول ، فأدخِلت عليه فى الليلة التى فى صبيحتها قتال أُحُد ، وكان قد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيت عندها ، فأذن له ، فلمّا صلّى الصبح غدا يريد النّبىّ صلّى الله عليه وسلم ؛ فلزمتْه جميلة ، فعاد فكان معها ، فأجْنَب منها ، ثم أراد الخروج ، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها ، فأشهدتهم أنه قد دخل بها ، فقيل لها بعد : لم أشهدتِ عليه ؟ قالت: رأيتُ كأنّ السماء فُرِجَتْ ، فدخل فيها ثم أطبقت . فقلت : هذه الشهادة ، فأشهدت عليه أنه قد دخل بى ، فعلِقت منه بعبد الله بن حنظلة . ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد ، فولدت له محمد بن ثابت ابن قيس : وأخذ حنظلة بن أبى عامر سلاحه ، فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلّم بأحُد ، وهو يسوّى الصفوف ، فلما انكشف المشركون ، اعترض حنظلة لأبى سفيان بن حَرْب ، فضرب عُرقوب فرسه ، فاكتسعت الفَرس ، ويقع أبو سفيان إلى الأرض ، فجعل يصيح : يا معشر قريش ، أنا أبو سفيان بن حرب ! وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فأسمع الصوت رجالا لا يلتفتون إليه من الهزيمة ، حتى عاينه الأسود بن شعوب ، فحمل على حنظلة بالرمح .

فأنفذه ، ومشى حنظلة إليه فى الرمح فضربه ثانية فقتله ، وهرب أبو سفيان يعدُو على قدميه ، فلحق ببعض قريش ، فنزل عن صدر فرسه ، وردف وراءه أبا سفيان ، فذلك قول أبى سفيان يذكر صبْره ووقوفه وأنه لم يفرّ ، وذكره محمد بن إسحاق[1] :

ولو شئتُ نجّتْنى كُميتٌ طِمِرّةٌ ... ولم أحمل النَّعماء لابن شَعُوب[2]
وما زال مُهرى مزجرَ الكلب فيهمُ ... لدن غُدْوَةً حتى دنت لغُروب[3]
أقاتلهم وأدّعى يَالَ غالبٍ ... وأدفعُهم عنّى برُكن صليبِ[4]
فبكّى ولا ترعَىْ مقالة عاذلٍ ... ولا تسأمى من عَبْرةٍ ونحيبِ
أباكِ وإخواناً لنا قد تتابعوا[5] ... وحقّ لهم من حسرة بنصيب
وسلّى الذى قد كان فى النفس إنّنى ... قتلتُ من النجّار كلَّ نجيب
ومن هاشم قَرْماً كريما ومُصعبا ... وكان لَدَى الهيجاء غير هيوب[6]
ولو أننى لم أشفِ نفسىَ منهمُ ... لكانت شجاً فى الصَّدْر ذات ندوبِ[7]
فآبوا وقدْ أودى الجلابيبُ منهم ... بهم كمد من واجمٍ وكئيب[8]
أصابهم من لم يكن لدمائهم ... كِفاء ولا فى سِنْخِهم بضريب[9]

قال الواقدىّ : مرّ أبو عامر الراهب على حنظلة ابنه وهو مقتول إلى جنب

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٢١ ، ٢٢ .
(٢) الطمرة : الفرس السريعة الوثب ، وفى الأصول : « النعمان » تحريف .
(٣) ابن هشام : « منهم » ، ومزجر الكلب ، يريد أنه قريب ، والضمير فى « دنت » يعود إلى الشمس .
(٤) صليب : شديد قوى .   (٥) ابن هشام : « وإخواناً له » .
(٦) القرم فى الأصل : الفحل الكريم من الإبل ، وعنى به هاهنا حمزة بن عبد المطلب . والمصعب : الفحل من الإبل أيضاً .
(٧) الندوب : آثار الجروح .
(٨) الجلاليب : الجماعات . وفى ابن هشام :

* بهمْ حَدَبٌ مِنْ مُعْبِطٍ وكَئيب *

(٩) فى ابن هشام : « ولا فى حطة بضريب » .

حمزة بن عبد المطلب ، وعبد الله بن جحش ؛ فقال : إن كنت لأحدرك هذا الرجل ـ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ من قبل هذا المصرع ، والله إن كنت لبرًّا بالوالد ، شريف الخلق فى حياتك ، وإنّ مماتك لمع سراة أصحابك وأشرافهم ، إنْ جزى الله هـذا القتيل ـ يعنى حمزة ـ خيرا ، أو جزى أحدا من أصحاب محمد خيرا ، فايجزك ، ثم نادى : يامعشرَ قريش ، حنظلة لا يمثّل به ، وإن كان خالفنى وخالفـكم ؛ فلم يألُ لنفسه فيما يرى خيرا ، فمثّل بالناس وترك حنظلة فلم يمثّل به .

وكانت هندُ بنت عُتْبة أوّلَ مَنْ مثّل بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمرت النساء بالمثل ، وبجَدْع الأنوف والآذان ، فلم تبق امرأة إلّا عليها مِعْضَدان [١] ومَسَكتان [٢] وخدَمتان [٣] إلّا حنظلَة لم يمثّل به ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّى رأيتُ الملائكة تغسل حنظلَة بن أبى عامر بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفِضّة » ؛ قال أبو أسَيْد الساعدىّ : فذهبنا فنظرنا إليه ، فإذا رأسه يقطرُ ماء ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأخبرتهُ ، فأرسل إلى امرأته فسألها ، فأخبرته أنّه خرج وهو جُنُب .

قال الواقدىّ : وأقبل وَهْب بن قابوس المُزنىّ ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عُقْبة بن قابوس بغنم لهما من جَبَل مُزَينة ، فوجد المدينة خِلْواً ، فسألا : أين الناس ؟ قالوا : بأحُد ، خرج رسول الله صلى عليه وسلّم يقاتل المشركين من قُريش ، فقال : لا نبتغى أثراً بعد عين ، فخرجا حتّى أتيا النبىّ صلى الله عليه وسلّم بأحُد ، فيجدان القوم يقتتلون ، والدّولة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه ، فأغارا مع المسلمين فى النَّهْب ، وجاءت الخيل من ورائهم ، خالد بن الوليد وعكْرمة بن أبى جهل ، فاختلط الناس ، فقاتلا أشدّ القتال ، فانفرقت فرقة من المشركين ، فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : مَن لهذه الفرقة ؟ فقال وهْب بن قابوس : أنا يارسول الله ، فقام فرماهم بالنَّبْـل حتّى انصرفوا ، ثم رجع فانفرقت فرقة

---

(١) المعضد : الدملج ، وهو حلى يلبس فى المعصم .
(٢) المسك : الأسورة من القرون والعاج .   (٣) الخدمة : الخلخال .

أخرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن لهذه الكتيبة ؟ فقال المُزنيّ : أنا يارسول الله ، فقام فذبّها بالسيف حتى ولّت ، ثم رجع فطلعت كتيبة أخرى ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : مَن يقوم لهؤلاء ؟ فقال المُزَنيّ : أنا يارسولَ الله فقال : قم وأبشِرْ بالجَنّة . فقام المزنيّ مسرورا يقول : والله لا أقيل ولا أستقيل ، فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسَّيْف ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه والمسلمون ، حتّى خرج من أقصى الكتيبة ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهمَّ ارحمه ، ثم يرجع فيهم ، فما زال كذلك وهم محدِقُون به ، حتى اشتملت عليه أسيافُهم ورماحهم ، فقتلوه فوجد به يومئذ عشرون طعنة بالرماح ، كلّها قد خلصت إلى مقتلى ، ومُثِّل به أقبحَ المثل يومئذ . ثم قام ابنُ أخيه ، فقاتل كنحو قتاله ، حتى قُتِل ، فكان عمر بن الخطاب يقول : إنّ أحبّ ميتةٍ أموتُ عليها لما مات عليها المزنيّ .

قال الواقديّ : وكان بلال بن الحارث المزنيّ يحدّث يقول : شهدنا القادسيّة مع سعد بن أبي وقّاص ، فلمّا فتح الله علينا ، وقسمت بيننا غنائمنا ، أسقط فتى من آل قابوس من مُزَينة ، فجئت سعدا حين فزع من نومه ، فقال : بلال ! قلت : بلال ، قال : مرحباً بك ، مَنْ هذا معك ؟ قلت : رجل من قومى ، قال : ما أنتَ يافتى من المزنيّ الذى قتِل يوم أحُد ! قال : ابنُ أخيه . قال سعد : مرحبا وأهلا ، أنعم الله بك عينا ! لقد شهدتُ من ذلك الرجل يوم أحُد مشهداً ماشهدتُ من أحدٍ قطّ ، لقد رأيتُنا وقد أحدق المشركون بنا من كلّ ناحية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلّم وسطنا ، والكتائب تطلع من كلّ ناحية ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى ببصره فى الناس يتوسّمهم ، ويقول : مَنْ لهذه الكتيبة ؟ كلّ ذلك يقول المُزَنيّ : أنا يارسول الله ، كلّ ذلك يردّ الكتيبة ، فما أنسى آخر مرة قالها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم

وأبشرْ بالجنّة ، فقام وقمت على أثره ، يعلم الله أنى أطلب مثل مايطلب يومئذ من الشهادة، نخضنا حَوْمتَهم ، حتى رجعنا فيهم الثانية ، فأصابوه رحمه الله ، ووددت والله أنى كنتُ أصِبت يومئذ معه ، ولـكن أجل(١) استأخر ، ثم دعا من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله ، وقال : اختر فى المقام عنـدنا أو الرجوع إلى أهلك ، فقال بلال : إنه يستحبّ الرجوع ، فرجع .

قال الواقدىّ : وقال سعد بن أبى وقاص : أشهدُ لرأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا على المُزَنىّ ،وهو مقتول ، وهو يقول : رضى الله عنك ، فإنى عنك راضٍ ؛ثم رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله قام على قدميه ، وقد ناله عليه السلام من ألم الجراح مانالَه ، وإنى لأعلم أنّ القيام يشقّ عليه على قبره ؛ حتى وُضع فى لحده وعليه بُرْدة ، لها أعلام حُمْر، فمدّ رسول الله صلى الله عليه وآله البردة على رأسه ، نخمره وأدرجه فيها طولًا، فبلغت نصف ساقيْه، فأمرنا فجمعنا الحرْمل ،فجعلناه على رجليه وهوفى لحدِه ،ثم انصرف فما حال أحبّ إلىّ من أن أموت عليها وألقى الله عليها من حال المزَنىّ .

قال الواقدىّ : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يوم أُحُد قد خاصم إليه يتيم من الأنصار أبا لبابة بن عبد المنذر فى عِذْقٍ بينهما، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلّم لأبى لُبابة ، فجزع اليتيم على العِذْق ،فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم العِذْق إلى أبى لُبابة لليتيم ، فأبى أن يدفعه إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول لأبى لبابة :ادفعه إليه ولك عِذْقٌ فى الجنّة ، فأبى أبو لبابة، وقال ثابت(٢) بن أبى الدّحداحة : يارسول الله؛ أرأيت إن أعطيتُ اليتيمَ عِذْقه من مالى ! قال : لك به عِذْق فى الجنة ، فذهب ثابت بن الدحداحة ، فاشترى من أبى لبابة ذلك العِذْق بحديقة نخل ، ثم ردّ العِذْق إلى الغلام ،

---

(١) الواقدى : « أجلى استأخر » . (٢) كذا فى الاستيعاب ١ : ٢٠٣ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ربَّ عذق مذلّل[1] لابن الدحداحة فى الجنة » ، فـكانت ترجى له الشهادة بذلك القول ، فقتِل يوم أحُد .

قال الواقدىّ : ويقبل ضرار بن الخطاب فارسا يجرّ قناةً له طويلة ، فيطعن عمرو بن معاذ ، فأنفذه ، ويمشى عمرو إليه حتى غُلب ، فوقع لوجهه ،قال : يقول ضرار : لاتعدمنّ رجلا زوّجك من الحور العين ، وكان يقول : زوّجت يوم أحُد عشرة من أصحاب محمد الحُـور العين .

قال الواقدىّ : فسألت شيوخَ الحديث : هل قتل عشرة ؟ قالوا : مابلغنا أنه قتل إلّا ثلاثة ، ولقد ضرب يومئذ عمر بن الخطاب حين جال المسلمون تلك الجولة بالقناة ، وقال: يابن الخطاب ، إنها نعمة مشكورة ، ما كنت لأقتلك .

قال الواقدىّ : وكان ضرار يحدّث بعد ، ويذكر وقعة أحد ، ويذكر الأنصار فيترحّم عليهم ، ويذكر غَناءهم فى الإسلام ، وشجاعتهم وإقدامهم على الموت ، ثم يقول: لقد قتل أشرافُ قومى ببدر ، فأقول : مَنْ قتل أبا الحكم ؟ فيقال[2] : ابن عفراء . من قتل أمية بن خلف ؟ فيقال : خُبيب بن يساف . من قتل عُقْبة بن أبى معيط ؟ فيقال : عاصم بن ثابت . من قتل فلان بن فلان ؟ فيسمى لى من الأنصار ، مَنْ أسرَ سهيل بن عمرو ؟ فيقال : مالك بن الدخشم . فلما خرجنا إلى أحـد ، وأنا أقول : إن قاموا فى صياصيهم فهى منيعة لاسبيل لنا إليهم نقيم أياما ثم ننصرف ، وإن خرجوا إلينا من صياصيهم أصبنا منهم ، فإنّ معنا عدداً أكثر من عددهم ، ونحن قوم موتورون ؛ خرجنا بالظُّعن يذكّرْننا قتلى بدر ، ومعنا كُراع ولا كُراع معهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، فقُضىَ لهم أن خرجوا ، فالتقينا ، فوالله ماقمنا لهم حتى هزمنا وانكشفنا مولّين ، فقلت

---

(١) العذق بالفتح : النخلة . وبالكسر : العرجون بما فيه من الشماريخ ، وقد ورد هذا الحديث فى اللسان « عذق » .

(٢) الواقدى : « فقال » .

فى نفسى : هـذه أشدّ من وقعة بدر ، وجعلت أقول لخالد بن الوليد : كُرَّ على القوم ، فيقول : وترى وجها نـكرّ فيـه ! حتى نظرت إلى الجبل الذى كان عليه الرّماة خاليا ، فقلت : ياأبا سليمان ، انظر وراءك ، فعطف عنان فرسه ، وكررنا معـه ، فانتهينا إلى الجبل ، فلم نجد عليه أحداً له بال ، وجدنا نُفَيْراً فأصبناهم ،ثم دخلنا العسكر،والقوم غارُّون ينتهبون عسكرنا ، فأقحمنا الخيل عليهم ، فتطايروا فى كلّ وجه ، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا ، وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحبّة ، فلا أرى أحدا، هربوا فما كان حلَب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها ،فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان،فصبرنا لهم ، وصبروا لنا ، وبذلوا أنفسهم حتى عَقَرُا فرسى ، وترجّلت فقتلت منهم عشرة ؛ ولقيت مِن رجُل منهمُ الموت الناقع ، حتى وجدتُ ريح الدم ، وهو معانقى مايفارقنى ، حتى أخذته الرماح من كل ناحية ، فوقـع . فالحمد لله الذى أكرمهم بيدى ، ولم يهنّى بأيديهم .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحُد : مَنْ له علم بذكوان ابن عبد قيس ؟ فقال علىّ عليـه السلام : أنا رأيت يارسولَ الله فارسا يركُض فى أثَره حتى لحقه ، وهو يقول : لانجوتُ إن نجوتَ ! فحمل عليه فرسه وذكوان راجـل ، فضربه وهو يقول : خذها وأنا ابن علاج ! فقتـله ، فأهويت إلى الفارس ، فضربت رجله بالسيف ، حتى قطعتها من نصف الفخِذ ، ثم طرحته عن فرسه فذففت عليه ، وإذا هو أبو الحـكم بن أخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثّقفىّ .

قال الواقدىّ : وقال علىّ عليه السلام : لما كان يوم أُحُد وجال الناس تلك الجوْلة أقبل أميّة بن أبى حذيفة بن المغيرة ، وهو دارع مقنّع فى الحديد مايرى منه إلّا عيناه،وهو يقول : يوم بيوم بدر ! فيعرض له رجل من المسلمين ، فقتله أميّة ؛ قال علىّ عليه السلام: وأصمِد له ، فأضربه بالسّيف على هامتِه ، وعليه بيضة ، وتحت البيضة مِغْفر ، فنبا سيفى ،

وكنت رجلا قصيرا ، ويضربنى بسيفه ، فأتقى بالدّرقة ، فلحج سيفه ، فأضربه ، وكانت درعه مشمّرة ، فأقطع رجليه ، فوقع وجعل يعالج سيفه ، حتى خلّصه من الدّرقة ، وجعل يناوشنى وهو بارك حتى نظرت إلى فَتْق تحت إبطه فأحُشّ فيه بالسيف ، فمال فمات ، وانصرفت .

قال الواقدىّ : وفى يوم أحُد انتمى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فقال : «أنا ابن العواتك » ، وقال أيضا :

أنا النبىّ لا كذبْ   أنا ابن عبد المطّلبْ

قال الواقدىّ : بينا عمر بن الخطاب يومئذ فى رهطٍ من المسلمين قعود ، مرّ بهم أنس بن النَّضْر بن ضمضم عمّ أنس بن مالك ، فقال : مايقعدكم ؟ قالوا : قُتِل رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم قام ، فجالد بسيفه حتى قتِل ، فقال عمر بن الخطاب : إنّى لأرجو أن يبعثه الله أمّةً وحده يوم القيامة ، وُجِد به سبعون ضربةً فى وجهه ما عرِف حتى عرفته أخته.

قال الواقدىّ : وقالوا : إنّ مالك بن الدُّخشم مرّ على خارجة بن زيد بن زهير يومئذ وهو قاعد ، وفى حُشْوَته (١) ثلاثة عشر جرحا كلّها قد خلصت إلى مقتل ، فقال له مالك : أما علمتَ أنّ محمدا قد قتل ! قال خارجة : فإن كان محمّد قد قتِل ، فإن الله حىٌّ لا يُقتل ولا يموت ، وإنّ محمّدا قد بلّغ رسالة ربّه ، فاذهب أنت فقاتل عن دينك .

قال : ومرّ مالك بن الدخشم أيضا على سَعْد بن الربيع ، وبه اثنا عشر جرحا كلّها قد خلصت إلى مقتل ، فقال : أعلمت أن محمدا قد قتل ! فقال سعد : أشهد أنّ محمدا قد بلّغ رسالة ربّه ، فقاتِلْ أنت عن دينك ، فإنّ الله حىٌّ لايموت .

---

(١) حشوة البطن : « أمعاؤه .

قال محمد بن إسحاق : وحدّثنى محمّد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صَعْصعة المازنىّ ، أخو بنى النجّار ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ : مَنْ رجلٌ ينظر مافعل سعد بن الربيع ، أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر يارسول الله مافعل ، فنظر فوجده جريحاً فى القتلى ، وبه رَمَق ، فقال له : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمرنى أن أنظر فى الأحياء أنت أم فى الأموات ، قال : أنا فى الأموات ، فأبلِغْ رسولَ الله صلى الله عليه وآله منّى السلام ، وقل له : إن سعد بن الرّبيع يقول : جزاك الله خيرا عنّا ماجزى نبيًّا عن أمّته وأبلغ قومَك السلام عنّى ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذرَ لكم عند الله أن يخلُص إلى نبيّكم ومنكم عين تطرُف ، قال : فلم أبرح عنده حتى مات ، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : اللهمّ ارضَ عن سعد بن الربيع .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عبد الله بن عمار ، عن الحارث بن الفُضَيل الخطمىّ ، قال : أقبل ثابت بن الدّحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع ، قد سقِط فى أيديهم ، فجعل يصيح : يامعشرَ الأنصار ، إلىّ إلىّ أنا ثابت بن الدحداحة ! إن كان محمد قد قُتِل ، فإنّ الله حىّ لا يموت ! قاتلوا عن دينكم ، فإنّ الله مظهركم وناصركم ؛ فنهض إليه نفر من الأنصار ، فجعل يحمل بمَنْ معه من المسلمين ، وقد وقفت لهم كتيبة خَشْناء(١) فيها رؤساؤهم : خالدبن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبى جهل، وضرار بن الخطاب، وجعلوا يناوشونهم، ثم حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه ، فأنفذه فوقع ميتا ، وقتل مَنْ كان معه من الأنصار ، فيقال : إن هؤلاء آخر من قتل من المسلمين فى ذلك اليوم .

وقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى يذكر يوم أحُد :

ألا ذرفتْ من مُقْلتيك دُمُوعُ وقد بان فى حبل الشَّباب قطوعُ(٢)

(١) كتيبة خشناء : كثيرة السلاح .

(٢) سيرة ابن هشام ٣ : ١٠٤ــ١٠٦ ، وفيه : « من حبل الشباب » .

وشطَّ بمَنْ تهوَى المزارُ وفرَّقتْ نوى الحىّ دارٌ بالحبيب فَجُوعُ
وليس لما ولّى على ذى صَبَابة (١) وإن طال تَذرافُ الدموع رجوعُ
فدعْ ذا ولكن هلْ أتى أمَّ مالكٍ أحاديثُ قومى والحديث يشيعُ !
ومُجْنبُنا جُرْداً إلى أهل يثرب عَنَاجيجَ فيها ضامرٌ وبديع (٢)
عشيّة سِرْنا من كَدَاء يقودُها ضَرورُ الأعادى للصديق نَفوع (٣)
يشدّ علينا كلّ زحف كأنّها غَدِيرٌ نضوح الجانبين نقيعُ (٤)
فلمّا رأونا خالطتْهم مهابةٌ وخامرهم رعبٌ هناك فظيعُ
فودّوا لو انّ الأرض ينشقّ ظهرُها بهم ، وصَبورُ القوم ثَمّ جَزُوع
وقد عرِّيتْ بيضٌ كأنّ وميضَها حريقٌ وشيكٌ فى الأباء سريع (٥)
بأيماننا نعلُو بها كلّ هامةٍ وفيها سمام للعدوّ ذريعُ
فغادرن قتلَى الأوس عاصبة بهمْ ضباعٌ وطير فوقهنّ وقوعُ
ومرّ بنو النّجّار فى كلّ تلْعةٍ بأثوابهم من وقعهنّ نجيعُ
ولولا علوّ الشّعب غادَرْن أحمداً ولكن علا والسمهرىّ شُرُوع (٦)
كما غادَرَتْ فى الكرّ حمزة ثاوياً وفى صدره ماضى الشّباة وقيعُ (٧)

وقال ابن الزّبعرَى أيضا من قصيدة مشهورة ، وهى:

---

(١) ابن هشام : « على ذى حرارة » .
(٢) جنبت الفرس ، إذا قدتها ولم تركبها . والجرد : جمع أجرد ، وهو العتيق من الخيل . والعناجيج: الطوال الحسان ، واحدها عنجوج . وانظر ابن هشام .
(٣) ابن هشام : « سرنا فى لهام » . (٤) النقيع : الماء البارد العذب .
(٥) الوميض : الضوء . والأباء : جمع أباءة ، وهى أجمة القصب .
(٦) الشعب : الطريق فى الجبل . والسمهرى : الرمح ، وشروع : مائل إلى الطعن .
(٧) شباة كل شىء : حده . ووقيع : محدد .

يا غرابَ البـين أسمعتَ فَقُلْ | إنما تندبُ أمراً قد فعِلْ (١)
إنَّ للخير وللشرِّ مدًى | وسواء قبر مثرٍ ومُقِلّْ (٢)
كلُّ خير ونعيم زائلٌ | وبنات الدّهر يلعبن بكلّْ
أبلغا حسّانَ عنّي آيةً | فقريض الشعر يشفِى ذا الغُلَلْ
كم ترى بالجسر من جُمْجمة | وأكفًّا قد أُتِرَّت ورِجِلْ (٣)
وسرابيلَ حسانٍ شُقِّقَتْ | عَنْ كُماةٍ غُودِرُوا فى المَنزَلْ (٤)
كَمْ قتلْنا من كريمٍ سيِّد | ماجدِ الجدَّين مقدام بَطَلْ
صادق النَّجْدةِ قَرْمٍ بارعٍ | غير مُلْطاطٍ لدى وقع الأسَلْ (٥)
فسلِ المِهراسَ مَنْ ساكنُه ؟ | من كراديس وهامٍ كالحجَلْ (٦)
ليت أشياخى ببدرٍ شهدُوا | جزَعَ الخزرج من وقع الأسَلْ
حين حطّت بِقُباء بَرْكَها | واستحرَّ القتل فى عبد الأشَلّْ (٧)
ثم خفُّوا عندذا كُمْ رُقَّصاً | رَقَص الحفّانِ تعْدُو فى الجبل (٨)

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩٦ ـ ٩٨ ، وروايته .

* إنَّمَا تَنْطِقُ شيئاً قَدْ فُعِلْ *

(٢) ابن هشام :

* وَكِلا ذلكَ وَجْهٌ وَقَبَلْ *

(٣) ابن هشام : « بالجر » ، أى الجبل . وأترت : قطعت .

(٤) المنزل : موضع النزال . (٥) رواية ابن هشام :

* غَيْرِ مِلْتَاثٍ لَدَى وَقْعِ الْأَسَلْ *

(٦) المهراس : ماء بجبل أحد ، والكراديس جمع كردوسة ، وهى جماعة الخيل . والحجل : طائر فى حجم الحمام ، ورواية ابن هشام :

* بيْنَ أقحَافٍ وَهَامٍ كالْحَجَلْ *

(٧) البرك : الصدر . واستحر القتل : اشتد ، وعبد الأشل ، أراد عبد الأشهل ، لحذف الهاء .

(٨) الرقص : ضرب من المشى السريع . والحفان : صغار النعام .

فقَتلْنَا النّصف من سَادَاتِهِمْ ... وَعَدَلْنَا مَيْل بدرٍ فاعْتدلْ

لا ألوم النَّفْس إلّا أننا ... لَوْ كَرَرْنا لفعَلْنا المُفْتَعَلْ

بسيوفِ الهند تَعْلُو هامَهُمْ ... تبرد الغَيْظَ وَيَشْفِينَ الغُلَلْ[١]

قلت : كثيرٌ من النّاس يعتقدون أن هذا البيت ليزيد بن معاوية ، وهو قوله : « ليت أشياخى » ، وقال مَنْ أكره التصريح باسمه : هذا البيت ليزيد ، فقلت له : إنما قاله يزيدُ متمثّلاً لمّا حُمِل إليه رأس الحسين عليه السلام ، وهو لابن الزّبعرَى ، فلم تسكن نفسه إلى ذلك ، حتى أوضحته له ، فقلت ألا تراه يقول : « جزع الخزرج من وقع الأسل » ، والحسين عليه السلام لم تحارب عنه الخزرج ، وكان يليق أن يقول : « جزع بنى هاشم من وقع الأسَل » ؛ فقال بعض من كان حاضرا : لعله قاله فى يوم الحرّة ! فقلت : المنقول أنه أنشدَه لما حمل إليه رأسُ الحسين عليه السلام ؛ والمنقول أنه شعر ابن الزّبعرَى ، ولا يجوز أن يترك المنقول إلى ماليس بمنقول .

وعلى ذكر هذا الشعر فإنى حضرت وأنا غلام بالنّظامية ببغداد فى بيت عبد القادر ابن داود الواسطى المعروف بالمحبّ ، خازن دار الكتب بها وعنده فى البيت باتكين الرومىّ الذى ولى إربل أخيرا وعنده أيضاً جعفر بن مكّى الحاجب ، فجرى ذكر يوم أحُد وشعرُ ابن الزبعرَى هذا وغيره ، وأنّ المسلمين اعتصموا بالجبل ، فأَصْعَدوا فيه ، وإن الليل حال أيضا بين المشركين وبينهم ، فأنشد ابن مكى بيتين لأبى تمام متمثلا .

لولَا الظّلام وقُلّةٌ عَلقوا بها ... باتتْ رِقابهمُ بغيرِ قِلَالِ[٢]

---

(١) رواية ابن هشام :

* عَلَلًا تَعْلُوهُمُ بَعْدَ نَهَلْ *

(٢) ديوانه ٣ : ١٣٩ ، من قصيدة يمدح فيها المعتصم ، ويذكر فتح الخرمية . وقلة الجبل : أعلاه ، وجمعه قلل وقلال .

فليشكروا جُنحَ الظَّلام ودَرْوَذًا   فهمُ لِدَرْوَذَ والظلامُ مُوالِى

فقال باتكين : لا تقل هذا ؛ ولكن قل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) وكان باتكين مسلما ، وكان جعفر سامحه الله مغموصاً عليه فى دينه .

تم الجزء الرابع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء الخامس عشر

---

(١) سورة آل عمران ١٥٢ .

فهرس الكتب*

	صفحة
١ ـ من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عن مسيره من المدينة إلى البصرة	٦
٢ ـ من كتاب له عليه السلام بعد فتح البصرة	٢٦
٣ ـ من كتاب له عليه السلام لشريح بن الحارث قاضيه	٢٧ ، ٢٨
٤ ـ من كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه	٣٢
٥ ـ من كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس وهو عامل أذربيجان	٣٣
٦ ـ من كتاب له عليه السلام إلى معاوية	٣٥
٧ ـ من كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا	٤١ ، ٤٤
٨ ـ من كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البجلى لما أرسله إلى معاوية	٤٥
٩ ـ من كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا	٤٧

(*) وهى الكتب والرسائل الواردة فى نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

	صفحة
أخبار علىّ عند مسيره إلى البصرة ورسله إلى الكوفة	٨ ـ ٢١
فصل فى نسب عائشة وأخبارها	٢١ ـ ٢٥
نسب شريح وذكر بعض أخباره	٢٨ ، ٢٩
جرير بن عبد الله البجلىّ عند معاوية	٣٨ ـ ٤٠
إجلاب قريش على بنى هاشم وحصرهم فى الشعب	٥٢ ـ ٦٤
القول فى المؤمنين والكافرين من بنى هاشم	٦٤ ، ٦٥
اختلاف الرأى فى إيمان أبى طالب	٦٥ ـ ٨٤
قصة غزوة بدر	٨٤ ـ ١٥٧
القول فى نزول الملائكة يوم بدر ومحاربتها المشركين	١٥٧ ـ ١٦٤
القول فيما جرى فى الغنيمة والأسارى بعد هزيمة قريش ورجوعها إلى قلة	١٦٥ ـ ١٩٩
القول فى تفصيل أسماء أسارى بدر ومن أسرهم	١٩٩ ـ ٢٠٥
القول فى المطعمين فى بدر من المشركين	٢٠٥ ـ ٢٠٧
القول فيمن استشهد من المسلمين ببدر	٢٠٧ ، ٢٠٨
القول فيمن قتل ببدر من المشركين وأسماء قاتليهم	٢٠٨ ـ ٢١٢
القول فيمن شهد بدراً من المسلمين	٢١٢ ، ٢١٣
قصة غزوة أحد	٢١٣ ـ ٢٨١

(*) هى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY